

أفريقيا منذ عام 1800

المجلس
الأعلى
للثقافة



المشروع القومي للترجمة

تأليف
رونالدو أوليفر - أنتوني أتمور

ترجمة
فريد جورج بوري

مراجعة
عبد الله عبد الرازق إبراهيم

948

المشروع القومى للترجمة

أفريقيا منذ عام ١٨٠٠

تأليف

رونالد أوليفر وأنتونى أتمور

ترجمة

فريد جورج بورى

مراجعة

عبدالله عبدالرازق إبراهيم



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٤٨
- أفريقيا منذ عام ١٨٠٠
- رونالد أوليفر وأنتونى أتمور
- فريد جورج بورى
- عبد الله عبد الرازق إبراهيم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

Africa Since 1800

Fifth Edition

By

Ronald Oliver & Anthony Atmore

© Cambridge university Press 1967-1972-1981-1994-2005

Published by the Press Syndicate of the University of Cambridge

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلالية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

7	تقديم المراجع
13	تمهيد
15	الفصل الأول: أفريقيا شمال خط الاستواء
33	الفصل الثاني: أفريقيا جنوب الصحراء
53	الفصل الثالث: انفتاح أفريقيا (١): من الشمال والشرق
	الفصل الرابع: انفتاح أفريقيا (٢): من المغرب
71	شمال غرب أفريقيا والقوى الأوروبية (١٨٠٠ - ١٨٣٠)
82	الفصل الخامس: غرب أفريقيا قبل عصر الاستعمار
99	الفصل السادس: غرب وسط أفريقيا (١٨٠٠ - ١٨٨٠)
113	الفصل السابع: شرق وسط أفريقيا (١٨٠٠ - ١٨٨٤)
	الفصل الثامن: جنوب أفريقيا (١٨٠٠ - ١٨٨٥)
129	النزاع بين البوير والبانانتو
143	الفصل التاسع: تقسيم أفريقيا نظريا (١٨٧٩ - ١٨٩١)
153	الفصل العاشر: تقسيم أفريقيا عمليا (١٨٩١ - ١٩٠١)
167	الفصل الحادي عشر: الحكم الاستعماري في أفريقيا المدارية
183	الفصل الثاني عشر: الحكم الاستعماري في أفريقيا الاستوائية
195	الفصل الثالث عشر: أفريقيا بين الحربين (١٩١٨ - ١٩٣٨)
209	الفصل الرابع عشر: شمال وشمال شرق أفريقيا (١٩٠٠ - ١٩٣٠)
227	الفصل الخامس عشر: جنوب أفريقيا (١٩٠٢ - ١٩١٩)
243	الفصل السادس عشر: آخر أعوام الحكم الاستعماري
	الفصل السابع عشر: الطريق إلى الاستقلال (١)
261	شمال وشمال شرق أفريقيا
	الفصل الثامن عشر: الطريق إلى الاستقلال (٢)
281	أفريقيا من الصحراء إلى الزمبيزي
	الفصل التاسع عشر: الطريق إلى الاستقلال (٣)
309	وسط أفريقيا

329	الفصل العشرون: الطريق الطويل إلى الديمقراطية في جنوب أفريقيا
353	الفصل الحادي والعشرون: سياسات أفريقيا المستقلة
373	الفصل الثاني والعشرون: الاقتصاديات والمجتمع في أفريقيا المستقلة
	الفصل الثالث والعشرون:
423	الخاتمة

تقديم المراجع

يعتبر كتاب أفريقيا منذ عام ١٨٠٠ للمؤلفين رونالد أوليفر وأنتوني أتمور من أحدث الكتب التي تعالج تاريخ القارة الأفريقية منذ مطلع القرن التاسع عشر ويستمر حتى الألفية الثالثة وبالتحديد عام ٢٠٠٣، وبالتالي فهو يعالج أحداثا ساخنة لا تزال تجرى على أرض القارة الأفريقية خاصة الأزمة في دارفور وغيرها من المشكلات التي تواجه القارة خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة والوضع الكوني الذي برز بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، فضلا عن أنه يناقش الآثار المدمرة للأمراض التي تجتاح القارة مثل الملاريا والإيدز، وأيضا الصراعات التي شنها سادة الحروب والذين يحاربون من أجل السيطرة على موارد القارة النادرة.

يقع الكتاب في ثلاثة وعشرين فصلا، يبدأ الفصل الأول تحت عنوان "أفريقيا شمال خط الاستواء"، ويعالج ضمن هذا الفصل بلاد ساحل البحر المتوسط ودول منطقة السودان ودول أرض الأشجار والغابة وحصار القوى الأوروبية.

وجاء الفصل الثاني تحت عنوان "أفريقيا جنوب الصحراء" ويعالج بلاد البانتو الغربيين والبانطو الشرقيين وتجارة بانطو أفريقيا، كما يتطرق إلى جنوب أفريقيا (البانتو والبوير) والساحل الشرقي الذي يضم العرب والسواحليين، ثم يتطرق إلى الحديث عن البرتغاليين في أفريقيا جنوب خط الاستواء ومدغشقر وظروف احتلالها.

جاء الفصل الثالث تحت عنوان "انفتاح أفريقيا من الشمال والشرق". يدور الحديث في هذا الفصل حول محمد علي وإعادة إحياء تجارة البحر الأحمر، والتوسع المصري في السودان، ومحمد علي والقوة الأوروبية، والخديو إسماعيل

(١٨٦٣-١٨٧٩) والسودان والمهدية (١٨٨٥-١٨٩٨) وإعادة توحيد أثيوبيا (١٨٨٥-١٨٨٩).

أما الفصل الرابع "انفتاح أفريقيا من الغرب" فيدور حول شمال غرب أفريقيا والقوى الأوروبية (١٨٠٠-١٨٣٠)، ثم يتطرق إلى الحديث عن الفرنسيين في الجزائر (١٨٣٠-١٨٧٩) والمغرب (مراكش ١٨٣٠-١٨٩٤) والسنوسية، وولاية تونس.

أما الفصل الخامس فيعالج "غرب أفريقيا قبل عصر الاستعمار" (١٨٠٠-١٨٧٥) ويدور حول جهاد الفولبي والجهاد السوداني الغربي وبدايات التدخل الأوروبي

الفصل السادس وعنوانه "غرب ووسط أفريقيا" (١٨٠٠-١٨٨٠) يدور حول البومبيروش البرتغاليين والمواناكا زمبي والأوفيمبونديو والشكوى والنيامويزي والعرب، كما يعالج الفصل الزعيم الأفريقي "تبيوتيب" ومنطقة الكونغو على وطريق نهر الكونغو.

الفصل السابع جاء تحت عنوان "شرق ووسط أفريقيا" ١٨٠٠-١٨٨٤، ويتطرق للحديث عن دخول السواحليين العرب إلى الداخل ثم دراسة النجوني والميرامبو والمنطقة الداخلية وشعوب كينيا وطرق تجارتها، مع التركيز على قصة ازدهار القوة العربية السواحلية في شرق أفريقيا مع دراسة تاريخية لجزيرة مدغشقر.

الفصل الثامن وعنوانه "جنوب أفريقيا ١٨٠٠-١٨٨٥" يركز على النزاع بين البوير والبانانتو وشاكا ودولة الزولو وعصر الاضطرابات في ظل موشيش والباسوتو وتوسيع البربر والهجرة الكبرى ونهاية الدويلات الأفريقية المستقلة والطريق إلى الشمال.

الفصل التاسع وعنوانه "تقسيم أفريقيا نظريا" (١٨٧٩-١٨٩١)، يعالج هذا الفصل المصالح التجارية الأوروبية في أفريقيا قبل التقسيم، وتطور المنافسة الأنجلو فرنسية في غرب القارة، ودخول القوى الجديدة، والملك ليوبولد، والكونغو، وألمانيا تدخل عملية التكاالب ١٨٨٣-١٨٨٥، واللورد ساليسبورى وعودة المبادرة البريطانية ١٨٨٥-١٨٩١.

الفصل العاشر وعنوانه "تقسيم أفريقيا (١٨٩١-١٩٠١)" يدور حول الصراعات الأوروبية في أفريقيا والتقدم الفرنسى جنوب نهر النيجر، وأيضا التوسع البريطانى فى ساحل الذهب ونيجريا، والفرنسيون فى وسط السودان، والصراع مع رابح فضل الله، ثم إعادة فتح السودان وأزمة فاشودة، ثم دراسة شرق وحوض الكونغو والغزو الفرنسى لمدغشقر، ثم الحديث عن رودس ووسط أفريقيا، والحرب بين إنجلترا والبوير.

الفصل الحادى عشر وعنوانه "الحكم الاستعمارى فى أفريقيا المدارية" ويدور حول سياسات القوى الاستعمارية وغرب أفريقيا فى مجال المزارع المنتجة، وأيضا غرب أفريقيا الفرنسية والبريطانية، ثم دراسة ليوبولد فى حوض الكونغو وبريطانيا وألمانيا والبرتغال فى شرق ووسط أفريقيا.

الفصل الثانى عشر وعنوانه "الحكم الاستعمارى فى أفريقيا الاستوائية" وتأثير الحكم الاستعمارى والبعثات التبشيرية المسيحية والتربية الغربية وأخيرا ميلاد الحركة القومية فى القارة.

الفصل الثالث عشر عنوانه "أفريقيا بين الحربين (١٩١٨-١٩٣٨)" ويدور البحث فيه حول الحرب ونظم الحماية والسياسة المزدوجة فى أفريقيا البريطانية وفى شرق ووسط أفريقيا والتعليم فى المستعمرات البريطانية وسياسة المشاركة الفرنسية والاستعمار والوطنية .

الفصل الرابع عشر عنوانه "شمال وشمال شرق أفريقيا" (١٩٠٠-١٩٣٠) ويدور حول حركة الجامعة الإسلامية والحكم الفرنسي في المغرب وبدايات القومية في المغرب الكبير والبريطانيون في مصر والسودان ومناطق النفوذ الإيطالية في ليبيا والصومال وأثيوبيا.

الفصل الخامس عشر "جنوب أفريقيا (١٩٠٢-١٩٣٩)" ويعالج جنوب أفريقيا بعد حرب البوير والاتحاد عام ١٩١٠، ثم الحديث عن سمطس وهرتزوج والآلام الأفريقية وجنوب غرب أفريقيا.

الفصل السادس عشر وعنوانه "آخر أعوام الحكم الاستعماري والحرب العالمية الثانية" ١٩٣٩-١٩٤٥ وما بعدها وآخر مراحل الاستعمار، ثم الحديث عن التطور في التعليم، وأخيرا التحضير للديمقراطية.

الفصل السابع عشر "الطريق إلى الاستعمار في شمال وشمال شرق أفريقيا" ويدور حول مصر والسودان ودول منطقة القرن الأفريقي، ثم دراسة ليبيا والمغرب.

الفصل الثامن عشر: الطريق إلى الاستقلال وأفريقيا من الصحراء إلى الزمبيزي وساحل الذهب والاختراق وتوابع استقلال غانا في أفريقيا الغربية البريطانية واستقلال غرب أفريقيا والماوماو وتعدد الأعراق والكونغو البلجيكية مدغشقر.

الفصل التاسع عشر "الطريق إلى الاستقلال" ويدور حول وسط أفريقيا واتحاد وسط أفريقيا الفيدرالي والحروب الاستعمارية في أنجولا وموزمبيق، وأخيرا الطريق إلى الاستقلال من روديسيا إلى زيمبابوي

الفصل العشرون وعنوانه "الطريق الطويل نحو الديمقراطية في جنوب أفريقيا" يدور حول المحميات وجنوب غرب أفريقيا (ناميبيا) والاختراق في جنوب أفريقيا

الفصل الحادى والعشرون عنوانه سياسات أفريقيا المستقلة" ويدور حول الديمقراطية والأوتوقراطية والحكم العسكرى والانتقال من الحكم العسكرى إلى الحرب الباردة، والحديث أيضا عن الحرب الأهلية والحرب الباردة وضغوط التزايد السكانى.

الفصل الثانى العشرون عنوانه "الاقتصاد والمجتمع فى أفريقيا المستقلة" ويدور حول سنوات التفاؤل وسنوات الركود والانهيـار والطريق الصعب نحو استعادة الأمل

الفصل الثالث والعشرون عنوانه "فى الألفية الثالثة" ويدور حول بقايا الحرب الباردة فى أنجولا والقرن الأفريقى ومأساة رواندا والكونغو، وأيضاً دراسة أسـياد الحرب فى ليبيريا وسيراليون، وأيضاً الإسلام فى شمال أفريقيا، والطريق نحو الديمقراطية البرلمانية فى غرب أفريقيا، وأيضاً فى شرق وجنوب شرق أفريقيا، وأيضاً الديمقراطية فى الجنوب الأفريقى.

وأخيراً الخاتمة التى حلت كل الأحداث التى وقعت فى القارة فى مرحلة الكتاب، والمشكلات التى تواجه دول القارة الأفريقية سواء السياسية أو الاقتصادية أو الصحية.

يعد الكتاب بهذه الموضوعات التى عالـجها على أكثر من قرنين مرجعاً أساسياً شاملاً لدول القارة الأفريقية بأسلوب سهل وشيق ودون الدخول فى تفاصيل وأحداث دقيقة ربما تحتاج إلى سجلات كبيرة، لكن نجح المؤلفان فى استعراض تاريخ القارة بشكل متكامل، واعتمد المؤلفان على عدد كبير من الخرائط التى أوضحت كل المناطق التى دخلت مجال الدراسة. والكتاب من أحدث المراجع التى عالجت قضايا فى الألفية الثالثة وحتى عام ٢٠٠٣ والحرب الباردة وأفريقيا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وانعكاس كل هذه الأحداث على القارة، فضلاً عن معالجة قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان ومشكلات القارة الإثنية والعرقية خاصة أمراض الملاريا والإيدز.

لقد كان المؤلفان يعالجان القضايا في إطار تاريخي دون التحيز لهذا الطرف أو ذاك، وكانت هذه النظرة الموضوعية تجعل من كتاب واحد من أهم المراجع التاريخية المتكاملة التي تثرى المكتبة العربية بعد ترجمة أحدث طبعات هذا الكتاب في عام ٢٠٠٥، ونأمل أن يساهم هذا العمل الضخم في دعم التاريخ الأفريقي من وجهة نظر غربية. إن الشكر واجب للمؤلفين اللذين أصرا على ترجمة الطبعة الخامسة في مارس ٢٠٠٥ وليس الطبعة الرابعة التي لم تصل إلى الألفية الثالثة، وبالتالي فإن الطبعة الخامسة مزيّدة ومنقّحة ومتكاملة وعالجت قضايا معاصرة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر من وجهة نظر المؤلفين ونحن حاولنا ترجمة وجهة نظرهما للأمانة العلمية.

والله الموفق،

عبدالله عبدالرازق إبراهيم

تمهيد

يبدأ تاريخ أفريقيا الحديث عام ١٨٠٠ كنقطة البداية، فبالرغم من أنه في ذلك الوقت قد أصبح الجزء الأعظم من داخل القارة معروفا للعالم الخارجى إلا أن معظم المبادرات للتغيير الاقتصادى والسياسى ما زالت فى أيدى الحكام الأفارقة وشعوبهم.

يقع هذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء، حيث يصف الجزء الأول تاريخ أفريقيا قبل الاستعمار بينما يعالج الجزء الأوسط التقسيم والحكم الاستعماري، أما الجزء الثالث فيشرح بالتفصيل بزوغ الدول القومية الحديثة فى أفريقيا وتاريخها، وطوال مائتى عام يتضمنها الكتاب فإن أفريقيا وليس غزاتها هى محور القضية، ويهتم المؤلفان باستمرارية التاريخ الأفريقى فضلا عن التغيرات التى وقعت طوال هذه الفترة.

تغطى الطبعة الجديدة الأحداث حتى منتصف عام ٢٠٠٣، كما تشمل المفاهيم الجديدة التى نجمت عن نهاية الحرب الباردة، والوضع الكونى الجديد الذى برز بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، ويهتم الكتاب أيضا بالاتجاهات الديموجرافية التى كانت فى قلب كثير من المشكلات الأفريقية اليوم مع الآثار المدمرة للأمراض مثل الملاريا والإيدز فضلا عن الصراعات التى شنها أسياى الحروب والذين يحاربون من أجل السيطرة على الموارد النادرة.

الفصل الأول

أفريقيا شمال خط الاستواء

تسود الصحراء جغرافيا النصف الشمالى لأفريقيا. ويكون سقوط الأمطار أقل من خمس بوصات (١٣سم) سنويا عبر تلك المساحة الشاسعة ١٧٠٠ ميل (٢٨٠٠كم^٢) من الشمال إلى الجنوب و ٥٠٠٠ ميل تقريبا من الشرق إلى الغرب، حيث إن سقوط المطر لا يزيد عن ١٣سم (٥ بوصات) سنويا، كما أن الزراعة مستحيلة فيما عدا بعض الواحات القليلة حيث تصل إمدادات المياه الجوفية إلى سطح الأرض.

أما سكان الصحراء الوحيدون فمن الرعاة الرحل ويربون الجمال وينقلون حيواناتهم موسميا من منطقة رعوية خفيفة إلى أخرى. أما الساحل الخصب فيوجد على ضفاف البحر المتوسط شمال الصحراء وحيث يتركز سقوط الأمطار من يناير إلى مارس وحيث يكون القمح والشعير أهم المحاصيل من الحبوب، كما أن رعى الأغنام أهم ثروة فى مناطق الرعى العالية. وتقع المنطقة الاستوائية وأرض الأمطار الصيفية جنوبا، حيث يفضل زراعة محاصيل أخرى غير التى تزرع على ساحل البحر المتوسط. ويعيش العرب والبربر وهم من الشعوب الفاتحة اللون بطريقة أكثر أو أقل فى الشمال وفى الصحراء أيضا، ويتكلمون لغات من مجموعة اللغات الأفروآسيوية. وتبدأ أرض السود جنوب الصحراء ويسمىها الإغريق "أثيوبيا" والبربر "عقال نيعجونيا، (غينيا) والعرب "بلاد السودان".

وكانت الصحراء دائما عائقا هائلا للمجتمعات البشرية. ولكن ولفترة ألفى عام على الأقل ومنذ وصول الجواد والجمال إليها أصبح السفر أكثر سهولة مما

ساعد الناس فى التغلب على صعابه. ويستغرق السفر شهرين قبل عصر السيارة والطائرة ولكن وبالرغم من ذلك عبر الناس تلك الصحراء ليس فقط فى رحلات استكشاف منعزلة ولكن أيضا بانتظام عاما بعد آخر لأغراض التجارة والعلم والحج. وكان الوسطاء الأساسيون فى حركة الاتصال هم البدو الرعاة المتجولون فى الصحراء ذاتها.

وكانوا يربون الجمال ويدربونها على أعمال الحمل والنقل ومرافقة وحماية القوافل فى رحلاتها. وكانوا يسيطرون أيضا على معظم الموارد الصحراوية - حتى الاكتشافات الحديثة للبترول والغاز الطبيعى - ونعنى بذلك الملح الذى وجد بكميات هائلة لا نهاية لها تقريبا نظرا لتبخر أحواض البحيرات القديمة الموجودة فى منتصف الصحراء، وهى من عصور ما قبل التاريخ حينما كانت الأمطار أكثر غزارة. وكان الملح مطلوبا للغاية فى الشمال وأكثر طلبا فى جنوب الصحراء. وأحضر البدو العبيد للعمل فى استخراجهم وقدموا الجمال لأهميتها الكبرى لنقله بكميات كبيرة. ولولا قوافل الملح التى استخدمت فى القرن التاسع مئات الآلاف من الجمال ونقلت عشرات الآلاف من أطنان الملح لما أمكن أبدا فهم أهمية تبادل العديد من السلع بين شمال وجنوب الصحراء بتلك السهولة. وكان الذهب فى الأودية الفرعية لنهر النيجر الأعلى وفولتا العليا وصحراء أكان Akan عنصرا مبكرا ومهما للتجارة عبر الصحراء. وكان العبيد الذين يجلبون على طول امتداد الحواف الجنوبية للحزام السودانى يصاحبون تقريبا كل قافلة متجهة إلى الشمال. وبمرور الوقت فإن السلع الجلدية والأنسجة القطنية المصنوعة فى السودان قد نقلت بكميات كبيرة شمالا. وكانت مواد التجارة المتجهة جنوبا هى المنسوجات الصوفية لشمال أفريقيا والأقطان وقماش الموسلين Muslins الثمين فى الشرق الأوسط والأسلحة والدروع وباقى المصنوعات من جنوب أوروبا.

ولذلك، وقبل فترة طويلة من إبحار أى سفينة من أوروبا إلى ساحل غرب أفريقيا، فإن الأراضى السودانية جنوب الصحراء كانت على اتصال بتلك الأراضى

الموجودة على سواحل البحر المتوسط، وليس فقط لمبادلة المنتجات بل لتبادل الأفكار والمهارات أيضا. ولم تستطع المسيحية اللاتينية لولايات الغرب الرومانية أن تعبر الصحراء بالمرّة، ولكن استطاع المبشرون الناطقون باليونانية سواء من الأرثوذكس أو أتباع المذهب الواحد Monophysite (المونوفيزيتي) أن ينشروا المسيحية عند أعالي النيل ومملكة أكسوم Aksum في شمال إثيوبيا. أما الإسلام فقد انتشر في البداية في القرن السابع للميلاد بفتح مصر وشمال أفريقيا ثم سرعان ما عبر الصحراء. واعتنقه بدو وسط غرب الصحراء في القرن التاسع ثم بدأ في الانتشار في الممالك السوداء جنوب الصحراء في القرن الحادي عشر على الأقل، وأعجب به بالذات المسافرون خارج بلادهم ومناطق لغتهم المحلية، واشتركوا في نظام تجارى عبر المناطق والأقاليم. وقدم لهم الإسلام آفاقا ثقافية ومعنوية أوسع بالإضافة إلى الاشتراك في أخوة عالمية تهتم فعلا بأعضائها وبأساليب عملية للغاية. وبين القرنين الحادي عشر والثاني عشر على الأقل فإن سكان بعض البلاد السودانية قد تعلموا أن يكونوا مسلمين مثل العرب والبربر في الشمال. وتعلم الرجال المثقفون والأثقياء اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وقام القليل منهم أو بعضهم بالحج إلى مدن الإسلام المقدسة - مكة والمدينة - بعد أن يمروا بمدن مصر ومدن شمال أفريقيا الكبيرة أثناء سفرهم. ولذلك عبد الحكام والأثرياء على جانبي الصحراء الإله الواحد وقرأوا الكتب نفسها وناقشوا الأفكار نفسها.

ولكن لا يجب الاعتقاد أن حضارة الحزام السوداني الأفريقي قد نبعت فقط من اتصالها بالعالم الإسلامي. ونعرف الآن أنه قد وجد نظام في الحياة المدنية في المدن ذات الأسوار في مناطق متفرقة للغاية في غرب أفريقيا قبل فترة طويلة من انتشار الإسلام. كما أن التكوين السياسى المميز "للمدن الدول" الصغيرة قد أدى إلى وجود مجموعات تتكلم كل منها اللغة نفسها وتتبع العادات والتقاليد نفسها، وأن ذلك كان تطورا محليا خاصا بالمنطقة. أما العملية الدورية أو المتقطعة لدخول "المدن الدول" في وحدات إدارية أكبر والتي وصفها الأجانب بالممالك أو الإمبراطوريات

فإنها ظاهرة يجب رؤيتها على أنها إجابات أو تغييرا للعديد من العناصر المحلية مثل اختلافات الفرص الاقتصادية والقوة العسكرية وطموحات الحكام المحليين الشخصية. ولا ينقص ذلك أبدا بطبيعة الحال أهمية انتقال الأفكار السياسية من شمال الصحراء إلى جنوبها. ولكن كان الوجود المتزايد للإسلام وقلب العالم الإسلامي كأهم مرجع للعالم الخارجى قد ساعد على تقديم قدر معين من الوحدة مع النصف الشمالى لأفريقيا الممتد من البحر المتوسط إلى أكثر مناطق المحيط الأطلنطى فى غرب أفريقيا. ولكن، وفى داخل تلك المنطقة الواسعة وبالرغم من الاختلافات العديدة فى اللغة والثقافة، فإن التجارة عبر المناطق والأقاليم وسفريات الأفراد الذين كان معظمهم فى بداية فترتنا من المسلمين قد أدت كلها إلى وجود قاعدة أفكار مشتركة منتشرة من أقصى جهة إلى أقصى جهة أخرى.

ولكن يوجد جدل فيما يتعلق بامتداد الحدود الجنوبية لشمال أفريقيا فى مختلف عصور التاريخ. وربما شملت القرنين الثانى عشر والثالث عشر أكثر بقليل من منطقة المراعى المفتوحة، وكونت بالتالى حزاما عرضه من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ ميل (٤٠٠ أو ٥٠٠ كم^٢) جنوب حافة الصحراء إلى بحيرة تشاد، وشرقا من دارفور وكردفان إلى المرتفعات الأنثيوبية. ويمكن للدواب الانتقال عبر تلك المنطقة كلها، كما يمكن لقوات الفرسان المسلحة السيطرة وجباية الضرائب من سكان المدن الكبيرة. ويقع حزام أرض الأخشاب إلى جنوبها ثم ينكشف تدريجيا ليتحول إلى غابات استوائية كثيفة ممطرة. ولكن نظرا لوجود ذبابة التسي تسي المسببة لمرض النوم فى أرض الأخشاب ونقص الأعشاب فى الغابة فإنه قد وجب نقل السلع كلها بواسطة حمالين، كما يضطر الجنود إلى القتال على أقدامهم. وكانت الدول والأسواق أصغر، كما قلت أعداد المدن الكبيرة التى تستطيع الديانة الإسلامية وتعاليمها أن توطد أقدامها بها. ولكن بدأت منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعض أنواع التجارة عبر الأقاليم ووصلت إلى تلك البقاع الجنوبية ووجد الذهب فى صحراء أكان Akan، كما أن الكولا Cola - وهو المنشط الطبيعى الوحيد الذى

يصرح به الإسلام - قد نما فقط داخل الحزام الصحراوي. وحينما اكتشف البرتغاليون ساحل غرب أفريقيا فإنهم قد وجدوا أن الحدود التجارية لتجار الماندى Mande قد امتدت من حزام نهر النيجر إلى سواحل غانا الحالية. وخلال القرون الثلاثة التالية دفع التجار الأوروبيون العاملون في ساحل المحيط الأطلنطي حدود هذا الإقليم إلى الشمال مرة أخرى لمسافة ٢٠٠ أو ٣٠٠ ميل (٣٠٠ إلى ٥٠٠ كم). وبحلول عام ١٨٠٠ اتجهت معظم مناطق غرب أفريقيا ببصرها شمالا من أجل اتصالها بالعالم الخارجى وأكثر بكثير من اتجاهها جنوبا بالنسبة للتجارة المحمولة برا إلى أوروبا. وظلت كل المنطقة شرق بحيرة تشاد بدون وسائل اتصالات أخرى إلا بواسطة الشمال بطبيعة الحال.

بلاد ساحل البحر المتوسط

بحلول نهاية القرن الثانى عشر فقد الناس فى العالم الإسلامى وفى معظم الأحوال الكثير من طاقتهم والشعور بالأهداف التى طالما حركتهم فى عصور الإسلام الأولى لبناء لتلك الحضارة الرائعة الزاهرة. فقد فشلوا تماما فى تتبع الاختراعات والأساليب الفنية الحديثة المكتشفة فى غرب أوروبا، وبالذات فى الشؤون العسكرية والنقل (مثل التحسينات التى تمت فى السفن). وأثر هذا الفشل فى صناعة التطور على كل أجزاء أفريقيا التى نتكلم عنها فى هذا الفصل بطريقة أو بأخرى. وينطبق ذلك بالذات على بلاد شمال الصحراء من مصر شرقا إلى موريتانيا غربا. وكانت تلك البلاد باستثناء المغرب جزءا من الإمبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر وعاصمتها إسطنبول. وبحلول القرن الثانى عشر تضاعفت وتدهورت القوة العثمانية كثيرا عن أوج مجدها الذى بلغته قبل قرنين. وتصرف حكام الولايات آنذاك بطريقة شبه مستقلة عن السلطان العثمانى، كما أن سداد الجزية قد أصبح اسميا فقط. وبينما اختلف الوضع فى التفاصيل من بلد إلى

آخر فإن صفوة الحكام بها كلها قد نشأت من أحفاد الحاميات العثمانية السابقة والذين ازدادت أعدادهم من جيل إلى آخر. ونما أيضا شعورهم بالانفصال عن السكان المحليين مما دفعهم إلى تجنيد العبيد الجنود من الحدود الشمالية للإمبراطورية العثمانية من جنوب روسيا والقوقاز. وبواسطة جلب هؤلاء الجنود استطاع السلاطين العثمانيون حكم ممتلكاتهم في شمال أفريقيا.

ووجدت أعمق جذور نظام الحكم العسكري في مصر، وعندما هزم العثمانيون السلطنة في عام ١٥١٧ طبقوا نظاما سائدا منذ القرن الثالث عشر. وفي مصر عرف فرسان الصفوة، الذين تم استيرادهم كعبيد ولكن تم تعليمهم وتدريبهم لشغل المناصب العليا، بالمماليك. ويتم إعتاقهم ويمنحون معاشا مجزيا في نهاية خدمتهم ولكن يمنع أبناؤهم من الالتحاق بالجيش. وكان قادة المماليك وهم الأمراء يديرون الدواوين العسكرية والمدنية في الدولة، كما كان كل أمير عند تعيينه يستورد أعدادا جديدة من المماليك كحراس له أو لداره. وقسمت معظم الأراضي الزراعية في مصر إلى إقطاعيات لتمويل الصفوة العسكرية. أما بالنسبة للملايين من المزارعين المصريين الذين يكفون ويسددون الضرائب فإن الحكم المملوكي كان قاسيا جائرا مستبدا. ولكنه أنتج مع ذلك طبقة مثقفة مرهفة مما جعل القاهرة - على الأقل - مركزا للعلم والحياة الرغدة تقارن أعظم مدن العالم الإسلامي.

وفي غرب مصر عرف العرب بلاد طرابلس وتونس والجزائر والمغرب (مراكش) باسم عام وهو "المغرب" (الغرب). وهنا وبالعكس مصر فإن سلطة الحكومات نادرا ما امتدت خارج المدن الرئيسية. وفي الداخل عاشت وأقامت القبائل القوية من البربر والبدو والعرب. وكان يمكن السيطرة عليهم بشكل ما بتحريض إحداها على الأخرى. وفي طرابلس مثلت عائلة (القره مانلي) المحلية السلطة العثمانية منذ عام ١٧١١، وركزت جهودها أساسا لتطوير التجارة عبر الصحراء في بورنو Bornu ودول الهاوسا Hausa ووصل إمداد مستمر من العبيد السودانيين ويتم إيفادهم بواسطة تجار طرابلس إلى، إسطنبول، دمشق، القاهرة وكل

أنحاء غرب العالم الإسلامي. وكانت طرابلس أيضا مركزا لتوزيع المصنوعات الجلدية الرائعة التي اشتهرت بها مدن الهاوسا، وكانت معروفة جيدا في غرب أوروبا باسم "الجلد المغربي". أما صادرات طرابلس إلى الجنوب فكانت أساسا من السلاح والدروع والخياد العربية ولكنها شملت أيضا الجنود المرتزقة المدربة على استخدام الأسلحة النارية والذين انضموا إلى الحرس الخاص للحكام السودانيين.

لكن لم يكن لطرابلس مع ذلك احتكار للتجارة عبر الصحراء. وربما كانت أهم منطقة في حركة المرور الصحراوية هي واحة غدامس، حيث تلتقي الحدود الحالية لتونس والجزائر وليبيا. وتجتمع هنا طرق القوافل في وسط غرب السودان، كما ارتاد تجار طرابلس بلاد الهوسا ومدينة تمبكتو أيضا. وتتنقل بعض تجارة السودان من غدامس إلى تونس والجزائر. وكانت موانئ مدينتي تونس والجزائر موانئ نشطة للغاية، ويمكن أن يتصل منها التجار بسهولة أكبر بأسواق غرب أوروبا أكثر من طرابلس. ويسمى حكام تونس من الأسرة الحسينية بالبای منذ عام ١٧٠٥. وكانت قواتهم المسلحة الكبيرة تحمي السكان المستقرين كثيرى العدد من هجمات البدو والبربر في شرق الأطلسي. وكان هؤلاء المزارعون في السهل التونسي من أكبر منتجي القمح في كل حوض البحر المتوسط. ووجدت في المدن الساحلية طبقة متوسطة متقنة من التجار والمسؤولين، وتمتعت بترات طويل من الحضارة والعلوم الإسلامية، وأدارت نظاما في الحكم أكثر تنظيما مما كان عليه الحال في أى بلد آخر في المغرب.

عرف حكام الجزائر العثمانيون بالداي. وبعكس نظام الحكم في تونس فإن السلطة لم تقع أبدا في أيدي عائلة واحدة وبحيث يتوارثها الابن عن أبيه. وكان يتم اختيار الحاكم عند وفاة الداى السابق بالانتخاب بين مجموعة من التجار والجنود من أعظم رجال المدينة جاها. وسمى الأوروبيون هؤلاء التجار بالقراصنة (هى كلمة إيطالية بمعنى "أن يطارد") وكانوا يتاجرون بحرا مع البلاد الأوروبية ويستخدمون سفنا شراعية، ويقوم بالتجديف بها عبيد مسيحيون. ولكن اختلطت

التجارة القانونية أحيانا بأعمال القرصنة ضد الملاحة والسواحل الأوروبية ولذلك ساءت سمعتهم كثيرا. وخلال القرن السابع عشر كانت مدينة الجزائر من أجمل مدن البحر المتوسط. وعلق الدكتور شو D'Show وهو أحد التجار الأوروبيين في القرن الثامن عشر بحماس بالنسبة للمناطق المجاورة لها وقال:

"إن التلال والوديان حول مدينة الجزائر كلها جميلة وبها حدائق ومنازل ريفية يتجه إليها سكان المدينة الأثرياء أثناء فترة القيظ في فصل الصيف. إنها منازل جميلة تظللها مجموعة متنوعة من أشجار الفاكهة والأشجار الياقعة والتي بالإضافة إلى الظل والعزلة فإنها تقدم أيضا منظرا جميلا تجاه البحر. أما الحدائق فملينة بأشجار الليمون والفواكه والأعشاب من كل نوع. ويعيش سكان مدينة الجزائر بسرور دائم، لأنه بالرغم من استبداد الحكومة فإن الأمر ليس كذلك في الواقع".^(١)

ووصفت أيضا حتى في تاريخ استسلامها للفرنسيين عام ١٨٣٠ على أنها أكثر مدن العالم تنظيما. ووجد الفاتحون الفرنسيون أن معظم سكانها أكثر ثقافة من معظم الفرنسيين المحليين. وحدث ذلك بعد نصف قرن من الاضطرابات السياسية الخطيرة بسبب الثورات بين قبائل العرب والبربر التي دارت فوق الهضاب العالية في الداخل خلف السهول الساحلية. ويقود تلك القبائل "مرابطون" من رجال الدين الإسلامي، ويصلون بهجماتهم إلى ضواحي مدن ساحل البحر المتوسط.

أما المغرب فلم تكن أبدا ضمن الولايات العثمانية. وتكونت معظم جيوشها من العبيد السود من السودان، ويقال إن عددهم قد بلغ في منتصف القرن الثامن عشر حوالي ١٥٠,٠٠٠. ويقام نصفهم في مدينة عسكرية شيدت خصيصا من أجلهم بينما توزع الباقي على حصون تحرس الأراضي المنخفضة الوسطى في الريف من هجمات البدو والبربر من طرابلس. ولكن نقصت مساحة الأراضي التي

(١) T'Show: Travels and Observations to several Parts of Barbary and levant (Oxford ١738) P.41

تسدد الجزية لخزانة السلطان كثيرا منذ نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر حينما امتدت المملكة لبعض الأعوام عبر الصحراء إلى تمبكتو. ولكن تمكنت جماعات من القبائل في الأطلس الأعلى وحواف الصحراء، تماما كما في الجزائر، من الهجوم على المناطق المأهولة بالسكان وجباية الضرائب منهم وبالذات من مزارعي السهول، ولم تستطع جيوش السلطان إيقافهم. ولكن استمر المغرب منطقة وصل لحركة تجارة رائجة مع الجنوب، فمازالت تجارة الملح التي يمارسها بربر الصحراء في جوار الحدود الجنوبية تجذب الكثير من ذهب منطقة السنغال والنيجر العليا، وذلك بالرغم من محاولات الفرنسيين في سانت لويس الحصول عليها. فما زال العبيد في منحنى نهر النيجر يتجهون شمالا إلى المغرب وبأعداد هائلة. ولكن وبالرغم من انفتاح حركة الطرق البحرية فمازالت كميات كبيرة من المصنوعات الأوروبية وبالذات السلع القطنية الإنجليزية توزع في غرب أفريقيا بواسطة التجار المغاربة الذين يشترونها عند موجادور Mogador على ساحل المحيط الأطلسي في جنوب المغرب. ويعيش العرب أيضا عند كل الحواف الغربية للصحراء، كما أقاموا وانتشروا جنوبا إلى ضفاف نهر السنغال.

ومارس رجال الدين الإسلامي الطقوس المغربية المميزة وأصبحوا أتباعا لدعوات دينية مثل الرحمانية Ramanyya التي أنشئت عام ١٧٧٠ في منطقة القبائل (الجزائر) والتيجانية التي أنشأها عام ١٧٨١ سيدى أحمد التيجاني في عين ماضي بالقرب من الأغواط عند حافة الصحراء الجزائرية. ودرست تعاليم التيجاني في جامعة فاس المغربية الكبيرة وازدهرت دعوته في موريتانيا وبين قبائل الطوارق في منطقة الصحراء الوسطى.

دول منطقة السودان

وتأثرت معظم الدول الكبيرة القائمة جنوب الصحراء بدرجة أو بأخرى من

خمول العالم الإسلامي كله. وتناقص الأمن بصفة عامة للتجار والحجاج عما كان عليه الحال من قبل قتل الرخاء وأيضا العلم والدين. وكانت أثيوبيا من أكثر الدول تأثرا، والتي بالرغم من ديانتها المسيحية فإنها تقع بجوار الجزيرة العربية مهد الإسلام، وعانت كثيرا من تدهور التجارة في البحر الأحمر. وازداد الأمر صعوبة لمعاناة أثيوبيا منذ القرن السادس عشر من التغلغل التدريجي والاستيطان في ولاياتها الجنوبية والشرقية لجيرانها أوروبو. وواجهت المملكة المسيحية ذلك الوضع بأن نقلت حاضرتها بعيدا عن قواعدھا التقليدية في العصور الوسطى من شوا Shoa (المنطقة حول مدينة أديس أبابا الحالية) إلى المنطقة شمال بحيرة تانا Tana، وحيث أنشأت في نهاية الأمر عاصمة دائمة في جواندار. ولكن لم تنجح محاولة التركيز المذكورة، إذ استمر ضغط الأوروبو، كما لم يمكن الدفاع عن الحدود الجديدة إلا بجذب فيالق الأوروبو المسلحة للخدمة في القوات الملكية ومنحهم حق جباية الضرائب من المزارعين المسيحيين. وكان يسوع الثاني (Jesus II) (1730-1755) آخر أباطرة القرن الثامن عشر الذي مارس سلطة حقيقية خارج منطقة جواندار Gundar. ولكن أصبح الحكام الإقطاعيون في الولايات الأخرى شبه مستقلين عمليا بعد وفاته، كما اعترفت فئات مختلفة بأباطرة متنافسين. وفي بداية القرن التاسع عشر فإن أحدهم قد حلت به الفاقة لدرجة أنه لم توجد أموال في الخزانة العامة لسداد ثمن تابوته عند وفاته.

أما سلطنة الفونج Fonj فتقع على الحدود الأثيوبية ناحية الغرب، وحلت في القرن السادس عشر محل أكثر الممالك النوبية المسيحية تطرفا ناحية الجنوب. وأقام الفونج عاصمتهم في سنار Sennar على النيل الأزرق والتي أصبحت مركزا لتجارة رائجة في الذهب الأثيوبي والعاج السوداني المصدر إلى جدة مقابل الأقمشة الهندية. ولكن زاد اعتماد الأسر الحاكمة على قوات العبيد السود بحلول القرن الثاني عشر. وحينما عبر الرحالة الأسكتلندي جيمس بروس تلك المنطقة فإنه كتب بعد ذلك وصفا رائعا لرحلاته الخطيرة في أثيوبيا في طريقه إلى منطقة أسفل النيل

الأزرق عام ١٧٧٠، وذكر أنه مازال يوجد جيش دائم يضم ١٨٠٠ فارس و ١٤,٠٠٠ من المشاة. ولكن فقدت السيطرة على ولاية كردفان الغربية كما تقلصت التجارة كثيرا. ولم يعجب بروس كثيرا بما رآه وكتب: "يبدو أن الحرب والخيانة هما الشغل الشاغل لهذا الشعب السيئ والذي فصلته الرعاية الإلهية بصحراء لا يمكن ارتيادها عن باقى البشر".^(٢)

أما سلطنتا دارفور Darfour ووادى Wadai فلقد كانتا أكثر نشاطا من سلطنة الفونج، وكانتا على جانبي الحدود الحالية بين جمهورية السودان وتشاد. وكانتا إسلاميتين اسميا ولكن يتضح تماما في كتابات محمد التونسى، وهو أحد العلماء العرب الأجلاء قام برحلات استكشافية في البلدين في بداية القرن التاسع عشر، أن الأفكار القديمة السابقة على الإسلام كانت مازالت حية تماما مثلما يحدث في العديد من الدول الأخرى في غرب السودان. ويصف التونسى احتفالا سنويا بمناسبة إعادة تغطية الطبول الملكية بعد تقديم طفل وطفلة كأضاحي، كما يصف السلاطين وهم يشتركون في طقوس تكاد تكون فرعونية بمناسبة وقت البذر والحصاد، وفي بداية موسم بذر الحبوب يركب السلطان فى موكب مهيب وتصاحبه أكثر من مائة امرأة شابة وغلما نه العبيد وفريقا من الزمارين. وحينما يصل إلى الحقول فإنه ينزل من جواده ويأخذ أنواعا مختلفة من البذور ويزرعها بينما يقوم أحد العبيد بحرث الأرض.

وتتبع ثروة تلك الدولتين من العبيد الذين تجلبهم جيوش الفرسان من بين الشعوب الوثنية القاطنة في الجنوب والذين ينقصهم أى نوع من تنظيم الدولة. وتتاجر السلطنتان بالنحاس من المخزون الهائل الموجود في منجم نحاس بجوار منبع مياه بحر الغزال. ثم ترسله الدولتان شمالا بواسطة القوافل التجارية عبر درب الأربعين (طريق يمتد السفر به أربعين يوما) ويصل إلى وادى النيل عند أسبوط.

James Bruce: travels to Discover the Source of the blue Nile 1768-1773 (London 1970) (٢)
Vol.4.p.437

وكانت إمبراطورية كانم - بورنو Kanem Bornu بأراضيها الشاسعة فى شرق وغرب بحيرة تشاد أكثر الدول السودانية استقرارا وحضارة فى نهاية القرن الثانى عشر. ولكنها كانت قد فقدت آنذاك بعضا من الجاه الإمبراطورى الذى بلغته فى العصور السابقة حينما أرسلت قوافلها العسكرية شمالا لاحتلال مناجم الملح فى بلما Belma وأن تصل تلك القوات إلى الحدود الجنوبية لطرابلس فى فزان Fezzan. ولكن ظل حكامها مسلمين أتقياء ومتقنين، كما كانت الشريعة الإسلامية مصدرا للقانون والعدالة فى مملكتهم. أما التجارة عبر المناطق لكانم-بورنو فلقد اعتمدت تماما على غارات جلب العبيد الهائلة التى تقوم بها جيوش الماي Mai على الشعوب والدول فى جبال الماندارا Mandara وباقى المناطق الحدودية ناحية الجنوب. ولكن ساد السلام والرخاء نسيبا داخل حدود تلك الدولة مما أثار إعجاب الزوار الأجانب. وكانت العاصمة فى هذا العصر مدينة شيدت من الحجر وتسمى نجازارموا N'gazarmo وتقع على مسافة ٩٠ ميلا (١٦٥ كم^٢) غرب بحيرة تشاد. ويمكن مشاهدة أطلالها اليوم وتشمل مساحة قطرها حوالى (٢ ميل - ٣ كم^٢). ويعيش المايات هنا حياة كريمة ومنعزلة وينفقون من الجزية التى يجمعها لهم ولاتهم المحليون من سكان مملكة مساحتها تقريبا ٦٠٠ ميل x ٣٠٠ ميل (١٠٠٠ كم x ٥٠٠ كم) ومعظمها أراضى رعى خفيف ولكن تشمل أيضا المراعى الكثيفة السكان فى غرب بحيرة تشاد.

لكن لم تكن كانم - بورنو أنشط الدول فى مجال التجارة عبر المناطق فى وسط السودان، بل أيضا المدن العديدة لبلاد الهوسا الواقعة على حدودها الغربية. وبالرغم من عدم اتحادها أبدا فإن مدن الهوسا تتميز تماما فى السودان لامتلاكها صناعات مهمة. فلقد وجدت لديها صناعة النسيج، الصباغة، صناعة الجلد، الزجاج، الحدادة والأعمال المعدنية من كافة الأنواع. ويقوم بذلك صناع عبيد يعيشون فى المدن ويقدم لهم المؤن عبيد زراعيون يقيمون فى قرى خاصة فى الريف المجاور. وفى نهاية القرن الثانى عشر كانت كاتسينا مازالت أهم المدن،

ولكن سرعان ما تتفوق كثرة وتحتل مكان الصدارة، ثم تليها زاريا Zaria مباشرة. وخرجت من تلك المدن وليس في نجازرجامو طرق القوافل الكبيرة لعبور الصحراء إلى طرابلس وغدامس، ومن هناك إلى تونس والجزائر. وكانت بورنو بجيوشها من الفرسان ترسل معظم العبيد الذين يتم تصديرهم شمالا. أما الصناعات فكانت تأتي من بلاد الهاموسا ويتم توزيعها في شمال أفريقيا كله.

ولكن بحلول القرن الثاني عشر انهارت الإمبراطوريات القوية في غرب السودان جنوب الصحراء بعد ازدهارها في العصور الوسطى، وانقسمت آنذاك إلى العديد من الممالك الضعيفة. وكانت إمبراطورية الصنغى والأسكاي التي امتدت في القرن السادس عشر من أعالي السنغال إلى حدود نيجيريا الحديثة قد انهارت بعد الغزو المغربي عام ١٥٩١م. واستخدم المغاربة في موقعة تونديبي لأول مرة الأسلحة النارية ضد الفرسان والمشاة السودانيين المسلحين فقط بالأقواس والسهام. واستقر المغاربة الفاتحون هناك، وكون حلفاءهم طبقة حاكمة جديدة تسمى الأرمنا Arma (رماة أسلحة نارية ومدفعية) ولكنهم سرعان ما استقلوا عن سلطة سلطان المغرب. وانتخب جنودهم بشواتهم في تمبكتو وقضاتهم في مدن الحاميات حول منحنى نهر النيجر من جنى إلى جاو.

وانسحبت بقية الطبقة الحاكمة في صنغى Songhay إلى أسفل النيجر بعد الغزو المغربي، ثم أنشأت حكومة مستقلة في ولاية دندى Dendi الجنوبية. أما في منطقة أعالي النهر شمال جنى وعلى الجانب الغربى لمنحنى نهر النيجر فإن الرعايا الماندى Mandi لإمبراطورية صنغى قد عادوا إلى أحوالهم القديمة قبل عصر الإمبراطورية. ولكنهم انقسموا إلى عدد كبير من الدول الصغيرة وتعيش كل منها حول مدينة صغيرة ذات أسوار تسمى بالكائو. ولكن استطاع بعض زعماء الحرب النازحين الذين استطاعوا الحصول على أسلحة نارية مقابل أسرى الحرب أن يؤسسوا بعض الدول الكبيرة التي تشمل كائو. وحدث ذلك مثلا في سيجو Segy وفي كارتا Kaarta. ولكن كانت منطقة أقصى الغرب هي أهم منطقة في غرب

السودان خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. فلقد تكون هناك وفي فوتاتورو Futa Toro خلال العصور الوسطى شعب مختلط من البربر والزنج وعرف بالفولبي (وبالفرنسية بول Paul وبالهوسا: فولاني Fulani). وشملت دول الفولبي - بعكس دول الماندى - عدة مجموعات من الرعاة البدو الذين قاموا برعى قطعانهم في مناطق البلاد الجافة غير الصالحة للزراعة حتى في موسم الأمطار. ثم يحضرون تلك القطعان جنوبا إلى المزارع للرعى في الحقول بعد حصاد محاصيل الحبوب. وهاجر الرعاة بعكس أقاربهم المزارعين إلى مسافات بعيدة بحثا عن مراعى جديدة، كما أقاموا علاقات مشابهة مع مزارعين يتحدثون لغات أخرى. وانتشروا منذ القرن الخامس عشر في مجموعات صغيرة إلى كل مناطق حزام السافانا من غرب أفريقيا إلى بحيرة تشاد شرقا. وكانت قبائل الفولبي المتفرقة غالبا وثنية حتى القرن الثامن عشر. ولكن اعتنق الفولبي الباقون في موطنهم الأصلي في فوتاتورو الإسلام بواسطة المرابطين في موريتانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وانضموا إلى إخوانهم في الإسلام وامتلكوا بالحماس لإيمانهم الجديد. وأصبحت فئة من هؤلاء الفولبي التورودبي مهمة أساسا بنشر الدعوة الإسلامية لكل شعب الفولبي. ولذلك توجه الدعاة التورودبي إلى كل مكان به الفولبي ودعوا إلى اعتناق الإسلام والإصلاح الإسلامى وطالبوا بالجهاد - الحرب المقدسة - للوصول إلى هذا الغرض. وكانت القاعدتان التوأمتان لحركة الفولبي هما فوتاتورو وماسينا Masina وهى دولة يحكمها الفولبي جنوب غرب تمبكتو التى كانت تابعة سابقا للصنغى والمستقلة بعد الفتح العربى. وحمل دعاة التورودبي من ماسينا فى القرن الثامن عشر الجهاد إلى فوتاجالون Futa Jalon وهى البلاد الجبلية الواقعة على حدود غينيا وسيراليون وشرقاً إلى منحنى نهر النيجر إلى ساي Say. ولذلك ومن تلك الخلفية الخاصة بحماس الدعوة والجهاد ظهر جهاد الفولبي الكبير فى بداية القرن التاسع عشر.

وقيل كثيرا إن القرنين السابع عشر والثامن عشر كانا عصرا من التدهور فى غرب السودان، وبالتأكيد تميز هذا العصر بالفوضى السياسية الكبيرة. ولكن

ظل الكثير من علوم السودان فى العصور الوسطى حيا ينبض بالحياة وذلك بفضل التورودبى والجماعات الدينية الإسلامية الأخرى. ويحتمل أن يكون الإسلام والثقافة العربية قد انتشر أكثر مما كان عليه الحال فى عصر إمبراطورية العصور الوسطى، وذلك بحلول نهاية القرن الثامن عشر. كما استمرت التجارة راجعة بالرغم من الاضطرابات السياسية. ولكن يبدو أنه قد حدث آنذاك انقطاع فى الاتصالات بين غرب السودان ووسطه، وحدث ذلك لأنه بعد هزيمة للصنغى لم تستطع قوة أخرى أن تكبح جماح البدو الطوارق الأشداء المقيمين فى شمال وشرق منحنى نهر النيجر. ولكن ظلت الطرق المارة من الشمال إلى الغرب من تمبكتو وشمال السنغال مفتوحة ونشطة إلى مرحلة متقدمة من القرن التاسع عشر، كما كانت أكثر نشاطا بكثير فى الطرق المتجهة غربا من تمبكتو إلى ساحل الأطلنطى.

دول أرض الأشجار والغابة

أدى انفتاح التجارة الأطلنطية بواسطة الأوروبيين بحلول القرن الثامن عشر إلى حدوث تغيير جذرى بين دول أرض الأشجار ومناطق الغابات جنوب حزام السافانا. وكانت تلك الدول قد اتجهت فى علاقاتها الخارجية إلى الشمال دائما منذ العصور القديمة. واتجهت دولة الأكان Akan فى غانا المعاصرة وساحل العاج دائما إلى مالى، وصنغى والدول التى خلفت الماندى، أما الدول المتحدثة بلغة اليوروبا ولغة الإيبو Ebo فى جنوب نيجيريا فلقد اتجهت إلى أرض الهاوسا.

وأشار صموئيل جونسون Johnston مؤرخ اليوروبا إلى ذلك قائلا: "يجب أن نتذكر دائما أن الثقافة والحضارة قد أتينا إلى اليوروبا من الشمال، كما كانت مراكز الثقافة والنشاط الاقتصادى والأعداد الكثيفة من السكان والصناعة كلها فى الداخل. ولكن ظلت قبائل الساحل قليلة العدد، جاهلة ومنحلة ليس فقط لابتعادها عن

المركز ولكن أيضا (فيما بعد) لاتصالها المحيط بالأوروبيين وتجارة العبيد".^(٣)

وحدث الشيء نفسه في غانا وم ساحل العاج كما كان الحال في نيجيريا. فلقـد وجدت أهم دول منطقة الأشجار والغابات في الشمال. ووجدت على الساحل الدول الأصغر والأكثر تأخرا أو سكنها فقط صيادو السمك وبائعو الملح.

وتحولت تجارة العبيد في الأطلنطي إلى فيضان هائل في نهاية القرن الثامن عشر بعد أن بدأها البرتغاليون في القرن الخامس عشر بشحن بعض الأفريقيين عبر المحيط إلى أوروبا في البداية، ثم إلى المستعمرات الأسبانية والبرتغالية فسي العالم الجديد فيما بعد. واشتركت بها معظم الدول الأوروبية وبالذات بريطانيا وفرنسا. واشتدت المنافسة للحصول على العبيد بين الدول الأوروبية المتنافسة، ولذلك سنحت الفرصة تماما للدول الأفريقية القريبة من الساحل أو الواقعة عليه للحصول على الأسلحة النارية. واستخدمتها تلك الدول في غزو جيرانها وأحيانا ضد الدول الأكثر أهمية في الماضي في الداخل. ولذلك حدث آنذاك تغيير كبير في ميزان القوى داخل دول أرض الأشجار والغابات بحلول نهاية القرن الثامن عشر. ووجدت الدول الغنية بالصاعدة بجوار الساحل وبالذات دولتي الأشانتي وداهومى Dahomy واللذان توسعا باستخدام الأسلحة النارية والتي حصلتا عليها بواسطة التجارة الأطلسية. وظهرت أكبر آثار تغيير ميزان القوى عام ١٧٤٥ حينما هزم الرماة الأشانتي المسلحون بالأسلحة النارية فرسان الداجومبا Dajomba الذين يرتدون الدروع الحامية والذين كان يمكنهم في الماضي مطاردتهم بضراوة في أي منطقة منبسطة إذا ما تجرأوا على ارتيادها. وتطورت تلك الظاهرة التي بدأت في القرنين السابع عشر والثامن عشر أكثر بكثير فيما بعد في بداية القرن التاسع عشر.

Samuel Johnston: history of the yorubas (Lagos 1921) p.40. (٣)

حصار القوى الأوروبية

وكانت القوة الإمبراطورية الوحيدة في النصف الشمالي لأفريقيا في نهاية القرن الثامن عشر هي تركيا العثمانية. وكانت ولاياتها في مصر وطرابلس وتونس والجزائر "تحكم نفسها بنفسها" تقريبا، ولكنها كانت تساهم ببعض الدخل على الأقل للسلطان في إسطنبول. ولكن لم تكن للقوى الأوروبية التي تتاجر مع شمال وغرب أفريقيا - بالعكس - إلا بعض مواطني القدم القليلة في صورة مراكز تجارية محصنة ومتفرقة على امتداد ساحل غرب أفريقيا من سانت لويس في السنغال إلى "واداي" Whydah في بنين.

وصممت تلك الحصون سواء كانت بريطانية أو دانمركية أو هولندية أو فرنسية أو برتغالية أساسا لحماية عمليات فئة أو جماعة واحدة من التجار الأوروبيين في مناقسة الآخرين. وقليل من الحصون كان يمكنها مقاومة هجوم قوى من الأفريقيين المحليين الآخرين وجب على حكامهم الحرص الشديد عند ممارسة أى سلطة خارج أسوارهم. وواصلوا تجارتهم بمساعدة الوسطاء الأفريقيين المقيمين في المدن المجاورة. وبالرغم من أنهم بحلول نهاية القرن الثامن عشر كانوا يصدرون حوالي ١٠٠,٠٠٠ عبدا سنويا من غرب أفريقيا إلا أن الأوروبيين نادرا ما كانوا يقبضون على عبد بمفردهم، وباستثناء الفرنسيين في السنغال كان من النادر على أى أوروبى التوغل أكثر من ١٢ ميلا (٢٠ كم) بمفرده في الداخل. ولم يبدأ أبدا في أى وقت خلال القرن الثامن عشر أدنى احتمال لتغيير أنماط تلك العلاقات الملائمة للجانبين التجار الأوروبيين والأفريقيين. ولكن من الحقيقى أيضا أنه بحلول نهاية القرن الثامن عشر أن تجارة العبيد قد تمت مهاجمتها في بلد أو بلدين أوروبيين. فلقد أعلن أحد القضاة في محكمة إنجليزية عام ١٧٧٢ أنه لا توجد عبودية على أى أرض إنجليزية. وبعد خمسة عشر عاما اشترت مجموعة من

محبى الإنسانية بعض الأميال المربعة فى شبه جزيرة سيراليون Sierna Leone^(٤) لأغراض إسكان العبيد الزنوج المحررين فى إنجلترا وعبر المحيط فى كندا. ومن تلك البداية الصغيرة، والتى حدثت نتيجة لتأنيب الضمير لبعض الرجال الخيرين نما الطوفان والتكالب المتزايد للتدخل الأوروبى فى أفريقيا الاستوائية خلال القرن التالى. ولكن لم يتمكن أحد أن يتنبأ بذلك على الإطلاق.

ولكن كان تغير ميزان القوى بالنسبة للمعاصرين فى منطقة البحر المتوسط أهم بكثير من تزايد القوة الأوروبية فى أفريقيا الاستوائية. وكانت للهند لكل من بريطانيا وفرنسا وطرق المواصلات المؤدية إليها أهمية استراتيجية كبرى. وحينما تحاربت الدولتان فى نهاية القرن فلقد انساقا معا للاستيلاء على منطقة رأس الرجاء الصالح من الهولنديين. وكان رد نابليون مفاجئا فى احتلاله لمصر، كما ظهر ضعف الإمبراطورية العثمانية أمام القوى العسكرية الأوروبية واستسلمت جيوش المماليك بعد معركة واحدة بجوار أهرامات الجيزة عام ١٧٩٨. ولكن خرج الفرنسيون من مصر بعد ثلاثة أعوام فقط بفضل المساعدة البريطانية الهائلة للدولة العثمانية. وكان ملائما للجبرتى وهو أحد مواطنى القاهرة وشاهد عيان لتلك الأحداث وآخر المدونين المسلمين التقليديين فى مصر أن يقول:

"لقد كان وجود الفرنسيين فى مصر غير محتمل على الإطلاق... وكان المسلمون يموتون من الخجل حينما يرون زوجاتهم وبناتهم وهن يسرن فى الطرقات سافرات الوجه وكأنهم ممتلكات للفرنسيين... وكان من الإساءة لهم أيضا مشاهدة الحانات التى ظهرت فى كل الأسواق، بل فى بعض المساجد أيضا... واستفادت حثالة السكان من الحرية الجديدة المتاحة لهم. ولكن عانت الصفوة والطبقة المتوسطة من كافة أنواع المضايقات".^(٥)

(٤) وتعنى جبال الأسود بالأسبانية. (المترجم)

(٥) Chronique d'Egypt 1798-1804 ed and TvGaston Weit (cairo 1950) P.45

وكان ما حدث يمكن تكراره من جديد. ولكن الغريب أن ذلك لم يحدث إلا
بعد ثمانين عاما أخرى.

الفصل الثاني

أفريقيا جنوب الصحراء

بلاد البانتو

إن جغرافية ومناخ أفريقيا جنوب خط الاستواء أقل بساطة بكثير من تلك الخاصة بالنصف الشمالي للقارة. ولكن، وباختصار شديد، فإن أراضي الإستبس المرتفعة الجافة تمتد جنوبا في المرتفعات الأنثيوبية عبر وسط شرق أفريقيا. ثم نعبّر بعد ذلك في اتجاه الجانب الغربي لشبه القارة وتنتهي في صحراء كالاهارى في الأراضي الجافة لبوتسوانا ودولة أورانج الحرة Orange Free State من جهة وأراضي ناميبيا Namibia من جهة أخرى. ولكن تمتد من جهة أخرى أراضي تتميز بالرطوبة والانخفاض من جنوب الكاميرون إلى النصف الشمالي لحوض الكونغو إلى بحيرتي تنجانيقا ومالاوي. وتستمر من هناك إلى وادي الزامبيزي جنوبا إلى ساحل المحيط الهندي وتلتف حول جنوب موزمبيق إلى ناتال. وبصفة عامة فإن بلاد الإستبس تلائم الرعي أكثر من الزراعة، وتكون بالتالي أقل سكانا. وكذلك في الغابة الاستوائية فإن الزراعة لا تصلح إلا في المناطق الخالية من الأشجار وبجوار شواطئ الأنهار وسواحل البحر حيث يمكن للضوء أن يدخل، وحيث يمكن المزج بين زراعة صغيرة وصيد السمك. كما أن أفضل ظروف إنتاج الغذاء توجد في أراضي الحدود بين المنطقتين وبالذات في منتصف شبه القارة، وتوجد هنا أكثر الكثافة السكانية. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر وجدت أعقد وأكثر النظم السياسية تركيزا.

وتوجد خاصية مهمة بالذات بالنسبة للشعوب القاطنة في أفريقيا جنوب خط

الاستواء. وهى أنهم يتكلمون جميعا لغات قريبة للغاية من بعضها البعض من فرع لغوى يسمى لغات "البانتو" Bantu (من اسم عام "مونتو" Muntu) بمعنى رجل وجمعها "بانتو" Bantu الناس أو الشعب. وأقرب اللغات لها خارج المنطقة هى لغات جنوب غرب أفريقيا. والاستثناءات على تلك القاعدة أى الشعوب التى لا تتكلم لغات البانتو توجد كلها فى المناطق الجافة للشمال الشرقى (فى جهات من كينيا وتنزانيا) والجنوب الغربى؛ حيث تكون أعمال الزراعة صعبة. ولذلك يبدو بالتالى أن المتحدثين بالبانتو كانوا أول المزارعين فى ذلك الجزء من أفريقيا. أما "المهد" الذى تفرقوا منه فهو المنطقة ذات الأشجار فى شمال غرب الغابة الاستوائية فى المنطقة التى هى اليوم وسط جنوب الكاميرون.

وربما بدأت الهجرة من حوالى ٣٥٠٠ عام، وانتشر البانتو الأوائل جنوبا من تلك المنطقة، بينما انتقلت جماعات أخرى عبر حوض نهر الكونغو بواسطة الأنهار إلى أن بلغوا أراضي السافانا جنوب الغابة، بينما وصل آخرون إلى مناطق الأشجار الخفيفة المجاورة للغابة، فى الشمال والشرق والجنوب. ومن تلك الخطوط الواضحة لانتشارهم تطورت فى البداية تقاليد بانتو غربية ارتبطت بها القيادة السياسية بالمهارة فى صناعة المعادن وبالذات فى صناعة الأدوات والأسلحة، ثم (فيما بعد) تقاليد بانتو شرقية تميز بها الحكام بواسطة أملاكهم وقدرتهم السياسية على إدارة قطعان كبيرة من الماشية.

البانتو الغربيون

أما بالنسبة للبانتو الغربيين فإن منطقة الأشجار الخفيفة الممتدة من ٥٠٠ إلى ٧٠٠ ميل (٨٠٠-١٠٠٠ كم) جنوب الغابة فإنها قدمت ظروفًا تكاد تكون نموذجية لصناعة الغذاء فى عصر الحديد. وكانت الأمطار ملائمة ولكنها ليست كثيفة للغاية. ووجد صيد أسماك بوفرة فى الفروع الجارية شمالا لنظام ملاحه نهر الكونغو،

بالإضافة إلى صيد الحيوانات فى مناطق الغابات المجاورة لشواطئ الأنهار مع وجود مساحة أراض كبيرة دون أشجار بين مجارى المياه. وكانت المنطقة كلها ثرية بخام الحديد، كما وجدت رواسب وطبقات كثيرة من النحاس سواء شمال نهر الكونغو الأدنى فى ميندولى Mindouli وجنوبا فى كاتانجا. وفى ذلك الجزء من الإقليم شمال وجنوب الكونغو الأدنى أقامت شعوب تتكلم لغات الكونغو والمبوندو Mbundu والتي كونت دولا صغيرة تحت حكم أسر مالكة، وتخصصت فى تحويل الحديد والنحاس إلى أدوات وأسلحة. وفى فترة ما حوالى القرن الرابع عشر تمت هجرة محلية لمتحدثين بلغة كونغو مسلحين جيدا فى اتجاه الجنوب عبر نهر الكونغو الأدنى وهزموا المبوندو الشماليين. وأدى ذلك إلى إنشاء دولة كبيرة شملت معظم شمال أنجولا Angola الحالية. وعندما اكتشفها البرتغاليون فى نهاية القرن الخامس عشر كانت مملكة الكونغو فى عنفوان قوتها. وتوجد وثيقة من القرن السادس فى أرشيفات الفاتيكان تصف سلطة ملوك الكونغو بالعبارات التالية:

"يوجد على رأس مملكة الكونغو ملك للملوك وهو السيد المطلق لشعبه، ولا يجرؤ أحد أن يتدخل فى شئونه، ويحكم كما يريد، ولا يحكم لأى قانون، ويجب على رؤساء القرى بالذات الاهتمام بجباية الضرائب من أتباعهم والتي يستحقها الملك، ثم يحملها كل منهم إلى حاكم إقليمهم. ثم يحمل حاكم الإقليم بنفسه مرتب كل عام إلى العاصمة الملكية لسداد الجزية. وإذا ما سر الملك فيجيب بكلمة (ووت) أى لقد أحسنت. وفى تلك الحالة يفهم الحاكم أنه نال الرضا الملكى ويصفق كثيرا بيديه. وكتعبير عن سعادته فإنه يلقي نفسه أرضا ويغطي جسمه بالتراب. ويفعل خدمه الشئ نفسه ثم يأخذونه على أكتافهم ويسرون به عبر المدينة ويمدحونه. ولكن إذا لم يقل الملك كلمة ووت فإنه يعود خائبا، ثم فى المرة التالية يهتم تماما بإحضار جزية أكبر. ولا تحدد قيمة تلك الجزية؛ إذ يحضر كل حاكم ما يقدر عليه. ولكن إذا لم يتصرف الحاكم بطريقة أفضل فإن الملك يوبخه بشدة ويعزله من

منصبه. ومثل هذا الرجل يتحول إلى فقر يضارع أفقر فقراء السود".^(٦)

ولكن وبحلول القرن الثامن عشر فإن مملكة الكونغو قد تحولت إلى مجرد نكري. وخلال القرن الأول لاتصالها بالبرتغاليين فإنها قد مدت حدودها كثيرا بواسطة الحروب والغزو، ولذلك فإن البرتغاليين قد وجدوا شركاء أفضل في تجارة العبيد في ممالك الميندو المستقلة جنوب الكونغو، وأنشأوا بجوارها مستعمرة دائمة عام ١٥٧٥ على جزيرة لواندا Lunda، وهي نواة دولة أنجولا فيما بعد. وقام أوروبيون آخرون بالتجارة مع ممالك الفيلي Vili شمال نهر الكونغو، حيث نظم التجار المحليون طرق تجارة ناجحة تمتد لمسافات طويلة إلى الداخل، واستخدموا الأنهار كلما كان ذلك ممكنا. وتفككت مملكة الكونغو آنذاك إلى مكوناتها الأصلية في البداية ثم إلى تقسيمات أصغر فيما بعد. وحينما توسعت المستعمرة البرتغالية ببطء شمال الساحل فإن الدول التي خلفت مملكة الكونغو قد أصبحت خلفية تجارية برتغالية حيث مارست عائلات من التجار نفوذا أكبر.

أما في شرق منطقة الكونغو والميندو وعبر بحيرة تتجانيقا مباشرة فإن منطقة السافانا جنوب الغابة الاستوائية قد احتلها فرع آخر من شعوب البانتو الغربيين، وكان أهمها اللوبا Luba واللواندا.

وأقام اللوبا بجوار منابع نهر الكونغو المعروف هناك باسم اللوالابا والذي يتجه ناحية الشمال مع العديد من فروعه من هضبة كاتانجا الغنية بالنحاس، ويكون مجرى مياه بين نهري الكونغو والزامبيري. ويوجد شمال هذا الحاجز المائي وحيث يتجه نهر اللوالابا عبر مجموعة من أحواض الأنهار المعروفة بمنخفض الأويмба Uyemba امتزاج ممتاز بين صيد الأسماك والزراعة، بالإضافة إلى وجود كفاءة متقدمة في صناعة معدني الحديد والنحاس مما أدى في الألفية الثانية بعد الميلاد إلى وجود كثافة سكانية كبيرة للغاية. ونظم السكان أنفسهم في مجموعات

(٦) Vatican document cited in Cuvelier and L'Jardin, L'Ancient Congo d'après les archives romaine (Brussels 1954) pp.33-4.

من الممالك الصغيرة تذكر المرء بنموذج الكونغو. ويبدو أن اللوبا قد كونوا أول الدول. ولكن عند نهاية القرن الثامن عشر فإن أهم مملكتين قد كونتا مملكتا اللواندا على الغرب والجنوب. ومملكة مواتا يامفو التي شملت كل الجانب الجنوبي الغربى لزائير الحالية، ومملكة مواتا كازمبي بجوار نهر لوابولا بجنوب كاتانجا الحالية. وكانت تلك الدولتان الكبيرتان ما هما إلا مركز مجموعة كبيرة من الدول الأصغر التي شملت كل جنوب زائير الحالية وشرق أنجولا وشمال زامبيا. وكان ملوك مملكتي اللواندا الكبيرتين والعديد من الدول المجاورة "ملوك الهيون" مثل الذين وجدوا في دارفور وواداي (انظر فيما سبق الفصل الأول) والعديد من الدول الأخرى في أفريقيا جنوب الصحراء، وكانوا يأكلون ويشربون سراً، ويمارسون الفحشاء الملكية مع شقيقاتهم الملكات، ويشاركون سلطة الطقوس أمهاتهم الملكات، ويستخدمون الوسطاء الروحانيين للاتصال بأجدادهم من الملوك. وكشعار لسلطتهم كانوا يستخدمون النار في الفرن الملكي والتي كانت تنقل منه مشاعل مشتعلة إلى مراكز حكم كل الزعماء التابعين. وكانت عواصم الملوك اللواندا، بالرغم من عدم استمرارها مثل مدن غرب أفريقيا، مراكز هائلة للحكم والتجارة. وكان سكان القصر عديدين لأن الملك كان لديه مئات الزوجات من كل عائلات البلاد الرئيسية. وكان رجال البلاط كثيرون، وأيضا العمال الفنيون المهرة من صانعي الفخار والحدادين والنساجين وصناع السلال وصناع الجعة وناقشي الأخشاب والصيادين والتجار الذين يرتكزون حول العاصمة ويعيشون من الغذاء الذي ترسله الأرياف المجاورة كجزية. ووصف الرحالة الألماني "ليو فروبينيوس" Leo Frobenius تلك المدن عند زيارتها عام ١٩٠٦ بما يلي:

"حينما دخلت منطقة الكاساي Kasai وسانكورو وجدت قرى ما زالت موجودة والتي تمتد طرقها الرئيسية على الجانبين ولمسافة أميال وبها صفوف من أشجار النخيل. وكانت منازلها رائعة الزينة، كل منها تحفة فنية رائعة. وكان كل رجل يحمل أسلحة فخمة من الحديد أو النحاس مزخرفة من الداخل وسيوف

دمشقية. ووجدت في كل مكان أقمشة وأنسجة حريرية. وكان كل كوب وكل أنبوب تدخين وكل ملعقة تحفة فنية أيضا يمكن مقارنتها بمنتجات أوروبا»^(٧)

البانتو الشرقيون

بالرغم أن شعوب البانتو الغربيين قد استقروا ناحية الجنوب إلى ناميبيا جنوب حزام نحاس كاتنجا فإنه قد وجد بينهم شعوب بانتو شرقية والذين توسع أجدادهم حول الحواف الشمالية الشرقية للغابة الاستوائية. وأحضروا قطعانهم من الخراف والماعز وأنشأوا نظاما مختلفا تماما من الاستيطان في أوطان متفرقة وليس أبدا في قرى مركزية.

وكانت مراكز استقرارهم المبكرة في شرق أفريقيا هي "المنطقة الداخلية" بين بحيرات ألبرت وفيكتوريا وتانجانيقا. ومن هناك وخلال بداية الألفية الأولى بعد الميلاد انتشروا شرقا إلى ساحل المحيط الهندي وجنوبا إلى وسط وجنوب أفريقيا. وحينما زاد عدد السكان فإن البانتو الشرقيين تماما مثل أقرانهم الغربيين قد كونوا دولا ذات صيغ ملكية. ثم أدت عملية المنافسة والفتح بين الدول الصغيرة الأولى إلى ظهور دول أكبر. وفي المنطقة الداخلية وبحلول نهاية القرن الثامن عشر نمت ست دول كبيرة وهي بوجاندا وبونيورو وأنكولي وكاراجوي ورواندا وبوروندي مثلما يظهر في خريطة (٤).

وبالرغم من عدم كونها في حجم دول الحزام السوداني فإنها ربما كلها قد بلغ عدد سكانها نصف مليون إنسان أو أكثر. ومثل الدول السابقة على الإسلام في السودان فلقد حكمهم ملوك مؤلهون يحكمون بواسطة حاشيات منظمة في البلاط ورؤساء المناطق. مثل ما في ممالك الموآتا يامنو والموآتا كازمبري، فلقد وجدت

L.Frobenius, Histoire de la civilisation africaine (Paris 1952) P.15 (٧)

عدة دول صغيرة حول الدول الأكبر، وسدد بعضهم الجزية لهذه المملكة الكبيرة أو تلك. ولكنها كانت عمليا مستقلة عنها كلها.

وشعر الرحالة الأوروبيون الأوائل عندما وصلوا إلى تلك المنطقة في منتصف القرن التاسع عشر أنهم دخلوا عالما جديدا. فلقد ساروا ثمانمائة أو تسعمائة ميل (١٢٥٠-١٤٠٠ كم) من الساحل الشرقى عبر مناطق ضيقة وعرة لا يتعدى عرضها بضعة بوصات، وعبر أقاليم غير كثيفة السكان وحيث كانت المؤن صعبة المنال ومياه الشرب مشكلة كبرى. وفدوا في معظم سفرهم وكل يوم سفر إلى أرض أحد صغار الحكام واضطروا للتفاوض معه ليسمح لهم بالعبور. ثم وجدوا أنفسهم فجأة في عالم من الثراء والنظام. وهنا كانت رغبة الحاكم أو سلطته تمتد لمائة ميل بعيدا عن عاصمته. وكان رسله يسافرون عبر طرق عريضة مشيدة بطريقة حسنة إلى مركز الإقليم أو المنطقة التى يتوجهون إليها. وفى عام ١٨٦٢ أقام سبيك وجرانت Grant مع الملك رومانىكا من كاراجوى Karagwai الدائم الابتسام، بينما سارع الرسل بالسفر لإعلان وصولهم إلى كاباكا موييتسا Mutisa فى بوجندا Buganda. وبعد منحهم جوازات سفرهم صاحبهم فى بقية رحلتهم مرشدون ملكيون، كما تم إمدادهم بالطعام والمسكن فى نهاية كل يوم سفر. ووطورت شعوب البانتو الشرقية الأخرى دولا مركزية كبيرة فى منطقة أخرى بين نهري الزامبيزي والليمبوبو فى زيمبابوى وجنوب موزمبيق. وكانت منطقة غنية بالذهب والنحاس والعاج حيث تجار المحيط الهندى فى القرن العاشر على الأقل. وبنيت فى العصر نفسه تقريبا بعض المناطق السكنية كثيفة السكان والتى تحميها أسوار مبنية من الحجر مما يدل على كونها مدنا كبرى أو عواصم. وكانت أولى النماذج بجوار وادى الليمبوبو ولكن الموقع العالمى الشهير لزيمبابوى الكبرى قد شيد حوالى ١٥٠ ميلا (٢٤٠ كم) شمالا فى منطقة ريمونة أساسا عند السفوح الجنوبية لهضبة زيمبابوى وأقام بها الناس. وتطورت تلك المدينة تدريجيا من منتصف القرن الحادى عشر إلى منتصف القرن الخامس عشر، وازدهرت إلى أن

تم هجرها فجأة. ثم ظهر مركز حكم جديد عند الحافة الشمالية للهضبة، وأشرف على وادي زيمبابوى حيث حكم ملك الملوك الذى يدعى الموينى موتابا والذى امتلك قطعانا كبيرة من الماشية التى كانت ترعى فوق منطقة الهضبة، كما تسلم الجزية من صيادى الأفبال وتجار العاج فى وادي زيمبابوى. وبعد أن استعمر البرتغاليون الجزء الأسفل من الوادى فى القرن السادس عشر بدأوا فى التدخل فى صراعات الخلافة فى مملكة الموينى موباتا وساعدوا المرشحين الموالين لهم. ولذلك أصبحت الأسرة الملكية تحت التأثير البرتغالى فى نهاية القرن السابع عشر لدرجة أن أسرة حاكمة منافسة تسمى الروزفى Rozvi قد آل إليها الحكم فى دولتهم فى بوتوا Butwa وسيطرت على معظم هذا الإقليم فى القرن الثامن عشر. وبالرغم من أن العاصمة الوسيطة لزيمبابوى الكبرى قد وجدت فى تلك المنطقة إلا أنها لم تعد مهمة بالمرّة. وشيدت عواصم الروزوى ناحية الشمال بين جويرو Gweru وبولاوايو Bulwayo. كما دلت دراسة آثارها مثل تلك الموجودة فى ناليتالى Nalitall والزولو إلى اكتشاف آثار من تلك الفترة.

تجارة بانىو أفريقيا

تتميز دول الباننىو وتختلف عن مثيلاتها فى الحزام السودانى لأفريقيا بأنها قد عزلت تماما عن العالم الخارجى ولم تحتك به أبدا. ووجدت دول الباننىو الأكبر داخل القارة، وإلى القرن الثامن عشر لم تصلها أبدا أى تأثيرات إسلامية والتى كانت مهمة للغاية لكونها مظهرا مميزا للسودان. وانتشرت بعوضة التسي تسي لدرجة أن الدواب كانت غير متداولة بالرغم من وجود قطعان ماشية فى مناطق محدودة. ووجب حمل كل شىء على الأكتاف عدا النقل فى الأنهار. وبالقدر الذى نعرفه اليوم فإن الطرق المائية الوحيدة المتوغلة داخل القارة أثناء العصور الوسطى قد كانت تلك المنطقة بنهرى الزامبىزى والليموبو من ساحل جنوب

موزمبيق. وهنا كان العرب السواحليون فى كلوا Kilwa ومناطق أخرى شمالية يتاجرون بالأقمشة والأنسجة مقابل الذهب والعاج من القرن العاشر على الأقل. وحل البرتغاليون محل السواحليين العرب فى القرن السادس عشر فى الزامبيزي وبالتالى سقطت خطوط المواصلات بين أيديهم.

ولكن كان أهم مظهر فى المساهمة البرتغالية هو فتحهم للساحل الأطلنطى لبانتو أفريقيا على التجارة البحرية مع أوروبا وجنوب أمريكا. وكان أول أعمالهم فى ذلك الاتجاه الاتصال بمملكة الكونغو، حيث جعلوا من ملوكهم حلفاء لهم. كما أمدوهم أيضا بالمبشرين بالمسيحية والمعونة الفنية والعسكرية. ولكن تغيرت اهتماماتهم بعد مائة عام جنوبا إلى لواندا وبنجويلا حيث من الأسهل هناك جلب العبيد أكثر من الكونغو. فلقد احتاجوا إليهم بكميات متزايدة للعمل فى مزارع السكر فى مستعمرتهم فى البرازيل. وحصلوا على طلباتهم من العبيد من جهة بواسطة الحروب الصغيرة التى شنها حلفاؤهم الموبندو ضد موبندو آخرين مقيمين على بعد أكبر فى القلاع البرتغالية فى وادى كوانزا. كما حصل البرتغاليون على العبيد بواسطة الشراء من وكلائهم التجاريين الأفريقيين (ويسمون بومبيروس بالبرتغالية فى بومبي وهو سوق فى منطقة ماليبو) فى الأسواق الداخلية. ولاحظ تاجر الرقيق جيمس باربوت James Barbot عام ١٧٠٠ أنه: . .

"يمتلك هؤلاء العبيد عبيدا آخرين يتبعونهم، وربما كانوا مائة أو مائة وخمسين، ويحملون أغراضهم على رؤوسهم إلى داخل البلاد. ويظل هؤلاء البومبيروس أحيانا لمدة عام فى الداخل ويحضرون معهم أربع مائة أو خمس مائة أو ستمائة عبد"^(٨)

وبتلك الطرق اتصل البرتغاليون بطريقة غير مباشرة بمملكة اللواندا لمواتا يامبفو والدول الكثيرة التابعة لها. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر حصلت أهم

(٨) A.and J.churchill,Collection of voyages and travels (London 1732) vol. 5,p.522

ممالك اللواندا على الأسلحة النارية والملابس وباقي مواد الرفاهية الأوروبية، كما تطورت صناعاتهم بقوة من خلال التعلم من النماذج الأوروبية. فصنع حدادو اللواندا الفئوس الرائعة وأدوات قطع في العصر التالي للاتصال بالأوروبيين. وأصبح غذاء المانيوك (أوكاسافا) وهو محصول في أمريكا الجنوبية أدخله البرتغاليون لإطعام العبيد المنتظر شحنهم إلى العالم الجديد سريعا، وقد كان الغذاء الأصلي لكل منطقة جنوب زائير.

وكانت المنطقة المهمة التي ظلت بغير اتصال مع العالم الخارجي إلى نهاية القرن الثامن عشر هي المنطقة الداخلية. فتقع غربها الغابات الاستوائية، وشمالا مستنقعات النيل، وشرقا هضاب كينيا التي يقيم بها الرعاة المحاربون مثل الناندي Nandi والماساي Massiey. وكانت أسهل طرق الاتصال من الجنوب الشرقي، ولكن مرت فترة طويلة حتى تطورت.

ولا يبدو أن المجتمعات العربية السواحلية على الساحل قد كان لها أي اتصال إلا مع الشعوب الساحلية ولم يتصلوا بغيرها من المقيمين شمال الزامبيزي. وبالتأكيد فإن البرتغاليين لم يعرفوا شيئا عن الداخل حتى عن طريق الأخبار المتدولة، وذلك عند احتلالهم لهذا الساحل في القرنين السادس عشر والسابع عشر.

ولم يبدأ الاتصال بالداخل فعلا إلا حينما استولى عرب عمان (في الخليج العربي) على شمال ذلك الساحل من البرتغاليين في بداية القرن الثامن عشر. وتطور الاتصال بالداخل آنذاك ولكن كان عملاء العمانيين هنا هم شعب النياماويزي في غرب تنزانيا. والذين وجدوا طريقهم إلى الساحل لبيع العاج. وخلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر استمر النياماويزي في التنظيم والقيام بمعظم التجارة المحمولة في شرق أفريقيا. وعبرت قوافلهم المنطقة كلها من كاتنجا إلى المحيط الهادي. وساروا مسافات طويلة بحمولات ثقيلة، وكانوا لا يأكلون أو يشربون كثيرا في الأحراش. ويروي الرحالة الأوروبيون الأوائل كيفية استعداد

صبية النيماويزى لهذا الأسلوب الشاق فى الحياة بأن يحملوا حمولات صغيرة على أكتافهم عند تجوالهم فى قراهم. ويذكر التاريخ التقليدى أن أول شحنات الأطباق والأكواب والسكاكين والسلع القطنية قد وصلت إلى مملكة بوجندا فى قلب المنطقة الداخلية فى نهاية القرن الثامن عشر فقط.

كما تذكر التقاليد المروية أنه منذ ذلك العصر فصاعدا أن التجارة قد نمت باطراد وبسرعة كبيرة ووصلت فى جنوب بحيرة فكتوريا وعبر بلاد النيماويزى إلى ساحل زنجبار.

جنوب أفريقيا: البانتو والبوير^(٩) Boer

توجد منطقة أخرى من بانتو أفريقيا والتي لم يكن لها اتصال مباشر تقريبا بالعالم إلى نهاية القرن الثامن عشر ونعنى بذلك منطقة جنوب الليمبوبو، وهى جمهورية جنوب أفريقيا اليوم. وأقامت هنا مجموعتان من الشعوب البانتو الشرقية وهما السوفو-تساوانا على الهضبة غرب جبال الدركنسبرج^(١٠) Draakensberg وهى منطقة الترانسفال، ودولة أورانج الحرة فيما بعد وشعوب النجوني (الزولو والسوازي والبوندو والثومبو والإكسوزا (Xhosa) فى السهول الساحلية الخصبة المروية جيدا لناتال والترنسكاى Transkei. ولم تقم تلك الشعوب دولا مركزية مادام لها مجال للتوسع بقطع الأحراش واحتلال المناطق الهامشية. فلقد أقام السوفو

(٩) وتعنى كلمة Boer بالهولندية "الفلاح"، وهم المزارعون الهولنديون الذين استقروا فى جنوب أفريقيا. ويقابل تلك الكلمة Bonir بالألمانية. ويتكلم البوير أو الأفريكانز لغة مشتقة من اللغة الهولندية وتعتبر مجرد لهجة منها. ويتفاهم الهولنديون المعاصرون مع متحدثى الأفريكانز دون مشاكل ولا يتعدى الفرق إلا تبسيط قواعد اللغة الهولندية فى الأفريكانز. وتقترب منها كثيرا أيضا لغة الفلانيل Flanani فى شمال بلجيكا. واللغة الهولندية فى فروعها الثلاث أدب جميل يتميز بالحيوية والتعبير عن مجتمعات تتغير بسرعة فائقة. (المترجم)

(١٠) وتعنى Draakensberg جبال التين بالهولندية. (المترجم)

فى تجمعات كبيرة شبيهة بالمدن ويسكن بها من حوالى ١٠,٠٠٠ إلى ١٥٠,٠٠٠ نسمة. وكثيرا ما شيدوا أسوارا من الأحجار حول تجمعاتهم ولكن ينمو إحداها لدرجة كبيرة فيتم إرسال مستوطنين لإقامة مركز آخر. أما النجومى فلقد أقاموا فى أماكن متفرقة ثم جمعت فى وحدات تحت قيادة زعيم يحكم حوالى ١٠,٠٠٠ من رعاياه. ثم ينقسمون ثانية حينما يزداد عدد السكان كثيرا فى الوحدات السياسية. وبحلول نهاية القرن الثامن عشر فقط بدأت مجموعاتان من النجومى اللتين تقيمان عند الحافة الشمالية لبلاد النجومى فى مواجهة مشكلة عدد السكان بتجنيد شبابهم فى كتائب عسكرية من أجل غزو وإخضاع جيرانهم. وسوف تظهر تلك المجموعتان خلال بداية القرن التاسع عشر كأمم الزولو والسوازى. ولكن إلى ذلك العصر وبالرغم من النظم السياسية غير الثابتة الدعائم فإن بانتو جنوب أفريقيا يبدو أنهم قد عاشوا فى رغد من العيش نسبيا وبالذات بعد إدخال زراعة الشعير وهو محصول من العالم الجديد انتشر من محطات التجارة البرتغالية فى جنوب موزمبيق. وعلق الزوار الأوروبيون الذين مروا بتلك المنطقة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ومعظمهم ناجون من سفن غارقة عند الساحل المشهور بعواصفه الهائلة على القطعان الكبيرة للماشية. ولكنهم لاحظوا أيضا ندرة الأدوات الحديدية باستثناء المنطقة المجاورة لخليج ديلاوا. وأرسل حاكم منطقة رأس الرجاء الصالح وهو سيمون فان در ستيل رسالة إلى رؤسائه فى هولندا عام ١٦٨٩ يخبرهم فيها برحلة طاقم سفينة غرقت وهى الستافنيس. ووصف بلاد الماجوسيبى (وهم ذاتهم الأما خوسا) كما يلى:

"وتتكون ثرواتهم من الماشية والقطعان وأيضا النحاس والحديد. وتتميز بلادهم بالثراء، وهى كثيفة السكان وملينة بالماشية. ولذلك لا تضطر الحيوانات الضارية لمهاجمة الإنسان لوجود الكثير من الماشية لالتهامها. ويحتفظون بمؤنهم تحت الأرض؛ حيث تظل صالحة وخالية من الحشرات لأعوام. وهم مهذبون للغاية فى علاقاتهم بالآخرين، ويتحدثون ويحيون بعضهم الآخر سواء كانوا شبابا أو كبار

السن، من الرجال والنساء حيثما يتقابلون. ويتساعلون من أين قدموا وإلى أين يتجهون؟ وما هي أخبارهم؟ وهل تعلموا أية أغانٍ أو رقصات جديدة. ويجب الرعايا ملوكهم ويحترمونهم كثيرا، كما يرتدون جلود حيوانات كاسرة كالقهود. ولا يجب القلق أبدا بشأن الطعام والشراب؛ إذ لديهم دار ضيافة للمسافرين في كل قرية، حيث لا يسكنون فقط بل يطعمون أيضا".^(١١)

وسوف يمر أكثر من قرن قبل أن تتصل المستعمرة الهولندية التي أنشئت عام ١٦٥٢ في منطقة رأس الرجاء الصالح بشعوب البانتو الشرقية. وكانت ولاية رأس الرجاء الصالح آنذاك مازالت بلادا للخي Khoi (أو الهوتنتوت) أو السان San (البوشمان أو رجال الأحراش) وهم السكان الرعاة والصيادون السابقون في وجودهم قبل البانتو والذين اقتصر وجودهم آنذاك على الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة، حيث كانوا سكانها الرئيسيين في الماضي. ولم يتوسع المستوطنون الهولنديون في منطقة رأس الرجاء الصالح داخل البلاد إلا ببطء، وطردوا البوشمان وحولوا الخوي إلى خدم ورعاة لهم بعد تحطيم نظامهم القبلي بالتأثير المزدوج للمستعمرين ووباء الجدري. وازدادت قوة العمل بواسطة العبيد الذين أحضروا من السواحل الشرقية والغربية لأفريقيا والممتلكات الهولندية في جزر الهند الشرقية. وازدادت أعداد المستوطنين الهولنديين وعبيدهم بنفس النسبة تقريبا؛ إذ وجد حوالي ١٧,٠٠٠ لكل منهما في نهاية القرن الثامن عشر. وبدأ الزواج المختلط بين المجموعات القريبة في ولاية رأس الرجاء الصالح: أوروبيون وزنوج وخوسيان ومالاويون، مما أدى في نهاية الأمر إلى ظهور السكان الملونين هناك. ولم يواجه الأفريكانز (هولنديو منطقة رأس الرجاء الصالح) والبانتو بعضهم البعض عبر نهر الفش إلا حوالي عام ١٧٧٠م. وكان كل منهما يسرق ماشية الآخر ليلا ثم يتجادلون لإعادتها نهارا. وفي عام ١٧٩٥ استولى البريطانيون على

D.Moodie. The Record ora Series of official porpers relative to the Condition and (١١) treatment of the Native Tribes of South Africa 1838-1842 (Amesterdem 1960) vol.Ip.431

مستعمرة رأس الرجاء الصالح من الهولنديين في عصر الحروب النابوليونية، وأصبحت مشاكل الحدود الشرقية آنذاك خطيرة ومثيرة للتهديد. ولكن كان يمكن حلها إذا توافر صدق النية عند الطرفين والإدارة الحاسمة في الاحتفاظ بحدود دائمة بين مستعمرة رأس الرجاء الصالح وجيرانها البانتو. ولكن حينما عاد البريطانيون نهائيا عام ١٨٠٦ فإن الوضع على الحدود كان قد ساء لدرجة لا يمكن للمفاوضات السلمية حلها، كما أن السيطرة عليه قد أصبحت مستحيلة.

الساحل الشرقي: العرب والسواحليون

وفي نهاية القرن الثامن عشر ظلت أفريقيا البانتو منطقة منعزلة للغاية مقارنة بمعظم أفريقيا شمال خط الاستواء. وكانت المنطقة الوحيدة التي اتصلت لفترة طويلة بحضارة متقدمة ذات آداب مكتوبة وديانة عالمية هي الساحل الشرقي لشرق أفريقيا. وهنا عرف الجغرافيون الإغريق وجود مناطق استيطان تجارية في القرن الأول بعد الميلاد. كما وجدت آثار مساجد مبكرة مبنية من الطين تثبت الوجود الإسلامي منذ القرن الثامن أو التاسع. وأنشأ التجار العرب القادمون من البحر الأحمر أو الخليج العربي مناطق استيطان تجارية. وازدهر بعضها منذ القرن العاشر لدرجة أنها شيدت مبانيها العامة من كتل الأصناف الموجودة بكثرة على الساحل. وتعلم الشعب السواحلي وربما كان من عناصر البانتو الشرقيين المقيمين في أقصى الشمال في فترة مبكرة صناعة القوارب المبحرة في البحر والسفن الصغيرة. كما تولى مقاليد التجارة الساحلية. وقدم العرب عناصر الإبحار طويلة المدى والعابرة للمحيطات. وأقام السواحليون الوطنيون - أكثر من العرب- ثلاثين أو أربعين مدينة ساحلية انتشرت على سواحل كينيا، تنزانيا وشمال موزمبيق. وتعتبر لغة السواحلي بدون شك لغة بانتو شرقية بالرغم من وجود بعض المئات من الكلمات العربية والتي دخلت العديد منها تقريبا منذ فترة بسيطة.

واعتنق معظم سكان المدن السواحلية في القرنين السابع والثامن الإسلام. وجعلهم هذا العامل أكثر من أى عنصر لغوى أو عربى آخر يشعرون بالاختلاف وبالتفوق على جيرانهم من شعوب البانتو الأخرى. ولكن كان تأثير تلك الحضارة السواحلية العربية محدودة للغاية ولا يتعدى الحزام الساحلى. ولكن سبق التجار السواحليون العرب البرتغاليين على الزامبيزى؛ حيث شيدوا موانئ نهريّة مثل سينا Sena وتيتى Tete.

وهنا حرض السواحليون العرب المقيمون فى بلاط الوتابا موينى على قتل الرسول الكاثوليكي الرومانى جونز الودى سليفرا Silveira عام ١٥٦٩، مما أدى بالبرتغاليين إلى بدء حملة لإبادتهم. ولكن فى أماكن أخرى وإلى نهاية القرن الثامن عشر، فإنه لا تكاد توجد إشارة إلى أوجه نشاط السواحليين العرب إلى أكثر من بضعة أميال فقط من ساحل المحيط الهندى.

البرتغاليون فى أفريقيا جنوب خط الاستواء

حضر البرتغاليون بعد السواحليين العرب وإن اقتصر نفوذهم على مملكة الكونغو، وأودية الكوانزا Kwanza والزامبيزى وعلى بعض الجزر القليلة أمام الساحل، ويشمل ذلك لواندا وموزمبيق وكيلوا Kilwa ومومبسا. واعتنق بضعة الآلاف من الناس، ويشمل ذلك الأسرة الملكية، الديانة المسيحية. وكان ملك البرتغال يتراسل مع ملك الكونغو كمساو له ويخاطبه بـ"الأمير والملك القوى للغاية والمبجل شقيقى". وظل العديد من شعب الكونغو مسيحيين لثمانية أو تسعة أجيال إلى أن انقطعت آخر العلاقات والصلات مع أوروبا نظرا للحروب والصراعات التى نشبت داخل البلاد منذ نهاية القرن السابع عشر وبعدها. وعند كوانزا، وأيضا عند الزامبيزى فضل عشرات الآلاف من الأفريقيين أن يروا أنفسهم كرعايا أو حلفاء للبرتغاليين أكثر من أى دولة أفريقية وطنية. وربما اعتنقت

أغلبيتهم المسيحية ولكن لم تحصل إلا أقلية ضئيلة على ثقافة لغوية مكتوبة أو اعتنقوا أساليب الحياة البرتغالية في الحياة والحضارة. ولكن على أى الأحوال فلم تكن العادات البرتغالية في مناطق استيطان نائية في أنجولا وموزمبيق مثيرة للإعجاب^(١٢). وبطريقة أو بأخرى وسواء بالغزو أو فرض الحماية فإن البرتغاليين قد دمروا معظم الدول الأفريقية التي اتصلوا بها مباشرة. ولكن كان تأثيرهم غير المباشر أكثر بكثير على هؤلاء المقيمين على مسافة أبعد قليلا منهم. ولكن دون شك شجع انفتاح التجارة في المحيط الأطلنطي على توسع الدول الأفريقية في داخل أنجولا وموزمبيق تماما مثلما حدث في غرب أفريقيا. وأصاب التدخل البرتغالي الموانا موتابا بالتدهور، لكن ساعدت الظروف المواتية للأسرة الملكية في بوتنا Butna في أخذ مكانتهم وإنشاء أول نظام جمركي فعال، وترتب على إنتاج الذهب في هضبة الزامبيزي. ومرة أخرى دمر البرتغاليون مملكة الكونغو، ولكن أدى وجودهم في أنجولا بالتأكيد إلى صعود أسرة الموانا يامفو في الداخل. فكل من امتلك أسلحة نارية امتلك القوة. ومن امتلك الملابس المصنوعة من القماش فلقد امتلك سلع الرفاهية ليكافئ بها رعاياه المخلصين.

ويحصلون على تلك السلع مقابل العبيد والعاج ويمكن إرسالهم ونقلهم إلى أسواق الحدود البرتغالية بواسطة دول لديها صيادين مسلحين جيدا وطرق قوافل يمكن حمايتها. وكانت هذه الدول فعلا قد أقامها وحكمها حكام على أنماط أفريقية

(١٢) واستمر ذلك الأمر من نهاية القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا. ثم بدأت اللغة البرتغالية في الانتشار داخل المستعمرات البرتغالية بعد زيادة الهجرة البرتغالية إليها ثم محاولة السلطات الاستعمارية البرتغالية استمالة الطبقة الأفريقية المتقنة بمنحها الحقوق السياسية وبعض المزايا الاقتصادية في القرن العشرين، وهم الذين تقبلوا اللغة والحضارة البرتغالية وإن كان عددهم قليلا للغاية.

ولكن استقلت المستعمرات الأفريقية الخمس وهي أنجولا وموزمبيق وغينيا بيساو (غينيا البرتغالية سابقا) جزيرتي فرناو بو وفرنسيبي، و جزيرة الرأس الأخضر بعد ثورة عام ١٩٧٤ في البرتغال. وأدى ذلك إلى انتشار هائل للغة البرتغالية داخلها في الثلاثين عاما الماضية، بل يكاد يصل كتابها الأدبيون إلى مستوى العالمية. ولذلك يبدو أن ما يحدث في أفريقيا الناطقة بالبرتغالية الآن يتشابه إلى حد كبير مع ما حدث في البرازيل منذ القرن التاسع عشر. (المترجم)

بحثة. فلقد كانت دول المواتا يامفو والمواتا كازيبى والروزفى مامبو Mambo يحكمها "ملوك مؤلهون" كما كانت نظمهم السياسية ذات طابع أفريقى بحث. ولكن لا يمكنهم أبدا التطور مثلما حدث دون وجود البرتغاليين فى لواندا وعلى الزامبىزى.

مدغشقر

تقع جزيرة مدغشقر الكبيرة على مسافة ٣٠٠ ميل (٥٠٠ كم) من ساحل موزمبيق، وتقدم مثالا آخر على أنه من الأفضل الإقامة بعيدا عن الأوروبيين عن الاتصال المباشر بهم. وظلت مدغشقر غير مأهولة حتى بداية العصر المسيحى ثم وصل إليها مهاجرون بحريون فى منطقة جنوب شرق آسيا والأسلوب بنفسه الذى حدث فى جزر المحيط الهادى. فيسافر المهاجرون فى قوارب طويلة قوية ويحضرون معهم تقاوى نباتاتهم المحلية المدرة للطعام وبالذات الموز والأرز والتارو Taro. وسادت لغتهم المالاجانية وكانت أقرب اللغات إليها فى جزيرة بورنيو الإندونيسية - بحيث تكلم بها كل المهاجرين التالين وسادت بينهم. وبالرغم من أن مدغشقر لا تملك عاجا ولا معادن ثمينة إلا أنها صدرت مواد غذائية فى إطار التجارة الساحلية للسواحليين العرب الذين أنشأوا مستوطنات فى الجزيرة فى القرن الحادى عشر. وربما كنتيجة لهذا الاتصال استقر مهاجرون أفريقيون من سواحل موزمبيق على الساحل الغربى للجزيرة.

واستورد البرتغاليون والهولنديون تموينهم من تلك الجهات فى رحلاتهم إلى الشرق الأقصى. ولكن لم تلعب مدغشقر دورا مهما فى تجارة العبيد إلا فى القرن الثامن عشر بعد إدخال زراعة البن فى جزر موريشيوس وريونيون^(١٣) Riunion المجاورة.

(١٣) ويلاحظ أن جزيرة ريونيون Riunion فرنسية حتى الآن، حيث فضل سكانها هذا الوضع إلى أيا منا الحالية. (المترجم)

وكان رد فعل المالاغاسي لتلك التجارة شبيها برد فعلا الشعوب الأفريقية لكل أعمال التجارة. فلقد توسعت أقوى الدول تسليحا من بين العديد من الدول الصغيرة على حساب جيرانهم الأضعف، ثم قاموا ببيع أسراهم كعبيد إلى الأوروبيين الذين يتكونون هنا من قراصنة من كل الشعوب البحرية الأوروبية، وظهرت بعض الدول القوية بمساعدة الأسلحة النارية الأوروبية وبالذات دولة شعب الهوفا والذي كان موطنه منطقة صغيرة جيدة الرى حول العاصمة تاناناريف فى منطقة مرتفعة فوق الهضبة الوسطى. وتوسع الملك المحارب العظيم نامبوينا فيما بين أعوام ١٧٨٧ و ١٨١٠ وقام بأعمال غزو منهجية وتوسع سياسى هائل. ولذلك سيطرت الدولة التى يحكمها الهوفا عند وفاته على معظم وسط الجزيرة. ورفع نامبوينا مركزه فى داخل الجزيرة، ومد خطوط المواصلات الداخلية ووطد دعائم مملكة قوية مركزية الحكم.

ولذلك ظل النصف الجنوبى لأفريقيا فى حياته العادية حتى نهاية القرن الثامن عشر تماما مثل النصف الشمالى. ولكن تعاظم وجود تأثير أوروبى أكبر فى الجنوب يوازى ذلك التأثير الإسلامى السائد فى الشمال. وكانت المناطق التى يحكمها الأجانب على الأرض الأفريقية - باستثناء واحد - قليلة الحجم وبدون أهمية تذكر. وأثبتت النظم الأفريقية من جهة أخرى إنها قادرة على التأقلم وإعادة التجمع لاستيعاب الفرص الاقتصادية الجديدة التى أحضرها الأجانب. ووجدت معظم الأسلحة الحديثة التى دخلت أفريقيا عن طريق التجارة طريقها إلى أيدي الحكام التقليديين واستخدمت لتدعيم النظم القائمة. ولكن كان الاستثناء الوحيد لتلك القاعدة هو المستعمرة الهولندية عند رأس الرجاء الصالح، حيث إن غياب الاستيطان الأفريقى هنا والذي اقتصر على بعض الصيادين والرعاة المتجولين قد ترك فراغا سكانيا محليا لا يوجد ما يقارنه فى القارة. ولكن لم تهدف القوى الأوروبية حتى ذلك العصر إلا إلى إنشاء محطة إمداد وتموين فقط عند رأس الرجاء الصالح لتموين ملاحتها عبر المحيطات حتى يمكن الدفاع عنها بسهولة

ومنع الدول المنافسة من استخدامها. ولذلك تحول بعض المئات ثم فيما بعد بعض الآلاف من الأفارقة من خدمة تلك المحطات إلى مستوطنين أفريقيين، وبدأوا فى النمو والانتشار تماما مثلما فعل المستوطنون الأوروبيون على سواحل أمريكا الشمالية. وكانت منطقة شبه جزيرة رأس الرجاء الصالح تتمتع بمناخ البحر المتوسط.

وأدى وجود منطقة مناخ البحر المتوسط حول شبه جزيرة رأس الرجاء الصالح إلى جعلها غير صالحة لمزارعى الحبوب الأفريقيين. وجعلها ذلك الأمر كعب أخيلاس^(١٤) أفريقيا، ولكن لم يتبأ أحد بالمرّة لذلك الأمر فى عام ١٨٠٠.

(١٤) أخيل أو أخيليوس بطل الملحمة الشعرية للشاعر هوميروس فى القرن الثامن قبل الميلاد وهى "الإلياذة". وكانت والدته من الآلهة ووالده من البشر وكان لا يقهر ولا يهزم. ولكن كان موطن ضعفه الوحيد كعب قدمه وهو المكان الذى أطلق عليه عدوه سهما قاتلا وقتله. (المترجم)

الفصل الثالث

انفتاح أفريقيا (١): من الشمال والشرق

كتب المؤرخون تاريخ أفريقيا في القرن التاسع عشر أساسا على أنها فترة زاد الأوروبيون بها نفوذهم وقوتهم استعدادا للغزو فيما بعد. ولكن يجب اعتبارها فترة ساعدت على تموين تزايد للغاية للأسلحة النارية في أفران جديدة تعمل بالفحم وصناعات أقمشة رخيصة من مصانع تدار بالبخار في البلاد الصناعية، حيث إن التجارة العالمية قد اندفعت بشدة إلى أفريقيا بحثا عن فرص التصدير في إطار وسائل النقل القليلة المتاحة. وفي معظم القرن التاسع عشر كان وكلاء هذا الضغط هم الحكام وتجار المناطق الساحلية ويشمل ذلك أولا وبالذات حكام البلاد الإسلامية المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٩): إعادة إحياء تجارة البحر الأحمر

في كل تلك المنطقة من العالم فإن غزو الفرنسيين واحتلالهم لمصر بين أعوام ١٧٩٨ و ١٨٠٠ قد اعتبر نقطة تحول. وأظهر انتصار نابليون الحاسم في معركة الأهرامات التحدى العسكري الفنى للإمبراطورية العثمانية كلها. ولذلك، ومثل العديد من مثل هذه الانتصارات في التاريخ، فلقد أدت إلى رغبة جامحة للمهزومين في تعلم مهارات المنتصرين. ولذلك وبعد نهاية الحروب النابليونية بقليل وجد المعلمون العسكريون الفرنسيون في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كلها. وبالإضافة إلى كتبهم العسكرية فإن الأنكباء وأصحاب الطموح بين طبقة الضباط

الأثرak قد قرأوا كثيرا فى التاريخ الأوروبى والفلسفة السياسية. وقدمت مصر بالذات بعد عصر نابليون قائدا مميزا استطاع فهم معنى الأحداث وتطبيق الدروس التى تعلمها. ولذلك سيطرت شخصية محمد على باشا الكبير على التاريخ - ليس فقط تاريخ مصر - بل ذلك الخاص بكل شمال شرق أفريقيا ومنطقة البحر الأحمر أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر. وجمع هذا الرجل العظيم بين مهارات الحكام الشرقيين المستبدين وفهم عميق لعالم أوروبا المختلف تماما. وكان محمد على رجلا ذا طابع جذاب وعنف لا حدود له، مدير ناجح ودبلوماسى ذكى. وبالرغم من عدم كونه قائدا عسكريا فذا بنفسه إلا أن العديد من أبنائه كانوا قادة ممتازين. واهتم قبل كل شىء بتدعيم موقفه كوال عثمانى لمصر، وأن يجعل تلك الرتبة وراثية فى أسرته. ويضاف إلى ذلك إعادته للنظام والرخاء فى منطقة البحر الأحمر وقدم لمصر إطار الدولة الحديثة.

ولد محمد على عام ١٧٦٩ فى مقدونيا، إحدى الولايات العثمانية فى البلقان، ووصل مصر لأول مرة كضابط فى القوات العثمانية التى أرسلت هناك لصد الحملة الفرنسية، وبمساعدة فيالق الجنود الألبان الموالين له شخصيا بدلا من السلطان العثمانى البعيد فإنه استطاع بحلول عام ١٨٠٥ أن يكون أقوى القادة العسكريين فى القاهرة. وتم تعيينه فى العام التالى واليا على مصر (كلمة تركية تعنى: نائب السلطان، الحاكم) بواسطة السلطان.

وكانت سلطته هشة فى بداية الأمر نظرا لوجود جماعات كثيرة معادية له. ولذلك تصرف بحزم بالغ، ففى عام ١٨١١ جمع معارضيه بدعوة كبار الأمراء المماليك إلى مأدبة فى القاهرة وقتل ٣٠٠ منهم فى زقاق ضيق يؤدى إلى خارج القلعة عند عودتهم. وقد عمق سلطته فى مصر آنذاك ولذلك كرس جهوده فى الأعوام الثمانى التالية فى تأمين منطقة البحر الأحمر. وكان يعنى ذلك قبل كل شىء القضاء على ثورة الوهابيين، وهم أتباع جماعة إسلامية متزمتة ظهرت بين بدو الصحراء العربية. ورفض القادة الوهابيون سلطة الحكومة العثمانية وأربكوا

قوافل الحج السنوية المتجهة إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة. وقضت جيوش محمد علي على تلك الثورة في الحجاز وهزمتهم نهائيا في قلب الجزيرة العربية عام ١٨١٨. وأعاد محمد الديار المقدسة لسلطة سيده السلطان. وظلت حاميات المدن العثمانية في سواكن ومصوع على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر تحت السيطرة العثمانية إلى نهاية حكم محمد علي حينما أجزها السلطان إلى مصر عام ١٨٤٦. وتم ضمها إلى السودان المصري نهائيا عام ١٨٦٥ فقط.

ولكن أدت العمليات المبكرة لمحمد علي في منطقة البحر الأحمر إلى حدوث إحياء كبير للحج، بل ازدادت التجارة بطريقة أكبر. وبدأ البريطانيون في استخدام طريق البحر الأحمر للاتصال السريع مع الهند، كما تحول ميناء جدة، الميناء العثماني في الحجاز، مؤقتا إلى أهم مدينة تجارية بين بومباي والقاهرة.

وأدى ذلك أيضا إلى إحياء طرق التجارة المحلية المتجهة للداخل على الجانب الأفريقي من البحر الأحمر وبالأذات تلك المؤدية إلى الهضاب الأثيوبية. وأرسل الرقيق من النساء الغاليات الثمن إلى الحجاز وحيث يقوم بها طبقة الحاج الأكثر ثراء. ووجد طلب كبير في الحجاز وفي أماكن أخرى من العالم الإسلامي على المسك المستخرج من غدد القط الأرقط الموجود أساسا في ممالك السيداما. كما حدث ازدهار مماثل في تجارة الذهب من إيناديا في الهضاب الجنوبية الغربية، وأيضا في أشجار البن الرائعة التي تنمو في كل منطقة الهضاب. وأدى هذا الرخاء الاقتصادي وبدرجة كبيرة إلى استعادة الدولة الأثيوبية (في المناطق الشمالية لتيجري وأمهارا Amhara) والدولة القوية التابعة لها في شوا Shoa لعافيتها في ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر. ومكنت زيادة التجارة حكام تلك البلاد من إعادة تجهيز جنودهم بالأسلحة النارية بدلا من الرماح.

التوسع المصرى فى السودان

من البحر الأحمر وجه محمد على اهتمامه إلى السودان فى عام ١٨٢٠. ولقد استهلكت الحملات العربية العديد من القوات، ولذلك رغب فى الحصول على إمدادات كبيرة من الجنود الزنوج العبيد فى شرق السودان لجيوشه. ولم تستطع سلطنة الفونج Fong إيداء أدنى مقاومة، وكانت قد فقدت كل سيطرتها على شمال السودان. كما أن دنقلة Dongola كانت فى أيدى مجموعة من المماليك الذين هربوا من بطش محمد على فى مصر. واستطاع ابنه إسماعيل أن يتقدم بسرعة محاذيا نهر النيل ثم هزم المماليك فى دنقلة ودخل عاصمة الفونج سنار دون مقاومة عام ١٨٢١. وتم خلع سلطان الفونج وحصل هو وعائلته على معاش من مصر. ونشبت ثورة قصيرة عام ١٨٢٢ قتل بها إسماعيل. وبعد القضاء عليها تم إنشاء العاصمة السودانية فى الخرطوم عام ١٨٢٤ عند التقاء نهري النيل الأبيض والأزرق، وظلت السودان تحت الحكم المصرى إلى ثورة المهدي فى ١٨٨١-١٨٨٤.

ولكن لم تمتد المزايا الاقتصادية التى حصلت عليها مصر وسواحل البحر الأحمر من حكم محمد على إلى السودان بصفة عامة. ولم تتجح محاولات الإدارة المصرية لزيادة أنواع الإنتاج الزراعى بواسطة توطين مزارعين مصريين فى الجزيرة حول سنار. وفرضت الحكومة أيضا ضرائب منتظمة على السكان المتحدثين بالعربية فى وادى النيل فى الشمال. وأصبح بعضهم ثريا للغاية عن طريق عملهم فى حركة الملاحة الهائلة التى نمت وتطورت على النهر. كما أصبح غيرهم أكثر ثراء من الاشتراك فى تجارة العاج والعبيد فى جنوب السودان. وقدمت القبائل البدوية فى الصحارى الشرقية والغربية لنهر النيل أعدادا كبيرة من الجمال وباقى الحيوانات الأليفة والتى - بعد العاج والعبيد - قد كونت معظم صادرات السودان. ولكن تركزت كل المجهودات المهمة للحكومة المصرية على المنطقة شمال الخرطوم. وكتب محمد على إلى أمين خزانته عام ١٨٢٥ "أنت تعلم

أن غرض كل جهودنا وهذه التكاليف الهائلة هي الحصول على زنج، فقم بتنفيذ أغراضنا في هذا الموضوع الجوهري". ولذلك أرسلت حكومة الخرطوم سنويا حملات عسكرية جنوبا إلى دار فونج Fong وغربا إلى كردفان وجبال النوبة في غارات رسمية لجلب العبيد. ثم تعود ومعها حوالي ٥٠٠٠ أسير لكل منها. ولكن أوقف الشيلوك بمملكتهم المركزية على النهر الأبيض شمال فاشودة، ولفترة توسع المصريين ناحية الجنوب. ولكن كان محمد علي - لرغبته في اكتشاف الذهب - يحث ولاته دائما على الاتجاه جنوبا، وزار السودان بنفسه عام ١٨٣٨ لتشجيع تلك الجهود. واستطاع أحد قادته العسكريين البحريين وهو أحد الأتراك ويسمى سالم في القضاء على مقاومة الشيلوك في مجموعة من الحملات موازية للنيل الأبيض. وأثبت إمكانية الإبحار في النهر لمسافة ٩٠٠ ميل (١٦٠٠ كم) جنوب الخرطوم إلى جوندوكور وفي بلاد الباري بجوار الحدود السودانية - الأوغندية الحالية. ولكن لم يتم حلم اكتشاف الذهب. وبدلا منه ظهرت أهمية منطقة مساحتها مليون ميل مربع مليئة بالأفيال بينما سكانها لا يعرفون شيئا عن تنمية تجارة العاج. ولذلك تطورت التجارة وتوغل التجار بسرعة مع وجود شركات أوروبية في الخرطوم أساسا. وقاومت تلك الشركات عن طريق قنصلها محاولة الحكومة المصرية احتكار تجارة العاج.

وتوازنت القوى المتاحة للتجار والسكان المحليين في البداية تقريبا. وكان التجار في قواربهم المسلحة أقوى ماداموا بجوار النهر ولكن تفوق السكان المحليون برا. وإذا استمرت تلك الأوضاع فإن تبادل السلع - بالرغم من عدم تكافؤ قيمته - قد ظل يتم بهدوء وسلام. ولكن سرعان ما وصل الأمر إلى عدم وجود أفيال بجوار شواطئ النهر، كما حصل السكان المحليون على كل حاجتهم من الأدوات النحاسية والأكواب الرخيصة. ولذلك وجب آنذاك مغادرة شواطئ النهر وإيجاد سلع جديدة تثير اهتمام سكان الداخل الذين كانوا أقل حضارة من أقرانهم بجوار النهر. ولكن واجه التجار الأحوال الجديدة بإحضار جماعات من

العرب المسلمين التابعين لهم وجندوهم فى وادى النيل شمال الخرطوم. ووضعوا هؤلاء الرجال فى معسكرات يسمى كل منها "الزريبة" والتي انتشرت فى كل مناطق السود عند النيل الأبيض وبحر الغزال. ولم يوجد فائض من الطعام لهم ولذلك، اضطروا للهجوم على القرى للتموين. وكان السكان المحليون أو معظمهم رعاة من شعوب النيل واحتياجاتهم المادية بسيطة للغاية ولم يملكوا إلا الماشية ولا شئ غيرها. وتوجهت عصابات مسلحة لنهب القطعان ثم تمت مبادلتها (كثيرا مع الناس الذين سرقوا منهم) مقابل العاج والعبيد. ووصف بيثريك، القنصل البريطانى فى الخرطوم، الوضع عام ١٨٦٣ بما يلى:

"وبدلا من إحضار بضائع أكثر قيمة وحضارة مثل أدوات تناول الطعام، أو أقمشة لصناعة الملابس، كبنود لمبادلتها - وذلك حينما بدأت قيمة أدوات الزينة الرخامية والنحاسية فى فقدان قيمتها وجاذبيتها - إلا أن التجار قد أساءوا إلى أنفسهم بأن توجهوا للإثراء عن طريق نهب وتدمير قبيلة بعد أخرى".^(١٥)

وفى نهاية ستينيات القرن التاسع عشر انتشر نظام "الزريبة" فوق كل المنطقة الواسعة لنظام مياه النيل والكنغو. وشمل ذلك ليس فقط جنوب غرب جمهورية السودان الحالية ولكن أيضا النصف الجنوبى لتشاد ومعظم جمهورية أفريقيا الوسطى. واستطاع أحد التجار المحاربين، ويدعى الزبير رحمت منصور، الذى انطلق من الخرطوم عام ١٨٥٦ أن يجند بعد عقد من الزمان ألف رجل مسلح، وأن يصدر حوالى ١٨٠٠ عبد كل عام، بالإضافة إلى كمية كبيرة من العاج مستخدما طريقا عبر كردفان بعيدا عن كل نقط التفتيش عند وادى النيل الأعلى. وفى عام ١٨٧٣ اعترفت به الحكومة المصرية وعينته حاكما لولاية بحر الغزال، ثم أمدته بحامية صغيرة من القوات النظامية مقابل جزية من العاج قيمتها حوالى ١٥٠٠٠ جنيه إسترلينى كل عام. وفى عام ١٨٧٤ قام الزبير بغزو مملكة كردفان

J.Petherick, Travels in central Africa and Exploration of the white Nile Tributaries 1869 (١٥)
(London 1869) vol.1, p229.

وقتل سلطانها واستولى على طرق القوافل عبر الصحراء المؤدية إلى مصر وطرابلس.

محمد على والقوى الأوروبية

فى عشرينيات القرن التاسع عشر أصبح محمد على أقوى من سيده السلطان العثمانى. وفهم أهمية القوة البحرية بين القوى العسكرية للدول الأوروبية، ولذلك قام بإنشاء البحرية المصرية فى البحر المتوسط وبتكاليف كبيرة. ونشبت أول ثورة كبرى عام ١٨٢١ فى الإمبراطورية العثمانية حينما ثار اليونانيون مطالبين باستقلالهم. ولم يكن السلطان على قدر كاف من القوة لإخماد الثورة، واستدعى محمد على لقمعها. واستطاعت القوات المصرية بسرعة التغلب على الثوار فى جزيرة كريت. وفى عام ١٨٢٤ أبحرت حملة عسكرية كبيرة تحت قيادة ابن محمد على الأكبر إبراهيم باشا من الإسكندرية إلى بلاد اليونان. وانتصر إبراهيم انتصارا باهرا فى المورة (جنوب اليونان) لدرجة أن الثورة اليونانية كانت على وشك الانهيار. وهنا هددت روسيا بالتدخل لصالح اليونانيين المسيحيين. ولتفادى ذلك أرسلت قوة بحرية فرنسية بريطانية مشتركة إلى بلاد الإغريق لفرض هدنة بين الثوار والجيش المصرى. ولكن نشبت المعركة بالصدفة تقريبا ودمر الأسطول المصرى فى موقعة خليج نافارين عام ١٨٢٧. واضطر إبراهيم باشا إلى سحب قواته من المورة فى العام التالى وحصلت اليونان على استقلالها.

وكان ذلك أول هزيمة شديدة لمحمد على، ولذلك طلب مكافأة من السلطان مقابل حملته اليونانية الباهظة التكاليف. ولم ينفذ السلطان وعده بجعل إبراهيم باشا واليا على فلسطين وسوريا، ولذلك استولى جيش إبراهيم باشا على الولايتين عام ١٨٣١ من السلطة العثمانية المباشرة. وهنا شعر السلطان بالقلق الشديد من قوة واليه الهائلة ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا لكبح جماحها. ولذلك اعترف عام

١٨٣٣ بمحمد على واليا على سوريا وفلسطين. ثم فشلت محاولة عثمانية أخرى لطرده من تلك الولايات عام ١٨٣٩، وهزم إبراهيم باشا قوات السلطان هزيمة نكراء. وبدا أن القوات المصرية قد استعدت للزحف على إسطنبول وإملاء شروطها على السلطان الجديد، وكان غلاما يافعا آنذاك. ولكن تدخلت القوى الأوروبية ثانية. وتعهدت بريطانيا بالحفاظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية المتهاوية وذلك بالتعاون مع دول أوروبية أخرى. وبالرغم من التأييد الفرنسي لمحمد على فإنها قد أجبرته على الانسحاب من سوريا عام ١٨٤٠. ولكنه حصل في نهاية الأمر على مكسب كبير؛ إذ حصل على ولاية مصر وراثية في عائلته، كما اعترف السلطان ضمنا بسيطرته على السودان.

ومن أجل مواجهة نقص المجندين للجيش بعد الحملات العربية والسودانية، ونظرا لفشل مشروعه في الحصول على عبيد زنوج كجنود، جند محمد على في جيشه أبناء مصر من الفلاحين. ومنذ الفتح العربي في القرن السابع للميلاد كان كل جنود مصر من الأجانب. ولكن بدأ المصريون آنذاك في الالتحاق بالجيش ووصلوا فيما بعد في أواخر القرن التاسع عشر إلى رتب الضباط. وأدى ذلك إلى حدوث تأثير كبير ونمو الحركة القومية في مصر. واستعان محمد على أيضا بالمعلمين والمستشارين العسكريين - وبالأخص الفرنسيين - لإنشاء كليات للطب والمدفعية والهندسة. وكانت نتيجة ذلك ترجمة الكتب التعليمية الأوروبية إلى اللغتين العربية والتركية كما تعلم أدكى الضباط المصريين الشباب الفرنسية، مما جعلهم يحصلون على قدر وفير من الأفكار السياسية والعسكرية الغربية. وفي ذلك العصر كان للبلاد الأوروبية احتكار يكاد أن يكون كاملا لصناعة الأسلحة الحديثة، ولذلك كان محمد على يعتمد تماما على أوروبا للحصول على الأسلحة والمعدات العسكرية. ولكنها كانت مكلفة للغاية وباهظة الثمن، كما أن عنصرا مهما للغاية في اتجاهه للإصلاحات الإدارية والاقتصادية التي ميزت معظم حكمه والباقي ذكرها حتى اليوم قد كانت حاجته للحصول على المال لسداد ثمن الأسلحة. ولكن اهتم محمد

على ووزراؤه أيضا بتحديث مصر لصالح شعبها الذي عاش طويلا تحت ظروف قهر وإرغام. وازدادت مساحة الأراضي المزروعة كثيرا، كما أدخلت زراعة القطن والسكر كسلع اقتصادية، وتم التوسع في زراعة الحبوب. وحلت أرستقراطية جديدة من عائلة الوالى والمقربين منه محل الأرستقراطية المملوكية القديمة من ملاك الأراضي. ولكن لم يؤد ذلك أبدا إلى وضع نهاية للفساد والاستغلال، ولكن أدى إلى نشر العديد من الأفكار الجديدة. ولذلك يرى المؤرخون المصريون وآخرون أن محمد على هو مؤسس مصر الحديثة فعلا. وكان الخطأ الأكبر لحكومته مع ذلك هو تركيز كل السلطات فى يد الوالى فقط. ولذلك لم يستطع حلفاؤه الضعاف والأقل كفاءة السيطرة على الأوضاع التى أنشأها.

الخديوى إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)

توفى محمد على عام ١٨٤٩ وخلفه خلفاء ضعاف. وكان إبراهيم باشا المتميز تماما قد توفى عام ١٨٤٨. أما عباس الأول (١٨٤٩-١٨٥٤) فكان حفيد محمد على وتميز بالأفكار المحافظة وعداء للأفكار الأوروبية، ثم ابنه محمد سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣) عم عباس الأول وهو رجل ضعيف وقع كثيرا تحت تأثير مستشاريه الأوروبيين. وبدأ حفر قناة السويس فى عصره عام ١٨٥٩. ولكن بدأ فصل آخر لمصر ولشمال شرق أفريقيا كلها بتولى أحد أحفاد محمد على ولاية مصر وهو إسماعيل باشا. فلقد تميز بأفكار كبيرة مستتيرة ولكنه لم يتميز أبدا بالحكمة وحسن تقدير الأمور أو الحرص فى معاملاته المالية والاقتصادية. ولذلك عاش إسماعيل حياة الحاكم المترف كما حصل على اللقب الفارسى القديم "خديو" من السلطان العثمانى. وتمت سياساته العامة بالروح نفسها، واعتمدت تماما على المفاهيم الإسلامية لجده العظيم. فلقد وجب إدخال عالم السكك الحديدية والتلغرافات والمصانع والمدارس وتخطيط المدن إلى مصر. وأكمل إسماعيل إنشاء قناة

السويس عام ١٨٦٩ والتي رفض محمد على دائما فكرة إنشائها لفهمه تماما أن مصر سوف تكون تحت رحمة الأساطيل الأوروبية الأقوى كثيرا. وطلب إنشاء أسطول من السفن التجارية للعمل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. وفي ١٨٦٣ عام تولى إسماعيل الحكم وصل الرحالان البريطانيان سبيك وجرانت Grant إلى القاهرة ومعهما روايات عن الممالك الأفريقية الداخلية الثرية عند أعالي نهر النيل الأبيض، وسرعان ما بدأ خيال إسماعيل الخصب في العمل. فسوف يتم تجاوز شلالات النيل بواسطة السكة الحديد، وسوف يضع السفن التجارية على نهر النيل الأبيض والبحيرات الاستوائية. وهنا سوف يتم تحويل كل تجارة العاج المنقولة شرقا إلى زنجبار إلى القاهرة. ولذلك، وفي عام ١٨٦٩، طلب من بيكر Baker، مستكشف بحيرة ألبرت، وبمرتب عشرة آلاف جنيه إسترليني سنويا بتنفيذ تلك الخطة الطموحة. ولكن لم يفعل بيكر الكثير عمليا في أربعة أعوام باستثناء جمع بعض السفن التجارية على نهر النيل الأبيض. ولكن أوضحت سجلات تقاريره في جنوب الشمال وشمال أوغندا أن توغل تجار الخرطوم في تلك المنطقة كلها قد كان له الآثار المدمرة لأوجه نشاط الزبير ورفاقه في بحر الغزال. وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر فإن تجار الخرطوم قد وصلوا جنوبا إلى بونيورو Bunyoro وبوجندا، واشتركوا كثيرا في صراعات الخلافة في بونيورو وحيث أيد التجار المتنافسون المرشحين المتنافسين مقابل هدايا قيمة من العاج. وحل شارلز جوردون محل بيكر عام ١٨٧٣ وأصر على أن إسماعيل لا يمكنه تنفيذ مشروعه الكبير إلا بإنشاء قاعدة على ساحل أفريقيا الشرقى. ولذلك كتب في مذكراته يوم ٢١ يناير ١٨٧٥.

لقد اقترحت على الخديوى إرسال ١٥٠ رجلا في سفينة تجارية إلى خليج ممتاز على مسافة ٢٥٠ ميلا شمال زنجبار وإنشاء محطة هناك ثم الاندفاع منها إلى متيسا، وإذا استطعت أن أفعل ذلك فسوف تكون ممباز قاعدتى وأترك الخرطوم ومشاكل السفن التجارية. ويمكن هنا انفتاح وسط أفريقيا بطريقة أكثر

فاعلية، لأن المناطق الخصبة الوحيدة فى تلك المنطقة هى الهضاب بجوار متيسا. بينما المنطقة جنوب الخرطوم منطقة مستنقعات رديئة. وآمل أن يفعل الخديوى بما أشرت إليه".^(١٦)

ووافق إسماعيل وأرسل حملة أخرى باهظة التكاليف فى أواخر العام نفسه، ولكن تلك المرة إلى قسمايو Kismayo عند مصب نهر جوبا، ولكن تم استدعاء تلك الحملة نتيجة للضغط البريطانى لصالح سلطان زنجبار.

وفى الوقت نفسه احتلت قوات إسماعيل زيلع فى خليج عدن وجزيرة هرر. ركن الهجمات المرسلة إلى التيجرى (إقليم التيجرى) من مصوع قد هزمت تماما على أيدي إمبراطور أثيوبيا يوحنا.

، لقد استقادت مصر كثيرا من حكم هذا الخديوى العظيم بالرغم من انهيار أحلامه فى إنشاء إمبراطورية أفريقية كبيرة تكون مصر حاضرتها. فلقد تم إنشاء نظام كبير للغاية من المواصلات والتلغرافات والسكك الحديدية والبناء المعمارى من مختلف الطرز، بالإضافة إلى إتمام قناة السويس بطبيعة الحال. وفعل محمد على الكثير لتحديث مصر وتكن وصلت المدن المصرية - على الأقل - القاهرة والإسكندرية ومدن القناة إلى مظهرها الحديث فى عصر إسماعيل فقط. ولكن اعتمدت مصر كثيرا على رأس المال الأوروبى لتنفيذ تلك السياسات فى التطور، ولذلك اضطر الخديوى إلى اقتراض الأموال بمعدلات فائدة هائلة. ولذلك اضطر أن يبيع أسهمه فى قناة السويس عام ١٨٧٥ لتسديد ديونه الواجبة السداد. وأفلست الخزانة المصرية عام ١٨٧٩ وفى العام نفسه عزله السلطان العثمانى بناء على تدخل القوى الأوروبية. وتولت إدارة المالية المصرية لجنة تمثل الدول الأوروبية التى تدين لها مصر بأموال. كما تولى الخبراء المالئون الأوروبيون مناصب وزارية فى حكومة الخديوى توفيق وهو ابن إسماعيل وخليفته.

General Gordon in central Africa 1874-79ed, G.bHill (London, pp.65-6) (١٦)

وأدت الإجراءات الاقتصادية التي طبقها المستشارون الأوروبيون لتوفيق إلى الإضرار بضباط الجيش كثيرا، بالإضافة إلى طبقات أخرى من المصريين. وتسلم الكثيرون منهم نصف رواتبهم فقط، ولذلك ثارت جماعة منهم تحت قيادة عرابى باشا عام ١٨٨١ وأشرفوا عسكريا على حكومة الخديوى. وهددوا بعدم سداد الديون الخارجية، ولذلك أدت تلك الثورة العسكرية أخيرا إلى التدخل المباشر للقوى الأوروبية. وخططت بريطانيا وفرنسا معا للتدخل لإعادة سلطة توفيق الضعيفة وحماية المصالح المالية الأوروبية. ولكن لم تشترك فرنسا فى نهاية الأمر لحدوث أزمة داخلية لديها، بالإضافة إلى تطور الأحداث فى تونس والهند الصينية. وهكذا غزت بريطانيا مصر بمفردها عام ١٨٨٢ وهزمت قوات عرابى باشا فى معركة التل الكبير. وكان احتلال بريطانيا لمصر عاملا أساسيا فى تقسيم أفريقيا الذى حدث فيما بعد.

السودان والمهدية (١٨٨١-١٨٩٨)

قبل عام واحد فقط من الاحتلال البريطانى لمصر ثار السودان ضد حكومته المصرية. ولم تنشأ تلك الحركة فى جنوب السودان حيث كان الحكم المصرى أشد قسوة، ولكن كان معظم الثوار من الجماعات الرعوية المقيمة غرب النيل وبالذات شعب البقارة، وهو شعب يمتلك ماشية فى كردفان وجبال النوبة ويتحدث العربية. وكان البدو أول من انضم للثورة. وغضبوا من محاولات الحكومة المصرية لفرض ضرائب أكثر والسيطرة عليهم بأسلوب أشد مما حدث مع المزارعين المستقرين فى وادى النيل شمال وجنوب الخرطوم. وانتظر هؤلاء العرب المقيمون بجوار النهر، وهم أحفاد السكان القدامى لمملكة الفونج، حتى يتأكدوا من انتصار المهدي قبل الانضمام إليه. وكانت شكواهم أساسا اقتصادية، لأن الحكومة المصرية فى بداية عهدها قد جندت العديد من عبيدهم الذين يعتمدون عليهم فى حياتهم. وفى

تاريخ أحدث منعت الحكومة المصرية استيراد كميات إضافية من العبيد من الجنوب واحتكرت تجارة العاج في أيديها. ووجدت أيضا أسبابا دينية مهمة. فلقد أحضر المصريون وبأعداد متزايدة معلمهم المسلمين وكبار المسئولين الدينيين أيضا بينما امتلك الإسلام السوداني شيوخه المحليين ورجال الدين الذين لم يوافقوا أبدا على الوافدين الجدد وأساليبيهم المختلفة عنهم. وكان تعيين إسماعيل لجورودن، وهو مسيحي يعادى تماما تجارة الرقيق، كحاكم عام للسودان قد أغضب المسلمين المحليين أكثر. وكان البدو، على الأقل، مستعدين تماما لاتباع أحد الزعماء الدينيين الذي وعد بإنهاء الحكم المصري والذي رأوا أنه لا يتميز بالتقوى كما يتسم بالهرطقة، بالإضافة إلى كونه شديد الوطأة أحيانا.

وظهر هذا الزعيم الدينى فى شخص محمد أحمد المولود عام ١٨٤٤، وهو ابن صانع قوارب بالقرب من الخرطوم. وبعد نشأة دينية مكثفة أصبح معلما وحصل على لقب "شيخ". وأعلن نفسه المهدي عام ١٨٨١، وأنه منقذ المسلمين، وأنه سوف يعيد الإسلام إلى طهارته الأولى. وفى البداية لم تهتم السلطات البريطانية فى مصر كثيرا بما بدا أنه حركة دينية محلية. ولكنهم أدركوا خطورتها حينما استولى فرسان المهدي من البقارة عام ١٨٨٣. على الأبيض ولكن كان الوقت قد فات لتدارك الموقف إلا بإرسال حملة عسكرية كبرى، وكان ذلك أكثر بكثير من قدرة الحكومة المصرية المفلسة. ولم ترغب الحكومة البريطانية آنذاك فى زيادة مسئولياتها فى مصر، ولذلك قررت أن السودان يجب عليه الانتظار إلى أن تعود المالية المصرية إلى عافيتها. ولكن أصبح من الواضح آنذاك أن المهدي قد حصل على التأييد الحماسى لمعظم الطوائف الإسلامية السودانية، واستولى على الخرطوم عام ١٨٨٥، وقتل جورودن الذى كان قد أرسل لسحب الحامية. وتوفى المهدي بعد عام من الاستيلاء على الخرطوم وخلفه قائده عبد الله الذى عرف أيضا بالخليفة. ولكن أقام المذكور حكما علمانيا قويا بدلا من حكم المهدي فى مجتمع قام على أسس دينية وثيقة مثل المجتمع الإسلامى فى عصور الإسلام الأولى.

واستمر حكم الخليفة لمدة ثلاثة عشر عاما. وكان يمكنه الاستمرار أكثر لولا أن القوى الأوروبية كانت تقسم أفريقيا آنذاك فيما بينها. ومهما كان الأمر استمر حكم المهديّة للسودان إلى نهاية القرن التاسع عشر تقريبا. وكانت عملية استرداد السودان بواسطة القوات الأنجلو - مصرية الفصل النهائي لفترة التقسيم تقريبا. وكانت تلك إحدى الحالات القليلة التي هزمت بها حكومة وانهارت بواسطة جيش غازي لبدء الحكم الاستعماري.

إعادة توحيد أثيوبيا (١٨٥٥-١٨٨٩)

ربما كان أعظم تطور في كل أفريقيا أثناء نهاية القرن التاسع عشر هو إعادة توحيد وتطور أثيوبيا إلى درجة لا يمكنها فقط البقاء بعد تقسيم أفريقيا، بل والاشتراك في تلك العملية أيضا. وكما رأينا أنت الفرصة لهذا الإحياء بإعادة فتح المنطقة الأثيوبية للتجارة الخارجية أثناء الربع الثاني من القرن. واستمر الحكام المحليون الأكثر حنكة في بناء قوتهم بشراء الأسلحة النارية. ولكن إلى ذلك الوقت لم يختلف الأمر كثيرا عما حدث في أقوى الدول المحلية في أفريقيا الاستوائية. ووجدت في أثيوبيا أيضا ذكرى دولة عظيمة وجدت في الماضي. كما استمرت الكنيسة المسيحية القديمة كتنظيم وطني في تيجري وأمهارا وشوا Shoa بالإضافة إلى الولايات الأخرى شبه المستقلة للإمبراطورية القديمة. وعملت الكنيسة هنا كتأثير فعال للوحدة، وميزت قلب الدولة المسيحي في المرتفعات عن الدول الإسلامية في الشمال والشرق، ومن بلاد الأورومو والدول التي يحكمونها في الجنوب والجنوب الغربي التي انتشر بها الإسلام بسرعة خلال بداية القرن التاسع عشر. ونظرا للتعليم الذي تقدمه الكنيسة فما زالت توجد طبقة قليلة من الأفراد المثقفين. وكان لتلك الطبقة المثقفة القدرة لمعرفة كيفية الدخول في علاقات دبلوماسية مع العالم الخارجي وكيفية إعطاء الأجانب فكرة إيجابية عن دولتهم

المتحضرة. وقد وجدت كل تلك العوامل كامنة، وانتظرت فقط القائد الوطني في الوقت المناسب. وكان أول هؤلاء الزعماء رأس كاسا، وهو أحد القادة اللصوص النازحين من الحدود الشمالية الغربية، والذي استطاع تتويج نفسه إمبراطورا عام ١٨٥٥ بواسطة رؤساء الكنيسة في العاصمة القديمة أكسوم Aksum في تيغري. وتلقب رأس كاسا بلقب ثيودور. وزاره قنصلان من وزارة الخارجية البريطانية بعد فترة تتويجه بقليل وسجلا انطباعاتهما في تقريريهما الرسمي:

"يتميز الملك ثيودور ببهاء الطلعة والأدب وحسن المحاورة مع رفقائه كما يبدى مفاهيم اللياقة واللباقة. ويعتقد تماما أن قدره هو إعادة مجد الإمبراطورية الأثيوبية والقيام بفتوحات كثيرة. ولا يكل أبدا عن العمل، كما لا يأخذ راحة ليلا أو نهارا، كما أن أفكاره واضحة ودقيقة. لا يعرف التردد ليس لديه مستشارين أو وسطاء. ويعشق البذخ ويستقبل دائما استقبالا رسميا حتى أثناء حملاته الحربية. ولا يروق له شيء ولا يرغب إلا بالحصول على ذخائر للحرب بجنوده".^(١٧)

وبالرغم من تقواه الكبيرة وعنفه الهائل، إلا أنه اعتقد بدون شك أن رسالته هي إحياء الأمة الأثيوبية، ولذلك فعل الكثير من أجل تحقيق أهدافه في الاثنى عشر عاما التالية بعد عام ١٨٥٥. ولكنه كان يتعرض أيضا لنوبات من الجنون عندما توقفت مسيرته وتوسعه حينما أرسلت بريطانيا حملة عسكرية ضده عام ١٨٦٧. لإساعته لمندوبين بريطانيين. وحاصرته القوات البريطانية في قلعته في مجدالا فأطلق الرصاص على نفسه منتحرا.

وحارب خليفته يوحنا الرابع من أجل الاستيلاء على العرش بأسلحة حصل عليها من البريطانيين الذين شجعوه ضد منافسه ثيودور. وفي السبعينيات من القرن التاسع عشر كان العدو الخارجي الرئيسى لأثيوبيا، والتي كانت ما زالت آنذاك مجموعة من الولايات شبه المستقلة أكثر من كونها دولة موحدة، هو مصر. فلقد

Walter C.Plowden. Travels in Abyssinia and country (London 1868) pp.455-6 (١٧)

هددت السياسات التوسعية للخديوى إسماعيل فى البحر الأحمر والسواحل الصومالية بإعادة العزلة الطويلة السابقة للبلاد المسيحية فى الجبال الداخلية. وكما رأينا استولت مصر على سواكن ومصوع وحصلت عليها من السلطان العثمانى عام ١٨٦٥، كما احتلت معظم أرتريا. وفى عام ١٨٧٥ فرض الخديوى إسماعيل الحماية المصرية على حكام زيلع وهرر المسلمين، ثم شن هجوما مصريا على أثيوبيا من الشمال والشرق. ولكن استطاع الإمبراطور يوحنا إيقاف الغزو المصرى، ولكن استمرت مصر فى احتلال أهم موانئ البحر الأحمر والصومال مما أدى إلى منع أثيوبيا من استيراد السلاح والسلع الأخرى. وأدى ذلك إلى إضعاف موقف يوحنا فى صراعاته مع منليك Menelik حاكم شوا الشاب القوى والذي اضطر إلى منافسته من أجل الحصول على لقب إمبراطور. وتقع شوا جنوب تيجرى وأمهارا وعانت كثيرا من هجمات الأورومو من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر. وكان حاكما شوا قبل منليك قد قاما خلال الخمسين عاما السابقة فى إعادة تسليح جيشها والتوسع تماما مثلما فعل ثيودور. وفى عام ١٨٧٨ اضطر يوحنا الاتفاق مع منليك وزوجه ابنته واعترف به كخليفة له. ولكن بالرغم من ذلك ظل العداء والمنافسة بينهما إلى وفاة يوحنا فى معركة ضد الخليفة عبد الله عام ١٨٨٩ وأصبح منليك إمبراطورا آنذاك. وفى الأعوام الأولى من حكمه على الدولة التى أقامها المهدي حاول عبد الله أن يمد سيطرته على كل الأراضى السودانية التى احتلها المصريون فى الماضى. وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى نزاعه مع أثيوبيا تحققت طموحات منليك.

وفى حكمه الطويل الذى استمر إلى عام ١٩١٣ أكمل منليك التطور الذى بدأه ثيودور. فلقد وحد ولايات تيجرى وأمهارا مع شوا ومد الحكم الأثيوبى على الدول الإسلامية والوثنية فى الجنوب. وفهم تماما أهمية الأسلحة الحديثة. وقبل أن يصبح إمبراطورا بفترة طويلة اشترى السلاح والذخيرة من كل مصدر ممكن وبالذات من الإيطاليين. ثم حل الفرنسيون محلهم (والذين عملوا فى مستعمراتهم

أوبوك على الساحل الصومالي) وأصبحوا في ثمانينيات القرن التاسع عشر أهم مؤثر خارجي في أثيوبيا. وأقام القناصل الإيطالية الإيطاليون في عدم اشتراكهم في ترتيبات عام ١٨٧٩-١٨٨٠ مع منليك، وبعد إنشائهم مستعمرة إيطالية في ميناء عصب عام ١٨٨٢ وصل المندوبون الإيطاليون بانتظام إلى بلاط منليك. وسوف نرى فيما بعد (الفصل العاشر) كيف أدى هذا الوجود الإيطالي في أثيوبيا إلى معاهدة ويشالي Wichale عام ١٨٨٩.

ولكن هزم الإمبراطور منليك الإيطاليين عند محاولتهم غزو أثيوبيا من مستعمراتهم في أرتريا في موقعة عدوة عام ١٨٩٦. وللحصول على أموال لسداد ثمن الأسلحة فإن منليك مثل كل الحكام المعاصرين في شمال شرق أفريقيا والبلاد الداخلية قد اعتمد أساسا على أرباح تجارة العاج. ولذلك قام بغارات عميقة في بلاد الشعوب الوثنية في جنوب غرب وجنوب شرق شوا. ثم امتدت سيطرته السياسية فيما وراء الجيوش الغازية. وأدى التوسع الأثيوبي على حساب صومالي هرر والأوجادين Ogaden دورًا في آخر هجرة كبيرة ناحية الجنوب للشعوب الصومالية. وفي بداية القرن العشرين كانوا قد انتشروا في داخل الولاية الشمالية الجافة لكينيا.

ولفترة طويلة قبل التدخل الأوروبي المباشر في شرق وشمال شرق أفريقيا فإن الحكام المسلمين والمسيحيين لأقوى الدول الأفريقية وأكثرها ثراء قد استخدموا الأسلحة النارية التي حصلوا عليها من أوروبا ليمدوا تجارتهم مع شعوب الداخل. وأدى تطور نشاطهم التجاري إلى زيادة سيطرتهم السياسية. ويعتبر التوسع المصري في السودان وتوسع الشوا في أراضي الجنوب والشرق للهضاب الأثيوبية أمثلة لهذا التطور في شمال شرق أفريقيا. كما يعتبر التوسع السواحلي العربي في شرق أفريقيا المرتكز على سلطنة زنجبار مثالًا آخر (فيما بعد الفصل الثامن). ولكن كان الحكام الأثيوبيون هم الوحيدون الذين تميزوا بالحنكة الكافية لاستخدام مزايا الاتصال مع العالم الخارجي مع تجنب المشاكل والعوائق المالية والدبلوماسية التي يمكن أن تؤدي إلى التدخل الأوروبي ضدهم.

الفصل الرابع

انفتاح أفريقيا (٢): من المغرب

شمال غرب أفريقيا والقوى الأوروبية (١٨٠٠-١٨٣٠)

سبق أن رأينا أن شمال أفريقيا غرب مصر قد تكون من أربع دول إسلامية وكان ثلاث منها تابعة اسميا للإمبراطورية العثمانية وهي الجزائر وطرابلس وتونس. أما الرابعة فهي المغرب (مراكش) فلقد كانت دولة مستقلة. وبالرغم من تجارتها الكثيفة مع غرب أوروبا إلا أن ارتباطاتها الدينية والثقافية بالإضافة إلى أجزاء كبيرة من تجارتها قد كانت مع شرق البحر المتوسط من جهة ومع الدول الإسلامية في غرب السودان من جهة أخرى. واستوردت الدول المغربية الأربع العبيد السودانيين بانتظام لاستخدامهم كجنود وخدم وزوجات وعشيقات، وعملت كلها أيضا - وبالذات طرابلس - كنقطة عبور لإعادة تصدير العبيد إلى مصر وأيضا سوريا، وتركيا والبلقان. ولم يتغير هذا النمط كثيرا خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر. ولكن بعد ذلك بدأت القوة المتزايدة لغرب أوروبا تلقى ظلالها بأساليب متعددة وأدت إلى حدوث تغيرات مهمة في حياة شعوب شمال غرب أفريقيا على المدى البعيد. ووجدت في البداية الحملة البريطانية ضد تجارة العبيد في البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي. وقامت بعد ذلك حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢٠-١٨٢٩) التي تمت بمساعدة القوى المسيحية الأوروبية. وأدى نجاح اليونانيين إلى طرد الحكم الإسلامي من بلد مسيحي ومعه نظام العبودية، كما قدم ذلك مثالا سوف تحتذى به دول البلقان الأخرى فيما بعد. وأخيرا فإن اختراع السفن التجارية والنمو المتزايد في قوة وتحرك الأساطيل البحرية الأوروبية قد أدى إلى

تركز القوى الأوروبية في البحر المتوسط. وكان هذا البحر بالنسبة لبريطانيا وفرنسا طريقا إلى الدول الثرية في الهند وجزر الهند الشرقية ومنفذا (عن طريق مضيق إسطنبول الضيق) للأسطول الروسي إلى البحر الأسود. وكانت بريطانيا قد تدخلت ضد محمد علي في بلاد اليونان عام ١٨٢٧ وفي سوريا عام ١٨٤٠ لمنع ظهور روسيا كقوة بحرية كبرى في البحر المتوسط. أما اهتمام فرنسا بهذا البحر فقد نشأ من موقعها الجغرافي وكان أكثر محلية وأقل شمولية من الدور البريطاني العالمي. واهتمت فرنسا أساسا بأوجه نشاطها التجاري في الشرق وشمال أفريقيا، ولذلك رحبت فعلا بظهور قوة أفريقية صديقة قوية في شمال أفريقيا ومركزها مصر. وفي عام ١٨٢٩ - أي قبل فترة بسيطة من غزوها للجزائر - فإن الحكومة الفرنسية قد شجعت محمد علي أن يكون المغرب كله محط أنظاره وإدخاله في منطقة نفوذه. ولذلك فإن حكومات فرنسا وأسبانيا، وفيما بعد إيطاليا، قد اهتمت بشمال أفريقيا نظرا لقيمتها كعنصر في لعبة القوى الكبرى التي تفذتها الدول الأوروبية وأيضا لإمكاناتها الاقتصادية والاجتماعية.

ولكن، وفي بداية القرن التاسع عشر، فإن الدول المغربية لم تدرك أبدا أن أوروبا المسيحية سوف تكون أهم تهديد لاستقلالها السياسي. كما لم توجد فيما بينهم أبدا فكرة قيام جبهة موحدة ضد التهديد الأوروبي. ففي طرابلس مثلاً فإن الباشا الوراثي، يوسف قره مانلي، الذي حكم بلاده من ١٧٩٥ إلى ١٨٣٠، قد بدأ حكمه بمساعدة البريطانيين ضد الفرنسيين في مصر. ثم تمتع بعد ذلك بالتأييد الأوروبي للاحتفاظ بحريته في السيطرة العثمانية. واستخدم تلك الحرية لفرض سلطته على فزان. وهي بلاد نصف صحراوية تقع إلى جنوب طرابلس والتي تعبر منها تجارة القوافل إلى السودان الأوسط. وفي عام ١٨١١ استولى يوسف علي فزان، وفي عام ١٨١٨ أقام علاقات ومعاهدات مع حكام بورنو وسوكوتو Sokoto أهم دولتين في شمال نيجيريا. وأمدت طرابلس بورنو بأسلحة وذخيرة لحملاتها السنوية ضد شعوب ماندارا وباجرمي عند حدودها الجنوبية، وحصلت على إمدادات كبيرة من

العبيد لقاء ذلك. وبالرغم من علاقتها الوطيدة مع بريطانيا أصبحت مدينة طرابلس آنذاك أكبر سوق لتجارة العبيد في البحر المتوسط. وحضر ١٠,٠٠٠ عبد سنويا عبر الصحراء ومر أكثر من نصفهم عبر طرابلس أو عن طريق بنى غازى ميناء برقة. وبطبيعة الحال فإن كل رحلات الاستكشاف الرئيسية إلى السودان الأوسط للرحالة الأوروبيين، ويشمل ذلك رحلات كلابرتون، وبارث وناختيجال، قد استخدمت هذا الطريق، كما قدم لهم باشوات طرابلس الحماية والأمن وقدموا لهم الحراسات وخطابات التوصية إلى حكام بلاد الجنوب.

واعتمد حكام تونس أيضا - مثل حكام طرابلس - على شبه استقلالهم التام عن السلطان العثماني على الصداقة مع بريطانيا. أما الجزائر، على العكس، فلقد ارتبطت بفرنسا أكثر. وأثناء الحروب التي قامت بها حكومة الثورة في فرنسا ثم الإمبراطور الفرنسي نابليون ضد معظم القوى الأوروبية الأخرى فيما بين ١٧٩٢ و ١٨١٥ فإن الجزائر قد أرسلت الحبوب إلى القوات الفرنسية ويشمل ذلك تلك التي هاجمت مصر. ولذلك فإن فرنسا كانت مدينة بديون حربية كبيرة لدايات الجزائر خلال تلك الأعوام. وبعد هزيمة نابليون عام ١٨١٥ فإن الحكومة الفرنسية قد رفضت سداد هذا الدين مما أدى إلى تسميم العلاقات بين البلدين. والغزو الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠.

وكانت المغرب (مراكش) هي الدولة الوحيدة التي لم يكن السلطان العثماني أبدا سيدها الأسمى والذي يستوجب الأمر إيجاد حليف ضده. ولذلك فإن المغرب قد واجهت النشاط الأوروبي المتزايد في البحر المتوسط والأطلسي بأن عزلت نفسها عن العالم الخارجي. ومنع مولاى سليمان (١٧٩٢-١٨٣٢) رعاياه من مغادرة البلاد وأمرهم باختصار أعمالهم مع المسيحيين إلى أقصى درجة. أما القناصلة الأوروبيون فلقد اقتصررت إقامتهم فقط على موانئ طنجة وموجادر. ورفض السلاطين تماما كل رغبات القناصلة البريطانيين في اتخاذ إجراءات معادية لتجارة العبيد، بل رفضوا دراسة هذا الموضوع أصلا. وفي عام ١٨٤١ رفض خليفة

سليمان وهو مولاي عبد الرحمن بشدة منع تلك التجارة التي وافقت عليها قوانين كل ملة وأمة "منذ أيام أبناء آدم إلى اليوم".

وكان العنصر الأساسي في حياة معظم شعب المغرب الكبير ليس فقط علاقاتهم بالقوى الأوروبية البعيدة ولكن بالمجتمع الاجتماعي والديني النشط الذي أقامه الإسلام. فلقد كان الإسلام، في صورته العديدة، هو الذي ربط المغرب بأفريقيا جنوب الصحراء وبالبلاد العربية إلى الشرق. ونجحت الطريقة التيجانية والتي أنشئت عند الحافة الشمالية للصحراء (فيما سبق الفصل الأول) تماماً في نشر أفكارها ونظمها في منطقة غرب أفريقيا السودانية ولم تكن إلا أكبر دعوات عديدة. وكان "المرابطون" من رجال الدين شخصيات مهمة للغاية في النظم الاجتماعية للمغرب الكبير، وذاعت شهرة أكثرهم تقوى إلى مناطق واسعة. وكان المرابطون المغاربة (في مراكش) يتمتعون بشهرة إلى منطقة السودان النيلية. وكانت الرابطة الإسلامية أيضاً رباطاً آخر بين منطقة البحر المتوسط وأفريقيا جنوب الصحراء، وذلك بواسطة الجماعات القديمة الشهيرة في القيروان والقاهرة وفاس التي جذبت طلبة البلاد الأفريقية من جنوب الصحراء ومن الشرق الأوسط أيضاً. وبالرغم أن المرابطين والطرق الصوفية والجامعات الدينية قد أثرت تأثيراً كبيراً خارج حدود دولها غير محدودة بدقة إلا أنها لعبت دوراً مهماً للغاية في الشؤون السياسية والمحلية والقومية على السواء. وتضاف تلك العوامل كلها إلى عامل الحج إلى مدينة مكة المكرمة والذي يجمع الناس من كل بلاد شمال أفريقيا ليشاركوا في الرحلة الشاقة والتجربة الدينية. ولكن اندفع الفرنسيون إلى ركن من هذا العالم القائم بذاته حينما قاموا بغزو الجزائر.

الفرنسيون في الجزائر (١٨٣٠-١٨٧٩)

كان الغزو الفرنسي للجزائر حادثة من أسوأ الحوادث وأقلها أخلاقية في

القرن التاسع عشر كله. فلقد تم بدون سبب وجيه إطلاقا ولكنه تم فقط من أجل صرف انتباه الشعب الفرنسي بإحراز نصر عسكري في الخارج نظرا للغضب الشعبي من سوء حكم الملكين لويس الثامن عشر وشارل العاشر. ولم ينجح هذا التصرف أيضا، إذ إنه بعد شهور قليلة من الهجوم على الجزائر خلعت ثورة شعبية الملك شارل العاشر عن العرش. ولكن بقي الفرنسيون في الجزائر..

وكان تبرير الهجوم هي حالة من الغضب انتابت داي الجزائر، حسين، أثناء إحدى المناقشات التي لا نهاية لها والخاصة بديون الحرب الفرنسية، والذي قد ضرب القنصل الفرنسي على وجهه بمنشأة طرد البعوض عام ١٨٢٧. وبعد ثلاثة أعوام أعلنت الحكومة الفرنسية أنها بصدد إنهاء أعمال القراصنة الجزائريين، وأنزلت قواتها العسكرية وهزمت قوات حسين. وسقطت مدينتا الجزائر ووهران فورا تقريبا وميناء الجزائر الشرقية فلقد سقط عام ١٨٣٢. ولكن بقي للفرنسيين عمل أكثر مشقة بكثير وهو حكم المناطق المفتوحة.

وتماما مثل كل فاتحي الجزائر في الماضي اعتقد الفرنسيون أنه بإمكانهم مد سيطرتهم على الساحل فقط. وفعلنا نجد أن سكان المدن الساحلية وتلك الجماعات الاجتماعية التي كونت تقليدا ما يعرف بالمخزان (بالعربية: الحلفاء) الموالون للداي بإبداء ولائهم للفرنسيين وقبول حمايتهم. وكان السبب ببساطة أن الفرنسيين قد نجحوا تماما في الاستفادة من الصراع القديم بين سكان المدن ومزارعي المناطق الساحلية من جهة وسكان الهضاب والجبال من جهة أخرى. وكان قائد سكان الجبال هو عبد القادر، وهو ابن أحد المرابطين المشهورين، في منطقة الأطلسي والذي أعلن عام ١٨٣٢ الجهاد ضد الفرنسيين (وضد المخزان أيضا) قائلا:

"لقد تولينا هذا المنصب المهام (منصب الأمير، القائد) أملين بأنها الوسيلة لتوحيد عموم المسلمين ومنع الانقسامات بينهم وتأمين كل المقيمين في البلاد وطردهم

العدو الذى غزا بلادنا من أجل أن يضع بطشه فوق أعناقنا".^(١٨)

واستطاع عبد القادر بمهارة ودقة أن يجمع قبائل الداخل المتناحرة فى غرب وشرق الجزائر حوله، كما نظم إدارة شبيهة بإدارة الحكومة العثمانية القديمة وأنشأ جيشا ألحق دائما خسائر فادحة بالفرنسيين المرة تلو الأخرى. ولم يستطع الفرنسيون أن يقتصر احتلالهم على المنطقة الساحلية فقط، واضطروا رغما عنهم إلى التوغل فى الداخل ولم يختلفوا فى ذلك كثيرا عن كل الغزاة السابقين لشمال أفريقيا فى الماضى.

ولكن بدأ الجنرال بيجو فى الغزو المنهجي لأراضى عبد القادر عام ١٨٤١. واحتل منطقة بعد أخرى ووضع بها حاميات عسكرية بينما قام الفرسان العسكريون بالمرور الدائم بها. ولذلك لم يعد الأمر أبدا حربا بين جيوش متقاتلة فى الميدان بينما يظل السكان المدنيون آمنين. ولذلك كتب أحد أبناء الملك الفرنسى الذى كان يخدم آنذاك مع الجيش الفرنسى "ولقد شعر جنودنا العائدون من الحملة بالخجل من أنفسهم. فلقد تم قطع حوالى ١٨,٠٠٠ شجرة وأحرقت المنازل وقتل الرجال المسنون والنساء والأطفال". ورد العرب بالمثل ضد الجنود الفرنسيين والمدنيين أيضا كلما سنحت الفرصة. واستمرت المقاومة فترة طويلة بعد القبض على عبد القادر نفسه عام ١٨٤٧. ولذلك ولد العداء الدائم والمرارة الكبيرة فى العلاقات بين الغزاة والمهزومين.

وفى تلك الظروف لم تكن عملية استقرار المستوطنين الفرنسيين سهلة بالمرة وإن كان عددهم قد بلغ حوالى المائة ألف عام ١٨٤٧. ورأى بيجو وجوب توطين القادمين الجدد فى مناطق مركزية حيث يمكن للجيش حمايتهم. ويعنى ذلك طرد أو إزاحة السكان الأصليين فى أكثر المناطق الساحلية خصوبة إلى مناطق أخرى غير مأهولة وأقل خصوبة أيضا. ونفذت تلك السياسة بالقوة، ولذلك استمر

(١٨) Cited in Col Churchill: The Life of Abdel Kader (London 1867) p.28.

القتال دائرا في الجزائر إلى سبعينيات القرن التاسع عشر. وحكمت المناطق الإسلامية بعد غزوها بطريقة غير مباشرة بحيث تشابه هذا الأسلوب كثيرا مع الإدارة العثمانية السابقة. ولكن استعان الدايات في الماضي بـ ١٥,٠٠٠ جندي لإقرار النظام في أيامهم، بينما لزم الفرنسيين ١٠٠,٠٠٠ جندي. كما أن المناطق الداخلية ذات الحكم العسكري لم تتحول أبدا إلى الحكم المدني إلا بعد عام ١٨٧٩. ولكن ظل القتال دائرا بعد ذلك في منطقة القبائل ومناطق الجبال الأخرى ولم يسد السلام أبدا.

ولم يحقق المستوطنون الفرنسيون الرخاء أبدا في الجزائر وإن كان عددهم قد وصل عام ١٨٨٠ إلى حوالي ٣٥٠,٠٠٠ مستوطن. وكان معظم المستوطنين هنا من صغار مزارعي الكروم في جنوب فرنسا والذين هاجم المرض كرومهم. أما في المدن فلم يكن معظم السكان الأوروبيين من الفرنسيين أصلا ولكن وصل الأسبان والإيطاليون والمالطيون من بلادهم المكتظة بالسكان وحضروا للبحث عن عمل أو القيام بتجارة صغيرة. وبمرور الوقت غادر المستوطنون الزراعيون الفرنسيون أراضيهم وهاجروا إلى المدن تاركين الأراضي التي خصصت لهم بتكاليف باهظة في أيدي بعض الأفراد والشركات الثرية والتي شيدت الضيع الكبرى. واختلف المستوطنون الفرنسيون عن باقي المستعمرين في أماكن أخرى من العالم؛ إذ اتصلوا اتصالا وثيقا بموطنهم الأصلي عبر البحر المتوسط وبالذات الأثرياء منهم. ولذلك كان لهم نفوذ كبير على السياسة الفرنسية بنسبة لا تقارن بأعدادهم أو أهميتهم الحقيقية.

المغرب (مراكش) ١٨٣٠-١٨٩٤

لقد تأثر المغرب كثيرا بالاحتلال الفرنسي للجزائر. فلقد قاوم عبد القادر أساسا انطلاقا من غرب الجزائر كما زوده السلطان عبد الرحمن (١٨٢٢-١٨٥٩)

بالسلاح، وقدم له، عند الحاجة، الملاذ الآمن في المغرب. وأدى ذلك إلى تدخل الفرنسيين ضده عام ١٨٤٥ حينما حارب المغاربة لأول مرة منذ القرن السادس عشر معركة حربية مع عدو أوروبي. هزمت القوات المغربية هزيمة ثقيلة في موقعة نهر أيسلي Isly. ولكن لحسن حظ المغرب أن الفرنسيين كانوا منشغلين للغاية في الشئون الجزائرية للاستفادة من انتصارهم. ودخلت المغرب في حرب مع أسبانيا عام ١٨٥٩ إذ رأت الأخيرة أن رعايا السلطان كانوا يكررون الهجوم على مدينتي سبتة Ceuta ومليلة Milila التي تحتلها أسبانيا منذ القرن السادس عشر. وغزا الجيش الإسباني المغرب وهزم قوات السلطان عدة مرات. وانتهت الحرب عام ١٨٦٠ بمعاهدة تطوان Titwan وتعهدت المغرب بسداد غرامة كبيرة لإسبانيا. وبسبب تلك الغرامة تعرض المغرب إلى تدخل أوروبي تال، فمن أجل سدادها اضطر السلطان للاقتراض من لندن بضمان الجمارك المغربية وقبول إشراف مسئولين أوروبيين عليها.

أما في الداخل فلقد وجب على الحكومة تدعيم سلطة السلطان ضد الحركات الدينية مثل "المرابطون" وعداء القبائل البدوية. وقسمت المغرب تقليديا بين بلاد المخزان (البلاد الصديقة) المسددة للضرائب لخزانة السلطان وبلاد السبيا (البلاد المعادية) وحيث لا يمكن للدولة أن تفرض سلطتها إلا بواسطة التهديد والرشوة. وكانت المساحة النسبية لكل منها تعتمد أساسا على شخصية السلطان الحاكم. وكان مولاي الحسن (١٨٧٣-١٨٩٤) آخر السلاطين العظام قبل الاحتلال الفرنسي في حملات دائمة لتخفيض مساحة البلاد المعادية. ولأول مرة منذ القرن السابع عشر فإن سلطة السلطان قد امتدت إلى منطقة الأطلس العليا وأيضاً إلى داخل عمق كبير في الصحراء الموريتانية. وحاول مولاي الحسن التأكد من هزيمة الجماعات المثيرة للاضطرابات والتي يمكنها التسبب في مشاكل على الحدود مثل تلك التي أدت إلى الحرب الإسبانية. وتدين المغرب للسلطان مولاي الحسن وجهوده ومهارته بفضل بقائها مستقلة إلى عام ١٩١٢.

طرابلس تحت الحكم العثماني (١٨٣٥-١٩١١)

السنوسية

تتازع فردان لشغل وظيفة الباشا بعد وفاة يوسف القره مانلي عام ١٨٣٠، وأيد البريطانيون أحدهما والفرنسيون الآخر. وبعد عدة أعوام من الفوضى وخروج بدو فزان عن سلطة الحكومة المركزية قررت الحكومة العثمانية إعادة تأكيد سلطتها على طرابلس، وذلك لمواجهة قوة محمد علي في مصر والوجود الفرنسي في الجزائر. ولذلك وصل حاكم عثماني إلى طرابلس عام ١٨٣٥ وأعلن انتهاء حكم أسرة القره مانلي. واستطاع الحكم العثماني إخضاع معظم قبائل الساحل عام ١٨٤٢، ولكنه لم يستطع أبدا السيطرة على فزان. ولذلك عانت التجارة عبر الصحراء كثيرا من تلك الأحداث ومن الحروب التي نشبت حول حدود بورنو بعد وفاة حاكمها عام ١٨٣٧. ولذلك وخلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر اضطربت الصحراء الوسطى لدرجة أن حركة النقل على الطرق من بورنو وواداي قد اقتصرت فقط على قافلة سنوية واحدة على طريق رئيسي ولكن عاد السلام إلى الصحراء الوسطى كنتيجة لنشأة طرق صوفية إسلامية أخرى وهي السنوسية. وكان منشئها محمد السنوسي الذي ولد في الجزائر حوالي عام ١٧٩٠ ودرس في المدارس الدينية في المغرب قبل قيامه بالحج إلى مكة المكرمة. وأقام زاويته الأولى (بالعربية زاوية: مركز ديني) بين بدو برقة عام ١٨٤٣. وأدت تعاليمه البسيطة الداعية إلى العودة للبساطة الإسلامية الأولى وكياسته الكبيرة ودبلوماسيته إلى إعجاب رجال القبائل المحاربين وربطت بينهم بطريقة لم يستطع الحكم القره مانلي أو العثمانيون القيام بها. وامتدت حركته بسرعة إلى الصحراء وغرب السودان، كما ازدادت شعبيته حينما خلف محمد المهدي (ولا يجب الخلط بينه ومهدي السودان المصري) والده كشيخ للطريقة عام ١٨٥٩. وأقيمت الزوايا السنوسية في كل مكان في برقة وفزان وواداي وكانم وبورنو، بل وإلى تمبكتو

أيضا. وارتبط أتباع السنوسي كثيرا بالتجارة وسددوا ضرائبهم من تجارتهم مما أثرى الزوايا. ولذلك أصبحت مراكز للدعاية الدينية بالإضافة إلى بعثها للتطور الزراعي والتجاري. وفي بداية القرن التاسع عشر كان الطريق من بني غازي إلى واداي أقل الطرق التجارية نشاطا من بين الطرق العابرة للصحراء. وبعد إنشاء الحركة السنوسية في برقة ووادي في أقصى طرفيها أصبحت أهم الطرق على الإطلاق. واضطر الحكام العثمانيون في طرابلس إلى الاعتراف بسلطة الإخوان (الزعماء) قادة الدعوة على شعوب الصحراء والاحتفاظ بصلات صداقة وسيطة معهم لسيطرتهم على التجارة التي تعتمد عليها طرابلس وبني غازي في رخائها. ونتيجة للضغط البريطاني على إسطنبول تخلت الحكومة العثمانية عن تجارة العبيد في الإمبراطورية كلها (باستثناء الحجاز) عام ١٨٥٧. ولكن لم يمكن تنفيذ هذا القانون في طرابلس وبرقة ضد الإرادة الصلبة للتجار السنوسيين في استمرار أعمالهم. ولذلك استمرت تجارة العبيد عبر الصحراء إلى عصر الاحتلال الفرنسي للنيجر وتشاد والاحتلال الإيطالي لبرقة في بداية القرن العشرين.

ولاية تونس (١٨٣٠-١٨٨١)

وكان بايات Beylekat تونس أكثر دول المغرب الكبير تقدما وانفتاحا على الغرب في القرن التاسع عشر كله، ومنذ عام ١٨١٩ ألغى الباي أعمال القرصنة. كما كان البكوات أيضا أول الحكام المسلمين الذين ألغوا العبودية وأول من طبق نظام حكم دستوري. وكان اقتصاد تونس متنوعا بدرجة كافية لمواجهة آثار إلغاء القرصنة والعبودية. فلقد قدمت وديان شمال تونس محاصيل غنية وثرية من الحبوب والفواكه بينما أنتجت مدينة تونس وباقي المدن الساحلية عدة سلع صناعية مثل الأقمشة، المنتجات الجلدية والمعدنية. ولكن تأزم الوضع السياسي وبالذات بعد الغزو الفرنسي للجزائر وإعادة السلطة العثمانية إلى طرابلس، وشعرت الحكومة

التونسية أنها بين شقى الرعى وفى فح بين مصدرين مختلفين للهجوم عليها، ولذلك اتجهت لبريطانيا طالبة الحماية. ولذلك وفى عام ١٨٣٧ بعد الاحتلال الفرنسى لمدينة قسنطينة وهى القلعة الجزائرية المجاورة للحدود التونسية فإن الحكومة البريطانية قد وعدت بتأييد الباي ليس فقط ضد فرنسا بل أيضا ضد السلطان العثمانى. وأدى هذا الدعم البريطانى إلى إلغاء أحمد بك للعبودية فى مجموعة من القرارات التى أصدرها بين ١٨٤١ و ١٨٤٦. وكان لحكومة الباي السلطة الكافية لتطبيق تلك القوانين فى البلاد كلها.

وأصدرت قرارات دستورية فى ١٨٥٧ و ١٨٦١ بناء على اقتراح من القناصل الفرنسيين والبريطانيين من أجل ترضية طموحات الطبقة التونسية الوسطى الثرية والمتقفة بالإضافة إلى الجاليتين المؤثرتين الفرنسية والإيطالية. وضع الدستور المساواة لكل الناس أمام القانون وضمن حرية التجارة. وأنشأ أيضا مجالس معينة لتقديم النصيح والمشورة للباي. ولكن كان الواقع مخالفا، إذ لم يستفد الناس العاديون كثيرا من ذلك الدستور الذى أعطى السلطة السياسية للأثرياء القليلين. وتجاهلت الحكومة الدستور كثيرا وسرعان ما طواه النسيان. ولكن ظلت ذكراه باقية بعد ذلك عند ظهور الأحزاب السياسية القومية فى تونس خلال القرن العشرين حينما اتخذت اسم "الدستور".

ولكن تضاعف النفوذ البريطانى فى تونس كثيرا خلال ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر مقارنة بالنفوذ الفرنسى الذى قرر أنه لا يقبل أن تحتل أى بلاد أوروبية أخرى وضعا مميزا وقويا على الحدود الجزائرية. وبعد نزاع دبلوماسى وتجارى طويل مع إيطاليا التى كانت قد توحدت فى سبعينيات القرن التاسع عشر وبدأت بالاهتمام بشمال أفريقيا قررت فرنسا اتخاذ إجراء قوى. ووجدت فرنسا الذريعة فى نزاع شب بين حكومة الباي وشركة تجارية فرنسية بالإضافة إلى غارات قبائل الهضاب التونسية داخل الحدود الجزائرية. واحتلت القوات الفرنسية بنزرت وتونس عام ١٨٨١، واضطر الباي إلى توقيع معاهدة تسمح لفرنسا

باحتلال تونس وأن تكون مسئولة عن مالياتها وشؤونها الخارجية. ولكن استمر الباي وحكومته قائمين تحت الإشراف الفرنسي بعكس حالة داي الجزائر قبل ذلك بخمسين عاما.

وكان الاحتلال الفرنسي لتونس والاحتلال البريطاني لمصر الذي تم في العام التالي إحدى الخطوات الأولى في عملية تقسيم أفريقيا بين القوى الأوروبية. وحدث ذلك نتيجة لاتفاق غير رسمي تم عام ١٨٧٧ بين بريطانيا وفرنسا وروسيا بحيث تأخذ كل منها "قطعة من الكعكة العثمانية" بالتأييد الضمني للآخرين. وكان نصيب بريطانيا هي قبرص التي تنازلت لها عنها الحكومة العثمانية تحت الضغط.

أما نصيب روسيا فكان ثلاث ولايات عثمانية سابقة في جبال القوقاز. وبالرغم من اتفاق بريطانيا وروسيا على اعتبار الاتفاق يتعلق فقط بمنطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط إلا أن الفرنسيين كانوا يدركون تأثيراته الأفريقية تماما. وباحتلالهم تونس لم يقوموا فقط بحماية الحدود الجزائرية بل أنشأوا شمال أفريقيا الفرنسي والذي سوف يتصل سريعا بمناطق الاحتلال الفرنسي في السنغال والنيجر.

الفصل الخامس

غرب أفريقيا قبل عصر الاستعمار (١٨٠٠-١٨٧٥)

جهاذ الفولبي Fulbe

بالرغم من أن القرن التاسع عشر قد شهد تغيرات كبرى فى غرب أفريقيا جنوب الصحراء من الإلغاء التدريجى لتجارة العبيد عبر الأطلنطى وإحلال صور تجارية أخرى محله، إلا أن تلك التغيرات قد حدثت ببطء شديد ولم تؤثر إلا على منطقة صغيرة فى الإقليم كله لفترة طويلة. وبصفة عامة فإن النصف الأول من القرن التاسع عشر قد شهد استمرارية للأنماط السائدة فى القرن الثامن عشر، مع إزدياد حجم تجارة العبيد، وتأثير العالم الإسلامى من الشمال على الأحداث الداخلية أكثر بكثير من الاتصالات البحرية مع أوروبا وأمريكا. وفى بداية القرن كانت أهم الأحداث فى المنطقة هى الحروب المقدسة أو الجهاذ الذى قام به شعب الفولبي المنتشر فوق حزام السافانا من نهر السنغال إلى هضاب الكامبيرون. ولم يكن للتدخل الأوروبى المباشر أى دور فى تلك الأحداث التى أثرت، مع ذلك، على كل السودان الغربى والأوسط.

وكما ذكرنا فى الفصل الأول فإن أصول الجهاذ تعود إلى إحياء الإسلام فى غرب السودان والذى نشره المغاربة المتحدثون بالعربية القادمون من موريتانيا عبر الصحراء فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ولم يكن ذلك مجرد إجراء وقتى، بل كان دفعة فى اتجاه الإصلاح الدينى الذى جدد نفسه فى كل جيل. وكان زعماء حركات الإحياء المذكورة يتركون حمى وطيس الحياة العامة والسياسة والتجارة ويذهبون للعيش فى أماكن نائية. ويمرنون جماعات قليلة من

التلاميذ المخلصين في دراسة القرآن الكريم والتقاليد القانونية والفقهية الإسلامية بالإضافة إلى أساليبهم الخاصة في الصلاة والتقوى. وتنظيم التلاميذ في طرق صوفية تسمى باسم مؤسسها (مثلا سميت التيجانية باسم أحمد تيجاني الذي عاش في جنوب الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر). وقامت حركات الجهاد في القرن الثامن عشر في فوتا تورو وفوتا جالون عن طريق معلمين من فولبي، والذين كان معظمهم من طرق صوفية قديمة تسمى القادرية. وكان عثمان دان فوديو قائد الجهاد في شمال نيجيريا والنيجر في القرن التاسع عشر عضوا في تلك الطرق.

ولد عثمان دان فوديو في عشيرة التورودبي Torodbe عام ١٧٥٤ في جبير Gobir أكثر دول الهاوسا شمالا. ودرس على أيدي أستاذ شهير في أغاديس Agades عاصمة دولة الطوارق Tuarg في إير Air في الصحراء شمال موطنه. واتصل هناك بالأفكار الإصلاحية المنتشرة آنذاك في العالم الإسلامي. وكانت جزءا من رد فعل الإسلام بصفة عامة لتقدم الغرب المسيحي. وبدأ في الجزيرة العربية بالحركة الوهابية في القرن الثامن عشر، وأدى إلى إصلاح الطرق القديمة مثل القادرية وإنشاء طرق جديدة أيضا. وتعتبر التيجانية إحداهما وأقواها بالذات في السودان الغربي بالإضافة إلى الحركة السنوسية في برقة والصحراء الشرقية. ولكن لم يوجد تهديد أوروبي هناك لمواجهة في غرب أفريقيا آنذاك. ولكن يبدو أنه بالإضافة إلى رغبة إصلاح الإسلام في السودان أن الزعماء الدينيين قد شعروا أيضا بتهديد التوسع الأوروبي المسيحي للعالم الإسلامي بصفة عامة. وقابل المستكشفون الأوروبيون الأوائل في منطقة الصحراء مثلا المعلمين الإسلاميين الذين سألوهم لماذا قام البريطانيون بغزو الهند (التي يوجد لديها أعداد كبيرة من المسلمين بين سكانها).

وكان ذلك خلفية فوديو حينما عاد من أجادس Agades ليصبح مربيا لابن ووريث زعيم الهاوسا ساركي (حاكم) في جبير. واكتسب أيضا بتلك الصفة نفوذا هائلا في مجالس الدولة، واستخدمها لنشر دعوته للإصلاح الديني. وفي عام

١٨٠٢ أصبح تلميذ فوديو، وهو يونفا، حاكما عند وفاة والده. ولكنه كان خيبة أمل كبيرة لأستاذه السابق الذي انسحب من البلاط إلى قريته الأصلية، وحيث سرعان ما انضم إليه أعضاء من الحزب الإصلاحى. وازدادت أعدادهم لدرجة أن يونفا قد هدده باتخاذ إجراء عسكري ضده. وأشار دان فوديو إلى هجرة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - من مكة ثم انسحب إلى منطقة جودو البعيدة (٢١ فبراير ١٨٠٤). والتف مؤيدوه حوله هناك بأعداد هائلة لدرجة أنه وجد نفسه على رأس جيش عظيم من المجاهدين المزودين بالحماس الدينى والراغبين فى الجهاد. وأعلن دان فوديو أميرا للمؤمنين (بلغة الهاوسا ساركين مسلمين) وهو اللقب التقليدى للخلفاء. (وكان الخلفاء حكام الإمبراطورية العربية فى الأيام الأولى المجيدة لعصور الإسلام الأولى) وبعد انتخابه أميرا للمؤمنين أقسم فوديو بعدم اهتمامه بالشئون الدنيوية وقال:

"وإذا ما حاربت تلك المعركة لكى أكون أقوى من رفيقى، أو لكى يصبح ابنى أعظم من ابنه، أو أن يفوق عبدى عبده منزلة فليقض علينا الكفار فى بلادنا".

وبعد إعلانه للجهاد أقبل الرجال الغاضبون من كل دول الهوسا لإعلان ولائهم لأمير المؤمنين واستلام الراية الخضراء للمؤمنين. ووصف محمد التونسى (انظر الفصل الأول) الأهداف والنوايا السلفية لزعماء الجهاد، وكان ذلك فى وادى Wadia عام ١٨١٠، وسمع عن نجاح الحركة.

"وبتهم الفالاتا (ويقصد الفولبي Fulbe) باقى السودانين كلهم بعدم التقوى والكفر، وذكروا أنه لا يمكن إعادتهم إلى الصراط المستقيم إلا بواسطة الحرب. ويؤكدون أن السودانين الآخرين قد غيروا تعاليم الإسلام السمحة وأفسدوها. كما أنهم خالفوا الشريعة بقبول ديات مالية كتعويض من المجرمين. ويعتبر ذلك غير شرعى ويمنعه القرآن الكريم. ويؤكدون أن باقى السودانين قد شوهوا ركائز العقيدة الإسلامية بإعلانهم شريعة البدع الجديدة وقبول عادات رديئة مثل الزنا

وشرب الخمر وحب الترفيه والتسلية والغناء والرقص، كما أنهم أهملوا الصلوات اليومية وامتنعوا عن تقديم الزكاة للفقراء والمحتاجين. وتستحق كل تلك الجرائم والتصرفات السيئة الانتقام والدعوة إلى الجهاد. وشكلت تلك الأفكار تفكير الفولا لأعوام طويلة إلى أن ظهر بينهم أحد الأفراد تميّز بورعه وتقواه وطيبته وهو الزكي Zaki (أى الأسد بلغة الهاوسا) الذى أصبح مصلحا وأعلن الجهاد^(١٩).

ولكن لم يتميز كل المجاهدين أبداً بذلك الحماس الدينى الطاهر. أما الزعماء فلقد أتوا من السكان المسلمين المثقفين من سكان المدن الفولبيين، (بلغة الهاوسا: فولانين جيددا) والذين احتقروا كما يقول التونسى عائلات الهاوسا الحاكمة القديمة المعروفة جميعا بالهابى لسلوكهم المنحرف الشبيه بالوثنية. وأيدهم العديد من سكان مدن الهاوسا الذين تعاملوا مع الحركة كفرصة للخلاص من حكام الهابى وأن يتحاربوا فيما بينهم. ولكن أيد كل الفولبى الرعاة (بلغة الهاوسا باروفى) فى الريف الجهاد. وكان معظمهم وثنيين ولكنهم شعروا بالقرابة العرقية مع سكان المدن من الفولبى، بل كانوا من العشائر ذاتها. وكان الغرض الرئيسى لمعظم الثورودوب نهب ثروات مدن الهاوسا.

وعمت الثورة بلاد الهاوسا كلها، وانضمت المدينتان الكبيرتان كاتسينا وكانو إلى مجاهدى دان فوديو عام ١٨٠٧ وكانو عام ١٨٠٩. وحل أمراء الفولبى محل أسر الهابى الحاكمة وعين دان فوديو معظمهم فى ١٨٠٤ و ١٨٠٥. أما فى شرق بلاد الهاوسا فإن أداماوا والتى توغل بها الفولبى الرعويون منذ فترة طويلة قد أصبحت جزءا من الإمبراطورية الجديدة بعد صراع استمر حوالى ثلاثين عاماً. وأدت الممارسات السياسية للدعاة الدينيين الفولبى إلى تمهيد توغل المجاهدين فى نوبى Nupe وبلاد اليوروبا Yoroba. واحتلوا الولايات الشمالية لإمبراطورية الأويو Oyo القديمة مثل إمارة اللورين التى أصبحت قاعدة لانتشار الإسلام بين

(١٩) Voyage au Oudday tr. Dr Perron (Paris 1851) p. 163.

اليوروبا. أما في الشمال الشرقي فإن الجهاد قد توقف فقط في بورنو، حيث استطاع محمد الكانيمي، وهو محارب ورجل دين من شرق بحيرة تشاد، طرد الغزاة. وتولى الكانيمي إدارة شئون بورنو، ولكن سمح لمساى الأسرة الحاكمة القديمة بالاحتفاظ بمراسيم بلاطه بالرغم من حرمانه من كل سلطة حقيقية ونزعها منه. وذكر الرحالة الأسكتلندي كلابرتون الذي زار بورنو عام ١٨٢١ حول وضع الماي.

"أصبحت سلطنة بورنو مجرد اسم. ولكن ما زال البلاط رائعا ويحتفظ بدقة بكل تقاليد الأبهة السابقة، ولكن يعتبر ذلك الامتياز الوحيد لهم. وحينما يستقبل السلطان الأجانب فإنه يجلس في نوع من الأقفاص المصنوع من البامبو وينظر إلى زائريه عبر قضبانه. ولا يسمح لهم بالاقتراب أكثر من سبعين أو ثمانين ياردة من شخصه". (٢٠)

وبعد انتهاء فترة الفتح عاد عثمان دان فوديو إلى كتبه لكونه عالما أكثر منه حاكما. وقُسمت إمبراطوريته إلى قسمين؛ إذ حكم ابنه محمد بللو الجزء الشرقي من مدينته سوكونو Sokoto التي أنشئت حديثا، كما حكم شقيقه عبدالله القسم الغربي من جواندو Gwando. وبعد وفاة عثمان عام ١٨١٧ اعترف عبدالله ببللو سلطانا لسوكونو، وحكم هناك إلى وفاته عام ١٨٣٧. وفي ذلك العصر كان الحماس الديني لحركة الفولبي قد زال معظمه. وتحول الفولبي من مصلحين دينيين إلى طبقة حاكمة. ولكن بالرغم أن منطقة هائلة قد كانت تدين نظريا بالولاء لأسرة مركزية فإن إمبراطورية سوكونو لم تعد عمليا إلا اتحادا حقيقيا لجماعات حكم مشابهة والتي ظهرت بناء على طلب عثمان للانضمام إلى الجهاد. ولم توجد بيروقراطية مركزية ولا جيش مركزي. ولم تتمكن إمارات الفولبي من تنظيم دفاع جماعي ضد

(٢٠) Denham and Clapperton and Oudney Narrative of Travels and Discoveries in Northern and central Africa (London 1826)

ترجم عبد الله عبد الرازق إبراهيم هذا الكتاب إلى العربية وصدر في مجلدين في المجلس الأعلى للثقافة تحت رقم ٤٢٢، ٤٧١

الهجوم الخارجى أكثر من دول الهابى Habe التى خلفتها. ولكن انتشر الإسلام لأول مرة خارج المدن إلى الأقاليم الريفية. وكان حكمهم بصفة عامة أكثر تقدماً وفاعلية من أسلافهم الهابى، كما لم تنته أهميتهم على الإطلاق حينما بدأت بريطانيا وفرنسا فى فرض سيطرتهم.

الجهاد فى السودان الغربى

وكان لانتصارات الفولبى فى بلاد الهاوسا آثار مهمة فى الغرب. فلقد قاد حمادو بارى Hamadu Bari (المعروف أيضاً بأحمدو لوبو Lobbe) وهو أحد الأتباع الأوائل لعثمان جيشاً فى اتجاه الغرب عبر منحنى نهر النيجر عام ١٨١٠ وطرده حكام البامبارا Bambara من موطنه وهى دولة الفولبى فى ماسينا.

وتم التمهيد لحركة الإصلاح هنا مثل فوتا تورو وفوتا جالون بدعوات الجهاد فى القرن السابق. ولذلك عاشت تلك المنطقة كلها آنذاك فترة إحياء نظراً لإنشاء حركة الصوفية التيجانية القوية الجديدة. وتوجه أحد رجال الدين الشباب عام ١٨٢٦ واسمه الحاج عمر للحج من فوتا تورو إلى مكة المكرمة. وانضم هناك إلى الحركة التيجانية، ثم عاد على مهل إلى بلاده عبر بورنو التى كانت آنذاك تحت حكم الكانىمى، ثم سوكونو تحت حكم محمد بللو (و تزوج شقيقة هذا الأمير) ثم ماسينا تحت حكم حمادو بارى. وعرف آنذاك بالحاج عمر، واستقر فى فوتا جالون واستعد لأعنف حركة جهاد عرفت حتى ذلك الوقت. وجهز قواته بالأسلحة النارية التى حصل عليها من الأوروبيين على الساحل. ثم أرسل قواته عام ١٨٥٠ ضد ممالك البامبارا فى سيجو Segou وكأرتا Kaarta ثم ماسينا. وكان يمكنه أيضاً الاستيلاء على فوتا تورو أيضاً لولا مواجهة الفرنسيين له. ولكنه استولى على تمبكتو عام ١٨٦٣ وامتدت إمبراطوريته وعاصمتها حمد الله Hamdullahi بالقرب من سيجو عاصمة البامبارا القديمة عبر المنطقة كلها من منحنى نهر النيجر إلى السنغال.

ولكن لم تستمر إمبراطورية الحاج عمر طويلا مثل إمبراطورية عثمان دان فوديو. فلقد استشهد عام ١٨٦٤، واستلزم الأمر حوالى عشرة أعوام لابنسه أحمد وشيخو لاستعادة سيطرته على كل ممتلكات أبيه. ولكن استمر حكمه فقط إلى عام ١٨٨٤. ولكن يدين استمرار الإسلام بنشاط تحت الحكم الاستعماري الفرنسي فى معظم جهات تلك المنطقة التى تعيش بها الشعوب الناطقة بلغة الماندى إلى تلك الحركات التجديدية القوية التى قام بها الحاج عمر بقوة السلاح فى ذلك الإقليم كله.

دول الغابات والعالم الخارجى

بعكس الوضع فى المنطقة السودانية فإن التغيرات فى بلاد الأخشاب وحزام الغابات فى غرب أفريقيا قد تمت ببطء وبطريقة متقطعة خلال الستين عاما الأولى من القرن التاسع عشر. ولكن الحقيقى أيضا أن وضع الأمم التجارية الكبيرة تجاه غرب أفريقيا قد تغير تماما خلال الأعوام الأخيرة فى القرن الثامن عشر والأعوام الأولى من القرن التاسع عشر. وألغت الدانمرك تجارة العبيد بالنسبة لمواطنيها عام ١٨٠٥، وبريطانيا فى ١٨٠٧، وهولندا فى ١٨١٤، وفرنسا فى ١٨١٨. وفى عامى ١٨١٥ و ١٨١٧ فإن أسبانيا والبرتغال قد حظرتا وجود تجار العبيد التابعين لهما إلا فى البحار جنوب خط الاستواء (وفىما يتعلق بالبرتغال فإن ذلك يعنى تجارة العبيد بين أنجولا والبرازيل). ودعمت بريطانيا سياستها المعادية للعبودية لدرجة إرسال دورية بحرية فى مياه غرب أفريقيا وإعلان تحول المستوطنات التى لا يوجد بها عبيد فى شبه جزيرة سيراليون إلى مستعمرة تابعة للتاج عام ١٨٠٥.

ولذلك إذا رغبت تلك الدول فى الاستمرار بتجارتها فى غرب أفريقيا فقد وجب عليها البحث عن أسس جديدة لتجارتها. وكان البحث عن التجارة أحد الأسباب الرئيسية لقيام العديد من المستكشفين الأوروبيين بالحملات الخطيرة والشاقة فى غرب أفريقيا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وكانت

الأولى هي رحلات مونجو بارك في النيجر الأعلى في ١٧٩٥ و ١٨٠٥. كما كانت أكبرها رحلة الألماني هنري بارث H. Barth بين أعوام ١٨٥٠ و ١٨٥٦ وكتب بعدها وصفا رائعا لمنطقة وسط وغرب السودان. ونذكر هنا مثالا لدقة وصفه واهتمامه بالتفاصيل في بعض ما كتبه عن منطقة تاساوا Tasawa وهي إقليم شمال بلاد الهاوسا (غير بعيدة عن جبير حاضرة عثمان دان فوديو) والتي وصل إليها بواسطة الطريق الصحراوي من أغاديس.

"وكانت تاساوا أول المنطقة الكبيرة في بلاد الزنوج الخالصة التي شاهدها وأعجبت بها كثيرا، إذ يدل كل شيء بها عن أسلوب الحياة الراقى والمريح الذي يحياه سكانها. ويحيط بالساحة سياج من الأغصان الطويلة بحيث لا يستطيع الناظر من الخارج رؤية شيء وتُحجب الأنظار. ويوجد بجوار المدخل مكان جيد التهوية وبه ظلال حيث تتم الأعمال العادية واستقبال الأغراب... وتغطي الأشجار الزاهرة كل المنطقة السكنية، وتنب بها الحياة لوجود جماعات من الأطفال والماعز والطيور والحمام وجواد أو ثور تحميل. ويتلاءم طابع السكان تماما مع طابع منازلهم، إذ يميزون دائما بالطابع المرح السعيد، وينعمون بالحياة، وبحب النساء والرقص والغناء ولكن بدون التماذي والتجاوز السيئ. ولا يعتبر شرب المشروبات المخمرة معصية، حيث إن معظم السكان وثيون. ولكن من النادر مشاهدة أحد السكارى. ويتمتع غير المسلمين بتناول مشروب الجعة المصنوع من الشعير المخمر، ويتم تناوله بالقدر الكافي الذي يمكنهم من التمتع بالحياة بسرور".^(٢١)

وتتشابه تلك الأحوال تماما مع تلك التي اشتكى منها المصلحون الفولبي قبل ذلك بخمسين عاما ولكن بدون نجاح يذكر.

وبدأت آنذاك حركة التبشير المسيحي في أفريقيا بالإضافة إلى بحث الأوروبيين عن الطرق التجارية وعن أعراف أخرى تصلح للتجارة الجديدة

(٢١) travels in Africa edn. London 1965 vol.1. pp.439-40

القانونية. وشعر بعض المسيحيين الأتقياء في أوروبا واهتموا اهتماما بالغاً بأحوال الشعوب الأفريقية ومنها التمتع بمزايا الديانة المسيحية وحصولهم على المهارات المهمة والمعرفة التي قدمتها الحضارة المسيحية لغرب أوروبا. فلم تصل الجهود التبشيرية الرومانية الكاثوليكية الأولى إلا في منطقة أو منطقتين منعزلتين في غرب أفريقيا. ولكن شهدت بداية القرن التاسع عشر استقرار كنيسة إنجلترا الإنجيلية المزدهرة والبعثات التبشيرية الأخرى من الكنيسة الميثودية في سيراليون. ولعب الأفريقيون المسيحيون فيما بعد دوراً مهماً للغاية في تاريخ جنوب غرب أفريقيا كله. ثم وصل المبشرون البروتستانت من بازل إلى ساحل الذهب في عشرينات القرن التاسع عشر. وفي أربعينيات هذا العصر فإن كل الكنائس البروتستانتية الرئيسية قد وجدت في ساحل الذهب وداهومى Dahomy وغرب وشرق نيجيريا. ثم وصلت بعد ذلك البعثات الرومانية الكاثوليكية في أربعينيات وثمانينيات هذا القرن.

ولكن كانت أوجه النشاط الأوروبي الاستكشافية والدينية مجرد المراحل الأولى لظهور النفوذ الأوروبي. فلقد كان النصف الأول من القرن التاسع عشر - بعكس النصف الثاني - من وجهة نظر التاريخ الأفريقي استمراراً وتدعيماً لأحوال القرن الثامن عشر بين شعوب مناطق الأعشاب والغابات في غرب أفريقيا. ولكن، وبالرغم من الدوريات البحرية المستمرة للأسطول البريطاني والقوانين المعادية لتجارة العبيد في البلاد الأوروبية، فإن تلك التجارة قد استمرت، بل ازدادت حدة. وقدرت معظم السلطات المسؤولة عدد العبيد المصدرين من كل غرب أفريقيا بحوالى ١٠٠,٠٠٠ سنوياً في نهاية القرن الثامن عشر. ولكن بلغ هذا العدد في ثلاثينيات القرن التاسع عشر حوالى ١٣٥٠٠٠ كل عام. واستمرت العبودية - بشكل منفصل عن تجارة العبيد - قانونية في ولايات الجنوب الأمريكى في الولايات المتحدة إلى عام ١٨٦٣، ولذلك جلبت تلك التجارة أرباحاً هائلة خلال تلك الفترة. واستمرت أيضاً إلى البرازيل وكوبا وإن تناقصت أعدادها تدريجياً إلى ثمانينيات

القرن التاسع عشر حينما تخلى عنها التجار الأوروبيون والأمريكيون خوفا من العقوبات الرادعة آنذاك. ولكن تولاها بعد ذلك الزنوج البرازيليون (الأفرو برازيليون) وإن كانت أعمالهم من الصعب اكتشافها والقضاء عليها.

ولكن نخطئ تماما إذا ما اعتقدنا من تلك الأرقام أن كل دول منطقة الغابات الغينية قد رغبت في استمرار تجارة العبيد. فلقد فقدت دولة الأشانتي مثلا اهتمامها بها بعد انتهاء فترة توسعها وبيعها لأسرى الحرب كعبيد مما أدى إلى حجب تصدير تراب الذهب والعاج مؤقتا. ولكنها اهتمت في القرن التاسع عشر بالاحتفاظ بأملاكها الكبيرة أساسا. وكانت القوة العسكرية الكبيرة لدولة الأشانتي ذات تمويل ذاتي أساسا من عملية تبادل منتظمة لتراب الذهب مقابل أسلحة نارية مع الهولنديين في إلمينا Elmina. وأدى ذلك الأمر إلى استنفار البريطانيين وحلفائهم الفانتي Fante في المنطقة الوسطى لساحل العاج وبقائهم في حالة تأهب دائم. وكانت تلك الحصون باهظة التكاليف، ولا يمكنها الاستمرار إلا بفرض رسوم جمركية على التجارة القانونية. ولكن تعرضت الطرق التجارية دائما للإغلاق نظرا للعمليات العسكرية للأشانتي ضد الدول التابعة لها في الداخل. وتخلي الفانتي حتى عن الإنتاج الزراعي للتصدير نظرا لتهديد غزو الأشانتي الدائم. أما منطقة الحكم البريطاني المباشر فقد اقتصرت فقط على منطقة الحصون الساحلية، وحكمها في معظم الوقت إلى عام ١٨٤٢ مجلس غير رسمي للتجار وحاكم من وزارة المستعمرات، وكان مقتصرًا حتى ١٨٧٤ على القلاع الساحلية وكان مهتما بمقاومة الأشانتي، أما النفوذ غير الرسمي الذي مارسه البريطانيون على الدول الساحلية فقد اقتصر أساسا أيضا على مقاومة ضغط الأشانتي. وإذا كانت دولة الأشانتي العسكرية، والتي تمارس جزئيا تجارة العبيد، قد استمرت في السيطرة على شئون ساحل الذهب، فإن الوضع في ساحل العبيد شرقا قد كان مماثلا لما كان عليه الحال في القرن الثامن عشر. ويلاحظ المسافر المعاصر في الجو أن الساحل هنا عبارة عن شاطئ ضيق تتلاطم عليه الأمواج بينما يوجد خلفه نظام كثيف من البرك

المتصلة ببعضها البعض وتقدم منفذا آمنا للقوارب للوصول إلى كل أنحاء توجو Togo وداهومي (بنين) وغرب أفريقيا. ووصف ريتشارد لاندر Richard Lander أساليب تجار العبيد في ثلاثينات القرن التاسع عشر على امتداد هذا الساحل كما يلي:

"فور وصول سفينة إلى شواطئها يقوم الطاقم بإفراغ حمولتها الخفيفة ومع مقابض الأيدي المخصصة للعبيد، وينزل القبطان في الوقت نفسه. ثم تبحر السفينة عبر الساحل لتأخذ بعض الأقمشة المحلية والعاج وبعض تراب الذهب إلخ.... وإذا ما اقتربت منها سفينة حربية بريطانية فإن الطاقم لا يخشى شيئا لعدم وجود بضاعة ممنوعة لديه، ويقبل تفتيش السفينة أثناء تجارتهم مع السكان المحليين. ثم تعود السفينة إلى مكان إنزال حمولتهم الأصلية ويلتقى الطاقم بقبطانه على الساحل ويخبرهم آنذاك بموعد إبحارهم النهائي الدقيق. وتبحر السفينة ثانية هنا وهناك يمين ويسار الساحل إلى أن يأتي الميعاد المقرر وتعود لأخذ حمولتها من العبيد"^(٢٢)

وكانت داهومي آنذاك تماما مثل أشانتي قد وصلت إلى أوج توسعها برا. وبعبكس الأشانتي لم يكن لها مصدر للتصدير تحصل بواسطته على احتياجاتها من الأسلحة النارية اللازمة لاستمرار تفوقها العسكري. ولذلك استمر الطلب على العبيد، فلقد مارس ملوك داهومي تلك التجارة رغم كرههم لها.

ولكن لم يأت معظم عبيد ساحل العبيد في القرن التاسع عشر على الأقل من داهومي. فلقد أحضروا من أرض اليوروبا Yoroba، وتم تصديرهم من موانئ بورتو نوفو Porto Novo وباجري ولاجوس Lagos. وكانت كلها شرق واداي Whydoh داخل إطار نظام البرك. وبالرغم من وجود حصن أفرو برازيلي قوى في لاجوس فإن السبب الرئيسي لذلك كان تدهور وتفتت إمبراطورية الأويو القديمة نتيجة لضغوط من الشمال والجنوب. فمن جهة نمت القوة العسكرية لدول اليوروبا

Records of Captain Clapperton to Africa (London 1830), vol.2p.238. (٢٢)

الجنوبية: إجبا Egba وإيجيبو Egebo وأوندو بطريقة متزايدة نظرا لاتصالها بتجارة الساحل المزدهرة. ومن جهة أخرى فإن إيللورين وباقي المناطق الشمالية للإمبراطورية قد غزاها الفولبي تماما مثل دول الهاوسا، ودخلت آنذاك في حروب الجهاد. وحدثت بداية النهاية عام ١٨١٧ حينما أرسل زعماء الأويو الكبار وبقيادة أفونجا Afonoga في اللورين، صندوقا خاويا إلى الألفين (الملك) أولي Aole ويعنى ذلك عدم الاعتراف بسلطته. وقبل أولي تلك الإهانة بالطريقة التقليدية وهي الانتحار، ولكن بعد أن ألقى لعنته الشهيرة. فلقد أطلق من ساحة قصره ثلاثة سهام: واحدة إلى الشمال وواحدة إلى الجنوب وواحدة إلى الغرب قائلا:

"فلتنزل عليكم لعنتي لعدم إخلاصكم وطاعتكم. فليخلف أبناؤكم وأماركم، وإذا أرسلتموهم في مهمة فلا يعودوا منها أبدا ولا تعلموا عنهم شيئا. فلتذهبوا كعبيد في كل المواقع التي أرسلت إليها سهامى. وسوف تتقلكم لعنتي إلى البحر بل إلى وراء البحار. وسوف يحكمكم العبيد وأنتم - ساداتهم - سوف تكونون عبيدا لهم. ثم حطم طبقا من الطين قائلا إن الصندوق المحطم يمكن إصلاحه أما طبق الطين فلا، ولذلك فليكن كلامي لا رجعة فيه". (٢٣)

وكان تأثير تلك اللعنة فوريا، فسرعان ما هجرت منطقة الأويو. أما الباقون في تلك المنطقة فلقد أصبحوا أتباعا لإمارة إيللورين الإسلامية. ولكن هاجر معظم الشعب وأنشأ بعضه مدينة الأويو الجديدة على مسافة ٩٠ ميلا (١٥٠ كم) جنوب حافة الغابات بينما استقر آخرون في أبادان Abadan التي نمت وازدهرت لتكون أكبر مدينة لليوروبا في منطقة حزام الغابات. وأصبحت دول وولايات إمبراطورية الأويو مستقلة عن السلطة المركزية، وسرعان ما نشب القتال والحروب فيما بينها لتوسيع الحدود والسيطرة على الطرق التجارية. وكان الأجبا Egba أهم المنتصرين في تلك الحروب، وأنشأوا عاصمة جديدة في أبيكيوتا Abeokuta عام

(٢٣) Smuel. Johmoton, History of the Yorubas (London 1921) .p192.

١٨٣٠، وسيطروا على الطرق المؤدية إلى بورتو نوفو وباجارى وأيضاً الأيجيبو الذين سيطرت أراضيهم على الطريق الرئيسى من أبادان إلى لاجوس. وأدت تلك الحروب الأهلية الدامية بين اليوروبا إلى وجود أعداد كبيرة من الأسرى الذين بيعوا كعبيد. ولذلك أصبحت لاجوس وباجارى فى أربعينيات القرن التاسع عشر أهم موانئ تصدير العبيد فى غرب أفريقيا.

وكانت حروب اليوروبا مأساة. لأن معظم بلاد اليوروبا تقع فى داخل منطقة حزام الغابات حيث تنمو أشجار زيت النخيل بطريقة طبيعية، وحيث يوجد بالتالى بديل تجارى يسهل تسويقه بدلا من تجارة العبيد. ولذلك لم يتم استغلال موارد أشجار النخيل نظرا لتلك الحروب. ولذلك فإنه من عجائب تاريخ غرب أفريقيا أن المنطقة حيث يمكن بها التحول إلى تجارة شرعية قد حدثت فى المنطقة التى ازدهرت بها تجارة العبيد كثيرا فى الماضى. وتعتبر تلك المنطقة شرق دلتا نهر النيجر تقريبا والتى أرسلت ٢٠,٠٠٠ عبد سنويا عند نهاية القرن الثامن عشر. واعتاد قرويو الإيجب والإجرى هنا أخذ قواربهم الحربية الكبيرة إلى الأنهار للتوجه إلى أسواق عبيد الأيجيبو. ولكنهم أبدا أنذاك اهتماما مماثلا لحث الأيجيبو على نقل مجموعات جوز الهند الكبيرة عبر الأنهار لبيعها إلى الأوروبيين. وبدأت المنطقة تعرف كأنهار الزيت بحلول عشرينيات القرن التاسع عشر. وفهم التجار الأوروبيون أنهم يمكنهم استخدام السفن البخارية (و التى أصبحت متاحة فى العشرينيات من القرن التاسع عشر إلا أنها حلت محل السفن الشراعية فى أعالي البحار بعد ذلك التاريخ بكثير) والصعود بها فى الأنهار الكبيرة إلى داخل منطقة الغابات حيث تنمو أشجار زيت النخيل، ويمكنهم بالتالى شراء بسعر أرخص وإلغاء دور الوسطاء على الساحل. وكان ذلك المعنى الحقيقى لاكتشاف مصب نهر النيجر بواسطة جون وريتشارد لاندر Lander عام ١٨٣٠ نتيجة لرحلة قاما بها أسفل النهر بالقرب من بوسا Busa إلى الدلتا. وبعد ذلك بأحد عشر عاما أقنع الأفراد المحبون للبشر والتجار الحكومة البريطانية بإرسال حملة طموحة للتوغل

فى الداخل باستخدام الطريق المائى. ولكن كان الساحل الغربى غير صحى بالمره للأوروبين لدرجة شهرته أنه "مقبرة الرجل الأبيض". واستمر خطر بعوضه الملاريا خمسة عشر عاما أخرى إلى بدء استخدام عقار كوينونين Quinine الذى ساعد الأوروبين على التغلب على تلك الحمى القاتلة. ولذلك كانت رحلة النيجر فى ١٨٤١-١٨٤٢ فاشلة تماما، إذ توفى سدس أعضائها الأوروبين خلال شهرين. وتأخرت الملاحة التجارية فى نهر النيجر إلى ستينيات القرن التاسع عشر.

بدايات التدخل الأوروبى

ولذلك فإن السمات الرئيسية لمجتمعات الجزء الجنوبى الذى به غابات فى غرب أفريقيا قد تغير قليلا للغاية فيما عدا إقليم أنهار الزيت وذلك خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وحدث ذلك بالرغم من الإلغاء الرسمى لتجارة العبيد بواسطة الدول الأوروبية بالرغم من البحرية البريطانية والممتلكات الصغيرة والمتفرقة للفرنسيين والبريطانيين والدانمركيين والهولنديين، وبصفة عامة فإن تجارة العبيد كانت ما تزال مزدهرة، كما أن قوة الدول العسكرية الرئيسية، الأشانى والداهومى كانت لا تزال تزداد. أما الزيادة الوحيدة فى القوة الأوروبية، حتى خلال الثلث الأول من القرن، قد كانت عبر الساحل نفسه. فهنا وعلى القطاع الشرقى لساحل الذهب اشترت بريطانيا الحصون الدانمركية عام ١٨٥٠ من أجل فرض رسوم جمركية على منطقة كافية من الساحل لسداد تكاليف احتلالها. أما فى عام ١٨٧٢ فإن الهولنديين قد وجدوا أن حصولهم على امتداد القطاع الغربى للساحل لم يعد مجدياً ومريحاً بالمره ولذلك تنازلوا عنه للبريطانيين. أما العامل الآخر فقد كان التدخل البريطانى فى شئون لاجوس. فلقد أيد البريطانيون مطالب أكيتوى Akitoye فى لقب أولوجون (حاكم لاجوس الذى كان يعينه أوبا بنين Benin فى الماضى) وساعدوه على طرد ابن شقيقه ومنافسه كوسوكو Kosoko.

ووعدهم أكينوى مقابل ذلك بإلغاء تجارة العبيد فى لاجوس، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بسلطته على المدينة القائمة على الجزيرة بدون دعم بريطانى مستمر. وفى عام ١٨٦١ حينما هددت داهومى بالهجوم على أبيوكوتا Abeokuta فإن بريطانيا قد تخلصت من النزاع بين أكينوى وكوسوكو بأن ضموا لاجوس كمستعمرة. ولذلك أدت الأمور منذ ذلك الوقت إلى تدخل آخر، فمن جهة تمت الحملة التأديبية ضد الأشانتى عام ١٨٧٣ وتحويل الدول الساحلية إلى مستعمرة ساحل الذهب عام ١٨٧٤، ومن جهة أخرى أدى التوسع التدريجى لللاجوس عبر الساحل إلى الشرق والغرب إلى زيادة تدخل القناصل البريطانيين فى شئون دول أنهار الزيت.

وبدأت رحلة جديدة من التدخل الفرنسى النشط فى المستعمرة الفرنسية فى السنغال بتعيين لويس فيدهرب Fedherbe عام ١٨٥٤. ومنذ عودة الفرنسيين إليها عام ١٨١٧ (فلقد ظلت فى أيدي البريطانيين أثناء عصر الحروب النابوليونية)، فإن المستعمرة لم تزد عن أكثر من دائرة فى القرى الزراعية حول ميناء سانت لويس St.Louis. وكانت التجارة النشطة الوحيدة هى الصمغ العربى مع القبائل العربية المقيمة فى الصحراء شمال النهر. ورغب الفرنسيون كثيرا فى تطوير تجارتهم مع الداخل، ولكن منعهم دولة الفولبي القوية لفوتا تورو الموجودة أعلى النهر فى الجانب الجنوبى. واقتنعوا تماما أن نهر السنغال سوف يثبت أنه الطريق التجارى الرئيسى للتجارة لمنطقة السودان الغربى كلها، ولذلك وجد لدى الفرنسيين حافز أكبر من البريطانيين لغزو الداخل من إحدى قواعدهم الساحلية. ولذلك كانت سياسة فيدهرب المعلنة هى غزو وادى السنغال الأدنى، وأتم ذلك فى عشرة أعوام، وشجع الزراعات الاقتصادية مثل جوز الهند فى الأراضى المفتوحة، وأنشأ أيضا المدارس بالإضافة إلى الوحدات الإدارية فى كل منطقة تم غزوها.

ولذلك فإن أى نوع من التدخل الأوروبى كان سيؤدى إلى تدخل أكبر. ويعتبر توسع المستعمرات البريطانية حول لاجوس وساحل الذهب فى غرب

أفريقيا مثالا على ذلك. كما كانت سياسة فيدهرب من الغزو العسكرى البرى مثالا آخر. ولكن كان من الأصعب إيقاف الغزو الداخلى تماما مثل توسع الممتلكات البريطانية على الساحل. وكلما توغل الفرنسيون فى الداخل ازدادت نزاعاتهم مع الدول الإسلامية فى غرب السودان. ودخل فيدهرب فى صراعات مع قوات الحاج عمر بحلول عام ١٨٥٧. واستطاع القائد المسلم للجهاد إيقاف توغل الفرنسيين جنوب شرق السنغال مؤقتا، ولكنه لم يستطع إيقافه فى جنوب النهر. وكان استيلاء الفرنسيين على فوتا تورو ضربة قاصمة لهيبة الحاج عمر، فلقد كان معظم مجاهديه مهاجرون فى فوتا تورو التى كانت دولة جهاد الفولبى الأصلية. ولا يمكن أن ينتهى هذا الوضع إلا بهزيمة الفرنسيين وانسحابهم إلى سانت لويس أو بهزيمة المسلمين وتقدم الفرنسيين إلى تمبكتو وما بعدها.

ولذلك اتجهت الأحداث فى غرب أفريقيا فى الربع الثالث من القرن التاسع عشر إلى زيادة تدخل بريطانيا وفرنسا. ولكن لم يوجد بعد عام ١٨٧٥ ما يوحى بسرعة تطور الأحداث التالية فى الخمسة وعشرين عاما التالية. ولكن إذا لم تدفع الدول الأوروبية الأخرى بريطانيا وفرنسا للتهاقت على تقسيم القارة، فإن تدخلهم كان سيتم بالتأكيد بمعدل أسرع بكثير مما حدث. ولكن أثبتت القوات العسكرية التى دربت وسلمت بواسطة جنود محترفين من أوروبا ودخلت فى حروب ضد الجنود الأفريقيين للدول الإفريقية قبل عام ١٨٧٥ تفوقها فى استخدام الأسلحة والنظم العسكرى وانتكتيكات وعلى قوات أكثر منها عددا بكثير. ولذلك، وفى غرب أفريقيا على الأقل، فإن النمط العريض للتقسيم التالى كانت قد وضعت أركانه فعلا قبل ذلك، ولا يمكن أن يؤدى ذلك إلا إلى زيادة مساحة الأراضى تحت الاحتلال الاستعمارى.

الفصل السادس

غرب وسط أفريقيا (١٨٠٠-١٨٨٠)

تضم المنطقة التي نسميها "غرب وسط أفريقيا" منطقة غابة الكونغو وبلاد الأشجار الخفيفة الواقعة خلفها تماما. وتشمل اليوم المساحة التي تشغلها كل من أنجولا وزائير وجابون وجمهورية الكونغو الشعبية وجمهورية أفريقيا الوسطى. وتشمل أيضا منطقة اللوبا-لواندا، وممالك الكونغو الأسفل في لغة المصطلحات الأفريقية القديمة مستعمرة جديدة. وتأثرت تلك المنطقة بالبرتغاليين أساسا ولكن وجد غيرهم أيضا. ووصلت أقصى حدود مستعمرة أنجولا خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر شمالا إلى نهر لوجي Logi. ولذلك وجدت منطقة تجارية واسعة لا يسودها أحد من تلك المدينة في الشمال تمتد من لوجي إلى جبال الكامبيرون وشمال ضفتي مصب نهر الكونغو. وانتشرت الوكالات التجارية الإنجليزية والهولندية والأمريكية والفرنسية والأسبانية على الساحل. كما وجد خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأثير خارجي أقوى وهم العرب السواحليون والنيمامويزي القادمون من شرق أفريقيا. ولكن لم تتصل تلك المنطقة الواسعة كلها بموانئها الطبيعية على ساحل المحيط الأطلنطي إلا خلال العصر الاستعماري.

البومبيروش البرتغاليون والمواتا كازمى

وصل النفوذ البرتغالي خلال الفترة المبكرة من القرن إلى الداخل بواسطة

طريقين رئيسيين. ويبدأ الأول في لواندا Luanda والثاني من بنجويلا. ويعتبر طريق لواندا هو الأقدم، إذ كان في بداية القرن التاسع عشر بوابة القارة كلها. ولكن لا يغادر التجار البرتغاليون لواندا إلا نادراً؛ إذ حاولت الحكومة البرتغالية دائماً منعهم من ذلك. فلقد رأت أن العلاقات مع الشعوب الداخلية تتم بطريقة أسهل بكثير إذا ما تمت مع وكلائها الملقبين باليومبيروش. وكان هؤلاء - كما ذكرنا سابقاً في الفصل الثاني - أفريقيين أو مهجنين يعملون كوكلاء للمستعمرة.

ولذلك استخدمتهم الحكومة البرتغالية أو التجار الأفراد لقيادة القوافل إلى الداخل والإقامة بعد ذلك في أماكن الأسواق، وتسمى فيراس Ferras وهي أسواق مسلحة بها حاميات عسكرية. ويحضر إليها الناس المقيمون خارج الحدود البرتغالية لبيع منتجاتهم. ويقع أبعد سوق Feira برتغالي على مسافة ٢٧٥ ميلاً (٥٠٠ كم) شمالاً من طريق لواندا عند كاسانجي.

وكانت تلك المدينة الأخيرة قد تم إنشاؤها في القرن السابع عشر كعاصمة لدولة تابعة سمي سكانها بالإيمجالا وهم شعب نشأ من تفرق اللوبا- لواندا.

ولذلك نظم الإيمجالا التجارة إلى مملكة المواتا يامفو، وكان الأفيرون قد أرسلوا أيضاً قوافلهم الخاصة إلى مناطق داخلية أبعد، ووصلوا إلى عاصمة المواتا كزيمي على نهر لوابالا واتصل المواتا كازيمي في نهاية القرن الثامن عشر بالمحطة التجارية البرتغالية عند نيتي على نهر الزامبيزي، أما الحمالون العاملون في المرحلة الأخيرة من الطريق فمن شعب البيسا Bisa الجزء الشمالي الشرقي في زامبيا الحالية. وحاول البرتغاليون في نهاية القرن الثامن عشر ومرات عديدة خلال بداية القرن التاسع عشر استكشاف هذا الطريق.

ورغبوا أن يمدوا سلطتهم ونفوذهم من ساحل إلى آخر، ولذلك وصلت حملة بقيادة لاسيردا عام ١٧٩٨ إلى عاصمة الكازيمي قائمة من نيتي ولكنها اضطرت إلى الانسحاب والعودة. ولكن سار اثنتان من اليومبيروش ويدعيان بدرو جواو

باتيستًا وأمارو جوزى فى لواندا عام ١٨٠٦ ليقوما برحلة ذهاب وإياب فى تيتى ثم العودة سيرا من بلاط المواتا كازيمى بدون مشاكل تذكر سوى حبرها لمدة أربعة أعوام فى البلاط. وكتب باتيستًا فى مذكراته:

"يعتبر الكازيمى ملكا قويا فى مملكته ويحكم العديد من الناس، ولكنه أقل مكانة فى المواتا يامفو. ويتميز هذا الملك بالآراء الصارمة ولذلك يخشاه كل كبار الزعماء الذين يعتبرون ولاية فى مناطقهم... ويقوم بالحصول على العبيد والعاج حينما لا يوجد تجار يتاجرون فى مملكته، كما يتوجه مع سفرائه لمعاينة الزعماء الذين يتعرضون للتجار القادمين إلى بلاطه فى تيتى. وتمتاز بلاد الكازيمى بتوافر المؤن والطعام على مدار العام مثل الدقيق والذرة والشعير والفول وقصب السكر والبطاطس والبطاطا والقرع والفول السوداني، بالإضافة إلى الأسماك الوفيرة فى نهري لوابالا وموقا القريبين. كما يمتلك هذا الملك ثلاث مناطق تنتج الملح بالإضافة إلى مخزن الطعام والمؤن والثيران... ويرسلها ملك الكازيمى ويشترى بدلا منها من شعب الهويزا (ويقصد البيسا). العبيد... كما يمتلك الملك أيضا برادات الشاي والأطباق والملاعق والأشواك الفضية والنقود الذهبية. كما يتميز أيضا بالسلوك والآداب المسيحية مثل خلع قبعته عند التحية".^(٢٤)

ولاحظ اليومبيروش أن الكازيمى التى كانت عاصمته فى وسط القارة تقريبا يصدر عبيده غربا عبر مملكته المواتا يامفو إلى لواندا بينما يرسل العاج شرقا إلى تيتى، وربما كان ذلك تفكيراً دقيقاً بالنسبة لسوق العبيد والعاج فى تجارة المحيطين الأطلنطى والهندي فى ذلك العصر.

Lands of cazembe: Lacerd's Journey to cazembe..Also the Journey of the Pombeiros, tr (٢٤)
R.F Burton (London 1873) P.231.

الأوفيمبوندو والشوكوى

حدثت تغييرات كبرى عبر الطريق القديم العابر للقارة عند منتصف القرن التاسع عشر. فمن جهة، كما سنرى، تغير اتجاه التجارة الشرقية من البرتغاليين على الزامبيزى إلى العرب السواحليين على ساحل زنجبار. ومن جهة أخرى فإن طريق لواندا القديم إلى مواتا يامفو، والذي يستخدم الإيماجالا كوسطاء، قد حل محله طريق أبعد جنوب بانجويلا، وكانت التجارة على ذلك الطريق فى أيدي الأوفيمبوندو على هضبة البيهى، وكان الأوفيمبوندو مثل إيمباجالا شعوبا نظمت فى دول صغيرة بواسطة مهاجرين من منطقة لواندا، ولكن انضمت إليهم فى القرن الثامن عشر أعداد كبيرة بل هائلة من اللاجئين الأوروبيين ومنهم مسجونون هاربون وآخرون هاربون من الخدمة فى الجيش البرتغالى. ونشر هؤلاء الناس معارفهم ومهارتهم الخاصة بالأسلحة النارية إلى الأفريقيين ولذلك ساعدوهم أن يكونوا أكبر تجار فى كل المنطقة العليا الجافة لحوض نهري الكونغو والزامبيزى جنوب مملكة المواتا يامفو، وبحلول عام ١٨٥٠ توغلت قوافلهم التجارية المكونة من مائتى أو ثلاثمائة حمال فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى بلاد اللوقالى واللوزى عند وادي الأمبيزى الأعلى، وشرقا إلى منطقة بعيدة عند حزام النحاس الزامبي.

كما توغلوا شمالا عبر بلاد المواتا يامفو وجنوب الكاساي إلى منطقة بعيدة عند الحواف الجنوبية لغابة الكونغو، ويعتبر التدهور فى طريق لواندا وازدهار طريق بنجويلا تغيرا فى السلع المصدرة، وكان طريق لواندا قبل كل شىء طريقا للعبيد، كما كان الإيمباجالا لمدة قرنين ونصف خبراء فى جلب العبيد، واستمرت لواندا فى تصدير العبيد علنا وبنشاط إلى عام ١٨٣٨ حينما ألغى البرتغاليون رسميا العبودية فى مستعمراتهم. ولكن استمرت الشحنات غير القانونية لمدة عقدين ولكن فى موانئ أقل مرتبة وليس فى عاصمة المستعمرة، ولذلك انهار الإيمباجالا. وألغى البرتغاليون أيضا مع تجارة العبيد، احتكار الحكومة البرتغالية لتجارة العاج، ونتج عن ذلك مجال وفرص جديدة للتجارة والتي استطاع الأوفيمبوندو الاستفادة

منها بطريقة أفضل من الإيمباجالا. ولقد كان الأوفيمبونديو تجارا أكثر منهم صيادين، ولكن كان جيرانهم الشرقيون، الشوكوى أكبر المتخصصين فى صيد الأفيال عند منتصف القرن التاسع عشر، وكانت وسائلهم وحشية للغاية، وكانوا يتسلحون جيدا بالأسلحة النارية، كما كانوا يحاربون دائما. ويعيشون بالتهب، وأخذ الأسرى كعبيد ثم يضمونهم إلى عصاباتهم الحربية ويستولون على مخزونات العاج. ويصطادون الأفيال دون هوادة من منطقة إلى أخرى.

وكان تجار الأوفيمبونديو يتقدمون فى الواقع خلف الصيادين والمحاربين الشوكوى ويشتررون عاجهم مقابل الأسلحة النارية، ولذلك قام الشوكوى، وهم شعب صغير لم يسمع عنه أحد، عام ١٨٠٠ بغزو مناطق كبيرة عند أنهار الزامبيزى الأعلى، الكوانجو والكاساي الأوسط وغرب كاتانجا فى نهاية القرن التاسع عشر، وأخيرا وفى عام ١٨٨٥ استطاعوا القضاء تماما على مملكة المواتيامبو الكبيرة.

النيامويزى والعرب

وبينما كان الأوفيمبونديو الشوكوى يحلون محل اللواندا والإمبانجالا فى النهاية الغربية للطريق عبر القارة فإن المواتا كازيمى فى وسطه قد أزاحهم قادمون جدد من شرق أفريقيا.

وسوف نذكر قصة توغل النيامويزى والعرب السواحليين إلى شرق أفريقيا فى الفصل ٢٠. نبع، ولكننا سنعالج هنا فقط جزء الحركة التى أثرت فقط على غرب وسط أفريقيا، وفى فترة مبكرة عام ١٨٣٢ طرد الكازيمبى وفدا تجاريا برتغاليا كان يزوره وقال إنه يحصل على كل السلع الأجنبية التى يحتاج إليها من ساحل زيمبابوي. وأنه لم يعد يرغب فى التجارة مع البرتغاليين عند الزامبيزى، ولو كان يعلم آثار تلك الاتصالات التجارية الجديدة مع شرق أفريقيا لكان بالتأكيد أكثر حرصا فى رفض الاقتراحات البرتغالية.

وفى حوالى عام ١٨٥٦ قام أحد التجار النيامويزى ويدعى مسيرى (أى الباعوضة) بعدة حملات تجارية إلى كاتنجا، واستقر مع أتباعه المسلحين فى بونكيا عند الحافة الشمالية لمملكة الكازيمبى. واستطاع هنا أن يزيد من قوته ونفوذه إلى أن أصبح قويا، وامتدت سلطته أيضا إلى ممالك اللوبا شمالا، ولذلك أضاف مسيرى مع محاربيه النيامويزى الذين عرفوا فى كاتنجا Katanga باسم البايكى إلى أرباحه التجارية جزية إضافية منتظمة من العاج والنحاس التى فرضها على الزعماء الذين سددها فى الماضى إلى الكازيمبى ولملوك اللوبا مباشرة، وفعل مثل الكازيمبى قبله بالضبط؛ إذ تاجر فى تلك المنتجات فى عدة اتجاهات، وبادل الملح والنحاس (الذى تم صهره فى سبائك أو صلبان صغيرة) عبر أنهار الكاساي واللوالوا مع الشعوب المقيمة على حافة الغابات مثل الكوبا والسونجى مقابل العاج، ثم تابعه مسيرى بعد ذلك بالأسلحة التى يحصل عليها من الأوفيمبوندو والبرتغاليين فى الغرب والعرب السواحليين فى الشرق.

وعرفت إمبراطورية مسيرى للمستكشفين الأوروبيين الأوائل بالجرانجازى، واستمرت إلى عام ١٨٩١ عند وصول البلجيك، ثم قتل مسيرى بعد اشتباك مع أحد الضباط البلجيك. ولكن استمر تابعوه فى البايكى فى لعب دور بارز فى سياسات شابا Shaba حتى بعد الاستقلال، فلقد كان بودفرى مونونجو مثلا وهو وزير الداخلية فى حكومة نشومبى الكونغولية فى اليكى ومن أحفاد مسيرى ذاته.

وتشابه ما فعله مسيرى فى جنوب كاتنجا مع ما فعلته جماعات أخرى فى الأفريقيين الشرقيين فى شمال كاتنجا ومنطقة كيفو وقادهم السواحليون العرب فى معظم الأحوال فى ساحل زنجبار، وعبروا فى البداية بحيرة تانجانيقا حوالى عام ١٨٤٠ فى ميناء أوجيجى حيث تبحر القوارب، ولذلك وفى حوالى عام ١٨٦٠ وجدت مستوطنة عربية منتظمة فى نيانجوى عند نهر اللوالابا (نهر الكونغو الأعلى) وسرعان ما تاجروا وأغاروا على المنطقة كلها والممتدة من بحيرة تانجانيقا إلى نهر اللوما، وهى المنطقة التى كان يغير عليها شعب الشوكوى القائم

من الغرب، وكان الغزاة الجدد تماما مثل سابقهم يغيرون على الجهات التي يرغبون بها دون مقاومة تذكر لامتلاكهم الأسلحة النارية. ولذلك كانت ممالك اللوبا والسونجي القديمة دون دفاع أمامهم تماما مثل ممالك اللواندا في الجنوب، وتميزوا بالوحشية والقسوة مثل غزاة اليكى في الجنوب والشوكوى في الجنوب الغربي وسرعة استغلالهم لموارد العاج في البلاد ثم اصطادوا الأفيال بأعداد كبيرة والتي كانت تعيش على حساب السكان المحليين، وأضروا بهم بفرض جزية على الطعام والعاج وجب سدادها لهم. ولكن وبعد الموجة الأولى لتقدم صيادي الأفيال فإن غزاة شرق زائير قد استقروا ومارسوا أسلوب الحياة المستقرة المنظمة. ووجدت مساجد في مدنهم والتي مازال العديد منها باقيا حتى الآن. أما منازلهم فلقد وجدت بها كل أدوات الرفاهية الصغيرة المستخدمة في الحياة المدنية الراقية على ساحل شرق أفريقيا مثل الفراش، الأثاث، مواعد القهوة، بل أيضا الأبواب الخشبية المنحوتة بطريقة فنية راقية تماما مثلما في زنجبار. وشيد العرب الضياع الزراعية المزدهرة حول مستوطناتهم، وتأثر بها الأوروبيون كثيرا وأعجبوا بتلك الإنجازات العربية مثلما سترى في الوصف التالي لكاسونجو الذي كتبه سيدنى هند الطبيب الإنجليزي المصاحب لقوات دولة الكونغو الحرة التي غزت الأراضي العربية في شرق زائير عام ١٨٩٣.

"تعتبر كاسونجو مدينة أكبر بكثير من عاصمة العبيد القديمة الكبيرة نيانجوى، وكان ينتظر حصار تلك المدينة، وحينما حدث ذلك فإن السكان قد توافر لهم الوقت لأخذ كل متعلقاتهم الثمينة، ل وحتى الأثاث إلى مناطق آمنة، ولكن اختلف الأمر تماما في كاسونجو، فلقد اندفعنا تجاهها بسرعة مباغتة لدرجة أن كل شيء قد ظل في مكانه، ووجدت قوائنا الغازية أغراضا جديدة وبكميات كبيرة لدرجة أن الجنود العاديين كانوا ينامون على مراتب مكسوة بالحرير والقماش الفاخر الثمين، وأيضا في مضاجع خشبية منحوتة بدقة وتحملها الستائر الحريريّة من لدغات الباعوض، أما الغرفة التي استوليت عليها فبلغ طولها ستين قدما

وعرضها خمسة عشر، كما وجد لها باب يؤدي إلى بستان تكثر به أشجار البرتقال، ويمكن مشاهدة مناظر طبيعية خلابة لمسافة خمسة أميال من هذا المكان، كما وجدنا العديد من أدوات الترف الأوروبية التي كدنا أن ننساها تماما مثل الشموع والسكر والكبريت وأكواب الشراب المصنوعة من الفضة والزجاج والأطباق بكميات كبيرة، وامتلات مخازن مدينة كاسونجو أيضا بكميات وفيرة من الأرز والبن والشعير، الرمان والأناس والطعام الوفير، وكانت الحدائق والبساتين رائعة وزراعتها جميلة إذ امتلات بأشجار البرتقال الحلو والمر والجوافة والمانجو والرمان والأناس والموز وانتشرت تلك الأشجار في كل مكان، أما قطعان الماشية التي وجدناها في كاسونجو فلقد تكونت من ثلاثة فصائل مختلفة من الحيوانات.

ولقد أعجبت دائما بالعمل الرائع الذي قام به العرب في المنطقة المجاورة، فلقد بنيت كاسونجو في ركن من الغابة العذراء. ولكن ولمسافة أميال حولها فإن الأحراش ومعظم الأشجار قد تم إزالتها. ونمت في المناطق التي نرعت منها الأشجار محاصيل رائعة من قصب السكر والأرز والشعير والفواكه. ولقد ركضت بجواد في حقل أرز واحد لمدة ساعة ونصف.^(٢٥)

تيبوتيب

وفي الأيام الأولى لتلك المستوطنات العربية التي حكمها أحد السواحليين من أصل عربي وأتباعه والذين مارسوا نوعا من السلطة المرنة على الزعماء الأفريقيين المحليين، وكان الرجل الذي أحضر العرب إلى تلك المنطقة والاعتراف بسلطته ثم في النهاية سلطة سلطان زنجبار هو محمد بن حمد المعروف أو الشهير

S.L Hinde: The fall of the Congo Arabs (London 1897), PP.184,187. (٢٥)

باسم تيبوتيب، ولقد ولد عام ١٨٣٠ فى زنجبار وكانت والدته من عرب مسقط من الأسر الحاكمة، أما والده وجده فكانا من السواحليين العرب الذين اشتركوا فى الحملات التجارية المبكرة فى الداخل، أما جدته لوالده فكانت ابنة أحد الزعماء النيامويزى، كما أن رحلاته الأولى كانت مع تاجر النيامويزى المتجه جنوبا إلى الطرف الجنوبى لبحيرة تتجانيقا إلى كاتيجا. وتحالف لفترة مع مسيرى ولكنه انفصل عنه فيما بعد، وأقام معسكره عند كاسونجو على اللوالابا حيث أطلق على نفسه لقب سلطان أوتيتيرا، وحدث ذلك فى نهايات ستينيات القرن التاسع عشر وبداية السبعينيات. ومنذ ذلك التاريخ ولمدة عشرين عاما أخرى فإن تيبوتيب قد أصبح أقوى رجل فى زائير الشرقية، وتبع سلطان زنجبار ولكن بعكس معظم العرب فلقد كانت له علاقات ممتازة مع النيامويزى. وكانت أراضيهم تقع بينه وبين الساحل الشرقى وتسيطر على طرق مواصلاته مع زنجبار. وقابل عام ١٨٧٧ المستكشف ستانلى فى نياجوى وصاحبه جنوب نهر اللوالابا إلى شلالات ستانلى (مدينة ستانلى فيما بعد).

ووسع بذلك صيده للأفيال وأنشطته التجارية الأخرى إلى منطقة غابات إيتورى. ويقال إن تيبوتيب قد امتلك ٥٠,٠٠٠ سلاح نارى فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، وتجاوزت أراضيه أراضى الشوكوى فى الجنوب الغربى بينما كانت محطته عند شلالات ستانلى على مسافة أربعة عشر يوما فقط بالنسبة للبواخر النهرية التى بدأ ستانلى تشغيلها عند بحيرة مالىبو بينما كان آنذاك فى خدمة الملك ليوبولد ملك بلجيكا. وأدرك تيبوتيب أن القوى الأوروبية قد وصلت إلى أفريقيا الاستوائية، ولذلك فمن عام ١٨٨٣ إلى ١٨٨٦ قام بمحاولات كبيرة لجمع العرب فى شرق زائير للاعتراف بالسلطة السياسية لسلطان زنجبار، واعتقد أن الدول الأوروبية سوف تعترف بسلطة الأخير على شرق أفريقيا.

وكان تيبوتيب يأمل فى استمرار حكمه على شرق أفريقيا بذلك الأسلوب، ولكن ذهبت جهوده هباء؛ إذ لم تعترف الدول الأوروبية فى مؤتمر برلين بمطالب

السلطان الخاصة بشرق أفريقيا. وقضى تيبوتيب أعوامه الأخيرة فى زائير (١٨٧٧-١٨٩٢) فى دور غير مقبول كحاكم تابع للملك ليوبولد على شلالات ستانلى وتم غزو أراضيه السابقة واعتزاله وعودته إلى زنجبار، واستولت القوات الأوروبية عليها كما رأينا سابقا، ولكن مثل حالة مسيرى فى كاتنجا فإن البلجيكين قد أخذوا العديد من نظم الحكم العربى فى شرق زائير واستخدموا العديد من السواحليين فى الوظائف الصغيرة، واستمرت اللغة السواحلية - المعروفة محليا بالكنجوانا - اللغة المشتركة لتلك المنطقة فى زائير إلى الوقت الحالى.

منطقة الكونغو السفلى وطريق نهر الكونغو

كانت أقل أجزاء غرب وسط أفريقيا معرفة للأوروبيين فى بداية القرن التاسع عشر هى المنطقة شمال وجنوب الكونغو الأسفل، والتي ستصبح فى نهاية القرن التاسع عشر المركز الرئيسى للاهتمام وللصراع من أجل السيطرة السياسية، وكان أهم عامل فى تلك المنطقة هو العامل الجغرافى، ويكون مسار نهر الكونغو وتوابعه التى تجتمع حول بحيرة مالىبو حوالى ٤٠٠٠ ميل (٦٥٠٠ كم) من المجارى المائية التى يمكن الإبحار بها دون توقف، أما الـ ٢٢٥ ميلا (٤٠٠ كم) من النهر بين بحيرة مالىبو والمحيط الأطلنطى فإنها تمر عبر منطقة عالية ووعرة وبها مجموعة من الشلالات الصخرية والشلالات المائية، وتعتبر تلك المنطقة من أشد مناطق العالم صعوبة فى السفر، ولكن استطاع ستانلى وباقى مسئولى دولة الكونغو الحرة وبمجهود وصعوبة هائلين فى إنشاء طريق عبر التلال الصخرية والوديان المليئة بالغابات لنقل أجزاء من السفن التجارية إلى بحيرة مالىبو من أجل تجميعها واستخدامها للملاحة فى الأنهار الصالحة لذلك. ولكن قبل ذلك وإذ استمرت عملية النقل على النهر الأعلى بواسطة القوارب ومادام الحمالون يستخدمون الوسائل الوحيدة للنقل فى منطقة الشلالات الصخرية فإن الإمكانيات

الاقتصادية لنظام أنهار الكونغو كانت محدودة، وفي بداية القرن حينما احتفظت الحكومة البرتغالية باحتكارها لتجارة العاج فإن مقداراً من العاج وبقاى حركة المرور قد استخدمت الروافد المتجهة شمالاً لنهر الكونغو من أجل تقادى الأراضى البرتغالية. ولم تصل تلك التجارة آنذاك إلى بحيرة مالىبوا؛ إذ لم تصبح بعد - مثلاً - سيكون الحال بعد ذلك - عنق الزجاجة التجارى. وعبرت بدلاً من ذلك فى الأنهار إلى العديد من المحطات التجارية البرتغالية المتفرقة عبر الساحل إلى شمال الجزء الممتد فى المناطق (البرتغالية) فى أنجولا عبر العديد من الطرق المارة بالغابات وأسفل الجداول المائية التى تصب مباشرة فى المحيط الأطلنطى، وكانت التجارة تتعلق أساساً بالعاج ولكن بمرور الأعوام فى القرن التاسع عشر شملت أيضاً أشجار زيت النخيل وأخشاب النخيل وشمع النحل والبن والقطن الخام والمطاط. وبحلول سبعينيات القرن التاسع عشر فإن حجم التجارة البريطانية فقط من غرب وسط أفريقيا قد نافس دخلها من منطقة أنهار الزيت فى جنوب نيجيريا.

وكان العاج ركيزة تلك التجارة. وكان العاج هو السلعة الأعلى سعراً ولا تفسد أثناء النقل. وكان يأتى أيضاً من أقصى المناطق البعيدة - فى البلاد التى يسيطر عليها الكونغو وبين شعوب الغابات على النهر الرئيسى، ومن بينها عمل التيكى فى السواحل الشمالية لبحيرة مالىبو كأهم التجار والناقلين للمنطقة كلها خلف بولوبو.

وشمال بولوبو يأخذ البوبانجى مكانهم إلى مسافة بعيدة عند إيروبو Irubu ثم يتاجر بعدهم شعب النجالا إلى مسافة أبعد لتصل إلى ليسالا Lisala على مسافة ١٠٠٠ ميل (١٦٠٠ كم) من البحر، وتعتبر هذه أبعد مسافة من الساحل الغربى، حيث وجد ستانلى بضائع أوروبية أثناء رحلته أسفل الكونغو عام ١٨٧٧.

واحتاجت الأسلحة الأوروبية والأقمشة التى وجدها هناك إلى خمسة أعوام للوصول إلى تلك الجهات، أما شمال النهر الرئيسى وفى المنطقة الواقعة بين

الأوبانجي والساحل فإن الدور الذى قام به الشوكوى جنوبا، يقوم به شعب الفانج Fang الذين هاجروا إلى غرب وسط أفريقيا من داخل الكامبيرون واتجهوا جنوبا من السافانا إلى منطقة الغابات الممطرة وأصبحوا أهم شعب فى صيد الأفيال. وبانلوا عاجهم بواسطة وسطاء أفريقيين بالسلع الأوروبية وبالذات الأسلحة عند المحطات التجارية عند ساحل الجابون، وتمير حنج فى ذلك العهد بالشراسة الشديدة كما اشتهروا بكونهم أكلى لحوم البشر، ووصفت ماري كينسجلى، وهى سيدة إنجليزية جريئة سافرت فى بلادهم عام ١٨٩٤ كيفية بيع سكان قرية فانج لمخزونهم من العاج والمطاط الهندى، "ولم أرغب بتاتا فى تلك الأشياء آنذاك، ولكنى شعرت بالقلق الشديد فى الفانج Fang ولم أستطع ذكر ذلك بوضوح وصراحة. ولذلك اضطررت إلى الشراء... ووجدت نفسى مالكة لكرات من المطاط وبعض أنياب العاج وإن كاد مخزونى الصغير من القماش والطباق ينفد بسرعة للأسف... ويعتبر عدم توافر المال فى قرية فانج من الأمور الخطيرة للغاية، لأنهم حينما تنفذ البضائع من تاجر يبدأون بالتجارة من جديد بقتله واسترداد عاجهم ومطاطهم ويحتفظون به إلى قدوم تاجر آخر".^(٢٦)

ولكن تهدد كل هذا النمط من التجارة التى وجدت طريقها بواسطة طرق جانبية أو فرعية إلى المحطات التجارية الأوروبية المنتشرة عبر الساحل فى جبل الكامبيرون إلى أنجولا عندما قام ستانلى برحلته الشهيرة أسفل نهر الكونغو عام ١٨٧٧، وأثبت أنه توجد منطقة تمتد آلاف الأميال فى الأنهار السهل الملاحة بها بواسطة البواخر.

وكانت الحكومة البريطانية راضية بنمط التجارة القديم، ولم تتخذ أى إجراء عندما عاد ستانلى إلى إنجلترا ونشر استكشافاته، ومع ذلك فإن الملك ليوبولد ملك بلجيكا والذى قضى نحو عشرين عاما يدرس الأنشطة الاستعمارية للدول الأخرى،

Some unpublished Travels: Cited in Stephen Gwynn, The life of Mary Kingsley (London (٢٦) 1933) PP.109-110.

وكان يبحث عن فرصة لبناء إمبراطورية خاصة له. وأخذ الملك يستمع بشغف إلى قصص ستانلى وبالفعل ركزت عيون ليوبولد على حوض الكونغو، رغم أنه كان يخطط للوصول إليه من الشرق مستخدماً طريق عرب السواحلي. ولكن بعد أن وضع تقرير ستانلى أمام عينيه غير رأيه كلية وغير كل خططه، وأنه يمكنه عبور الشلالات على أسفل النهر عن طريق خط سكة حديد وسفن تجارية على النهر الأعلى، وسرعان ما صار الكونغو عنق الزجاجة في تجاربه فى كل أنحاء هذا النهر الواسع.

إن العرب وإمبراطوريات النياموزى سوف تنتهى وسوف يتوقف الشوكوى، ولم تعد لهم أهمية تجارية وسوف تواصل المنطقة وحدتها الطبيعية تحت تنظيم للتجارة الأوروبية من جديد.

وكما سنرى، كانت خطة الملك ليوبولد بمثابة شرارة التدافع والتكالب على القارة الأفريقية، بل وضعت نهاية لفصل قديم من التاريخ الأفريقى.

وعندما جاء البرتغاليون إلى وسط وغرب أفريقيا فى القرن الخامس عشر فإنهم فتحوا طرق التجارة غرباً إلى الساحل وإلى الأراضى عبر المحيط الأطلسى ومن خلال سعيهم وتركيزهم الدائم على تجارة الرقيق ومن خلال محاولاتهم غير المستتيرة للسيطرة على أسعار العاج باحتكار ملكى فإنهم سمحوا للحكام الأفارقة الشرقيين خلال ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر بتحويل معظم تجارة العاج بعيداً عن مخرجها الطبيعية عبر المحيط الأطلس إلى نظام تجارى فى المحيط الهندى.

ومن وجهة النظر الجغرافية كان كل هذا خطأ، حيث إن شلالات ستانلى وبنكويّا (عاصمة مسيرى) أكثر قرباً للساحل الغربى عن الساحل الشرقى، لكن رحلة ستانلى ورؤية الملك ليوبولد التجارية كانت وراء تحويل بندول الساعة، والتى حولت وسط غرب أفريقيا إلى منطقة تابعة لشرق ووسط أفريقيا وكجزء من العالم الإسلامى.

الفصل السابع

شرق وسط أفريقيا (١٨٠٠ - ١٨٨٤)

تشمل شرق أفريقيا لأغراض هذا الفصل ليس فقط الدول الحديثة لكينيا وأوغندا وتانزانيا، ولكن أيضا شمال موزمبيق ومالاوي وبوروندي ورواندا، وسوف نتول تلك البلاد كلها بطريقة أو بأخرى إلى الحكم الأوروبي قبل نهاية القرن، ولكن لم تكن التأثيرات الخارجية السائدة من ١٨٠٠ إلى ١٨٨٤ أوروبية بل عربية سواحلية أو مصرية تركية، فقبل عام ١٨٨٤ لم تقم إلا مجموعة قليلة من الأوروبيين بأعمال تجارية خاصة بهم في الداخل.

وبصفة عامة اقتصرت الأعمال الأوروبية والأمريكية، تماما مثل حالة الهند في الإمبراطورية البريطانية في الهند، على إمداد التجار العرب والمصريين بالسلع المصنعة وبالذات القماش والسلاح مقابل العاج وبعض المنتجات الأقل أهمية مثل منتجات الأشجار وشمع النحل والصمغ العربي، وتاجر التجار المسلمون مباشرة مع الشعوب الأفريقية، وكان نشاط المبشرين المسيحيين أهم الأنشطة الأوروبية قبل عصر التقسيم، ولكن وصل المبشرون مع ذلك إلى تلك المنطقة بعد التجار المسلمين بكثير مما كان عملهم في المرحلة الأولى فقط عند بدء العصر الاستعماري، ولم يكونوا مسئولين أبدا عن السيطرة السياسية الأوروبية والتي أتت حينما حان الوقت نتيجة لأحداث حدثت خارج شرق أفريقيا.

دخول السواحليين العرب إلى الداخل

وصفنا في الفصل الثاني تطور السكان السواحليين والعرب على الحزام الساحلي لشرق أفريقيا وتنزانيا والجزر الأخرى أمام الساحل، وكيف كونوا فعلا أسس التجارة بين الداخل والساحل. وهذه التجارة في الممالك الداخلية وفي كاتنجا قد قام بها أساسا النياموزيون، ويبدو أنها مجاورة سلمية أساسا. وتأثر الرحالة الأوروبيون الأوائل كثيرا بأنشطة رخاء واكتفاء المناطق الداخلية العديدة التي قاموا بزيارتها. وعلى سبيل المثال كتب السير ريتشارد بورتون الذي لم ينحز أبدا لأي إنجاز أفريقي بعد رحلته إلى بحيرة تنجانيقا عام ١٨٥٨ "يعيش الأفريقي في تلك المناطق في حالة رخاء ممتازة. فيرتدى ملابس جيدة، ويأكل طعاما جيدا، ويقوم بطريقة أفضل من (المزارع) في الهند البريطانية.

ولذلك فإن وضعه، حينما انتهت تجارة العبيد، يمكن مقارنته بطريقة ملائمة لحالة المزارعين في أغنى الدول الأوروبية. ولذلك سوف تنشأ تقاليد تصف تلك الأحوال بين الشعوب التي ستتعافى فيما بعد من العنف ولكن بالطريقة المبالغ فيها التي يتذكر بها الناس كثيرا الأيام الجميلة الماضية.

"وفي سالف الأيام، منذ وقت بعيد، في ديارهم القديمة كان الياو متفقون وموحدون. وإذا نشب نزاع كانوا يحاربون بدون وجه حق ويتجنبون سفك الدماء، وإذا حضر غرباء إلى قرية، فهل كانوا سيدفعون ثمن طعامهم؟ لا، فقد كانوا يحصلون عليه مجانا، وإذا ما سمع أحد الرجال أن غريبا على بابه فإنه سيشرح بسرور ويقول "لدى روح الضيافة على بابي، لجذب الضيوف"^(٢٧). ولكن حينما اقترب القرن التاسع عشر فإن عاملين قد تضافرا لزيادة سرعة التغيرات في أسلوب الحياة القديم. وكان الأول هو الطلب المتزايد بسرعة عند الساحل على العاج والعبيد. أما الثاني فكانت الرغبة الكبيرة لشعوب الداخل في الحصول على كميات

(٢٧) Yohnah, B.Abdulla, The Yaos ed. and tr M.Sandeoson (Zomba 1919) P.11

متزايدة من الأسلحة النارية، فما زال يوجد، مثلما كان الحال دائما، سوق رائجة لتجارة العبيد للعمل في الضياع والمنازل في كل المدن الساحلية وحولها، بالإضافة إلى عمان وباقي دول الجزيرة العربية والخليج العربي، كما ازداد الطلب على العبيد في منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر نظرا لاحتياجات أعمال الفرنسيين الكبيرة لضياع البن والسكر في جزيرة رنيون (وإلى عصر الحروب النابوليونية في جزيرة موريشيوش) أما في بداية القرن التاسع عشر فإن البرتغاليين، نظرا للقيود المفروضة على تجارة العبيد في غرب أفريقيا شمال خط الاستواء، قد شحنوا أعدادا متزايدة من العبيد حول رأس الرجاء الصالح من موزمبيق إلى البرازيل وكوبا، كما شهد القرن التاسع عشر أساسا تطورا كبيرا في زراعة ضياع العرب السواحليين، ونشأ معه طلب متزايد للعبيد من الداخل. ولكن بمرور الأيام خلال القرن التاسع عشر فإن الطلب على العاج - وبالتالي الأسعار المدفوعة ثمنه - قد زادت عن أسعار العبيد. وكان السوق القديم لعاج شرق أفريقيا دائما هو السوق الآسيوي بالذات. ولكن وبحلول منتصف القرن التاسع عشر زاد الطلب عليه بدرجة هائلة في أوروبا وأمريكا. فلقد أدى الثراء السريع النابع من الأعمال الصناعية والتجارية من البلاد الأوروبية وشمال أمريكا على السواء إلى زيادة هائلة في الطلب على المنتجات العاجية، ونعني بذلك أدوات الرفاهية مثل مقابض الخناجر المصنوعة من العاج ومفاتيح غرف البيانو وكرات البلياردو وأدوات الزينة المتنوعة.

واستجاب العرب السواحليون المقيمون منذ قرون على الساحل الأفريقي لذلك الغرض في نهاية القرن الثامن عشر بعد أن فتح النياموزيون الطريق الداخلي أمامهم بقليل، ولكن لم يبدأ التوسع الكبير للشعب العربي السواحلي إلا أثناء الحكم العظيم الطويل للسيد سعيد (١٨٠٦ - ١٨٥٦) إمام مسقط والحاكم الوريثي للمستوطنات العربية على ساحل زنجبار، وتميز سعيد بالحنكة السياسية والعبقريّة الاقتصادية في الوقت نفسه، ولذلك أدرك بسرعة أن إمبراطوريته في شرق أفريقيا

أكثر جدارة بالاهتمام من صخور وصحارى دولته الصغيرة فى عمان الواقعة على الساحل الشرقى للخليج العربى، ولكن وجب عليه استعادة إمبراطوريته أولا، وفعل ذلك بواسطة قواته المسلحة القوية وذات الكفاءة العالية، وقدمت إليه بريطانيا سفنا لأسطوله بناء على معاهدة عقدت بينهما، أما جيشه فتكون من المقاتلة البلوش الأشداء المجندين من مناطق الحدود الإيرانية والهندية، واحتل بواسطتهم زنجبار، وحول سلطته الاسمية إلى واقع فعلى على المدن الساحلية من وارشيخ شمالا إلى ليندى جنوبا، وشمل ذلك أيضا المدن المهمة مثل ممباسا وكلوة التى ظلت مستقلة فعلا لفترة طويلة، وتحولت زنجبار تحت حكم سعيد إلى السوق المركزية لكل ساحل شرق أفريقيا، ثم تم إدخال زراعة الأشجار الآسيوية من جنوب الهند الشرقية مثل شجرة القرنفل، ولذلك أصبحت زنجبار دائما من أهم مصدرى القرنفل فى العالم، كما عمل العبيد فى تلك المزارع واستمر استيرادهم من الداخل.

ولكن، وبعد أن قام السيد سعيد بزيارات طويلة ممتدة إلى ممتلكاته الأفريقية فور نقل عاصمته من مسقط إلى زنجبار حيث تلقب بلقب سلطان عام ١٨٤٠، انقسمت إمبراطوريته المتفرقة بعد وفاة فى عام ١٨٥٦، وحكم أحد أبنائه فى مسقط والآخر ويدعى ماجد كسلطان فى زنجبار، وشجع السلطانان سعيد وماجد العرب على الاستقرار فى زنجبار كملاك للمزارع، كما شجعوا الشعب السواحلى أيضا على الاتجار فى الداخل، وقدمت السلطنة الحماية السكانية للتجارة بعيدة المدى، حيث يمكن مثلا استلام الديون فى زنجبار وتنفيذ العقد هناك أيضا، وقام التجار الهنود فى زنجبار والمدن الساحلية - والذين كانت لهم علاقاتهم واتصالاتهم مع مواطنيهم عبر المحيط - باتخاذ الترتيبات المالية الخاصة بالتجارة.

فقدّموا القروض إلى التجار السواحليين، وساعدوهم على تكوين قوافل محملة بالسلع والسفر إلى الداخل. ولكن لا تعود تلك القوافل أحيانا إلى بعد أعوام معهما مشترياتهما من العاج والعبيد، وكتب الرحالة ليفنجستون عن هؤلاء التجار الهنود فى رسالة مؤرخة ٢١ نوفمبر ١٨٧٢ (والمرسلة إلى إنجلترا مع جثمانه). ويسيطر

البانيون تماما على إدارتي الجمارك والدخل العام. وقامت بواسطة أموالهم وأسلحتهم ونخيرتهم وسلبهم تجارة رقيق بشعة ورهيبة^(٢٨).

وقاوم التجار النياموزيون منافسيهم الجدد، واستطاعوا الاحتفاظ باحتكار شبه كامل على الطرق التجارية في وسط تنزانيا إلى كاتجا. ولكن كان السواحليون أكثر تنظيما وتسليحا، كما وجدت لديهم موارد اقتصادية ومالية أفضل: فلقد تمكنوا في تسليح الزعماء الأفريقيين بالأسلحة والزخائر التي لم تكن أبدا من أيدي التجار النياموزيين. ولكن مع تقدم الغرب وإعادة تسليح الجيوش الأوروبية بأنواع مختلفة من الأسلحة الحديثة فإن طرق الأسلحة الفنية البالية قد وجدت طريقها أكثر وأكثر إلى السوق الأفريقي، وتوغل التجار العرب بحلول ثلاثينات القرن التاسع عشر إلى بحيرة تانجانيقا، كما زار أول العرب بلاط مملكة بوجاندا عام ١٨٤٤. وكانت التجارة العربية في الداخل كثيفة لدرجة أن شاعت إحدى النكات القائلة إنهم حينما يلعبون على المزمار في زنجبار يرقص الناس على سواحل البحيرات الكبرى، كما أنشأ العرب المستوطنات في مبنى الأماكن الإستراتيجية مثل تابورا في بلاد النياموزي وأوجيجي عند بحيرة تانجانيقا، وكانت مستودعات تجارية في البداية ثم تحولت بمرور الزمن إلى ممارسة نوع من السيطرة العسكرية والسياسة على الريف المجاور، وزار بورتون وسبيك تابورا عام ١٨٥٨، وكتب الأول: ويعيش العرب قبائل وبطريقة رائعة، والمنازل، رغم كونها من دور واحد إلا أنها فسيحة، كبيرة ويمكن الدفاع عنها، والحدائق واسعة ومزروعة جيدا، وينقلون المؤن بانتظام إلى الساحل، وتحيط بها قوات من العبيد الذين يدربونهم على مختلف المهن والحرف. ويمتلك الأثرياء حميرا للتجوال قادمة من زنجبار، كما يمتلك أفقر الفقراء قطعانا من الماشية.^(٢٩)

Quoted in ZoeMarch, East Africa through Contemporany Records (Cambridge, 1961) (٢٨)
P.44

R.F.Burton, lake Regions of central Africa (London 1860) Vol.I.P.328 (٢٩)

ويحصل العرب بصفة عامة على عاجهم وعبيدهم من الحكام المحليين الذين يتسلحون بالأسلحة المستوردة ويرسلون محاربيهم لصيد الأفيال وغزو غابات الشعوب المجاورة، وكثيرا ما يحصلون على العبيد أثناء ذلك، ولكن كانت تجارة العبيد نتيجة ثانوية، فكان معظم شرق أفريقيا لتجارة العاج، ولم تكن أبدا الهدف الأول.

كانت المنطقة حول بحيرة مالواى فقط هى منطقة جلب العبيد؛ حيث يقوم الزعماء الأقوياء فى الياو بغزو الشعوب الأقل تنظيمًا ودفاعا عند ساحل البحيرة الشرقى، وفعل البمبا ثم النجومى فيما بعد الشئ نفسه فى الغرب، وسجل ليفجستون أبشع الفظائع فى تجارة العبيد التى شاهدها فى كل رحلاته فى الطريق التجارى من بحيرة مالواى إلى الساحل، وكتب:

"ثم مررنا بجوار امرأة ربطت من عنقها بشجرة وميتة... ثم رأينا آخرين مربوطين بطريقة مشابهة وواحدة معلقة والأخرى ملقاة على الأرض بعد طعنها وتسبح فى بحيرة من الدم. أما التفسير الذى حصلنا عليه دائما أن التاجر العربى الذى يمتلك تلك الضحايا قد استبد به الغضب لفقدانه أمواله لأن العبيد لا يستطيعون السير.. ومررنا اليوم بجوار رجل مات من الجوع.. وتجول أحد رجالنا ووجد عددا من العبيد مقيدىن بعصى لربط العبيد، وتركهم سيدهم لعدم وجود طعام... ثم مررنا قرية بعد أخرى وأيضاً حدائق وكلها مهجورة". وكان التركيز على العاج فى مناطق أخرى بالرغم من شراء وبيع العبيد فى كل مرحلة عبر الطرق التجارية، ويشترى النياموزيون مثلا أعدادا كبيرة من العبيد ويستخدمونهم فى العمل الزراعى حينما يقيمون فى رحلات تجارية طويلة.^(٣٠)

(٣٠) last Journals, ed.Horace waller (London 1874, Vol.I.P.70)

النجوني والميرامبو

تعتقد الوضع في تانزانيا حوالى منتصف القرن التاسع عشر بغارات النجوني في الجنوب. وكانت جماعات من المحاربين قد انفصلت عن مملكة الزولو لشاكا (انظر الفصل ٨) ثم انضمت إليها بقايا الشعوب التي هزمتها أثناء رحلتها الطويلة إلى الشمال، وانتشروا عبر معظم تانزانيا الغربية والجنوبية إلى شرق وغرب بحيرة ملاوى حيث استقروا في النهاية كأرسقراطية مستقلة.

ولكن انضم محاربوهم الموجودون في أماكن قاصية وأساليهم العسكرية إلى مجموعات جديدة من القبائل التي استقرت آنذاك في تانزانيا، وبعيدا للغاية عن منطقة استقرارهم. ولذلك تحولت جماعات من المحاربين تسمى روجا روجا في بلاد النيامويزي ومافيتي ومجا ونجدا، وفي أماكن أخرى في الريف، وهي تنهب عادة لحسابها الخاص ولكنها مستعدة تماما للعمل عند أمراء الحرب الأشداء والتجار العرب. وتكونت دولة الهيبى المركزية مثلا في وسط تانزانيا بذلك الأسلوب، ولكن ظهر أحد الزعماء النيامويزيين الشباب، ويدعى ميرامبو، والذي أصبح قويا لدرجة كافية في سبعينيات القرن التاسع عشر لينافس أمراء التجار العرب. واستولى في ثمانينات القرن التاسع عشر على طريق التجارة الأوجيجي إلى بحيرة تانجانيقا، بل استطاع تهديد الطريق المؤدى في الشمال الغربى إلى بوجندا، وتحالف تيبوتيب معه وليس مع رفاقه العرب في استغلاله السياسى لشرق زائير كما وصف في الفصل السادس.

المنطقة الداخلية

وفي شمال بلاد النيامويزي فإن التجارة مع المنطقة الداخلية الثرية قد تطورت بسرعة في أربعينيات القرن التاسع عشر تحت سيطرة التجار العرب

السواحليين، واتجه الطريق التجارى الرئيسى من تابورا عبر كاراجوى، حيث وجدت مستوطنة تجارية عربية فى كافورو بالقرب من العاصمة على نهر كاجيرا وانقسمت بعد ذلك إلى فرع غربى يتجه عبر وديان أنكولى الشرقية وفرع شرقى يتجه بجوار خط ساحل بحيرة فكتوريا إلى عاصمة بوجندا، وكانت مملكة التوتسى فى رواندا فى غضون قوتها آنذاك وترفض وجود الأجانب داخل حدودها، ولذلك فإن قوافل رواندا قد مرت بتجارتها الخارجية من وإلى كاراجوى، وكانت أنكولى معادية للأجانب تقريبا مثل رواندا، وكانت البلاد التجارية الكبيرة هى بونيورو وبوجندا التى بالإضافة إلى جيوشها القوية فإنها كانت القوة الملاحية الرئيسة عند بحيرة فكتوريا. ولذلك وبتقدم القرن التاسع عشر فإن أساطيل من قوارب بوجندا الكبيرة المصنوعة من أخشاب مربوطة ببعضها وذات مقدمات عالية يمكن رؤيتها من بعيد فوق المياه قد وصلت بانتظام إلى السواحل الجنوبية للبحيرة وناقست الطرق التجارية البرية، ولذلك استطاع كاباكاس سونا وموتيسا اللذان حكما فى منتصف القرن التاسع عشر من حوالى ١٨٣٢ إلى ١٨٨٤ أن يكونا مخزونا كبيرا من الأقمشة والأسلحة، واستخدموها لتسليح وسداد أجور جيوش أقوى والتى وقفت حاجزا منيعا أمام الباسوجا إلى الشرق والباهايا إلى الجنوب والتى أغارت عليها، ولكنها تعرفت بطريقة أكثر حرصا على القوة العسكرية المتجددة لبونيورو فى الشمال الغربى.

ولكن لم يتدخل العالم الخارجى فى شئون المنطقة الداخلية فقط من الناحية الجنوبية الشرقية، فكما رأينا فى الفصل الثالث فإن الحدود التجارية للسودان المصرى قد أنشئت منذ أربعينات القرن التاسع فى بلاد البارى جنوب مستنقعات النيل، وبحلول ستينيات القرن التاسع عشر عمل تجار العاج فى قاعدتهم فى الخرطوم بين شعب الأشولى فى الولاية الشمالية لدولة أوغندا الحالية، وأقام المصريون اتصالاتهم الأولى ببونيورو بالتدخل فى الصراع على الخلافة بعد وفاة الحاكم كاموراسى عام ١٨٦٩، وأرسل الخديوى إسماعيل فى ذلك العام المستكشف

البريطاني صمويل بيكر ليكون حاكما على تلك الولاية الاستوائية في السودان، وحاول بيكر، دون نجاح، احتلال بونيورو، ثم اكتفى فقط بإقامة حصون عند حافتها الشمالية، وخلفه شارلز جوردون عام ١٨٧٣ الذي كانت لديه تعليمات محددة لمد النفوذ المصري إلى منطقة البحيرات العليا، وهكذا وصل مندوبو جوردون إلى بلاط الكاباكا موتيسا حاكم بوغندا عام ١٨٧٤.

وكان موتيسا يعرف القدر الكافي عن أخبار العالم الخارجي لفهم الأوضاع بدقة، وحجز الكاباكا الحامية المصرية، وأظهر لها بوضوح قدرة بوغندا على المقاومة، ثم سمح لها بالانسحاب سالمة. ودعم موتيسا في الوقت نفسه صلاته بالأجانب على الساحل الشرقي واشترى أسلحة إضافية، كما استمع إلى التقاليد الإسلامية لأصدقائه العرب، وتعلم أيضا اللغة السواحلية بالحروف العربية، ووصف المبشر الإنجليزي ألكسندر ماكاي خوفه من المصريين، وذلك في سيرته الذاتية التي كتبها شقيقته بعد بضعة أعوام.

"وكانت مصر دائما مصدرا لشكوك الباجاندا، ويروي الكابتن سبيك الذي تعرف على^(٣١) موتيسا باثني عشر عاما قبل ستانلي بحيث إن الملك قد اعترض على عبوره لأوغندا متجها إلى مصر عبر النيل... وكان موتيسا ينظر إلى المحطة المصرية في مروي بغيره شديدة كما لم يترك العرب أبدا فرصة لإثارة غضبه وحنقه.

فلقد علموا يقيناً أن مجيء الرجل الأبيض يعني انتهاء فرصتهم في الأرباح الوفيرة، ولذلك أبلغوا الملك أن الكولونيل جوردون والأتراك (كما كانوا يسمون المصريين) سوف يحضرون قريبا ويفتerson البلاد ولذلك سادت كلمة باتوركي على ألسنة الباجندا، ولم يكن موتيسا أبدا في أخبار ماكاي بل تعاملته مع البيض، وكيف أحضر سبيك جرائنت ثم أرسل بيكر بعده، ثم كيف حضر الكولونيل لونج (عميل جوردون) ثم تبعه ستانلي بعد ذلك.

T.W.Mackay, The Story of the Life of Mackay of Uganda (London 1898) PP.132 (٣١)

وتسأل موتيسا ماذا يريدون كلهم؟ ألم يحضروا بحثا عن البحيرات لكي يضعوا الأغصان والمدافع عليها؟ ألم يحضر سبيك حينما بأوامر من الملكة (فكتوريا) لهذا الغرض أثناء وجود الوفد المصرى الثانى فى بلاطه أثناء فترة وجود الرحالة ستانلى ولذلك شجع موتيسا الرحالة ستانلى عام ١٨٧٥ على إبلاغ أوروبا فى حضور مبشرين مسيحيين إلى بلاده للاستقرار بها؟ وحدث ذلك بالتأكيد آنذاك عند وجود وفد مصرى ثان فى بلاده.

كان الملك رجلا ذكيا ومتفتح الذهن، كما أنه تأثر فعلا بما أخبره زائراه الأوروبيان - سبيك فى البداية (١٨٦٢) ثم ستانلى - عن المسيحية والحضارة الأوروبية. وفهم كرجل دولة أن التقدم المصرى من الشمال قد هدد بوجندا فعلا، ولذلك من الحكمة زيادة اتصالاته الأجنبية الأخرى لكي تساعد ضد المصريين، ولذلك وصل مبشرون من كنيسة إنجلترا من بريطانيا إلى بوجندا عام ١٨٧٧، ثم تلاهم المبشرون الكاثوليك الرومان من فرنسا عام ١٨٧٩، وحصل كلاهما على ترحيب كبير مادام التهديد المصرى، واستقرت المسيحية خلال الستة أو السبعة أعوام التالية بدرجات عميقة بين أقلية من دائرة البلاط، ولذلك استطاعت تجاوز اضطهاد قصير ولكن رهيب قام به خليفة موتيسا، ماونجا، عام ١٨٨٥ - ١٨٨٦.

شعوب كينيا وطرق تجارتها

ظل الطريق التجارى الرئيسى لبوجندا والدول الداخلية الأخرى هو الطريق الجنوبى الشرقى الذى يتصل بالطريق عبر تانزانيا، واستمر ذلك الوضع إلى بداية العصر الاستعمارى، وكان من الصعب جدا إنشاء طريق مباشر أكثر من بوجندا إلى الساحل عند ممباسا، نظرا للقبائل الرعوية والمقاتلة للعديد من الشعوب مثل الماساى فى منطقة كينيا الحالية، ولم يهاجم الماساى الأجانب قط، بل حاربوا باستمرار فيما بينهم خلال القرن التاسع عشر للسيطرة على أفضل أراضي

المراعى، ولذلك استمرت مناطق الهضاب العالية فى كينيا فى حالة قلق وعدم استقرار دائمين، كما يعبر التجار تلك المنطقة ويتعرضون لأخطار عديدة لهم ولبضاعتهم أيضا، كما لم يتمكن العرب الواصلون من إقامة صلات تجارية منتظمة مع البلاد الكثيفة السكان مثل اللو والأبالوهيا فى منطقة كافيرونندو شمال شرق بحيرة فكتوريا إلا بعد عدة عقود بعد استيلائهم على طرق النياموزى إلى جنوب وغرب البحيرة، وفيما بين كل الشعوب الكينية يشبه شعب الكامبا الذى يقيم فى الداخل على مسافة ١٨٠ ميل (٣٠٠ كم) من ممباسا شعب النياموزى. وأقاموا اتصالات تجارية مع الكيكويو من جهة ومع الشعوب الساحلية من جهة أخرى منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

حدث ذلك حينما اضطرتهم مجموعة من المجاعات الرهيبة إلى مغادرة موطنهم بحثا عن الطعام. ولاحظ الرحالة والمبشر الألمانى يوهان كرايف كيف "يرسل السواحليون إلى الواكامبا المنسوجات القطنية (الأمريكية) والأقمشة الزرقاء والمنتجات الزجاجية والأسلاك المصنوعة من النحاس أو المشكلة، والصبغة الحمراء، والفلفل الأسود، والملح والزنك ويحصلون مقابل ذلك على الماشية والعاج أساسا، واستمر الكامبا فى احتكار التجارة بين بلاد الكيكويو وممباسا إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر حينما نقل العرب بفضل تنظيمهم الأفضل وأسلحتهم تجارة الكيكويو إلى طرقهم الخاصة. ولكن لم يتقدم العرب إلى داخل أى مناطق كينية أو شمال تانزانيا إلى ستينيات القرن التاسع عشر، حينما استطاعوا فتح طرق إلى الشاجا فى منطقة كليمانجارو، واستطاعوا من هناك شق طريقهم عبر المنطقة الأضيقة من سهل الماساى إلى كافيرونندو، ووصل هؤلاء التجار العرب وصيادو العاج حوالى عام ١٨٨٠ إلى البلاد غرب بحيرة توركانا.

وهنا وفى آخر منطقة فى شرق أفريقيا التى لم تستغل بعد فى تجارة العاج اتصلوا بالمصريين من جنوب السودان وبالأثيوبيين الذين اهتموا بإثراء أنفسهم من تجارة العاج.

قمة ازدهار القوة العربية السواحلية فى شرق أفريقيا

رأينا أن أهم تطور أثناء الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر فى شرق أفريقيا هو التدخل التجارى للعرب السواحليين فى المنطقة كلها من الساحل الشرقى. وبدا لفترة بسيطة فى نهاية السبعينيات وبداية ثمانينيات القرن التاسع عشر أن الإمبراطورية التجارية لزنجر بار قد تتحول إلى إمبراطورية سياسية، ورأى القنصل البريطانى العام، سيرجون كيرك، أن هذا التطور يرحب به للغاية، وأقام كيرك فى زنجبار منذ عام ١٨٦٤، وأصبح صاحب درجة كبيرة من النفوذ على السلطان ماجد فى البداية ثم بعد ذلك على شقيقه السلطان برغش، ولم يرغب كيرك أو سادته فى لندن فى التدخل البريطانى المباشر لشرق أفريقيا. ورأوا أن سلطان زنجبار الصديق سهل التأثير عليه هو أرخص وأفضل أسلوب للوصول إلى هدفهما الرئيسيان وهما إنهاء تجارة العبيد فى شرق أفريقيا ومنع تدخل القوى الأوروبية الأخرى فى تلك المنطقة. ولذلك تم إقناع برغش بإلغاء تجارة العبيد فى شرق أفريقيا ومنع تدخل القوى الأوروبية الأخرى فى تلك المنطقة. ولذلك تم إقناع برغش بإلغاء تجارة العبيد داخل أراضيه عام ١٨٧٣ واعتبارا من ذلك الوقت رحبت الحكومة البريطانية تماما بتوسيع ممتلكات السلطان. واستعان الأخير - بناء على اقتراح من كيرك - بأحد الضباط البريطانيين لزيادة أعداد وتدريب جيشه، وفى نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر بدأ فى إنشاء حاميات على امتداد طريق التجارة عبر تانزانيا، وشجع كيرك السلطان على زيادة مجهوده حينما رأى الاهتمامات المتزايدة للقوى الأوروبية الأخرى وبالذات تلك الخاصة بالملك ليوبولد ملك بلجيكا. وشجع بالتالى التجار العرب فى الداخل البعيد إلى التحول من التجارة إلى الغزو. وفعلوا كذلك فعلا: أولا تيبوتيب فى المنطقة حول بحيرة تتجانيقا، ثم العرب المقيمون حول الطرف الشمالى لبحيرة مالاوى وتبعهم العرب فى بوجندا، ووصل ممثل خاص من السلطان برغش عام ١٨٧٧ إلى بوجندا، حيث أعدم الكاباكا فى العام السابق عددا من المسيحيين فى بلاطه. وتآمر الممثل مع الحزب

الإسلامى فى المملكة لعزل موانجا عام ١٨٨٨ والاستيلاء على السلطنة لأنفسهم. وتم فعلا إعلان أحد إخوة موانجا الصغار كاباكا. ولكن لم يدم هذا الانتصار الإسلامى كثيرا؛ إذ استطاع موانجا استرداد حكمه عام ١٨٩٠ بمساعدة المسيحيين فى باجندا بالرغم من اضطهاده السابق لديانتهم.

وتعتبر إنجازات تيبوتيب وباقي الزعماء العرب قمة ازدهار القوة العربية فى شرق أفريقيا، ولكن رأى المبشرون الأوروبيون المقيمون بطريقة متفرقة فى الداخل ذلك الأمر بعيون أخرى مختلفة تماما عما ظنه كيرك فى زنجبار، وكان كيرك قد تخيل وجود سلطة لزنجبار تعترف بها الدول الكبرى، وبحيث تكون تلك السلطة تحت النفوذ البريطانى. وشاهد المبشرون القرى المحروقة واللاجئين الذين يتضورون جوعا، بالإضافة إلى ظهور تيار جديد بين العرب مضاد للأوروبية والمسيحية فى الوقت نفسه ولذلك شعروا بالحنين، وفى بعض الأحوال عملوا من أجل الاحتلال الاستعمارى الأوروبى لتلك الجهات، ولكن لم يستمر الاستعمار العربى السواحلى طويلا على أى حال، فقبل أن يكون لإدانة المبشرين تأثير يذكر ظهرت جماعة من المغامرين الألمان والتي بينت أن سلطة سلطان زنجبار على الداخل لم تكن إلا سرايا ووهما، ولم تطأ أقدام كارل بيترز ورفاقه فى جمعية الاستعمار الألمانى أراضى شرقى أفريقيا قبل عام ١٨٨٤، ولكنهم فهموا تماما الواقع العملى، فهموا أنه على مسافة ٣٠ أو ٤٠ ميلا (٥٠ أو ٦٠ كم) فى الداخل توجد مجتمعات أفريقية لا تدين بأى نوع من الولاء لسلطان زنجبار، وفهموا أيضا أنه يمكن إقناع حكام تلك الجهات بالتوقيع على بعض الأوراق التى تضعهم تحت حماية قوة أوروبية وإتمام ذلك دون مشاكل تذكر. وهنا ومنذ تلك اللحظة تم القضاء فعلا على خطة كيرك، وبدأت عملية تقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية الكبرى.

مدغشقر

وضعت فتوحات الملك نامبيونا في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر أسس الدولة المارينية الكبرى، ويعتبر ذلك من أهم الأعمال السياسية الكبرى التي تمت في أفريقيا لكنها قبل عصر الاستعمار، وحول خليفة نامبيونا وهو راداما الأول (١٨١٠ - ١٨٢٨) المملكة المحاربة إلى أمة تشبه في نواحي كثيرة الدول الأوروبية الصغرى، وأتم فتوحات نامبيونا، ولذلك أصبح ثلثا مدغشقر تحت سيطرة الهوفا في نهاية حكمه (الخريطتان ٣، ٤) واعترفت مملكة بتسيليو الثرية في الأراضي المرتفعة حول فنياناراتسوا إلى جنوب تاناناريف بسلطة الملك راداما، وجهاز جيش ميرينا بالأسلحة النارية بواسطة السفن البريطانية التي أرسلوها أساسا من جزيرة موريشيوس في المحيط الهندي، كما نصح ثلاثي غريب يتكون من أحد الأسكتلنديين، وأحد الجامكيين وأحد الفرنسيين الملك راداما في الشؤون العسكرية، ولم يقصر الملك اهتماماته أبدا على الفتوحات والإصلاحات العسكرية، فلقد وصل أول المبشرين المسيحيين إلى إيميرينا عام ١٨٢٠ وبإذن من الملك، وكانوا من الجمعية التبشيرية البريطانية من لندن، وكان نجاح مجهوداتهم رائعا؛ إذ قدر عدد الهوفا الذين يستطيعون قراءة وكتابة لغتهم بعد سبعة أعوام فقط حوالي ٤٠٠٠ شخص، كما تم تدريب الكثيرين لممارسة المهن الأوروبية، وشعر الكهنة الوثنيون وطبقة الهونا العليا القديمة بتهديد أوضاعهم بطبيعة الحال من الديانة الجديدة والشباب المثقف، مما أدى إلى حدوث رد فعل لا مفر منه تقريبا، وخلفت أول ملكات القرن التاسع عشر في دولة إيميرينا الملكة رانا فالونا الملك راداما الأول عام ١٨٢٨، وأغلقت مدارس جمعية المبشرين اللندنية، وسمحت بدخول مملكتها فقط للأجانب الذين يمكنهم المساهمة بطريقة مباشرة في إنماء قوتها الاقتصادية والعسكرية، ولكن لم يمكن أبدا إزالة جذور المسيحية والتربية الغربية بسهولة، وبعد صراع عنيف على السلطة بعد وفاة الملكة رانا فالونا عام ١٨٩١ أصبح رجل ممتاز رئيسا للوزراء، وهو رايفيلا يريفوني، واستمر في ذلك المنصب إلى مجيء الحملة

الفرنسية عام ١٨٩٤، ودعم موقفه تماما بزواجه من ثلاث ملكات متتاليات، وعاد عمل المبشرين وأصبح رافيل يريفوني نفسه مسيحيا عام ١٨٦٨، ولذلك حدث اعتناق كبير للمسيحية بحلول ثمانينات القرن التاسع عشر (وكان قد وصل آنذاك أيضا المبشرون الفرنسيون الرومان الكاثوليك). كما أصبحت نسبة الأطفال الملاجس في المدارس مشابهة لتلك السائدة في غرب أوروبا، ولكن استمرت العقائد الوثنية، بل ازدهرت أيضا، وفي حالات كثيرة حتى بين الذين اعتنقوا المسيحية.

وبدل استمرار الإيمان بالعقائد التقليدية إلى ذلك التوتر المتصاعد داخل الدولة المارينية. وغضبت الشعوب الخاضعة من الحكم القاسي للأرسطراطية الهوفا، كما استاء العديد من الهوفا أنفسهم من القوة الشخصية لرئيس الوزراء، ولكن بالرغم من أن معظم المسيحيين قد اعتنقوا المسيحية على أيدي الجمعية التبشيرية اللندنية وبالرغم أن بريطانيا قد انتقلت بعلاقات دبلوماسية وثيقة مع إمبرينا فإن نسبة كبيرة في التجارة الخارجية لمدغشقر كانت في أيدي الفرنسيين، وكان الهوفا مستقلين تماما ولم يرغبوا أبدا أن يكونوا تحت حماية بريطانيا أو فرنسا، ولكن صمم الفرنسيون على حماية مصالحهم التجارية. وفي عام ١٨٨٥ بعد الحرب الفرنسية - الملاجاشية الأولى فرضوا معاهدة على إمبرينا، وتماثل حالة معاهدة إيشالي بين إيطاليا وأثيوبيا (انظر الفصل العاشر) فإن النسختين الفرنسية والملاجاشية لتلك المعاهدة قد اختلفتا كثيرا، فلقد فهم الملاجاسيون أنهم قد احتفظوا باستقلالهم بينما اعتقد الفرنسيون أنهم قد سيطروا على الشؤون الخارجية للدولة، وأنهم بالتالي قد فرضوا حمايتهم على الجزيرة، ولذلك وتماثل ما في حالة أثيوبيا فإن سوء التفاهم الناشئ من تلك المعاهدة قد أدى إلى زيادة التوتر بين فرنسا ومملكة إمبرينا.

الفصل الثامن

جنوب أفريقيا (١٨٠٠ - ١٨٨٥)

النزاع بين البوير Boer والبانتو Bantu

كانت التجارة في أفريقيا الاستوائية أساس اللقاءات الأولى بين الأفريقيين والناس من بقية أنحاء العالم. ولكن حدثت اللقاءات في جنوب أفريقيا عادة بسبب الأرض. ففي أفريقيا الاستوائية أيضا تقابل التجار الأوروبيون والأفريقيون حتى عند اشتراكهم في تجارة العبيد اللعينة على قدم المساواة. فلقد عامل كل منهم الآخر بمزيج من الحذر والاحترام.

واهتم الأوروبيون والعرب بإبداء اعترافهم بسلطة الحكام الأفريقيين واحترام عادات وتقاليد الشعوب الأفريقية. ولكن حضر الأوروبيون منذ البداية إلى جنوب أفريقيا ليس كتجار ولكن كمستوطنين. وحينما زادت أعدادهم وتوغلوا في السداخل من مركزهم الأصلي عند شبه جزيرة الكاب Cape نظروا بحسد إلى أراضي الشعب المحلي خلال القرن السابع عشر ومعظم القرن الثامن عشر لأن تلك الأرض كان يمتلكها الصيادون السان والرعاة الخوى khoi، ثم بعد ذلك لأراضي البانتو الكثيفة السكان وهم مزارعون ورعاة أيضا. ولذلك كان الغزو هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن للبوير عن طريقها الحصول على تلك الأراضي الخصبة شرق مستوطنة رأس الرجاء الصالح، ويمكن أن يتم ذلك الغزو بواسطة جماعة من مزارعي الحدود الذين يركبون الجياد ومسلحون ببنادق الصيد ثم يطردون سكان قرية سان أو خوى أو حتى قرية للبانتو. كما يمكن أن يتم ذلك بواسطة القوات الرسمية للمستعمرة بعد حرب على الحدود التي تكون عادة نتيجة للغارات

والغارات المضادة للمزارعين الهولنديين. وشعر الغزاة بطبيعة الحال بتفوقهم على المهزومين وبرروا أعمالهم بهذا التفوق.

ونرى مشاعر تفوق البوير في رواية أحد الرحالة الإنجليز الخاصة بأحد مزارعي الحدود الهولندية الذي سجنته وضربته بالسياط السلطات العسكرية البريطانية عام ١٧٨٨ لسوء معاملته لخادم من الخوى:

(استمر يندب طوال الليلة الأولى كما صرخ بصوت عال يا إلهي، هل هذا أسلوب يعامل به رجل مسيحي) ولم تكن تلك النداءات وليدة الألم الجسدي بل تعبيراً عن غضبه وحقدّه لمساواته بأحد الوطنيين السود. ويرى البوير أن الفرق بينهم وبين الأفريقيين يشبه تماماً الفرق بينهم وبين ماشيتهم".

ونرى هنا جذور الأوضاع العرقية المميزة لجنوب أفريقيا، كما سبق أن رأينا في الفصل الثاني كيف كان يمكن إيجاد حلول للنزاع الذي نشب بين الشعبين نظراً لطلبهما أراض أكثر إذا ما استمر كل منهما في موقعه خلال الثلاثين عاماً الأولى بعد اتصالهما ببعضهما البعض لأول مرة في سبعينيات القرن الثامن عشر عند الحدود الشرقية لمستعمرة رأس الرجاء الصالح. وكان يمكن آنذاك الوصول إلى اتفاق لوقف التوسع وإنشاء حدود دائمة يدافع عنها الجنود مثل تلك التي توجد بين الدول الحديثة. ولكن انتهى احتمال هذا الحل بعد العقد الأول أو الثاني من القرن التاسع عشر. فلم يمكن أبداً تلبية طلبات الناس على جانبي الحدود للحصول على أراض أكثر، ولذلك نشأ الصراع للاستيلاء على الأراضي في جنوب أفريقيا على انتصار أحد الطرفين وهزيمة الآخر تماماً.

شاكّا Shaka ودولة الزولو

حينما نشبت المعارك الأولى بين البيض والسود عند نهر فيش Fish كانت

أعداد شعب البانتو المتحدث بلغة النجوني يزداد تماما مثل البوير. ولذلك لم تعد توجد أراضي صالحة للحياة ورعى الماشية على جانبي الحدود، وذلك لاحتياج هذا الرعى مساحة كبيرة من الأراضي. ويعتبر ذلك أساسيا في حياة بانتو جنوب أفريقيا؛ إذ كانت الماشية مصدر رزقهم ودلالة على ثرائهم وقوتهم، كما أنه لا يستطيع أى شاب الزواج قبل إرسال ماشية لعائلة خطيبته، وفي العصور السابقة أمكن مواجهة هذا الضغط السكاني والحيواني على الأرض بالتوسع المستمر فى اتجاه الجنوب الغربى على حساب شعب الخوى الأقل عددا عند غرب مستعمرة رأس الرجاء الصالح. ولكن سد معظم هذا الطريق آنذاك لوجود المزارعين البوير الذين يرغبون أيضا - كما ذكرنا - فى الاستيلاء على المزيد من الأراضي. ولذلك وجب على البانتو الذين يريدون زيادة أراضيهم أن يهاجموا جيرانهم والاستيلاء عليها بقوة السلاح.

وفى بداية القرن التاسع عشر قامت مجموعتان تقيمان فى الطرف الشمالى فى بلاد النجوني وهما السوازي **Swazi** والزولو **Zulu** بعسكرة مجتمعهما فى أعمال غزو. ولذلك دخل معظم جنوب أفريقيا آنذاك فى عصر أسماه أبناؤها "عصر الاضطرابات" (بلغة السوتو: **Difacni** ديفا كانى **Difacani** وبلغه الزولو مفكانى **Mfecane**، وهو عصر عنف وخراب وتدمير.

ولم يكن الزولو فى البداية إلا عشيرة صغيرة تقيم على أراضي أحد الحكام النجوانى فى ناتال **Natal**، وكان شاكا، المولود عام ١٧٨٧، أحد أبناء زعماء عشائر الزولو ولكنه تخاصم مع والده فيما بعد ولجأ إلى بلاط الملك دينجسوايو حيث قوى مركزه ودعمه وأصبح قائدا للكتائب العسكرية. ثم نصبه الملك زعيمًا على عشيرة الزولو عند وفاة والده عام ١٨١٦. ولكن اغتيل دينجسوايو بعد عامين واستولى شاكا على الإمبراطورية العسكرية التى بدأ فى تشييدها، وأثبت شاكا أنه قائد عسكري من الطراز الأول وعبقري فذ. وأعاد إصلاح التنظيم والأسلحة والمناورات الحربية للإنبي دينجسوايو (وتعنى إنبي بلغة الزولو: الكتائب

العسكرية). ثم نظم المحاربين الشباب في كتائب طبقا لأعمارهم، ولم يسمح لهم بالزواج إلا بعد إنهاء خدمتهم العسكرية في سن الثلاثين أو بعد ذلك، وكتب الرحالة الفرنسي أدولف في ثلاثينيات القرن التاسع عشر واصفا التحول والتغيير الذي قام به شاكا Chaka.

وقبل شاكا كان الزولو يرتدون الصنادل، أو يحاربون في معاركهم بالأساجاي بالزولو: الرماح مثلما يفعل الأماكوسا (أي الخوسا) حتى اليوم، يهجمون في البداية في كتلة دون ترتيب. ولكن كون شاكا كتائب من ألف مقاتل في كل منها ونزع الصنادل بالرغم من وجود أشواك في الأحراش، ويأخذ كل محارب أسجاي واحد فقط، ثم يجب إيرازه بعد القتال وعليه دماء الأعداء. ولا يجب أن يكون القتال إلا بالالتحام المباشر. وسهل أسلوب القتال الجديد المجهول للشعوب المجاورة أعمال غزو شاكا بطريقة كبيرة.^(٣٢)

وقام شاكا بتجربة الأساجاي الجديد قبل جعله السلاح النمطي للإيبى، ردمع هنري فين أحد التجار الإنجليز والذي زار الملك الكبير عام ١٨٢٤ عن "القتال التجريبي" ووصفه في مذكراته كنموذج لذكاء شاكا وعنفه البالغ.

ولم يوافق شاكا أبدا على أسلوب إلقاء الأساجاي. ولذلك جمع مجموعتين من رعاياه من أجل إحلال أسلوب هجوم مختلف بدلا من القديم وأمرهم بالحصول على أغصان من ساحل النهر وذلك للتأكد من تأثير السلاح عند استخدامه بالالتحام المباشر، وواجهت المجموعتان إحداهما الأخرى وألقت الأولى الأغصان بينما اندفعت الأخرى على منافستها وقاموا بضربها. وانتهت التجربة برضاء شاكا الكامل؛ حيث أصيب كثيرون من المجموعة الأولى، والكثير منهم كانت إصاباتهم بالغة. ثم أمر شاكا بذبح ستة ثيران وجمع أساجاي أتباعه وأمر بكسرها واستخدامها في طهو اللحم. فوزع أفضل القطع على الذين تميزوا بشجاعتهم، أما

(٣٢) Voyage dans L'Afrique australe (paris 1847), Vol.2 p.218

الأجزاء السفلى وزعت - بعد وضعها فى الماء البارد - للذين ترددوا أثناء المعركة. (٣٣)

ولذلك أحاطت قوات شاكا من الإنبى العدو مثل قرون الثور، وكانت فعالة وذات تنظيم عسكرى دقيق لدرجة أنها كادت لا تهزم أبدا. وهزم زعماء النجوى القرينتين واستخدم الزولو أراضيه لرعى ماشيتهم. ولكن ضم شاكا العديد من الشبان والشابات إلى شعب الزولو الذى سيطر فى عصر هذا الملك وخليفته دينجان الذى اغتال شقيقه عام ١٨٢٨ على معظم أجزاء منطقة ناتال الحالية، ولذلك أصبحت سياسة الانفصال على امتداد حدود ثابتة ومتفقا عليها من الأمور المستحيلة نظرا لوجود تلك المملكة المقاتلة الشرسة والسريعة النمو خلف الحدود الشرقية لمستعمرة رأس الرجاء الصالح مثلما سنرى فيما بعد.

عصر الاضطرابات: موشش Moshish والباسوتو Basuto

شهد جنوب أفريقيا كله تقريبا آثار توسع الزولو بطرق غير مباشرة، فلقد عبر الهاربون من ناتال جبال الدراكتيرج أملا فى الهروب من شاكا وقوات الإنبى التابعة له. ولكن وجب عليهم أن يكونوا غزاة أنفسهم لإيجاد أراضى صالحة للإقامة، ولذلك قلدوا وسائل قتال الزولو. ولذلك اشتبكت شعوب السوثو - تساوانا- بتأثيرهم فى حروب دامية الواحد ضد الآخر تماما مثل انهيار الأحجار من فوق الجبل. وتجول آلاف من الناس النازجين عبر السهول Veld فى البرية أو لجأوا إلى الجبال. وأدى الجوع ببعضهم إلى الحياة بواسطة العنف والسلب والنهب، ثم بدأوا أعمال الغزو تماما مثل الزولو. أما أعنى الغزاة فكانوا شعب الباتلوكوا الذين حكمتهم ملكة شديدة البأس تدعى مانتاتيسى ثم ابنها سبيكويلا من بعدها. أما

The Diary of Henry Fynn, ed J. Stuart and D. Mck. Malcolm (1950) P.283. (٣٣)

شعوب السوثو فإنها بعد استيعابها العديد من اللاجئين من ناتال فإنها قد هجمت على شعوب السوثو - تساوانا من غرب الترنسفال وبوتسوانا وقسمتهم وأشاعت الفوضى بينهم. ولم تستقر مختلف شعوب التسوانا مثل الباكاتلا والياما نجواتو كممالك مستقرة إلا بعد منتصف القرن، ودفع البتسوانا بعد ذلك إحدى عشائر السوثو وهي البافوكنج أو الماكالولو تجاه الشمال، و يقال إن زعيمهم سبتواني قد خاطب شعبه بالكلمات التالية عام ١٨٢٣.

"يا ساداتي، ترون الآن أن العالم ينهار فوق آذانكم، وطردنا نحن وشعوب أخرى من ديارنا القديمة، وتم الاستيلاء على قطعاننا، وقتل إخواننا وأبناؤنا، وخطفت زوجاتنا وبناتنا وجاع أبناؤنا، ولقد فرضت علينا الحرب، قبيلة ضد أخرى. وسوف نأكل بعضنا البعض، وعلمنا آباؤنا عبارة "كلوتسوكي نالا بمعنى السلام رخاء - ولكن لا يوجد سلام اليوم ولا رخاء! فماذا نفعل؟ هذه كلمتي يا ساداتي! فلنسر! ولناخذ زوجاتنا وبناتنا وماشيتنا ولنذهب للبحث عن أراضٍ حيث يمكننا العيش بسلام." (٣٤)

ولذلك ساد الماكولولو شمالا في صراع مرير مع أعدى أعدائهم النديبيلي القاطنين شرقهم، واستقروا أخيرا حوالي عام ١٨٤٠ عند الزامبيزي الأعلى بعد تغلبهم على شعب اللوزي في مملكة الباروتسي وجعلوهم أتباعا لهم. واستمر حكمهم على الباروتسي حوالي عشرين عاما فقط، ولكن كان هذا الوقت كافيا لتصبح لغتهم لغة الباروتسي لاند كلها.

كما استطاع زعماء أكفاء للغاية جمع شمل اللاجئين الهاربين من المفكاني في منطقتين أخريين، وتم تشكيلهم في أمم جديدة قادرة على مقاومة ضغط الزولو بل وفيما بعد الأوروبيين أيضا، وكانت إحداها مملكة السوازي التي أنشأها سوبهوزا وخليفته مساوزي، أما الأخرى فهي ليسوتو. وكان إنشاء تلك الدولة

Quoted in Edwin W. Smith, Greal Lion of Bechaunaland: The Life and Times of Roger (٣٤)
Price (London 1957) P.367

إنجاز وترويج حياة موشش أحد أكبر الزعماء الذين عرفتهم جنوب أفريقيا كلها. ووصف ديوجين كاساليس المبشر الفرنسي الذي دخل البلاد عام ١٨٣٣ وقضى عدة أعوام كمستشار موشش للشئون الخارجية.

وكتب كاساليس عن موشش بلغة راقية مميزة للعديد من الأوروبيين في هذا الصدد "لموشش طباع جيدة ومثيرة للاهتمام، أما سلوكه فمبجل كما تدل ملامحه على اعتياده التفكير والقيادة، وتوجد دائما ابتسامة عريضة على شفتيه"، وأخيرا عرف الملك كاساليس عصور السلام السائدة قبل غزو المفكاني قاتلا:

"كانت بلاد الباسوتو كثيفة السكان في العصر الذي ولد به موشش (حوالي ١٧٩٠). وكانت الخلافات تنشب من وقت لآخر بين مختلف المجتمعات، ولكن لم تصل أبدا إلى إراقة دماء كثيرة، ولا يزال الباسوتو يحتفلون حتى الآن في أغانيهم بالمراعى الخضراء لبوتوبوتي موطن موشش والهضاب العالية المنحدرة؛ حيث كان يصطاد مع رفاقه. ولكن توقفت تلك الرياضات المفضلة فجأة، في وقت لم ينتظره أحد، نظرا للغزوات الكارثة القادمة من ناتال، وعم الخراب في وديان ليسوتو المسالمة.

وظلت الحقول دون زراعة، وأضيفت ويلات المجاعة إلى ويلات الحروب التي قضت أيضا على معظم الرجال الأكفاء، وواجه موشش الموقف الصعب بشجاعة. فلقد رأى الأمور على حقيقتها وعرف كيفية المقاومة والمهادنة في الوقت الملائم. وحصل على الحلفاء وحتى بين غزاة أراضيها كما جعل الخلاف يدب بين أعدائه ولكنه كان رحيما للغاية، ولذا احترمه حتى الذين أقسموا على تدميره.^(٣٥)

وساعدت جبال بلادهم شعب الباسوتو في حروبه ضد الزولو والبوير على السواء، إذ قدمت لهم المواقع الدفاعية المحصنة التي لا يمكن الاستيلاء عليها تقريبا حتى بواسطة القوات المسلحة بأسلحة نارية، وتظهر أساليب موشش الحربية

Eugene casalis the Basuto (1861) (Cape Town 1965) PP.15-16 (٣٥)

ومهارته الدبلوماسية التي مكنت الباسوتو من ممارسة نفوذ أكبر بكثير من أعدادهم وقوتهم العسكرية في الطريقة التي عامل بها فرعا من الزولو على يدى النديبيلي بعد فشلهم في الاستيلاء على قلعة الحربية الجبلية في ثابا بوسيو عام ١٨٣١.

تقدم الزولو في صفوف مترابطة لاعتيادهم النصر، ولم يلاحظوا أن كتل البازلت التي انهالت عليهم بصوت رهيب من قمة الجبل ولكن ما حدث انهيار عام، إذ انهالت عليهم عاصفة من الحجارة والرياح التي أدت إلى تراجعهم بسرعة تفوق تقدمهم وشوهد الزعماء يجمعون المنسحبين وينزعون عنهم الريش الذى يزين رءوسهم ويضعون أقدامهم عليهم من شدة العنف، ثم قادوا رجالهم ثانية تجاه القلعة المنيعة ولكن بدون جدوى، وانسحب الزولو من اليوم التالى وفي لحظة رحيلهم توقف أحد الموسوتو الذى يقود بعض الثيران السمينة أمام أول صفوفهم وأعطى لهم تلك الرسالة. إن موشش يحييكم، ويفترض أن الجوع قد أحضركم إلى بلاده، ولذلك يرسل لكم تلك الماشية لكي تأكلوا منها أثناء عودتكم لدياركم. ولم تهاجم تلك الشعوب موشش بعد ذلك أبدا. (٣٦)

وغادرت بعض جماعات الزولو التي تخاصم زعمائها مع شاكا بلاد الزولو للقيام بأعمال غزو في مناطق أخرى، فأخذ شعبه الشانجانى إلى جازا لاند في جنوب موزمبيق، وقام بغزو التوسنجا ثم ضمهم إليه، وكانوا السكان الأصليين في تلك المنطقة، ثم اندفع زعيم آخر وهو زفنجدابا ومحاربوه شمالا عبر نهر اللمبوبو ومنه إلى هضبة زيمبابوى حيث دمروا مملكة روزوى القديمة للشنجاير وهم حكام الهضبة القريبة، ثم تحرك زمنجدابا والنجونى التابعون له بعد فترة قليلة واستقروا في النهاية على الهضاب العالية غرب بحيرة مالاوى ولكن وصلت بعض القوات العسكرية للزولو من نجونى إلى مناطق بعيدة للغاية بعد أن ضمت إليها جنودا جددا من الشعوب المهزومة وتوغلت شمالا إلى مسافات قاصية بلغت السواحل

(٣٦) Ibid ,P.63

الجنوبية لبحيرة فكتوريا وشرقاً إلى المحيط الهندي، ومثلما رأينا في الفصل السابع كان لهم تأثير وشأن عظيم في أحداث شرق أفريقيا، ثم قاد مزليكالى فى نهاية الأمر عشائر النديبيلى التابعة له (وبلغه السوتو) وهم من بطون الزولو أيضاً عبر جبال داراكنسبرج إلى منطقة المراعى العليا وتبعه فى ذلك عشائر المانتاتيسى والسبتوانى إلى أن هزمهم الغزاة البوير بالقرب من بريتوريا، ولم تهاجم تلك الشعوب موشش بعد ذلك وغادرت بعض جماعات الزولو التى تخاصم زعمائها مع شاكا بلاد الزولو للقيام بأعمال غزو فى مناطق أخرى، بالقرب من بريتوريا الحالية عام ١٨٣٧، ولذلك انسحب النديبيلى شمالاً عبر اللمبوبو واستقروا فى الجزء الغربى لهضبة زيمبابوى (أرض الماتابيلى) وحولوا معظم شعب الشونا المحلى الرعايا السابقين لمملكة روزوى إلى تابعين يسدون لهم الجزية.

توسع البوير.. الهجرة الكبرى

هرب اللاجئون أيضاً من جيوش الزولو الظافرة إلى مستعمرة رأس الرجاء الصالح الشرقية، مما زاد من حدة النزاع على الحدود مع المزارعين الهولنديين الذين ازدادت أعدادهم حينما وصل ٥٠٠٠ مستوطن بريطانى عام ١٨٢٠، وغضب دعاة الإنسانية وجماعات المبشرين فى بريطانيا من انعدام القانون عند الحدود، بالإضافة إلى المعاملة القاسية المذلة للمزارعين الأفريقين شبه العبيد بواسطة البوير، وأجبرت تلك الجماعات الحكومة البريطانية على اتخاذ موقف أكثر مسئولية تجاه الشعوب غير البيضاء فى الإمبراطورية البريطانية، وذلك فى الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر، وكان أكثر المبشرين المسيحيين نشاطاً فى جنوب أفريقيا هو جون فيليب من جمعية المبشرين اللندنية، ولذلك أصبح الخوى والسان بفضل مجهوداته فى مستعمرة رأس الرجاء الصالح تحت حماية القانون عام ١٨٢٨، ثم وسع حملته بعد ذلك لتشمل العبيد السابقين بعد إلغاء العبودية عام

١٨٣٣، وهنا رأى البوير أن الحكومة البريطانية تهتم أكثر بحماية خدمهم أكثر في توسعهم على حساب قبائل النجوني، واعتبر أن من حق كل مزارع هولندي امتلاك ضيعة مساحتها ٦٠٠٠ فدان عند زواجه، ولذلك سرعان ما نفذت الأراضي عند حدود المستعمرة، ولكن أعيدت منطقة كبيرة على الحدود الشرقية والتي ضمت سابقا إلى الأفريقيين عام ١٨٣٦، وذلك لعدم استعداد الحكومة البريطانية لسداد تكاليف إدارتها، ولم يحتمل البوير ذلك بالمرّة ولذلك هاجر الكثيرون Trek (وتعني تلك الكلمة بالهولندية رحلة أو هجرة) خارج الأراضي البريطانية وعبر نهر أورانج إلى الشمال، وذكرت أنا سيقنامب وهي شقيقة أحد زعماء الهجرة الكبيرة أحد أسبابهم الرئيسية لمغادرة مستعمرة رأس الرجاء الصالح.

"إنها تلك الإجراءات المخزية وغير العادلة فيما يتعلق بإعتاق عبيدنا، ولا يتعلق الأمر فقط بتحريرهم الذي أدى بنا إلى تلك الهجرة ولكن أيضا مساواتهم بنا - نحن المسيحيين - مما يخالف قوانين الرب والفرق الطبيعي النابع من الدين والعرف، ولذلك أصبح من المستحيل على أي مسيحي يحترم نفسه أن يخضع لتلك المذلة، ولذلك خرجنا من أجل ممارسة شعائنا بحرية ونقاء، وعلق ليفنجستون فيما بعد لقد صمم البوير على إنشاء جمهورية لأنفسهم يمارسون بها دون مضايقة "معاملة السود بالأسلوب المناسب" وهذا الأسلوب المناسب قد احتوى دائما على عنصر أداء العمل دون أجر (أي العبودية). (٣٧)

وعلم المهاجرون البوير من الصيادين والتجار أن المناطق الخصبة في ناتال قد هجرها سكانها هربا من الزولو الذين حولوها إلى مراعى، ولذلك قرروا دخول أراضي الزولو بعبور الترنسفال ثم النزول في مضائق جبل الدراكنبرج إلى ناتال. ورغبوا بذلك تجنب لقاء أراضي النجوني الكثيفة السكان بين نهر فيش Fish وناتال. ونجح ملك الزولو دنجاي في بداية الأمر باحتواء هذا الخطر، ولكن هزم

(٣٧) Quoted in John Bird, Annals of Natal (pietermarizburg 1888) Vol.I,P.459.

البوير تحت قيادة بريثوريس ملك الزولو عام ١٨٣٩ وأنشأوا جمهورية في ناتال، وأدى ذلك الأمر إلى دخولهم في نزاع آخر مع الحكومة البريطانية التي رفضت تماما وجود أى قوة أوروبية منافسة على سواحل المحيط الهندي، كما خشيت أيضا فعلا من سيطرة البوير على ناتال وتهديدهم للنجوني المقيمين عند شرق مستعمرة رأس الرجاء الصالح ومضاعفات ذلك، ولذلك استولت بريطانيا على ناتال عام ١٨٤٥ وغضب معظم سكان ناتال البوير وعادوا إلى الأراضي المرتفعة؛ حيث كانت جماعات أخرى من المزارعين الهولنديين قد طردت عشائر النديلى عبر نهر الليموبو، واضطرت الحكومة البريطانية رغما عنها تقريبا لمتابعة البوير شمال نهر أورانج. ولكنها اعترفت فيما بعد على التوالى باستقلال جمهوريتى البوير فى الترנסفال ودولة أورانج الحرة فى ١٨٥٢ و ١٨٥٤.

ولذلك تكونت جنوب أفريقيا فى منتصف القرن التاسع عشر من مستعمرتين بريطانيتين وهما مستعمرة رأس الرجاء الصالح وناتال وجمهوريتين للبوير والعديد من الممالك والعشائر الأفريقية المستقلة التى كانت أكبرها ممالك الباسوتو والزولو، ولم يزد السكان البيض كلهم عن ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، أما السكان الأفريقيون فكانوا بين مليون ومليونين من الناس، ومنحت بريطانيا مستعمرة رأس الرجاء الصالح دستورا وبرلمانا منتخبا عام ١٨٥٣، ثم منحتها الحكم الذاتى الكامل عام ١٨٧٢. وكان الانتخاب غير عرقى؛ إذ يمكن انتخاب النواب من كل الأجناس بشرط امتلاكهم قدرا معينا من الملكية، أو أن يكون لديهم قدر معين من الأجور ولكن لم يشارك باقى الأوروبيين فى جنوب أفريقيا فى ممارسة تلك السياسة الليبرالية لمستعمرة رأس الرجاء الصالح. فلم يتم الاعتراف فى جمهوريتى البوير بالمواطنة إلا للبيض فقط، كما كان من حق الرجال البيض فقط ممارسة الحقوق الانتخابية.

نهاية الدويلات الأفريقية المستقلة

وأدت عملية اكتشاف مقادير هائلة من الماس بجوار منطقة النقاء نهري الأورانج والفال إلى حدوث تلك التطورات التي أدت إلى فقدان الشعوب الأفريقية المستقلة استقلالها. وكان ذلك أمرا لا مفر منه، وسرعان ما أصبحت تحت الحكم الأوروبي المباشر، وظهر أن الوضع كان رديئا بين عامي ١٨٥٦ - ١٨٥٧ لخوسا والنميو المقيمين بالجوار المباشر لشرق مستعمرة رأس الرجاء الصالح أنهم اتبعوا نبوءة إحدى الفتيات نونج كيس التي ذكرت أنه إذا قتلت الماشية في يوم معين وإذا دمرت الحبوب في اليوم نفسه فإن أجداد القبائل سوف يرمون الأوروبيين في البحر. وكانت النتيجة مجاعة هائلة مات بها الآلاف بينما غادر كثيرون أراضيهم وتوجهوا للبحث عن العمل والطعام في مستعمرة رأس الرجاء الصالح. وأدى افتتاح مناجم الماس إلى زيادة كبيرة في الطلب على العمالة، ولذلك اتجه الأفريقيون من كل جهات جنوب أفريقيا إلى كيمبرلي، وزودت الشركات من الأيام الأولى من ممارسة أعمالها العمال بالأسلحة والذخيرة، ولذلك عاد الآلاف من الأفريقيين إلى ديارهم بالأسلحة النارية. وأدى ذلك إلى خوف مبالغ فيه بين الأوروبيين لقيام ثورة شعبية أفريقية موحدة. ولكن ولحسن حظ الجانب الأوروبي أن الحروب التي نشبت فيما بعد كانت مختلفة تماما ولكنها أدت أيضا إلى دمار رهيب، لأن الأوروبيين والأفريقيين قد امتلك كلاهما أسلحة نارية.

وتولت حكومة مستعمرة رأس الرجاء الصالح السيطرة على الباسوتو عام ١٨٧١ بعد دخولهم في صراع مرير على الأرض مع مزارعي الدولة الحرة، ثم قضت الحكومة في النهاية على القوة القتالية للخوسا Khosa وباقي قبائل النجومى على الحدود الشرقية عام ١٨٧٧ وإن تم ذلك بتكلفة كبيرة من الأرواح والأموال. واستولت بريطانيا أيضا على الترنسفال Transvaal عام ١٨٧٧؛ حيث لم تستطع قوات البوير الحكومية الفقيرة مواجهة تطورات الحرب الناشبة ضد قبائل البابيدي Bapedi تحت قيادة زعيمهم سيكوكوني.

فلقد تورط البريطانيون هنا لكونهم أصدقاء الزولو في ناتال في صراع بين البوير في الترنسفال وشيشوايو (تتلق كيتشوايو) وهو ابن شقيق وخليفته دنجانى Dingane حول قطعة أرض مراعى. ولكن تحدى سير بارتل فريير Sir Bartle Frere المندوب السامى البريطانى فى جنوب أفريقيا ششتوايو إلى الحرب. واستطاع الزولو سحق جيش بريطانى فى إساندوانا قبل أن تلحقهم التعزيزات البريطانية التى أرسلت إلى ناتال، وشهد العام التالى ١٨٨٠ بداية حرب كبيرة بين حكومة مستعمرة رأس الرجاء الصالح والباسوتو التى بدأت بمحاولة نزع سلاح الأفريقيين. ولكن أنقذت حكومة المستعمرة من تلك الحرب الكارثة حينما تولت الحكومة البريطانية المسئولية المباشرة لإدارة أرض الباسوتو Basuto Land ولم تكن تلك الاضطرابات الوحيدة، فلقد تورط الأوروبيون أيضا فى نزاعات مع بعض قبائل التسوانا Tswana والكورانا Korana والخوى عند نهر الأورانج الأسفل، واشتعلت الخلافات المتميزة بين الهيرورو (باننؤ) والناما Nama (خوى) فى جنوب غرب أفريقيا فى نشاطات التجار الأوروبيين، وكان الشعبان من الرعاة فى أرض جافة وأخذوا مواقف متباينة مع الأوروبيين - الواحد ضد الآخر - ومولهم الأخيرون بالأسلحة النارية والخمور، وقبل نشوب تلك الحروب كلها، بل أثناء استمرارها حاول وزير المستعمرات البريطانى لورد كانارفون فى بريطانيا وفى مستعمرة رأس الرجاء الصالح بواسطة فريير Frere توحيد كل الدول البيضاء فى جنوب أفريقيا فى دولة كبيرة واحدة تحت حكم حكومة واحدة. وفشلت عملية الاتحاد المذكورة فى نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر. ولكن لم يغفر للبوير فى دولة أورانج الحرة البريطانية أبدا لاستيلائهم على منطقة غرب جركوالاند الغنية بالماس عام ١٨٧١. ولذلك ثار سكان الترنسفال على الحكومة التى فرضتها بريطانيا عليهم قبل ثلاثة أعوام وهزموا القوات البريطانية المرسله ضدهم لقمعهم فى نل ماجوبا عام ١٨٨١.

الطريق إلى الشمال

أدى وجود المبشرين المسيحيين إلى زيادة العداء بين الحكومة البريطانية والبوير الذين نظروا إلى نشاطاتهم بين الأفريقيين بشك عظيم. وأنشئت الإرساليات داخل حدود مستعمرة رأس الرجاء الصالح وناتال، وإن كانت لم تتجح كثيرا بين شعوب النجوني التي مازالت مستقلة وشديدة البأس في القتال وبالذات الزولو والنديبيلي، ولكن زاد تأثير المبشرين بين السوثو والتسوانا، وأقامت الجمعية التبشيرية البارسية علاقات وثيقة مع موشش، كما سبق القول وبالرغم من عدم اعتناقه المسيحية - ولا خليفته - فإن الآلاف في الباسوتو قد تعلموا القراءة والكتابة وأصبحوا مسيحيين، وعمل روبيرت موفات من الجمعية التبشيرية اللندنية بين الجريكوا (وهي مجموعة من أصول خوري وأوروبية مشتركة) والتسوانا عند كورومان عبر الحدود الشمالية لمستعمرة رأس الرجاء الصالح منذ عشرينات القرن التاسع عشر. وأدى توغل البوير إلى أراضي التسوانا أثناء وبعد الهجرة الكبيرة إلى زيادة كرههم للمبشرين التابعين لحكومة الترنسفال، مما جعل المبشرين يصرون على فتح طريق إلى الشمال خال من سيطرة البوير. وبدأ يستخدم عمله في أفريقيا كمبشر ومستكشف وعمل لإنشاء طريق التبشير وهي قطعة الأرض الضيقة في بوتسوانا بين الترنسفال وصحراء كالاهارى التي تتجه شمالا إلى ماتابيلي لاند والباروتسي لاند.

وعلم التجار والمبشرون الإمكانات المتاحة للمسيحية والتجارة في الأراضي شمال نهر الليمبوبو بعد رحلة ليفجستون الكبيرة من باروتسي لاند إلى لواندا، ومن هناك عبروا أفريقيا إلى مصب نهر الزامبيزي (١٨٥٣ - ١٨٥٦). وفهمت الحكومة البريطانية بالذات الأهمية الحيوية لطريق المبشرين "بين جنوب أفريقيا والداخل". وبعد استيلاء الألمان على جنوب غرب أفريقيا عام ١٨٨٣ وضمها إليهم أقام البريطانيون الحماية على بوتسوانا (التي عرفت في العصر الاستعماري كبتشوانا لاند). ومهد ذلك الطريق لرودس لاحتلال زيمبابوي بعد بضعة أعوام.

الفصل التاسع

تقسيم أفريقيا نظريًا (١٨٧٩ - ١٨٩١) المصالح التجارية الأوروبية في أفريقيا قبل التقسيم

حدثت أحداث جلية في أوروبا خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والتي أدت إلى تغيير وجه أفريقيا. ولكن لا يمكن فهم هذه التغيرات إلا بالحدوث عن أصولها وتطورها خارج القارة الأفريقية، ففي عام ١٨٧٩ كان الأفريقيون يحكمون أكثر من ٩٠ بالمائة من القارة "ولكن بحلول عام ١٩٠٠ تغير الأمر تمامًا وحكمها الأوروبيون كلها باستثناء بعض المناطق البسيطة. ولكن أثر هذا الحكم الأجنبي كثيرًا على حياة كل الشعوب الأفريقية بحلول عام ١٩١٤. وقسم الأوروبيون فيما بينهم القارة الأفريقية بسرعة كبيرة كأنهم رياضيون في لعبة شرسة عنيفة لدرجة أن تلك العملية قد عرفت "بالتهاافت على أفريقيا" من أجل تقسيمها.

ولكن نبعث أسباب هذا التقسيم والدوافع الكامنة خلفه من صميم التاريخ الأوروبي وليس الأفريقي بالمرّة، وأدت في النهاية إلى تلك التصرفات الأوروبية، ولذلك يجب الالتفات إليها جيدًا لمعرفة الدوافع الكامنة خلفها.

ويجب أن نتأكد - بادئ ذي بدء - أن القوى الأوروبية الكبيرة في غرب أوروبا خلال الخمسة وستين عاما الأولى في القرن التاسع عشر دولتان فقط وهما بريطانيا وفرنسا. ولم تكن ألمانيا وإيطاليا قد توحدتا بعد وبرزتا كقوتين أوروبيتين كبيرتين. وتخلت كل من هولندا والدانمارك وهما من القوى الأوروبية الصغرى عن ممتلكاتهما الأفريقية (المحطات التجارية على ساحل الذهب) خلال القرن

التاسع عشر، ولم يبق إلا البرتغال كمنافس صغير لبريطانيا وفرنسا - كما يجب أن نتذكر أيضا أن فرنسا برغم قوتها العسكرية الكبيرة للغاية قد تخلفت بالعكس كثيرا عن بريطانيا في مجال التطور الصناعي والتجاري، ولذلك اتبعت سياسة الحماية بمعنى أنها خصصت تجارة مستعمراتها لتجارها فقط لكون منتجاتها أقل جودة أو أكثر سعرا من المنتجات البريطانية. ولذلك وجدت قواعد عسكرية وتجارية فرنسية لا يمكن للتجار غير الفرنسيين دخولها في السنغال من عام ١٨١٥، وفي غينيا وساحل العاج وداهومى والجابون ومدغشقر منذ أربعينيات القرن التاسع عشر، ولكن كانت تلك المناطق صغيرة للغاية. وفرضت بريطانيا الرسوم الجمركية على المنتجات البريطانية والأجنبية على السواء في كل مستعمراتها الأفريقية. ولكن نعلم تماما أن تجار جميع الأمم كانوا يعملون في أفريقيا في المناطق الساحلية التي لم ترتفع عليها أية أعلام أوروبية بعد. ولذلك لم تجد بريطانيا أسبابا تجارية على الأقل تدفعها للاستيلاء على مساحات كبيرة من القارة وذلك طالما استمرت التجارة الحرة على السواحل متاحة للجميع، ووجدت فرنسا في نهاية الأمر أن مناطق استيطانها المحمية قد كلفتها كثيرا وزادت أعباؤها وتكاليفها عن أرباحها وأصبحت بالتالي عبئا اقتصاديا ثقيلا.

تطور المنافسة الأجلو - فرنسية في غرب أفريقيا

لكن ظهر وضع جديد وتطور فرض نفسه بسرعة على مسرح الأحداث في غرب أفريقيا بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، فلم تعد التجارة ساحلية فقط إذ ظهرت السكك الحديدية أو البواخر النهرية في الأماكن الحيوية القليلة، ولذلك بدأت التجارة الأوروبية تتوغل إلى الداخل، وزحف الفرنسيون في عمق وادي السنغال كما عرف أن هدفهم كان ربط السنغال والنيجر الأعلى بخط سكة حديدية من أجل جذب معظم تجارة الداخل الأفريقي إلى الأيدي الفرنسية. وأدى هذا التطور إلى

التأثير على المحطات التجارية البريطانية في جامبيا Gambia ثم فيما بعد على الطرق التجارية المؤدية إلى سيراليون وساحل الذهب. وأدى تطور الأحداث عند النيجر الأدنى إلى ظهور فكرة وجوب تكتل الشركات البريطانية العديدة في شركة احتكارية كبرى من أجل توحيد جهود العمل في الأسواق الداخلية والوصول إليها بواسطة البواخر الخاصة. ويعتبر ذلك هو الأسلوب الوحيد لخفض التكاليف الاستثمارية الداخلية وتكوين جبهة موحدة تواجه إمارات الفولبي القوية في الداخل، وفعلاً جمع جورج جولدي الشركات البريطانية العاملة أعالي النهر في شركة واحدة عام ١٨٧٩، ولكنه وجد التجار الفرنسيين ينافسونه هناك أيضاً، ولذلك تعامل معهم بطريقة عنيفة شرسة للغاية فلقد خفض أسعاره لدرجة أدت إلى خسارته ولكنها أدت أيضاً إلى إجبار منافسيه الفرنسيين على تصفية أعمالهم وبيعها إلى شركته التجارية، الخاصة ولذلك فهم الفرنسيون بالتأكد انه يجب أن تحصل على تأييد سياسى بالنسبة للمستقبل على الأقل.

دخول القوى الجديدة

كانت بريطانيا وفرنسا قد فكرتا في تقسيم القارة إلى مناطق نفوذ في غرب أفريقيا بحيث تحتكر كل منهما تجارة منطقة نفوذها في غرب أفريقيا في العقد السابع من القرن التاسع عشر، ولذلك قنم الفرنسيون اقتراحاً بأن تتنازل بريطانيا لفرنسا عن جامبيا مقابل مد السيطرة البريطانية على الساحل من سيراليون إلى جبل الكمرون، ولكن تم تجميد هذا المشروع عام ١٨٧٥، ولولا تدخل القوى الأوروبية الأخرى لثم إحياءه ثانية في ثمانينيات القرن التاسع عشر بحيث يسيطر الفرنسيون على النيجر الأعلى والطرق المائية المؤدية إلى ساحل غينيا الأعلى والبريطانيون على نهر النيجر الأدنى وسواحل غينيا السفلى. ولكن أدى تدخل قوتين أوروبيتين جديدتين و اللتين لم تبديا حتى ذلك الوقت اهتماماً يذكر بأفريقيا

إلى حلبة الصراع إلى تغيير معدل سرعة تطور الأحداث، ولذلك ازدادت سرعة التفكير في تقسيم أفريقيا بين كل من بريطانيا وفرنسا في أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر نظرا لأهمية الحفاظ على المصالح التجارية في الداخل، ولكن أدت التدخلات والمنافسات الجديدة إلى إجبار كل القوى الأوروبية جمعاء - حتى بريطانيا وفرنسا - إلى النظر أبعد بكثير من المصالح التجارية المباشرة.

وخشيت كل دولة أن يغلق منافسوها آفاق التجارة أمامها في المستعمرات الجديدة وذلك بفرض رسوم (أو جمارك) عالية على منتجات الآخرين، ولذلك دخلت كل دولة حلبة الصراع وتهاقت للاستيلاء على الأراضي لكي تحصل على أكبر مناطق نفوذ لمصالحها الخاصة في المستقبل.

الملك ليوبولد والكونغو

وكان أول القادمين الجدد فردا وليس دولة وكان الملك ليوبولد الثاني ملك بلجيكا وهي دولة صغيرة بين عملاقين أوروبيين هما فرنسا وألمانيا، ولم يشارك الشعب البلجيكي أبدا الأحلام التوسعية لحاكمه. وكتب ليوبولد في تاريخ مبكر عام ١٨٦١: "إن البحر يجاور ساحلنا والعالم أماننا، وألغى البخار والكهرباء المسافات ويمكن لكل الأراضي التي لا صاحب لها (ومعظمها في أفريقيا) أن تكون مجالا لعملياتنا ونجاحنا، وكان ليوبولد دبلوماسيا فذا ورجلا ذا طموح رهيب، وتميز بالمثالية الحقيقية أثناء فترة شبابه والإيمان بالتقدم الإنساني والحاجة إلى تحسين أحوال الشعوب الأقل حظا، ولكن، ومع تقدمه في العمر، حلّ الحب المتزايد للثروة والقوة محل مثاليته المبكرة، وأنت فرصة ليوبولد مثلما رأينا في الفصل السادس عند ظهور خطط ستانلي Stanley لفتح حركة المرور النهرى في حوض الكونغو، وكون المستكشف تلك الخطط بعد إبحاره على النهر عام ١٨٧٧ وإن كانت الحكومة البريطانية قد رفضتها. وعين ليوبولد ستانلي في خدمته عام ١٨٧٩.

ولذلك أنشأ ستانلى فى الأعوام الأربعة التالية اتصالات برية ونهرية من بداية نهر الكونغو إلى شلالات ستانلى (مدينة ستانلى) وكيسانجانى. ورغب ليوبولد فى الكونغو تماما مثل جولدى فى النيجر فى الحصول على الاحتكار التجارى الذى سوف يجذب كل تجارة حوض الكونغو إلى بواخره الخاصة وسكة حديدته الخاصة أيضا من بحيرة مالىبو إلى الساحل.

ولم يهتم ليوبولد فى تلك المرحلة بالحصول على معاهدات سيادة أو ملكية قانونية من الحكام الأفريقيين فى منطقة حوض الكونغو الأدنى. واعتمد هنا على سيادته على خطوط المواصلات. ولكن أدت أعماله إلى رد فعل سريع من منافسه "جماعة فرنسية" والتي عاد وكيلها وهو سافورجان دى برازا إلى أوروبا فى صيف عام ١٨٨٢ ومعه معاهدة وقعها ماكوكو Makoko زعيم بلاد البانيكى عند السواحل الشمالية لبحيرة مالىبو، ووضعت تلك المعاهدة أراضيه تحت السيادة الفرنسية، وتَجول دى برازا فى فرنسا وحرك المشاعر الاستعمارية بنجاح باهر لدرجة إقناعه الحكومة الفرنسية بالتصديق على معاهدته مع ماكوكو، وبدا برنامجا كبيرا لعقد المعاهدات والضم عبر الساحل النيجيرى، وأدى ذلك الأمر بالحكومة البريطانية للانضمام إلى السباق الخاص بالأراضى النيجيرية، وأجبرت الملك ليوبولد للحصول على معاهدات تمنحه حقوق السيادة فى منطقة الكونغو الأدنى، وهنا بدأ التهافت على تقسيم غرب ووسط أفريقيا جديا.

وبعدها بدأ بضم الأراضى، وسعى الملك ليوبولد بمهارة للاعتراف الدولى بحقه فى حكم حوض الكونغو، وأقنع الحكومة الفرنسية بتأييده بوعده سرى أن المنطقة ستؤول إلى فرنسا إذا لم يستطع إدارتها شخصيا، وحصل كذلك على تأييد المستشار الألمانى بسمارك فى اللحظة التى كانت ألمانيا تستعد بها الدخول إلى حلبة السباق الاستعمارى، وقدم وعودا مغرية إلى التجار الإنجليز بمنحهم عقودا قيمة، واستطاع بواسطتهم القضاء على خطة الحكومة البريطانية فى منع وصوله إلى الكونغو بالاعتراف بمطالب السيادة البرتغالية على مصب النهر، كما استطاع

وكيل وزارة المستعمرات الأمريكية ويدعى ساندفورد إقناع الولايات المتحدة بالانضمام إلى فرنسا وألمانيا والاعتراف بدولة الكونغو الحرة.

ألمانيا تدخل عملية التكالب ١٨٨٣ - ١٨٨٥

حدثت ثورة اقتصادية وسياسية كبيرة في ألمانيا في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر، وتوحدت معظم الدول المستقلة الناطقة بالألمانية حول دولة بروسيا الألمانية الشمالية تحت قيادة بسمارك، وكان أساس الوحدة السياسية هو اتحاد جمركي يمكن ألمانيا من التقدم في التصنيع، وأدى الجمع بين الوحدة السياسية والنمو الاقتصادي الحديث إلى ظهور قوة كبرى في أوروبا، ولذلك استطاعت ألمانيا منافسة فرنسا عسكريا وبريطانيا صناعيا بحلول سبعينيات القرن التاسع عشر، وأدت المنافسة الفرنسية البروسية إلى نشوب الحرب بينهما عام ١٨٧٠ - ١٨٧١ وهزمت فرنسا واضطرت للتنازل عن ولايتين على الحدود لألمانيا وهما الألزاس والنورين، ثم اتجهت بعض الجماعات السياسية في فرنسا وألمانيا من تلك الحرب إلى أفكار التوسع الاستعماري، ورأى الفرنسيون أن في ذلك تعويضا عن مهانة الهزيمة من الألمان نظرا لقوتهم الجديدة، ولكن رفض بسمارك شخصيا الاهتمام بالمسائل الاستعمارية لفترة طويلة، وترك الأمر لجماعات تجارية في المدن التجارية الشمالية لخلق الطلب الشعبي للحصول على مستعمرات ونجحت تلك الجماعات نجاحا باهرا لدرجة أن بسمارك قد غير آراءه بين ١٨٨٣ و ١٨٨٥، وأخذ دبلوماسي أوروبا على غرة بإعلانه الحماية الألمانية على أربع مناطق متفرقة تماما في أفريقيا وهي توجو والكاميرون وشرق أفريقيا وجنوب غرب أفريقيا.

ولم ينبع طلب ألمانيا للحصول على مستعمرات من أي مصالح مادية تكونت في أفريقيا مثل ذلك، فلقد كان ذلك تأكيدا منها فقط لوضعها الجديد كقوة عالمية

كبرى، وتوجد حقيقة فعلية في النظرية القائلة إن بسمارك قد اشترك بنفسه في عملية التقسيم من أجل السيطرة على السياسة الدولية للقوى الأوروبية المرتبطة بها، ورغب أيضا في إبعاد اهتمامات الفرنسيين لاستعادة الولايتين الضائعتين، ورأى أن أفضل وسيلة لذلك هي توريطها في منافسات مع القوى الأخرى للحصول على أراضى عبر البحار ولذلك أيد المطالب الفرنسية في غرب أفريقيا وحوض الكونغو وقام بعمليات الضم الألمانية في مناطق تهدد المصالح البريطانية وليس الفرنسية أبدا.

وكان لوضع بريطانيا المميز في مصر أهمية كبرى في دبلوماسية التقسيم، ونذكر أن الاحتلال البريطاني لمصر (الفصل الثالث) قد خطط على كونه عملية بريطانية - فرنسية مشتركة لسحق ثورة عرابي باشا وإعادة سلطة الخديوى توفيق. وخطط هذا الاحتلال ليكون تدخلا مؤقتا، ولذلك لم يحدث تغيير في سيطرة لجنة الدين الدولية على ماليات مصر. واعتمد الحكم البريطانى فى مصر بالتالى على الصوت الألمانى فى اللجنة التى كانت لها أهمية كبرى هناك، ولذلك أيد بسمارك الحكم البريطانى فى مصر وذلك خلال الأعوام الحرجة فى عملية التقسيم، ومن ثم حصل على موافقة بريطانيا لأعمال الضم الجديدة وتأييده لمطالب فرنسا والملك ليوبولد شمال وجنوب نهر الكونغو.

ولذلك سيطر بسمارك على الجولة الأولى من عملية التقسيم التى انتهت فى مؤتمر برلين (١٨٨٤ - ١٨٨٥). ومهد المؤتمر الطريق للقادمين الجدد على الساحة الأفريقية بالتركيز على أن تكون المطالب الخاصة بالمستعمرات أو المحميات أو أية منطقة من الساحل الأفريقى قد تم تبليغها رسميا إلى القوى الأخرى المشتركة فى المؤتمر، وبالتأكيد على أن تلك المطالب تعززها عملية إنشاء إدارة فعالة فى المناطق المختصة، وأنهت تلك المفاهيم الأفكار البريطانية عن إنشاء إمبراطورية بواسطة النفوذ فقط. وقرر المؤتمر أيضا أنه يجب أن توجد حرية الملاحة على نهري النيجر والكونغو، مما أنهى المحاولات البريطانية لإغلاق

التيجر أمام الفرنسيين والكونغو أمام الملك ليوبولد ولذلك شهدت أعوام ١٨٨٣ - ١٨٨٥ تراجعاً أو مفاجآت أو توقف بريطاني في جهة أفريقية بعد أخرى - كما تأثرت منطقة النفوذ البريطانية الكبيرة في غينيا السفلى بإقامة محمية فرنسية في داهومي (الآن بنين) ومحميتين ألمانيتين في توجو والكاميرون، وقسم ساحل الكونغو الجابون حيث ازدهرت التجارة البريطانية لفترة طويلة بين فرنسا والملك ليوبولد، وانكسرت وحدة المناطق الساحلية الأفريقية الجنوبية التي سيطرت عليها بريطانيا طويلاً أيضاً لوجود محمية ألمانية في جنوب غرب أفريقيا، ووقعت دولة ميريينا في مدغشقر معاهدة مع فرنسا بالرغم من أن النفوذ التبشيري البريطاني هناك قد استمر في الجزيرة منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كما انهارت فكرة الإمبراطورية التي تمارس بواسطة النفوذ على سلطان زنجبار في شرق أفريقيا باستيلاء الألمان على مناطق داخلية من دار السلام، ولم يتبق من القواعد التي يمكن لبريطانيا الانطلاق منها ثانية إلا مصر الممتلكات المتفرقة في غرب أفريقيا ومستعمرة رأس الرجاء الصالح وناتال ذات الحكم الذاتي في الجنوب.

لورد ساليسبوري وعودة المبادرة البريطانية ١٨٨٥ - ١٨٩١

كان إحياء الآمال البريطانية في أفريقيا وتحولها من إمبراطورية النفوذ إلى إمبراطورية رسمية من أعمال اللورد ساليسبوري، وكان رئيس وزراء بريطانيا من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٢، ونافس بسمارك كدبلوماسي فذ.

وبدأ عمله بافتتاح طريق للتوسع شمالاً من مستعمرة رأس الرجاء الصالح بإعلان الحماية البريطانية على بتشوانا لاند (الآن بوتسوانا) وهي منطقة صحراوية تقريبا تقع بين جنوب غرب أفريقيا الألمانية وجمهورية البوير المستقلة في الترنسفال (وعرفت آنذاك بجمهورية جنوب أفريقيا). وتدعم هذا الموقف في العام التالي ١٨٨٦ باكتشاف كميات كبيرة من الذهب في ترسيبات في الترنسفال، ولكن

وبالرغم من كونها فى مناطق للبوير إلا أن الشركات الباحثة كانت كلها إنجليزية تقريبا من مستعمرة رأس الرجاء الصالح ومن بريطانيا ذاتها أيضا، وقادهم سيسل رودس الذى أثرى قبل ذلك من مناجم الماس فى كمبرلى وشارك فى الاعتقاد العام أنه سوف يتم إيجاد "راندانا" فى الهضاب العالية شمال نهر الليمبوبو، وقرر أن تسيطر بريطانيا على تلك المنطقة الثرية فعلا، وكانت بوتشوانالاند بالنسبة له "قناة السويس الخاصة به" إلى الشمال، ولذلك وجه إليها طوابير المستعمرين البيض لاحتلال منطقة جنوب روديسيا (زيمبابوى الآن). ولم يشعر ساليسبورى أبدا بالإعجاب برودس ولم يثق به على الإطلاق، ولكنه رغب فى استخدام ثرائه الفاحش وطاقته للاستيلاء على أراضٍ جديدة لبريطانيا فى الهضاب العالية الواقعة بين مستعمرتى أنجولا وموزمبيق البرتغاليتين.

أما العمل الثانى لساليسبورى فكان إنقاذ ما تبقى من شرق أفريقيا بعد أعمال الضم الألمانية عام ١٨٨٤، ولذلك تفاوض مع بسمارك عام ١٨٨٦ لتقسيم المنطقة إلى منطقتى نفوذ فى منطقة الحدود الحالية بين كينيا وتانزانيا. وتنازل بعد ذلك عام ١٨٩٠ عن جزيرة هيلجو لاند الواقعة فى بحر الشمال إلى ألمانيا، واستطاع بالتالى إقناع بسمارك بالتوقيع على مجموعة من المعاهدات الشاملة للاتفاق على الحدود الأفريقية، واعترفت ألمانيا بالسيادة البريطانية على زنجبار وكينيا وأوغندا وشمال روديسيا (الآن زامبيا) وبوتشوانالاند وشرق نيجيريا وعقد ساليسبورى فى العام نفسه معاهدة مع فرنسا فيما يتعلق بحدود نيجيريا الغربية مقابل الاعتراف بالحماية الفرنسية على مدغشقر (والتي لم يعترف بها حكام الجزيرة الوطنيون أبدا) كما اتفق مع البرتغال عام ١٨٩١ فيما يتعلق ببنياسالاند (الآن مالاوى) والروديسيتين.

ولذلك وعند انتهاء فترة خدمة ساليسبورى كرئيس للوزراء عام ١٨٩٢ كانت الخطوط العريضة لتقسيم أفريقيا بين القوى الأوروبية قد تم رسمها، ولم يتبق إلا رسم الخطوط الداخلية فقط، وكانت ركيزة السياسة الأفريقية لساليسبورى هى استمرار الاحتلال البريطانى لمصر، واعترف هو نفسه أن نتيجة ذلك هى

الاعتراف بمطالب السيادة الفرنسية في غرب أفريقيا والمطالب الألمانية في المناطق الأربعة التي استولت عليها، ولذلك تعلقت الممتلكات البريطانية في غرب أفريقيا عما كانت عليه في السابق، ولكن حصلت بريطانيا على نصيب وفير آخر في التقسيم في توسعها شمالا من جنوب أفريقيا البريطانية عبر بتشوانالاند إلى الروديستين ونياسالاند وفي منطقة في شرق أفريقيا ممتدة من ممباسا إلى أعالي النيل، وفهم ساليسبوري أن مصر، بمساعدة بريطانيا، سوف تبلغ قدرا كافيا من القوة لاسترداد السودان من الخليفة، وأن التوسع النهائي لبريطانيا سوف يسير في ذلك الاتجاه، واعترف ساليسبوري في مذكرة إلى البرلمان البريطاني أن عبارة "من الكاب إلى القاهرة كلها أراضي بريطانية" هي عبارة تقريبية لجوهر سياسته الأفريقية كلها.

ولكن يجب أن نتذكر دائما أن التقسيم الأوروبي لأفريقيا عام ١٨٩١ كان نظريا فقط، وبالرغم من إصرار مؤتمر برلين على أن المطالب على السواحل الأفريقية يجب أن يدعمها الاحتلال الفعلي فإن معظم المطالب التي اعترفت بها الدول قد استندت على أوراق حصل عليها القناصل والصيادون من زعماء أفريقيين لا يعرفون بالمرّة ماذا يفعلون والذين لا تمتد زعامتهم إلا على منطقة صغيرة للغاية من المناطق المتنازع عليها من بين القوى الأوروبية، ولذلك لم توجد منطقة أفريقية واحدة وجد بها احتلال فعلي في وقت التقسيم، كما أن التقسيم النهائي لم يعبر أبدا عن قوة المصالح الأوروبية في تلك المناطق، بل عن القوة السياسية لتلك الدول. ولكن كان هذا التقسيم مهما؛ فلقد عبر عن الرغبة الحثيثة للقوى الأوروبية القوية في نقل نفوذها إلى أقصى المناطق الأفريقية الداخلية تماما مثلما فعلت تلك القوى في آسيا والأمريكتين وأستراليا وجزر المحيط الهادى بعد أن امتلكت القوة الكافية بطبيعة الحال ولكن تمت عملية التقسيم بالاتفاق المتبادل فيما بينها دون قيام حرب كبرى، وربما كان ذلك ذا فائدة بالنسبة لأفريقيا ولكل الدول الأوروبية نفسها على السواء.

الفصل العاشر

تقسيم أفريقيا عملياً (١٨٩١ - ١٩٠١) الصراعات الأوروبية في أفريقيا

تمت المراحل الأولى من التقسيم حينما طالبت الدول الأوروبية بالمناطق الساحلية والأنهار الملاحية وحددت نظرياً الحدود الداخلية انطلاقاً من تلك القواعد الأساسية، فإنها فعلت ذلك بدون سفك دماء أو نزاعات، وكان السبب هو وجود أعداد قليلة للغاية من القوى الأوروبية في أفريقيا آنذاك، وكانت جماعات الاحتلال الأولى مكونة من حملات صغيرة متحركة من الضباط الأوروبيين أو مسئولى الشركات، ويصاحبهم بعض العشرات من الحمالين الذين لديهم أسلحة خفيفة، ولا يكاد ذلك الأمر يختلف عن حملات المستكشفين الأوائل. وكانت أفريقيا واسعة وفسيحة لدرجة أن جماعات الأوروبيين الأولى نادراً ما التقت إحداها بالأخرى، وتميزت علاقتهم بالشعوب الأفريقية بصفة التفاوض ولم يتعرفوا كغزاة أبداً.

ولكنهم دخلوا في السياسات المحلية لكل منطقة يرتادونها، وأبدوا الفئات والجماعات المناصرة لهم وتجنبوا المعادية لهم، ولكن ازدادت العلاقات بين الحملات الأوروبية المنافسة في المراحل الأخيرة من التقسيم بحلول نهاية القرن التاسع عشر حينما ازدادت أعداد القوات العسكرية، ورسمت الحدود الداخلية النهائية، كما نشبت المعارك بين القوات المحتلة وقوات الدول الأفريقية الكبيرة والأكثر تنظيماً والتي حاربت بشدة وبأس من أجل استقلالها، وبلغت أعداد قوات الدول الأفريقية نسبة مائة إلى واحد في أحوال كثيرة ولكن كان تفوق الأسلحة الأوروبية كاسحاً، فيمكن لمدفع رشاش واحد القضاء على جيش كامل من الرجال

غير المنظمين والمسلحين فقط بالأسلحة القديمة والرماح، ولذلك ازداد سفك الدماء كلما اقتربت عملية التقسيم من نهايتها، وحدثت في البداية بعض الحوادث الصغيرة في غرب أفريقيا والكونغو وشرق أفريقيا، ثم أتت مرحلة "إرساء السلام الفرنسي" في كل من مدغشقر والمغرب (مراكش) الحرب بين أثيوبيا وإيطاليا واسترداد السودان، وفي النهاية نشبت حرب دامية في جنوب أفريقيا وحيث تقاوت فيها البيض فيما بينهم.

التقدم الفرنسي جنوب نهر النيجر

اتخذ الفرنسيون خطوات جادة لتدعيم ممتلكاتهم على ساحل أفريقيا الغربية بعد مؤتمر برلين، وأنشأوا مستعمرات ساحل العاج وغينيا الفرنسية رسمياً بحلول عام ١٨٩٣، ودخلت القوات الفرنسية داهومي (بنين) في العام نفسه وأطاحت ببهانزين آخر ملوك داهومي المستقلة، ثم أصبحت داهومي مستعمرة فرنسية عام ١٩٠٠، ولكن التوسع الفرنسي الرئيسي في غرب أفريقيا تم انطلاقاً من حوض نهر السنغال، وأدى التقدم الفرنسي عبر النهر إلى الاتصال بإمبراطورية أحمدو شيخو بن الحاج عمر (فصل ٥) عام ١٨٧٩ واستمرت المعارك غير الفاصلة بين قوات الجنرال جاليني السنغالية وقوات أحمدو لأعوام عديدة ولكن انهارت إمبراطورية أحمدو بعد تدمير قواتها العسكرية ولذلك دخل الفرنسيون منطقة وادي النيجر الأعلى واستولت على باماكو عام ١٨٨٣. ولكن قابل الفرنسيون مقاومة شرسة من ساموري وهو أحد المسلمين الماندينجو من منطقة الحدود الداخلية لغينا وساحل العاج. وكان هذا القائد قد استطاع بواسطة أعمال غزو عديدة بدأها في بدايات سبعينيات القرن التاسع عشر توحيد معظم شعوب المنطقة الواسعة بين منابع نهر النيجر وحوض الفولتا الأعلى، وأصبح ساموري بطل الشعوب الماندى الجنوبية المتعلقة باستقلالها في مقاومته العنيفة والشرسة للفرنسيين، وبالرغم من

احتلال الفرنسيين لمناطق موطنه حول بيسانوجو عام ١٨٩١، إلا أنه لم يهزم نهائيا وينفى بواسطة الفرنسيين إلا في عام ١٨٩٨.

أجلت مقاومة ساموري التوغل الفرنسي أسفل نهر النيجر ولكنها لم توقفه، واستولوا على تمبكتو عام ١٨٩٤ وساي عام ١٨٩٦، ولكن أوقف البريطانيون الزحف الفرنسي بعد ساي في منطقة بلاد الهاوسا. وبدأ الفرنسيون في نقل اهتمامهم بعد سيطرتهم على النيجر الأعلى والأوسط إلى احتلال المناطق الواسعة الواقعة بين وادي النيجر ومستعمراتهم على الساحل، وأتموا تلك المهمة في بداية القرن العشرين، ولكن حدثت في تلك المرحلة التاريخية - عند الانتقال من قرن لآخر - أن نشبت الصراعات مع الحملات البريطانية المنافسة في المناطق الداخلية لنيجيريا وساحل العاج، ثم ازدادت حدة.

التوسع البريطاني في ساحل الذهب ونيجيريا

رأينا فيما سبق (فصل ٩) أن بريطانيا لم تتمكن من الحصول على مكاسب كبيرة في منطقة واسعة من غرب أفريقيا نظرا لأحداث التقسيم الدبلوماسي لأفريقيا، وتمكنت فقط من توسعة مناطق احتلالها بالاحتلال العملي رسميا انطلاقا من قواعدها في سيراليون وساحل الذهب ونيجيريا، واعتمد الوضع في ساحل الذهب على الأحوال المحلية بين المستعمرة الساحلية وإمبراطورية الأشانتي التي انفصلت المناطق عنها بواسطة حملات عقدت معها معاهدات حماية مما أدى في نهاية الأمر إلى احتلال أشانتي نفسها عام ١٨٩٦ عسكريا، كما أعلنت الحماية البريطانية على الأراضي الشمالية عام ١٨٩٨، والتي كان جزء منها تابعا لساموري من أجل إيقاف الزحف الفرنسي من الشمال.

ولكن كان احتلال بريطانيا لنيجيريا أكثر تعقيدا، وتم من ثلاث جهات. وكان

المكان الأول هو لاجوس حيث توسعت مستعمرة الجزيرة الصغيرة إلى محمية تشمل معظم بلاد اليوروبا، أما المكان الثانى للتوسع فكان انطلاقا من أنهار الزيت حيث أيد القناصل البريطانيون شركات ليفربول فى القضاء على سلطة الزعماء المحليين الأفريقيين مثل جاجا فى أوبوبو حينما حاول هؤلاء الزعماء عقد معاهدات مع الدول الأوروبية الأخرى، وكانت منطقة التوسع الثالثة انطلاقا من نوبى وجنوب بلاد الهاوسا وحصلت الشركة الأفريقية الوطنية التابعة للسير جورج جولدى، والتي أصبحت عام ١٨٨٦ شركة النيجير الملكية، على سلطات إقرار العدالة والنظام فى عقد إنشائها الملكى، وحصل جولدى على صداقة معظم بلاد الهاوسا بواسطة معاهدة عقدها مع سلطان سوكونو عام ١٨٨٥، ولكن غزت قوات تلك الشركة نوبى وإمارة لورين وهزمت قواتها بواسطة قوات الحدود الأفريقية الغربية التابعة لها، ولكن تورط ضباط جولدى وبالذات الكابتن لوجارد فى منازعات مع الفرنسيين الزاحقين أسفل نهر النيجر والصاعدين من داهومى شمالا ولم تحتل قوات الشركة بورجو إلا بعد إجبار قوة فرنسية معسكرة هناك على الانسحاب، ولذلك رأت بريطانيا أن تلك العمليات العسكرية ضد دولة أوروبية استعمارية منافسة عالية بل فادحة الثمن وخطيرة للغاية بالنسبة لشركة خاصة، ولذلك أنهت الحكومة البريطانية عقد امتياز الشركة عام ١٨٩٨ وتولت إدارة شمال نيجيريا بعد ذلك بعامين ١٩٠٠ ثم استمر التوسع البريطانى فى اتجاه بورنو وبحيرة تشاد، واحتلت كانو عام ١٩٠٢.

الفرنسيون فى وسط السودان: رابع

تحرك الفرنسيون فى اتجاه وسط السودان من ثلاث جهات: من وادى نهر النيجر ومن جابون ومن الجزائر، ثم اتجهت الحملات من الجهات الثلاث إلى بحيرة تشاد بحلول عام ١٩٠٠ تقريبا، ومنعت شركة النيجر الملكية التابعة لجولدى

الفرنسيين من احتلال أى مناطق إلا الحواف الصحراوية الشمالية لبلاد الهاوسا، وذلك عند تحركها شرقاً فى ساي على النيجر وبدأت الحكومة الفرنسية فى احتلال داخل جابون بعد مؤتمر برلين ولذلك وبحلول نهاية تسعينيات القرن التاسع عشر بدأوا الزحف ناحية الشمال فى اتجاه حوض نهر شارى، ثم بدأ الفرنسيون فى احتلال الواحات الرئيسية: توات وتامانراست أير وزندر وذلك بعد حملة الكابتن لامي الرائدة عبر الصحراء فى ١٨٩٨ - ١٨٩٩، ولكن لم تتأثر قبائل الطوارق الرعوية فى الصحارى المجاورة بالوجود الفرنسى عملياً إلا فى عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وقاوم السنوسيون المقاومة النهائية ضد الاحتلال الفرنسى للسودان الأوسط من زواياهم المحصنة فى منطقة بلما وبالذات أيضاً من رابح أحد الجنود العرب فى سنار، وكان قد خدم الحكومة المصرية سابقاً فى بحر الغزال ولكنه اتجه غرباً مع أتباعه المسلحين بعد رفضه الخضوع للمهدى، وأخفق فى هجوم ضد سلطنة واداي عام ١٨٨٧ ولكنه استولى على باجرمى ومعظم بورنو الشرقية بحلول عام ١٨٩٢، وأنشأ دولة تتاجر فى العبيد وتصرف إنتاجها بواسطة طرق التجارة السنوسية المؤدية إلى طرابلس وبنى غازى، ولكنه قاوم الفرنسيين مقاومة ضارية ومنع تقدمهم حينما هاجمه الفرنسيون من كل الجهات ولكنه هزم فى النهاية وقتل عام ١٩٠٠. (٣٨)

إعادة فتح السودان: فاشودة

كان البريطانيون فى مصر قد أعادوا غزو الدولة المهدية قبل هزيمة

(٣٨) أسس رابح فضل الله دولة إسلامية ظلت تقاوم النفوذ الفرنسى لمدة سبع سنوات حتى استشهاده، ورغم قصر المدة إلا أنه أسس دولة إسلامية طبقت الشريعة الإسلامية وحرمت تجارة الرقيق فى بلادها. (المراجع)

الفرنسيين لرابح، وكانت دولة المهدي مهددة من الإيطاليين فى إرتريا والتقدم الفرنسى من الكونغو، ولذلك تحركت قوة مصرية - إنجليزية والتى قام القائد البريطانى كتشنر بتدريبها إلى السودان عام ١٨٩٦ من أجل مواجهة تلك التحركات، وهزمت تلك القوة جيوش المهدي فى معركة أم درمان، وقتل بها ٢٠,٠٠٠ سودانى، ثم استولى كتشنر على الخرطوم، ثم علم بعد بضعة أسابيع أن قوة فرنسية من الجنود الأفريقيين بقيادة القائد مارشان قد استقرت فى فاشودة على مسافة ١٨٠ ميلا (٣٠٠ كم) ناحية الجنوب وذلك بعد زحف يكاد لا يصدق من جابون والذى استمر قرابة العامين، ولذلك أسرع كتشنر إلى أعلى النيل الأبيض ومعه قوات أكثر بكثير من القوة الفرنسية. وتواجد المعسكران المعاديان بعضهما البعض لمدة عدة أشهر بينما أرسلت البرقيات والرسائل التلغرافية من وإلى السودان وأوروبا. انسحب الفرنسيون فى النهاية وأنزل مارشان العلم الفرنسى ولكن كانت بريطانيا وفرنسا على خطوة بسيطة من قيام حرب كبرى بينهما.

وسوف نذكر هنا باختصار آخر منطقتين فى شمال أفريقيا تستولى عليها القوى الأوروبية. فقامت إيطاليا بهجوم غير مبرر ولكن متوقع على ولاية طرابلس العثمانية عام ١٩١١، ثم زحفت منها فى العام التالى إلى برقة، ولكن واجه السنوسيون الجيوش الإيطالية بمقاومة عنيفة وشرسة بواسطة رجال القبائل البدو. واستمرت مقاومتهم إلى ثلاثينيات القرن العشرين (انظر فصل ١٤). وفى شمال أفريقيا استطاعت المغرب (مراكش) تجنب السيطرة الأوروبية حتى عام ١٩١٢ ليس بسبب قدرة سلطانها على المقاومة ولكن نظرا للخلافات الشديدة بين الدول الأوروبية عن يحتل تلك المملكة، وكادت خلافاتهم تؤدى إلى نشوب الحرب فى أوروبا مرتين، ولكن قسمت الدولتان الأكثر اهتماما بالمغرب ذلك القطر فيما بينهما؛ إذ استولت عليه فرنسا بعد أن تركت جزءا صغيرا منه إلى أسبانيا، وتم شراء رضاء ألمانيا بمنحها أراض إضافية فى الكاميرون، وتم إعلان الحماية الفرنسية على معظم المملكة وإن ظل للسلطان السلطة الاسمية فى مملكته.

شرق أفريقيا وحوض الكونغو.

كان العرب أشد المقاومين لقوات الاحتلال الألمانية والبريطانية والبلجيكية في شرق أفريقيا وحوض الكونغو. ولكن لم تأت تلك المقاومة مباشرة من سلطان زنجبار، فسوف تكون عاصمته هدفا سهلا لمدافع السفن الحربية الأوروبية، ولذلك وافق مضطرا على إعلان الحماية البريطانية على جزيرتي زنجبار وبنما pemba عام ١٨٩٠ وتقسيم الأراضي على اليابسة، وقسمت تلك الأراضي بين الشركات الرسمية البريطانية والألمانية التي بدأت في احتلال منطقة كينيا الحالية وتانزانيا والقارية وأوغندا، وأعلنت لجنة نولية عام ١٨٨٦ أن أراضي السلطان على اليابسة تمتد فقط عشرة أميال (١٦ كم) في الداخل، ثم اشترى الألمان الساحل المجاور لمنطقة امتيازهم بمبلغ من المال، ثم أجرت الشركة البريطانية في ساحل كينيا مقابل سداد أجر سنوي، ولذلك استمر علم السلطان الأحمر يخفق طوال العصر الاستعماري على مومباسا وماليندي Malinde، ولامو Lamuo وباقي الموانئ الكينية، وربما كان ذلك السبب أيضا في عدم قيام أي ثورة عربية في مناطق الاحتلال البريطانية الساحلية.

وأنت المقاومة النشطة للعرب السواحلية من اتجاهين، كانت الأولى من الجزء الساحلي الألماني والثاني من تجار العاج والعبيد السابقين المنتشرين في الداخل من بحيرة مالاوي جنوبا وحول جانبي بحيرة تتجانيا إلى أوغندا شمالا، وربما ظهرت تلك الحركة من محاولة السلطان برغش لتدعيم موقفه في أراضيه على اليابسة قبل عملية التقسيم الأوروبية، ولكن انفجرت الأحداث في مجموعات من الثورات المحلية وذلك بعد القضاء على رعايتها المركزية، ثم تعامل الأوروبيون معها الواحدة تلو الأخرى. وكانت أخطر حركات المقاومة وأقصرها أيضا بين عرب الساحل الشرقي والألمان عامي ١٨٨٨ - ١٨٩٨ تحت قيادة القائد العربي أبو شيري Abushiri، واستمرت ثورات العرب ضد البريطانيين فترة أطول وإن تميزت بالانقطاع في شمال نياسالاند Nyasaland وبدأت عام ١٨٨٧

ولم يتم القضاء عليها إلا بعد عشرة أعوام، وحارب العرب في شرق زائير قوات الملك ليوبولد بين أعوام ١٨٩١، ١٨٩٤، أما المقاومة العربية للتدخل الأوروبي في أوغندا مثل نياسالاند فإنها تأثرت بشدة بالاحتلال الألماني للساحل ولكنها بدأت في المنطقة حينما كان الأوروبيون الوحيدون بها هم المبشرون.

وكانت تلك المقاومة تغييرا عن الوضع السياسي المحلي. فلقد أيد المسيحيون الوطنيون والنفوذ الأوروبي بينما عارضه المسلمون، وانتصرت الأحزاب المسيحية في بوغندا Buganda مما جعلها الحليف الرئيسي لبريطانيا في احتلال كل المنطقة، وانسحب العرب والحزب الإسلامي المحلي على مملكة بونيورو Bunyoro المجاورة التي استمرت مركزا لمقاومة الحكم البريطاني، ولكن استولى عليها البريطانيون في النهاية بمساعدة جنود من بوغندا في سلسلة من الحملات العسكرية التي استمرت من ١٨٩٤ إلى ١٨٩٩ (انظر فصل ١٢).

كانت إثيوبيا هي الدولة الوحيدة في شرق أفريقيا التي قاومت محاولات الاحتلال الأوروبي بنجاح، وكانت الدولة الأوروبية المختصة هنا هي إيطاليا التي دخلت حلبة عملية التقسيم متأخرة، وكانت إيطاليا قد احتلت جزءا من الساحل الإترى على البحر الأحمر عام ١٨٨٣ واشتركت في عملية تقسيم ممتلكات سلطان زنجبار على اليابسة وحصلت على جزء من الساحل الصومالي الشرقي عام ١٨٨٦، ووقع مينيليك Menelik معاهدة وينشال Winchale مع الإيطاليين بعد تتويجه إمبراطورا عام ١٨٨٩، وحددت تلك المعاهدة الحدود بين إثيوبيا وإرتريا الإيطالية، وذكرت المعاهدة في نصها الأمهرى حق حكومة مينيليك - إذا رغبت - في استخدام القنوات الدبلوماسية الإيطالية في اتصالاتها مع العالم الخارجى، ولكن استخدمت النسخة الإيطالية لنفس المعاهدة تعبيرات أكثر تحديدا وذكرت أن مينيليك قد وافق على إدارة شئونه الخارجية دائما بواسطة القنوات الإيطالية، ولا يبدو آنذاك أن المفاوضين الإيطاليين قد رغبوا في خداع الإمبراطور؛ إذ لم يكن في نيتهم أبدا آنذاك فرض الحماية الإيطالية على إثيوبيا

ولكن أبلغت وزارة الخارجية الإيطالية بناء على تلك الجملة القوى الأوروبية التي اشتركت في مؤتمر برلين بحق إيطاليا في المطالبة بالحماية على أثيوبيا بعد عامين من عقد المعاهدة، ولذلك حاولت إيطاليا فرضها عنوة على مينيليك وتبليورت المناوشات بين الجانبين إلى حرب شاملة بينهما عام ١٨٩٦، وهزمت القوات الإيطالية هزيمة ساحقة في موقعة عدوى Adewa وهي من أولى المعارك في العصور الحديثة التي هزم فيها جيش غير أوروبي جيشا معظمه من الأوروبيين وضباطه أوروبيون أيضا، ثم حول منليك انتباهه من الانتصار على الإيطاليين إلى تحقيق حلم حياته وهو امتداد مملكته إلى الجنوب.

وكانت معظم تلك البلاد قد دفعت الجزية إلى الملوك الأثيوبيين منذ العصور الوسطى المتأخرة ثم انفصلت بعد غزوات الأورومو في القرن السادس عشر.

وضاعفت فتوحات مينليك بعد وصوله إلى بحيرة توركانا Tuorkana جنوبا ومملكة كافا kaffa القديمة في الجنوب الغربي أكثر من مرتين مساحة الأراضي التي آلت إليه بالوراثة أو الزواج وجعل تلك الأمر أثيوبيا شريكا تقريبا في عملية تقسيم أفريقيا.

الغزو الفرنسي لدغشقر

وبدأت الدولة المارينية Marina في الانهيار تحت ضغط النفوذ الدبلوماسي والتجاري الفرنسي في نهاية ثمانينيات القرن التاسع عشر، ولم يقبل رئيس الوزراء رافيليا ريفوني Rainireiafouly إيداء أن معاهدة ١٨٨٥ قد منحت فرنسا حقوق الحماية على الجزيرة، ولكن اعتقد الفرنسيون ذلك فعلا.

ولذلك أرسلوا حملة عسكرية كبيرة إلى الجزيرة عام ١٨٩٤ طبقا لمفهومهم لنصوص المعاهدة، واستولت تلك الحملة على تاناناريف Tananaref في العام

التالى وخلعت الوزراء ثم فرضت معاهدة حماية رسمية على المملكة، وأدى التدخل الأجنبى إلى نشوب ثورة تلو الأخرى فى مدغشقر كلها، وهاجم الوثنيون المسيحيين، واتهمت الديانة الجديدة أنها سبب المشاكل التى تتعرض لها الجزيرة، وتحرر شعب مملكة البتسيلا Betsilea القديمة من حكم الهوفا hova الكريه، وأدت ردود الأفعال الفرنسية لقمع الثورات إلى تعقيد الأمور بطريقة أكبر، ولم تبق إلا تاناناريف فى أيدي الفرنسيين أحيانا، ولكن حضر الجنرال جاليمى Galliemi عام ١٨٩٥ فى حملاته فى غرب أفريقيا لغزو مدغشقر (أو لإحلال السلام بها كما قيل) وأعلنت الجزيرة مستعمرة فرنسية.

ولكن انقضت تسعة أعوام كاملة قبل إخضاع جالينى ورئيس أركانه ليوتى Lyouty كل شعوب الجزيرة وإرغامها على قبول الحكم الفرنسى، وألغيت مملكة مرينيا كما تم نفي آخر الملكات رانا فالونا الثالثة Ranavalana III عام ١٨٩٧. وأدار الفرنسيون الجزيرة كوحدة إدارية واحدة وأنهوا بذلك عملية التوحيد التى بدأها نامبونا Nampoina قبل ذلك بأكثر من قرن.

رودس ووسط أفريقيا

وتركت الحكومة البريطانية عملية احتلال أفريقيا الوسطى إلى درجة كبيرة إلى رودس وشركة جنوب أفريقيا البريطانية التابعة له، ونمت الشركة رسميا عام ١٨٩٩ ومنحت سلطة تطوير المنطقة بين متشوانا، لاند والزامبيزى والتى ستحمل اسم رودس فيما بعد، وسمح للشركة بالتوسع إلى الأراضى شمال نهر الزامبيزى عام ١٨٩١ والتى أصبحت روديسيا الشمالية (زامبيا الآن) وحصل وكلاء رودس على امتيازات من خليفة فريليكازى Mzilikazi وشهو لوينجولا Lobangula فى منطقة جنوب الزامبيزى.

ولذلك أرسلت جماعة من المزارعين وعمال المناجم إلى ماشونا لاند mashona land عام ١٨٩٠، حيث أنشأوا العاصمة الروندية الجنوبية في قلعة ساليسبورى fntselioblury وناقش عملاء رونس في الشمال وكلاء الملك ليوبولد للاستيلاء على كاتانجا Katanga ولكن كان ذلك الموضوع قد تم حله مسبقا بواسطة الاتفاق الدولي لعام ١٨٨٥، والذي حدد مجرى نهر الكونغو - الزامبيزي كحدود لممتلكات الملك ليوبولد، ولذلك ضم ليوبولد معظم مملكة مسيرى maini (انظر الفصل السادس). وقتل أحد الضباط البلجيكية مسيرى أثناء صراع نشأ من عقد المعاهدة، ولذلك أصبحت الأراضي الواقعة على الجانب الزامبيزي في مجرى النهر بريطانية وازدادت قيمتها كثيرا فيما بعد لوجود جزء كبير من حزام النحاس الثرى بها، وكانت المنطقة الوحيدة لوسط أفريقيا التي خرجت عن سلطة الشركة هي نياسا لاند Nyasa land (مالاوي الآن) حيث عمل المبشرون والتجار البريطانيون بها أواخر القرن التاسع عشر وكانوا يعادون شركة جنوب أفريقيا البريطانية تماما.

ولذلك تحول هذا الجزء إلى محمية تحت الحكم البريطانى المباشر عام ١٨٩١.

وكان عصر الاستقرار الأول للمستوطنين في جنوب روديسيا عصرا للحروب المستمرة، كما نشبت أيضا حروب غير رسمية بين المستوطنين والبرتغاليين على حدود موزمبيق، واضطر المستوطنون إلى قتال وهزيمة النديبلى Ndebele الذين خافوا دائما من وجودهم في ماشونا لاند Machuna land المجاورة.

ولا تزال تتعجب حتى الآن من الأسلوب الرديء الذى اتبعه المستوطنون لإشعال الحرب مع النديبلى، ولكن الحرب كانت قائمة لا محالة نظرا للاستيطان الأوروبى المتزايد، وتوفى لونغولا Lobengola بعد فترة بسيطة من هزيمة قواته

عام ١٨٩٣. وأدى استيلاء المستوطنين المستعمرين على الأراضي والماشية إلى قيام حرب جديدة بينهم وبين النديبلى والماشونا فى محاولة أخيرة منها لطرد المستعمرين الغزاة عام ١٨٩٦.

ولكن انهارت آخر المحاولات الإفريقية هنا أمام الرجل الأبيض المسلح بالمدافع الرشاشة.

الحرب بين إنجلترا والبوير

كان رودس رئيس وزراء حكومة مستعمرة رأس الرجاء الصالح من ١٨٩٠ إلى ١٨٩٦ وأدار بالإضافة إلى منصبه الرسمى أعمال شركة جنوب أفريقيا البريطانية فى المناطق الشمالية، ووجدت لديه آمال وطموحات واسعة لتوحيد جنوب أفريقيا كلها - وشمل ذلك جمهوريات البوير، فى وحدة إدارية واحدة ذات حكم ذاتى Dominion تابعة للتاج البريطانى.

وتحدث عن الحقوق المتساوية لكل الرجال المتحضرين جنوب نهر الزامبيزي، ويبدو أنه يعنى تحالف بين البوير والبريطانيين لتنمية ثروات البلاد الهائلة وتشجيع الهجرة البيضاء الإضافية ولكن كان لرئيس جمهورية الترنسفال، بول كروجر Baul Kruger، أفكار مختلفة بالمرّة، فلقد رغب بجنوب أفريقيا يسودها البوير الذين يحتفظون بلغتهم الأصلية الأفريكانو afrikano (وهى لغة نشأت فى اللغة الهولندية لغة المستوطنين الأوائل) ووسائل حياتهم الرعوية الأولية ورفضهم التام لمنح حقوق المواطنة إلى الأفارقة أو الملونين. وبالرغم من مروره فى ثروة مناجم الذهب فى ويتواتر witwatwunr، إلا أن كروجر قد أدرك تماما أن العاملين بها من المهاجرين البريطانيين فى الترنسفال والذى سرعان ما سيصبحون أغلبية السكان البيض. ولذلك رفض منحهم حق الانتخاب بالرغم من

سدادهم الضرائب الباهظة. ولكنه استخدم الثروة التي جلبوها له من جهة أخرى لبناء دفاعه وصلاته بالسكك الحديدية مع العالم الخارجى.

وحاول رودس إقناع المهاجرين الغاضبين (بالأفريكان، ويتلاندرز - Uitlanders) بإعلان الثورة وخلع حكومة كروجر. ولكن فشلت غارة على الترנסفال من بتشاوالاند عام ١٨٥٩ تحت قيادة جيمسون Jameson، أحد رجال المهام الصعبة لرودس، ولم تنشب الثورة على الإطلاق. وأنهت تلك الغارة حياة رودس السياسية ولكن قررت عناصر فى الحكومة البريطانية المتورطة فى الحادثة اتخاذ قرار حاسم بالتنبه للترانسفال، ولذلك حرض المندوب السامى البريطانى فى جنوب أفريقيا سير ألفرد ملنر sir Alfred milner، عمدا الترانسفال لإعلان الحرب، ونشبت تلك الحرب فعلا عام ١٨٩٩ ووقفت خلالها جمهورية أورانج الحرة مع شقيقتها الترانسفال، وحاربت جيوش البوير - وبعد هزيمتها قوات المقاومة غير النظامية - قوة بريطانيا الهائلة بمفردها بشدة وبأس وحزم وشجاعة لأكثر من عامين، وانتشر الخراب كما كانت الخسائر فادحة على الجانبين. ولذلك وقبل إحلال السلام ازداد كره البوير لبريطانيا والنظم السياسية أكثر بكثير عما سبق. ولكن أصبحت جنوب أفريقيا كلها آنذاك فى أيدي البريطانيين.

الفصل الحادى عشر

الحكم الاستعماري فى أفريقيا المدارية ١- المنظورات السياسية والاقتصادية (١٨٨٥ - ١٩١٤)

استمر عصر الاستعمار فى أفريقيا الاستوائية حوالى سبعين عاما. ويمكن تسمية الثلاثين عاما الأولى من تلك الفترة بعصر الإنشاء، والثلاثين عاما التالية أعوام التطور النشط، والعشرة أعوام الأخيرة أعوام الانسحاب، وسوف نعالج فى ذلك الفصل أعوام الإنشاء من وجهة نظر الحكومات الاستعمارية أساسا، وسوف ننظر إليها فى الفصل التالى من وجهة نظر الشعوب الأفريقية أساسا مع ذكر التغيرات التى أدخلتها حقبة الاستعمار على الحياة اليومية.

سياسات القوى الاستعمارية

فقدت الحكومات الأوروبية معظم اهتمامها السابق بالقارة الأفريقية بعد تقسيمها فيما بينهم، ووجدت أربعة مناطق أفريقية من المتوقع إنتاج الثروة بها فعلا، وقسمت الدول الأوروبية أفريقيا فيما بينها لكى لا تستبعد من مناطق يمكن أن تبرز قيمة فى المستقبل، ولذلك اهتمت تلك الدول أساسا بالملكية وليس بالتنمية.

وكانت مفاهيم حكم الدول الأوروبية ضعيفة للغاية بالنسبة لواجباتها الحكومية حتى فى بلادها الأصلية عما هو الحال اليوم فما بالنّا إذن فى نهاية القرن التاسع عشر، فلم توجد لتلك الدول آنذاك مثلا برامج خدمة صحية عامة أو

معاشات شيخوخة، كما لم توجد خدمات الإسكان العام فيما عدا أماكن العمل. وما زالت نظم التعليم التابعة للدولة من الأمور الحديثة للغاية، بل ولم ينتظم بها كل الأطفال بعد، وكانت الضرائب أقل بكثير من اليوم، وكان نواب الشعب يشرفون تماما على الأعمال الحكومية وإن كانوا يمثلون في معظم الأحوال الأفراد الأثرياء في كل مجتمع.

ولا تتعجب إذا ما رأيت أوروبا أن واجبها الأول في المستعمرات الأفريقية الجديدة هو الاحتفاظ بالقانون والنظام، وأن يتم ذلك دون تكليف دافع الضرائب شيئا، وترك أمور التعليم من جهة والتطور الاقتصادي من جهة أخرى كلها تقريبا في أيدي العمل الخاص للبعثات التبشيرية والشركات الخاصة، وتم تفويض عمل الحكومات أحيانا إلى الشركات الرسمية التي حصلت على سلطة تجنيد مسؤوليها ورجال شرطتها بالإضافة إلى جباية الضرائب وإقرار العدالة. وحينما تولت الحكومات الأوروبية المسؤولية المباشرة لحكم مستعمراتها الجديدة فإنها اقتصرت تماما في الإنفاق وقلت أعداد المسؤولين، كما أن قوات الشرطة العسكرية والمدنية كانت سيئة التدريب والتسليح في الجنود المحليين تحت قيادة بعض الضباط الأوروبيين.

وشعرت تلك الحكومات في البداية باضطرابها للبحث عن حلفاء بين رعاياها الجدد، ودخلت في صميم السياسات القبلية التقليدية، وتركزت الجماعات المعادية بمفردها كثيرا لأطول مدة ممكنة، وإذا ما أخطرت الحكومة للتدخل ضد تلك الجماعات فإن القوات الاستعمارية الصغيرة بمساعدة حلفائنا المحليين تحرق قراها وتستولي على ماشيتها، واستمرت تلك الغارات الحكومية إلى الاعتراف بسلطة الحكومة الاستعمارية، ولم تتمكن الحكومات الأوروبية الاستعمارية في استخدام خدمات مدنية منتظمة وقوات عسكرية يمكنها احتلال إدارة كل الأراضي الموجودة تحت سلطتها إلا بعد ازدياد الدخول المحلية في الرسوم الجمركية وضرائب الرأس، ولكن لم يتم الوصول إلى تلك الحالة في معظم المستعمرات الأفريقية عند نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤.

وكانت أهم العقبات أمام أى نوع من التطور الاقتصادى للمستعمرات الأفريقية الجديدة هى عدم وجود أى نظام سابق للعمل بأجر يمكن استخدامه فى الأشغال العامة قبل البناء والتشييد وإنشاء الطرق وأعمال النقل.

ولذلك استخدمت كل الحكومات الاستعمارية فى تلك الظروف العمل الإجبارى بطريقة كبيرة مما يعنى عمليا عدم الاهتمام بمشاكل محلية كبرى مثل العبودية أو الرق والعمل دون أجر، وحدث ذلك لكى يستطيع "الزعماء" تلبية احتياجات العمل للمديرين الاستعماريين. وأدى ذلك إلى حدوث تجاوزات فى معظم الأحوال. ولكم تم أداء الكثير فى تلك الفترة فى المستعمرات الأفريقية، وهذا من عجائب الأمور التى أدت إلى رفع ركائز التطور النشط الذى سيحدث فيما بعد. وأدى بناء الطرق والسكك الحديدية إلى وصول حركة المرور بالسيارات والقطارات إلى معظم جهات أفريقيا الاستوائية، وذلك بحلول عام ١٩١٤ مما أدى إلى سرعة نقل وتصريف المحاصيل النقدية بسهولة، وجمعت المناطق القبلية الصغيرة العديدة إلى حوالى أربعين منطقة مختلفة. وكان معظمها قادرا على التطور إلى مصاف الدول الحديثة القادرة تماما على الوقوف على قدميها بواسطة مواردها الخاصة، وكانت أعظم ميزة والتى أثرت كثيرا على معظم الأفريقيين الذين شاهدوا وعاشوا الأحداث السابقة على العصر الاستعمارى هى تلك النية من السلام والهدوء والسكينة التى سادت وفرضتها الحكومات الاستعمارية حتى الأشدها قوة، وأدى السلام الاستعمارى قبل كل شىء إلى إطلاق الطاقات من أجل أداء أوجه النشاط الجديدة والتى أدت ليس فقط إلى التطور الاقتصادى والتقدم ولكن أيضا انتشار الديانات العالمية مثل المسيحية والإسلام بالإضافة إلى التربية والتعليم الحديثين، ولذلك يجب دراسة مختلف أنواع الحكم الاستعمارى التى ظهرت فى مختلف أنحاء أفريقيا الاستوائية أثناء الفترة بين التقسيم والحرب العالمية الأولى فى إطار تلك الخلفية العامة المذكورة سابقا.

غرب أفريقيا: مجال المزارع المنتج

وتتميز تلك المنطقة بأن شعوب الساحل قد تاجرت مع الشعوب الأوروبية لأكثر من ثلاثة قرون، وتوطدت التجارة الأوروبية بينهم وحاجاتهم للسلع والبضائع الأوروبية لدرجة أنهم قاموا بمجهودات هائلة لتنمية المحاصيل النقدية التي يمكن معادلتها مع الاستيراد الذي أصبح آنذاك من الضروريات وذلك بعد إلغاء تجارة الرقيق، ويعنى ذلك أن الحكومات الاستعمارية فى غرب أفريقيا قد كانت لها ميزة كبرى عن الحكومات فى مناطق أخرى من القارة، فيمكنها مثلا زيادة مواردها فى فرض ضرائب على تجارة رائجة سابقة، ويمكن بفرض بعض الضرائب الخفيفة على الخمر والأسلحة النارية الحصول على الأموال اللازمة لسداد أجور الهيئات الصغيرة الأولى من المسؤولين والقوات العسكرية، ويمكن أن تمونها بالأصول اللازمة التى يمكن الاقتراض بضمانها، ويعتبر ذلك الأمر أكثر بكثير من أى اختلافات مناخية عن أماكن أخرى فى أفريقيا التى أدت بالحكومات الاستثمارية للبحث عن موارد وإيرادات بتشجيع الإنتاج الزراعى بدلا من جذب الشركات الأوروبية أو المستوطنين بمنحهم قطعا من الأرض، ولذلك ورثت تلك الحكومات فى غرب أفريقيا نظاما اقتصاديا يمكن البناء على أساسه ونفهم أن معظم الإدارات الاستثمارية فى أفريقيا تفضل تماما بناء اقتصادياتها على الإنتاج الزراعى، ومكنتها الظروف فى جنوب أفريقيا من فعل ذلك فعلا، ولكن تأثرت أجزاء صغيرة من المنطقة، حتى فى غرب أفريقيا، من نمو الإنتاج النقدى، واقتصرت أوجه النشاط الاقتصادى الأساسى للناس فى إنتاج المحاصيل الزراعية الاستهلاكية ومواد البناء والوقود والملابس ومعظمها للاستهلاك المحلى، ويسمى هذا الأسلوب من الحياة الذى يقتصر على مقدار كبير من التجارة المحلية بل ويعطى التجارة على المسافات الطويلة بانتفاء الكفاف عند الاقتصاديين بعكس الاقتصاد النقدى.

وقد رت أوجه النشاط تلك عام ١٩٠٠ بحوالى ٩٠ بالمائة من الإنتاج النيجيرى و ٧٥ بالمائة من إنتاج ساحل الذهب، ولكن، وبالرغم من سيادة اقتصاد

الكفاف، إلا أن بدايات الاقتصاد النقدي قد وجدت واعتبرت قاعدة للتطور في المستقبل.

غرب أفريقيا الفرنسية

طور الفرنسيون أفضل نظم حكمهم الاستعماري في منطقة ممتلكاتهم في غرب أفريقيا، ولم يتم ذلك طبقا لخطة استعمارية مسبقة بل فقط لأن المستعمرات السبع الحديثة في السودان وموريتانيا وفولتا العليا والنيجر وغينيا وساحل العاج وداهومى قد كانت كلها امتدادا أساسا لمستعمرة السنغال القديمة، وكان الوصول إلى الأربعة الأولى منها عن طريق السنغال أساسا، كما تم احتلالها كلها بالقوات العسكرية وأساسها القوات السنغالية التي دربها فيدحرب Faidherbe وجاليني: Gallienii خلال حروبهم مع الحاج عمر وأحمد وسيفو وسامورى في المنطقة بين السنغال الأعلى ونهر النيجر (انظر الفصلين ٥، ١٠).

واستمر القتال مع سامورى إلى عام ١٨٩٨، ونظرا لاعتقاد الفرنسيين على الحرب لاحتلال أراضيهم فإنهم لم يهتموا كثيرا بالتفاوض مع الزعماء الأفريقيين مثلما فعل البريطانيون والزعماء المستعدون لذلك، وتم تقسيم مملكة داهومى دول موسى Moss في واجا دوجو WAGAOLUFU يانتجا Yatenga ودول مهمة أخرى، وحلت محلها وحدات إدارية فرنسية (تسمى دوائر Cercles) وكانت أكثر تناسقا وتحت إدارة مباشرة محكمة بواسطة ضباط عسكريين في البداية ثم بواسطة المدنيين أكثر مما حدث في المناطق البريطانية.

وأنشأت السياسة الاقتصادية للمستعمرات غرب أفريقيا الفرنسية الجديدة على النظام السنغالي، حيث جعل فيد هرب وخلفاؤه الإدارة الاستعمارية مستقلة ماديا بتشجيع السكان الأفريقيين على زراعة المحاصيل النقدية في أراضيهم،

ويعنى ذلك أن المزارع السنغالي سوف يكون لديه محصول يبيعه نقدا ويسدد منه ضريبة الرأس التى فرضتها الحكومة، ومع مقدم القوات الفرنسية إلى الداخل فإن الإدارة المدنية التى أنشئت فى المناطق المفتوحة حديثا قد أمرت فورا بزراعة تلك المحاصيل النقدية.

ووجدت آمال كبيرة بالذات لتطوير زراعة القطن فى حوض نهر النيجر ولكن كان نقص وسائل النقل من أكبر العوائق فى كل المناطق الأفريقية الداخلية، وكانت أول خطوط السكك الحديدية قد بناها العسكريون للربط الاستراتيجى بين السنغال الأعلى والنيجر الأعلى قد توافقت تماما مع أعمال نقل الجنود والمعدات ولكنها لا تصلح إطلاقا للأغراض التجارية. فلا يمكن الوصول إلى محطاتها النهائية إلا بواسطة البواخر الصغيرة ذات الغاطس القليل، كما لا يمكنها السفر إلا فى بعض فصول العام دون الأخرى، وتم التغلب على صعوبة الملاحة على نهر السنغال بعد انتهاء الخط من دكار إلى كايس kayes عام ١٩٤٢ فقط، واستمرت صعوبات الملاحة على النيجر حتى أيامنا الحالية، وازدهرت باكورة محاصيل زيت النخيل والكافور وباقي منتجات الغابات فى بعض المناطق الساحلية فى غينيا وساحل العاج وداهومى. انتظر افتتاح الداخل بناء السكك الحديدية ولم يتم ذلك إلا فى بدايات القرن العشرين، ولم تحدث تطورات مهمة فى السكك الحديدية إلا حوالى عام ١٩١٤، وكانت أوائل الأجور المالية النقدية لشعوب السودان وفولتا العليا هى أجور العمال المهاجرين الذين توجهوا للعمل فى مناطق زراعة الفول السوداني فى السنغال وزيت النخيل والكافور فى ساحل العاج وساحل الذهب.

وأدت مشكلة الاستغلال الاقتصادى إلى توحيد الفرنسيين لكل مناطقهم الأفريقية فى غرب القارة فى وحدة إدارية واحدة بحيث تستطيع المناطق الأكثر ثراء ومواصلات أن تدعم وتساعد المناطق الأفقر والأبعد، ولذلك منح حاكم السنغال سلطات الإشراف على زملائه عام ١٨٩٥، وتم ذلك من أجل ضمان التنسيق العسكرى فى عصر حاربت به القوات الفرنسية مع سامورى حول الحدود

الداخلية للسودان وغينيا وساحل العاج، وصدرت قوانين فرنسية عام ١٩٠٢ و ١٩٠٤ عند بداية العصر الكبير لإنشاء السكك الحديدية، وجمعت فرنسا كل أراضيها في غرب أفريقيا تحت إدارة حاكم عام مقره داکار Dakar في السنغال، وتكون هذا الحكم من الحاكم العام وموظفيه والمجالس الاستشارية، ولكن كلف ذلك كثيرا من قيمة الرسوم الجمركية المفروضة في كل المستعمرات الساحلية.

واستطاع الحاكم العام بهذا الدخل التفاوض للحصول على قروض للسكك الحديدية المؤدية إلى الداخل، ويعنى ذلك أنه في الأيام الأولى للحكم الاستعماري أن السنغال وداهومى قد ساهمتا معا بثلاثة أرباع الميزانية الاتحادية لكل غرب أفريقيا الفرنسية، ولكن تم ذلك لمصلحة المنطقة كلها بالتأكيد.

غرب أفريقيا البريطانية

وظهرت الأراضي البريطانية في غرب أفريقيا في بداية الفترة في صورة غير متجانسة بالمرّة. فلقد كانت منفصلة جغرافيا إحداها عن الأخرى وإن جعلها تاريخها الأطول والأكثر إنقاصا تحت حكم نوعين مختلفين من الحكومات. ولذلك وجدت - كما شرحنا في الفصل السابق - أربع مستعمرات تابعة مباشرة للتاج البريطاني وهي جامبيا، سيراليونو، مستعمرة ساحل الذهب، ولاجوس، كما وجدت محمية أنهار الزيت في شرق نيجيريا تحت إدارة وزارة الخارجية البريطانية، ثم وجدت في النهاية تلك الأراضي التي تديرها شركة النيجر الملكية نيابة عن الحكومة البريطانية، ولكن لم تكن تلك الخلافات مهمة كما يبدو لأول وهلة، فلقد تنازلت شركة النيجر الملكية عن امتيازها عام ١٨٩٨، كما أصبحت شمال نيجيريا محمية بريطانية عام ١٩٠٠، وهو العام الذي تولت فيه وزارة الاستعمارات حكم شرق نيجيريا. ولذلك تشابهت المستعمرات البريطانية في غرب أفريقيا بالمستعمرات الفرنسية أكثر من أي مستعمرات أوروبية أخرى. وحدث هذا التشابه

لاعتمادها اقتصاديا على زراعة المحاصيل النقدية بواسطة المزارعين الأفريقيين، وتشابهت أكثر في أن رخاء المناطق الساحلية قد استخدم لبناء الإدارة وتشديد حركة المواصلات في الداخل، ولكن تماثل ثروة غرب أفريقيا البريطانية بالرغم من صغر مساحتها ثلاثة أو أربعة مرات الثروة الموجودة في غرب أفريقيا الفرنسية، ولذلك تطورت بسرعة أكبر. وكانت المشكلة السياسية الكبرى هنا هي استمرارية وحدة وقوة أمة الأشانتي التي تعافت كثيرا من هزيمتها عام ١٨٧٤. ولذلك أرسلت بريطانيا حملتين كبيرتين عام ١٨٩٦ و ١٩٠٠ لهزيمة الأشانتي وإرغامهم على قبول السلطة الحكومية البريطانية، ثم بدأت أعمال حفر المناجم العميقة للبحث عن الذهب بواسطة الشركات البريطانية وأماكن جنوب أشانتي والتي ضمتها بريطانيا إليها بعد عام ١٨٧٤ حتى قبل هزيمة الأشانتي النهائية، وأدت أعمال المناجم إلى إنشاء أول خط سكة حديد في المستعمرة والذي وصل إلى منطقة مناجم الذهب في تركوا Tarkwa في سيكوندي SEKANDI عام ١٩٠١ ولكن تناقصت صادرات الذهب من ساحل الذهب في نهاية القرن التاسع عشر من ٨٠,٠٠٠ (ثمانين ألف جنيه إسترليني) عام ١٨٩٧ إلى ٢٢,٠٠٠ عام ١٩٠١. وحينما وصلت السكة الحديدية إلى تركوا TARKWA ازدادت القيمة بسرعة: ٩٧,٠٠٠ عام ١٩٠٢، ٢٥٥,٠٠٠ عام ١٩٠٣ - ١,١٦٥,٠٠٠ عام ١٩٠٧ و ١,٦٨٧,٠٠٠ جنيه إسترليني عام ١٩١٤. وكانت الأهمية الثانية الكبرى للسكة الحديدية بعد أعوام قليلة من وصولها إلى كوماسي KOMACY لضمان السيطرة العسكرية والسياسية على أشانتي هي انفتاح منطقة الغابات على العالم أولا للحصول على المطاط، وثانيا لزراعة جوز الهند، وبلغت قيمة صادرات تلك السلعة عام ١٩٠١ في المستعمرة ٤٣,٠٠٠ جنيه إسترليني ثم بلغت ٩٥,٠٠٠ في ١٩٠٢ و ٥١٥,٠٠٠ عام ١٩٠٧ و ٢,١٩٤,٠٠٠ عام ١٩١٤. ووصل تصدير جوز الهند في ذلك العام إلى ٤٩ بالمائة من كل الصادرات، كما كان دخلها كافيا لسداد تكاليف كل صادرات ساحل الذهب. كما تم تصدير الخشب الثمين وبلغت قيمته

١٦٩,٠٠٠ جنيه إسترليني عام ١٩٠٧، ونتج ذلك عن إنشاء خط السكة الحديدية. ولذلك جعلت صادرات جوز الهند والذهب وخشب الزان الثمين ساحل الذهب أغنى المستعمرات الأفريقية على الإطلاق عام ١٩١٤.

وكان المزارعون المنتجون في المناطق الساحلية في نيجيريا مثل باقي غرب أفريقيا يمولون برسوم الجمارك المفروضة على استيرادهم أكثر من ضرائبهم المباشرة الدخل اللازم الذي استطاعت بواسطته الإدارة الاستعمارية بناء نظام حكم حديث ونظام مواصلات حديث أيضا ثم امتداد ذلك إلى الداخل.

ثم تم ضم محمية لاجوس في الجنوب الغربي ومحمية جنوب نيجيريا (أنهار الزيت القديمة) في الجنوب الشرقي عام ١٩٠٦ لجنوب نيجيريا ذات الاستقلال الاقتصادي الذاتي. ولكن ظل الشمال بسكانه الكثيرين منعزلا عن الأسواق العالمية إلا بواسطة خط المواصلات النهري الطويل والذي لا يمكن الاعتماد عليه دائما لنهرى النيجير والبنوى BENUOE. ولم تستطع الإدارة الاستعمارية الاستمرار هناك حتى بواسطة المنح المالية المستمرة من الخزانة البريطانية وباستخدام أساليب حكم شعب الفولبي بأكثر سرعة ممكنة، فلقد استمر أداء الفولبي في إقرار النظام، فرض الضرائب وإقرار العدالة على أتباعهم من الهاوسا، وذلك تحت الحكم البريطانى مع قبول نصائح المندوبين البريطانيين في البلاط، ونجح هذا النظام بالرغم من كونه من عصور سابقة وتنقصه عناصر الحداثة، وفهم لوجارد LUGARD وهو أول حاكم بريطانى للشمال (١٩٠٠ - ١٩٠٦) المسئول عن هذا النظام أن شمال نيجيريا لا يمكن تحديثه إلا بضمه سياسيا مع الجنوب وربطه بالساحل بواسطة السكك الحديدية، ثم عاد لوجارد إلى نيجيريا عام ١٩١٢ وأصبح الحاكم العام لنيجيريا كلها بعد ذلك بعامين (١٩١٤)، ولكن ازدادت الاختلافات بين الشمال والجنوب واستقرت لدرجة لا يمكن تعويضها بسرعة. ولكن كان التوحيد الإدارى لنيجيريا خطوة كبيرة إلى الأمام.

مجال الشركة صاحبة الامتياز: فرنسا والمملك ليوبولد في حوض نهر الكونغو

كانت منطقة أفريقيا التي يجرى بها نهر الكونغو وروافده مختلفة للغاية عن منطقة غرب أفريقيا كما سبق القول. وسادت الغابات الاستوائية وأقامت بها أقل الشعوب الأفريقية تحضرا والأكثر انعزالا عن العالم، تعيش أكثر المجتمعات كثافة وتعقيدا حول حافة حوض النهر، وتتصل تجاريا في بعض الأحيان ناحية الشمال مع ليبيا ومصر وشرقا مع ساحل زنبار وأحيانا غربا مع لواندا البرتغالية، ولكن لم تمر تجارة كثيرة بواسطة النهر في قلب الغابات إلى مصب نهر الكونغو، ولم يتغير ذلك إلا في ثمانينيات القرن التاسع عشر مع ظهور البواخر النهرية في النهر، ولكن حدث اضطراب كبير في التجارة الخاصة بالساحل الأفريقي الأوسط الغربي في جبل كامبيرون إلى لواندا والتي استمرت في القرن التاسع عشر نظرا لأعمال ونشاط ضباط دولة الكونغو الحرة عند نهر الكونغو الأدنى وأيضا الفرنسيين في الجابون، كما لم توجد فيها منتجات محلية أفريقية لمبادلتها بالبضائع الأوروبية وبحيث ينتفع منها المستعمرون مثلما فعلوا في غرب أفريقيا، كما لا يمكن لأي حكومة هنا أن تمول نفسها بنفسها بفرض الضرائب على التجارة المارة ببوما Boma أو ليوفيل Libeoville أو للحصول على ترخيص لبناء خطوط السكك الحديدية حول جداول نهر الكونغو أو جنوبا من منطقة الكاساي العليا kasi إلى كاتانجا. وكانت الأموال المخصصة لمثل تلك المشروعات أموالا ذات مخاطر كبيرة ولا يمكن أن تتوافر إلا بتقديم فرص أرباح لفترات طويلة نظرا لعدم إمكانية وجود العائد السريع.

وتم في النهاية اتباع حل ناجح تمثل في إنشاء خطوط السكك الحديدية في شمال وجنوب أمريكا؛ إذ جذبت رعوس الأموال الخاصة بمنح حقوق امتياز في الأراضي والمناجم المراد تطويرها واستغلالها.

وكان ذلك أصل نظام الشركات ذات الامتيازات التي ستصبح من السمات المميزة للتاريخ الاستعماري لتلك المنطقة. وقام الملك ليوبولد بأول عقد من هذا النوع عام ١٨٨٦ مع شركة الكونغو للتجارة والصناعة، ووافقت الشركة بمقتضاه ببناء خط سكة حديد حول جداول نهر الكونغو الأدنى من ماتادي MATADY إلى ليوبولدفيل LEOBOLFULE وذلك مقابل الحصول على ١٥٠٠ فدان (أكثر قليلا من ١٤ كيلو متر مربعا) لكل كيلو متر يتم إنشاؤه من الخط، ويعنى ذلك أن بناء خط سكة حديد الكونغو الأدنى كانت تعنى تخصيص حوالى ٨٠٠٠ كيلومتر مربع لشركة واحدة، وفور إنشائه عام ١٨٩٨ تم عقد عقود مشابهة مع شركتين أخريين، وقامت تلك المؤسسات ببناء خطوط سكك حديدية من نهر الكونغو الأعلى إلى بحيرة تنجانيقا ومن حدود الملاحة على الكاساي KASAY إلى داخل كاتالجا، وتوجد صورة مختلفة من امتياز السكة الحديدية ومنحت عام ١٨٩١ إلى شركة كاتجا، وحدث ذلك فى العصر الذى هدد به رودس باحتلال كاتجا من الجنوب، ولما لم يتمكن الملك ليوبولد من احتلال المنطقة عمليا، منح حقوق امتياز إلى شركة كاتجا بأن تقوم بذلك فعلا مقابل حقوق امتياز خاصة بثلاث الأراضى والمناجم فى المنطقة كلها.

واعتبرت كل الأراضى الممنوحة بتلك الطريقة "أراضٍ ضائعة" وإن خرجت عنها القرى الكونغولية والأرض المزروعة فعلا، ولكن لا توجد قيمة للأرض بدون عمل، ولذلك تم الضغط بكل الأساليب الممكنة على السكان المحليين للعمل فى الشركات صاحبة الامتيازات.

وحدثت أسوأ التجاوزات فى الفترة من عام ١٨٩٥ إلى ١٩٠٥ حينما أدى اختراع العجلات المطاطية للسيارات والدراجات إلى حدوث طلب هائل على المطاط. وتم مواجهة هذا الطلب الرهيب على المدى الطويل بتتمة مزارع المطاط فى جنوب شرق آسيا، ولذلك تم الحصول على أرباح هائلة للشركات صاحبة الامتيازات فى الكونغو مادام الطلب على المطاط الخام. واستخدمت تلك الشركات

نظريا، ولكنها أجبرت عمليا، جيرانها الكونغوليين لاستخراج المطاط في الغابات مقابل مكافآت صغيرة للغاية، وأدت تلك الأرباح الهائلة إلى إثارة جشع الملك ليوبولد الذى استولى وأدار بنفسه مساحات كبيرة من أراضى المستعمرة، ولكنه أجر أيضا مناطق أخرى لشركات خاصة على أساس المشاركة فى الأرباح، وأثبت هذا النظام نجاحه لدرجة انتشاره وتطبيقه فى أفريقيا الاستوائية الفرنسية، ورأت الحكومة الفرنسية فى ذلك الأمر وسيلة لتجنب الخسائر السنوية الكبيرة المترتبة منذ بداية الحكم الاستعماري، ولكن انتهت أسوأ مظاهر الاستغلال فى هذا النظام بين أعوام ١٩٠٦، ١٩١٠ حينما تصادفت عملية الإزهار العالمى، وأجبر الملك ليوبولد على التنازل عن مستعمرة الكونغو إلى الدولة البلجيكية. وقامت فرنسا بضم المناطق الأربعة فى جابون والكونغو الأوسط وأوبانجي شارى Qubangi Chari وتشاد فى اتحاد أفريقيا الاستوائية الفرنسية وذلك فى محاولة لخفض النفقات والقيام بإدارة موحدة مباشرة، وتم ذلك بناء على نموذج الحكومة العامة لغرب أفريقيا الفرنسية، وكانت العاصمة هى برازافيل BRAZZAVILLE ولكن كان للحكومتين الفرنسية والبلجيكية عقود مع الشركات صاحبة الامتيازات ولا يمكن تنفيذها إلا بترك مساحات كبيرة من الأرض واحتكارات تجارية على مناطق أكبر، ووجدت ديون هائلة على الكونغو البلجيكية والتي حصل عليها الملك ليوبولد باقتراضه الأموال من حساب الكونغو وإنفاقها على قصوره وباقي المباني العامة فى بلجيكا، وبلغت قيمة الفائدة على ذلك الدين فى وقت واحد حوالى خمس إيراد الكونغو.

وكانت عملية إنشاء المستعمرات فى حوض نهر الكونغو مختلفة تماما عن تلك التى حدثت فى غرب أفريقيا بالنسبة لمشاكلها، فلقد كانت تلك المنطقة فقيرة للغاية، كما أن الناس الذين يعيشون بها لم يكن لديهم مصادر دخل يمكن فرض ضرائب عليها لمواجهة نفقات الحكومة والمواصلات العامة. وكانت الوسيلة الوحيدة لخلق مثل تلك الثروة هى بإعادة تنظيم عمل الناس، وقامت الشركات صاحبة الامتيازات بذلك بطريقة فجأة للغاية.

مجال المستوطن الأوروبي: بريطانيا وألمانيا والبرتغال في شرق ووسط أفريقيا

لم توجد في المستعمرات الجديدة في شرق ووسط أفريقيا في عصر احتلالها تجارة إلا تجارة العاج المتهورة، ولذلك لم توجد مصادر دخل للحكومة الاستعمارية، وذلك تماما مثل منطقة حوض الكونغو وبعكس غرب أفريقيا. تمر بها سلسلة من المناطق المرتفعة الممتدة في هضاب كينيا في الجنوب الغربي في اتجاه راس الرجاء الصالح، ووجدت هناك بعض الأراضي التي يقيم بها بكثافة قبيلة الرعاة الأفريقيون، ويمكن للمستعمرين الأوروبيين الاستقرار كمزارعين، ولذلك وبالنسبة للحكومات الأوروبية الباحثة عن الدخل فإن سياسة استقرار بعض السكان البيض الأوروبيين والذين يمكنهم استخدام وإدارة العمالة الأفريقية قد ظهرت على أنها سياسة مغرية للغاية.

ولكن كانت رغبة الحكومة الألمانية أصلا في تشجيع الهجرة في أصل ذاتها، فلقد امتلكت ألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر سكانا ريفيين كثيرين ويزدادون بسرعة، ولذلك هاجر الفلاحون الألمان بمئات الآلاف إلى الولايات ولعدة أعوام. وكان أحد الأهداف الرئيسية لأنصار الحركة الاستعمارية الألمانية هو إرسال هؤلاء المهاجرين إلى أراضي ألمانية عبر البحار، وشجعت الحكومة الألمانية المستوطنين الألمان بطلب الأراضي في شرق وجنوب غرب أفريقيا كاميرون وتوجو، ولذلك خصصت لهم الأراضي وبالذات في المناطق التي ستدخلها السكك الحديدية.

ولم تهتم الحكومة البريطانية في لندن كثيرا بأمور الهجرة الأوروبية ولكن شجعت شركة جنوب أفريقيا البريطانية استقرار المهاجرين في شمال وجنوب روديسيا، وحدث ذلك لسببين، أولا: لأن الفكرة تتفق مع آمال سيسل رودس حيث مرتفعات وسط أفريقيا سوف تكون موطننا ممتازا لمزارعين يتحدثون الإنجليزية،

وثانيا: أن منح الأراضي كان الوسيلة لسداد أتعاب المستوطنين الذين بدون الأراضي وجب السداد لهم نقدا من خزانة الشركة، ولكن حينما أعلنت الحماية البريطانية الرسمية على نياسالاند عام ١٨٩١ وأيضا في أوغندا وكينيا حينما استولت الحكومة البريطانية على كل من أوغندا وكينيا عام ١٨٩٤ - ١٨٩٥ فإن حكام المستعمرات قد تركت لهم حرية حل مشاكلهم بطريقتهم الخاصة، ويلاحظ أن خط السكة الحديد الأوغندي الذي ربط ممباسا بكيوسو kimuosu على بحيرة فكتوريا عام ١٩٠١ قد سددت تكاليفه الحكومة الإمبراطورية بواسطة قرض بلا فائدة ثم تنازلت عنه كله كهدية فيما بعد، أما في أوغندا وبعد خمسة أعوام من الأعمال العسكرية فإن الحكومة الاستعمارية قد سوت أوضاعها مع حلفائها من الباجنديين Bagedan ووقعت معهم اتفاقا خاصا عام ١٩٠٠ وحولت تلك المعاهدة الزعماء البوجانديين إلى أرستقراطية مالكة للأرض، ومنحت دولة بوجندا درجة من الاستقلال الذاتي جعل من المستحيل استقرار أى مستوطن أوروبى بها.

واستفاد البوجانديون من ذلك الوضع لأقصى درجة بزراعتهم للقطن وبكميات كبيرة أيضا، مما جعل بوجندا مستقلة اقتصاديا ولا تحتاج لمنح للمساعدة، ولكن اختلف الأمر في كينيا ونياسالاند؛ حيث تم حل مشكلة العوائد والدخل بتشجيع قيام مزارع المستوطنين في تلك الجهات.

وأدت عملية التكالب على أفريقيا بين الأمم الأوروبية إلى بعث الحياة فى مستعمرتى أنجولا وموزمبيق العريقتين البرتغاليتين، وتم تشجيع المستوطنين الجدد على مغادرة البرتغال ليكونوا مزارعين فى تلك المستعمرتين.

ولكن رغب البرتغاليون هنا فى السيطرة على مستعمراتهم الأفريقية الشاسعة أساسا ولم تكن الهجرة البرتغالية أبدا بهدف التنمية والإصلاح، ولذلك أصبح صاحب الأرض فى أنجولا وموزمبيق يشبه شركة صاحبة امتياز تتكون من شخص واحد أكثر بكثير من نظيره البريطانى أو الألمانى.

فلقد كان يقوم بجباية الضرائب وتطبيق العدالة في ضيعته على مستأجريه الأفريقيين ويحصل منهم على عمالته وقوة شرطته الخاصة، ويعتبر ذلك استمرارية لأوروبا القرون الوسطى في أفريقيا القرن العشرين.

وكان الأوروبيون المستقرون في شرق ووسط أفريقيا أثناء الفترة حتى عام ١٩١٤ قليلين للغاية عددياً، فلقد أقام حوالي ١٠,٠٠٠ في زيمبابوي الحالية، وحوالي ٣٠٠٠ في زامبيا وكينيا وتانزانيا ووناميبيا الحالية في كل منها، ولم يزد العدد عن ذلك كثيراً في أنجولا وموزمبيق ولم يزد عدد المستوطنين على بضعة مئات في مالاوي وأوغندا، واستقر عدة آلاف من الفرنسيين في هضاب مدغشقر وكونوا أكبر جالية من المستوطنين colons الفرنسيين خارج منطقة شمال أفريقيا، وكان المستوطنون الأوروبيون أقل عدداً بكثير من الهنود الذين استقروا بعد الاحتلال العسكري كحرفيين وتجار صغار في شرق أفريقيا كلها وفي مناطق من شرق أفريقيا أيضاً، واستقر الهنود في المدن والقرى وعاشوا بعملهم وكدحهم. ولكن نافس الأوروبيون، من جهة أخرى، الأفريقيين في الأراضي وعاشوا يستخدمون العمالة الأفريقية، ولكن لم تتأثر إلا مناطق قليلة مباشرة من تلك الأمور، كما أن معظم مناطق الكثافة السكانية الأفريقية على سبيل المثال حول بحيرة فكتوريا وبحيرة مالاوي لم تتأثر على الإطلاق، وفي معظم تلك البلاد عاشت المجتمعات الأفريقية حياتها العادية وحكمها الحكام الاستعماريون تماماً مثل غرب أفريقيا، ولكن وبالعكس تلك المنطقة الأخيرة وبدلاً من تشجيع السكان على زراعة المحاصيل النقدية في أراضيهم لزيادة دخلهم فإن الأفريقيين هنا قد تم تشجيعهم على كسب قوت يومهم وسداد ضرائبهم بالعمل كعمال موسمين متنقلين في الضياع الأوروبية.

وتماثل مثل الشركة صاحبة الامتياز في حوض نهر الكونغو فإن المستوطن الأوروبي المزارع في شرق ووسط أفريقيا في ذلك العصر قد كان مهماً للغاية بالنسبة للدور الذي يلعبه في تنظيم العمالة الأفريقية وإدخال مفاهيم اقتناء السوق

إليها، ولكن اهتمت الشركة أساسا بأرباحها ولكن فكر المستوطن أساسا بأولاده وبأحفاده والوضع الذى سيحصلون عليه فى المجتمع، وأدى ذلك إلى خلق مشكلة نمت كثيرا بعد الأعوام التالية للحرب العالمية الأولى، فلقد وجب التحديد آنذاك عما إذا كانت تلك الجهات فى أفريقيا الاستوائية يجب تطويرها لمصالح المستوطنين أو للسكان الأفريقيين الأصليين، وكانت النتيجة مجموعة من الحلول الوسطى غير الكافية، مثلما سنرى فى الفصل الثالث عشر.

الفصل الثاني عشر

الحكم الاستعماري في أفريقيا الاستوائية (٢): التطورات الاجتماعية والدينية

تأثير الحكم الاستعماري

اختلف تأثير الحكم الاستعماري على المجتمعات الأفريقية كثيرا ليس فقط من منطقة لأخرى ولكن أيضا من جزء من منطقة لآخر.

وتتبع أسباب هذا الاختلاف إلى حد ما في التنظيم الاجتماعي لتلك المجتمعات أو أسلوب كسبها لمعيشتها، ولذلك نجد أن الرعاية المتخصصة مثل الماساي masay في كينيا أو الهيريرو herero في جنوب أفريقيا قد وجدوا أنه من الصعب للغاية التأقلم مع رغبات الحكومات الاستعمارية أكثر بكثير من المزارعين المستقرين، كما أن الشعوب المحاربة مثل النديبلي Ndebele في جنوب رودسيا أو النجوني Ngoni في شمال رودسيا ونياسا لاند وهم المستعمرون في العصور السابقة قد وجدوا أنه من الصعب قبولهم العمل وسداد الضرائب مثل رعاياهم السابقين الماشونا Mashona والشيوا Chuona ولكن الأهم بكثير من الأسباب الاجتماعية هي تلك الظروف المرتبطة بالهدنة التي اتصلت بها كل مجموعة في منطقة معينة لأول مرة مع الحكومة الاستعمارية.

فلقد استفادت بعض الشعوب من الحكم الاستعماري، فلقد وجدت شعوب منظمة في كل منطقة تقريبا والتي نظرا لحسن خلقها أو تفكيرها الصائب قد تلاهمت مع القوة المستعمرة وحصلت بالتالي على معاملة مميزة.

ولم تحدث فترة العصر الاستعماري في البداية لتلك الشعوب أى نوع من الخجل ولكن على العكس فلقد توسعت حدودها، وزادت هيبتها وشعرت بالرخاء والإنجاز، ففي شمال رودسيا مثلاً حصل الباروتسي Barotse الذين بفضل تأثير المبشر وكولكفوند Coilefond طالبوا بالحماية البريطانية قد حصلوا فعلاً على معاملة خاصة للغاية من شركة جنوب أفريقيا البريطانية، وتم الاعتراف بهم كسادة على منطقة واسعة مجاورة لهم نظراً للاستعداد للتوقيع على معاهدات وتقديم تنازلات، ولكنهم استطاعوا أيضاً حماية بلادهم من معظم أنواع التدخل الأوروبي بتوقيعهم على معاهدات تمنح حقوق امتياز على الأراضي والمناجم للشعوب التابعة لهم.

وفضلت الحكومة الاستعمارية الألمانية في شرق أفريقيا الألمانية السواحليين المقيمين في المدن الساحلية، وكان السواحليون الحضريون أول من تعامل مع الحكم الفظ والقاسى لمستولى شركة شرق أفريقيا الألمانية، ولذلك نشبت الثورة ضدهم عام ١٨٨٨ بقيادة أبوشيري Abushiri وهو أحد مزارعى القصب العربى في منطقة بانجانى تبعه الحراس المسلحون السابقون لحركة تجارة القوافل الداخلية. وكانت الثورة خطيرة لدرجة أن الحكومة الألمانية ألغت امتياز الشركة وقامت بالقضاء عليها بنفسها بتجنيد ٦٠٠ مرتزق سوداني من مصر. ثم تحركت القوات إلى الداخل وتم إنشاء نوع من الإدارة المدنية للمدن الساحلية بطريقة ملائمة للمشاعر الإسلامية والاستعانة بالزعماء التنفيذيين، ونجحت تلك السياسة لدرجة أن الألمان قد قرروا تركيز كل مجهودهم التعليمى على إنشاء مدارس ناطقة بالسواحلية في المدن الساحلية، ولذلك نشأت تدريجياً في تلك المدارس طبقة مميزة للغاية من رجال الشرطة السواحليين والكتبة والمترجمين الذين ساعدوا مسئولى الإدارة الألمان وصاحبوهم حينما امتدت أوجه النشاط في المدن الساحلية إلى الداخل، وفهم هؤلاء الناس نظام الحكم الجديد واستطاعوا الاستفادة منه بمختلف الطرق والأساليب.

وقام الباجندا Bagenda بدور الوسيط بين البريطانيين وباقي شعوب المحمية في أوغندا، وحاربت جيوش باجندا مع البريطانيين في عدة حملات مبكرة وحصلت على مكافأتها بامتداد حدود بوجندا على حساب جيرانها، وبالإضافة إلى تلك الحدود الممتدة للغاية فإن البوجانديين قد صاحبوا إدارة المحمية النامية بسرعة، وعملوا لفترة كزعماء في كل منطقة في البلاد تقريبا، وحصلت بوجندا على الأفضلية في كل أعمال تنمية وتحسين تقوم بها السلطة الاستعمارية، ونبعت الطرق الجديدة في بوجندا، كما شيدت أول المدارس والمستشفيات هناك كما زرعت أول المحاصيل النقدية هناك من البن والقطن.

ونذكر مثالا آخر من نيجيريا، فلقد وجدت جماعتان مميزتان تماما وهما طبقة الفولب Fulbe الحاكمة في الشمال وسكان المدن المتقنين في الساحل مثل اليوروبا Yourbba في لاجوس والإيفيك Efik والإيجوس Ejaws في مدن دول الدلتا، والإيجبو من الموانئ النهرية على نهر النيجر الأدنى، وكان الفولبي من أول المعارضين للاستعمار وحاربوا بضراوة ولكنهم اتفقوا مع الغزاه مما أدى إلى تأييد المستعمر لنظم حكمهم وتوسيعها، بل جعلها أكثر قدرة على النجاح المادي مما كان عليه الحال فيما قبل، ويتشابه نجاح سكان الساحل هنا مع نجاح السواحليين في شرق أفريقيا، فلقد كانوا هم الكتبة والتجار ومديري المدارس الذين يصاحبون رجال الإدارة البريطانية حينما يتوجهون إلى داخل البلاد، وساعدوا أيضا على تغيير نظم حكم مدن دول اليوروبا والمجتمعات القروية للإيجبو Ejebo إلى أنماط يمكن للحكومة الاستعمارية قبولها.

وكان هؤلاء هم المستفيدون من الحكم الاستعماري ولكن وجد أيضا الجانب الخاسر مثل الذين أدى بهم حظهم التعس أو سوء التقدير أو فقط الوطنية المفرطة إلى الوجود في صفوف الخاسرين، ففي جزيرة مدغشقر مثلا انتهزت عدة شعوب معادية لنظام حكم الهونا Hona انهيار قوة الأخيرة أثناء عصر الغزو الفرنسي للثورة ضدها وضد الفرنسيين على السواء، ولكن قضى الفرنسيون على تلك الثورة

بعنف بالغ مما أدى إلى تدنى أحوال تلك الشعوب، ولم تكن أحوالها تحت الحكم الفرنسي أفضل بالمرّة من عصر حكم الهونا. وثارت شعوب النديبلي Ndeble والماشونا Mashona بطبيعة الحال في محاولة لطرد المستعمرين البيض الذين استولوا على أراضيهم واستقروا بها في جنوب رودسيا، وأدت نتائج حرب عام ١٨٩٣ وثورات عامي ١٨٩٦، ١٨٩٧ إلى طرد معظم النديبلي والماشونا من الأراضي السابقة التي زرعوها أو استخدموها للرعي، وأقاموا منذ ذلك الوقت في محميات خاصة بهم ووجب عليهم هنا بدء حياتهم في جدية وكثيرا بدون ماشيتهم وكثيرا بدون مساعدة جماعاتهم الاجتماعية القديمة التي انهارت نتيجة للحرب والقتال، وكان مصير شعب الهريرو herero في جنوب أفريقيا أسوأ بكثير حينما ثاروا ضد المستوطنين الألمان عام ١٩٠٤ الذين استولوا على أراضيهم، ونقل ثلثا عدد هذا الشعب في إجراءات القمع الألمانية، وأعلنت بلاد الهريرو على أنها أرض تمتلكها الدولة الألمانية ومنع الناجون من الاحتفاظ بماشية إذ لم يعودوا يمتلكون أي أرض كمرعى لماشيتهم. وهربت مجموعات منهم إلى متشوالاند، أما الباقي فدخل في خدمة الأوروبيين، ولكن لم توجد أماكن أخرى في أفريقيا الاستوائية حيث تفاقمت الأحداث بطريقة سيئة للغاية بين الاستيطان الأوروبي والمقاومة الوطنية عندما كانت المناطق المطلوبة للاستيطان الأوروبي شمال نهر الزامبيزي صغيرة للغاية، ولذلك ترك سكانها الأصليون حيثما كانوا أو تم نقلهم لمسافة بضعة أميال فقط، وكانت أكبر عملية انتقال لشعب الماساي Masai الشمالي من المنطقة الوسطى في الهضاب الكينية، ولكن تم ذلك بالاتفاق المتبادل وليس بالقوة ولكن لم تكن الجماعات التي نفذت أجزاء صغيرة من أراضيها هي التي عانت من الحكم الاستعماري فلقد حدثت تلك المعاناة لتلك الشعوب التي لم تؤيد أبدا النفوذ الأوروبي لسبب أو لآخر وكان شعب البانيوري banoyres في أوغندا مثلاً حياً على ذلك، فلقد عارض البريطانيون أساساً لكونهم حلفاء أعدائه التقليديين وهم الباجندا، ولذلك أصبحت بونيورو ملاذاً للتجار العرب والسواحليين فيما بين أعوام ١٨٩٠، ١٨٩٦

وأيضاً لمسلمي باجندا ولكل المعارضين للحكم البريطانى وللأحزاب المسيحية المسيطرة على السياسة البوجندية، وشمل اللاجئون أيضاً ثوار الكاباكا Kabaka في بوجاندا وهم الموانجا Muanga ولذلك رغب البريطانيون في غزو بونورو طبقاً لنصائح حلفائهم البوجانديين، وتم ذلك فعلاً بمساعدة الجنود البوجانديين، وخلع البريطانيون الحاكم عام ١٨٩٩ واستولوا على المناطق النائية في مملكته وأعطوها لبوجندا، كما أجبرت الحكومة البريطانية لمدة عشرة أعوام أو أكثر حكومة البونوري من تشغيل أعداد من الزعماء البوجنديين في وظائف حيوية مهمة، وأدى ذلك إلى انتشار شعور الإحباط والتعاسة، واستمر ذلك طول عصر الاستعمار وجعل بونورو دائماً آخر منطقة في أوغندا تقبل أى تجديد مفيد من الحكم البريطانى، وتشابهت مملكة أوهمي Uhehe في تانزانيا حالة بونورو تماماً، ومملكة لوق للموانا يامفو Lcouele Gamvo في زائير، ومملكة بنين Benine في نيجيريا، ومملكة داهومي في غرب أفريقيا الفرنسية ومملكة أشانتي Ashanty في غانا..إلخ.

وكان الموضوع الرئيسى في التاريخ الاجتماعى والدينى لأى شعب أفريقى معين في بداية العصر الاستعماري هو: هل كان يسبح مع تيار الاستعمار المتدفق آنذاك أو يعارضه، ولا شك أن كل المجتمعات الأفريقية قد عانت ضربة قاضية عند ضاع استقلالها، وحينما استقر حكم الحكومات الاستعمارية في بلادها وتمكنت منها، وكانت الديانة الركن الأساسى المصاحب للسلطة في كل المجتمعات الأخرى، ولكن بدأت تلك السلطة الدينية في التخاذل بعد انتهاء نظام الحكم المطلق، ولكن استمر الإنسان العادى يعيش حياته تماماً كما كان في الماضى، كما استمر تحت حكم زعيم القرية في كل شئون الحياة العادية ولكنه سوف يكتشف عاجلاً أو آجلاً أن السلطة الكبرى التى تحدد مصيره قد تغيرت تماماً، فقد يتم ارتكاب جريمة قتل مثلاً عاجلاً أو آجلاً أيضاً ثم يرسل المتهم والشهود إلى محكمة الزعيم مثلاً كان في الماضى ولكن إلى محكمة السلطة المستعمرة بإجراءاتها وعقوباتها الغريبة

وسرعان ما سيظهر المسئول الأوروبي عن المنطقة أثناء تفقده للأمور ويظهر الزعيم المحلى تابعا له، ثم سوف تظهر طلبات العمالة من أجل بناء الطرق للحمالين لحمل الأمتعة أو مواد البناء أو سلع للتجارة وسوف يتم الحديث عن الضرائب القادمة والتي تدفع عينا فى البداية ثم بالعملة غير المألوفة فيما بعد، ولذلك يضطر الأفريقى إلى العمل عند غيره من أجل كسب قوت يومه أو يتاجر فى أسواق بعيدة للغاية عن منطقة قبيلته، ولا يمكن لسلطة القرية تقديم أى حماية من تلك الطلبات ولذلك زالت سلطاتها الدينية تدريجيا.

البعثات التبشيرية المسيحية والتربية الغربية

كان التصير المسيحى فى ذلك العصر، وفى بعض مناطق أفريقيا الاستوائية الداعية المسلم أيضا، موجود لحسن الحظ لإعادة بناء ما تم تدميره سابقا. ورأينا أن المبشر المسيحى قد دخل معظم أنحاء أفريقيا الاستوائية قبل الحكومات الاستعمارية. ولذلك كان وجهها مألوفاً فى المناطق الريفية على الأقل، أكثر من المسئول الحكومى وذلك إلى عام ١٩١٤ وربما إلى ما بعد هذا التاريخ بكثير، ولكن ازدادت أوجه نشاطه فى العصر الاستعمارى فى كل مكان. ويوجد موضوع مهم للغاية ولم يتم الاهتمام به كثيرا خلال عصر الاستعمار فى القرن التاسع عشر. فلقد حرك المشاعر بين الشباب والشابات فى أوروبا الراغبين فى الحكم ولكن أيضا بين هؤلاء الذين يرغبون أيضا فى خدمة الناس فى أكثر مناطق العالم تخلفا، ولذلك وصلت طلبات الالتحاق للبعثات التبشيرية بطريقة تفوق الوصف كما حصلت على التأييد المالى مما أدى إلى تدعيم موقف كل البعثات التبشيرية العاملة فى أفريقيا الاستوائية بطريقة كبيرة للغاية بين ١٨٩٠ و ١٩١٤.

وكان غرض كل المبشرين إدخال الشعوب الأفريقية إلى الكنائس التى ينتمون إليها، وشهد هذا العصر بداية نجاحهم الباهر فلقد انضم الناس فى كل

المناطق الوثنية فى أفريقيا الاستوائية الواقعة جنوب خط العرض السابع شمالا إلى الكنائس المسيحية ثم خدموا بها أيضا بهمة ونشاط فى أعمال التبشير والتعليم الدينى بل وتولى المناصب الكهنوتية، ولم يقابل التبشير المسيحى مقاومة إلا فى المناطق التى استقر بها الإسلام جيدا فى السنغال وغينيا فى السودان، والنيجير، وفى شمال نيجيريا وتشاد وفى شمال السودان والصومال بالإضافة إلى ساحل شرق أفريقيا، وتوسع الإسلام كثيرا فى تلك المناطق وانتشر من قواعده فى المدن إلى الريف المجاور، ثم تدعم بانتشار المدارس القرآنية والجمعيات الدينية وتجلت الظاهرتان معا فى الوقت نفسه فى جنوب نيجيريا وبلاد اليوروبى الواقعة بين الشمال الإسلامى والسواحل المسيحية.

استخدمت كل البعثات التبشيرية المسيحية فى تبشيرها عملية إنشاء المدارس فى القرى، وحيث يحصل بها الأطفال من جميع الأعمار على ثقافة بسيطة للغاية تشمل القراءة والكتابة والحساب، بالإضافة إلى التعليم الدينى الذى يؤدى إلى التعميد والدخول والانتماء إلى الكنيسة، ولم تتميز قرى الأحراش أبدا كما كان يطلق عليها، بالعمارة الملائمة، ويمكن أن يكون هذا الوصف الذى كتب فى شمال رودسيا عام ١٩١٢ منطبقا على معظم أفريقيا آنذاك "تتكون المدرسة من سور من الأعشاب المرتفعة البالغ طولها ستة أقدام وتحيط بشجرة كبيرة وبعض الدعائم الموضوعة وبوص صنعت منه مقاعد. كما توجد مجموعة من الأطفال الصاخبين يحضرون الدروس. ولكن وبعد هذا العصر بقليل سوف تتطور تلك المدارس البدائية إلى مبنى بسيط مثل الذى وصفه الأسقف كتشينج فى شمال أوغندا والذى استخدم فى أيام الأسبوع العادية كمدرسة وكنيسة فى أيام الأحاد وكتب كتشينج وتصور وجود مبنى دائرى مصنوع من الطين والقش والعشب ويمكنه: "أن ينحنى بالتأكد من جميع الجهات ولذلك تدعمه بعض الدعائم الإضافية الموضوعة فى مختلف الزوايا. وتركت بعض الفتحات فى الطين وهى النوافذ والأبواب ولكن ترتفع الأرض فى إحدى نهايات المبنى لوجود بعض الدعائم الخشبية عليها لوحة

مصنوعة من البوص كمكان لإجراء الطقوس. أما فى كل جانب فيوجد تجويف تحيط به دائرة مصنوعة من الطين وتستخدم كمكان لشرح الدروس ومكان مكتب المعلم. أما السطح فعليه أعداد لا تحصى من عشب النمل، وأيضاً بعض الخفافيش. وتوجد بعض الخطافات الصغيرة على الجدران والتي تتلى منها بعض الأوراق والتي كتب عليها بعض الحروف الأبجدية أو صفوف من الحروف المتحركة ولكن أكل الجدى بعض جوانب الأوراق والحروف أو فهشتها الحشرات. وحينما تبلغ الساعة حوالى الثامنة والنصف صباحاً فسوف نجد مجموعة من الأطفال من الجنسين يجلسون على الأرض أمام الأوراق ثم يقرءون جميعاً فى صوت واحد الحروف المتحركة بصوت يشبه الغناء ولكنهم يحفظون الحروف والحروف المتحركة بطريقة ما ولذلك يتم ترقيتهم لقراءة الكلمات المطبوعة المتتالية.^(٣٩)

وكان ذلك بداية التعليم الغربى فى أفريقيا الاستوائية. وكان المدرسون الأوائل آنذاك من المشرفين الأوروبيين بطبيعة الحال ولكن تم تدريب أفضل الطلبة المتخرجين فى هذا النظام ليكونوا معلمين للدين أو مدرسين ولذلك سرعان ما انتشر التعليم وتحول إلى حركة شعبية حيث شغل بها المبشرون الأجانب الوظائف الإشرافية فقط وحيث تولى الأفارقة معظم التدريس والوظائف الدينية. ولذلك كون هؤلاء الناس زعامة جديدة وحقيقية للغاية يناقسون بها الزعماء التقليديين وشعر مدرسو البعثات التبشيرية من الرجال والنساء فى أفريقيا فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٤ بتجانسهم مع العالم الجديد فى الفترة الاستعمارية وأضافوا إلى المعتقدات القبلية لأهاليهم إيماناً أو عقيدة جديدة والتي يشاركون بها الناس من كل الألوان وكل المناطق المناخية. وعلمتهم ديانتهم الجديدة أن كل البشر لديهم القدرة نفسها على التحسن فى تلك الحياة الفانية والحصول على الخلاص فى الحياة الأبدية.

ولذلك لم يخشوا أبدا التغييرات التى تواجههم ولكنهم نظروا إليها على أنها

(٣٩) A.t.Kitching, From Darkness to Light (London 1935), P.31

فرص يمكن الاستفادة منها. وأدى تطور الإدارات الاستعمارية والشركات التجارية والمناجم والمزارع الأوروبية إلى زيادة الطلب على الموظفين والكتبة والحرفيين المهرة وبالذات هؤلاء الذين يعرفون لغة أوروبية. ولذلك ظهرت المدرسة التبشيرية على أنها الطريق الصحيح الواضح من أجل التقدم، وحيث يمكن للطموح أن يخرج من إطار نظام الحياة الضيق في قريته ليدخل عالما جديدا واسعا والعمل في وظائف جيدة الأجر في المدن.

ميلاد القومية

تميزت البعثات التبشيرية المسيحية في عملها الدينى والتعليمى بأنها عرفت الأفريقيين بالعالم الجديد الذى يدخلونه آنذاك. كما بينوا لهم كيفية النجاح فى هذا العالم. وساعدوهم أيضا ليكونوا مواطنين صالحين فى عصر الحكم الاستعماري ولكن حدث فى الوقت نفسه، وإن كان ذلك بطريقة غير شعورية، أن المبشرين قد علموا الأفريقيين كيف يفهمون وينقدون أوروبا فى الداخل. وكانت معارضة الاستعمار فى السنوات الأولى من الحكم الاستعماري فى أقل الجماعات تأثرا بالحضارة الغربية، ورغب زعمائها فقط فى طرد الأوروبيين والعودة بالأوضاع إلى ما كانت عليه سابقا. ولكن ظهرت طبقة جديدة معارضة للحكم الاستعماري حتى قبل عام ١٩١٤ ولم ترغب تلك المعارضة فى إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه سابقا، بل على العكس رغب الأفريقيون الذين تعلموا فى المدارس التبشيرية فى قبول النظم السياسية والدينية الغربية التى أدخلها الغرب إلى أفريقيا. كما رغبوا فى تحقيق ذلك بأسلوبين: إما الاستيلاء على تلك المؤسسات من الداخل ليحلوا محل الأوروبيين تدريجيا، أو بتقليدهم وإنشاء مؤسسات مشابهة كبديل عن المؤسسات الاستعمارية.

وكان هؤلاء المسيحيون المتعلمون فى المدارس التبشيرية أو الوطنيين

الأفريقيين الحقيقيين. واعتقد بعضهم أن وسيلة التقدم هي بالانضمام إلى الكنائس التي تمثلها البعثات التبشيرية، ثم بالبحث عن عمل أفضل في خدمة الحكومات الاستعمارية والشركات التجارية. وكانوا يأملون بطبيعة الحال أن يصل أبنائهم وأحفادهم إلى الوظائف الكبرى، ولكن اعتقد آخرون أن ذلك الأمل كان وهمًا، وأنه من الضروري للأفريقيين إنشاء كنائسهم المستقلة الخاصة والاستعداد لمواجهة نهائية وثورية مع السلطات الاستعمارية. ولكن نفهم أنه في الحالتين أن هؤلاء الوطنيين الجدد كانوا يفكرون بالمفاهيم الحديثة وليس أبدا طبقا للمعتقدات القبلية القديمة وتنظيماتها، بل طبقا لمفاهيم الكنائس المسيحية تحت زعامة أفريقية، ويتم حكمها طبقا لمفاهيم غربية وليس أفريقية تقليدية أبدا.

ويوجد منشور كتبه أحد الأفريقيين في نياسالاند عام ١٩١١، ويسمى شارلز دومنجو، يعطى صورة جيدة للغاية كما يراه هؤلاء القوميون المبكرون، ويقول دومنجو:

"يسود الفشل الكبير بين كل الأوربيين في نياسالاند. إن الهيئات الثلاث المشتركة: البعثات التبشيرية، والحكومة، والشركات أو مكتسبي الأموال يشتركون جميعا في النظر إلى الأفريقي بسخرية، ونتعجب كثيرا أحيانا حينما نرى أن تلك الهيئات الثلاث في أوروبا، ولكن لا توجد بينهم إلا مسيحية قليلة، وإذا ما قارنا بين التعاليم المسيحية السامية ومن يروجون لها فإنها قد تثير في الأفريقي عدم الرغبة في قبولها، وإذا كان لنا إمكانية الاتصال مع أوروبا فإننا ننصحهم بعدم إطلاق اسم مسيحيين عليهم بل أوروبيين فقط. ولذلك فإن حياة تلك الهيئات الثلاث تتميز بالخدعة والسرقة والسخرية. ويقولون بدلا من "أعط" "خذ من" ولذلك توجد انتهاكات كبيرة لكلمة الرب مثلما نرى في إنجيل يوحنا الفصل الخامس، الإصحاح الرابع. (٤٠)

(٤٠) George Shepperton and Thomas Price Independent Africa (Edinburgh 1958). PP163-4

وكما نرى لم يكن شارلز دومتجو رجلا متفقا للغاية. وكانت أفكاره بسيطة، كما أن إنجليزيتته لم تكن جيدة بالمرة. ولكنه فهم تماما أنه يحكم على الأوروبيين الذين قابلهم بنفس معاييرهم الأخلاقية أى العهد الجديد.

ولم يشك أبدا بطبيعة الحال أن إنجيل يوحنا، يعبر عن "كلمة الرب الصادقة" ولا أيضا الناس الذين يكتب إليهم واستسج من قِبل الأوروبيين فى التعبير الصحيح عن المسيحية ليس بأن يتخلى عنها الأفريقيون بل إنهم يجب أن يطبقوها بطريقة أفضل تحت قيادتهم الأفريقية الخاصة ولكن يعتبر شارلز دومتجو وأمثاله فى كل أفريقيا الاستوائية فى ذلك العصر "أكثر" العناصر الأفريقية تأثيرا بالحضارة الغربية فى المجتمعات الاستعمارية. وكان يرتدى معظمهم كل الملابس المنمقة الشائعة فى أوروبا فى بداية القرن العشرين وذلك حتى فى منطقة خط الاستواء. وعبروا فى كل مظاهر حياتهم عن الأنواع والتقاليد الأوروبية وكثروا من روادها. وكانت الكنائس المستقلة التى أُنشئت فى ذلك العصر أكثر أوروبية فى طقوسها وإجراءاتها من كنائس البعثات ذاتها. ولكن تعلم هؤلاء الوطنيين الأفريقيون الأوائل بالرغم من تقليدهم أمرا مهما للغاية من تعليمهم فى البعثات التبشيرية وهى رغبتهم فى إدارة شئون حياتهم بأنفسهم.

وبالرغم أن المؤرخين يعرفون تماما الآن أن أفكارا مشابهة لما سبق قد تكونت فى داخل المجتمعات الأفريقية إلا أن الأوروبيين العاملين أو المقيمين فى أفريقيا لم يلموا بها إطلاقا فى الأعوام السابقة لعام ١٩١٤. ولكن تم التعرض للمساوى الاستعمارية بوضوح فقط فى المدن الساحلية فى غرب أفريقيا، حيث كانت العائلات الثرية تعلم أبناءها تعليما غربيا لفترة جيلين أو ثلاثة، وظهرت هنا جرائد وطنية يديرها أفريقيون، وعبروا تماما عن تلك المساوى الأوروبية الاستعمارية. وظهرت هنا أيضا بوادر حركة أفريقية جديدة فى أشخاص مثل السير صموئيل لويس صعد إلى أعلى مناصب السلك الوظيفى الاستعمارى فى سيراليون، أو جيمس جونسون أسقف اليوروبا لأبروشية دلتا النيجر الإنجيلية

وكانت آراؤهم مهمة للغاية ولا يمكن تجاهلها إطلاقاً. ولكن من جهة أخرى سيطرت الحكومات الاستعمارية والمبشرون والمستوطنون والشركات التجارية تماماً على مقاليد الأمور كل في مجاله. وحلت الإدارة المدنية محل المرحلة الأولى من الاحتلال العسكري للبلاد الأفريقية.

ودخلت المواصلات العامة في معظمه المناطق، كما تم زراعة المحاصيل النقدية. وتحرك العمال المهاجرون بحرية ولمسافات طويلة للعمل عند الأوروبيين. وتم سداد الضرائب وتم في النهاية الاستغناء تماماً عن الإعانات التي كانت ترسلها حكومات الدول الأوروبية. واعتقد معظم الأوروبيين أنهم دعموا دعائم إمبراطورية سوف تستمر ألف عام. كما أنهم بالنسبة لطبقة الأفريقيين الذين تعلموا في المدارس التبشيرية، أي الطبقة المثقفة النامية ببطء، فإنهم قد تجاهلوا تماماً وزعموا أنها مجرد أقلية غير مهمة ولا تمثل إطلاقاً مجتمعها. ونظر إليهم لوجارد مثلاً وهو من أكفأ رجال الإدارة البريطانية على أنهم مجرد سود يرتدون سراويل يجب حماية الأغلبية الأفريقية غير المثقفة منهم لفترة طويلة مقبلة، فلقد اهتمت الإدارات الاستعمارية تماماً بالزعامات التقليدية والفئات الحاكمة القديمة وإن كانوا هنا وبطريقة غير واعية يدمرون نفوذهم وسلطتهم. فلقد تجاهلت تلك الإدارات الرجال والنساء الجدد الذين سيعتمد عليهم مستقبل أفريقيا.

الفصل الثالث عشر

أفريقيا بين الحربين (١٩١٨ - ١٩٣٨)

الحرب ونظم الحماية

تعتبر الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ مرحلة تحول مهمة في تاريخ المناطق الأفريقية الاستوائية. ولقد كانت مناطق نائية فعلا قبل الحرب ولا تتصل بحركة الاتصالات العالمية إلا بواسطة قناة واحدة تربطها بهذه الدولة الاستعمارية أو تلك. ولم توجد سياسة عامة مشتركة بالمرّة. فلقد اعتبرت كل مستعمرة منطقة مستقلة بذاتها ولا تخرج الاهتمامات بها إلا بالاكتفاء في مواردها الذاتية الاقتصادية، ولكن تحركت الأوضاع بسرعة بعد الحرب. فلقد حدث استقرار آنذاك في معظم المستعمرات الأفريقية بطريقة كافية لكي تزداد الأمور الواجب الاهتمام بها أكثر من مفاهيم الاستمرارية فقط. فلقد بدأت مواردها الذاتية تدر فائضا قليلا يفوق تكاليف إقرار القانون والعدالة. ولذلك استطاعت الحكومات الاستعمارية ولأول مرة تخصيص نفقات للتعليم والصحة والخدمات الزراعية والبيطرية والتطور الاقتصادي في كافة الأنواع. وبدأت القوى الاستعمارية في الاهتمام الكبير بمسؤولياتها الاستعمارية بعد الحرب، ولذلك حاولت إقرار سياسات مستمرة لها طابع الاستمرار والدوام في مستعمراتها الأفريقية، ولذلك طورت داخل وزارتها الاستعمارية إدارات أو أقسام متخصصة مهمة، وهيئات خدمات استشارية من أجل مساعدة كل الحكومات الاستعمارية الموجودة تحت إشرافها. ولذلك أدت تلك المركزية المتزايدة إلى إنهاء العزلة السابقة للمناطق المختلفة.

وجعلت الحرب القوى الاستعمارية مسئولة إلى حد ما أمام الرأي العام العالمي، وقسمت المستعمرات الألمانية السابقة بين الدول المنتصرة. وحصلت بريطانيا على معظم أفريقيا الشرقية الألمانية السابقة وهي أرض تنجانيقا، بينما استولت بلجيكا على الباقي وهي رواندا وبورندي، وأخذت جنوب أفريقيا منطقة جنوب غرب أفريقيا السابقة، بينما حصلت كل من بريطانيا وفرنسا على مناطق كامبيرون المجاورة لها وأيضاً توجو وسمى البريطانيون جزءهم "أرض توجو" أو بلاد توجولاند بينما أسماها الفرنسيون توجو فقط). ولم تكن تلك التغيرات عمليات ضم مباشرة مثلما حدث أثناء التقسيم الرسمي. فلقد رغبت الدول المنتصرة من أجل تقادي صراعات أخرى في إنشاء هيئة عالمية تسمى عصبة الأمم وتم الاتفاق بناء على مبادرة من الرئيس الأمريكي ويلسون أساساً أن الدول التي استولت على المستعمرات الألمانية تكون وصية عليها نيابة عن عصبة الأمم، وطلب من الدول الوصية الاعتراف أن مصالح السكان لها مثل قيمة مصالح "إلهة" صاحبة الحماية، ولكن لم يوافق مجلس الشيوخ الأمريكي على اشتراك أمريكي في العصبة بالرغم من إلحاح ويلسون على ذلك، وأدى ذلك الأمر إلى إضعافها منذ بدايتها بشدة.

ولكن تم إنشاء لجنة للوصايا بتأييد بريطاني كبير حينما تقدم العمل في العصبة، ووافقت الدول الوصية على أن تحكم مناطقها "كعهدة مقدسة للحضارة" إلى أن يحين الوقت الذي تقف فيه على أقدامها لمواجهة الظروف الصعبة للعالم المعاصر، ولذلك وجب إرسال تقارير سنوية إلى العصبة في مراكزها في جنيف بالنسبة لكل منطقة تحت الحماية على حدة، بالإضافة إلى لجنة الوصايا في العصبة، ومكن ذلك للرأي العام العالمي أن يكون له بعض التأثير على سياسة دول الحماية.

السياسة المزدوجة فى أفريقيا البريطانية

ولكن اتضح فيما بعد أن الدول صاحبة الوصاية هى التى أدارت جلسات اللجنة، ويعتبر ذلك مهما لأنه يبين أن تلك القوى لم تهتم فقط بالدفاع عن أعمالها فى المناطق تحت الوصاية، ولكنها أيضا تبحث عن سياسة تدافع بها عن الاستعمار والتى يمكن تطبيقها فى كل مستعمراتها عبر البحار.

وكان أهم المفكرين العمليين لحركة الاستعمار هو اللورد لوجارد، الذى أنهى خدمته كحاكم مستعمرات وأصبح المندوب البريطانى الرئيسى فى لجنة الوصايات، ونشر كتابا عام ١٩٢٢ بعنوان "الوصاية المزدوجة فى أفريقيا الاستوائية البريطانية" والذى ألهم جيلا كاملا من الإداريين الاستعماريين وقبله رجال السياسة والحكم فى بريطانيا كدليل، وبدأ لوجارد من المبدأ أن الدولة المستعمرة لديها مسئولية مزدوجة من جهة تجاه الشعوب المستعمرة تحت حكمها ومن جهة أخرى تجاه العالم الخارجى، وتدين للشعوب المستعمرة بواجب تقديم التقدم المادى والمعنوى الذى يؤدى فى النهاية إلى الحكم الذاتى، أما بالنسبة للعالم الخارجى فلديها مسئولية تطوير الموارد الطبيعية لمستعمراتها، وأن تجد طريقها إلى الأسواق العالمية، وذكر لوجارد أن هذين الالتزامين عند إدارتهما بدقة لا يتعارضان أبدا مع بعضهما البعض، ولذلك ومن أجل ضمان الوصول إلى توازن دقيق بين هذين المجالين وجب التأكيد على تشجيع الشعوب المستعمرة على إدارة أعمالها بنفسها لصالحها كلما أمكن ذلك سواء فى المجال الاقتصادى أو أيضا فى مجال الحكم.

ولذلك أوصى لوجارد بقبول نظام الحكم غير المباشر عامة والذى طبقه لأول مرة فى شمال نيجيريا ثم طوره إلى الظروف المختلفة تماما فى الجنوب، ويعنى الحكم غير المباشر الحكم بواسطة الزعماء التقليديين، ويقول لوجارد "إن المسئول الاستعمارى لا يجب أبدا أن يصدر أوامر مباشرة إلى مواطن أفريقيا

عادى تماما مثل اللواء قائد الفرقة الذى لن يتصل بالجندى العادى إلا عن طريق قائده المباشرين" ولكن لا يعتبر نظام الحكم غير المباشر أبدا وسيلة لإخفاء ممارسة السلطة بواسطة الحكومة الاستعمارية وفهم لوجارد تماما، ولكن لم يفهم المسئولون التابعون له ذلك الأمر، أى أن الحكومة المحلية التقليدية للزعماء يجب تحديثها تدريجيا، وكان الغرض أن تتمكن من الحصول على مسئوليات أكثر وأكثر وبالذات المسئولية المالية وإنفاق الموارد العامة، ويقوم الزعماء التقليديون فى نظام الحكم غير المباشر بجباية الضرائب ثم يرسلون معظمها إلى الحكومة الاستعمارية لاستخدامها على نطاق عام، ولكن سمح للزعماء أيضا الاحتفاظ بنسبة من الضرائب "لخزائنهم الوطنية" الخاصة وإنفاق المال على الاحتياجات المحلية، وطبقا لما يروونه مناسبا عامة. ويشمل ذلك الإنفاق رواتب الموظفين الحكوميين المحليين مثل الكتبة والرسل ورجال الشرطة، وأيضا القيام بأعمال الأشغال المحلية مثل المكاتب والمحاكم والمستشفيات أو المستوصفات والأسواق والطرق الريفية والمعابر العادية، ورغب لوجارد فى الوصول إلى وقت تتحد به الزعامات التقليدية الصغيرة مع جيرانها لتكوين وحدات أكبر، واعتقد أن طبقة جديدة من الناس سوف تظهر تدريجيا بواسطة هذا الأسلوب ولديها الخبرة الكافية لتولى المسئولية على المستوى القومى.

وأصر لوجارد فيما يتعلق بالتطور الاقتصادى أن تترك أقصى الحرية للأفريقيين لإدارة الأعمال فى بلادهم، ولكنه فهم بطبيعة الحال أن الاستثمارات الاقتصادية الكبيرة على المدى الطويل مثل تلك التى يحتاج إليها فى إنشاء السكك الحديدية والموانئ قد كانت أكبر بكثير من إمكانيات المجتمعات المحلية، ورأى أيضا أن مشروعات من هذا النوع مهمة للغاية ولا يمكن تركها أبدا للقطاع الخاص، ولذلك كان من أوائل من عبروا عن مفهوم ملكية الدولة. ولكنه رأى إمكانية مساهمة رأس المال الخاص فى المجالات الصناعية الأخرى مثل التعدين، ولكنه أكد أيضا أن الحكومات الوطنية المحلية يجب أن تشترك فى الأرباح وليس

فقط الحكومة الاستعمارية، ولكنه عارض تماما مشاركة رعاوس الأموال الأجنبية في إنشاء مزارع لزراعة المنتجات الزراعية في بلاد غرب أفريقيا، ولكن استخدمت تلك الشركات الأوروبية ذرائع مثل تلك التي ذكرها اللورد ليفرهام عام ١٩٢٤ حينما قال: "سوف يكون الأفريقي أسعد، وينتج أكثر ويعيش في ظروف رخاء أفضل إذا ما أدار ونظم عمله شقيقه الأبيض الذي يسبقه ملايين الأعوام، ولكن ندد لوجارد بسياسة الاستيطان الأبيض في شرق أفريقيا في عشرينيات القرن العشرين والتي نادى بها بنفسه في تسعينيات القرن التاسع عشر، فلقد رأى أنها تقف حائلا أمام أعمال الشركات الأفريقية التي ازدهرت بنجاح تام تحت نظام إنتاج المزارع في غرب أفريقيا. وأدى نفوذ لوجارد في نهاية الأمر إلى عدم حصول شركة أفريقيا المتحدة التابعة للورد ليفرهام على أية مزارع في المستعمرات البريطانية في غرب أفريقيا.

السياسة المزدوجة في شرق ووسط أفريقيا

من الواضح أن شرق ووسط أفريقيا هي المنطقة الاستوائية الأفريقية الأكثر صعوبة في تطبيق تلك السياسة الثنائية، فلقد تم تشجيع الأوربيين على الاستقرار وطالبوا آنذاك بالحصول على نصيب متزايد في الحكم، ووصل هذا الاتجاه إلى مدى بعيد للغاية في روديسيا ولم يمكن إيقافه، ولذلك حينما طلبت شركة جنوب أفريقيا البريطانية إعفاءها من مسئولياتها الحكومية عام ١٩٢٣ فإنه تم نقل السلطة الفعلية إلى الـ ٣٣,٠٠٠ مهاجر أبيض ولكن بدأت الحكومة البريطانية في تغيير آرائها في المنطقة شمال نهر الزامبيزي آنذاك، فلقد أدت السياسة المطبقة منذ عام ١٩١٨ بتشجيع ضباط الجيش المتقاعدين على الاستقرار في كينيا إلى حدوث أزمة حادة في القوى العاملة خلال ثلاثة أعوام، وكانت الحكومة الاستعمارية قد أشارت إلى ضباطها الإداريين بالضغط على الزعماء الأفريقيين لحث أتباعهم على العمل

عند الأوروبيين، وأدى ذلك الأمر إلى اضطراب شديد قام به المبشرون والضباط الإداريون أنفسهم مما أثار الرأي العام البريطانى، وحينما طلب المستوطنون سلطات سياسية أكبر عام ١٩٢٢-١٩٢٣ فلقد تمت مقاومتهم، ولذلك أصدرت الحكومة البريطانية مذكرة رسمية فى يوليو ١٩٢٣ ونذكر بها:

"إن كينيا بلاد أفريقية قبل كل شىء". ولذلك ترى حكومة صاحب الجلالة أنه من الضرورى أن تعبر عن رأيها فى أن مصالح السكان الأفريقيين يجب أن تسود تماما، ولكنه إذا تعارضت تلك المصالح مع مصالح الأجناس المهاجرة فإن مصالح الأفريقيين لها الأولوية المطلقة، ولا يمكن أبدا التعرض فى مستعمرة كينيا تماما مثل محمية أوغندا بمبدأ الوصاية على الأفريقيين من أجل رعاية مصالحهم تماما مثل تنجانيقا تحت الانتداب".^(٤١)

ولذلك أرسلت الحكومة البريطانية فى العام التالى ١٩٢٤ لجنة برلمانية مكونة من جميع الأحزاب تحت رئاسة أحد المعجبين بلوجارد، وهو ويليام أورمسبى- جور لورد هارليش فيما بعد لبحث المبادئ الرئيسية للسياسة البريطانية فى شرق أفريقيا وأعادت اللجنة التأكيد فى تقريرها أنه لا توجد حاجة إلى النزاع بين مصالح المستوطنين وتلك الخاصة بالأفريقيين، ولا يجب للاستيطان الأبيض أبدا أن يمنع تعليم الأفريقيين أو تدريبهم فى المهارات الاقتصادية، وبالذات تدريبهم على أحسن استخدام لأراضيهم الخاصة، ولكنها وبالرغم من عدم مهاجمتها للاستيطان فإن لجنة أورمسبى- جور قد طالبت بالتوسع الكبير فى وظائف الحكومات الاستعمارية، وفى إنشاء الخدمات الصحية، التعليمية والزراعية والبيطرية أيضا. وكانت كل تلك الإجراءات لصالح السكان الأفريقيين فى المستعمرات، وأدى هذا التقرير إلى أن تسير السياسة البريطانية فى شرق أفريقيا تماما مثلما تسير تماما المطبقة فى غرب القارة.

(٤١) Indians in Kenya Memorandum (HmsO London 1923) P.6

التعليم فى المستعمرات البريطانية

استدعى أورمسبى- جور وهو آنذاك وكيل وزارة المستعمرات البريطانية حكام المستعمرات البريطانية فى شرق وغرب أفريقيا إلى لندن عام ١٩٢٥ وأمرهم بتطبيق سياسة أكثر نشاطا فى التعليم والمشاركة مع البعثات المسيحية من كافة الاتجاهات وتقديم الدعم إلى المدارس التبشيرية بشرط أن تحتفظ دائما بمستوى كفاءة راق. ولكن لم يؤد ذلك إلى زيادة كبيرة فى العدد الإجمالى للأطفال الأفريقيين الذين يحضرون المدارس ولم يزدادوا أبدا عن ثلث الذين فى المرحلة العمرية المدرسية، ولكن استمر معظم الحاضرين فى المدارس لمدة أربعة أعوام على الأقل. كما وجدت إدارات تفتيشية حكومية فى كل مستعمرة منذ ذلك الوقت، وقدمت الإعانات فقط بشرط تدريب المدرسين واتباع المناهج المقررة. وأنشئت مدارس تابعة للسلطة المحلية فى المناطق الإسلامية مثل شمال نيجيريا وعمل بها مدرسون تربتهم الحكومة ولذلك تحسن مستوى التعليم الابتدائى كثيرا من عام ١٩٢٥ إلى ١٩٣٥، كما شعر مجال الاستخدام الوظيفى بذلك تماما. وتمت ملاحظة ارتفاع المستوى فى الحكومة وبالذات فى الحكومة المحلية فى الكنائس وفى التجارة وفى الصناعة. وفى كل مراحل الحياة التى احتاجت إلى بعض المهارة الوظيفية وبعض المعرفة القليلة بأحوال العالم.

وكان التقدم فى التعليم الثانوى أهم بكثير ولكن كانت الأعداد هنا صغيرة للغاية. وربما كانت نيجيريا المستعمرة الأفريقية الوحيدة فى أفريقيا البريطانية التى امتلكت أكثر من أثنى عشرة مدرسة ثانوية عام ١٩٣٩ وكان عدد الطلبة المتخرجين من تلك المدارس من ١٠٠ إلى ٢٠٠ طالب سنويا، ولكن أثبت هؤلاء المئات القليلون من طلبة المدارس السنوية أن الأفريقيين الاستوائيين يمكنهم شغل العديد من وظائف المهارة والمسؤولية التى اعتقد سابقا أنه يجب توظيف الأوروبيين بها فقط. وظهر أول الرجال المهنيين من ذلك الجيل باستثناء بعض أبناء غرب أفريقيا من العائلات الثرية الذين تربوا فى الخارج.

وظهر أول الأطباء وأول الأطباء البيطريين، وأول مسئولى الزراعة والغابات، وأول مديري محلات البيع بالتجزئة، أول نظار المدارس الثانوية وبالذات أول الزعماء ومسئولى الحكم المحلى المثقفين ولكن لم يوافق كل طلبة المدارس الثانوية على شغل الوظائف المخصصة لهم بواسطة السلطات الاستعمارية، وكان معظم زعماء الثورة الوطنية فيما بعد من هذا الجيل الذى أتم تعليمه الثانوى مثل كنياتا، وباندا، أزيكوى فى بدايتها تقريبا ثم نكروما، تافاوا باليوا وأجندا أودنجا حوالى نهايتها.

ولذلك يحتمل تماما أنه إذا لم تقدم الحكومات الاستعمارية والبعثات المسيحية إمكانيات التعليم الثانوية أثناء فترة ما بين الحربين لما قامت الثورات الشعبية الناجحة إلا بعد فترة طويلة من نهاية الحرب العالمية الثانية.

سياسة المشاركة الفرنسية

إذا وضع لوجارد وأورمسبى - جور أسس السياسة الاستعمارية البريطانية فيما بين الحربين فإن نظيرهما الفرنسى هو ألبرت ساروت وزير المستعمرات فى ١٩٢٠ - ١٩٢٤ و ١٩٣٢ - ١٩٣٣. وكان مفهوم ساروت مختلفا تماما عن مفاهيم الإنجليز، فلم يحترم كثيرا الشخصية الأفريقية، ولكنه كان أكثر أخوية حيالها، ولم يذكر ساروت أبدا عن "السماح للأفريقى بالتطور طبقا لمعايير الخاصة" وكان رأيه الأساسى هو أن تظل فرنسا ومستعمراتها متحدة فى السلام كما كانت فى الحرب، وكان جوهر خطته هو التطور الاقتصادى السريع للمستعمرات لكى تمون فرنسا بالمواد الأولية وأسواقا للسلع الصناعية الفرنسية، وكتب: "يجب أن تكون مستعمراتنا مراكز للإنتاج وليس أبدا متاحف لعرض العينات"، وكانت سياسة اندماج الأفريقيين فى الحضارة الفرنسية هى الهدف النهائى وإن لم تتم أبدا مجهودات خاصة للإسراع بها، ولذلك وفيما عدا الدوائر الساحلية للسفغال مع

مواطنيها السود الـ ٨٠,٠٠٠ (أى المواطنون الذين لديهم كل الحقوق السياسية) فإن ٢٠٠٠ فقط من الـ ١٤,٠٠٠,٠٠٠ أفريقي في غرب أفريقيا الفرنسية قد حصلوا على الجنسية الفرنسية، وكان التركيز المباشر على "المشاركة" بمعنى المشاركة الشاملة للمستعمرات الفرنسية مع فرنسا ولذلك وجب أن تكون الإمبراطورية الفرنسية مركزية اقتصادية مثلما هي عليه إداريا ولم يوجد أدنى تفكير في استقلالها يوما ما، وكان الزعماء الأفريقيون مجرد وكلاء عن الإدارة الفرنسية، ولم توجد أدنى نية لزيادة سلطاتهم، وكان الرؤساء الكبار مسئولين حقيقيين من الإدارة الفرنسية، ويتم اختيارهم عادة من بين الكتبة والمترجمين الأكثر كفاءة في الجهاز الإداري وليس أبدا طبقا للوراثة.

واختلفت السياسة الفرنسية عن البريطانية بالذات في مجال التعليم وبالرغم أن بعض المدارس التبشيرية قد استلمت إعانات حكومية لكفاءتها الممتازة إلا أن تسعة أعشار التعليم الرسمي في أفريقيا الفرنسية بين الحربين قد قدمته الدولة. كما كان كل التعليم باللغة الفرنسية. وكان غرض التعليم قد حدده أحد الحكام العاميين لغرب أفريقيا الفرنسية بما يلي "تعليم الجماهير واكتساب ولاء الصفوة" وقدم التعليم الابتدائي في "المناطق الإقليمية" التي بلغ عددها حوالي الثمانين عام ١٩٣٦ وتفرقت عبر غرب أفريقيا الفرنسية، واقتصرت التعليم الثانوي على تلبية احتياجات الجهاز الحكومي، وقدم معظم هذا التعليم الثانوي في أول أفضل ثلاث مدارس ثانوية في داكار وكان أفضلها على الإطلاق سواء أكاديميا أم لتخريجها أعدادا كبيرة من الزعماء الوطنيين فيما بعد هي مدرسة تدريب المعلمين المسماة بمدرسة ويليام بونتي.

واتبع البلجيكيون في الكونغو بين الحربين سياسة تشبه السياسة الفرنسية في الحكم المباشر الذي فضلوه عن غير المباشر، وحكمت المستعمرة عام ١٩١٩ في ٦٠٠٠ منطقة إدارية مختلفة. ولكن نقص هذا العدد في عام ١٩٣٤ إلى ٢٥٠٠ بعد دمج الوحدات الإدارية ببعضها، ولكن لم يتساو الزعيم الأفريقي حاكم الوحدة أبدا

مع نظيره الفرنسي حتى يعد عملية الدمج ولكن كان مثل زميله في غرب أفريقيا الفرنسية وكلا عن الحكومة الاستعمارية، وكانت للوحدات الإدارية في نظام الحكم الاستعماري البلجيكي أصغر بكثير من معظم المناطق البريطانية، كما كان عدد الموظفين الإداريين أكبر ولذلك وجد هنا إشراف أدق وأكثر إحكاما. ولكن فضل البلجيكيون تماما مثل البريطانيين صرف إعانات للمدارس التبشيرية بدلا من تنظيم وإنشاء خدمة تعليمية ثابتة للدولة، ولكنهم باختلاف البريطانيين فإنهم دعموا فقط المدارس "الوطنية" أي الرومانية الكاثوليكية. وكانوا أكثر صرامة من الفرنسيين إذ اقتصر التعليم عندهم على التعليم الابتدائي فقط، وكان غرضهم المعلن هو تقديم سكان المستعمرة على المستوى نفسه ومنع استغلال الأقلية للأغلبية، وكانت النتيجة منما ظهر فيما بعد أن بلجيكا قد تركت الكونغو بالقليل من الزعماء الأكفاء عند الاستقلال، كما لم توجد أعداد كافية من المثقفين لإدارة الدواوين الحكومية.

الاستعمار والوطنية

تمت إدارة المستعمرات الأفريقية الاستوائية لكل القوى الأوروبية لصالح سكانها الأفريقيين ولو جزئيا بحلول عشرينيات القرن العشرين. ولكن أشرف الحكام الأوروبيون تماما على كل أعمال التطوير بالإضافة إلى المديرين ولجان التحقيق، ولم يتخذ الأفارقة أى قرارات مهمة ولذلك وجد أعداد أقل من الأفريقيين نوى الأهمية في تلك الفترة عما كان عليه الحال قبل عام ١٩١٤ حينما ظل بعض الزعماء من عصر ما قبل الاستعمار. ولكن توفي معظمهم أو اعتزل الخدمة بحلول العشرينيات من القرن العشرين وحل محلهم رجال يدينون للأوروبيين بترقيتهم وكانوا في الواقع أصحاب حظوة لدى الإدارة الاستعمارية. ووجدت أعداد صغيرة ولكن مهمة من الرجال والنساء المثقفين الذين ينهون دراستهم الثانوية ولكنهم ما زالوا صغار السن وبدون خبرة ولذلك حصلوا على الوظائف الصغيرة

فقط فى الحكومة والأعمال التجارية، وتمكن عدد قليل للغاية من الدراسة فى أوروبا وأمريكا وأصبحوا أطباء ومحامين ولكنهم لم يحصلوا أبدا على الوضع الاجتماعى المميز الذين يستحقونه بمؤهلاتهم عند عودتهم إلى أفريقيا، ورأى معظمهم أنهم يستحقون أفضل بكثير مما حصلوا عليه، ولذلك نشأت من تلك الظواهر الفردية حالة استياء عام بالنسبة لأسلوب حكم بلادهم.

بطبيعة الحال نظرا لاتصال سكان السواحل بالأوروبيين لعدة قرون، وحيث تمتعت أقلية صغيرة بالثقافة الغربية لمدة عدة أجيال. وتكونت أول الاتحادات أو المؤسسات السياسية فى غرب أفريقيا واشتركت عائلات العبيد المحررة فى سيراليون والكريول (ذرية الزواج بين الفرنسيين والأفريقيات) فى السياسات المحلية منذ منتصف القرن التاسع عشر.

كما ظهرت اتحادات صغيرة فى ساحل العاج ولاجوس أثناء بداية القرن العشرين بين المحامين والأطباء ورجال الأعمال. كما انشأ أحد محامى ساحل الذهب كيسلى هيفورد عام ١٩١٨ المؤتمر العام لغرب أفريقيا البريطانية والذى وصل إلى نيجيريا عام ١٩٢٠. وطالب المؤتمر باشتراك الأفريقيين فى الحكومة، ولكن اقتصرت أعمال هؤلاء السياسيين المبكرين على الأعمال المحلية فقط، ولم يكن لهم إلا تأثير ضئيل على الحكومات الاستعمارية. واقتصر الوعي السياسى فى غرب أفريقيا الفرنسية على الدوائر الساحلية الأربع فى السنغال، حيث انتخب الـ ٨٠,٠٠٠ مواطن أحد السنغاليين السود، بليز ديانيان، بمجلس النواب فى باريس عام ١٩١٤، وأصبح ديانيان وكيل وزارة المستعمرات الفرنسية مما أدى إلى ظهور مفاهيم أن السنغاليين المهتمين بالسياسة يمكنهم الانضمام إلى الأحزاب السياسية الفرنسية، ولكن تم انتخاب حكومات يسارية فى فرنسا منذ عام ١٩٣٦، وتمكن الاشتراكيون والشيوعيون منذ ذلك الوقت من الحصول على وظائف فى المستعمرات وبالذات فى مجال التعليم، ولذلك انضمت أعداد كبيرة من الأفريقيين من غرب أفريقيا الفرنسية إلى الحزبين الاشتراكي والشيوعي، وكانت المنظمات

الطلابية فى بريطانيا وفرنسا الوسائل الرئيسية فى تحويل الشكاوى المحلية والفردية إلى روح وطنية خالصة، وذلك فى مجال السياسات الأفريقية العامة ونبعت مفاهيم تلك المنظمات من كتابات وأوجه نشاط الأفريقيين الأمريكيين وفى جزر الهند الغربية مثل إدوارد بلايدن وماركوس جارفى الأفريقيين الذين ركزوا على تشابه أحوال السود على جانبى الأطلنطى، وبدأ الأفريقيون تحت تأثيرهم فى التفكير بالاستيلاء على الوحدات السياسية التى أنشأتها القوى الاستعمارية وتوحيدها بنفس أسلوب الولايات المتحدة الأمريكية أو جمهوريات اتحاد الدول الاشتراكية السوفيتية، وبرز من بين التنظيمات الطلابية اتحاد الطلبة الأفريقيين الغربيين الذى أنشأه النيجيرى لاديبو سولانكى عام ١٩٢٥ فى لندن، وأدى الغزو الإيطالى لأثيوبيا عام ١٩٣٥ إلى زيادة حدة المشاعر القومية، وكان الحادث الفاصل فى تاريخ الوطنية فى غرب أفريقيا البريطانية دون شك هو عودة نامدى أزيكيوى عام ١٩٣٥ من دراساته فى أمريكا وتأسيسه فى ساحل الذهب أولا ثم فى وطنه نيجيريا ثانية صحافة شعبية، ويعتبر ذلك الخطوة الأكثر أهمية فى نشر الأفكار السياسية التى قبلتها الجماهير بالنسبة للوحدة الأفريقية، وساعد أزيكيوى بعد عودته بقتيل فى إرسال ثمانية نيجريين وأربعة من ساحل الذهب للدراسة فى أمريكا. وسوف يصبحون كلهم فيما بعد من الشخصيات الأكثر أهمية فى الثورة الوطنية بعد الحرب العالمية الثانية، وكان أهم شخص فى تلك المجموعة شابا يافعا مدرسا من ساحل الذهب ويدعى كوامى نكروما، وكان معظم السياسيين من غرب أفريقيا رجالا انفصلوا عن جذورهم القبلية ونظموا أوجه نشاطهم بالأسلوب الأوروبى وبالذات الجرائد والقلقل الشعبية، ونظموا أحيانا أعمال شغب ولكنها كانت غير عنيفة فى معظم الأحوال، أما فى شرق أفريقيا فإن الاستياء من الحكم الأوروبى قد أخذ شكلا قبليا حتى ذلك الوقت، ولذلك فإن تاريخ الحركة الوطنية فى كينيا هو أساس تاريخ استياء ومقاومة شعب الكيكويو، وكانت أعداد الكيكويو تزداد بسرعة. ولكن سد المستوطنون الأوروبيون طريق توسعهم الطبيعى خارج الغابات حول جبل كينيا.

ولذلك تحول العديد منهم إلى عمال موسميّين ومزارعين فى المزارع الأوروبية بينما غادر آخرون الأرض وانضموا إلى أعداد العاطلين الكبيرة فى نيروبى وأنشأ أحد الموظفين الحكوميين، هارى ثوكو، اتحادا سياسيا وجذب الاهتمام لتلك المشاكل عام ١٩٢٢. ولكن فصل من عمله وتم القبض عليه ولذلك احتشد جمهور كبير فى نيروبى للاحتجاج، ثم أطلقت عليهم الشرطة النيران ونفى ثوكو إلى منطقة الحدود الشمالية النائية، ولكن انتشرت الجماعات السياسية كثيرا بين الكيكويو، وحينما حاولت الجمعيات التبشيرية التدخل فى بعض طقوس الكيكويو فى نهاية عشرينيات القرن العشرين ترك عدة مدرسين مدارس البعثات وكونوا اتحاد مدارس مستقل وبرز جومو كينيا في البداية بصفته الأمين العام لحزب الكيكويو الرئيسى المسمى الاتحاد المركزى للكيكويو وذلك قبل سفره والعمل فى بريطانيا فى ثلاثينيات القرن العشرين، ثم أنشأ ثوكو بعد إطلاق سراحه عام ١٩٣١ حزبا معتدلا دخل فى صراع عنيف مع الاتحاد المركزى للكيكويو. وذلك لم يستطع الكيكويو أبدا تكوين جبهة واحدة متحدة لمواجهة الحكومة والمستوطنين البيض، وإن كان ذلك لصالح الأوروبيين تماما.

ولذلك ظهرت كينيا على أنها المستعمرة المضطربة الوحيدة فى شرق أفريقيا ولكن كان الهدوء الظاهري السائد فى باقى المستعمرات هادئا وحدث تدهور كبير فى السياسة الاقتصادية والاجتماعية والاستعمارية نتيجة للانهايار الاقتصادى العالمى فيما بين ١٩٢٩ - ١٩٣١ مما أدى إلى تدهور رهيب فى أسعار المواد الخام وبالتالي تأثرت كل دخول الحكومات الاستعمارية كثيرا. واضطرت تلك الحكومات إلى إجراء تخفيضات كبيرة فى كل الخدمات العامة ويشمل ذلك خدمات الإدارة الأساسية والأمن، وتم تخفيض عدد الموظفين الحكوميين فى بعض المستعمرات إلى أكثر من النصف. ويرى بعض المؤرخين أن ذلك العصر هو بداية تدهور الحكم الاستعماري وفقدانه للسيطرة وبالذات فى المناطق الحضرية التى بدأت فى التحول إلى مدن عامرة، ولكن استعادت السلطات الاستعمارية بعض

سطوتها بعد عودة الرخاء الاقتصادى فى نهاية ثلاثينيات القرن العشرين وإن حدث ذلك تدريجيا. ولكن كان المجتمع الأفريقى يتغير آنذاك بسرعة كبيرة وليس أبدا طبقا للأسلوب الذى رغب به لوجارد فلقد سيطر "الأفريقيون السود بالسراويل" على زمام الأمور بدلا من الزعماء القبليين ذوى الأرواب الطويلة. وسادت الأفكار الجديدة والآمال الطموحة أفريقيا كلها واستعدت لفرض إرادتها فى معارضة الحكومات الأوروبية ولكن ولولا التغيرات الجذرية التى أحدثتها الحرب العالمية الثانية لتأخر الانسحاب الأوروبى كثيرا عن التاريخ الذى تم فيه، ولواجهت الحكومات الأوروبية التحدى حقا.

الفصل الرابع عشر

شمال وشمال شرق أفريقيا (١٩٠٠ - ١٩٣٠)

حركة الجامعة الإسلامية

كانت شمال أفريقيا والأراضي الإسلامية في شرق أفريقيا كلها في أيدي أوروبية بحلول عام ١٩١٤. وتمسكت أثيوبيا فقط باستقلال صعب الاحتفاظ به. ولكن كان اختلاف الظروف السياسية والاجتماعية في تلك المنطقة هائلا، فلقد كان الاختلاف بين الرعاة الصوماليين من جهة ومواطني القاهرة الأثرياء من جهة أخرى رهيبا ولكنهم امتلكوا كلهم إيمانا مشتركا وتقاليد ثقافية مشتركة تفرق بينهم وبين معظم سكان أفريقيا الاستوائية. ووجب على القوى الأوروبية أن توفق بين سياساتها ووسائل إدارتها لنظم المجتمع الإسلامي، وكانت هذه عميقة الجذور لدرجة أنه لا يمكن تجاهلها. ولكن تعرضت تلك المناطق إلى الحروب والصراع السياسي أكثر من أي منطقة أخرى في أفريقيا خلال العصر الاستعماري.

وازدادت المقاومة لفقدان الاستقلال نظرا للعداء الديني الشديد الذي يشعر به المسلمون تجاه شعوب أوروبا المسيحية، ولذلك استمرت الثورات بقيادة الشيوخ ورجال الدين في ثلاثينيات القرن العشرين حينما نظمت المقاومة الوطنية آنذاك طبقا لأسس سياسية حديثة وتأثرت الوطنية هناك، مثلما تأثرت في أماكن أخرى، بالأفكار السياسية الأوروبية التي درست في المدارس الاستعمارية والجامعات الأوروبية، ولكن تأثرت تلك المنطقة كلها أيضا بحركة إصلاح الجامعة الإسلامية.

وكانت تلك الحركة رد فعل ضد التدخل المتزايد لأوروبا المسيحية في بلاد

الإسلام، وبدأت بين جماعات من الأتراك المتقنين في الإمبراطورية العثمانية في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، وتدين تلك الحركة بطريقة ما إلى نموذجي توحيد إيطاليا وألمانيا اللذين تما في ذلك الوقت تقريبا، ثم انتقلت الأفكار إلى القاهرة ودمشق وباقي المدن المتحدثة بالعربية في الشرق الأوسط، وكانت الفكرة الرئيسية لأنصار الجامعة الإسلامية أنها الوسيلة الوحيدة لكي يقاوم العالم الإسلامي الهجوم الأوروبي، وذلك بأن يترك كل المسلمين خلافاتهم السياسية والمحلية ويتحدوا أمام العدو المشترك، ويمكن الوصول إلى الوحدة السياسية فقط من خلال إعادة التفكير في مبادئ وإجراءات الديانة الإسلامية، ولذلك أصبحت جامعة الأزهر في القاهرة أهم مراكز تعاليم أفكار الجامعة الإسلامية وذلك بالرغم من الاحتلال البريطاني لمصر بعد عام ١٨٨٢. وحضر الطلبة إلى الأزهر من كل أنحاء العالم الإسلامي ويشمل ذلك المغرب وبلاد السودان. ويعود الطلبة إلى ديارهم مشبعين بأفكار الحركة الإصلاحية.

الحكم الفرنسي في المغرب

كانت الجزائر قد حكمت كجزء من فرنسا لأعوام عديدة عند حلول بداية القرن العشرين، ولكن استمرت حكومتى الباي والسلطان قائمة بعد إعلان الحماية الفرنسية على تونس ومراكش، ولكن ازدادت أعداد المسؤولين الفرنسيين بهما، وكانت الدول الثلاث متغيرة وتعاني من القحط المستمر وجفاف الأراضي، وبالذات نقص المواصلات بسبب الجبال الداخلية. صمم الفرنسيون على التغلب على تلك العقبات وبالذات مشكلة المواصلات ولذلك أمكن السفر من مراكش إلى تونس بالقطار بحلول ثلاثينيات ذلك القرن، كما كانت الطرق المغربية أفضل الطرق في أفريقيا كلها، وكان تطور مدينة الدار البيضاء أبلغ دليل على تطور الحكم الفرنسي هناك فلم تكن إلا قرية صغيرة لصيد الأسماك عام ١٩٠٠، ولكن أنشأ الفرنسيون

بها ميناء صناعيا حتى قبل إعلان الحماية عام ١٩١٢ وخطوط حديدية إلى مناجم الحديد والفوسفات في الداخل، وبلغ سكانها ربع مليون نسمة في عام ١٩٣٦، وتوجه إليها المغاربة (مثلما فعل الجزائريون في التوجه إلى مدينة الجزائر وهران) للعمل في المصانع ومنشآت الميناء، وأقام أفقرهم في عشوائيات أقيمت على حافة المدن.

وشجع الفرنسيون للاستقرار في الدول الثلاث كمستوطنين ولذلك وجد أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ مستوطن فرنسي في الجزائر في بداية القرن وحوالي ١٠٠٠,٠٠٠ في عام ١٩٣٦. ووجد في العام نفسه أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ مستوطن في مراكش ومثلهم تقريبا في تونس، ولا شك أن معظم التطور الاقتصادي الذي تم في عصر الحكم الفرنسي كان نتيجة لعمل هؤلاء المهاجرين، وإن تسببت أعدادهم الكبيرة في العديد من المشاكل السياسية والاجتماعية الخطيرة، فلقد احتلوا معظم الأرض كما نافسوا السكان المسلمين الوطنيين على الوظائف في المدن وازداد عدد السكان المسلمين أيضا بسرعة من ٤,٥٠٠,٠٠٠ إلى أكثر من ٩,٠٠٠,٠٠٠ أثناء النصف الأول من القرن، ولذلك تحول المسلمون إلى الفقر نظرا لزيادة أعدادهم باطراد ولوجود أفضل الأراضي والوظائف في أيدي الأوروبيين أيضا. ولذلك هاجر عدة آلاف من أبناء المغرب الكبير إلى فرنسا لكسب العيش بحلول ثلاثينيات القرن العشرين.

ولكن ظل المستوطنون الفرنسيون مواطنين فرنسيين تماما. فلقد قاموا بانتخاب نوابهم في الجمعية الوطنية في باريس ومارسوا ضغوطا مستمرة على السياسة الفرنسية، ويمكن منح نفس حقوق المواطنة نظريا إلى المسلمين المتقنين ولكن بشرط التخلي عن الشريعة الإسلامية لصالح القانون المسيحي وهو أمر لم يرغب به أحد، ولم يشجعهم المستوطنون الفرنسيون أبدا بطبيعة الحال بالمطالبة بتلك الحقوق المدنية، ولخص أحد الكتاب الفرنسيين عام ١٩١٣ وجهة نظر المستوطنين الفرنسيين حينما قال: "إن الأسلوب الوحيد للتعاون المشترك بين شعبين في بلد تم احتلاله بالقوة هو خضوع المهزومين لإرادة المنتصر".

مراكش: ليوتى وعبد الكريم

كانت المنطقة التى تختلف كثيرا عن الجزائر هى مراكش. وحدث ذلك لأن الحكم الفرنسى لم يبدأ هناك إلا بعد عام ١٩١٢ وحدث ذلك نظرا للطابع الممتاز لأول مقيم عام الماريشال ليوتى الذى شغل الوظيفة لمدة ثلاثة عشر عاما، من ١٩١٣ إلى ١٩٢٥. وكان ليوتى حاكما استعماريًا من الطراز الأول، فلقد فهم واحترم النظم التقليدية للإسلام فى شمال أفريقيا، كما قرر التعامل معها باحترام بالغ ولكنه تميز أيضا بالقدرة الهائلة على إدارة الشؤون الاقتصادية، ولذلك كانت عملية التحديث السريع للاقتصاد المراكشى من أهم أعماله، وحينما حضر إلى مراكش وجد أن البلاد قد غرقت فى بحر من الفوضى ووجب عليه بالذات إقرار السلام فى منطقة قبائل بلاد السبا (انظر الفصل ٤). ولم يستطع أى سلطان مراكشى إخضاع تلك القبائل لقرون عدة، وربما كانت أهم أعمال ليوتى هى إقرار النظام والقانون فى مناطق لم تسيطر عليها أبدا الحكومة المركزية المراكشية وبوسائل أكثر إنسانية من مجرد الغزو. وكان مبدؤه "إبراز القوة وإظهارها لتجنب استخدامها". وكانت سياسته فى الحفاظ على المصالح الفرنسية ومصالح السلطان فى الوقت نفسه، بالإضافة إلى تلك الخاصة بزعماء القبائل مشابهة لعمل لوجارد فى بلاد الهوسا ولكنها عانت من العيوب نفسها أيضا.

ولكن توقفت أعمال ليوتى فى إقرار السلام بقوة فى بداية عشرينيات القرن العشرين نظرا لنشوب حرب الريف، فلقد ثار البربر فى جبال الريف فى شمال مراكش ضد الحكومة العسكرية الأسبانية غير العادلة والتى لا تتميز بأدنى كفاءة. وهزموا جيشا أسبانيا عام ١٩٢١، وأجبروا الأسبان على الانسحاب إلى المدن الساحلية فقط، وذلك تحت قيادة رائعة لأحد القضاة السابقين يدعى عبد الكريم.

وأعلن الأخير قيام "جمهورية الريف" وكان هذا التعبير حديثا، ولكنه رغب فى تطبيق مفاهيم تقليدية قديمة: أن يصبح سلطانا وأن ينشئ أسرة حاكمة جديدة فى

مراكش. وجعلته انتصاراته العسكرية بطلا في العالم الإسلامي. وأعطاه ذلك ثقة زائفة لدى يمد نطاق عملياته إلى المنطقة الفرنسية، ولكنه واجه جبروت الجيش الفرنسي كله، وذكر أحد المراقبين الأمريكيين أن "فرنسا وأسبانيا" قد أحاطتا الريف بما يشبه جدارا من الصلب واستخدما كل وسائل الحرب الحديثة لمواجهة رجال القبائل الثأرين. ولذلك أصبحت المقاومة مستحيلة عند تطبيق تلك السياسة واضطر عبد الكريم إلى الاستسلام في مايو ١٩٢٦.

وحضر إلى الخطوط الفرنسية ممتطيا بغلا، وعبر في منطقته بجدول يستحم به بعض الجنود الفرنسيين وحينما رأوه اندفعوا إليه، وبالرغم من كونهم عرايا إلا أنهم أدوا له التحية العسكرية بالطريقة الصحيحة وأبدوا له إعجابهم الشديد به لصفاته كجندي وكقائد.

ونفاه الفرنسيون إلى جزيرة رينيون ولكنه عاد بعد أعوام ليلعب دورا في الحركة القومية المراكشية.

وأرسل ليوتى استقالته إلى الحكومة الفرنسية للاحتجاج على التأخير في إرسال التعزيزات المطلوبة أثناء أزمة حرب الريف عام ١٩٢٥. وقبلت استقالته مما أحزنه وفاجأه. ويقال إنه صعد على سفينته في الدار البيضاء وعيناه مليئتان بالدموع. وكان خلفاؤه أقل كفاءة منه وأبعدوا الطبقات الحاكمة القديمة عن مراكز السلطة ولم يقدموا لهم فرصة أخرى لتحديث النظم التقليدية. وحينما توفي السلطان المتقدم في السن عام ١٩٢٧ رتب الفرنسيون الأمر لدى يتولى أحد الأمراء الشباب "سيدي محمد" عرش مراكش. واعتقد الفرنسيون أنهم يمكنهم تربية وتعليم السلطان الجديد بأسلوب يطابق رغباتهم تماما. ولكنهم أخطأوا لأن السلطان سيدي محمد قد أصبح قائدا للحركة القومية المراكشية بعد الحرب العالمية الثانية. وحاول الفرنسيون إثارة القلاقل بين العرب والبربر ولكن كانت النتيجة توحيدهم في معارضتهم للحكم الفرنسي.

بدايات القومية في المغرب الكبير

كانت الوطنية في المغرب رد فعل ضد واقع الحكم الفرنسي الذي اختلف طبقا لنظرية الاندماج في الجزائر وشروط معاهدات الحماية في تونس ومراكش وتتبا ليوتى فى تاريخ مبكر عام ١٩٢٠: "وينمو الآن جيل جديد ملئ بالحياة ويحتاج إلى العمل ولكن لا توجد أعمال؛ إذ لا تقدمها إدارتنا لهم إلا نادرا. ولذلك سوف يتجهون إلى طريق آخر وسوف يحاولون تنظيم أنفسهم فى جماعات للتعبير عن رغباتهم وكان يمكن توقع ظهور دول إسلامية حرة ذات إصلاح فى تونس ومراكش. فلقد نظر المراكشيون إلى تاريخهم الطويل والتأيد بفخر واعتزاز وكان سلطانهم من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام كما كان زعيمهم الدينى والديوى أيضا، ولم يتخل السلطان الشاب سيدى محمد عن الكشف عن نواياه الحقيقية وتظاهر بقبول التعليمات الفرنسية إلى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية ولكن كانت آراؤه معروفة مسبقا. ولكن وضع آخرون دعائم الحركة الوطنية فلقد اجتمع عشرة شباب فى أمسيات عام ١٩٢٦ فى حديقة فى الرباط يشربون الشاي بالنعناع تحت أغصان شجرة توت، وتكلم أحد الشباب الطلبة البالغ من العمر ١٨ عاما وهو أحمد بلا فريج الذى سيصبح يوما رئيسا لوزراء المغرب المفضل وقال "وبدون حرية فإن ظلام القبر أفضل للروح من أشعة الشمس".

واتفق العشرة على تكوين جماعة سرية لمقاومة الحكم الفرنسي بأى وسيلة كانت ولكن انقضت عشرون عاما تقريبا فى العمل فى الصحافة والتنظيم السياسى لى تتحول تلك الحركات الوطنية المبكرة إلى حزب الاستقلال عام ١٩٤٣، وأيد السلطان ومعظم الشعب المراكشى حزب الاستقلال منذ إنشائه.

وتعود بداية التنظيم السياسى الديمقراطى فى تونس إلى ما قبل عصر الاستعمار بكثير، إلى منتصف القرن التاسع عشر، وذلك عند إنشاء حزب الدستور كما رأينا سابقا فى الفصل الرابع من أجل مقاومة نفوذ الباي العثمانى. وظل حزب

الدستور نشطا في الأعوام الأولى للحكم الفرنسي ولكنه كان يمثل المواطنين الأثرياء في العاصمة ولكن انفصل الحبيب بورقيبة عن الحزب القديم عام ١٩٣٤ وأنشأ حزب الدستور الجديد الذي تكون من عناصر شابة أكثر تشددا وبسياسة حضارية حديثة، وأعلن بورقيبة "أن تونس التي نرغب في تحريرها سوف تكون للجميع بدون تفرقة من حيث الدين أو الجنس لكل الذين يرغبون في أن تكون وطنهم وأن يعيشوا بها تحت حماية القوانين العادلة". ولكن ما زال الطريق طويلا أمام بورقيبة ورفاقه عام ١٩٣٤. وكانوا يعجبون عادة بفرنسا والحضارة الفرنسية ولذلك رغبوا في التفاوض حول استقلال تونس بطريقة ودية. ولكن عارض المستوطنون الفرنسيون والإيطاليون في تونس هذا الاستقلال بالإضافة إلى الموظفين الفرنسيين العاملين في الإدارة التونسية بأعداد كبيرة، ورغب القادة العسكريون الفرنسيون بالذات في أن تظل تونس فرنسية، فلقد رأوا أن تونس والقاعدة البحرية الفرنسية المهمة في بنزرت حيوية في الحرب القادمة ضد إيطاليا الفاشية، ولذلك تعاملت فرنسا مع حزب الدستور الجديد بسجن زعمائه، ومنع جرائده، وأخيرا بإعلانه خارجا عن القانون وإغلاق مكاتبه، واستمر ذلك إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وتعاملت الوطنية الجزائرية في ظروف أصعب بكثير، فلقد أعاد الفرنسيون صياغة النظام السياسي للجزائر بطريقة شبه كاملة، ولقد درس معظم المسلمين المتقنين في المدارس الفرنسية وتكلموا الفرنسية أفضل من العربية. ولكنهم منعوا أيضا من الحصول على امتيازات الجنسية الفرنسية. ولذلك لم يبق الكثير من الماضي ليقوموا بالبناء عليه من جديد ولذلك كتب فرحات عباس بيأس عام ١٩٣٤. "إن الناس الذين يموتون من أجل الأفكار الوطنية يحترمهم ويجلهم الشعب على الدوام ولكنني لن أموت من أجل الوطن الجزائري لأنه ببساطة لا يوجد وطن مثل ذلك، وإنني أبحث في كتب التاريخ ولا أجده ولا يمكنك أن تبني على الهواء"

ولذلك لم تولد فكرة الأمة الجزائرية إلا في تلك الحرب المريرة ضد فرنسا بين ١٩٥٤-١٩٦٢ وإن كان الزعماء المعتقلون السابقون من عشرينات وثلاثينات القرن العشرين مثل فرحات عباس قد تواروا إلى الخلف وحل محلهم زعماء أكثر شبابا وتشددا، ولكن كان لا يمكن للحركة الوطنية الجزائرية أن تبدأ إلا بعد انتصار الحركة الوطنية أيضا في تونس ومراكش.

البريطانيون في مصر والسودان

أرسلت بريطانيا بعد احتلالها العسكري لمصر عام ١٨٨٢ اللورد دافرين السفير البريطاني السابق في إسطنبول لكتابة تقرير عن نظام حكم محتمل، ونصح بأنه لا يمكن أبدا حكم البلاد مباشرة من لندن تحت أي مسمى كان "وأن أي محاولة منا لفعل ذلك سوف تجعلنا مثارا للحقد والشك من المصريين، ولكن تم تجاهل تلك النصيحة القيمة لسوء حظ البلدين، وكان لا يمكن لبريطانيا ضم مصر لإمبراطورياتها لكونها حليفة سيدها الأسمى وهو السلطان العثماني، ولذلك استمر الخديوي ووزراؤه في حكم مصر ظاهريا، ولكن كان للفصل البريطاني العام السلطة المطلقة في مصر، ولذلك كتب اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية "يجب اتباع نصيحة حكومة صاحبة الجلالة البريطانية في كل الأمور الخاصة بإدارة وسلامة مصر وذلك مادام الاحتلال المؤقت، ولذلك يجب على الوزراء والمسؤولين المصريين اتباع تلك النصائح أو الاستقالة من مناصبهم، ولكن كانت مصر متطورة للغاية في المجالين الاجتماعي والاقتصادي مقارنة بالدول الأفريقية الأخرى، غير أن البريطانيون أدخلوا العديد من الإصلاحات وبالذات في مجال الري، وتم إنشاء خزان أسوان عام ١٩٠٢ وخزن مياه كافية لري أراضي وادي النيل طول العام، ولذلك أصبحت الزراعة المصرية بمنأى عن انخفاض أو ارتفاع مياه الفيضان وذلك لأول مرة من ٥٠٠٠ عام. ولكن وجدت مشاكل في

مواقع أخرى، ولم يتعلق ذلك بنقص عملية التحديث بل فقط بعدم كفاية الموارد المادية للبلاد. ولذلك كانت المهمة الكبرى للورد كرومر القنصل البريطاني العام من عام ١٨٨٣ إلى ١٩٠٨ والذي تولى أعلى سلطة في البلاد أن يقلل من نفقات الحكم الخديوي البذخ وأن يقلل بالتالي العبء الضرائبي عن الفلاحين.

ولكن لم تقرب المزايا المادية البريطانيين من المصريين، وسرعان ما تطور الاستياء إلى مطالب وطنية داعية للانسحاب البريطاني من مصر وكان معظم السياسيين المصريين وطنيين بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، ولذلك دارت العلاقات الإنجلو - مصرية دائما في دائرة مفرغة منذ ذلك الوقت فلم يوجد إلا طلب واحد للوطنيين: أن تغادر بريطانيا مصر، ويجب البريطانيون أنهم لا يمكنهم أن يفعلوا ذلك إلى أن يتم إنشاء حكومة قوية فعلا ومستقرة ماديا. وكان ذلك مستحيلا لأن الوطنيين لا يرغبون في العمل مع الخديوي والبريطانيين لإنشاء مثل تلك الحكومة، ولذلك فرق العداء المتزايد وعدم التقهيم بين الحكام والمحكومين وازداد العداء عام ١٩١٤ حينما تحالفت تركيا مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وإعلان بريطانيا الحماية على مصر كإجراء وقائي. ثم تحولت مصر إلى قاعدة لكل العمليات العسكرية البريطانية في الشرق الأوسط، وعانى المصريون الكثير من القوات الأجنبية التي عسكرت عندهم، وسخرت تلك القوات عملهم، دوابهم وإنتاجهم للأغراض العسكرية، ولذلك عبر المصريون عن استيائهم من ونجت المندوب السامي للحماية في أغنية شعبية:

الويل لنا يا ونجت

الذي أخذ قمحنا

وأخذ قطننا

وأخذ جمالنا

وأخذ أطفالنا

ولم يترك لنا إلا حياتنا

واتركنا الآن لشأننا، لوجه الله^(٤٢)

وتحول العداء المصرى إلى ثورة عارمة عام ١٩١٩ حينما لم تف بريطانيا وفرنسا بعهودهما فى منح الاستقلال للولايات العربية فى الإمبراطورية العثمانية القديمة، وفهمت بريطانيا أنها لا يمكنها الاحتفاظ بمصر إلا بالقوة العسكرية ولذلك قبلت المطالب المصرية، ولكن أدى شك المصريين فى النوايا البريطانية لدرجة أنه لم يرغب أى سياسى فى الإساءة إلى سمعته بالتوقيع على معاهدة مع القوة المحتلة ولذلك أعلنت بريطانيا قراراً من جانب واحد عام ١٩٢٢ منحت به مصر نوعاً من الاستقلال، ولكن بقيت القوات البريطانية فى مصر ولكن تم الاعتراف بالخدوى كملك للبلاد طبقاً لدستور جديد كما تم انتخاب البرلمان بواسطة الرجال البالغين عامة.

وأدت النتائج المباشرة للحكم الذاتى فى مصر لإبراز عدم واقعية مفهوم الحكم المشترك لبريطانيا ومصر على السودان طبقاً للاتفاق الثنائى بينهما فى الحكم، فلقد أعيد فتح السودان عام ١٨٩٨ بواسطة الجيش المصرى بمساعدة القوات البريطانية، وسددت مصر وليس بريطانيا العجز السنوى فى الميزانية السودانية من ذلك التاريخ إلى عام ١٩١٣، ولم تتكف الخزنة البريطانية شيئاً. وشغل المصريون بعد إعادة الفتح ولمدة خمسة وعشرين عاماً مائة أو مائتين من الوظائف الكبرى فى الجيش والحكومة فقط، ولكن كانت كل السلطة الحقيقية للحكم فى السودان فى أيدي الحاكم العام البريطانى وكبار رجال الحكم البريطانيين والعسكريين. وطبقت بريطانيا سياستها فى حكم السودان على أنها بلاد منفصلة عن مصر تماماً ولديها مصالحها الخاصة وهى هنا أهم بكثير من المصالح المصرية، ولذلك أنشأ نظام التعليم السودانى على النمط البريطانى بعكس التقاليد التعليمية الفرنسية السائدة فى مصر. وانزعج المصريون أكثر حينما خطط البريطانيون

(٤٢) George, Young Egypt (London 1927). P.228

لاستخدام مياه النيل لمشروع رى كبير فى منطقة زراعة قطن فى الجزيرة جنوب مدينة الخرطوم، وكان المشروع مفيدا للغاية للسودان ولكن خشى المصريون من أن تقع مياه النيل، وهى شريان الحياة فى مصر، تحت سيطرة قوة أخرى. ولذلك كانت الحقيقة أن مصر قد حكمت السودان فى القرن التاسع عشر ولكن طردتها بريطانيا منه فى القرن العشرين.

وأدى الغضب بالنسبة للسودان إلى اغتيال الحاكم العام للسودان السيرلى ستاك فى عام ١٩٢٤ بواسطة أحد الوطنيين المصريين حينما كان يمر بالقاهرة أثناء إجازته. وكان رد الفعل البريطانى عنيفا للغاية فأمرت بريطانيا الملك فؤاد بسحب كل الضباط المصريين والوحدات المصرية من السودان خلال أربعة وعشرين ساعة، ثم تلا ذلك إحلال البريطانيين والسودانيين محل المصريين فى كل الدوائر المدنية السودانية، ولذلك أخذ السودان شكل مستعمرة بريطانية عادية منذ ذلك التاريخ. وسادت فكرة الحكم غير المباشر ونمت بواسطته مفاهيم جديدة للسكان غير المسلمين فى جنوب السودان. ثم شعر البريطانيون بعدم الثقة فى السودانيين المثقفين المتخرجين فى المدارس الشمالية وشعروا أنهم لا يحبون الحكومة البريطانية، وشعروا وبالصدقة العميقة لمصر وشعبها. ولذلك مثلما أخرج البريطانيون المصريين من حكومة الشمال أبعدوا آنذاك السودانيين الشماليين من حكم الجنوب مما أدى إلى ابتعاد شقى البلاد، وسار كل منهما فى طريقه الخاص. واتصل الشمال بالعالم الخارجى كما حدثت به معظم التطورات الاقتصادية. وظل الجنوب بعيدا عن التأثيرات الشمالية والإسلامية، ليس هذا فحسب ولكنه انعزل أيضا عن التطورات الاقتصادية والسياسية التى تمكنه من الوقوف على قدميه بنجاح. وأدت نتائج تلك السياسة إلى كارثة كبرى حينما حكمت الحكومة الشمالية منطقة جنوب السودان بعد استقلال البلاد.

وانتقلت السلطة السياسية فى مصر آنذاك بين حزب الوفد وحزب البلاط التابع للقصر الملكى. وكان سعد زغلول رئيسا للوفد وهو وطنى معتدل فرضت

عليه الظروف عام ١٩١٩ أن يأخذ موقفا معاديا للبريطانيين عام ١٩١٩ ولكن استاء الشعب المصري تماما من فساد ومؤامرات السياسيين المحترقين بحلول ثلاثينيات القرن العشرين. فلقد ازداد ثراء الأغنياء ومعظمهم من الطبقة التركبية والمملوكية القديمة بينما ساد الفقر بين العمال وسكان المدن والفلاحين في الريف، ولذلك كتب الشاب جمال عبد الناصر حينما كان طالبا في المدرسة الثانوية عام ١٩٣٥ مقالا مدرسيا معبرا عن الرأي السائد في البلاد "إن الأمة في خطر، ويزيد الاستعمار حدة الصراعات بين الأحزاب والقصر وزعماء الأحزاب أنفسهم. ويأمل في الإبقاء على انقسام البلاد وانشغال الناس في البحث عن الوظائف الراقية ذات الأجر الوفير بحيث ينسى المصريون تماما أن لهم حقا في الحرية. ولذلك اتجه العديد من الشباب في شدة غضبهم إلى أحزاب معادية للبرلمان الديمقراطي. وكان أقوىها هو حزب الإخوان المسلمين الذي رغب في إنشاء دولة دينية تحققي مقها سمات الثراء والفقر الشديدين.

وبعد أعولم طويلة من المفاوضات لشاقة وغير المثمرة وقعت بريطانيا ومصر معاهدة عام ١٩٣٦ وكانت أهم بنودها أن يقتصر وجود القوات البريطانية على منطقة قناة السويس، ولكن لم يحدث أي تقدم بالنسبة للسودان بالرغم من المحاولات الجادة لحل بعض مشاكله ووافقت بريطانيا ومصر على إدارة السودان لصالح السودانيون وعادت وحدات الجيش المصري إلى الحامية السودانية كما عاد الموظفون المدنيون المصريون وانتهى إعادهم. ولكن اضطر المصريون إلى مواجهة الواقع لأنه بالابتعاد عن بريطانيا فإن مصر قد ابتعدت أيضا عن السودان لدرجة لا يمكن تعويضها فيما بعد. ولذلك أدت المشكلة السودانية وعودة الحكومة العسكرية البريطانية إلى مصر خلال الحرب العالمية الثانية ثم إنشاء دولة إسرائيل اليهودية في فلسطين بتأييد الغرب إلى نمو الوطنية المصرية بطريقة مناهضة تماما للغرب.

مناطق النفوذ الإيطالية: ليبيا

كانت المناطق الباقية لدول أفريقيا الإسلامية الناطقة بالعربية خاضعة للسيطرة الإيطالية. وكان أكثرها اضطرابا آنذاك هي ليبيا. ولقد رأينا في الفصل العاشر كيف غزت إيطاليا ولايتي طرابلس وبرقة العثمانيتين عام ١٩١١. ولكن أدت هزيمة الأتراك إلى احتلال الإيطاليين لمدن الساحل فقط دون الداخل. ولذلك سرعان ما اصطدموا بالقادة الحقيقيين للمناطق الداخلية وهم شيوخ الزوايا السنوسية كما ذكرنا في الفصل الرابع، وأنشئت تلك الزوايا آنذاك في كل أراضى القبائل للبدو والرعاة في برقة وفزان، وكان هؤلاء الشيوخ رجال دين أساسا، ولكن نظر إليهم البدو العرب على أنهم يمثلونهم في كل معاملاتهم مع العالم الخارجي، وتعاون الشيوخ بطبيعة الحال مع المسؤولين الأتراك لكونهم مسلمين مثلهم ولكنهم قاوموا الإيطاليين المسيحيين بطريقة شديدة بعد استيلائهم على طرابلس وبنى غازي. ولذلك تحولت الحركة الدينية أساسًا إلى حركة وطنية وسياسية أيضا، ونقل رئيس الدعوة السنوسية السيد أحمد الشريف مركز قيادته من واحة الكفرة إلى جنوب برقة عام ١٩١٢ وركز كل طاقته في الأعوام الستة التالية في تنظيم مقاومة مسلحة ضد الإيطاليين. وأيد المسلمون في الشرق الأوسط كله جهوده ولذلك انهالت عليه العطايا والهبات من المال والسلاح من لجان غير رسمية في مصر وتركيا وسوريا والحجاز. ثم أيدته تركيا رسميا حينما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥ بجانب الحلفاء وتركيا بجانب ألمانيا والنمسا. وانسحب السيد أحمد إلى إسطنبول بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ولكنه احتفظ بوضعه كزعيم للدعوى السنوسية وإن تخلى عن سلطته الدنيوية إلى ابن شقيقه السيد محمد إدريس الذي سيصبح ملكا على ليبيا بعد ذلك بخمسة وعشرين عاما.

ودخل إدريس في مجموعة من الاتفاقات غير المثمرة مع الإيطاليين فيما بين ١٩١٨ - ١٩٢٢ وقبل بها الاعتراف بالسيادة الإيطالية مقابل الحصول على درجة كبيرة من السيادة الذاتية في المناطق القبلية ولكن ألغى الحزب الناشئ لبينتو

موسولينى تلك الاتفاقات عام ١٩٢٢ بعد استيلائه على السلطة فى إيطاليا، ولذلك اجتمع الزعماء العرب فى طرابلس وبرقة فى مؤتمر، واعترفوا بإدريس كأمير لليبيا كلها. وقبل إدريس ثم انسحب إلى مصر لتحضير المقاومة ضد الهجوم الإيطالى المتوقع. وحدث ذلك فى نهاية العام. ولذلك حارب البدو الليبيون حرباً لمدة تسعة أعوام شبيهة بالحرب الجزائرية من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٢ وإن كانت أقل مدة. فلم يوجد أبداً أكثر من ١٠٠٠ بدوى تحت السلاح ولكنهم حصلوا على تأييد السكان المدنيين كلهم مما استلزم حشد جيش إيطالى من ٢٠,٠٠٠ جندي ضدهم. ولذلك طبق الفاشيون وسائل إجرامية مثل الغارات الجوية وعزل السكان المدنيين فى معسكرات اعتقال مما أغضب العالم المتحضر كله. وكان المنظم الرئيسى لتلك المرحلة من المقاومة الليبية هو أحد الشيوخ السنوسيين سيدى عمر المختار، الذى قبض الإيطاليون عليه عام ١٩٣١ وتم إعدامه علناً مما أدى إلى انتهاء العمليات العسكرية تماماً فى العام نفسه. ولذلك تمتعت إيطاليا بثمانية أعوام من الهدوء فى إمبراطوريتها فى شمال أفريقيا قبل أن تبتلعها نيران الحرب العالمية الثانية، وخرج الليبيون من تلك الحرب وحقهم فى الاستقلال معترفاً به تحت حكم إدريس.

مناطق الحكم الإيطالية: الصومال وأثيوبيا

سبق أن رأينا فى الفصل العاشر كيف توقفت الحركة الاستعمارية الإيطالية فى شمال شرق أفريقيا عام ١٨٩٦ بعد انتصار الإمبراطور مينيليك المدوى فى موقعة عدوة، ولكن استطاعت إيطاليا فى معاهدة السلام التالية الاحتفاظ بموطئ قدم فى أريتريا على البحر الأحمر. ووقعت أيضاً على معاهدات حماية عام ١٨٨٩ مع سلاطين ماجرتيين الصوماليين فى ألولا وأوبيا، ثم قامت بتأجير موانئ بنادر من سلطان زنجبار وذلك فى براوا مقديشيو واد شيخ ثم اشترت تلك الموانئ عام ١٩٠٥ بدلاً من تأجيرها. ولكن لم تقم الحكومة الإيطالية ببناء الجديد، ولم تستفد

من منشآت الماضي على الإطلاق فلقد ارتكزت مستعمرة أريتريا على ميناء مصوع المتدهور بعد أن تحولت عنه التجارة الأثيوبية بطريقة متزايدة لصالح ميناء جيبوتي في الصومال الفرنسي كما بدأ إنشاء خط سكة حديد من جيبوتي إلى أديس أبابا عام ١٨٩٦ وتم الانتهاء منه عام ١٩١٨، وتركت محميات ألولا وأوبيا في شأنها باستثناء بعض زيارات السفن الحربية الإيطالية. وأدارت شركتان إيطاليتان موانئ بنادر بطريقة سيئة للغاية مما أدى إلى إفلاسهما الأولى عام ١٨٩٦ والثانية عام ١٩٠٤.

نشبت أول ثورة للصوماليين المسلمين ضد السيطرة الاستعمارية المسيحية ليس ضد الإيطاليين ولكن ضد البريطانيين. فلقد كانت المحمية البريطانية الصغيرة على السواحل الجنوبية لخليج عدن موطنًا لأحد الزعماء الدينيين الكبار لجماعات الصوماليين البدو وهو السيد محمد عبد الله حسن، وعرفه أعداءه البريطانيون باسم الملا "المجنون".

ولد السيد محمد عبد الله عام ١٨٦٤ في المنطقة الداخلية لبربرة، واشتهر مبكراً بالعلم والتقوى، وزار أثناء سفراته المتكررة المبكرة كشيخ متجول كلا من مقديشو، ونيروبي ومناطق في السودان. وأدرك آنذاك تماماً تهديد القوى التوسعية للمسيحية الغربية للإسلام. وحينما عاد السيد محمد إلى وطنه عام ١٨٩١ بدأ في مقاومة البريطانيين الذين اعتبروه خارجاً عن القانون ولذلك انسحب مع أتباعه إلى الهود والأوجادين وهي أراضى دون صاحب بين أثيوبيا من جهة الصومال الإيطالي والبريطاني من جهة أخرى. وبدأ السيد محمد هجماته ضد الحكومات الثلاث المجاورة لمنطقتي الهود والأوجادين ولذلك تم إرسال قوات بريطانية إيطالية وأثيوبية لمحاربته باستمرار وبتكاليف عالية وذلك في حملات عسكرية استمرت ضده حتى وفاته عام ١٩٢٠ وكتب السيد محمد عدداً كبيراً من الخطابات لأصدقائه وأعدائه على السواء. وتميزت خطابه إلى البريطانيين بالتحدي، وكتب في إحداها:

"وإذا كانت تلك البلاد بها زراعة أو منازل أو ممتلكات لكنت جديرة لكم بالحرب من أجلها. ولكن البلاد كلها غابة (ويقصد إنها غير مزروعة) ولا يمكنكم استخدامها. وإذا أردتم الأحرار والأحجار فيمكنكم أخذ العديد منها. كما يوجد الكثير من بيوت النمل، والشمس حارقة قاتلة، أما ما يمكنكم أخذه منى فهو الحرب فقط - ولا شيء غير ذلك".

ولذلك حصل الثلاثة أو أربعة ملايين صومالي على أول شعورهم بالقومية المشتركة من السيد محمد بعدما كانوا حتى ذلك الوقت يدينون بولائهم القبلى أساسا. ولذلك يراه الصوماليون بحق على أنه والد القومية الصومالية. ولكن لم يترك السيد محمد عبد الله خليفة بعده بعكس مؤسسى الحركة السنوسية الذى يشبهه كثيرا. ولذلك توقفت المقاومة الصومالية ضد البريطانيين والإيطاليين بعد وفاته. وتطورت الحكومات الاستعمارية العادية فى الصوماليين البريطانى والإيطالى. ولكن انتقلت اهتمامات حكومة إيطاليا الفاشية آنذاك فى شمال شرق أفريقيا إلى فتح مملكة أثيوبيا وتم التحضير لهذا الغزو طويلا ولكن لم تتمكن القوات الإيطالية من التفرغ له إلا بعد انتهاء الحرب الطويلة ضد السنوسيين فى ليبيا. وكانت ذريعة الهجوم هى الحدود المتنازع عليها بين الصومال وأثيوبيا فى الأوجادين، وتآمر الإيطاليون هنا مع العشائر الصومالية المقيمة داخل الأراضى الأثيوبية وقدموا مراكزهم العسكرية إلى الأمام لمسافات بعيدة للغاية عن منطقة الحدود غير المحددة.

وحدث الاشتباك المتوقع فى نهاية الأمر فى شهر ديسمبر ١٩٣٤ بين دورية أثيوبية ترافق لجنة لتحديد الحدود وحاميه إيطالية فى مركز عسكرى إيطالى فى موقع يدعى ولوال واستغاث الإمبراطور هيلاسلاس بعصبة الأمم. وكان قد تم تنويجه فى عام ١٩٣٠ بالرغم من حكمه لأثيوبيا فعلا منذ عام ١٩١٦ باسمه القديم راس تفرى، وأيدته بريطانيا وفرنسا فى عصبة الأمم ولكنهما لم تبديا إرادة كافية لصد العدوان الإيطالى.

ولذلك تقدمت جيوش موسولينى عام ١٩٣٥ بواسطة الطرق العسكرية الممهدة مقدما فى مصوع فى الشمال ومقديشو فى الجنوب الشرقى، وأتمت تلك القوات غزو أثيوبيا فى شهر مايو ١٩٣٦ نظرا لتفوقها فى السلاح والعتاد، وأقام الإمبراطور لاجئا فى لندن. وأصبحت الإمبراطورية الإيطالية الأفريقية التى تتكون من إريتريا وأثيوبيا والصومال واقعا ملموسا حقيقيا بعد أن ظل ذلك حلمًا يراود الإيطاليين منذ عصر تقسيم أفريقيا ولكن لن يستمر هذا الحكم إلا خمسة أعوام فقط.

وكانت آثار الاستعمار العسكرى لموسيلينى فى العشرينيات والثلاثينيات فى القرن العشرين ذات مدى هائل. ونكر فعلا أن إيطاليا قد فعلت ما فعلته الدول الاستعمارية الأخرى فى باقى أفريقيا ولكن بطريقة وحشية للغاية. وفعلت الدول الأوروبية أمورا مشابهة قبل ذلك بعشرين أو ثلاثين عاما ولكن تغير للزمان والمكان آنذاك. فلقد تطورت الدول الاستعمارية الأخرى للغاية فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين وأصلحت نظمها الاستعمارية تماما لى تكون لصالح الحكومات. واعترفت بريطانيا بالذات بحق رعاياها فى مستعمراتها الأفريقية بحكم أنفسهم بأنفسهم. ولكن أعانت إيطاليا عقارب الساعة إلى الوراء فى ليبيا والصومال فلقد ارتكبت اعتداء أثما ضد دولة معترف بها دوليا والتى تميزت بقدر كبير من التحديث الذاتى بدون أى تدخل خارجى. وكانت تلك الحادثة أول اختبار تعرضت له أوجه نشاط عصبة الأمم والتى فشلت تماما هنا. ولذلك تعلم أدولف هتلر الدرس بسرعة وكان قد تولى آنذاك الحكم فى ألمانيا كزعيم لحزب فاشى آخر. وبدأ طريق الهجوم والاعتداء الذى سيؤدى إلى الحرب العالمية الثانية.

وغزت القوات الألمانية منطقة الراين بين فرنسا وألمانيا والتى تم نزع سلاحها بعد الحرب العالمية الأولى، ووجه ونستون تشرشل فى مقدمته لكتابه عن تاريخ الحرب العالمية الثانية الانتباه إلى تأثير أعمال موسولينى فى أثيوبيا، وكتب: "وكانت تلك الأزمة الفرصة السانحة للتدخل الحاسم لصالح قضية عادلة. ولكن أدى

فشل الحكومة البريطانية في عدم التصرف بحزم إلى تمهيد الطريق إلى حرب
رهيبة أشد ضراوة.

ورأى المتفكرون الأفريقيون داخل أفريقيا أن الغزو الإيطالي لاثيوبيا إدانة
دافعه لنظام الاستعمار كله، وكذلك اعتبر هيلاسلاس أثناء لجوئه الطويل في
إنجلترا كتجسيد حي لسجن قارة بأكملها.

الفصل الخامس عشر

جنوب أفريقيا (١٩٠٢ - ١٩٣٩)

كانت جنوب أفريقيا القطر الأفريقي الوحيد الذى شعر بوطأة المشاكل الاجتماعية الحادة الناتجة عن التحول من اقتصاد زراعى إلى اقتصاد صناعى. فلقد كان معدل التغير بين ١٩٠٠ ونشوب الحرب العالمية الثانية أسرع وأكبر بكثير من أى منطقة أخرى فى القارة الأفريقية. ووصل تركيز المناجم والمصانع فى منطقة ويت وترسراند إلى درجة تشابه تركيز المناطق الصناعية فى أوروبا وأمريكا الشمالية. ووجدت مدينة جوهانسبرج فى قلب منطقة الراند وهى ثانى أكبر مدن القارة بعد القاهرة وخرج الذهب من الراند إلى المؤسسات البنكية العالمية وربط جنوب أفريقيا بشبكة المال والتجارة العالمية، ولكن تم توزيع أرباح هذا الخام المادى بطريقة غير عادلة بالمرّة. كما أن البيض أنفسهم لم يصلوا إلى مستوى معيشة مرتفع إلا تدريجيا. ولم يحصل الأفريقيون نظرا للونهم إلا على الفتات، كما لم يحدث التغيير السياسى أبدا بنفس معدل التقدم الاقتصادى. فلقد فرضت قيود على الزعماء البيض للالتزام بسياسات ووجهات نظر تعود جذورها إلى القرن التاسع عشر، بل وإلى ما قبل ذلك. ولم يستطيعوا لذلك إقرار سياسات ملائمة لمواجهة التوترات العرقية المتزايدة بعد أن دخلت أعداد متزايدة من الأفريقيين إلى عالم الاقتصاد المتقدم.

جنوب أفريقيا بعد حرب البوير

شعر البريطانيون بعقدة ذنب شديدة نظرا للأسلوب الذى تعاملوا به مع جمهوريتى البوير الصغيرتين، وذلك بعد هزيمتهم لجمهورية جنوب أفريقيا (الترنسفال) ودولة أورانج الحرة، ولذلك حاولوا استمالة المهزومين بتلبية طلباتهم ومنها تلك الخاصة بالوضع السياسى للأفريقيين. واعتبرت بريطانيا أن تقديم التنازلات للبوير أكثر أهمية وإلحاحا بكثير من حماية المصالح الأفريقية ولذلك أعطت إحدى بنود معاهدة سلام فيرننج عام ١٩٠٢ الحق للبيض فى الترنسفال ودولة أورانج الحرة المهزومتين فى تحديد منح أو رفض الحقوق الانتخابية للأفريقيين.

وحينما منحت بريطانيا حق الحكم الذاتى للمنطقتين عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ عادت السلطة السياسية إلى أيدي البوير مرة أخرى وتم استبعاد غير البيض نهائيا من كل الحقوق الانتخابية.

ولذلك انتقل النقاش الخاص بالحقوق الأفريقية آنذاك من بريطانيا إلى المستعمرات الأوروبية ذاتها. ورغب الزعماء السياسيون فى تلك المستعمرات فى إنشاء اتحاد. ورغبوا بهذا الأسلوب إنهاء كل المشاكل التى أدت إلى الحرب، وتنمية التطور الاقتصادى والسياسى لجنوب أفريقيا كلها، وكان جوهر فكرة الوحدة لكل رجل سياسة أبيض هو تطوير سياسة موحدة تجاه الأفريقيين، وكتب زعيم البوير ورجل السياسة المقبل جان سميث عام ١٨٩٢:

"وسوف يحتل الصراع العرقى فى القارة الأفريقية درجة لم يشهدها العالم من قبل، ولذلك فإن مجرد التفكير بذلك مثير للإزعاج. ولذلك يجب أن تتوحد جبهة الرجل الأبيض فى ذلك الصراع. ليس من أجل الحصول على النصر ولكن لتجنب (أو على الأسوأ: تأجيل) الإبادة."^(٤٣)

W.K Honcock, Smuts, Vol.I (Combridge 1962), P.30 (٤٣)

ولذلك وجب التوفيق بين ثلاثة وجهات نظر بيضاء مختلفة تجاه الأفريقيين من أجل إتمام الوحدة. وكانت وجهة النظر الأولى هي التقاليد الليبرالية لمستعمرة رأس الرجاء الصالح. أما الثانية فهي سياسة الباسكاب، وهي كلمة هولندية تعني عدم المساواة، مثلما طبق فعلا في الترتسفال ودولة أورانج الحرة. وكانت الثالثة هي سياسة الفصل العنصرى، أى أن يعيش البيض والسود فى مناطق مختلفة. وقد حاول الحكام البريطانيون تطبيق تلك السياسة فى بعض المناطق فى ناتال ومستعمرة رأس الرجاء الصالح بالإضافة إلى المحميات الثلاث فى باسوتولاند وبتشوانالاند وسوازى لاند، ووجدت مشكلة إضافية هي إيجاد سياسة مشتركة للتعامل مع الهنود، إذ وجد حوالى ١٠٠,٠٠٠ منهم فى ناتال و ١٠,٠٠٠ آخرون فى الترتسفال عام ١٩٠٠.

وكانت تقاليد مستعمرة رأس الرجاء الصالح الليبرالية قد ورثت من الحكومة الاستعمارية البريطانية لتلك المستعمرة التى قبلت كمواطنين هؤلاء الأفريقيين وباقي الملونين الذين يلائمون المستويات البيضاء. وطبقا لهذا النظام يمكن للأفريقيين المثقفين الذين يمتلكون أو يؤجرون ممتلكات ذات قيمة معينة أن يسجلوا أنفسهم كناخبين للبرلمان، وكون الأفريقيون ٤,٧ بالمائة من ناخبى مستعمرة رأس الرجاء الصالح عام ١٩٠٩، ودافع زعماء مستعمرة رأس الرجاء الصالح عن هذا النظام ليس لأسباب مثالية ولكن لأغراض عملية أيضا. وذكر ميرمان أحد السياسيين الليبراليين المميزين أن حق الانتخاب غير العرقى عبارة عن "صمام أمان" إذ أن عدم الاعتراف بحقوق انتخابية للأفريقيين على الإطلاق سوف يكون بمثابة "البناء فوق بركان". وعبر ساور أحد زعماء تلك المستعمرة عام ١٩٠٤ عن مفاهيم أكثر ليبرالية حينما قال: "لا أعتقد أن الطبقة التى لا تمثل فى البرلمان فى نظام انتخابى سوف تحصل أبدا على عدالة سياسة.

وذلك لأن الغرض هنا هو تنمية المصالح المادية وبالتالي فإن الطبقة بدون تمثيل انتخابى سوف تعاني كثيرا، وأيد العديد من الأفريقيين المثقفين ليبرالى

مستعمرة رأس الرجاء الصالح نظرا لرغبتهم في الحفاظ على امتيازاتهم التي حصلوا عليها بشق الأنفس (مثل الاستثناء من قوانين حظر الانتقال). وشعروا أنهم ابتعدوا عن معظم الأفريقيين القبليين، وأنهم أصبحوا بالتالي غرباء عنهم. وكان جون تتجوجا باثو المتحدث الرسمي لهؤلاء الأفريقيين نوى الحقوق وذلك لمدة حوالي ثلاثين عاما، وأنشأ في فترة مبكرة عام ١٨٨٤ جريدة المثورز ابانتسوند (أي الرأي الأفريقي) وبمساعدة مالية من للبيض من أجل التعبير الحقيقي لشعور الأفريقيين، ولكن كان نقد تلك الجريدة للبيض هادئا للغاية، كما أن جابافو نفسه في المستقبل السياسى للبيراليين قد اهتم كثيرا في أواخر حياته (توفى عام ١٩٢١).

أما سياسة الباسكاب فهي ببساطة فرض السيادة البيضاء مثلما طبقها المستعمرون الهولنديون منذ أول عهدهم عند حدود مستعمرة رأس الرجاء الصالح.

ثم أخذ البوير هذا المفهوم معهم عند هجرتهم إلى الشمال، ثم سجلوا ذلك رسميا في دستور جمهورية جنوب أفريقيا (الترنسفال) في ثلاثينيات القرن التاسع عشر حينما ذكروا "أن تكون هناك أدنى مساواة بين البيض والسود في الدولة أو في الكنيسة" ثم طبق العاملون في المناجم من إنجلترا وغيرها والذين وفدوا أفواجا إلى جنوب أفريقيا بعد اكتشاف الماس هذا المفهوم العنصرى بسرعة. وقاموا بحماية أجورهم العالية بفرض مفاهيم حاجز اللون الذى يمنع الأفريقيين من ممارسة العمل الماهر. ولكن أدت سياسة الباسكاب إلى اختلاط أجناس جنوب أفريقيا وليس إلى التفرقة بينهم فلقد رغب البوير في الحصول على أكثر المساحات الممكن الاستيلاء عليها في الأراضى الأفريقيين. وتماما مثل العاملين في المناجم فإنهم قد نظروا إلى الأفارقة على أنهم مجرد قوى عاملة رخيصة ولا يحتاجون إلى أراض خاصة بهم.

وطبق الهولنديون في البداية ثم الحكومة الاستعمارية البريطانية فيما بعد سياسة الفصل العنصرى بين البيض والأفريقيين. ولكن انهارت تلك السياسة نظرا

لاستحالة السيطرة على الحدود. ولكن ظهرت مشكلة جديدة وهى مشكلة المستوطنات الأفريقية التى لجأ إليها الأفريقيون للإقامة بها والتى حلت محل مشكلة الحدود القديمة فى نهاية القرن التاسع عشر، وأدى ذلك إلى قيام حكومة مستعمرة رأس الرجاء الصالح بتحديد حدود مناطق الاستيطان الأفريقى المسماة بالترانسكاى. ثم أنشئت محميات بريطانية فى باسوتولاند، وبتشوانالاند وسوزاى لاند. وأوصت لجنة رسمية بريطانية والتى أمر المندوب السامى البريطانى اللورد ملنر بإنشائها عام ١٩٠٥ بعد حرب البوير بتطبيق سياسة الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا كلها. ولكن لاحظ ميريمان السياسى من مستعمرة رأس الرجاء الصالح البارز أن تلك السياسة قد تأخر تطبيقها قرنا كاملا من الزمان ويستحيل تنفيذها حاليا. وقبل أنصار سياسة الباسكاب من جهة أخرى، والذين كانوا قد عارضوا سياسة الفصل العنصرى عام ١٩٠٥، تلك السياسة بعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ. ولكن تناقشت آنذاك مساحات الأراضى التى يمكن للأفريقيين أن يعيشوا عليها منفصلين تماما عن البيض وذلك لزيادة أعدادهم بدرجة كبيرة آنذاك.

ثم ظهرت مفاهيم العرقية السائدة فى هذا العصر أيضا تجاه السكان الهنود فى كل من ناتال والترنسفال. ويعتمد الاقتصاد فى ناتال على زراعة المحاصيل المنتجة للسكر وأثبت العمال الزراعيون الهنود منذ عام ١٨٦٠ على أنهم يعملون بجهد كبير ولا يشكون إطلاقا أثناء عملهم فى المزارع. ولذلك تم تشجيع الذين يرغبون منهم فى الاستقرار الدائم فى جنوب أفريقيا بعد انتهاء عقود عملهم بالإقامة الدائمة هناك ولكن تحول بعض هؤلاء الهنود إلى أعمال التجارة وممارسة أوجه نشاط الخدمات المتنوعة، ثم بدأوا فى التوغل إلى الترنسفال وبالذات فى الأعوام التالية لحرب البوير فى جنوب أفريقيا، ولكن نظر إليهم العمال الهولنديون والبريطانيون الأقل مهارة بريبة وحذر لكونهم منافسين خطرين فى منطقة الويت وترستراند، ولذلك سرعان ما سنت القوانين المانعة لتدفق هجرة الهنود، بل طلب من كل الموجودين فى الترنسفال أن يقوموا بتسجيل أنفسهم، وكانت محاولة غاندى

تجنب تطبيق هذا القانون المسمى بالقانون الأفريقي الأساس الذي بنى على أساسه سياسة السائيا جراها أى "المقاومة السلبية" الحازمة والتي طبقها بعد ذلك بنجاح هائل فى الهند البريطانية ولكن تعرض غاندى للسجن لأول مرة عام ١٩٠٨ وذلك لرفضه السلمى بتسجيل نفسه كمهاجر هندى فى الترنسفال فى ذلك العام.

الاتحاد عام ١٩١٠

أثبت السكان البيض فى المستعمرتين الشماليتين وناتال أثناء المفاوضات التى أدت إلى قيام الاتحاد أنهم أكثر تصميمًا لمنع انتشار الأفكار الليبرالية أكثر من مندوبى مستعمرة رأس الرجاء الصالح الذين يروجون لها. وتم التوصل إلى حل وسط فى المؤتمر العام المنعقد فى ١٩٠٨ - ١٩٠٩ والذي تم بواسطته انتخاب أول برلمان للاتحاد على الأسس الاستعمارية الموجودة سابقًا. ويعنى ذلك أن الأفريقيين المؤهلين يمكنهم الانتخاب فى مستعمرة رأس الرجاء الصالح بينما لن توجد أى حقوق سياسية للأفريقيين فى ناتال والترنسفال ودولة أورانج الحرة. ولكن تم الاتفاق أيضا على أنه لا يمكن لأى أفريقى أن يرشح نفسه للبرلمان حتى فى مستعمرة رأس الرجاء الصالح. ونجح ممثلوا مستعمرة رأس الرجاء فى ضم الأسس الأصلية للمستعمرات فى دستور الاتحاد بحيث لا يمكن تعديلها إلا بواسطة أغلبية الثلثين فى مجلس النواب والشيوخ فى جلسة مشتركة لهما. ولكن لم يكن ذلك أبدا ضمانا مؤكدا للغاية، كما أن الحل الوسط قد نظر إليه الأفريقيون على أنه صدمة هائلة بالنسبة لهم. وانضم جابافو فى تلك الحالة مع مواطنيه الأكثر تشددا وحاول مقاومة صورة الوحدة التى اتفق عليها المؤتمر العام. وذكر أحد الاجتماعات الأفريقية العديدة التى عقدها الأفريقيون آنذاك أننا نلاحظ للأسف أن الاتحاد المقبل سوف يكون اتحاد جنسيين وهما (البريطانيون والأفريقيون) والأفارقة مستبعدون تماما، وأيد أحد الليبراليين البيض وهو د. شرانير تلك

الاحتجاجات الأفريقية. وكان الوحيد في مجتمعة الذي شعر أن الحقوق الإنسانية أهم من الاتحاد.

إن إقرار الحدود في دستور جنوب أفريقيا للفصل بين شعبها على أساس اللون وبحيث يتكون من طبقة أو فئة مميزة وفئة برولتارية يشابه عملية بناء مبنى كبير على أسس هشة غير ثابتة، ولذلك يجب أن يوجد مجال للعديد من الشعوب الحرة في اتحادنا في جنوب أفريقيا كما لا يجب أن يوجد مجالا لغير الأحرار والذين لا يمكنهم الترقى^(٤٤) وتوجه وفد يشمل شراينر وجابافو إلى لندن ولكنه فشل في إقناع الحكومة البريطانية في تغيير دستور الاتحاد المقترح بأي وسيلة كانت، ولذلك أنشأ اتحاد جنوب أفريقيا يوم ٣١ مايو ١٩١٠. ونكرت الحكومة البريطانية أنها لا يمكنها التدخل في قرارات المؤتمر الوطني ولكنها أعلنت أن المحميات البريطانية الثلاث في باسوتولاند، بوتشوانالاند وسوزاي لاند لن تضم أبدا إلى دولة جنوب أفريقيا إلا بعد معرفة كيفية عمل المفاهيم العرقية في الدستور عمليا.

ولكن عاد جابافو إلى تحالفه مع السياسيين البيض في مستعمرة رأس الرجاء الصالح بينما أنشأ أفريقيون آخرون نشطون سياسيا المؤتمر الوطني الأفريقي (الجنوبي) عام ١٩١٢ وذلك كهيئة اتحادية شاملة لحماية المصالح الأفريقية، وأصبح سولامون بلاتي، أحد الصحفيين والكتاب التساوانا المتقنين للغاية الأمين العام للمؤتمر وكان أول تشريع يرفضه هذا المؤتمر هو قانون الأراضي الأفريقية والذي منع الأفريقيين من الحصول على أراضى خارج مناطقهم الخاصة وكتب بلاتي بالنسبة لهذا القانون "وحيثما استيقظ الأفريقي في صباح يوم الجمعة ٢٠ يونيو ١٩١٣ فإنه قد وجد نفسه غريبا طريدا في بلاده الأصلية".

ولكن كتب جابافو مؤيدا للقانون لأن مقرره كان ساور أحد الليبراليين في

W.P Schreiner To J.C.Smuts August 1908, selections from Smuts Papers. Vol.2ed.W.K (٤٤)
(Cambridge 1966), 450

رأس الرجاء الصالح فى الحكومة، وكان ذلك نهاية تأثير ونفوذ جابافو على مواطنيه الأفريقيين. ويعنى فشله فشل التيار الليبرالى بصفة عامة. وتأثرت المفاهيم الليبرالية تماما نظرا للتشريعات غير العادلة لحكومة الاتحاد، ولذلك لخص أحد المؤرخين الأفريكانز بعد خمسين عاما الاتجاهات السائدة فى جنوب أفريقيا فى ذلك العصر قائلا:

"ويعتبر الأمر الأكثر أهمية أن مفاهيم قانون الاحتواء الأفريقى والوصول إلى حل وسط" قد مكنت جمهوريتى الترنسفال ودولة أورانج الحرة السابقتين من فرض آرائها تماما على الاتحاد وسيادة تقاليدهم ومبادئهم تماما، ويعتبر ذلك صحيحا تماما بالنسبة للمبدأين الأساسيين اللذين يعتبران الدعائم التى شيد عليها الشعور الوطنى لشعب الأفريكانز وهما: النظام الجمهورى وتطبيق نظرية عدم المساواة بين البيض والسود تماما.^(٤٥)

سمطس وهرتزوج

عمل سمطس تحت رئاسة الجنرال بوثا إلى عام ١٩١٩، ثم أصبح رئيس وزراء الاتحاد، وكان رجلا واسع الثقافة وذا أفكار صائبة دقيقة فى مجال الدين والفلسفة والعلوم. وأصبح عضوا فى وزارة الحرب البريطانية عام ١٩١٧ أثناء الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا، ثم اشتهر منذ ذلك التاريخ إلى وفاته عام ١٩٥٠ بأنه رجل سياسة من الطراز الأول واشتهر عالميا. وكان صديقا مقربا من السير ونستون تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية وأحد مؤسسى هيئة الأمم المتحدة ولكنه للأسف لم يتميز أبدا بأية أفكار بناءة فيما يتعلق بالمشكلة العرقية والتى كان يمكنها الاستفادة من علمه الغزير، وكتب إلى مريمان عام ١٩٠٦:

(٤٥) D.W.Kruger: the Age of the General (Johansberg, 1961) PP.9-10

"إننى أتعاطف تماما مع الشعوب الأفريقية المحلية فى جنوب أفريقيا، وأعرف تماما أنهم يمتلكون هذه البلاد منذ فترة طويلة قبل مجيئنا وأتأنا طردناهم منها، ولذلك أعتقد أنه من واجب جميع الأحزاب أن تكون عادلة تماما مع الأفريقيين، وأن يتخذ كل حزب كل الإجراءات الحكيمة والحريصة من أجل تنمية حضارتهم وتحسين أحوالهم. ولكننى على العكس لا أعتقد أبدا أن لهم دورا فى الحياة السياسية... وحينما أفكر فى المستقبل السياسى للأفريقيين فى جنوب أفريقيا فإننى أرى الظلال الداكنة والظلام الدامس. ولذلك أميل إلى الاعتقاد إلى نقل الأعباء غير المحتملة لتلك المشكلة العويصة إلى أكتاف أقوى وذكاء أكبر لجيل آخر فى المستقبل وتكفى لأيماننا الحالية شرورها.^(٤٦)

وساد الهدوء الأعوام العشرة الأولى من عمر الاتحاد ولكن أصبحت المشاكل العرقية أكثر صعوبة آنذاك، كما لم يستطع الجيل الجديد من البيض حلها. ولذلك كانت السياسة الأفريقية لكل من بوتا وسمطس تميل إلى الاضطراب وعدم الفاعلية. وتكونت من خليط من سياسة الباسكاب وقوانين الفصل العنصرى وقوانين منع المرور، كما لم تتفد كثيرا توصيات لجنة ملنر الخاصة بالفصل.

واحتل عمال المناجم البيض منطقة الراند عام ١٩٢٢ وهاجموها نظرا لأن ملاك المناجم قد هددوا باستخدام موظفين أفريقيين كعمال مهرة بأجور أقل من العمال البيض، واضطر سمطس فى نهاية الأمر إلى إرسال الجنود للقضاء على الثورة. ولذلك هزم تماما فى انتخابات عام ١٩٢٤ أمام تحالف من حزب العمال الذى يمثل فئة العمال البيض الثائرين والحزب الوطنى للأفريكانرز وكان الجنرال هرتزوج قد أنشأ هذا الحزب عام ١٩١٣ وكان الأخير من أكثر السياسيين البيض نزاهة بالرغم من كونه أحد مؤسسى حركة التفرفة العنصرية. وذكر بذكاء بالغ أن الخوف البالغ من الانهيار أمام أعداد الأفريقيين الهائلة هو أساس موقف البيض وتصرفاتهم وقال:

(٤٦) Hancock Smuts Vol.T.P.221

"إن الأوروبي يتصرف بحزم وشدة مع الأفريقي لأنه يخشاه ويخاف منه إنها غريزة حب البقاء القديمة. وكانت النتيجة المباشرة لذلك هي عدم مساعدة الأفريقيين على التقدم إطلاقاً". وكانت سياسته بالتالي هي الفصل بين العرقين بحيث يتم في النهاية إنشاء جنوب أفريقيتين: إحداهما بيضاء والأخرى سوداء. ويعتقد أيضا أنه إذا تم منع الأفريقيين من الحقوق السياسية والحقوق الأخرى في الاتحاد فإنه يجب تعويضهم في صورة منحهم مساحات أكبر من الأراضي ومقدارا معيناً من الحكم الذاتي.

ولكن لم يتخل هرتزوج أبدا عن مبادئه الأفريكانية وأيد تماما سيادة لغة الأفريكانرز في جنوب أفريقيا كلها، ولكنه رحب تماما أيضا بالتصالح بين العناصر الهولندية والبريطانية من السكان البيض.

ولذلك وافق هرتزوج على الدخول في تحالف مع سمطس حينما أدت الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى بين ١٩٢٩ - ١٩٣٣ إلى المطالبة بقيام حكومة وطنية تتكون من زعماء أهم الحزبين طبقا لرغبة الناخبين البيض، وانضم بالتالي معظم أعضاء الحزب الوطني الأفريقي التابع لهرتزوج ومعظم أعضاء حزب جنوب أفريقيا التابع لسمطس لإنشاء الحزب المتحد الذي استمر في الحكم إلى عام ١٩٤٨، ولكن اضطر سمطس إلى قبول حل وسط وهو تأييد قانون تمثيل الأفريقيين عام ١٩٣٦، والذي تم بمقتضاه إنها تسجيل الأفريقيين المؤهلين كناخبين في جدول الانتخاب المشترك مع البيض في منطقة رأس الرجاء الصالح. واقتصر دور هرتزوج في قبول الحل الوسط على تغيير سياسته المعادية لبريطانيا سواء داخل جنوب أفريقيا أو في الكومنولث، ووجد آنذاك شخص من أتباع سمطس يتمتع بالذكاء الشديد والشعور الديني العميق والذي هاجم قانون عام ١٩٣٦ ويسمى جان هوفماير، والذي كتب قائلا:

"إننا نغرس بهذا القانون بذور حرب محتملة ذات تأثيرات أكبر بكثير من أى شيء حدث حتى الآن. فلدينا الآن العديد من الأفريقيين المثقفين ونصف المثقفين فى جنوب أفريقيا. وصل العديد منهم إلى المستويات الأوروبية كما تتقدم أعداد أكبر الآن. وتم تدريبهم طبقا لوسائل التدريب الأوروبية وتعلموا كيف يفكرون ويعملون كأوروبيين. وربما لن يعجبنا ذلك ولكنها الوقائع الحقيقية السائدة الآن، ولكن ما هو المستقبل السياسى لهؤلاء الناس؟ ويقول هذا القانون لهؤلاء الأفريقيين إنه لا مكان لكم هنا. ولذلك يجب أن تعودوا إلى شعبكم ولكننا نعيدهم كأعداء وغازبين، ولذلك لا تتسوا ما أقوله الآن إن هذا القانون يحول هؤلاء الأفريقيين المثقفين إلى زعماء لشعوبهم فى الغضب والثورة. (٤٧)

ولكن لم يهتم أحد بتلك الكلمات بالرغم من كون هوفماير وزيرا فى حكومات هرتزوج سمطس، وكان الوطنيون الأطهار التسعة عشر أهم بكثير من هوفماير فى المفاهيم الانتخابية لجنوب أفريقية ورفض هؤلاء التسعة عشر بقيادة د. ف مالان الانضمام للتحالف، وطلب مؤيدو مالان اتخاذ إجراءات أشد لتأمين مستقبل الرجل الأبيض فى جنوب أفريقيا ولكنهم لم يكونوا مهمين للغاية سياسيا عام ١٩٣٤ حزما لتأمين مستقبل الرجل الأبيض ولكن "يوجد العدو دائما ناحية اليمين" فى المجتمعات المنقسمة عرقيا وحيث تستولى أقلية على السلطة، ويعنى ذلك خطر المتشددىين اليمينيين. ولكن وجد مستقبل جنوب أفريقيا فى أيدي هؤلاء التسعة عشر المتطرفين والذين سوف يريح خلفاؤهم الحزب المتحد من السلطة عام ١٩٤٨ ويبدأون فى إقرار وتنفيذ موجة جديدة من القوانين العنصرية الجائرة.

Alan Paton, Hofmer (Cape Town 1964) PP.227-8 (٤٧)

الآلام الأفريقية

وصلت الشكاوى الاقتصادية والسياسية للسكان الأفريقيين إلى عام ١٩٣٩ لدرجة أن الثورة لم تستبعد أبدا آنذاك. وتعتمد ثورة جنوب أفريقيا أساسا على مناجم الذهب والأخيرة على العمالة الأفريقية الرخيصة. ولكن يأخذ العمال الأفريقيون في المناجم وأيضا في أعداد متزايدة من الأعمال الصناعية على حوالى ثمن أجر الرجل الأبيض. وكانت منازلهم في المعازل، وكانوا يحضرون للعمل في مدن البيض بدون عائلاتهم، ولم يهتم أصحاب العمل البيض عادة بتلك المصاعب التى تعاني منها العائلات الأفريقية اجتماعيا وأخلاقيا، كما أن مساحة الأرض المتروكة للأفريقيين كانت لا تكفى إطلاقا لإعالتهم، وكون الأفريقيون حوالى ثلاثة أرباع سكان جنوب أفريقيا عام ١٩١٣ ولكنهم لم يملكوا إلا أحد عشر بالمائة من الأرض ثم زادت تلك النسبة بصعوبة بالغة إلى ثلاثة عشر بالمائة فى نهاية ستينيات القرن العشرين، حينما اشترت لهم الحكومة أرضا إضافية بموجب تشريع هرتزوج عام ١٩٣٦، ولكن كان العديد من الأفريقيين قد غادروا مستوطناتهم البائسة للإقامة الدائمة فى العشوائيات المبنية عند ضواحي مدن البيض. ولذلك أقام أكثر من مليون أفريقى (٢٢%) فى المدن عام ١٩٣٦. وعمل مليونان آخران فى مزارع البيض وخضعوا لهم تماما.

فأخذوا رواتب ضئيلة لا تكاد تكفى إلا لسداد ضرائبهم. ولكن ارتفعت أسعار معظم السلع التى يشتريها الأفريقيون بنسبة ٥٠% فيما بين الحربين العالميتين، بينما ظلت أجورهم ثابتة لا تتغير. ولم تتوافر وسائل إضافية للأفريقيين لزيادة رواتبهم أو تحسين ظروف عملهم، فلقد حددت كلها بقوة القانون. كما كان الإضراب جريمة كبرى لا تغتفر. وقيدت كل تحركات الأفريقيين بواسطة قوانين المرور أو العبور ويعنى ذلك إلزام كل أفريقى بحمل العديد من التصاريح للعبور من مكان لآخر ولذلك كتبت جريدة النجم فى تاريخ مبكر عام ١٩٣٩ قائلة: "يعيش الأفريقى فى زحام بالغ فى الريف، كما لا يسمح له بالإقامة الدائمة فى المناطق

الحضرية. ويتم استغلاله أيضا في كل الأمور ويتم تفتيشه عند كل قارعة طريق ويعانى من مشاكل من جميع الأنواع سواء ظل في موطنه أو ابتعد عنه.

ولكن لم تتسم ردود الأفعال الأفريقية لظروف التمييز والحظر أبدا بأى مفاهيم ثورية على الإطلاق. فلم يوجد للمؤتمر القومى الأفريقى إلا نفوذ قليل أو سلطة على الأفريقيين خلال فترة ما بين الحربين العالميتين، ولكن استمر هذا الحزب فى عقد مؤتمراته عاما بعد آخر عند ضواحي مدينة بلومفانتين ولكن كان عدد أعضائه أقل من ٤٠٠٠ عضو عام ١٩٣٨، وكان لحزب الاتحاد التجارى والصناعى الذى أنشأه عام ١٩١٩. كلينمنتس كادالى وهو أحد الموظفين الطموحين فى نياسالاند أهمية أكبر آنذاك، ولذلك وصل عدد أعضائه فى وقت ما إلى ٢٠٠,٠٠٠ ولكنه لم يكن فعالا. فلقد كان تنظيمه المركزى ضعيفا، كما لم يستطع العمل بين عمال المناجم وهم الأكثر أهمية. فلقد سيطر أصحاب العمل تماما على عمال المناجم الأفريقية.

وتعرض الحزب تماما مثل غريمه حزب الاتحاد الوطنى إلى الخلافات العميقة والانشقاقات بين الشيوعيين والأعضاء الأكثر اعتدالا. ولذلك فشل فى التأثير على الحكومة فى شئون العمل والعمال تماما مثلما فشل حزب الاتحاد الوطنى فى أثناء هرتزوج عن هدفه الخاص بالفصل العنصرى.

وتميز الأفريقيون بضبط النفس والتسامح تجاه المجتمع الأبيض. والذى ازداد ارتباطهم به اقتصاديا بطريقة متزايدة. ويعتبر السبب أن جنوب أفريقيا هى أكثر الدول ثراء على الإطلاق فى أفريقيا كلها كما أن الأجور الأفريقية بالرغم من كونها منخفضة بالنسبة لأجور البيض إلا أنها كانت أعلى من أى مكان آخر فى القارة. فلقد وجدت أحوال أكثر فى جنوب أفريقيا لإنفاقها على التعليم الأفريقى على المدارس الثانوية على الأقل. وتميز هذا التعليم بالجدية وارتفاع المستوى، ولذلك لم

يطلب الأفريقيون أكثر من أن يكون لهم نصيبا أكبر فى ثروة بلادهم وأن يكونوا مواطنين كاملين بها.

ولذلك كانت وطنيتهم معتدلة للغاية مقارنة بجدية الوطنية الأفريكانية التى كانت تنمو فى الوقت نفسه. وشعر العديد من الشباب الأفريقى بوجود مستقبل أفضل لهم. فما زال يوجد مجال للتفاهم بين الأعراق، وإذا ما رغب البيض حقا فى إنشاء أمة متعددة الأعناس فكان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك حتى ذلك الوقت. ولكن اتجهت آراء سكان جنوب أفريقيا البيض، كما رأينا سابقا، فى اتجاه آخر معاكس تماما وبسرعة بالغة، ولكى يتم انتخاب أحد المرشحين الطموحين فى دائرة بيضاء وجب عليه التشدد أكثر من منافسيه فى المسألة العرقية ودائما فى اتجاه أقصى اليمين. ولذلك وبالرغم من الهدوء الظاهرى فإن النوايا الحسنة كانت آنذاك فى تراجع مستمر.

جنوب غرب أفريقيا

وعرفنا فى الفصل الثالث عشر أن مستعمرة جنوب غرب أفريقيا الألمانية قد أصبحت تحت إشراف عصبة الأمم تحت إدارة جنوب أفريقيا. ولكن تم إدارة تلك البلاد عمليا على أنها جزء من اتحاد جنوب أفريقيا وتم القضاء على المقاومة المحلية بقوة السلاح. وعارض البوند لسونتس، وهم جماعة من شعب الناما عام ١٩٢٢، والذين استولى الألمان على معظم أرضهم ضريبة الكلاب فلقد كانت الكلاب بالنسبة لهم ذات أهمية كبرى فى أعمال حراسة قطعان الماشية والصيد. وأرسلت قوات شرطة ضدهم وتم إلقاء القنابل على قراهم. وعلقت الشرطة على تلك الحادثة قائلة:

"إن آثار هذا الدرس الذى تم تعليمه فى تلك الحملة القصيرة سوف تكون لها

تأثير لا ينسى فى مخيلة الذين لجأوا إلى حمل السلاح وخالفوا بذلك كل سلطة شرعية، بالإضافة إلى تأثير ذلك على القبائل الأفريقية فى تلك المناطق أيضا.

واشترى المزارعون الجنوب أفريقيون المهتمون بملكية الأرض المزارع الرخيصة فى جنوب غرب أفريقيا، كما قامت الحكومة بتقديم القروض لشراء الأرض والمعدات أيضا. ولذلك وجد حوالى ٣٢,٠٠٠ مستوطن عام ١٩٣٥ (وبعضهم من الألمان الذين بقوا) كما أن ثلث أراضى البلاد تقريبا كانت فى أيديهم. وكان معظم الباقي صحراء جرداء، واضطر الأفريقيون للإقامة فى المستوطنات والعمل لدى الرجل الأبيض لكسب الأموال الكافية لسداد ضرائبهم. ولذلك فلقد رحل سيد قاس وهم الألمان ليحل محله آخرون مثله وهم بيض جنوب أفريقيا.

الفصل السادس عشر

آخر أعوام الحكم الاستعماري

تعتبر الحرب العالمية الثانية النقطة الفاصلة في التاريخ الأفريقي الحديث، وكان معدل التغيير في أفريقيا منذ إنشاء الحكم الاستعماري في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ثابتاً ومعتدلاً قبل نشوبها. ولكن زاد هذا المعدل بسرعة هائلة بعد انتهاء تلك الحرب ولم يكن في الاستطاعة السيطرة عليه.

وخضعت أفريقيا كلها لنوع من أنواع الحكم الأوروبي عام ١٩٣٩. فلقد احتل الإيطاليون أثيوبيا. وظلت القوات البريطانية في مصر في منطقة قناة السويس، وخضعت ليبيريا عملياً لشركة مطاط فاير ستون الأمريكية، وكان اتحاد جنوب أفريقيا دولة مستقلة داخل الكومنولث البريطاني ولكن تمتع سكانه الأفريقيون والآسيويون بحرية أقل من سكان المستعمرات، وبدا الحكم الاستعماري ثابت الدعائم في كل مكان، وامتلك كل منطقة مستعمرة قوات شرطة وقوات عسكرية كافية لمواجهة أية اضطرابات وكل المواقف. ولكن كان عدد الرجال المسلحين قليلاً بطريقة تدعو إلى الدهشة. فلقد وجدت حامية تتكون من ٤٠٠٠ جندي فقط في نيجيريا والتي يتعدى سكانها الـ ٢٠ مليوناً آنذاك وعدد مشابه من قوات الشرطة. ولكن وجدت وسائل مواصلات سريعة ولذلك كان بالإمكان إرسال إمدادات عسكرية من الخارج لمواجهة أي ظروف خاصة أو طوارئ. ولكن لم تحدث أي طوارئ في معظم المستعمرات لمدة عشرين عاماً. فلقد أصبحت الحكومات الاستعمارية قوية لدرجة لا يمكن لأحد أبداً أن يتحداها.

ولكن بدأ مبدأ الوصاية في السياسة الاستعمارية يؤدي بعض النتائج العملية

خلال العشرين عاما التي انقضت بعد الحرب العالمية الأولى. وارتبطت تلك السياسة بمبدأ الحكم غير المباشر فى المناطق الأفريقية البريطانية. وقدمت للمجتمعات الأفريقية المشاركة فى إدارة شئونها الخاصة على المستوى المحلى وذلك بواسطة سلطاتها المحلية التقليدية، وبدأت عملية أفرقة النظم المركزية فى الحكومات الاستعمارية فى مستعمرات غرب أفريقيا، وتولى عدد من الأفريقيين وظائف الإدارة مؤخرا كما انضم بعض النواب الأفريقيين إلى المجالس والمؤسسات التشريعية التى تقدم النصائح إلى السكان. ولذلك ذكر أحد ضباط الإدارة الاستعمارية البريطانية السابقين والذي تحول إلى مؤلف وكاتب بعد الحرب العالمية الثانية قائلا:

”لن نرحل من هنا غدا أو بعد غد، ولكن يشرف حاكم كل مستعمرة الآن على عملية تصفيتهما- كمستعمرة وسوف تتحول فى نهاية الأمر إلى دولة مستقلة. ولكن كان خطأ كل السياسات الاستعمارية هو إنكار أهداف القدرات السياسية وطموحات النخبة المثقفة، وقدم الحكم غير المباشر فى المستعمرات البريطانية سلطات واسعة للغاية للزعماء التقليديين، وباقي أعضاء الأرستقراطيات العرقية التقليدية، ولكنها تركت الطبقة المثقفة الجديدة بدون أدنى تأثير سياسى أو مكانة اجتماعية. وكان يمكن للأفارقة المثقفين فى النظام الفرنسى تولى أعلى الدرجات فى الوظائف الحكومية الفرنسية بشرط الاندماج تماما مع فرنسا والحضارة الفرنسية مما يؤدى إلى قطع صلاتهم مع إخوانهم الأفريقيين.

ونرى أن الجيل الأول من الأفريقيين المثقفين رجال مثل كيسلى هيفورد فى ساحل الذهب، وبلير دياجن فى السنغال، وهربرت ماكولى فى لاجوس تنجو جابافو فى رأس الرجاء الصالح قد طالبوا بمشاركة النخبة الأفريقية المثقفة فى الحكومة المركزية، وقبلوا أيضا الفجوة الكبيرة بين المثقفين وغير المثقفين من جهة وبين المجتمع الزراعى التقليدى والمجتمع الحضرى المعاصر من جهة أخرى أيضا.

ولكن لم يحاول واحد منهم أن يقيم له أتباعا عديدين وربما لم يكن ينجح واحد منهم آنذاك إذا ما حاول ذلك. ولكن وجد قليلون فى الجيل الثانى من الأفارقة المثقفين، الذين فهموا تماما استحالة القيام بإصلاحات كبرى دون اتصال المثقفين الأفارقة بغير المثقفين، أما الأصغر سنا منهم مثل نكروما وسنجور فكانوا ما زالوا يدرسون فى أوروبا أو أميركا. ولكنهم سوف يعودون بالدرس نفسه والذى سيظل ثابتا تماما فى أذهانهم، ولكننا نشك تماما أنه لولا قيام الحرب العالمية الثانية والمتغيرات الهائلة التى أتت بها فى ميزان القوى العالمية أن يكون نكروما وجيله قد عاشوا ليروا استقلال أفريقيا وأنهم السبب المباشر فى ذلك. ولا شك أن الحصول على الاستقلال فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين بدلا من الثمانينيات أو التسعينيات قد كان بسبب هذه الحرب العاتية التى استمرت أكثر من خمسة أعوام وشملت العالم كله.

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وما بعدها

أدت تلك الحرب إلى زيادة أعداد الأفريقيين ذوى الوعى السياسى، فلقد قامت بريطانيا وفرنسا بتجنيد الجنود من أفريقيا كلها ثم توجهوا للقتال فى إثيوبيا وشمال أفريقيا وإيطاليا وضد اليابانيين فى بورما، وكان العديد من الأفريقيين الذين أصبحوا جنودا لم يغادروا بلادهم الأصلية قبل ذلك، بل أيضا مناطق إقامتهم المحلية، ولكنهم أثناء خدمتهم العاملة وبالرغم من المخاطر والمصاعب إلا أنهم كانوا يحصلون على تغذية وملابس جيدة وأجور جيدة نسبيا، وتعلموا أن يشاهدوا بلادهم من وجهة نظر أخرى من الخارج، وفهموا بالتالى أن أوضاعهم ليست جيدة بالمرّة. وتعلم العديد منهم قراءة الجرائد والاستماع إلى نشرات الأخبار فى المذياع والاهتمام بالشئون الدولية.

وكانت أول أخبار الأحداث الكبرى التي وصلتهم هي سقوط فرنسا واحتلال ألمانيا قلبها في شهر مايو ١٩٤٠ واحتلت ألمانيا بعد ذلك كل من بلجيكا وهولندا وقامت حكومات لها في المنفى في بريطانيا، وأدى ذلك إلى لطمة كبيرة للهيبة الاستعمارية الأوروبية، وخلال فترة مبكرة للغاية من الحرب اشترك جنود من شرق وغرب أفريقيا في استرداد أثيوبيا من الإيطاليين وهزيمتهم، كما اهتموا تماما بعودة الإمبراطور هيتلر إلى عرشه. وعلموا بعد ذلك بانهيار الإمبراطوريات الأوروبية لبريطانيا وفرنسا وهولندا في جنوب شرق آسيا أمام الزحف الياباني عام ١٩٤٢ كألواح من القش في مهب الريح. ولم تبق إلا الإمبراطورية البريطانية في الهند لتواجه خطر الغزو من الشرق.

وانتقلت الخلافات السياسية التي أضعفت فرنسا كثيرا في بداية الحرب إلى المستعمرات الأفريقية الفرنسية في أفريقيا ذاتها، ولقد وقف معظم الحكام الاستعماريين الفرنسيين عام ١٩٤٠ مع حكومة فيشي الموالية للألمان في فرنسا المحتلة.

ولكن أيد حاكم تشاد، وهو فيليكس أيوبى وهو أحد السود في مستعمرة جيانا الفرنسية في أمريكا الجنوبية، حركة المقاومة الفرنسية الحرة بقيادة الجنرال دى جول، ثم انضمت أفريقيا الاستوائية الفرنسية كلها مع دى جول بحلول عام ١٩٤٢، وأصبح أيوبى الحاكم العام في برازافيل وتبعته بعد ذلك حكومات غرب أفريقيا الفرنسية، ومدغشقر ولكن بعد مؤامرات ومنازعات داخلية عديدة، وأدت تلك الخلافات بين الفرنسيين إلى إنقاص هيبتهم كثيرا في أعين رعاياهم الأفريقيين، ولكن كانت الحرب الأهلية بين حركة فرنسا الحرة وحكومة فيشي أكثر حدة في بلاد شمال أفريقيا، ولذلك نظر سكان المغرب العربى الكبير القريبون من الجيوش الأمريكية المحاربة في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط بتقاليدها المعادية للاستعمار على أنه محرر محتمل وأيد السلطان سيدى محمد فى مراكش بعد لقائه مع الرئيس الأمريكى روزفلت عام ١٩٤٣ حركة المقاومة الشعبية بطريقة علنية.

وتغير عالم ١٩٣٩ بطريقة لا يمكن تصورها عند انتهاء الحرب عام ١٩٤٥
فلقد هزمت كل من إيطاليا وألمانيا واليابان على التوالي. ولكن دفع المنتصرون
ثمنًا فادحًا للنصر وبالذات للذين احتلت أراضيهم ودمرت. أما بريطانيا فلقد انفتت
كل احتياطاتها المالية بل واستدانت للاستمرار في الحرب بمفردها في الغرب ضد
ألمانيا لمدة عامين كاملين قبل دخول الولايات المتحدة الحرب.

وبالرغم من أن بريطانيا وفرنسا قد ظلتا اسميًا مسيطرتين تمامًا على
إمبراطوريات واسعة، إلا أنه قد أصبح من الواضح تمامًا أن الزعامة العسكرية
والاقتصادية والسياسية قد انتقلت آنذاك من الأيدي الأوروبية الغربية إلى الدولتين
العظيمتين وهما أمريكا والاتحاد السوفيتي واللّتين عارضتا مبدئيًا المفاهيم
الاستعمارية، وشعرت الإمبراطوريات الاستعمارية بأول التهديدات في آسيا، حيث
تطور الوعي السياسي وانتشر التعليم أكثر من أفريقيا ولكن سوف تتأثر الأخيرة
أيضًا فيما بعد. ونعرف الآن في المراسلات الرسمية بين الحكومتين الأمريكية
والبريطانية في الأعوام الأخيرة من الحرب أنه قد تم الاتفاق على أن تحصل
المستعمرات الأفريقية للدول الأوروبية على استقلالها بنهاية القرن العشرين، وقبلت
الحكومات الفرنسية المتعاقبة بعد الحرب وجهة النظر السابقة تدريجيًا.

ولكن اتخذت بريطانيا خطوة هائلة عام ١٩٤٧ بتصفية إمبراطورياتها في
الهند، وقسمت شبه القارة الهندية بين الهند والباكستان اللّتين استقلتا في إطار
الكومنولث، ثم استقلت جزيرة سيلان بنفس الطريقة، بينما حصلت بورما على
استقلالها دون الانضمام إلى الكومنولث. ويبلغ سكان تلك البلاد أكثر من خمسمائة
مليون نسمة أي سبع سكان العالم آنذاك وحكم البريطانيون معظم تلك المنطقة منذ
القرن الثامن عشر ولكن ازدهرت عدة حضارات قديمة رائعة قبلهم هناك. وأضيف
تيار قوى من التعليم الغربي إلى تعاليم العلوم الوطنية ولذلك ظهرت المدارس
الابتدائية والثانوية في أفريقيا الاستعمارية على أنها مجرد البداية. فلقد تخرج
عشرات الآلاف من الخريجين من جامعات تلك البلاد الآسيوية. وشغلوا معظم

الوظائف العلمية والتخصصية المهمة منذ فترة طويلة وعملوا في كل المناصب باستثناء المناصب القيادية العليا في البلاد، ونمت الأحزاب السياسية ذات الطابع القومى المعاصر طوال نصف قرن، وأيدها مئات الآلاف بل ملايين الناس، ولذلك لم ير البريطانيون أبدا وجود أى تعارض بين انسحابهم من جنوب آسيا من جهة والاستمرار فى حكم مستعمراتهم الأفريقية لنصف قرن آخر من جهة أخرى. ولكن رأى الأفريقيون ذوو الثقافة السياسية تماما مثل شعوب جنوب شرق آسيا أن نهاية الإمبراطورية البريطانية فى الهند قد أنهت تماما عصر الاستعمار فى كل مكان فى العالم.

ولذلك بدأت وتيرة الأحداث تزداد سرعة فى أفريقيا بفضل حركة التحرر الأفريقية الآسيوية انطلاقا من جنوب شرق آسيا؛ حيث حصلت إندونيسيا على استقلالها من الهولنديين عام ١٩٥١ وبعد أن طرأت حركة المقاومة الفيتنامية الشيوعية المسلحة بقيادة هوشى منه الفرنسيين من الهند الصينية عام ١٩٥٤.

وبدأ النفوذ الأمريكى فى الظهور خلال تلك الفترة عبر مؤسسة هيئة الأمم المتحدة، ثم ازداد هذا النفوذ كثيرا بعد ذلك. وتولت هيئة الأمم المتحدة مسئولية الإشراف على إدارة المناطق تحت الوصاية السابقة لعصبة الأمم والتي عرفت منذ ذلك الوقت بمناطق تحت الوصاية وأرسلت لجانا منتظمة للتفتيش عليها وحثت الحكومة المسئولة على تميمتها، وتضمن ميثاق الأمم المتحدة إعلانا رسميا يقر حقوق كل الشعوب فى الحرية والعدالة، وتم قبول هذا الإعلان نظرا للضغوط الأمريكية المستمرة وضد رغبات الدول الاستعمارية، ولكن أدى انضمام الدول الآسيوية الجديدة إلى تغيير ميزان التصويت فى الأمم المتحدة بطريقة جذرية، فلقد وجدت آنذاك مجموعة من الدول الأصغر المطالبة دائما بإنهاء الاستعمار بأقصى سرعة فى كل مكان، وتولت الهند رئاسة المجموعة وطورت حكومتها مفهوم "الحياد الإيجابى" بين المعسكرين الرأسمالى والشيوعى أثناء عصر الحرب الباردة. وقام أول مؤتمر كبير لتلك الدول غير المنحازة فى باندونج فى إندونيسيا عام

١٩٥٥ وحضرته أيضا جمهورية الصين الشعبية. وكانت الدول الأفريقية المستقلة هي مصر وأثيوبيا وليبيا فقط وإن أرسلت أيضا معظم للحركات الوطنية في السودان مندوبين عنها، بالإضافة إلى ممثلين عن ساحل الذهب وجنوب أفريقيا والجزائر، وأعلن المؤتمر بيانه الشهير بأن الاستعمار في جميع صورته شر يجب إنهاؤه بسرعة، ودعا الدول الاستعمارية إلى منح الحرية والاستقلال للشعوب المستعمرة وامتدت حركة التضامن بين الدول الآسيوية ودول الشرق الأوسط إلى كل المناضلين السياسيين في كل أفريقيا جنوب الصحراء والذين عرفوا آنذاك أن لهم أصدقاء يساعدونهم في صراعهم، وتعتبر باتندونج بالنسبة للدول الآسيوية نهاية فترة الانتقال من الحكم الاستعماري إلى الاستقلال، واعتبره الأفريقيون نهاية آخر مرحلة فاصلة للحركة الثورية.

التطور: آخر مراحل عصر الاستعمار

لكن، وبالرغم من كل التغيرات على الساحة العالمية فإن الدول الاستعمارية مثل بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وحتى البرتغال قد دخلت جميعا بحماس بالغ آخر فترة حكمها في أفريقيا، واعتقدت تلك الدول كلها أنها سوف تستمر في الحكم حوالي خمسين عاما وإن كانت الفترة الحقيقية التي حكمتها فعلا نصف تلك الفترة، ولكن وجدت عدة أسباب أدت إلى هذا النشاط النهائي المتزايد. فلقد ازداد الطلب على المنتجات الاستوائية بطريقة هائلة خلال الحرب وارتفعت أسعارها كثيرا، وظلت مرتفعة طوال العقد التالي بعد انتهاء الحرب. كما تعلمت الحكومات الاستعمارية أثناء الحرب كيفية الحصول على نصيب أكبر بكثير من عائدات المزارعين الأفريقيين بإجبارهم على بيع منتجاتهم إلى هيئات تسويقية حكومية بأسعار أقل بكثير من أسعار بيعها في السوق العالمية، ولذلك ازدهرت إيرادات المستعمرات الأفريقية لأول مرة في تاريخها.

وبدا أنه سيحدث توسع كبير فى الخدمات العامة فى التعليم والصحة والخدمات الزراعية والبيطرية بالإضافة إلى كل أنواع الأشغال العامة، والأهم من ذلك أن الدول الاستعمارية قد قبلت لأول مرة أن تتفق جزء صغيراً من أموال دافعى الضرائب الأوروبية كمساعدة لتطوير المستعمرات.

ووجدت أسباب مختلفة لهذا السخاء. فمن جهة كان ذلك رد فعل للهجوم العالمى على الاستعمار ولذلك أصبح من الضرورى إثبات الفائدة العائدة على المستعمرات من ذلك الحكم، ولكن ظهرت من جهة أخرى أهمية تلك المستعمرات الاستوائية للدول الاستعمارية خلال فترة الحرب والفترة التالية لها، فلقد أصبحت كل الدول الاستعمارية مدينة لأمريكا واحتاجت لاستيراد المنتجات الأمريكية، ولكنها لم تنتج إلا القليل الذى تحتاجه أمريكا، ولذلك أصبح الدولار "عملة صعبة" بينما تحول الجنية الإسترلينى والفرنك الفرنسى إلى "عملات هشة". ولكن أنتجت المستعمرات الأفريقية المواد الأولية التى ترغب أمريكا فى شرائها ويمكن بالتالى أن تصب الدولارات إلى مناطق العملات الإسترلينية والفرنك وتدعمها بدلا من أن تذهب إلى المستعمرات المنتجة لها مباشرة، ويعنى هذا النظام إذن أن المستعمرات التى تبيع وتكسب بالدولار قد اضطرت إلى شراء نسبة كبيرة من استيرادها من الدول الاستعمارية بدلا من شرائها مباشرة من أمريكا إذ فضلت ذلك. ولكن أدى هذا النظام إلى استفادة المستعمرين ذاتهم مما جعلهم يستثمرون أموالهم الخاصة فى التطور الاستعماري من أجل زيادة إنتاجية مستعمراتهم.

وفيما يتعلق بأفريقيا البريطانية، فلقد طبق منذ فترة مبكرة عام ١٩٤٠ قانون يسمى بالقانون الخاص بالشئون الاجتماعية والتطور الاستعماري، ولكن كان الأمر نوايا حسنة فقط نظرا لظروف الحرب الصعبة آنذاك، ولكن حينما تغيرت الأحوال كتب وزير المستعمرات أوليفر ستانلى إلى وزير الخزانة فى شهر سبتمبر ١٩٤٤ حينما رغب فى إعادة بعث الحياة فى القانون قائلا:

"وأعتقد أن وقت التصرف قد حان الآن. كما أعتقد أيضا أن نهاية العمليات الحربية في أوروبا سوف تكون اللحظة السيكلوجية الحاسمة لإعلان نوايانا لكى تتولى حكومة صاحب الجلالة كل الإجراءات اللازمة لتطوير برنامج استعماري يتميز بالكفاءة، إنها اللحظة المناسبة لإظهار إيماننا وقدرتنا على استخدام ممتلكاتنا الاستعمارية الواسعة بطريقة ملائمة، وإنها أيضا اللحظة التى يجب بها على حكام المستعمرات أن يهتموا فيها بالتخطيط للمستقبل بهمة ونشاط، وسوف يتم ذلك إذا ما أرسلنا إليهم تعليمات محددة واضحة تماما من أجل زيادة ثقتهم فى استمرارية وصلاحية سياستنا. ولا أقول أبدا إن ذلك الأمر سيكون عملية مربحة على أسس اقتصادية بحتة، ولكننى أعتقد أن تلك الاقتراحات ضرورية تماما من أجل تبرير وضعنا كقوة استعمارية.^(٤٨)

ولذلك تم إنفاق مبلغ ٢١٠ مليون جنيه إسترليني فيما بين أعوام ١٩٤٦ و ١٩٥٥ وحصل عليها تمويل هذا القانون من القطاع الخاص ومن الأموال التى خصصتها الحكومة الاستعمارية من أجل تطوير المستعمرات البريطانية، وكانت المستعمرات الفرنسية فى الأصل أكثر فقرا من المستعمرات البريطانية قبل الحرب. ولذلك حينما بدأ تدفق الأموال ازداد معدل التغير بينها. فلقد وصل الاستثمار الفرنسى إلى المستعمرات الفرنسية من القطاع الخاص أو المصادر الخاصة، ثم أيضا من مبالغ حكومية خصصت لهذا الغرض عام ١٩٤٦. وعرفت تلك الأموال المخصصة باسم FIDES وهى الحروف الأولى لعنوانها باللغة الفرنسية، ولكن كانت المساعدات الرسمية الحكومية الفرنسية أكثر من نظيرتها البريطانية، ولذلك وصلت مبالغ الأموال المخصصة للمستعمرات الفرنسية التسع فى غرب أفريقيا إلى ٢٧٧ مليون جنيه إسترليني خلال الفترة من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٥.

(٤٨) Oliver Stanley to Sir John Anderson 21sept 1944 cited in Roger Louis Imperialism at Bay 1941 -1945 (Oxford 1977) PP.102-3

ولدى تدفق الأموال الجديدة سواء من مصادر الدخل الداخلى أو من المساعدات الخارجية إلى إحداث ثورة حقيقية فى أوجه نشاط الحكومات الاستعمارية خلال الفترة التالية للحرب العالمية الثانية. ولذلك وجدت هيئة تخطيط فى كل مستعمرة وبرنامج للتطور خاص بها. وكانت من أهم المشاريع الهامة آنذاك أعمال إنشاء محطات توليد الطاقة الهيدروكهربائية على النيل فى جنجا فى أوغندا وعند كاريبا على نهر الزامبيزي بين شمال وجنوب روديسيا، وعلى نهر الفولتا فى أكاسومبو فى ساحل الذهب، وأيضاً عند فريا وكيمبو فى غينيا، وكان غرض تلك المشروعات الحصول على الطاقة من أجل التصنيع، ولذلك نشأت صناعة الغزل والنسيج فى أوغندا بفضل تلك الطاقة، كما تطورت صناعة تعدين النحاس ومناجمه فى شمال روديسيا وإقامة العديد من المصانع المتنوعة فى جنوب روديسيا وصناعة صهر البوكسيت إلى ألومنيوم بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الصناعات الخفيفة فى ساحل العاج وغينيا. أما أكبر المشاريع على الإطلاق فكان مشروع إنجا لبناء سد على نهر الكونغو الأدنى والذي خطط أساساً لإنتاج طاقة هائلة توازى نصف إنتاج غرب أوروبا من الكهرباء ولكن توقف هذا المشروع بعد الأزمة التالية لاستقلال الكونغو البلجيكية ولم يستمر العمل بعد ذلك إلا جزئياً فقط، ولكن كانت مشاريع الطاقة الهيدروكهربائية من أجل الصناعة مجرد إحدى الظواهر المهمة فى برامج التطور الطموحة التى قامت بها كل الحكومات الاستعمارية بعد الحرب العالمية الثانية.

فلقد اهتمت تلك الحكومات أيضاً بتمية وتنويع الإنتاج الزراعى. وتم ذلك ليس بإنتاج المحاصيل النقدية ولكن أيضاً من أجل إنتاج الطعام للاستهلاك المحلى وبالذات لتموين أعداد السكان المتزايدة فى المدن الجديدة. ثم امتدت الخدمات الزراعية والبيطرية وانتشرت عملياتها إلى كل المناطق الإدارية، وأجبرت الحكومات المزارعين على تطبيق وسائل الزراعة المتطورة مثل دورية المحاصيل الزراعية الغنية لمنع تآكل التربة فى المناطق المرتفعة، وتدعيم المنشآت الزراعية

المتفرقة، وإدخال أدوات زراعية أفضل والآلات البسيطة أيضا، كما تم إقناع الرعاة بقبول مفاهيم تربية الماشية بالأساليب الحديثة والاهتمام بالإنتاج لسد احتياجات السوق المحلية بدلا من تربية القطعان لمفاهيم الفخر والتباهي وإظهار الثروة، كما حثتهم الحكومات أيضا على إنتاج الألبان واللحوم بدلا من الاهتمام فقط بأعداد الماشية للتباهي.

ويعنى ذلك استخدام مجازر حديثة وأماكن لتصنيع اللبن فى مناطق الرعى بدلا من نقل القطعان الكبيرة إلى أماكن بيع بعيدة، وتم إنشاء تعاونيات تسويق الأسماك فى عدة بلاد، كما بدأت الناقلات الثلاثية فى التوجه إلى مجتمعات صيد الأسماك عند السواحل وشواطئ البحيرات والأنهار لشراء إنتاجهم وتوزيعه فى المدن، وتطلبت تلك الأعمال الجديدة ثورة أخرى فى النقل. فلم تتحمل الطرق الأفريقية التقليدية القديمة أبدا تلك الحمولات الكبيرة التى تمر عليها، ولذلك خصصت نسبة كبيرة من أموال ميزانية التنمية إلى إعادة بناء وتمهيد الطرق الرئيسية القديمة.

التطور فى التعليم

فهمت كل الحكومات الاستعمارية أيضا فى فترة ما بعد الحرب أن القيود الأولى تعلقت بنقص المال، أما القيود الأخرى فلقد تعلقت بنقص الأفراد المتقنين، ولقد وجد عدد قليل من المدارس الثانوية فى أفريقيا قبل الحرب، ولذلك تم استخدام عدد كبير من الأوروبيين لإدارة وتنفيذ خطط التنمية الجديدة. ولكنهم كانت رواتبهم عالية. فلقد حضروا إلى أفريقيا من أجل رواتبهم العالية ومساكنهم الرخيصة المدعمة وإجازاتهم الكثيرة إلى بلادهم الأصلية المجانية. ولكن أدى هؤلاء المستعمرون الجدد إلى إحداث سلبيات كثيرة فى الأوضاع السياسية وقضت على أعمالهم الحسنة فى وظائفهم، فلقد أدى وجودهم إلى زيادة الهوة بين الأوروبيين

والأفريقيين. كما أدى ذلك أيضا إلى ظهور انطباع عام بأن السيطرة الاستعمارية على أفريقيا تزداد وتشتد وتتدعم مما أدى إلى حدوث اضطرابات سياسية، وجعلت كل أعمال الحكومة مثار شك بين الأفريقيين، ولكن أصبح التعليم هو الركن الأساسي لكل خطة تنمية آنذاك وكانت معظم المدارس بعد الحرب مدارس تبشيرية أساسا، وكانت مدارس ابتدائية فقط. كما لم يقدم معظمها إلا أربعة أعوام في التعليم الأساسي بلغة أفريقية محلية أو أخرى فقط، ولذلك وجدت أولوية في زيادة فترة الأربعة أعوام إلى ستة أعوام دراسية كاملة وبحيث يخصص العامان الأخيران لدراسة لغة أوروبية واسعة الانتشار، وكانت المشكلة الأساسية إذن هي تدريب معلمى المرحلة الابتدائية الذين يجيدون الإنجليزية أو الفرنسية. وكان أهم تطور تعليمي في أربعينيات القرن العشرين هو إنشاء مركز تدريب لمعلمى المرحلة الابتدائية وكانت كلها في بداياتها مراكز لتعليم الإنجليزية أو الفرنسية. ووجب حل مشكلة "لغة الاتصال العام" قبل البدء في إنشاء أعداد أكبر من المدارس الثانوية التى كان عددها صغيرا للغاية في نهاية الحرب العالمية الثانية. ولم تمتلك معظم المستعمرات الأفريقية أكثر من مدرستين أو ثلاث، ويقوم بالتدريس بها معلمون أوروبيون أساسا، ووجب زيادة أعداد تلك المدارس وأن يتم ذلك تدريجيا وذلك بتعيين مدرسين من أوروبا أو من بين الأفريقيين القليلين الذين تخرجوا لحسن حظهم فى المدارس. واستلزم إصلاح نظام التعليم الابتدائى إضافة عامين إضافيين بينما استلزمت المدارس الثانوية إنشاء ستة أعوام إضافية فى الفصول التعليمية. ولذلك إذا تمكنت مدرسة من إضافة فصل جديد كل عام فإنه لا يمكن إنشاء مدرسة ثانوية فى أقل من ستة أعوام وإن كانت معظم المدارس الثانوية قد أنشئت فى فترات تزيد عن ذلك بكثير، كما أن معظم المدارس الثانوية التى أنشأت فى خمسينيات القرن العشرين والتى ازداد عددها فعلا قد أنهت الدراسة بها بعد ثلاثة أو أربعة أعوام فقط. وكانت هذه هى الحال حينما حصلت معظم الدول الأفريقية على استقلالها.

وتحدد أعداد خريجي المدارس الثانوية إمكانيات الدراسة الجامعية، ولكن اهتمت الحكومة البريطانية تماما بموضوع إنشاء الجامعات بالرغم من مشكلة المدارس الثانوية في أفريقيا آنذاك، ولذلك أنشأت لجنة عام ١٩٤٣ والتي قدمت تقريرها بعد عامين وأوصت بأن إنشاء الجامعات أمر "لا مفر منه" لأنه الدعامية الأساسية التي تمكن من الوصول إلى الحكم الذاتي.

وتم إنشاء أربعة جامعات بعد عام ١٩٤٥ في عبدان في نيجيريا وفي أشيموتا في ساحل الذهب وفي الخرطوم في السودان وفي ماكريري في أوغندا، ثم أضيفت جامعة أخرى في سالسبوري في جنوب روديسيا عام ١٩٥٣. ولكن قام بالتدريس بها أساتذة أوروبيون ذوو مرتبات عالية للغاية بينما تصاعد عدد الخريجين تدريجيا ببطء من مائة إلى مائتين ثم إلى ثلاثمائة سنويا، وأنشأت أول جامعة فرنسية في داكار عام ١٩٥٥ في أفريقيا الفرنسية أي قبل ثلاثة أعوام فقط من استقلال السنغال. وتم افتتاح جامعتي لوفانيوم وإليزابيث فيل في الكونغو البلجيكية قبل استقلال الكونغو ذاتها بفترة قصيرة للغاية عام ١٩٦٠. ونعرف الآن أن التعليم العالي قد وصل متأخرا للغاية إلى أفريقيا لكي يشترك الخريجون في الشؤون السياسية لبلادهم المستقلة. فلم توجد حتى ذلك الوقت أعداد كافية منهم لتغطية الاحتياجات الأساسية لخدمات الإدارة والشؤون الاجتماعية الحديثة، كما عانى قطاع الأعمال الصناعية والتجارية عجزا كبيرا أيضا، ولكن تم تخطيط نظام التعليم العالي في أفريقيا في عصر الاستعمار لكي يلائم احتياجات التسعينيات وليس الستينيات أبدا، ووضعت مع ذلك الدعائم الأولى والتي يمكن للبلاد المستقلة أن تبنى عليها بقدر إمكانياتها الاقتصادية.

ويبين اهتمام الدول الأوروبية والحكومتان البريطانية والفرنسية بالتطور التعليمي التدريجي أن مفاهيم استغلال المستعمرات قد أصبحت راسخة لديها وأنها مستعدة تماما للوصول إلى الاستقلال. ولكن كانت السياسة البلجيكية في الكونغو على النقيض من ذلك تماما، إذ اهتمت الحكومة البلجيكية فقط بإنشاء وتدعيم

المدارس الابتدائية ودافع عن تلك السياسة بحماس بيير ريكمانس الذي كان حاكما عاما للكونغو من ١٩٣٤ إلى ١٩٣٧، ثم أصبح للممثل البلجيكي في مجلس وصاية الأمم المتحدة والذي كتب عام ١٩٥٥:

"ويدرك كل من يعرف الكونغو أن الحكم البلجيكي ضروري هناك وسوف تكون نهايته نهاية كل ما قمنا ببنائه خلال ثلاثة أرباع قرن من الزمان، ولقد فضلنا تعليم جماهير الأطفال الصغار ثم تنظيم التعليم الثانوي فيما بعد حينما تتوافر الموارد، ويوجد الآن لبلاد أفريقيا الغربية الفرنسية ألف من الشباب يدرسون في فرنسا وأن لدينا القليلون للغاية الذين يدرسون في بلجيكا. ولكن لدينا عشرة أضعاف أعداد تلاميذهم في مدارسنا الابتدائية، وأعتقد تماما أننا بعد ثلاثين عاما سوف يكون لدينا في الكونغو أعداد من الخريجين الجامعيين مثلهم تماما على الأقل، وأعداد مشابهة من خريجي المدارس الثانوية وأعداد أقل بكثير من الأميين عن جيراننا الفرنسيين في غرب أفريقيا، وذلك بالرغم أن أول جامعة في الكونغو قد افتتحت أبوابها منذ عام فقط، ولكن هل تقدم لنا الأيام ثلاثين عاما من التطور السلمى." (٤٩)

وأجاب ريكمانس على تساؤله بالتأكيد الحذر قائلا إن لديه "أمل كبير" ولكنه أخطأ تماما بالإضافة إلى أن الحكومة البلجيكية إذ حصلت الكونغو على استقلالها بعد أربعة أعوام فقط ولكن كان الكونغوليون غير مؤهلين لتولى الحكم بعد الاستقلال الذي منح لهم أكثر مما حاربوا من أجله.

التحضير للديمقراطية

نشطت الحكومات الأوروبية الاستعمارية في موضوع الحكم المحلي خلال

(٤٩) Pierre Ryckmans, Belgium Colonialism Foreign Affairs, October 1955.

الفترة التي بقيت لها في الحكم بعد الحرب. وتم التخلي تماما عن سياسة الحكم غير المباشر في المستعمرات البريطانية لكونها غير مقبولة تدريجيا للغاية بالنسبة للوضع العالمي. فلن يوجد وقت كاف لكي تنمو نظم الحكم المحلية الأفريقية طبقا لمفاهيمها الخاصة. ولذلك وجب الوصول إلى الحكم المحلي الديمقراطي خلال أعوام قليلة للغاية. وكان الأسلوب الوحيد هو اتباع النظم الغربية. ولذلك سرعان ما أحاط مجلس منتخب كل زعيم محلي.

وعهدت أعمال الإشراف على العديد من الخدمات المحلية إلى تلك المجالس بعد أن أدارها الزعيم أو مسئول إدارة الإقليم الأوروبي مباشرة، وتم اعتماد نظام المجلس الإقليمي البريطاني الإنجليزي في المستعمرات البريطانية بطريقة متزايدة بينما طبق الفرنسيون نظام المقاطعات الفرنسية والتي كانت للوحدات الرئيسية للحكم المحلي المنتخب في فرنسا ولذلك تعلم العديد من الأفريقيين أثناء عملهم في مجالس المناطق أو المقاطعات المسئولية الإدارية بطرق وأساليب لم تكن متاحة لهم فيما سبق في خدمة الحكومات المركزية الأوروبية الاستعمارية، وتعلم الكثير من السياسيين الوطنيين في المستقبل في تلك المجالس المحلية المنتخبة وحصلوا على تدريبهم السياسي بها.

ولكن أبدت السياسات البريطانية والفرنسية ترددا وتضاربا عند إنشاء نظم انتخابية على مستوى المستعمرة. وفيما يتعلق بالبريطانيين وجدت نية صادقة لإنهاء الاستعمار. فلقد ذكر أوليفر ستانلي وزير المستعمرات في زمن الحرب، في شهر يونيه ١٩٤٣ "تلتزم تماما بتوجيه الشعوب المستعمرة إلى طريق الاستقلال في إطار الإمبراطورية البريطانية" ولكن لم يفهم أحد أن ذلك يعني الاستقلال الكامل لكل مستعمرة على حدة، صغيرة كانت أم كبيرة. فلقد أمل الكثيرون في بريطانيا أن يقوم اتحادات غرب وشرق ووسط أفريقيا، ولكن كان الطريق المباشر واضحا للغاية، فلقد رغب البريطانيون في إعادة أنماط التطور الدستوري الذي تم تطبيقه قبل ذلك بنجاح في البلاد التي يقطنها الأوروبيون في كندا أستراليا وجنوب أفريقيا،

وسوف تتول السلطة السياسية تدريجيا إلى المجالس المنتخبة التي قامت فعلا فى المستعمرات وسوف تزيد العضوية فى تلك المجالس بزيادة تمثيل الأفريقيين عن طريق تعيين الحكام والزعماء. وسوف تصبح المجالس الانتخابية أكثر تمثيلا فيما بعد بمنح حق الانتخاب لدائرة أوسع وأوسع من شعب المستعمرات.

ولكن لم تؤد تلك الفكرة إلى حدوث مشاكل خاصة فيما يتعلق بمستعمرات غرب أفريقيا؛ حيث كان البريطانيون يقيمون إقامة مؤقتة فقط. فلقد وجدت المشاكل فى الجانب الشرقى من أفريقيا حيث أقامت مجتمعات صغيرة من المستوطنين البريطانيين من كينيا إلى جنوب روديسيا والذين رأوا أنهم مستوطنون دائمون فى تلك البلاد، وتم منحهم فعلا درجات مختلفة من الامتيازات فى حكوماتهم، ولذلك فإن تقدم الأغلبية الأفريقية سوف يعنى نهاية امتيازهم. ويجب أن نتذكر لفهم موقفهم أن جنوب أفريقيا قد حصلت على استقلالها بموجب حقوق انتخابية للبيض فقط، كما أن جنوب روديسيا قد حصلت على الحكم الذاتى عام ١٩٢٣ على نفس الأساس بالرغم من أن نسبة البيض إلى السود كانت هنا قليلة للغاية، ولكن تغيرت وجهات النظر البريطانية كثيرا منذ عام ١٩٢٣. وشعرت الحكومات البريطانية من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٥ فى الوقت نفسه على أن لديها التزاما لحماية أوضاع المستوطنين فى شرق ووسط أفريقيا من عملية نقل سريعة للغاية للسلطة إلى الأغليات الأفريقية. ولذلك قضت بريطانيا عشرة أعوام فى اختبار مجموعة من الدساتير المتعددة الأعراق فى تلك المناطق. وكان الدستور المتعدد الأعراق النمطى دستورا تنتخب به كل مجموعة عرقية عددا معينا من النواب فى البرلمان. ويتم هنا تمثيل الجماعات أو الفئات المختلفة بطريقة عادلة بغض النظر عن حجمها الفعلى. ونبع الأمل فى ظهور مفاهيم معتدلة ديمقراطية فى توازن فئة ضد أخرى. ولكن لم ير الأفريقيون عدالة فى ذلك النظام، ومهما كان الأمر فإن الدساتير متعددة الأعراق ربما قد أدت وظيفة مهمة فى كونها مرحلة انتقالية بين الامتياز الخاص بالبيض وحكم الأغلبية الأفريقية.

ولكن توجهت الترددات والتناقضات الفرنسية ليس إلى عدد الفرنسيين المقيمين في مستعمرة أو أخرى ولكن بالذات بالنسبة للعلاقات المستقبلية بين المناطق الفرنسية عبر البحار وفرنسا ذاتها ولذلك كانت الخطط الفرنسية لإنهاء الاستعمار إلى عام ١٩٦٠ ليس أكثر من منح السيادة المحلية للمستعمرات السابقة في إطار نظام إمبراطوري مركزي يمثل الاتحاد الفرنسي أولا والمجموعة الفرنسية فيما بعد. وكان الغرض أن يشمل الاتحاد الفرنسي كل المناطق الفرنسية عبر البحار في الهند الصينية وأفريقيا أيضا. أما المجموعة الفرنسية فلقد انتصرت فقط على أفريقيا جنوب الصحراء وإلى تلك الجزر الصغيرة التي قبلت الاندماج التام مع فرنسا. ووضعت الجزائر في داخل المجموعة ولكن بشرط بقائها جزء من فرنسا. ولم تكن تونس ومراكش أعضاء أبدا. ولكن مرت أفريقيا الفرنسية من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٥٥ عمليا بمرحلة إنهاء الاستعمار مشابهة للغاية للفترة "المتعددة الأعراق" في أفريقيا البريطانية الشرقية والوسطى.

وتطورت المجالس التشريعية في غرب أفريقيا الفرنسية وأفريقيا الاستوائية الفرنسية ومدغشقر على المستويات الفيدرالية والإقليمية. وتم الانتخاب خلال تلك الفترة الانتقالية نصف المقاعد في تلك المجالس بواسطة المواطنين الكاملين، ويعني ذلك السكان الفرنسيين المستوطنين هناك.

وفهم حكام أفريقيا المستعمرة باستثناء المستعمرات البلجيكية والبرتغالية-من الصحراء إلى زامبيزي حوالى عام ١٩٥٥ أنهم دخلوا المرحلة الأخيرة للاستعمار الأوروبي. ولعبت الحكومات الاستعمارية الفرنسية والبريطانية أدوارها في الفصل النهائى للدراما الاستعمارية. بهمة وحماس غير مسبوقتين. وتم صرف أموال التنمية في المستعمرات الأفريقية الاستوائية. وتم تشجيع الزراعة والصناعة بشدة كما تقدمت شئون التعليم كثيرا. وأصبح الحكم المحلى أسرع وأكثر ديمقراطية فعلا. كما أصبحت الحكومة المركزية أكثر تمثيلا وإن كانت أقل سرعة وكفاءة. واستعد الحكام المستعمرون للرحيل ولم يعد يوجد وقت آخر للتجارب السياسية.

ولذلك ازداد استخدام النماذج الغربية لتطوير النظم السياسية. وأشرف المتحدثون البريطانيون في أفريقيا البريطانية كلها على المداولات البرلمانية في القاعات البرلمانية المستطيلة المشابهة لمبنى البرلمان البريطاني في وستمنستر وهم يرتدون الباروكات التقليدية وحمالات الركبة، وكان النواب يجلسون بحيث تواجه "الحكومة" و"المعارضة" كل منهما الآخر. وجلست المجالس المنتخبة في أفريقيا الفرنسية كلها في قاعات نصف دائرية على النموذج الباريسي.

وحيث يتداخل "اليسار" و"اليمن" أثناء الجلوس دون وجود فاصل بينهما. وتعتبر تلك "النظم" نظم أوروبية قديمة تم استيرادها بسرعة من أوروبا لتلائم روح القومية الأفريقية الجديدة. ولكن أثبتت الأيام فشلها، فلقد غيرها الأفريقيون تماما بعد حصولهم على استقلالهم التام وسيطرتهم الكاملة على شئونهم الخاصة، ولكنها كانت تمثل إطارا لعملية الانتقال من التبعية إلى الاستقلال تماما مثل مرحلة الدساتير المتعددة الأعراق التي سبقتها.

الفصل السابع عشر

الطريق إلى الاستقلال (١) شمال وشمال شرق أفريقيا

نمت الحركة الوطنية في شمال أفريقيا الإسلامية بطريقة أسرع بكثير من أفريقيا جنوب الصحراء مثلما رأينا في الفصل الرابع عشر وحصلت معه على استقلالها الذاتي فعلا عام ١٩٢٢، ولكن انقضت أربعون عاما أخرى لكي تتحرر معظم القارة تقريبا من الاستعمار الغربي برحيل الفرنسيين عن الجزائر عام ١٩٦٢. وكانت كل غرب أفريقيا ومعظم شرقها قد اسقلنا قبل ذلك، ولذلك حدث تحرير شمال أفريقيا من الاستعمار بشكل أطول بكثير، وعلى مراحل متعددة مختلفة تماما عن الجنوب. وكانت أحوالها مختلفة ونمت دوافعها بطريقة منفصلة بالرغم من ارتباطها في مراحلها الأخيرة ببقية حركات التحرير الأفريقية. كما اتخذت بلاد شرق أفريقيا طرقها الخاصة إلى الاستقلال وتشابهت مع تلك الموجودة في الشمال وليس في الجنوب.

مصر والسودان

تعتبر مصر بالتأكيد أهم بلاد شمال أفريقيا. وبالرغم من وجود حامية عسكرية بريطانية في منطقة القناة طبقا لنصوص معاهدة ١٩٣٦ واحتلال البلاد كلها أثناء الحرب العالمية الثانية فإن ذلك قد انتهى عام ١٩٤٦. وعادت مصر تتمتع باستقلالها السياسى تماما مثل فترة ما قبل الحرب. وكانت من أكثر بلاد شمال أفريقيا سكانا والعاصمة الثقافية للعالم العربى. وبلغت أعداد الطلبة في

الجامعتين في القاهرة ٢٠,٠٠٠ طالب وطالبة. والتقى هناك الطلبة العرب القادمون من المغرب الكبير مع إخوانهم القادمين من ليبيا والسودان، وكونوا أنواع الاتحادات كتلك التي يقيمها باقى الطلبة الأفريقيين من المستعمرات البريطانية والفرنسية فى لندن وباريس. ولكن شعر طلبة أفريقيا جنوب الصحراء بالغربة فى أوروبا وإحساسهم أنهم أجنبى فى عواصم الدول المستعمرة. واختلف الأمر تماما بالنسبة لطلبة شمال أفريقيا الدارسين فى مصر إذ شعروا بالألفة وأنهم يعيشون بين إخوانهم وأشقائهم. ولذلك أصبحت مصر قبلة للوطنيين من شمال أفريقيا ذوى الاتجاهات الإسلامية وملجأ وملاداً ومهداً لتحضير الثورة.

ولكن تميزت مصر بانعدام العدالة الاجتماعية عام ١٩٤٦ إذ ازدادت التناقضات الاقتصادية بصورة كبيرة. وتظهر مصر على أنها بلاد واسعة على الخريطة ولكن الحقيقة أن كل سكانها تقريباً البالغ عددهم ٢٠ مليوناً آنذاك يعيشون فى وادى النيل ومنطقة قناة السويس فقط. ولذلك كانت الكثافة السكانية فى تلك المناطق من أعلاها فى العالم إذ بلغت فى المنطقة الزراعية ٢٦٥٠ نسمة لكل ميل مربع. كما أصبحت القاهرة أكبر مدينة فى أفريقيا كلها وبلغ عدد سكانها أكثر من ٢ مليون نسمة آنذاك وزاد سكان مدينة الإسكندرية عن مليون نسمة كما بلغ سكان العديد من المدن الأخرى أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة ولكن كان أكثر من ٨٠% من المصريين من سكان الريف وأكثرهم من الفلاحين الفقراء الذين يزدادون فقراً ويعانون من سوء التغذية نظراً لصغر مساحة أراضيهم التى تزداد صغراً بتقسيمها عبر الأجيال. وبلغت مساحة أراضى معظم الفلاحين الذين ظلت أراضهم ملكهم أقل من فدان فى الأرض أو بضعة قراريط. وسدد الباقون إيجارهم إلى الملاك الصغار الذين لم تختلف أحوالهم عنهم كثيراً. وكان السبب أن كبار الباشوات قد امتلكوا أكثر من ثلث أراضى مصر الزراعية.

وكان العديد منهم من أحفاد المماليك والشراكسة من العصر العثمانى أو من عائلة محمد على الكبير وأعوانه. واحتكرت طبقة غير مصرية معظم تجارة

مصر، إذ كان العديد منها فى أيدى اليونانيين الذين استوطن أجدادهم مصر منذ قرون عديدة. وامتلكت الشركات الأجنبية فى غرب أوروبا أو المشرق العربى معظم الصناعة والخدمات. وتولى الملك فاروق آنذاك مقاليد الحكم وهو الحفيد الأكبر لمحمد على الكبير ولكنه عاش حياة المجون والاستهتار. ولذلك وجدت آنذاك كل العوامل الكامنة المؤيدة للثورة.

ولذلك كان من المتوقع أن يقوم الحكام التقليديون فى مثل هذا المجتمع بتحويل أنظار الاستياء الشعبى إلى القضايا الخارجية. فلقد انضموا مع باقى الدول العربية الأخرى عام ١٩٤٤ لإنشاء الجامعة العربية والتي كانت أول وأكبر اهتماماتها منع قيام دولة يهودية فى فلسطين حينما أعلنت بريطانيا عن نواياها فى إنهاء انتدابها على فلسطين عام ١٩٤٧. وقررت الأمم المتحدة فى الوقت نفسه القيام بتقسيم ذلك القطر بين إسرائيل والأردن. ولكن توجهت جيوش الجامعة العربية للحرب ضد إسرائيل عام ١٩٤٨ ولكن هزمتها دولة لم تبلغ من العمر إلا عاما واحدا فقط. وشعر المصريون بالذات بالإهانة التى وجهت لهم والتي نشأت أساسا من فساد وعدم كفاءة الملكية والسياسيين. وفشل السياسيون فى محاولاتهم ضد إسرائيل ولكنهم استطاعوا بعد ذلك توجيه الغضب الشعبى ضد القوات البريطانية المرابطة فى قناة السويس والسودان. ولذلك توجهت جماعات مسلمة مصرية لمهاجمة القوات والمنشآت البريطانية مما يعتبر انتهاكا لبنود معاهدة عام ١٩٣٦ ثم أعلنت الحكومة المصرية إلغاء تلك المعاهدة من جانب واحد، وأدت الهجمات البريطانية المضادة للأعمال الفدائية المصرية إلى تنامي الشعور المعادى للأجانب ولغليان الغضب الشعبى فى القاهرة مما أدى إلى تدمير الممتلكات البريطانية والأجنبية فى حريق القاهرة الشهير. ثم تولت مجموعة من صغار الضباط السلطة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة البكباشى جمال عبد الناصر. ولكنهم نصبوا رجلا أكبر سنا وهو اللواء محمد نجيب ليكون الواجهة الرسمية لمجلس قيادة الثورة الذى سرعان ما قضى على الملكية والبرلمان.

وأدى تدهور العلاقات المصرية البريطانية في عام ١٩٥١ فصاعداً إلى الرغبة في منح السودان استقلالها بسرعة، وفعلت بريطانيا ذلك لكي لا يتحالف الوطنيون السودانيون مع إخوانهم في مصر. ورأى البريطانيون أن السودان الصديق أفضل وسيلة لمواجهة مصر المعادية. ولكن فكر الحكام المصريون الجدد بالطريقة نفسها وهذا من عجائب الأمور. وكان نجيب وناصر قد خدما قبل ذلك في السودان، وعرفا قوة الشعور الوطني السوداني وفهما تماماً أن السودان المستقل الصديق أفضل من كيان تابع معاد لمصر. ولذلك قبلت القيادة المصرية الجديدة المقترحات البريطانية المقدمة عام ١٩٥٢ لعقد انتخابات حرة في السودان بموجب دستور يمنح السيادة الذاتية لمدة ثلاثة أعوام قبل تقرير المصير والمفاضلة لصالح الاستقلال التام أو الوحدة مع مصر. وصوت السودانيون لصالح الاستقلال عام ١٩٥٦، وأصبحت السودان جمهورية مستقلة خارج الكومنولث.

ولكن أزاح ناصر اللواء نجيب عن السلطة عام ١٩٥٤. وساعت علاقة مصر مع الدول الغربية بطريقة متزايدة. وتحالف ناصر مع جميع الحركات الثورية المطالبة بالاستقلال في باقي أفريقيا، ثم حضر مؤتمر دول عدم الانحياز عام ١٩٥٥ في باندونج في إندونيسيا والذي أصدر بيانه الشهير المعادي للاستعمار في جميع صوره كما سبق القول في الفصل السادس عشر، وكان ناصر أول الزعماء الأفريقيين الذين يطبقون السياسات الاشتراكية الراديكالية في بلاده وحدد مساحة الأرض الزراعية كملكية فردية مما مكنه من إعادة توزيع الضياع الواسعة للباشوات السابقين على الفلاحين البؤساء. واستطاع في مجال السياسة الخارجية أن يخلص مصر من آخر مظاهر السيطرة الأوروبية. فلقد قبلت بريطانيا سحب قواتها من منطقة القناة وتركها لإدارة الشركة الفرنسية- البريطانية التي قامت بحفرها، ثم اتجه ناصر إلى زيادة رقعة الأرض الزراعية في مصر وذلك بإنشاء سد ضخم على النيل عند أسوان. وكان سيتم تمويل البناء من أموال المعونة الأمريكية، غير أن أمريكا غضبت من سياسات ناصر "غير المنحازة" وسحبت

عرضها لتقديم المساعدة المالية عام ١٩٥٦. ورد ناصر بتأميم قناة السويس وأعلن أنه سيبنى السد بعائداتها.

و غضبت حكومتا بريطانيا وفرنسا للغاية من أعمال ناصر العدائية، وقررتا توجيه ضربة قاضية له. ولكنهما لم يلتفتا أبدا إلى ردود الفعل العالمية الناتجة عن تصرفيهما، بل ولم يتشاورا حتى مع حليفتهما وربيتهما الرئيسية وهى الولايات المتحدة الأمريكية ولذلك خططا مؤامرة تقوم إسرائيل بمقتضاها بالهجوم على مصر لكي تتدخل بريطانيا وفرنسا للفصل بينهما عند قناة السويس بحجة ضمان سلامتها للتجارة العالمية، ولذلك نزلت القوات البريطانية والفرنسية تحت تلك الذريعة فى بور سعيد فى شهر أكتوبر ١٩٥٦ وأعادتا احتلال منطقة القناة واعتقدتا أن النصر العسكرى السريع كفيل بالقضاء على ناصر وانهياره. ولكن أدان العالم كله تلك المؤامرة. أما فى الأمم المتحدة فلقد وقفت معظم الدول الصغيرة مع الاتحاد السوفيتى وطالبت بالانسحاب.

كما أبلغ الرئيس الأمريكى أيرنهاور كلا من بريطانيا وفرنسا أنه لن يساعد عمليتهما المنهارة بعد ذلك إطلاقا. واضطرت الدولتان إلى سحب قواتهما وتعرضتا لإهانة عامة دائمة. واضطر رئيس الوزراء البريطانى السير أنطونى إيدن إلى تقديم استقالته متعللا بسوء حالته الصحية، كما عانى الشعب البريطانى أيضا نظرا للقيود التى فرضت على استهلاك البترول نظرا للأضرار التى سببتها قواته لقناة السويس. وانتصر ناصر انتصارا باهرا، مما أدى إلى زيادة هيئته فى البلاد الأفريقية وفى بلاد الشرق الأوسط الإسلامية كلها. ثم أقامت مصر وحدة سياسية مع سوريا باسم الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨. ولكن لم تدم تلك الوحدة كثيرا؛ إذ انهارت عام ١٩٦١ بعد ثلاثة أعوام فقط، وعادت مصر لاسمها القديم مؤقتا، وأدت أزمة السويس إلى حصول الاتحاد السوفيتى على موطن قديم فى منطقة بالغة الأهمية من الناحية الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية، وذلك بعد أن قدم مساعدته المالية لبناء السد العالى وتسليمه للجيش المصرى، ولذلك حصل

الاتحاد السوفيتي على موطن قدم في منطقة استراتيجية بل وذات أهمية اقتصادية وسياسية، وفي القاهرة أشار المثقفون المصريون إلى السفير السوفيتي في القاهرة وأطلقوا عليه اسم كرومرسكى.

وبدأ السودان بداية صعبة لحياته الجديدة وذلك بعد حصوله على استقلاله من بريطانيا ومصر في عام أزمة السويس. فلقد انقسم السكان المسلمون العرب في الشمال والذين يسيطرون على البلاد سياسيا واقتصاديا إلى عدد من الجماعات الدينية القبلية والمصالح الخاصة، ولم يتفق ذلك بالمرّة مع النظام البرلماني المستمد من البرلمانية البريطانية والذي طبقه البريطانيون بسرعة قبل جلائهم عن البلاد ولذلك تنفس السودانيون الصعداء حينما تولى الجيش السلطة عام ١٩٥٨ بقيادة اللواء عبود من السياسيين. ولكن لم يستطع الحكم العسكري أن يحل الاختلاف الجذري بين شمال وجنوب السودان. وتعود جذور تلك المشكلة إلى عصر صيد العبيد والعاج في القرن التاسع عشر حينما قام المصريون والسودانيون الشماليون المسلمون بالإغارة على الشعوب السوداء الوثنية في الجنوب، ولم يفعل الحكم الثنائي الذي تسيطر عليه بريطانيا شيئا لعلاج هذا الأمر، إذ أدارت بريطانيا الشمال والجنوب كوحدات منفصلة وركزت جهودها على التنمية الاقتصادية في الشمال بالذات. ولم تغير تلك السياسة إلا عام ١٩٤٩ وهو تاريخ متأخر للغاية، إذ بدأ السودان رحلته السريعة نحو الاستقلال عام ١٩٥٣، وتم إنشاء أول حزب سياسي للجنوب في ذلك العام فقط، كما وجد خوف كبير أن يسيطر الشمال على مقاليد الحكم، وتحققت تلك المخاوف فعلا عام ١٩٥٤ عند تعيين كبار الموظفين السودانيين ليحلوا محل البريطانيين المغادرين، فمن بين ٨٠٠ وظيفة مدنية كبرى لم يحصل الجنوبيون إلا على ستة وظائف فقط. وحدث أول صراع مسلح في منتصف عام ١٩٥٥ قبل بضعة أشهر من الاستقلال حينما قررت الحكومة نقل جنود من الشمال إلى الجنوب والعكس، ولكن ثارت القوات الجنوبية في توريت وأماكن أخرى في المديرية الاستوائية وتم القضاء على العصيان بسرعة ولكن

بسفك دماء كثيرة وهرب العديد من الجنود الغاضبين إلى الأحرار وبدأوا شن هجمات متقطعة ضد المراكز والمنشآت الحكومية.

وترددت حكومة الخرطوم بين محاولة إرضاء الجنوبيين وفرض إدارة عربية إسلامية عليهم. وحدث إضراب طويل لمدارس البعثات التبشيرية في الجنوب عام ١٩٦٢، ولذلك تم طرد كل المبشرين الأجانب خلال العامين التاليين. وحلت المدارس القرآنية محل المدارس المسيحية، ورفض المسؤولون الحكوميون في المناطق الجنوبية الاعتراف بأي أسماء عدا الأسماء الإسلامية، ولذلك تطورت المعارضة ضد الحكم الشمالي تدريجيا وأصبحت أكثر تنظيما وتم تكوين جيش تحرير الجنوب عام ١٩٦٣ والذي عرف فيما بعد باسم أنيانيا (سم الثعبان) وواجهت الحكومة الثورة العامة آنذاك بإرسال قوات عسكرية إضافية ولكن كان من المستحيل القضاء على أعمال رجال العصابات نظرا لعداء الناس وطبيعة البلاد ذاتها، ولذلك احتفظت الحكومة ببعض المدن فقط والطرق التي تربط بينها، أما الثوار فلقد سيطروا على معظم الريف، ولذلك كانت تلك الحرب أول وأطول الحروب في تاريخ أفريقيا المستقلة.

دول منطقة القرن الأفريقي

كونت بلاد شرق أفريقيا الثلاث أثيوبيا وأريتريا والصومال لمدة خمسة أعوام فقط من ١٩٣٦ إلى ١٩٤١ أفريقيا الشرقية الإيطالية ووحدت تحت حكم موحد. واستولى الإيطاليون لفترة بسيطة في بداية الحرب العالمية الثانية على الصومال البريطاني، ولم تستول إيطاليا على الصومال الفرنسي (جيبوتي الحالية) لأن حاكمها كان مواليا لحكومة فيشي الفرنسية الموالية للألمان حلفاء إيطاليا في الحرب، ولكن استولى البريطانيون على الإمبراطورية الإيطالية كلها عام ١٩٤١-١٩٤٢ وأقاموا إدارات عسكرية بريطانية في كل المناطق باستثناء أثيوبيا التي تم

الاعتراف بها كدولة مستقلة تحت حكم الإمبراطور هيلاسلاسى. وكان الإمبراطور قد عاد تحت حماية قوة عسكرية بريطانية من السودان للاشتراك فى حرب تحرير بلاده. ولكن لم يكن الأمر مجرد استرداد الحكم. فلقد فعل الإيطاليون الكثير لتحديث أثيوبيا تحت حكمهم القصير، ولذلك كانت الإمبراطورية الجديدة التى ورثها الإمبراطور بها على سبيل المثال شبكة من الطرق الهندسية ونظاما من المواصلات السلوكية واللاسلكية الذى يربط العاصمة بمراكز الولايات، وكانت الإمبراطورية القديمة من الناحية القانونية الدولية كيانا عتيقا من العصر السابق للاستعمار، أما الإمبراطورية الجديدة فتم تحديثها واعترف بها المجتمع الدولى كله، ورأى الكثيرون أن أثيوبيا الجديدة، سواء داخل أو خارج أفريقيا، رائد جيد لأفريقيا الجديدة لكونها دولة كبيرة المساحة ولديها العدد الكافى من النظم الحديثة وتحكمها أرستقراطية تقليدية ذات الجذور العميقة الممتدة فى الماضى الأفريقى.

ودارت مناقشات عميقة مكثفة فى الأمم المتحدة بالنسبة لنوع الحكومات المقبلة فى شمال شرق أفريقيا بعد الحرب، وطالب هيلاس يلاسى بالاستيلاء على معظم أراضى الإمبراطورية الإيطالية السابقة باتحاد كل من أريتريا والصومال مع أثيوبيا، وقدم أسبابا عديدة لهذا الاقتراح ومنها بالذات الاهتمام الأثيوبى الشديد للحصول على منفذ على البحر الأحمر، ولكن يمثل ذلك أيضا استمرارا للسياسة التوسعية الأمهرية فى مفاهيم معاصرة والتى ورثها هيلاس يلاس عن سلفه الإمبراطور مينليك، وقدم البريطانيون خطة لتوحيد معظم المناطق التى يسكنها الصوماليون على أن تكون فى البداية تحت الوصاية البريطانية، ولكن أصبح الصومال الإيطالى السابق عام ١٩٥٠ بلادا تحت وصاية الأمم المتحدة على أن تقوم إيطاليا بإدارتها لمدة عشرة أعوام، بينما استمر البريطانيون فى حكم شمال الصومال كمستعمرة، وقدمت ثلاث خطط مختلفة بالنسبة لأريتريا التى بلغ سكانها آنذاك المليون من السكان، والمقسمون بنسبة متفارقة بين التجرائيين سكان الجبال وهم أثيوبيون مسيحيون، وبين العفر والذناكل سكان السهول الساحلية المسلمين.

ورغبت الدول الغربية فى استقلال أريتريا، بينما رغب البريطانيون فى تقسيمها بين أثيوبيا والسودان، أما الأثيوبيون فرغبوا فى الاستيلاء عليها كلها، وانتصرت وجهة النظر الأثيوبية فى نهاية الأمر عام ١٩٥٢، ولكن منح الدستور الاتحادى الأريتريين قدرا كبيرا من السيادة على شئونهم الداخلية، ولكن صدر قرار إمبراطورى أثيوبى بعد عشرة أعوام وضم أريتريا تماما مما أدى إلى إثارة غضب الأريتريين، ولذلك نشأت حركتان ثوريتان متنافستان فى معارضة أثيوبيا وهما: جبهة التحرير الأرتيرية الإسلامية وجبهة التحرير الشعبى الأريتري، ووصلت لهما المساعدات من الخارج سواء من الدول العربية الراديكالية أو دول المعسكر الشرقى.

وحيثما استعاد زمام السلطة فى نهاية الحرب العالمية الثانية حكم الإمبراطور هيلاس يلاسى أثيوبيا تماما مثلما فعل فى العشرينيات والثلاثينيات، وازدادت أعداد الأثيوبيين المتقنين والذين تعلموا غربيا مما أدى إلى ظهور الأنماط البيرقراطية الحديثة التى أنشئت بمساعدة المستشارين الأجانب القادمين من عدة دول متطورة. ولكن وجد أيضا نظام حكم أسرى داخلى ويمتد من الإمبراطور إلى عائلته والزوجات والذين تولوا إدارة كل المناطق والمهام المهمة، وكانوا يبلغون تقاريرهم إلى الإمبراطور مباشرة وليس إلى الوزارات المختلفة أبدا. ولكن تم تحديث بعض أوجه الاقتصاد والإدارة الأثيوبيين، كما وصلت كميات كبيرة من المساعدات من الدول الغربية. وأصبحت الولايات المتحدة أول الدول المقدمة للمساعدة والمعدات العسكرية من عام ١٩٥٣، وكان عقد الوصاية الإيطالية فى الصومال كريما سخيا ومتطورا للغاية بصفة عامة، فلقد تم تنفيذ برنامج تعليم واسع المجال وقام بتدريب المديرين والأفراد الفنيين، وافتتح معهد الدراسات القانونية والاقتصادية عام ١٩٥٤ تحت إشراف جامعة روما والذى تطور فيما بعد وأصبح جامعة مقديشيو، وشجع الإيطاليون الاشتراك المحلى فى الحكومات المحلية، ولذلك تولى الصوماليون معظم الوظائف الإدارية الكبرى بحلول منتصف

عقد الخمسينيات، ولكن حدث ذلك بفضل أن الصوماليين كلهم يتكلمون لغة واحدة ويشعرون أنهم أمة، مما ساعد تماما على إزالة آثار الاستعمار الإيطالي وبسرعة بالغة، ولكن اضطرت معظم الدول الأفريقية إلى الوصول إلى مفهوم الوحدة الوطنية في البداية نظرا لوجود بعض الممارسات من أجل التأجيل من القوى الاستعمارية والتي رأت في ذلك ضرورة قصوى، ولكن حدث العكس تماما بالنسبة للصومال إذ أن الوطنية الصومالية تمتد أكثر كثيرا في منطقة الوصاية فقط، فلقد شملت أيضا الصومال البريطاني كله حيث كانت الحكومة الاستعمارية أقل نشاطا في إدارة الوصاية الإيطالية في التحضير لإنهاء الاستعمار، ولم تفعل شيئا على الأقل لمنع الوحدة المرتقبة للبلدين، ولكن استقل الصومال البريطاني بسرعة وبطريقة غير منظمة قبل خمسة أيام من استقلال الصومال الإيطالي، ثم اجتمعت المجالس التشريعية للبلدين في أول يوليو ١٩٦٠ في جلسة مشتركة في مقديشيو وكونا المجلس الوطني لجمهورية الصومال المستقلة.

ولكن حدث قبل ذلك بستة أعوام في عام ١٩٥٤ أن أعادت بريطانيا إلى إثيوبيا منطقة أوجادين، وهو عمل يحيط به الخطر من كل جانب في المستقبل ويشمل ذلك الهضبة المنخفضة على الجانب الشرقي للجبال الأثيوبية والتي تقدم أراضي رعى مهمة للغاية للصوماليين الرعاة. ورغبت الحكومة الصومالية، بعد الاستقلال في توحيد كل الأراضي الناطقة بالصومالية وإن تستعيد السيطرة بالذات على الأوجادين، وأصبح ذلك اهتمامها الأساسي، وعبر العلم الصومالي الجديد عن تلك الرغبة في الوحدة، حيث تظهر نجمة خماسية تمثل المناطق الخمس للشعب الصومالي المستقل ومنها ثلاثة تحت الحكم الأجنبي وهي أوجادين وجيبوتي وكينيا. ولكن أعلنت الحكومة البريطانية قبل منحها الاستقلال لكينيا عام ١٩٦٣ أن منطقة الحدود الشمالية جزء لا يتجزأ من البلاد بالرغم من اعترافها بالشعور الوطني للسكان الناطقين بالصومالية هناك.

واهتم البريطانيون تماما بأراء كينيّاتا والكينيّين الآخرين فى وحدة بلادهم أكثر من تلبيةهم لطلبات الصوماليّين، ولذلك قطعت الحكومة الصومالية علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا وشجعت الثوار الصوماليّين من منطقة الحدود الشمالية على شن حرب عصابات ضد كينيا والتي استمرت أكثر من أربعة أعوام، ونشبت معارك حدودية أيضا بين الصومال واثيوبيا، بل ووصلت إلى حد المعارك الكبيرة منذ عام ١٩٦٤ فصاعدا، وكان الاتحاد السوفيتى قد بدأ قبل ذلك فى تسليح الصومال ولكن ازداد التدخل السوفيتى كثيرا بعد استيلاء الجنرال سياد برى على السلطة فى انقلاب عسكرى عام ١٩٦٩، ووصل النفوذ السوفيتى فى الصومال إلى درجة أثرت على كل بلاد منطقة شرق أفريقيا.

ليبيا والمغرب

تقع بلاد ليبيا الواسعة بين مصر وبلاد المغرب الكبير التى تحكمها فرنسا وكانت جزءا من الإمبراطورية الأفريقية الإيطالية. وأدت نتائج الحرب العالمية الثانية إلى تحديد طريق ليبيا نحو الاستقلال تماما مثلما حدث فى أثيوبيا وأريتريا والصومال. ودخل البريطانيون أثناء حملاتهم العسكرية فى شمال أفريقيا عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣ فى اتصالات مع السيد إدريس الزعيم السياسى لحركة الإخوان السنوسية والتى نظمت حركة المقاومة البدوية ضد الإيطاليّين فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين (انظر فيما سبق الفصل الرابع عشر). وأدار إدريس من منفاه فى القاهرة حركة المقاومة البدوية السنوسية فى الصحراء الغربية لمساعدة القوات البريطانية فى قتالها ضد الإيطاليّين وبالذات لحماية خطوط المواصلات المهمة للتموين والإمداد العسكرى عبر الصحراء فى مستعمرة تشاد الفرنسية الحرة ثم عاد إدريس إلى بلاده بتأييد بريطانى تام لتولى مقاليد الحكم بعد طرد الإيطاليّين عام ١٩٤٣، ولكن وجدت مشاكل وجب حلها قبل الاعتراف به ملكا على ليبيا

الحرّة المستقلّة الموحدة فلقد واجه الإيطاليون مشكلة كبرى فى حكم ليبيا ومد سلطتهم فى المدن الساحليّة التى يقطنها سكان معظمهم من البربر إلى داخل البلاد حيث يقيم البدو الرعاة العرب.

ولكن واجه إدريس المشكلة بطريقة معاكسة، وهى أن يقبل سكان المدن الأكثر ثقافة وحضارة حكم البدو فى الداخل. وظلت البلاد لذلك تحت إدارة القوات المحتلة بموافقة الأمم المتّحدة فحكم البريطانيون المؤيدون لمطالب إدريس بشدّة، المنطقتين الشماليّتين وهما طرابلس وبرقة. أما الفرنسيون الذين استولوا على منطقة فزان الجنوبيّة بعد زحف قوات فرنسا الحرّة إليها من تشاد فلم يرغبوا فى مغادرتها بسرعة أبدا. وخشوا تأثير السنوسية القوي للغاية على مستعمرتهم فى تشاد التى قد تطلب الوحدة مع فزان نظرا للأعداد الكبيرة من أتباع الطريقة السنوسية هناك. ولذلك أسرعت الأمم المتّحدة بالعمل على إنشاء دستور يقبله جميع الأطراف.

ثم أعلن مجلس نيابى يتكون من المناطق الليبية الثلاث إدريس السنوسى ملكا على ليبيا عام ١٩٥١، وحصلت البلاد على استقلالها فى ديسمبر من ذلك العام. ولكنها ظلت ولمدة عقد من الزمان بلادا فقيرة للغاية، واعتمدت تماما على المساعدات الأمريكية والبريطانية والاتفاقيات العسكرية التى عقدها الملك إدريس مع البلاد الغربيّة، ولكن تغيرت الأوضاع الاقتصادية فجأة تماما عام ١٩٦٥ عند اكتشاف مخزون هائل من البترول فى الصحراء الغربيّة، وتحولت ليبيا سريعا إلى أغنى دولة فى أفريقيا فيما يتعلّق بدخل الفرد ونصيبه من الدخل القومى. ولكن تمهد الطريق آنذاك لظهور العقيد القذافى لتولى مقاليد الحكم كأقوى حاكم عسكرى فى عالم ما بعد الاستقلال.

قسم المغرب الكبير أثناء العصر الاستعمارى إلى ثلاث وحدات: الجزائر التى تم إدارتها كجزء من فرنسا والمحميتان المجاورتان فى مراكش وتونس. ولم

يوجد اختلاف كبير بين حالة الرأي القومى فى البلاد الثلاث فلقد كان معظم سكانها من العرب المسلمين وتطلع زعماءها إلى القاهرة والجامعة العربية لمساعدتها فى صراعها وتأثرت بالاتجاه نحو الاستقلال فى ليبيا والسودان والصومال. ولكن كان الاختلاف بينها إستراتيجيا؛ إذ نبع من اختلاف مفاهيم الموقف الفرنسى. فلقد وضح للجميع أن فرنسا سوف تتخذ إجراءات للتأجيل فى المحميتين ولكنها سوف تحارب إلى النهاية فى الجزائر.

وأصبح السلطان زعيم الحركة الوطنية فى مراكش، ورفض تأييد المطالب الفرنسية فى حظر حزب الاستقلال والأحزاب الوطنية الأخرى بقوة القانون. وحاول الفرنسيون باستماتة مواجهة مقاومة حكمهم فى مراكش بالتحالف مع البدو الرعاة فى جبال الأطلس المعادين تقليديا للسلطين، ثم خلعوا السلطان محمد الخامس عن العرش عام ١٩٥٣ وتم نفيه إلى جزيرة كورسيكا فى البداية ثم إلى مدغشقر فيما بعد.

وأصبح القائد ثامى الجلاوى سلطانا بدلا منه وجعل ذلك الأمر السلطان محمد الخامس البطل الوطنى لمراكش ورمزا لآمال الشعب. ونشبت المعارك بعد إنشاء جيش التحرير بواسطة الجماعات الوطنية. وأضطر الفرنسيون إلى الاعتراف بالهزيمة والموافقة على مبدأ استقلال مراكش، وعاد محمد الخامس إلى وطنه فى نوفمبر ١٩٥٥ كسلطان لبلاده. وقام وفد نيابى موسع، ويشمل ذلك حزب الاستقلال، بالتفاوض مع الفرنسيين.

واستقلت مراكش فى شهر مارس ١٩٥٦ وتم الاتفاق بطريقة مشابهة مع الحكومة الأسبانية فيما يتعلق بالمنطقة الشمالية ولذلك عادت مراكش مملكة مستقلة موحدة بعد فترة أربعة وأربعين عاما من السيطرة الأوروبية فقط.

وبدأت حكومة السلطان محمد الخامس بعد استقلال مراكش مباشرة بالمطالبة ببعض المناطق المجاورة التى كانت تحت حكم مراكش فى مختلف العصور

السابقة وغزت مراكش المستعمرة الأسبانية في ريو دي أورو عام ١٩٥٧ والتي تمتد على مسافة ٦٠٠ ميل على الساحل في مواجهة جزر الكناريا الإسبانية وصد الأسبان هذا الهجوم، ولكن لم يمنع ذلك مراكش من المطالبة بأجزاء كبيرة من مستعمرة موريتانيا المجاورة. ولكن تم القضاء على تلك المطالب حينما منحت فرنسا الاستقلال لموريتانيا عام ١٩٦٠ ولكن لم تعترف مراكش بهذا الاستقلال إلى عام ١٩٦٩، وظهرت حركة مقاومة شعبية باسم بوليساريو عام ١٩٧٣ بين الشعب الصحراوي في ريو دي أورو. ولذلك قررت الحكومة الأسبانية عقد استفتاء لتقرير مصير البلاد. وتوجهت مراكش آنذاك إلى الأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية لعرض قضيتها، وأكدت المحكمة حقوق مراكش التاريخية، ولكنها أيدت في الوقت نفسه حق الشعب الصحراوي في تقرير مصيره. ولكن قام السلطان حسن الثاني خليفة السلطان محمد الخامس، بقيادة المسيرة الخضراء التي قام بها ٣٥٠,٠٠٠ مغربي مدني لتحرير ريو دي أورو باسم الإسلام عام ١٩٧٥. وتخلت إسبانيا عن ذلك الصراع غير المجزى في الأيام الأخيرة لحكم الجنرال فرانكو وغادرت تلك المنطقة التي تم تقسيمها بين مراكش وموريتانيا. وتم تجاهل حركة بوليساريو في ذلك الاتفاق وهرب الكثيرون من الشعب الصحراوي إلى الجزائر. واستمرت بوليساريو في حربها وأنشأت بمساعدة الجزائر حكومة لدولة باسم الجمهورية الديمقراطية العربية الصحراوية ونجحت في طرد الموريتانيين من الجزء الذي آل إليهم عام ١٩٧٩. ولكن استمر القتال بين بوليساريو والمغرب متقطعا وبدون نتائج طوال عقد ثمانينيات القرن العشرين، وسيطرت بوليساريو على معظم الصحراء الداخلية والمغرب على المدن الداخلية ومخزون الفوسفات في المنطقة الساحلية الشمالية، ونظمت حركة البوليساريو معسكرات اللاجئين التابعة لها بكفاءة تامة وأدخلت نظم التعليم إلى البنين والبنات على السواء، ولذلك حصلت الجمهورية الديمقراطية العربية الصحراوية على أعلى معدل تعليمي في المنطقة الخاضعة لها بالنسبة لأفريقيا كلها.

ولكن تحولت المغامرة التي قام بها السلطان محمد الثاني لأغراض محلية وأسرية إلى قضية وطنية مغربية لا يمكن التهاون بها على الإطلاق. ولذلك أرسلت المغرب المعونات المادية والمالية إلى منطقة الصحراء الغربية التابعة لها من أجل تطويرها وتنميتها، كما ازداد إدماج اقتصاد وإدارة تلك المنطقة بمثيلاتها في المغرب ومولت الجزائر وليبيا والاتحاد السوفيتي جبهة البوليساريو بالسلاح والعتاد، وكانت المغرب ذات أهمية إستراتيجية كبرى للولايات المتحدة في سياسات الحرب الباردة، وأيدت معظم الحكومات العربية المغرب والسلطان محمد الثاني، ورفض الجانبان خطة لإجراء استفتاء في الصحراء الغربية بناء على اقتراح منظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٨١، ولكن تضاعفت الأهمية الدولية لقضية الصحراء الغربية بانتهاء الحرب الباردة مما مكن الأمم المتحدة عام ١٩٩٠ من التفاوض على إطلاق النار في انتظار إجراء استفتاء.

وظهر في البداية أن فرنسا سوف تتبع سياسة أكثر مرونة تجاه الحركة الوطنية التونسية النامية أكثر مما فعلت في المغرب، فلقد عاد الحبيب بورقيبة مؤسس حزب الدستور الجديد (فيما سبق فصل ١٤) إلى بلاده بعد أربعة أعوام من منفاه الاختياري. وذكر في العام التالي: "إذا تم قبول مبدأ الاستقلال فلن تكون هناك مشاكل أخرى". ولكن لم يكن هذا التفاؤل في محله. فلقد قاوم المستوطنون الفرنسيون والإيطاليون فكرة الاستقلال التونسي بشدة. كما عارض أيضا الحاكم العام للجزائر الذي رأى في تونس المستقلة تهديدا للجزائر الفرنسية وخشى من تأثيرها. ولذلك تم القبض على بورقيبة عام ١٩٥٢، ونشبت الاضطرابات العنيفة والتي لم يستطع الفرنسيون مقاومتها والسيطرة عليها، كما دخلت فرنسا آنذاك في مرحلة الحرب الشاملة ضد الوطنيين في الجزائر ولم يكن لها الإرادة أو القوة العسكرية الكافية للقضاء على ثورة خطيرة في تونس، ولذلك اختارت فرنسا سياسة التفاهم مع الحركة الوطنية، وأطلقت سراح بورقيبة عام ١٩٥٥ واستقلت تونس بعد ذلك بعام في ١٩٥٦ تماما مثلما حدث في المغرب، ولكن تدهورت العلاقات ثانية

مع فرنسا عام ١٩٦١ فى عصر مفاوضات إيفيان بين فرنسا والوطنيين الجزائريين. ولذلك طالب بورقيبة بجلاء القوات الفرنسية من القاعدة العسكرية الفرنسية فى بنزرت، ونشبت المناوشات العنيفة واستمرت إلى قبول الفرنسيين الجلاء فى شهر يونيه ١٩٦٢ ولكن غادر معظم الأوروبيين فى تونس البلاد فى ذلك الوقت. وعادت العلاقات إلى مجراها بين تونس وفرنسا بعد انتهاء أزمة بنزرت ولذلك وصلت الاستثمارات الفرنسية إليها من أجل تطوير مصادرها الزراعية العديدة والمتنوعة، وضمن ذلك قدرا من الاستقلال الاقتصادى والاجتماعى فى الدولة المستقلة الجديدة.

ونشبت بواكير العنف الوطنى فى الجزائر بعد أيام قليلة من انتهاء الحسب العالمية الثانية حينما أطلقت الشرطة الفرنسية النيران على موكب فى سطيف، وهاجم المسلمون الثائرون المستوطنين الفرنسيين ورد الفرنسيون بفرض عقوبات شديدة وصارمة. وقتل أكثر من ألف مسلم ومائة أوروبى فى تلك الأحداث، ولكن قدمت تلك الحادثة الأليمة الدامية أول مفاهيم القومية الجزائرية للعديد من الجزائريين وكتب فرحات عباس عام ١٩٤٦ والذي كان يشك فى وجود أمة جزائرية عام ١٩٣٤ (فيما سبق الفصل الرابع عشر):

"إن الشخصية الجزائرية التى لم أستطع أن أجدها بين المسلمين عام ١٩٣٤ قد وجدت هنا اليوم. وإن التغيير الذى حدث واضح الآن للعيان ولا يمكن أبدا تجاهله". ولكن تجاهل الفرنسيون حركة القومية الجزائرية المتنامية. وكانت فرنسا تحارب آنذاك ولمدة ثمانية أعوام متتالية من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٢ وتخسر حربا قاسية ضارية لإعادة سيطرتها على أغنى مستعمرة لديها وأكثرها سكانا وهى مستعمرة الهند الصينية الفرنسية، ولكن انتهت تلك الحرب بكارثة عسكرية فرنسية فى ديان بيان فو، ولذلك شعرت فرنسا أنها تعرضت لإهانة قومية ذات أبعاد مأساوية، ولذلك أثرت الحرب فى الهند الصينية على السياسة الفرنسية فى الأماكن الأخرى، فمن جهة وافقت فرنسا على الإسراع فى إزالة الاستعمار فى أفريقيا

السوداء والمحميات فى شمال أفريقيا. ولكنها تمسكت تماما من جهة أخرى بالبقاء فى الجزائر حيث يقيم بها مليون من المهاجرين الفرنسيين وسلالاتهم والمسلمون عادة بالأقدام السوداء والذين لديهم علاقات قوية ووطيدة مع وطنهم الأب، ولذلك لم تستطيع أى حكومة فرنسية فى المجموعة الطويلة من الحكومات الفرنسية الضعيفة المتعاقبة الواحدة تلو الأخرى بسرعة بالغة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٨ أن تواجه فقدان شعبيتها بالتخلي عن منطقة تعتبر قانونا جزءا من فرنسا ذاتها، ولكن تأثرت الثورة الإسلامية فى الجزائر بالأحداث فى المغرب وتونس. وكانت الحقيقة الفعلية أن الفرنسيين قد انسحبوا من تلك المحميات فقط لتركيز جهودهم على الحرب الجزائرية.

وكون الوطنيون الجزائريون منظمة تسمى جبهة التحرير الشعبية الجزائرية عام ١٩٥٤ أو باختصار الـFLN بالفرنسية. ونشبت الثورة بعد ذلك بثلاثة أسابيع فقط فى يوم الأول من نوفمبر ١٩٥٤ وهو يوم عيد جميع القديسين، واختار الجزائريون هذا اليوم تحديدا لأهميته الشديدة للأقدام السوداء الكاثوليكية، واستمرت تلك الحرب المريرة ثمانية أعوام فى إطار حرب عصابات كلاسيكية ضارية. ولم يزد عدد المحاربين الجزائريين عن ٤٠,٠٠٠ فقط ولكن أيدهم السكان الجزائريون وقدموا لهم العون والمؤن والإمدادات. وأدت هجماتهم المفاجئة على مزارع ومنشآت "الأقدام السوداء" إلى استنزاف مجهودات وموارد الجيش الفرنسى والذى وصلت أعداده فى أوج الثورة وذروتها إلى ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل، وممرت أوقات عصيبة كاد يهزم بها الجزائريون ولكنهم استطاعوا دائما إعادة جمع شملهم فى الملاذ الآمن فى تونس والعودة إلى القتال ثانية. وكان الانتصار المصرى الكبير فى أزمة السويس حافزا قويا لهم وساعدهم على الاحتفاظ بخطوط تموينهم مفتوحة لاستلام الأسلحة الروسية والصينية، ومهدت أزمة السويس أيضا الطريق لعودة الجنرال دى جول إلى السياسة الفرنسية، فلقد احتاج الشعب الفرنسى آنذاك إلى زعيم وطنى قوى لإنقاذه من المغامرات المأسوية فى الخارج، كما استعد

الفرنسيون أخيرا لزيادة سلطات رئيس الجمهورية. ووعد الجنرال أثناء حملته الانتخابية بالنصر في الجزائر وقام بزيارتها وكان ينهى كل خطابه الجماهيرية بعبارة "تحيا الجزائر الفرنسية" ولكنه بدأ بعد استيلائه على مقاليد الحكم في اتباع سياسة الخرشوف ويعنى ذلك أن يتخلص من الواحد بعد الآخر مثل أوراق الخرشوف عند اقتلاعها الواحدة بعد الأخرى من التشكيلة القوية للجنرالات اليمينيين عتاة المستوطنين وكبار موظفى الإدارة الرجعيين الذين عارضوا كل محاولات إجراء مفاوضات سلام لكل أسلافه، ورد هؤلاء الفرنسيون المتطرفون بإنشاء منظمة معادية لديجول تسمى المنظمة السرية المسلحة والتي قامت بمجموعة كبيرة من الأعمال الإرهابية في الجزائر وفرنسا من عام ١٩٦١ فصاعدا.

ولكن تم الاتفاق على وقف إطلاق النار مع جبهة التحرير الجزائرية في إيفيان عام ١٩٦٢، ولكن تم استبدال كبار الزعماء الجزائريين مثل فرحات عباس آنذاك وحل محلها جيل آخر أكثر شبابا وراديكالية.

ولم يتم حل المشكلة الأساسية للاستقلال الكامل في فرنسا إلا في آخر دقيقة ولكن وافقت عليها فرنسا في النهاية. وقتل في الحرب أكثر من ١٨,٠٠٠ جندي فرنسي و ١٠,٠٠٠ من المستوطنين الفرنسيين "الأقدام السوداء" وحوالى مليون جزائري. وكانت لهذه الحرب أبعاد مأساوية، وكانت العلاقة بين فرنسا والجزائر وبين الجزائريين والفرنسيين دائما قوية بالرغم من الظلم والكرهية الناتجة عنه، ولذلك تشهبت الثورة الجزائرية حينما نشبت نزاع شديد بين أعضاء من نفس العائلة، ولذلك سرعان ما عادت الأمور إلى مجاريها بعد الاستقلال في بعض المجالات على الأقل.

وتولى أحمد بن بللا مقاليد الحكم في الجزائر المستقلة، وأصبح أول رئيس للجمهورية الجزائرية المستقلة وذلك بعد فترة قصيرة من الحرب الأهلية والتي غادر خلالها معظم المليون فرنسي البلاد، وكان زعيما شعبيا ولكن تميز أيضا بالتهور وفضل الحلول السلطوية غير العملية لحل مشاكل بلاده.

ولم تستمر جبهة التحرير الجزائرية بعد انتهاء الحرب. وتركزت السلطة السياسية في الجزائر حول الزعماء المدنيين الأقوياء أو جماعات النفوذ والسطوة العسكرية، واحتلت الجزائر مركزا مرموقا تحت، عامة بلا في حركة التحرير الأفريقية وشئون منظمة الوحدة الأفريقية وكانت من الدول الأفريقية القليلة التي حصلت على استقلالها بقوة السلاح، ولذلك كان من المفترض أنها ستطبق سياسات اشتراكية صارمة لمواجهة المشاكل العديدة التي خلفتها الحرب الطويلة مع فرنسا. وعارض بن بلا بشدة كل مظاهر الاستعمار الجديدة كما أصبح معاديا بالذات لحكومات الأقلية الأوروبية في جنوب أفريقيا. ولذلك تحالف تحالفا وثيقا مع روسيا وحلفائها الشيوعيين وبالذات كوبا. واحتفظت الجزائر بعلاقات وثيقة مع فرنسا بالرغم من الذكريات الأليمة للحرب القوية. وتم استخدام الآلاف من الفنيين الفرنسيين للعمل في إدارة وتشغيل آبار النفط في الصحراء الجزائرية، كما عمل الآلاف من الشباب الفرنسيين لفترات قصيرة كمعلمين في المدارس الجزائرية بدلا من أداء خدمتهم العسكرية في فرنسا.

ولكن تدهور موقف بن بلا داخل الجزائر بالرغم من هيئته الدولية الكبيرة، فلقد تركت الحرب الأهلية التالية لحرب الاستقلال الجراح العميقة في عدة أنحاء من البلاد وبالذات بين بربر منطقة القبائل المحبين للحرية والذين سحق بن بلا محاولات معارضتهم بشدة، وغضب الكثير من الجزائريين من وسائله السلطوية الدكتاتورية.

الفصل الثامن عشر

الطريق إلى الاستقلال (٢): أفريقيا من الصحراء إلى الزمبيزي

تعود جذور الوطنية السوداء إلى أعماق التاريخ في اتجاهات متعددة. وكان أحد الدوافع القوية نمو المفهوم العرقي لسلالة العبيد الأفريقيين في العالم الجديد والتي نادى بها مفكرون سياسيون مثل ماركوس جارفى بشعاره أفريقيا للأفريقيين وإدوارد بلايدن الذي استقر في أفريقيا عام ١٨٥٠ وعبر عن آرائه الخاصة بالشخصية الأفريقية ولكن كانت الأفكار الأفريقية العامة المشتركة لويليام دوبوا أكثر تأثيرا ونفوذًا كما قام هذا المفكر السياسى بتنظيم المؤتمرات الأفريقية العامة المشتركة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. وتأثر أفريقيون كثيرون من المستعمرات البريطانية الذين يدرسون في بريطانيا والولايات المتحدة بتلك الأفكار والآراء. ووجد اتجاه آخر في منظومة الوطنية الأفريقية ونبعت من الأفكار الاشتراكية والشيوعية الأوروبية التي هاجمت النظام الاستعماري بشدة وبالذات بعد الثورة الروسية. واكتشف الأفريقيون المقيمون في أوروبا في الاشتراكية وبالذات في الماركسية الشيوعية وسائل للنشاط السياسى التي بدت ملائمة تماما لاحتياجاتهم. وتم اعتبارها أيضا بناء للبطولة في الصراع العالمى ووعدا للحرية والرخاء في المستقبل. كما وجدت أيضا المفاهيم القومية القوية الشائعة في أوروبا آنذاك والتي سرعان ما انتشرت أيضا في البلاد المستعمرة في آسيا انتشار النار في الهشيم.

ولكى نرى كيف تشابكت تلك الاتجاهات المعقدة المختلفة مع بعضها البعض لإنتاج النشاط السياسى الذى أدى إلى الاستقلال فيكفى أن نلقى نظرة ثاقبة كمثال على الحياة المبكرة لكوامى نكروما كما وصفها بدقة فى سيرته الذاتية "غانا". وولد نكروما ربما عام ١٩٠٩ وكان ابن صانع ذهب من قبيلة نزيما التى عملت منذ فترة طويلة بالتجارة فى الساحل الغربى. وتعلم نكروما فى مدرسة تبشيرية رومانية كاثوليكية، ثم فى المدرسة الثانوية الكبيرة فى اشيموتا بالقرب من أكرا، وفكر فى الدخول بالسلك الكهنوتى، وأصبح مدرسا فى المدرسة التبشيرية، ولكن لم يكف ذلك طموحاته بالمرّة. ولذلك سافر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥ بمساعدة أحد أعمامه الذى يعمل فى لاجوس. وظل هناك عشرة أعوام فى الدراسة فى البداية ثم قام بالتدريس فى جامعة لنكولن فى ولاية بنسلفانيا، وكان قارنا شرها، وذكر أن كتابات الشيوعيين والاشتراكيين قد أثرت عليه كثيرا فى صياغة أفكاره وأوجه نشاطاته الثورية. ولكنه أضاف "إن كل الأدب الذى درسته قد أثر بى بالذات كتاب "فلسفة وآراء" للكاتب ماركوس جارفى فلقد ألهم خيالى للغاية، وغادر نكروما أمريكا إلى لندن عام ١٩٤٥ وقابل هناك لأول مرة الصحفى جورج بادموور، من جزر الهند الغربية والذى أصبح أحد أقرب أصدقائه ومستشاريه، ولعب الرجلان دورا رياديا فى المؤتمر الأفريقى الخامس الذى انعقد فى مدينة مانشستر فى ذلك العام. وكان معظم المندوبين فى هذا المؤتمر من الأفريقيين بالرغم من رئاسة دوبوا له والبالغ من العمر ٧٣ عاما آنذاك، واعتبره المشاركون الأب الروحى الكبير للحركة. ويقول بادموور عن دوبوا "إنه قد أثر بكتاباته وفلسفته السياسية أكثر من أى شخص آخر على كل الشباب المجتمعين هناك والقادمين من أقاصى الأرض"^(٥٠) وأقر المؤتمر توصيات مصاغة بأسلوب شديد اللهجة ويدين الاستعمار لقد قررنا أن نكون أحرارا، ونريد التعليم، ونريد الحق فى حياة كريمة والحق فى التعبير عن أفكارنا وعواطفنا وأن نقبل وننتج صورا من الجمال، كما أننا نطالب

(٥٠) George padmore, pan Africanism or Communism? (london 1956.) P161

بالسيادة والاستقلال لأفريقيا السوداء وسوف نحارب بكل الطرق الممكنة من أجل الحرية والديمقراطية والتقدم الاجتماعى، وعمل نكروما فى المؤتمر، وفيما بعد فى لندن مع جومو كنياتا، وقابل أفريقيين آخرين من المستعمرات الفرنسية مثل سنجور وهوفويه بوانييه، ولكن تم معظم النشاط السياسى بين الأفريقيين فى تلك المرحلة فى لندن أو باريس وليس فى أفريقيا ذاتها، ووضعت آنذاك دعائم وأسس حركة شملت القارة كلها. فلقد ولد الوعى السياسى للطلبة الأفريقيين، ولذلك تحدثوا كلما اجتمعوا عن السياسات الوطنية وحركات التحرر من الاستعمار (نكروما).

ساحل الذهب: الاختراق

لم تفعل الحركة الأفريقية العامة بالرغم من حصولها على ولاء المثقفين الأفريقيين الشباب الذين درسوا فى الخارج إلا القليل أو لا شىء فى أفريقيا ذاتها إلى عام ١٩٤٧ ولكن قرأت مجموعة صغيرة مميزة من المثقفين الأفارقة فى غرب أفريقيا البريطانية جرائد الدكتور أزيكيوى التى مهدت الطريق إلى مفاهيم سياسية أكثر راديكالية.

واعتقدت الحكومات الاستعمارية بالقدر الذى سمعت به عن الحركة الأفريقية العامة أن ذلك مجرد "حديث طلبة" وكان الزعماء الأفريقيون الذين اعترفت بهم تلك الحكومات والتى استعدت لمنحهم بعض التنازلات السياسية المحدودة رجالا من جيل سابق والذين أثروا تحت الحكم الاستعماري وهم: الزعماء، المحامون، رجال الأعمال والمزارعون الأثرياء. وأسس رجال من ذلك الطراز عام ١٩٤٧ مؤتمر ساحل الذهب الموحد فى محاولة لمواجهة مشكلة التوفيق بين زعامة الطبقة المثقفة وجماهير الشعب (نكروما) وكانوا رجالا صالحين ذوى خبرة ومن وطنيى ساحل الذهب أيضا. وتطلعوا للحصول على الاستقلال فى أقصر وقت ممكن، واعتقد بعضهم أن ذلك ممكن بعد عشرة أعوام.

ولكنهم فهموا أيضا أنه وجب الضغط باستمرار على الحكومة الاستعمارية والحصول على تأييد الشعب. ولكنهم لم يعرفوا كيف ينظمون ذلك؛ إذ كانت لديهم مهن يمتنعونها وكانت السياسة بالنسبة لهم عملا ثانويا مثلما كان الحال لمعظم السياسيين الأوروبيين أيضا آنذاك. وكان السياسون المحترفون الوحيدون في بلاد غرب أوروبا هم وكلاء الأحزاب السياسية المختلفة ولكنهم لا يتقدمون أبدا للانتخابات. ولذلك طلب زعماء مؤتمر ساحل الذهب للموحد من نكروما العودة إلى الوطن عام ١٩٤٧ وأن يكون الأمين العام للمؤتمر أيضا، ورأوا أنه للرجل المناسب لأنه يعرف تماما أساليب الإدارة والتنظيم كما أنه سوف يزيح أعباء الأعمال الشاقة عن كاهلهم، ولذلك بدأ نكروما بعد عودته إلى ساحل الذهب في ممارسة العمل السياسي من أجل أخذ زمام المبادرة من الحكومة الاستعمارية وبدأ في إصلاح تنظيم المؤتمر الذي لم يتميز بالكفاءة بالمرة. ووجدت في دراستي لسجل أعمال حزب المؤتمر أنه قد تم إنشاء ثلاثة عشر فرعا في أنحاء البلاد ولكن الحقيقة أنه لم يتم إنشاء إلا فرعين ولا يتمتعان بأي كفاءة أيضا، ورأيت أهمية السفر والتجوال في طول البلاد وعرضها آنذاك. وكانت النتائج باهرة لأننى أنشأت ٥٠٠ فرع في المستعمرة (الأصلية) فقط، كما أصدرت بطاقات عضوية وجمعت للمساهمات المالية وبدأت في الحصول على الدعم المادى.^(٥١)

ولكن تورط زعماء المؤتمر في أحداث مظاهرات عنيفة قام بها جنود سابقون. وقبضت الحكومة على الزعماء الستة الكبار لحزب المؤتمر ومنهم نكروما وسجنهم. وكان ذلك بداية الانشقاق بين نكروما وزملائه. فقد رحب نكروما تماما بذلك العنف بعكس رفاقه الذين رأوا أنه ليس السبيل إلى الاستقلال. وردت الحكومة البريطانية على تلك الاضطرابات بإنشاء لجنة أفريقية عامة تحت رئاسة السيد هانلى كوسس لتقديم توصيات للإصلاح الدستورى. وانضم الزعماء الخمسة الآخرون إلى اللجنة بينما تم تجاهل نكروما ولم تتم دعوته.

(٥١) Ghana, (London 1959), P.61

وقبلت الحكومة البريطانية دستور كوسى وكان ذلك علامة مرحلة جديدة فى التحركات البريطانية نحو إزالة الاستعمار فى أفريقيا. وطبق الحاكم الجديد السيد تشارلز أردن كلارك الذى تولى منصبه عام ١٩٤٩ هذا الدستور. وأنشأ مجلس تشريعى أفريقى عام وتم انتخابه مباشرة فى المناطق الأكثر تقدما وبطريقة غير مباشرة فى أماكن أخرى، كما تم أيضا إنشاء مجلس تنفيذى بثمانية وزراء يتم اختيارهم من المجلس وثلاثة آخرون يعينهم الحاكم من صفوف جهاز الخدمة المدنية الأوروبية، وبدأ نكروما حكمه فى ظل هذا الدستور كرئيس للإدارة الحكومية أولا، ثم كرئيس للوزراء من عام ١٩٥١ إلى ١٩٥٤ ولكن كان نكروما قد أنشأ حزبه الخاص آنذاك وهو حزب الوفاق الوطنى لمعارضة حزب المؤتمر وأدان دستور كوسس وذكر انه غش إمبريالى وطلب الحكم الذاتى الآن. وبدأ بعد ذلك مرحلة "النشاط العملى" لتأييد مطالبه.

ويعنى ذلك القيام بالاضطرابات وعدم التعاون مع السلطات لخلق شعور عام بالقلق والصراع فى البلاد. ولذلك تم القبض على نكروما وزعماء حزبه وتم الزج بهم فى السجن بعدة نهم منها التحريض وإثارة الشغب والانشقاق. وظلوا لمدة عام كامل فى السجن بينما جهزت الحكومة الانتخابات العامة فى فبراير ١٩٥١. وفاز حزب نكروما بقيادة ك.أ. جيديما أثناء فترة سجن زعيمه. وأبدى الحزب كفاءة انتخابية رائعة لدرجة أنه حاز على إعجاب واحترام الحكومة الاستعمارية التى تميزت بالعداء الكبير فى السابق. ولذلك قرر أردن كلارك إطلاق سراح نكروما ودعوته لتشكيل الحكومة. ووافق نكروما من جانبه على التخلي عن طلبه بالحكم الذاتى الآن والعمل لفترة تحت الدستور الأخير. وقدمت فرصة العمل فى الحكومة لوزراء نكروما فرصة رائعة لتعلم دقائق الحكم الداخلى قبل تولى مسئوليات الحكم بعد الاستقلال.

وتعهد أردن كلارك بأن تنفذ الحكومة الاستعمارية هذا الاتفاق تماما ولكن لفترة بسيطة محددة كما تم التوصل إليه فى فبراير ١٩٥١ والتعاون مع حزب

رايكالى ذى شعبية كبيرة. ولكن كان حزب الوفاق الوطنى مختلفا تماما فى أهدافه وزعامته عن حزب المؤتمر المعتدل المكون من أبناء الطبقة الوسطى والذين رغبت السلطة الاستعمارية فى تسليم الحكم لهم فى السابق. ثم راقبت الحكومة البريطانية فى لندن والعالم الخارجى كله بدهشة شديدة الصداقة المتزايدة بين السير تشارلز أرن ونكروما المختلفين تماما وهما يقودان ساحل الذهب نحو الاستقلال. ويذكر نكروما بعبارات مؤثرة كيف وصله تاريخ الاستقلال من أرن كلارك وهو ٧ مارس ١٩٥٧ والذي حددته الحكومة البريطانية لاستقلال ساحل الذهب تحت اسمه الجديد "غانا".

وقدم لى برقية من وزير الخارجية البريطانية وحينما وصلت إلى الفقرة الخامسة دمت عيناى من شدة الفرحة بحيث لم أستطع قراءة باقى الوثيقة. ورفعت عيني بعد بضعة دقائق ونظرت إلى عيني الحاكم. ولم نقل شيئا لمدة بضعة دقائق. وربما نظر كلانا إلى الأعوام السبعة السابقة من عملنا المشترك والذي بدأ بالشكوك والظنون السيئة وسوء الفهم ثم حلت محلها مفاهيم الثقة والصراحة والصداقة. وأصبحت الآن لحظة النصر بالنسبة لنا الاثنين لحظة لا يمكن وصفها أبدا.

وقال الحاكم وهو يمد يده للمصافحة "إنه يوم عظيم لك ولما حاربت من أجله يا سيدى رئيس الوزراء" ولكننى أدركته قائلا: "إنها نهاية ما حاربنا نحن الاثنين من أجله يا سير تشارلز. فلقد ساهمت بالكثير من أجل الوصول إلى ذلك، ولولا مساعدتكم الكريمة لما كنت قد نجحت بدون تلك المساعدة والمعاونة. إنه يوم سعيد لكلينا". (٥٢)

توابع استقلال غانا في أفريقيا الغربية البريطانية

وتم اتخاذ قرار إنهاء الاستعمار في مستعمرات غرب أفريقيا البريطانية تماما مثل ساحل الذهب. وبدأ طريق الاستقلال في نيجيريا بقوة وحماس بواسطة دستور جديد بدأ تطبيقه في عام ١٩٥١. وكان هذا العام أيضا عام اتفاق أردن كلارك مع نكروما. ولكن استمر طريق الاستقلال في نيجيريا ثلاثة أعوام أكثر من غانا. وكانت الأسباب ناتجة عن المشاكل العديدة النابعة من اختلاف مستويات التعليم والثروة والمفاهيم بين المناطق النيجيرية الثلاث، فما تزال طبقة الفولبي الحاكمة ذات تأثير كبير في الشمال. أما المنطقة الغربية فلقد تحدثت بلغة اليوربا أساسا ولكنها نظمت تقليديا بواسطة تقسيمها إلى عدد من الوحدات السياسية التي يحكمها زعماء من الملوك. وتتكون المنطقة الشرقية أساسا من المتحدثين بلغة الإيجو والذين لم تربط وحدات سياسية أبدا بينهم. ولذلك لا يحتمل حل تلك المشاكل النابعة من تلك الاختلافات بإنشاء دولة موحدة تشمل نيجيريا كلها، وحاول دستور عام ١٩٥١ ذلك فعلا جزئيا ولكنه فشل لعدم صلاحيته عمليا. وأصبح الدكتور أزيكيوي رئيسا لوزراء المنطقة الشرقية وانتقد بالذات محاولات تخفيض السلطات الخاصة بالمناطق. ولذلك لا يمكن حل مشاكل نيجيريا إلا بالوصول إلى حل وسط ينبع من نظام الحكم الفيدرالي. ولذلك أخذ هذا النظام وقتا أطول للتطبيق من حكومة غانا المستقلة الموحدة وطبق دستور جديد عام ١٩٥٤ وأصبحت نيجيريا دولة اتحادية لها سلطات محددة تماما للحكومة المركزية من جهة وحكومات المناطق الثلاث من جهة أخرى ومنحت كل منطقة سيادتها الداخلية الكاملة قبل استقلال البلاد كلها، ولكن كان الشمال أكثر المناطق تأخرا من الناحية السياسية، وبدأت تلك المنطقة الشاسعة في لعب دور كامل في الشؤون النيجيرية العامة واستطاعت أن تسيطر على البلاد سياسيا. فلم يمكن أبدا تكوين حكومة اتحادية قوية دون وزراء من حزب مؤتمر شعب الشمال. وكان أول رئيس وزراء دولة نيجيريا المستقلة من الشمال هو السير أبو بكر تافاوا باليوا.

وأدت الضغوط والمشاكل الخاصة النابعة من تفاعلات المصالح الخاصة للمناطق إلى تأخير تاريخ الاستقلال إلى عام ١٩٦٠. وكانت أهم مشكلة فى سيراليون وبالذات فى جامبيا هى عكس مشكلة نيجيريا تماما. فقد كانت المستعمرتان صغيرتين للغاية وبالتالي فقيرتين نسبيا. ولكن لم يمكن للعملية التى بدأت فى ساحل الذهب أن تتوقف. ولذلك استقلت سيراليون عام ١٩٦٠ وجامبيا عام ١٩٦٥. وتعتبر جامبيا من أصغر الدول الأفريقية لأنها تتكون من شريط ضيق من الأرض على ضفتى نهر جامبيا وتحيط بها من كل جانب دولة السنغال الناطقة بالفرنسية. وأثارت عملية منح الاستقلال لجامبيا تساؤلات حول إمكانية استمرارها كدولة مستقلة، ولكن أثبتت التجارب فى جنوب شرق آسيا وغيرها أن الدول الصغرى يمكنها النجاح والاستمرار والازدهار اقتصاديا. واستفادت جامبيا فعلا من حجمها الصغير ووضعها الجغرافى، ولكنها لم تصل أبدا إلى مثل رفاهية تلك الدول.

استقلال غرب أفريقيا الفرنسية

يمكن رؤية اختلاف الموقف تجاه نمو الوطنية بين سكان غرب أفريقيا المتحدثين بالفرنسية والإنجليزية بالمقارنة بين حياة سنجور ونكروما. فلقد اهتم الأفريقيون الناطقون بالفرنسية أساسا بالثقافة الفرنسية أكثر من اهتمامهم بشئون السياسة. وقيل إن الوطنيين المتحدثين بالإنجليزية كانوا يكتبون الدساتير بينما يكتب معاصروهم الناطقون بالفرنسية الأدب والشعر. وولد ليبولد سيدارسنجور عام ١٩٠٦ فى قرية ساحلية جنوب مدينة داکار، وأرسله أهله الكاثوليكيون الأثرياء إلى مدارس فى المستعمرة ثم إلى باريس فيما بعد، وعبرت قصائده التى كتبها فى فرنسا عن شوقه وحنينه إلى أيام طفولته فى وطنه. ثم قام بالتدريس فى مدارس اللغات الفرنسية بعد أن أصبح أول أفريقى يحصل على درجة "مدرس ثانوى

مؤهل" في فرنسا. ثم انضم إلى الجيش الفرنسي عند نشوب الحرب العالمية الثانية، وأسره الألمان الذين حاولوا عبثاً إثارتَه ضد فرنسا. واتصل سنجور خلال إقامته في باريس بالعديد من الأفكار السياسية والأدبية. كما تعرف أيضاً على العديد من أبناء جزر الهند الغربية الفرنسية الممتازين مثل أيمى سيزير من جزيرة مارتينيك والذي سيصبح أيضاً شاعراً وسياسياً. ورأى هؤلاء الشباب أنه يجب عليهم قبل الاهتمام بالأمور السياسية أن يخلقوا مفاهيم جديدة أو مفاهيم أخرى للقيم الثقافية الأفريقية. وأنشأ سنجور وسيزير معاً مفهوم "تأكيد الشخصية الأفريقية السوداء" وهو "تأكيد قيم الحضارة الأفريقية". ثم أنشأ سنجور وأحد زملائه السنغاليين وهو أليون ديوب مجلة "الحضور الأفريقى" عام ١٩٤٧ في باريس وهى مجلة مخصصة لتحديد تلك القيم وإيرازها، وبدأ اهتمام سنجور بعد ذلك بالسياسة العملية النشطة ولذلك عاد بعد الحرب إلى السنغال كسياسى اشتراكى وشارك فى الأحداث التى أدت إلى إنشاء "الاتحاد الفرنسى" عام ١٩٤٦. ولكنه رفض حضور مؤتمر باماكو فى ذلك العام والذي أنشأ حزب التجمع الديمقراطى الأفريقى، ورأى على حق أن الحزب الجديد سوف يسيطر عليه الشيوعيون. ولكنه أنشأ حركة سياسية شعبية فى السنغال وانتخب كنائب فى البرلمان الفرنسى، واتجه العديد من الشباب الأفريقى بتأثير منه إلى الكتابة والشعر والفنون، ومارسوا ذلك بجدية. ويفسر هذا الاهتمام الثقافى لأفضل الشباب فى غرب أفريقيا الفرنسية لماذا لم تكن تلك المناطق ذات ثقافة سياسية واسعة شبيهة بتلك الموجودة عند جيرانها الناطقين بالإنجليزية فى خمسينيات القرن العشرين.

وامتد التأييد إلى حزب سنجور إلى فولتا العليا ومناطق أخرى حيث دخل الحزب فى مواجهة مباشرة مع حزب التجمع الديمقراطى الأفريقى. وكان موضوع الخلاف الرئيسى بين الحزبين من ١٩٥٥ فصاعداً هو سياسة سنجور الفيدرالية وسياسة هوفويه بوانيه الإقليمية. وولد بوانيه فى ساحل العاج عام ١٩٠٥ وذهب إلى فرنسا للمرة الأولى عند انتخابه نائباً عام ١٩٤٥. وكان قبل ذلك مساعداً طبيياً

ومزارعا ثريا فى زراعة الكاكاو وزعيما محليا أيضا. ودخل السياسة بصفته متحدثا باسم اتحاد المزارعين الأفريقيين، وكان عمليا بحثا بالرغم من كونه متقفا جدا، واحتفظ دائما بسمات المزارع. وأصبح أول رئيس لحزب التجمع الأفريقى، ثم تقلد عدة مناصب وزارية فى العديد من الحكومات الفرنسية بعد القطيعة بين حزب التجمع وخلفائه الشيوعيين عام ١٩٥٠. وتحول ساحل العاج بعد الحرب إلى أغنى مستعمرة فى غرب أفريقيا الفرنسية تساهم بـ ٤٠% بالمائة من صادراتها، وذكر بوانيه أن الوحدة الاتحادية التى يؤيدها سنجور تعنى أن ساحل العاج سوف يتحمل دائما إعاشة جيرانه الأكثر فقرا، وكان له أيضا تأثير كبير فى التحضير للقانون الفرنسى العام المسمى بقانون الإطار بصفته وزيرا فى الحكومة الفرنسية عام ١٩٥٦ وسيطرت فرنسا بهذا القانون على السياسة الخارجية والدفاع والتطور الاقتصادى العام. ولكن أصبحت كل فروع الحكم الأخرى ليست من مسئولية الحكومات الاتحادية لغرب أفريقيا أو أفريقيا الاستوائية الفرنسية بل من اختصاص الاثنى عشرة مستعمرة التى تكونها. وتأثر القانون الفرنسى العام أو قانون الإطار بشدة باقتراب موعد استقلال ساحل الذهب ونيجيريا.

وفهمت فرنسا أن الاتحاد الفرنسى الذى أنشأته كخطة لإنشاء دولة كبيرة قد أصبح غير موضوعى، وأنه يجب أن يحل محله تنظيم آخر أقل تماسكا ويشبه الكومنولث البريطانى ولكن قسمت السيادة بفضل هوفويه بوانيه جزئيا إلى وحدات صغيرة لدرجة (فى السكان إن لم يكن فى الحجم) أن اعتمادها على فرنسا سوف يستمر دائما، وحاول سنجور مقاومة تلك التغيرات الدستورية التى رأى أنها ستقسم غرب أفريقيا إلى دول كثيرة ضعيفة ولكن دون جدوى وأيده فى تلك المعارضة سيكو توري من غينيا وهو أحد قيادات حزب التجمع الديمقراطى الأفريقى.

ولد سيكوتورى عام ١٩٢٢، ولذلك كان أصغر بكثير من سنجور وهوفيه بوانيه وكانت عائلته فقيرة بالرغم من كونه من سلالة سامورى الشهير، وكانت

أول زيارة له إلى فرنسا بصفته مندوبا في مؤتمر نقابات العمال الشيوعيين عام ١٩٤٦، وسرعان ما أصبح سيكو توري أهم شخصية في اتحاد نقابات العمال في غرب أفريقيا الفرنسية ولكنه قاد عملية انفصال عن الحزب الأم في فرنسا برغم اعتناقه الأفكار الشيوعية المشتركة حتى ذلك الوقت. ثم كون اتحادا جديدا لنقابات العمال الأفريقية بدون صلات خارجية لها. وفهم سيكو توري في عصر ركز فيه معظم معاصريه على زيادة نفوذهم في باريس أن أسس الحكم الحقيقية ودعائهم في أفريقيا ويجب الحصول عليها هناك، وفضل آنذاك الاحتفاظ بحكومة مركزية في داكار وبدا عام ١٩٥٨ أنه سيحدث إعادة تنظيم للأحزاب السياسية بأن يغادر سيكو توري حزب التجمع الأفريقي وأن ينضم إلى حزب سنجور. ولكن عاد الجنرال ديغول آنذاك إلى مقاليد الحكم في فرنسا عام ١٩٥٨ نتيجة لثورة الجيش الفرنسي في الجزائر في شهر مايو من ذلك العام.

وأقر ديغول دستورا جديدا لفرنسا وأنشأ الجمهورية الفرنسية الخامسة. ثم عرض على الشعوب المستعمرة الاختيار بين السيادة (الحكم الذاتي) بصفتها دولا مستقلة داخل المجموعة الفرنسية والتي حلت محل الاتحاد الفرنسي السابق أو الاستقلال الكامل فورا مع قطع كل العلاقات مع فرنسا. وقبلت كل شعوب غرب أفريقيا الفرنسية وأفريقيا الاستوائية الفرنسية اقتراح ديغول للسيادة الذاتية في الاستفتاء الذي أجرى في شهر سبتمبر ١٩٥٨ باستثناء غينيا التي صوت شعبها مثل زعيمها سيكو توري بـ "لا". ولكن شعر سيكو توري بخيبة أمل شديدة لفشل غرب أفريقيا الفرنسية في الاستقلال في هيئة اتحاد يلم جميع دولها. واعتبر أن المجموعة الفرنسية ما هي إلا صورة معدلة من استمرار السيطرة الفرنسية.

ثم أوقفت فرنسا فورا كل مساعدتها الاقتصادية وسحبت موظفيها والفنيين التابعين لها بعد أن قررت غينيا الاستقلال، وواجه سيكو توري الانهيار الاقتصادي بالاتصال بالاتحاد السوفيتي وباقي الدول الشيوعية لمساعدته. وقدم له نكروما قرضا فوريا يقدر بعشرة ملايين جنيه إسترليني، كما قرر الرجلان إعلان الوحدة

بين بلديهما ويعتبر ذلك تضامنا بينهما أكثر من كونه من الأعمال الدستورية الحقيقية ولكن أثرت تلك الأحداث تماما على المستعمرات الأخرى التي صوتت بـ"نعم" في الاستفتاء إذ بدأت في إعادة تقييم موقفها. وكون السنغال والسودان الفرنسي "اتحاد مالى"، وطلبا الاستقلال التام عام ١٩٥٩ وحصولا عليه فعلا ولكنهما استمر في عضوية المجموعة الفرنسية. وانضمت ساحل العاج إلى اتحاد أقل ترابطا يسمى "مجلس الوفاق" مع داهومى وفولتا العليا والنيجر الذين طلب كل منهم استقلاله التام عن فرنسا. وهكذا استقلت كل غرب أفريقيا الفرنسية وكل أفريقيا الاستوائية الفرنسية بحلول شهر نوفمبر ١٩٦٠ بالإضافة إلى جمهورية مالاياش مدغشقر. ثم انقسم اتحاد مالى بعد شهرين فقط إلى مكوناته الأصلية وهما السودان الفرنسي الذى احتفظ باسم مالى ودولة السنغال.

ولذلك انتهى تماما دور المجموعة الفرنسية كما رغبها ديغول وإن استمرت المعونة الفرنسية وبالتالي ظل النفوذ الفرنسي قويا للغاية ويقول منتقدو عملية إزالة الاستعمار بهذا الأسلوب إن الفرنسيين قد اتبعوا سياسة البلقنة بتقسيم الاتحادين ومنح الاستقلال إلى الأثنى عشرة مستعمرة المكونة لها كل على حدة. ولكن كان مفهوم الاتحاد أساسا نظاما فرنسيا وضعه الفرنسيون لى تقوم المستعمرات الأكثر ثراء بالإتفاق على المستعمرات الفقيرة ولكن رأى رؤساء المستعمرات الثرية بعد الاستقلال مثل هوفويه بوانيه فى ساحل العاج ولومومبا فى الجابون أنهما ليسا مستعدان أبدا للاستمرار فى ذلك وتقديم معونات مالية إلى دول أخرى بعد الاستقلال. ثم تبعت المناطق الموضوعة تحت وصاية الأمم المتحدة فى غرب أفريقيا الطريق نفسه الذى اتبعته هذه المستعمرات. وقررت توجولاند البريطانية الانضمام إلى غانا بعد استفتاء أجرى عام ١٩٥٧. أما توجو الفرنسية فلقد استقلت كجمهورية مستقلة عام ١٩٦٠. وكان تاريخ الكامبيرون أثناء فترة إزالة الاستعمار الأكثر عنفا من بين كل الدول غرب أفريقيا. فلقد نشبت الحرب الأهلية بين الشيوعيين وأعدائهم عام ١٩٥٦. ولم تنته تماما حينما حصلت الكامبيرون على

استقلالها عام ١٩٦٠. ثم عقدت استفتاءات في الكاميرون البريطانية عام ١٩٦١، وقرر شمال الكاميرون أن يظل داخل شمال نيجيريا، أما الجنوب فلقد قرر الاتحاد مع الكاميرون الفرنسي. ولذلك شملت جمهورية الكاميرون الاتحادية لأول مرة على أجزاء تحت الحكم الاستعماري الإنجليزي أو الفرنسي معا. ولذلك تحدث الكاميرون حاجز اللغة الذي يفصل بين الدول الناطقة بالفرنسية أو الإنجليزية في غرب أفريقيا.

قال نكروما دائما إنه سيقوم بعد استقلال غانا بقيادة باقى أفريقيا إلى طريق الاستقلال والوحدة. ولذلك قام بدعوة ممثلين من الحركات الوطنية فى ديسمبر ١٩٥٨ لثمانية وعشرين منطقة ما زالت تحت الحكم الاستعماري للاجتماع فى أكرا فى المؤتمر المشترك لشعوب أفريقيا. وكان نكروما آنذاك فى أوج مجده فلقد كان الزعيم الذى لا ينازعه أحد للحركة الأفريقية المشتركة. ولكنه شارك زعامة هذا المؤتمر مع توم مبوبيا من كينيا الذى أثبت كفاءة عالية فى رئاسة المؤتمر. ويعنى ذلك أن شرق أفريقيا قد بدأت تلعب دورا مهما فى الثورة الأفريقية. وكان مبوبيا وجوليوس نيريرى قد أسسا قبل بضعة أشهر حركة الحرية الأفريقية المشتركة لشرق ووسط أفريقيا والتي أرسلت مندوبين لها إلى أكرا. وقال مبوبيا إن كينيا وتجانيقا كانتا تسيران فى طريق وعر فى صراع الاستعمار وشعرتا بالحاجة للحصول على تأييد أفريقى عام من الجميع. وأنشأ مؤتمر أكرا هيئة لتوجيه ومساعدة الكفاح ضد الاستعمار، كما قرر إنشاء منظمة إقليمية أخرى مشابهة تختص بوسط وشرق أفريقيا، وعاد بعض الزعماء الأفريقيين الذين لم يكونوا يعرفون بعضهم البعض قبل ذلك من أكرا بشعور جديد من التضامن والهدف المشترك، فعاد باتريس لومبوبيا مثلا إلى الكونغو البلجيكية متأثرا للغاية من الاتصالات التى قام بها. واعترف البلجيكيون فيما بعد أن مؤتمر أكرا قد أدى إلى نتائج حاسمة بالنسبة للكونغو. فلقد حصل لومومبا هناك على التأييد الذى يحتاج إليه لتحقيق رغبته فى الاستقلال.

شرق أفريقيا: الماوماو وتعدد الأعراق

كان "الطريق الصعب في الكفاح من أجل الاستقلال" الذي أشار إليه توم مبيوا نتيجة لعدم ثبات السياسة البريطانية تجاه شرق أفريقيا خلال الأعوام ١٩٤٨-١٩٥٨ فلم تفهم الحكومة البريطانية أن قوة جذب وشدة الوطنية الأفريقية وحماسها سوف تنتشر من أدنى القارة إلى أقصاها بسرعة بالغة، ولكنها كانت تعرف أيضا أن منطقة شرق أفريقيا أكثر فقرا وتخلفا من بلاد غرب أفريقيا. ولذلك استنتجت أن الوطنية في شرق أفريقيا سوف تكون أكثر بطئا في تطورها. وتأثر التفكير البريطاني أيضا في سياسة شرق أفريقيا من مشكلة المستوطنين البيض. ورات أن وجودهم يستلزم القيام ببعض التعديل في السياسة الانتخابية العادية القاضية بوجود صوت انتخابي لكل شخص. وكان البديل هو وضع دستور "متعدد" الأعراق مثلما ذكرنا في الفصل السادس عشر واعتقدت أن تلك المرحلة من التطور السياسي سوف تستمر عشرين عاما على الأقل. ويعني ذلك فترة أطول مما قد يقدده الأفريقيون.

ورأى معظم الأوروبيين أن تلك التفرقة بين غرب وشرق أفريقيا من أجل الاستقلال مبررة للغاية. ولكن نشبت فجأة عام ١٩٥١ حركة ثورية دامية في كينيا وقامت بها جماعة من شعب الكيكويو وعرفت باسم الماوماو، ولا يمكن لأي مراقب محايد أن ينكر أن جماعة الماوماو كانت على حق في مطالبها. فلقد زادت أعداد شعب الكيكويو كثيرا خلال العصر الاستعماري ولكن الأرض المتاحة لهم في الماضي قد استقر بها المستوطنون البيض وأقاموا عليها مزارعهم المترامية الأطراف. وذكرت اللجنة الملكية لشرق أفريقيا في تقريرها عام ١٩٥٥ "لقد تأثرنا كثيرا خلال فترة تحقيقنا من ظاهرة وجود مناطق معينة مكتظة بالسكان لدرجة تأثر الزراعة بذلك، مما أدى إلى تراجع كفاءتها وتراجعها هناك، وأدت تلك الزيادة السكانية الكبيرة أيضا إلى تدمير الموارد الطبيعية وأن العائلات لا يمكنها أبدا إيجاد أراضي جديدة لها. ولذلك هاجرت أعداد كبيرة من شعب الكيكويو للعمل في المدن

بأبخس الأجور أو فى المزارع الأوروبية أيضا، وعاش الكثير منهم عاطلين عن العمل وانحرفوا إلى الجريمة. ونظر هؤلاء الجائعون بحسد مفهوم وباستياء عظيم إلى مزارع المستوطنين البيض العامرة. وكانت تلك المزارع كبيرة وحسنة العناية وثرية فعلا. ولكن شملت العديد منها مناطق غير مزروعة على الإطلاق.

وبدأت ثورة الماوماو باغتيال عدد قليل من المزارعين البريطانيين وقتل ماشيتهم بالإضافة إلى أعمال عنف أخرى. وكان الغرض من ذلك إثارة الرعب فى صفوف المستوطنين البيض وإرغامهم على مغادرة البلاد. وحدثت أحداث مشابهة للغاية فى أيرلندا خلال القرن التاسع عشر؛ فلقد كان أصحاب الأراضي هناك من الإنجليز أما المزارعون الأيرلنديون فكانوا فقراء معدمين مطحونين تماما وبدون أراض، وردت الحكومة الاستعمارية فى كينيا بالقبض على جومو كنياتا وباقى زعماء الكيكويو وأودعتهم السجن، ونفى كنياتا تلك الاتهامات بشدة. ولكن لم تكن لعملية إزاحته عن مسرح الأحداث تأثير فى مجرى الأحداث؛ فلقد كان الثوار قليلي العدد نسبيا. ووجدت قواعدهم فى الغابات النائية عند سفوح جبل كينيا ومجموعة هضاب نياندارا ويخرجون ليلا من تلك الغابات الكثيفة فى جماعات صغيرة للهجوم على المزارع المجاورة والجنود المرسلين ضدهم. كما توجهوا أيضا للانتقام من إخوانهم الكيكويو المتهمين بالتعاون مع الحكومة الاستعمارية. ولم يقبل البريطانيون تلك الأمور أبدا، ولجأوا إلى استخدام أساليب الحرب المضادة لحرب العصابات لأن العدو كان دائم الكر والفر ومختفيا دائما. وتم إخراج المزارعين الكيكويو من منازلهم المتفرقة المنعزلة وأرسلوا للإقامة فى قرى يسهل الدفاع عنها والسيطرة عليها. وتم استجواب المتهمين بالتعاون مع الثوار بشدة بالغة فى محاولة انتزاع اعترافات ومعلومات منهم. كما استخدمت معسكرات اعتقال للثوار الأسرى وبها أساليب غنية للغاية وذلك للقضاء على المقاومة النفسية للسجناء ويعنى ذلك تخليهم عن أفكار ترى الحكومة خطورتها. ويعتبر ذلك طبيعيا فى كل الحروب السرية. ولذلك تم القضاء على معظم الثوار بحلول عام ١٩٥٥ ولكن بتكلفة مقدارها ٢٠

مليون جنيه إسترليني وبعض المئات من القتلى البريطانيين. وقدرت خسائر الحرب الأصلية بين الثوار والمتعاونين بـ ٣٠٠٠ قتيل ولكن يرى المراقبون أن الرقم يصل إلى ٣٠,٠٠٠ فعلا أى عشرة أضعاف الرقم المعلن، ولم يحدث أبدا شىء شبيه بذلك فى غرب أفريقيا ولا يمكن المقارنة هنا إلا مع الحرب الجزائرية فى كفاح الوطنيين ضد الفرنسيين. ولم يمكن أبدا التقدم نحو الحكم الذاتى فى تلك الظروف ومادام الصراع. ولكن بينت تلك الثورة أيضا أن الجماعات الصغيرة من المستوطنين البريطانيين المقيمين فى كينيا وتنجانيقا ونياسالاند وشمال روديسيا لا يمكنهم أبدا الدفاع عن أنفسهم، كما بينت أيضا أن الدساتير المتعددة الأعراق فى تلك البلاد لا قيمة لها ولا يمكن تطبيقها إلا باستمرار الحكم البريطانى فقط.

وكانت أهم نتيجة لثورة الماوماو فى التطور السياسى لكينيا هو منع ظهور حزب شعبى كبير (إلى عصر ما بعد الاستقلال). فلم تسمح الحكومة أبدا مادامت الثورة وخوفا من انتشارها إلى بقية أجزاء البلاد إلا بمنظمات سياسية على المستوى الإقليمى فقط. وتطورت بالتالى الاختلافات بين المناطق لدرجة أنه بعد انتهاء الثورة قد حدثت انشقاقات عميقة بين السياسيين الكيكويو واللويو (Luo) من جهة وسياسيى شعوب الكالفجيني وشعوب البانتو الساحلية من جهة أخرى وظهر بالتالى ضربان متنافسان بعد السماح بعودة الأحزاب على المستوى الوطنى وهما حزب الوحدة الوطنية الأفريقية الكينية أو (كانوا) وحزب الوحدة الديمقراطية الأفريقية الكينية أو (كادو). ولذلك نظرا لعدم الثقة المتبادلة بين الحزبين تأخر استقلال كينيا وكانت آخر دول شرق أفريقيا تحصل عليه بينما كان بإمكانها أن تكون الأولى. وكانت أوغندا منقسمة على نفسها بطريقة عميقة تماما مثل كينيا وإن كان ذلك لأسباب أخرى، ووجدت ثلاثة مواضيع مثيرة للشقاق هناك. وكانت الأولى خصوصية مملكة بوجندا التى خافت فقدان وضعها المميز فى البلاد والتى حصلت عليه بعد اتفاقها مع السلطة الاستعمارية، كما وجد معظم سياسيى بوجندا أنه من الصعب تماما العمل مع السياسيين الآخرين من مناطق أخرى فى البلاد.

وكان العامل الثانى هو الوطنية المعتدلة لباقي الممالك التقليدية فى الجنوب والغرب واستفادوا تماما من الامتيازات وعزلة بوجندا، إلا أنهم شعروا أيضا أنهم سيخسرون فى التغيير السريع. ووجدت فى المرتبة الثالثة تلك العناصر الراديكالية الأقل ترددا فى الشمال والشرق وحيث سيستمد مؤتمر الشعب الأوغندى الاشتراكي تأييده وأنصاره هناك. ولكن كان التحالف الذى أدى إلى استقلال كينيا هو ذلك التحالف الذى قام بين الحزب الأول والثالث الممثلين لتلك المصالح. وتحقق ذلك ببطء، ولذلك لم تكن أوغندا أبدا فى مقدمة الدولة المرشحة للاستقلال فى شرق أفريقيا بسرعة بالرغم من عدم وجود مشكلة مستوطنين لديها.

وكانت تتجانيا هي التى حددت سرعة التطورات فى شرق أفريقيا وإن كان ذلك مثيرا للدهشة نظرا لتخلفها الاقتصادي والثقافي الكبير عن جارتيهما الشماليتين، كما أن الوعي السياسى بها قد ظهر بسرعة أقل خلال الأعوام الأولى للثورة الأفريقية ولكنها اندفعت بشدة من الصفوف الخلفية للمستعمرات المرشحة للاستقلال إلى موقف الصدارة فيما بين ١٩٥٦ - ١٩٥٩ وحددت المعايير أيضا لكل المستعمرات البريطانية من كينيا إلى الزمبيزى ولكن لاشك أن نجاحها المفاجئ قد كان بفضل حزب الوحدة الوطنية الأفريقية لتتجانيا الذى أنشأه جوليوس نيريرى عام ١٩٥٤، وكان هذا الحزب أكثر الأحزاب الأفريقية تنظيما فى أى مكان فى أفريقيا بعد حزب المؤتمر لتكروما. وأنشأ نيريرى بعد ثلاثة أو أربعة أعوام من عودته إلى بلاده بعد إتمام دراسته فى أدنبره ذلك الحزب على مستوى البلاد كلها وبفروع عديدة فى مختلف الأنحاء. وقال إن الأمر الذى ساعده تماما هو انقسام السكان إلى أكثر من ١٢٠ مجموعة قبلية ولكن لم تتميز إحداها بالحجم الكبير لدرجة مطالبتها بوضع مميز. وساعدته أيضا عملية انتشار اللغة السواحلية فى البلاد نظرا لتوغل العرب بها خلال القرن التاسع عشر والسياسات التعليمية لحكومات السلطة الاستعمارية الألمانية ثم البريطانية. وساعده فى نهاية الأمر عدم وجود أحزاب سابقة مما مكنه من البداية بطريقة موفقة تماما.

ووجه نيريرى منذ البداية هجومه ضد مفهوم "التعدد العرقى" للحصول على دستور يمهد للاستقلال. ومثلما تكرت بعثة الأمم المتحدة فى تقريرها عام ١٩٥٤ "يرغب الأفريقيون فى تلك البلاد من هيئة الأمم المتحدة والسلطة الاستعمارية التأكيد على هوية البلاد الأفريقية وأن الأفريقيين هم أصحاب الشأن بالرغم من تعدد الأعراق. فهى دولة أفريقية أساسا ويجب أن تستقل كذلك، وأظهر نيريرى خلال الأعوام الأربعة التالية اعتداله الشديد، وبين أنه بالرغم أن حزبه كان يرغب فى الحصول على السلطة إلا أن غير الأفريقيين يجب ألا يخشوا شيئا. وعليهم ترك الخوف جانبا.

وقم نيريرى تلك المبادئ المعتدلة بنجاح كبير فى انتخابات عام ١٩٥٨ والتي عقدت فى عصر تطبيق الدستور المتعدد الأعراق. وانتصر مرشحو حزب ثانوا فى كل الدوائر التى رشحوا بها بالإضافة إلى غير الأفريقيين الذين أيدهم حزب ثانوا مقابل تأييدهم له فيما بعد وتوافقت نتائج تلك الانتخابات تماما مع تعيين حاكم بريطانى جديد وهو السير ريتشارد توربول الذى فهم تماما مثل أردن كلارك فى غانا "ساحل الذهب" عام ١٩٥١، أنه قد تم الوصول إلى اللحظة الفاصلة المؤهلة للاستقلال. ولذلك أعلن عام ١٩٥٨ أن الأغلبية الأفريقية هى التى ستسيطر على مقاليد البلاد عند استقلالها، ووافق نيريرى على ذلك بشدة قائلا: "لقد انتظرنا طويلا لكى يجرى حاكم لتلك البلاد ليقول لنا إن السياسة الرسمية البريطانية هى أن تكون للأفريقيين اليد العليا فى إدارة شئون بلادهم. وحصلنا الآن على هذا الوعد: وأقول هنا إنه لا يجب أن يشعر غير الأفريقيين بأى خوف. وإذا ما وجد هذا وجب عليهم التخلّى عنه فورا.

ولذلك خرجت تتجانيا بسرعة من عصر الاستعمار تحت قيادة نيريرى الواعية وتيرنبول اللذين عملا بنفس الروح التى أبداهما كل من نكروما وأدرن كلارك، واستقلت البلاد فى شهر ديسمبر ١٩٦١ بعد فترة انتقالية قصيرة استمرت أقل من ثلاثة أعوام وحدث ذلك فى بلاد يفوق سكانها سكان غانا وأن لم يوجد بها

إلا عشر أعداد المتخرجين من الجامعات والمدارس الثانوية، ونظرا لتخلي عن النظام المتعدد الأعراق في تتجانيا أصبح من المستحيل بطبيعة الحال التمسك به في كينيا أو أوغندا ولا أيضا في نياسالاند ولا روديسيا الشمالية، وهما المنطقتان الشماليتان لاتحاد وسط أفريقيا الذي أنشئ عام ١٩٥٣ (انظر فصل ١٩) وتم الاعتراف بالاتجاه الجديد للسياسة البريطانية حينما خلف أين مالكويد ألن لفوكس بلايد بوكس الكفاح من أجل كل عام إضافي من الحكم الاستعماري بينما رغب ماكلسويد أن تتخلص بريطانيا من مسؤولياتها في شرق أفريقيا بأقصى سرعة ممكنة، ولذلك فإن دستور كينيا الذي يحمل اسمه قد ذكر أهمية الأغلبية الأفريقية في المجلس التشريعي عام ١٩٦٠، ولذلك قال أحد زعماء المستوطنين البيض "لقد انتقلت السلطة في لحظة إلى الأفريقيين، ويعتبر تأخر تاريخ الاستقلال في كينيا وأوغندا نتيجة للاختلافات السياسية بين الأفريقيين أنفسهم فلقد استمر الشقاق بين حزبي كانو وكادو عنيقا في كينيا حتى بعد إطلاق سراح كنياتا عام ١٩٦١، وحينما استقلت البلاد في ديسمبر عام ١٩٦٣ فإنه قد وجد لديها دستور للوفاق الوطني وبحيث يمنح سلطات واسعة للمناطق المحلية المختلفة، واستطاع مليتون أوبوتي في أوغندا تأسيس حزب مؤتمر الشعب الأوغندي، ثم تحالف عام ١ٹ٦٢ مع حزب الكاباكا بوجيندا الملكي وأدى هذا التحالف في نهاية الأمر بأوغندا إلى الاستقلال، وكان كابا كا البوغندا هو أول رئيس للدولة.

وأنهت بريطانيا سيطرتها الاستعمارية على شرق أفريقيا في ديسمبر ١٩٦٣ حينما منحت الاستقلال لزنزبار بواسطة دستور جعل السلطان العربي رئيسا للدولة. وتكونت الحكومة من تحالف هش بين الحزب السياسي الذي تديره الأقلية العربية القديمة وأصغر حزبين يمثلان الأغلبية الأفريقية من السكان. ولكن استمرت تلك الحكومة أقل من شهرين قبل أن تقضى عليها ثورة شيوعية. ويجب إلقاء اللوم هنا على البريطانيين نظرا لتعجلهم بمنح الاستقلال دون وجود أساليب قوية لانتقال السلطة إلى حكومة مدنية ملائمة.

الكونغو البلجيكية

تمت عملية الانتقال من الحاكم الاستعماري إلى الاستقلال بطريقة سريعة ومحفوفة بالمخاطر في الكونغو في الوقت نفسه الذي كانت تسير به شرق أفريقيا بسرعة نحو الاستقلال. وحكم البلجيكيون مستعمراتهم الشاسعة كأنها معزولة تماما عن التغيرات التي تحدث في أماكن أخرى في القارة ولذلك حينما نشر أحد المحاضرين في جامعة أنتورب المهمة بدراسة شئون الاستعمار واسمه الدكتور فان بيلسن دراسة بعنوان "خطة الثلاثين عاما للتحرر السياسي لأفريقيا البلجيكية" عام ١٩٥٦ فإنه قد تمت مهاجمته بشدة بالغة وبضراوة ووصف بأنه من الثوريين الخطرين. وكان فان بيلسن قد كتب دراسته على أسس موضوعية بحثة، وكان على حق حينما قال: "إن عملية تكوين صفوة مثقفة لتتكون منها الكوادر الصالحة المؤهلة للحكم والإدارة ما زالت متأخرة بجيل كامل عن المستعمرات البريطانية والفرنسية. ولكن تركت بلجيكا الكونغو بعد أربعة أعوام فقط من دراسة فان بيلسن وبعد اتهامه بالتسرع الشديد في مفاهيمه وتركت الكونغو يواجه مصيره بنفسه. ولذلك اعترف رئيس وزراء بلجيكا - بطريقة مستترة - بفشل بلاده غداة استقلال الكونغو في عام ١٩٦٠ قائلا:

"كان يمكن للحلول السياسية في الكونغو أن تكون أسهل بكثير إذا ما وجدت تنظيمات محلية مؤهلة على مستوى الدوائر والمناطق والأقاليم. ولكن لم يكن استقلال الكونغو انتصارا للقومية الأفريقية ولكنه كان فقط نتيجة للتردد البلجيكي وعدم قدرة دولة صغيرة مثل بلجيكا مقاومة الضغوط الدولية عليها، وظهرت أول الشروخ في الإدارة الاستعمارية البلجيكية عام ١٩٥٧ حينما اشترك الأفريقيون في الانتخابات المحلية.. وعاد آنذاك جوزيف كازافوبو والذي شيد لنفسه زعامة سياسية قوية بين شعب الباكونغو عند نهر الكونغو الأدنى كمسئول إداري (عمدة) لإحدى دوائر مدينة ليوبولد فيل. وتشابه ذلك تماما مع الأحداث التي جرت في كل الأماكن الأخرى في البلاد كلها. ولذلك كتب أحد المراقبين الأمريكيين:

"إن كل حزب تكون في الكونغو تقريبا يعود في أصله إلى جماعة قبلية، وحيث إنه توجد عدة قبائل فإنه توجد عدة أحزاب. كما أن المصالح المحلية لها الأهمية القصوى وهي دائما عنصر قوى في السياسة. وكان باتريس لومومبا الذي ظهر في الفترة نفسها كزعيم سياسى فى ستانلى فيل هو السياسى الكونغولى الوحيد الذى كانت لديه رؤية واضحة لأهمية إنشاء حزب واحد للبلاد كلها. ولكنه كان يحتاج الوقت بالإضافة إلى مقاومة طويلة من الحكومة الاستعمارية البلجيكية لكى يرغب باقى السياسيين الكونغوليين على فهم أهمية هذا الحزب. ولكن لم توجد آنذاك مقاومة.

فلقد زار الجنرال ديغول مدينة برازافيل فى شهر أغسطس ١٩٥٨، وهى عبر النهر فقط من ليوبولد فيل، ليعلن السيادة الذاتية داخل المجموعة الفرنسية للمستعمرات الأربع التى كانت تكون اتحاد أفريقيا الاستوائية الفرنسية. وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى إثارة القلاقل فى الجانب البلجيكى من نهر الكونغو. وبدأت العديد من الأحزاب القبلية الصغيرة فى المطالبة بالاستقلال للكونغو البلجيكى. ونشبت الاضطرابات والإضرابات ثم قامت أعمال شغب عنيفة فى ليوبولد فيل بعد أقل من شهر من عودة لومومبا من مؤتمر أكرا. ونهبت الجماهير من العاطلين المحال الأوروبية والمدارس التبشيرية. واستطاع البلجيكيون إعادة النظام إلى العاصمة بعد أقل من أسبوع ولكن أصيبت الهيئة البلجيكية بضربة قاضية. ولذلك ظهر فى العام التالى أن النظام والقانون على وشك الانهيار فى العديد من أجزاء البلاد. ونشأت بعض أخطر الأوضاع من التوتر بين جماعتين متنافستين من الكونغوليين. فوجد تهديد بحرب أهلية على سبيل المثال فى إقليم كاساي بين الكاساي بالوبا العاملين فى مزارع أشجار زيت النخيل والبنلولا الذين نظروا إلى البالوبا كدخلاء غرباء فى بلادهم، كما نشبت حالة توتر قصوى فى رواندا وبوروندى الحاكمة وأغلبية السكان من الهوتو، واحتفظ التوتسى بسيادتهم الاجتماعية والسياسية تحت الحكمين الألمانى والبلجيكى. كما كان هدفهم تماما مثل المستوطنين فى روديسيا الحصول

على الاستقلال السياسى للبلاد قبل إدخال نظام الانتخابات العامة التى يمكن أن تقضى على سيادتهم. ورد البلجيكيون على التحدى المتزايد للتوتسى بنقل تأييدهم إلى الحركة السياسية الجديدة للهوتو ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة على الموقف الناجم من ذلك، فلقد تم قتل التوتسى فى كل أنحاء البلاد بواسطة رعاياهم القدامى وأحرقت منازلهم وسرقت ممتلكاتهم بينما انتظرت الإدارة البلجيكية غير قادرة أو غير راغبة فى التدخل، ولذلك تغيرت صورة أفريقيا البلجيكية تماما فى نهاية عام ١٩٥٩ عما كانت عليه فى عام ١٩٥٦. والحقيقة أن الاضطرابات كانت معظمها محلية، كما كان يمكن لدولة أوروبية أخرى أكبر من بلجيكا أن تقضى تماما على تلك الاضطرابات. ولكنها كانت مأساة رهيبة بالنسبة لبلجيكا، إذ وجدت أمامها اختيارات صعبة والتى كما وصفها أحد المتحدثين الحكوميين بأنها محاولة تنظيم الاستقلال بأسرع ما يمكن أو قبول المسؤولية عن سفك الدماء التى ستحدث من أى تأخير. وتؤدى الحرب الاستعمارية إلى خسائر أخرى فى الكونغو.

ولذلك دعت الحكومة البلجيكية فى بداية عام ١٩٦٠ مجموعة من الزعماء السياسيين الكونغوليين إلى مؤتمر المائدة المستديرة فى أوستند وذكر العديد من الأفارقة المشتركون أنهم توجهوا إلى بلجيكا فى انتظار الاتفاق على فترة انتقالية مقدارها خمسة أعوام وتنتقل بعدها البلاد. وكانوا مستعدين لقبول ذلك. ولكن شعرت بلجيكا آنذاك بخيبة أمل شديدة فى الكونغو ولم ترغب فى تحمل مسؤولية حكم البلاد بينما تتوحد الأحزاب السياسية الكونغولية أو بينما يتدرب الموظفون المدنيون الكونغوليون على تولى مسؤولية الإدارة من البلجيكين وقبل كل شئ لم تكن بلجيكا على استعداد لإرسال أى قوات جديدة للقضاء على الاضطرابات التى سوف تزداد بالتأكد إلى رتب الضباط وهاجم الجنود الكونغوليون الضباط البلجيكين وعائلاتهم. وظهرت كل الأحقاد المتركمة القديمة إلى السطح بعد انهيار الأمن والقانون. وانتقم الأفريقيون من الأوروبيين كما دخلت مختلف شعوب الكونغو فى قتال مرير فيما بينها وحدثت أسوأ المعارك الأفريقية الداخلية فى منطقة

كاساي حيث اشتعلت نيران حرب أهلية مريرة بين البالوبا وبالبنلولوا، ولذلك فإن الصراع بين أنصار الحكم المركزي وحكم الولايات والذي كان آنذاك من أهم الموضوعات في تاريخ أفريقيا (في كينيا وغرب أفريقيا الفرنسية على سبيل المثال) قد أصبح محفوفًا بالمخاطر في الكونغو.

فلقد رغب كازافوبو من الباكونغو، وكالونجي من البالوبا وتشومبي من كاتانجا في إنشاء اتحاد فيدرالي تكون به السلطة الحقيقة في أيدي زعماء الأقاليم والقبائل. وحاول لومومبا من جهة أخرى إنشاء حكومة مركزية قوية. ولذلك انسحب تشومبي ومعه إقليم كاتانجا كله وانفصل عن الكونغو معلنا استقلاله في ١١ يونيو ١٩٦٠. وأيدت "شركة اتحاد الصناعة المعدنية" العملاقة المسيطرة على مناجم النحاس في كاتانجا تلك الخطوة وباركتها، وفقدت الحكومة الكونغولية هنا أهم مصادر دخلها. ولذلك طلب لومومبا مساعدة الأمم المتحدة لوقف انهيار البلاد ولكي تتخلص بلاده أيضا من القوات البلجيكية التي تدخلت في الثورة. ودخلت الأمم المتحدة آنذاك في أخطر عملية في تاريخها. ولكنها طلبت قوات التدخل في الكونغو من الدول الأفريقية فقط وفعلت ذلك بحكمة بالغة. ولكن لم تفعل تلك القوات ما رغب به لومومبا بالضبط ولذلك اتصل بالاتحاد السوفيتي طالبا المساعدة.

وتحول هنا الوضع الفوضوي في الكونغو إلى صدارة المسرح العالمي بوصول الصراع والتنافس بين الشيوعية والرأسمالية إلى قلب القارة الأفريقية. وجعل ذلك الدول الأفريقية أكثر إصرارا على اتباع سياسة "الحياد الإيجابي" ولكن أدت أزمة الكونغو أيضا إلى حدوث انقسامات عنيفة في صفوفها مثلما سنرى في الفصول التالية. وكان نكروما قد تنبأ منذ عام ١٩٦٠ قائلا:

"وإذا ما فشلنا في حل مشكلة الكونغو بأنفسنا وبمواردنا الأفريقية الخالصة فإن ذلك يعنى أن مفهوم الحكم الذاتي في أفريقيا قد أصبح مستحيلا".

وأدى أمر استدعاء لومومبا للروس إلى سقوطه. فلقد اقتصر تأييد بلجيكا والمصالح الغربية الأخرى قبل ذلك على تأييد ضمنى خفى لحركة انفصال تشومبي في كاتانجا. ولكن بدأت تلك التأثيرات وبدعم أمريكي واضح في التدخل في شئون الحكومة الكونغولية المركزية بطريقة سافرة. وتمت لذلك الإطاحة بلومومبا بقيادة الكلونيل (العقيد) موبوتو والعديد من السياسيين المحليين بقيادة كازافوبو. وتم طرد الروس، وحارب لومومبا في حماية الأمم المتحدة في ليوبولد فيل، ولكن قبض عليه الجنود الكونغوليون أثناء توجهه إلى ستانلي فيل، وقتل في يناير بالرغم من كتمان أخبار مقتله لعدة أسابيع تالية. واضطرت الأمم المتحدة من أجل مواجهة انهيار الحكومة المركزية الكونغولية إلى محاربة انفصال كاتانجا. وكان الأمين العام للأمم المتحدة داج هامرشولد نفسه ضحية لمأساة الكونغو؛ إذ قتل في حادث سقوط طائرة بالقرب من ندولا في شمال روديسيا في سبتمبر ١٩٦١ أثناء توجهه للتفاوض مع تشومبي، وتم احتلال الولاية المنفصلة في عام ١٩٦٣ فقط بعد قتال مرير وأعيدت إلى الكونغو ولكن أفلسَت الأمم المتحدة آنذاك إذ رفض عدد من الدول الغنية ومنها فرنسا وروسيا المساهمة في عمليات الكونغو. كما تم الشك في أغراض الدول المساهمة ماليا (ومنها بريطانيا وأمريكا بالذات) واتهمت بأن لها أغراضا هناك ومصالح خاصة لزيادة نفوذها أيضا. واضطرت الأمم المتحدة في نهاية الأمر إلى الانسحاب من الكونغو وتركته يواجه مصيره بنفسه. ولم تتمكن الحكومة المركزية من الاحتفاظ بمنطقة كاتانجا بقوة السلاح أبدا. كما لم يمكن الاحتفاظ بوحدة البلاد واستمراريتها اقتصاديا إلا بقبول تشومبي ومؤيدوه كوزراء في الحكومة المركزية وبشروطهم الخاصة.

واستمر التوتر وازداد بين شعبى التوتسى واليهوتو في رواندا وإلى درجة أقل في بوروندى. وفشلت كل محاولات دمج الدولتين الصغيرتين في دولة واحدة. ولذلك سارت كل منهما في طريقها الخاص. وأشرفت الأمم المتحدة على المراحل النهائية المؤدية إلى الاستقلال. واستطاعت الأغلبية الخاضعة في الماضى الإطاحة

بالمملكة التوتسوية ولكن بعنف هائل وأعلنت الجمهورية. واستمرت الملكية في بوروندي ولكنها تحولت إلى ملكية دستورية. وأدى ذلك إلى زيادة التوتر بين التوتسي في رواندا الذين تحول معظمهم إلى لاجئين في البلاد المجاورة. وازدادت الصراعات والتوترات بين المجموعتين العرقيتين (وبين شمال ووسط الهوتو أيضا) واستمرت خلال العقود الثلاث الأولى من استقلال رواندا، وانعكس الوضع ولكن بنفس النتائج في بوروندي. فلقد أطاح رئيس الوزراء ميكومبيرو بالملكية عام ١٩٦٦ وأعلن نفسه رئيسا للبلاد. وقامت سياسته على تدعيم الأقلية التوتسية مما أدى إلى المجازر الرهيبة التي صاحبت ثورة الهوتو عام ١٩٧٣.

مدغشقر

كان لمدغشقر تاريخ منفصل عن القارة الأفريقية في عدة نواحي كما رأينا في الفصول السابقة. ولم يكن سكان الجزيرة من الأفريقيين، كما لم تكن لغتهم أفريقية بالمرّة. ولم توجد حركة انتقال كبيرة وتنقل عبر مضيق موزمبيق إلى بداية القرن التاسع عشر على الأقل. وكانت مدغشقر خلال عصر الحكم الفرنسي محطة تقع في منتصف الطريق بين المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا وتلك الموجودة في جنوب شرق آسيا والمحيط الهادى. ولكن بدأت عزلة الجزيرة في التلاشى منذ الحرب العالمية الثانية بينها وبين القارة الأفريقية. فلقد احتلت القوات البريطانية الجزيرة وكان العديد منها من القوات الأفريقية. وبدأ طلاب مالاجاش (مدغشقر) يتوجهون بأعداد كبيرة إلى فرنسا للدراسة بعد الحرب وحيث قابلوا طلابا آخرين يتحدثون الفرنسية من منطقة غرب أفريقيا. وشعروا بالألفة والقرب الشديد منهم أكثر بكثير من طلاب جنوب شرق آسيا. وكان العامل الفاصل هنا أن تاريخ كفاح مدغشقر للاستقلال قد تزامن مع عصر الثورة الإفريقية وليس الآسيوية. وأنشئ أول حزب هدفه الاستقلال عام ١٩٤٦، ودخل هذا الحزب في

أول صراع له مع الفرنسيين فى العام التالى نظرا لقيام ثورة عنيفة بسبب المجاعة التى سادت فى البلاد كلها نتيجة لسوء إدارة هيئة زراعة الأرز الحكومية سياسة زراعة ذلك المحصول الحيوى، وانتشرت الثورة فى كل أنحاء الجزيرة وبين مختلف الجماعات والأعراق، ويشمل ذلك الهوفا حكام العصور الماضية كرد فعل عفوى وغريزى ضد الحكم الاستعمارى، وازدادت الثورة ضراوة بعد وحشية القوات الفرنسية ضد الثوار، واستلزم الأمر عاما كاملا لإخمادها وتشابهت ثورة مالاجاش فى نواحى عديدة مع ثورة الماچى-ماچى المبكرة ضد الحكم الاستعمارى الألمانى فى شرق أفريقيا الألمانية عامى ١٩٠٥ و ١٩٠٦. فلقد ظن ثوار الماچى ماچى أن الرصاص الألمانى سوف يتحول إلى ماء عند مغادرته فوهات البنادق وحدث الشئ نفسه أثناء ثورة المالاچاش. .

"وقام الثوار بحرابهم المسنونة بمهاجمة القوات الفرنسية المسلحة بالبنادق والمدافع الرشاشة وساروا فى صفوف مترابطة وهم يصيحون "رانو رانو" أى الماء الماء كتعويذة سحرية من أجل تحويل الرصاص إلى ماء عند مغادرته فوهات البنادق والمدافع وبدأ الشك يراود حتى بعض الجنود الفرنسيين وشعروا بالفرع الشديد عند عدم حدوث خسائر فى القوات المهاجمة وإن كان ذلك فقط بسبب سوء تصويبهم أو سوء حالة ذخيرتهم القديمة." (٥٣)

ثم دخلت مدغشقر فترة انتقالية هادئة على غير العادة ومرت من الحكم الاستعمارى إلى السيادة الذاتية إلى الاستقلال التام. وتدين الجزيرة بذلك إلى اعتدال إحدى شخصياتها الكبيرة وهو فيليبير تسيرانانا الذى بدأ حياته كمدرس قبل العديد من الزعماء الأفريقيين. وكان يعارض الثورة واستخدم بعد القضاء عليها كل مواهبه لرأب الصدع العميق. وتعاون حزبه وهو الحزب الديمقراطى الاجتماعى مع الفرنسيين لتطبيق الإصلاحات المنصوص عليها فى القانون سابق الذكر عام

(٥٣) O.Mnnoni, prospero and Calilan (London 1956), P.59

١٩٥٦. وأصبح بعض المالاجاشيين الذين اشتركوا فى الثورة أو اتهموا بإشعالها وزراء فى وزارته.

وأيدته شعب المالاجاش فى الاستفتاء الذى أجراه ديجول عام ١٩٥٨، وبالإضافة أيضا إلى الـ ٨٠,٠٠٠ مستوطن فرنسى فى الجزيرة. ثم أصبح تسيرانا بعد ذلك رئيسا للجمهورية بعد استقلالها فى شهر يونيه ١٩٦٠. وكانت المعارضة الوحيدة الخطيرة لحكمه فى شعب الهوفا المقيم فى الهضاب حول العاصمة. وكان الهوفا وهم حكام البلاد السابقون من أفضل عناصر السكان تعليما وثقافة وحضارة. وكان معظمهم أيضا من البروتستانت بينما معظم سكان الجزيرة من الكاثوليك. ولذلك استلزم القضاء على التوترات الدينية والاجتماعية بعض الوقت ولكن أصبحت مدغشقر عضوا مهما فعالا فى مجموعة الدول الأفريقية ولعبت دورا رياديا فى أنحاء الدول الناطقة بالفرنسية وأيضا بالمنظمة الأفرومالاجاشية المشتركة ومنظمة الوحدة الأفريقية. واستجابت مالاجاش لطلبات جنوب أفريقيا لعقد علاقات اقتصادية معها. ولذلك امتزج المالاجاشيون أخيرا فى أفريقيا وهم أصلا شعب استعمر الجزيرة قادما من المحيط الهندى ولكن بعد مضى فترة طويلة للغاية من ذلك العصر.

الفصل التاسع عشر

الطريق إلى الاستقلال (٣) وسط أفريقيا

قررت الحكومة البريطانية عام ١٩٥٣ أثناء عصر تقدم المستعمرات البريطانية في غرب وشرق أفريقيا في طريق الاستقلال أن تقوم بإجراء دستوري لمستعمراتها في وسط أفريقيا ذات الطبيعة المختلفة عن باقي البلاد الأفريقية. ولذلك انضمت محميات شمال روديسيا ونياسالاند، التي لا توجد بها أعداد كبيرة من المستوطنين المقيمين، مع روديسيا الجنوبية التي حكمها مستوطنوها البيض منذ عام ١٨٩١ وتم إنشاء اتحاد وسط أفريقيا، وأملت بريطانيا أن ينمو هذا الاتحاد إلى دولة قوية متعددة الأعراق لتكون توازنا قويا لقوة جنوب أفريقيا التي يحكمها البيض، وكانت إحدى الحلول الوسط في اتحاد وسط أفريقيا هي عملية تقسيم سلطة الحكم بين بريطانيا وحكومة محلية مشكلة من المستوطنين، ولم ينجح ذلك الأمر وتحطم الاتحاد بعد عشرة أعوام لاستحالة الحكم طبقا لتلك المفاهيم والصراع الناشب منها. فلم تستطع بريطانيا أيضا مقاومة تيار القومية الأفريقية النامية في المنطقتين الشمالييتين، بينما قررت روديسيا الجنوبية الصمود لفترة طويلة أكثر.

وتقع مستعمرتا أنجولا وموزمبيق على جانبي اتحاد وسط أفريقيا وتسيطران على خطوط مواصلاته مع المحيطين الأطلنطي والهندي، وكانت الإمبراطورية البرتغالية في أفريقيا الاستثناء الوحيد بعد الحرب العالمية الثانية. ولمدة ثلاثين عاما كاملة لم يحدث لنظام استعماري أوروبي ذي جذور أوروبية ألا يمكنه الصمود أمام تيار الوطنية الأفريقية الهائلة، وكانت أسباب هذا الاستثناء أولا: أن البرتغال من أفقر الدول الأوروبية ولديها أعداد قليلة من الصناعات ومستوى معيشة ليس أفضل

من العديد من الدول الأفريقية المستعمرة، ولكنها اختلفت عن باقى الدول الاستعمارية الأخرى بأن مصالحها الاستعمارية لم تكن هامشية بل حيوية بالنسبة لكيانها القومى. وكانت الدولة البرتغالية ثانيا دولة دكتاتورية.

واعتماد الشعب البرتغالى فى وطنه عليها ولذلك لم يكثر كثيرا بأسلوب الحكم فى المستعمرات، وكان الدكتور سالازار رئيسا لوزراء البرتغال لفترة طويلة، من ١٩٣٢ إلى ١٩٦٨، وركز دائما على إثارة شعور العزة القومية لكونها دعامة عظمة المستقبل، ولذلك كتب فى عام ١٩٤٢ قائلا: "إن المستعمرات الثرية الواسعة غير المتطورة والقليلة السكان هى التكملة الطبيعية للزراعة البرتغالية، وسوف تجذب أيضا فائض السكان من البرتغال، ولذلك استمرت أعداد كبيرة من البرتغاليين تهاجر إلى المستعمرات الأفريقية، ووجد فى نهاية الستينيات أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ مستوطن فى أنجولا و ١٣٠,٠٠٠ فى موزمبيق بينما بلغ عدد السكان الأفريقيين ٥ ملايين و ٨ ملايين فى المستعمرتين. واحتكر الأوروبيون تماما شئون الزراعة التجارية والتعدين.

وكانت سياسة البرتغال العنصرية شبيهة تماما بسياسة الدمج الفرنسية ولكن لا تمنح صفة المواطنة مزايا سياسية كثيرة لا فى البرتغال ولا فى المستعمرات، ولكى يصبح الأفريقى مواطنا وجب عليه الحصول على مؤهلات ثقافية واقتصادية صعبة لدرجة أنه لم يحصل عليها الكثيرون.

ولذلك تم توظيف معظم السكان على أنهم وطنيون والذين كانت مهمتهم الرئيسية بالنسبة للإدارة تقديم القوى العاملة فقط. وقال أحد الوزراء الاستعماريين عام ١٩٤٣:

"إذا أردنا تعليم أحد الوطنيين الأفريقيين الحضارة فإننا يجب أن نعلمه فى البداية أحد المبادئ الأساسية فى الحياة وهى أنه لا حق له فى الحياة إذا لم يعمل، ولقد استفادت البرتغال للغاية من التطور الاقتصادى للمستعمرات، وحصلت على

٢٥% من ميزانيتها القومية في الستينيات منها، وكان قد تم دمج المستعمرات نظريا بالبرتغال منذ عام ١٩٥١ وأصبحت "مقاطعات ما وراء البحار" وإن استمر الوضع المتدنى للوطن الأفريقي حقيقة واقعة.

اتحاد وسط أفريقيا الفيدرالى

عاشت روديسيا الشمالية والجنوبية أعوام الرخاء أثناء الحرب العالمية الثانية، فلقد ارتفعت أسعار النحاس بدرجة هائلة لكونها مكونا مهما فى الصناعات الحربية والعديد من الأسلحة، وحصلت شركات التعدين فى شمال روديسيا على أسعار جيدة لمعدنها مما أدى إلى ارتفاع أجور عمال المناجم وبالذات البيض منهم الذين سيطروا تماما على المهن ذات المهارة. ثم تم إنشاء عدد من الصناعات التحويلية فى جنوب روديسيا، وزاد إنتاجها الزراعى وبالذات التبغ والماشية والشعير، واستخدم البريطانيون جنوب روديسيا كمنطقة تدريبية لطيارى سلاح الجو الملكى البريطانى، ثم استقرت أعداد كبيرة من العسكريين السابقين بعد الحرب فى البلاد مع عائلاتهم، وكان عدد السكان البيض ٨٠,٥٠٠ عام ١٩٥٤ وارتفع إلى ٢٢٠,٠٠٠ عام ١٩٦٠ مقارنة بأربعة ملايين من السكان الأفريقيين، وأقام معظم البيض فى المدن وبالذات فى ساليسبورى وبولاوايو حيث انضمت إليهم أعداد كبيرة من الأفريقيين من المناطق الريفية، وقسمت الحكومة الروديسية التى يسيطر عليها البيض البلاد طبقا للأعراق، واضطر الأفريقيون إلى الإقامة فى أحياء خاصة بهم فى المدن بينما خصص قانون تخصيص الأراضى، لعام ١٩٣٠ نصف أراضى البلاد كلها، وتشمل معظم أجود الأراضى للبيض. كما احتكر البيض معظم الأعمال إلى مستوى الحرفى الماهر وأخذوا أجورا أعلى بكثير من الأفريقيين.

وتصور معظم الروديسيين البيض فى العشرينات والثلاثينات أن بلادهم سوف تصبح الإقليم الخامس لاتحاد جنوب أفريقيا. ولكن شعر الروديسيون البيض المتحدثون بالإنجليزية بعدم الرضاء تجاه المفاهيم العنصرية المتممة للغاية للحزب الوطنى فى جنوب أفريقيا وانتصاره فى الانتخابات العامة عام ١٩٤٨، ولم يروا فى برامجه أبدا حلا لمشاكلهم، ولذلك انضم السير جود فرى هاجينز رئيس وزراء روديسيا الجنوبية الذى تولى هذا المنصب عدة مرات مع السير روى ويلنسكى رئيس اتحاد عمال التعدين البيض لشمال روديسيا المطالبة بتطبيق خطة قديمة لتوحيد القطرين، ولكنهما عرفا تماما أنهما لن ينجحا أبدا مع الحكومة البريطانية إذا لم تضم للخطة نياسا لاند لتبعيتها الاقتصادية للبلدين الآخرين، وذكر أنه بالرغم من قلة عدد المستوطنين البيض فى روديسيا الجنوبية إلا أنه من الأفضل السيطرة على تلك البلاد الأفريقية بالرغم من صعوبة ذلك، وأن ذلك الأفضل بكثير من كونها جيرانا مستقلة، ويأمل المستوطنون أن يتحول الاتحاد إلى دولة مستقلة ذات سيادة بعيدا عن سيطرة الحكومة البريطانية كما رغبا أيضا فى الحصول على المزايا الاقتصادية النابعة من الاتحاد ونمو مختلف الأعمال مما يؤدي إلى زيادة تدفق الهجرة البيضاء.

ولكن كان النمو الاقتصادى السريع للاتحاد متوقعا تماما، فلقد أنشئت صناعات جديدة فى روديسيا الجنوبية، كما ازدادت مساحة المدن وسكانها وبالذات مدينة ساليسبورى عاصمة الاتحاد كما تم إنشاء أحد أكبر السدود فى العالم على نهر الزامبيزي فى كاريبا لتقديم وإنتاج الكهرباء لمناجم النحاس فى شمال روديسيا الجنوبية أيضا. ولكن لم يستفد الأفريقيون كثيرا مثل الأوروبيين؛ فلقد بلغ متوسط الأجر السنوى للأفريقيين العاملين ٨٧ جنيتها إسترلينا فقط، كما أن العديد من الأفريقيين عاطلون عن العمل أيضا ولا يستلمون أجورا بالمرة، وغضبت نياسالاند بالذات من الحكومة الاتحادية؛ إذ أن كل ما استفادت به فى الاتحاد إعانة سنوية صغيرة اعترافا بفضلها فى تقديم القوى العاملة.

وتعود المعارضة الوطنية الأفريقية في روديسيا الجنوبية إلى أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين عند إنشاء الحركات العمالية، ويشمل ذلك إنشاء جوشو نكومو اتحادا للمدرسين ثم إعادته للعمل كحزب للمؤتمر الوطنى الأفريقى عام ١٩٥٧، ولكن منعتة حكومة وايتهد عام ١٩٥٩، ولذلك أنشأ نكومو حزبا جديدا عام ١٩٦١، وهو حزب الوحدة الشعبية الأفريقية لزيمايبوى، وباختصار زانو ثم حاول نكومو عام ١٩٦٣ إنشاء حكومة فى المنفى فى دار السلام، وردا على ذلك قام سيثول بإنشاء حزب آخر باسم الوحدة الوطنية الأفريقية الزيمبابوى أو زابو داخل روديسيا ذاتها، وهكذا نشأ أول انشقاق خطير منذ البداية فى الحركة الوطنية، وأيد شعب النديبلى حزب زانو لكون نكومو من أبنائه ولذلك وجدت قاعدته المحلية فى بولاوايو، بينما حصل حزب زانو على تأييد شعب الشونا، وكانت قاعدته ساليسبورى وسبق النشاط الوطنى الأفريقى فى كل من شمال روديسيا ونياسالاند عملية إنشاء الاتحاد ولكن أدى فرضه بالقوة إلى إزكاء روح الوطنية بهما والشعور بالخطر المحدق.

ولذلك انهارت الدولة الجديدة فى غضون عشرة أعوام فقط نظرا لتشدد المستوطنين من جهة ونمو الوطنية الأفريقية من جهة أخرى، فلقد أصر السياسيون الأوروبيون الذى يسيطرون على البرلمان الاتحادى وأيضا على برلمان روديسيا الجنوبية على الانفراد بالحكم والاحتفاظ بالسيادة الأوروبية مهما كان الأمر، وكل ما قيل عن مبدأ المشاركة بين الأجناس. وكتب هينجيز عام ١٩٥٦ أن "السيطرة السياسية" يجب أن تظل فى أيدي "أصحاب الحضارة" أى الأوروبيين، وأن ذلك سيستمر إلى المستقبل القريب، أما ويلنسكى فلقد شبه الشراكة بالعلاقة بين الفارس والجواد. ولذلك وصل عداء الأفريقيين للحكومة الاتحادية إلى مداه عام ١٩٥٩ وذلك بعد عودة الدكتور هاستنجز باندا إلى نياسا لاند بقليل وبعد غياب استمر أربعين عاما، وقامت المظاهرات والاضطرابات وأعمال الشغب مما أدى إلى إعلان حالة الطوارئ فى نياسا لاند وروديسيا الجنوبية، وسجن العديد من

السياسيين الوطنيين الأفريقيين، وذكرت الحكومة الاتحادية أن المعارضة قد أتت أساسا من مجموعة من المتشددين الأفريقيين، وساد هذا الرأي أيضا في بريطانيا، ولكن رفضت لجنة دافلين المكلفة بالتحقيق في اضطرابات نياسالاند تلك المفاهيم قائلا:

"وترى الحكومة أن الآمال والتطلعات الوطنية من أعمال أقلية قليلة من السياسيين الأفريقيين أصحاب المصالح الخاصة والذين يخشون فقد مواقعهم في عصر الاتحاد، وأن أغلبية الناس لا تهتم إطلاقا بالسياسة ولكننا وجدنا الحالة على غير ذلك وبالعكس، فلقد اعترف الجميع بأن هناك معارضة قوية للاتحاد وأن لذلك جذورا عميقة ويتفق على ذلك الجميع.

ولذلك تمثل طوارئ عام ١٩٥٩ الخط الفاصل في حياة الاتحاد وقرر البلجيكيون الانسحاب من الكونغو المجاورة في بداية العام التالي كما أن الحكومة البريطانية قد فقدت الأمل آنذاك في التجارب المتعددة الأعراق في تنجانيقا وكينيا، وندد هارولد ماكميلان رئيس الوزراء البريطاني بعدم التقدم في المشاركة الحقيقية في الاتحاد أثناء جولته الأفريقية عام ١٩٦٠، وأنهى جولته في مدينة كيب تاون، حيث ألقى خطابه الشهير "رياح التغيير" أمام برلمان اتحاد جنوب أفريقيا قائلا:

"ولقد رأينا ميلاد الوعي الوطنى لشعوب عاشت لمدة قرون عديدة فى الماضى تابعة لقوى أخرى، وانتشرت تلك الحركة منذ خمسة عشر عاما فى كل آسيا. وطالبت شعوب عديدة هناك من مختلف الأجناس والحضارات بالحصول على الاستقلال. ويحدث الشيء نفسه الآن فى أفريقيا، كما أن أكثر الانطباعات فى ذهنى منذ أن غادرت لندن منذ شهر هى قوة الوعي الوطنى الأفريقى، وتهب رياح التغيير عبر القارة الآن، وسواء أعجبنا ذلك أم لا فإن هذا الوعي الوطنى من الوقائع السياسية الحقيقية ويجب أن تأخذ سياستنا الوطنية ذلك الأمر بعين الاعتبار.

وأدهش خطاب ماكميلان وأغضب سكان جنوب أفريقيا البيض كما أنه اعتبر مرحلة إضافية في تدهور الاتحاد القائم شمال نهر المبوبو، وذكرت لجنة مونكتون والتي أرسلت للتحري عن أحوال الاتحاد أن المشاركة الأفريقية "مجرد سراب" وأوصت اللجنة بأنه في حالة فشل أى حل آخر فمن حق المنطقة الانفصال، ولذلك قرر ايان ماكليود وزير شئون المستعمرات والمسئول عن التخلي عن سياسة تعدد الأجناس في كينيا (فيما سبق فصل ١٨) أن الاتحاد لا يجب أبدا أن يقف حائلا في وجه المنطقتين الشمالييتين إذا تولت الأغلبية الأفريقية مقاليد الحكم، ووصل الأفريقيون إلى هذا الهدف في نياسالاند عام ١٩٦١، ولكن استطاع المستوطنون الروديسيون الشماليون بمساعدة ولنسكى تأجيل هذا التطور لمدة عامين آخرين، ولكن استقلت روديسيا الشمالية في نهاية الأمر عام ١٩٦٣ بقيادة كينث كواندا الذى اشتهر تماما آنذاك كرجل دولة من الطراز الأول وذكر مع باندا أنهما سينتهزان أول فرصة للانسحاب من الاتحاد.

وساء الوضع كثيرا في روديسيا الجنوبية لمؤيدى الاتحاد، فلقد رفض الزعماء الوطنيون الأفريقيون عام ١٩٦١ دستورا جديدا يمنحهم دورا جديدا محدودا في الحكومة وانتخب البيض حزبا يمينيا جديدا يسمى الجبهة الروديسية بزعامة ونستون فيلد إلى السلطة عام ١٩٦٢ وتمسك هذا الحزب بحكم البيض في البلاد، ثم عينت الحكومة البريطانية آنذاك ر. أ. بتلر كوزير خاص للإشراف على حل الاتحاد الذى انتهى فعلا في آخر يوم من عام ١٩٦٣، واستقلت نياسالاند باسم مالاولى في شهر يوليو ١٩٦٤، ثم تبعتها روديسيا الشمالية باسم جمهورية زامبيا في أكتوبر ١٩٦٤، وعادت روديسيا الجنوبية إلى وضعها القديم كمستعمرة بريطانية متمتعة بالحكم الذاتى، ولكنها حصلت على ميزة كبرى بالسيطرة التامة على معظم القوات المسلحة للاتحاد السابق بالإضافة إلى بعض المقاتلات الحربية الحديثة، واستخدمت حكومة الجبهة الروديسية أساليب عنيفة للغاية للقضاء على الحركات الوطنية ثم منعت أكبر حزبين من الأحزاب السياسية الأفريقية، وقيدت

حركة زعمائها ويشمل ذلك كل من نكومو وسيتوهولي دون محاكمة ولذلك أعاد الحزبان إعادة تكوين أنفسهما من مدينة لوزاكا الآمنة.

وحاول فيلاد طوال عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٤ التفاوض مع الحكومة البريطانية من أجل الاستقلال وفشل، ولذلك استقال في أبريل عام ١٩٦٤ وحل محله إيان سميث الأكثر تشددا وضراوة والذي استمر في التفاوض مع حكومة العمال التي تولت زمام الحكم في أكتوبر عام ١٩٦٤ وأعلنت حكومة سميث الاستقلال من جانب واحد في ٧ نوفمبر ١٩٦٥، وتشابهت أول فقرة بها عمدا مع إعلان الاستقلال الأمريكي لعام ١٧٧٦ وذكرت:

"لقد علم التاريخ البشرى أنه قد يصبح من الضروري لشعب أن يحدد اتجاهاته السياسية التي تربطه بشعب آخر بحيث يؤدي ذلك إلى تحديد مصيره لكي يحتل مرتبة ومكانة بين الدول الأخرى بطريقة منفصلة ومتساوية".

ولكن ظهر هذا الإعلان والعديد من المفاهيم الأخرى في إعلان سميث على أنها شديدة السخرية بالنسبة لمعظم الروديسين الأفريقيين، ولم تعترف أي دولة في العالم باستقلال روديسيا الجنوبية من جانب واحد، ولكنها استطاعت نظرا لتعاونها العملي مع جنوب أفريقيا والبرتغال أن تصمد وتقاوم لمدة تزيد على عشرة أعوام أخرى قبل انهيارها.

الحروب الاستعمارية في أنجولا وموزمبيق

نشبت أعمال شغب خطيرة للغاية في لواندا عاصمة أنجولا في فبراير ١٩٦١ بعد ستة شهور فقط بالكاد من استقلال الكونغو. وقام أعضاء مسلحون من الحركة الشعبية لتحرير أنجولا بمحاولة لإطلاق سراح المسجونين السياسيين من السجن في المدينة. ثم نشبت ثورة أخرى أخطر بكثير بعد شهر في شمال أنجولا

بواسطة أعضاء فى حزب وحدة شعوب أنجولا والذى أنشأه هولدن روبرتو عام ١٩٥٨ وعمل هذا الحزب فى قواعد فى الكونغو حيث تأثر روبرتو كثيرا بباتريس لومومبا وأيد شعب الباكونغو الذى يعيش على جانبى الحدود هذا الحزب. ثم اتحد حزب وحدة شعوب أنجولا عام ١٩٦١ مع حزب آخر وكونا معا الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا (فناالا).

وكانت الثورة فى شمال أنجولا حادثا خطيرا للغاية. فلقد قتلت قوات حرب العصابات الوطنية أكثر من ٦٠٠٠ أفريقى من المتعاونين مع الحكومة بالإضافة إلى ٢٠٠٠ من البيض. ويعتبر ذلك أكبر رقم من المدنيين الأوروبيين الذين قتلوا فى أى مستعمرة أفريقية خلال عصر الحروب ضد الاستعمار، فلم يكن البرتغاليون مستعدون بالمرّة لنشوب الثورة واضطروا إلى إحضار ٣٠,٠٠٠ جندي من البرتغال. ونجحت تلك القوات فى القضاء على الثورة بدرجة كبيرة فى نهاية عام ١٩٦١ ولكن بعد قتل ٥٠,٠٠٠ أفريقى فى قتال وحشى، وكان كان ذلك مجرد المرحلة الأولى من حرب التحرير الأنجولية، ثم نشبت ثورات شعبية أخرى فى غينيا البرتغالية عام ١٩٦٢ ثم فى موزمبيق عام ١٩٦٤. وتم الهجوم على السياسة الاستعمارية البرتغالية فى الأمم المتحدة من كل الدول باستثناء جنوب أفريقيا وأسبانيا. وقدمت لجنة فرعية للأمم المتحدة والتي لم يصرح لها بالدخول إلى أنجولا تقريرا فى نهاية عام ١٩٦١ قائلة:

"تواجه السلطات البرتغالية اختيارا تاريخيا فإما الاستمرار فى استخدام القوة معه كل التداعيات والمآسى الناتجة عن ذلك أو الانصياع إلى الرأى العام العالمى واتخاذ الإجراءات البناءة لبدء علاقة جديدة مع شعب أنجولا، ولكن تحتاج فقط لفهم القوى الجديدة المؤثرة على العالم الآن.

ولكن لم يبدو أبدا أن البرتغال قد فهمت تلك القوى. فلقد عدلت القانون بسرعة بعد نشوب الثورة وألغت الحكومة البرتغالية مفهوم الوطنية الأفريقية البالغ

التدنى، واعتبرت كل سكان المستعمرات برتغاليين، ومنحت المجالس التشريعية المحلية بعض السلطات الإضافية، ولكن احتفظ البرتغاليون تماما برغبتهم في بقائهم قوة إمبراطورية كما تم تشجيع زيادة الهجرة إلى المستعمرات، وذكر وزير المستعمرات:

"تعتقد أنه من الضروري تماما الاستمرار في سياسة الاستيطان في أفريقيا البرتغالية بواسطة الأوروبيين البرتغاليين وسوف يقومون بتشييد ديارهم هناك ويجدون في أفريقيا امتدادا لوطنهم" وأضاف: "تبين تلك الإجراءات الثقة التامة في المستقبل وراحة البال والهدوء الذي نواجه به مصاعب اليوم ومشاكله بالإضافة إلى إيماننا العميق بمجرى التاريخ". وكانت أكبر مشكلة تواجه الحركات الوطنية في أفريقيا البرتغالية ثم في روديسيا الجنوبية وجنوب أفريقيا فيما بعد هي اضطرارها للعمل من خارج بلادها، بالإضافة إلى المجهود الإضافي لقرار التفاهم واستمراره بين الجماعات والأحزاب المعنية وبالذات إذا حصلت على دعمها من جهات خارجية مختلفة، ولذلك أنشأت الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا حكومة في المنفى في كينشاسا كان فيها روبرتو رئيسا للوزراء وجوناس سافمبي وهو من شعب الأوفيموندو وزيرا للخارجية وكان ذلك محاولة للحصول على تأييد أكبر للحزب، فبالإضافة إلى مساندة شعب الباكاتجو في الشمال رغب الحزب في الحصول على تأييد شعوب منطقة الوسط والجنوب كما وصلته أيضا مساعدات سرية مهمة من الولايات المتحدة ثم أنشأ أوغسطين ونيتو الرئيس المنتخب الجديد للحركة الشعبية لتحرير أنجولا حكومة منافسة مقرها برازافيل في جمهورية الكونغو، ثم طلبت المساعدة الخارجية من الاتحاد السوفيتي وحلفائه ولكن نشب نزاع بين سافمبي ووربروتو عام ١٩٦٤ وغادر كينشاسا لإنشاء حزبه المعروف بالاتحاد الوطني للتحرير التام لأنجولا، وأقام سافمبي قاعدته في أقصى جنوب أنجولا بالقرب من الحدود مع جنوب غرب أفريقيا. وحاول أن يحصل من هناك على مساعدات خارجية من دول متباعدة للغاية من الناحية الأيديولوجية مثل الصين وجنوب أفريقيا.

وحاولت تلك الأحزاب الثلاثة إنشاء معازل لها يحكمها الأفريقيون داخل حدود أنجولا ثم ازداد نشاط الحركة الشعبية لتحرير أنجولا فى نهاية عقد السبعينيات فى المنطقة الجبلية فى شمال شرق لواندا بينما الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا قواعدها بين شعب الباكونغو ثم حاولت التوغل فى المنطقة الوسطى والشرقية من قواعدها فى زامبيا. واحتفظ الاتحاد الوطنى للتحرير التام لأنجولا بمنطقة نفوذه فى الجنوب واستطاعت تلك الحركات الثلاث أن تجذب ثقة السكان المحليين والاعتراف بسلطتها فى مجالات جباية الضرائب، وإدارة مدارس الأحرار، والمستشفيات ومراكز التدريب لمقاتليها، ولكن احتفظ البرتغاليون بسهولة بالمدن الرئيسية نظرا لتفوقهم الساحق فى الأسلحة ومرونة تحركاتهم، كما سيطروا أيضا على الطرق التى تربط بينهما كما استطاعوا أيضا حماية المناجم والمزارع التى يعتمد عليها اقتصاد البلاد ولكن دفعت البرتغال الثمن غاليا، وسداد نفقات نشر قوات بلغ تعدادها ٥٠,٠٠٠ من القوات المسلحة، وحدث الشئ نفسه على مستوى أصغر بكثير فى مستعمرة غينيا البرتغالية الصغيرة فى غرب أفريقيا. سببت ثورة موزمبيق أكثر المشاكل للبرتغاليين فى بداية السبعينيات فلقد تم إنشاء جبهة تحرير موزمبيق عام ١٩٦٢ فى دار السلام بعد توحيد ثلاثة أحزاب سابقة تحت زعامة إدوارد موندلين الذى ولد فى جنوب موزمبيق وتعلم فى الولايات المتحدة الأمريكية. ثم عمل بعد ذلك فى الأمم المتحدة فى نيويورك وقام بالتدريس فى إحدى الجامعات الأمريكية.

وأيد شعبا الماكوندرا والنيانجا حزب تحرير موزمبيق فى البداية وكانا يقيمان فى أقصى الشمال بجوار الحدود مع تنجانيقا، وكان عدد كبير منهم قد هرب من البرتغاليين إلى تنجانيقا واستمد الحزب منهم أول جنوده المقاتلين ثم بدأ حزب تحرير موزمبيق فى شن الهجمات فى الجنوب عبر نهر الروفوما عند هضبة ماكوندرا عام ١٩٦٤. ثم حاول رجال حرب العصابات التوغل جنوبا عبر الساحل ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك نظرا للعداء التقليدى لشعب الماكوا ولكن قام الحزب بمد

أعماله عام ١٩٦٥ إلى منطقة نياسا المجاورة لمالاوي ثم توغل جنوبا حيث وصل إلى تيتى على نهر الزاميزى فى أقصى الجنوب عام ١٩٦٨.

ووصلت حرب موزمبيق آنذاك إلى مرحلة الخطر بالنسبة للبرتغال نظرا لوصول الثوار إلى تيتى بينما كان حجم الثورة قبل ذلك صغيرا نسبيا، وأعلن البرتغاليون عام ١٩٦٦ خططا لإنشاء سد ومحطة توليد طاقة على نهر الزاميزى بين تيتى وحدود زامبيا حيث يسير النهر لمسافة ٥٠ ميلا تقريبا (٨٠ كم) فى ممر كابورا باسسا بين الجبال ولذلك تم إنشاء مجموعة دولية تدعى زامكو بواسطة الهيئة الأنجلو أمريكية لجنوب أفريقيا وتشمل شركات فرنسية وألمانية غربية وجنوب أفريقية. وبدأ العمل عام ١٩٦٩ وانتهى بناء السد عام ١٩٧٤، وتم اختبار أول مولدات الكهرباء عام ١٩٧٥، وكان سد كابورا باسسا رابع أكبر منتج للطاقة الكهربائية فى العالم، كما أنه عند اكتمال طاقته فإنه سوف ينتج طاقة تفوق احتياجات موزمبيق عدة مرات. ولذلك اتفق البرتغاليون عام ١٩٦٩ على بيع نسبة كبيرة منها إلى جنوب أفريقيا. ولذلك تم إنشاء خط جهد عال لمسافة ٨٠٠ ميل (١٣٠٠ كم) لربط كابورا باسسا بشبكة مع شبكة جنوب أفريقيا عند ميدل بورج، وكان لسد كابورا باسسا آثار مهمة للغاية لجنوب أفريقيا. ويعنى ذلك أيضا بالنسبة للبرتغال أن احتلالها لموزمبيق أبدى، وحاول حزب تحرير موزمبيق إيقاف العمل أو تعطيله على أحسن الفروض ولكن دافع البرتغاليون بضراوة بمساعدة جيش وشرطة جنوب أفريقيا عن المشروع كله ولكن لم يعش موندلين الذى قاد حزب تحرير موزمبيق بإخلاص ليرى نجاح ثورته؛ إذ تم اغتياله بواسطة طرد ملغم عام ١٩٦٩. ويعتقد أن العملاء البرتغاليين قد أرسلوا له طرد ملغما إلى مكتبه فى دار السلام مقر عمله. ثم خلفه فى رئاسة الحزب سامورا ماشيل قائد الثورة الميدانى.

وإذا لم تستطع قوات جبهة تحرير موزمبيق منع العمل على السد فإن قواتها قد وسعت أعمالها الحربية فى إقليم تيتى، ثم امتدت عمليات حرب العصابات إلى حايكا الأكثر جنوبا، حيث كادت توقف حركة المواصلات على الطرق

والسكك الحديدية فيما بين بيرام من جهة وروديسيا من جهة أخرى، وأصبح الوضع العسكري خطيرا لدرجة أنه قد تقرر إرسال ١٠,٠٠٠ من القوات البرتغالية الإضافية لموزمبيق لتدعيم الـ ٦٠,٠٠٠ الموجودة هناك أصلا. وأدت زيادة حدة الحرب في موزمبيق إلى كسر إرادة البرتغال. فلقد رأى الكثيرون في الجيش والصناعة أن أفضل الحلول لحل المشاكل الاقتصادية المزمنة هي الانضمام للسوق الأوروبية المشتركة المسماة بالمجموعة الاقتصادية الأوروبية آنذاك بدلا من أحلام اليقظة الخاصة بالإمبراطورية الأفريقية. ولذلك أطاح ضباط في حركة القوات المسلحة بحكومة كايانو في ٢٥ أبريل ١٩٧٤ والتي خلفت حكومة سالازار عام ١٩٦٤. وأعلنت الحكومة الجديدة للجنرال سينولا أنها سوف تمنح نوعا من الحكم الذاتي لكل مستعمراتها عبر البحار، واستقلت غينيا بيساو تماما بعد بضعة أشهر، ولكن كان للوضع في أنجولا وموزمبيق أكثر صعوبة.

واضطر البرتغاليون إلى ممارسة دور غير معهود بالنسبة لهم وهو عقد السلام بين الأحزاب الوطنية الأنجولية الثلاثة المتنافسة، وتم إنشاء حكومة مؤقتة للتحضير للاستقلال في نوفمبر ١٩٧٥، وذلك بعد عقد اجتماع أخير على الفور في البرتغال ودعمت الأحزاب الثلاثة مواقفها العسكرية والسياسية قبل تاريخ الاستقلال واحتلت قوات الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا المنطقة الشمالية بينما حصلت الجبهة الشعبية لتحرير أنجولا على موطن قدم في لواندا والمنطقة المحيطة بها والتي يقيم بها شعب الموبوندو ودعم الاتحاد الوطني للتحرير التام لأنجولا أخيرا موقفه بين شعب الأوفمبوندو والمنطقة الجنوبية الشرقية كلها.

وانهارت الحكومة المؤقتة كلها بحلول شهر يونيو ١٩٧٥ وتدخلت القوى الخارجية آنذاك بوضوح تام ليس من أجل الوصول إلى حل سلمي بل لتعقيد الموقف وجعله أكثر خطورة وأيدت الولايات المتحدة والصين الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا وحزب الاتحاد الوطني أيضا، بينما أيد الاتحاد السوفيتي حزب الحركة الشعبية لتحرير أنجولا اليساري الميول، ثم أرسلت كوبا في منتصف عام

١٩٧٥، إن لم يكن قبل ذلك، خبراء عسكريين لتدريب قوات الحركة الشعبية ولكن احتلت قوات من جنوب أفريقيا في أغسطس المنشآت الكهروهيرولية بجوار حدود جنوب غرب أفريقيا ولحمايتها من هجمات كل من قوات الحركة الشعبية وقوات حركة تحرير شعوب جنوب غرب أفريقيا، وساعدت قوات كوبية كثيرة بالإضافة إلى بعض الروس الحركة الشعبية، كما عرف أن قوات مقاتلة كوبية في طريقها بحرا، ولذلك تحرك مستشارون من جنوب أفريقيا إلى جنوب أنجولا لمساعدة قوات الاتحاد الوطني كما زحف طابور عسكري يتميز بالسرعة والكفاءة القتالية بسرعة ناحية الشمال واستولى على مدينتي بنجويلا ولوبيتو، ثم توغل لمسافة بعيدة عند نهر كوانزا جنوب العاصمة لواندا، وفي الوقت نفسه تقدمت قوات الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا ومعها بعض المرتزقة الأوروبيون وبمساعدة عسكرية من زائير في الشمال ووصلت أيضا إلى مشارف لواندا.

ووصلت كميات هائلة من المعدات الروسية والكوبية إلى لواندا في منتصف نوفمبر ويشمل ذلك الدبابات الثقيلة والمدفعية بالإضافة إلى ١٥,٠٠٠ من القوات الكوبية وتكبدت قوات الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا خسائر فادحة بعد زحفها من الشمال، وكانت جنوب أفريقيا قد فشلت في الحصول على مساندة الولايات المتحدة وباقي الدول الأوروبية لوجودها العسكري في أنجولا، ولذلك قررت الانسحاب بعد أخذ تعهد من حكومة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا بعدم التدخل في عمل محطة الطاقة الكهروهيرولية على نهر كويني ثم انهارت بعد ذلك المواقع الأمامية لحزب الجبهة الوطنية لتحرير أنجولا بسرعة هائلة أمام زحف الحركة الشعبية اليسارية وحلفائها ولم يستطع حزب الجبهة الوطنية إلا الاحتفاظ ببعض الوجود الذي يمكنه من تعطيل حركة السكة الحديدية لبنجويلا ومنعه عن العمل، وهكذا سيطر نيتو وحزبه اليساري على كل أنجولا لفترة من الزمن.

وكانت الحكومة العسكرية البرتغالية قد خططت في البداية لعقد استفتاء لتقرير مستقبل البلاد، وأصبح من الواضح أن معنويات القوات البرتغالية من

البيض والسود في الحضيض ولن يمكنها السيطرة على الموقف لبضعة أشهر، ثم نشبت اضطرابات في أحواض السفن في بيرا ولونزوماركيز بالإضافة إلى قيام انتفاضات محلية ضد مزارع البيض، ولذلك تخلى الحكام البرتغاليون الجدد عن التفاوض حول الحل الدستوري ووقعوا اتفاق لوساكا في منتصف عام ١٩٧٤ مع ماشيل، وترك هذا الاتفاق جبهة تحرير موزمبيق مهيمنة تماما على البلاد واستقلت موزمبيق في شهر يونيو ١٩٧٥ بالرغم من بعض المقاومة من المستوطنين البيض وبالذات في لونزوماركيز.

ولذلك تم حكم كل من أنجولا وموزمبيق طبقا للمفاهيم الماركسية الصارمة بعد انتصار الحزبين اليساريين، وهما حزب الحركة الشعبية في أنجولا بقيادة نيتو والجبهة الشعبية في موزمبيق بقيادة ماشيل، وتم حشد السكان في البلدين لإقامة مجتمعات اشتراكية جديدة خالية من تأثير كل من ماضيها الاستعماري وتراثها الأفريقي القديم، وهرب معظم المستوطنين البيض من البلاد خلال شهور الاستقلال الأولى، ولكن تميزت الحكومتان باتجاههما العملي في علاقاتهما الخارجية، وحافظ حزب الحركة الوطنية في أنجولا على تعهده بعدم التعرض لمحطات كهرباء كوينين ولكنه ساعد مقاتلي حركة تحرير جنوب غرب أفريقيا في التسلل إلى بلادهم من أنجولا، وردت قوات جنوب أفريقيا عام ١٩٧٨ بالهجوم على قوات حزب حركة تحرير جنوب غرب أفريقيا في كاسينجا على مسافة كبيرة داخل أنجولا إذ توغلت ١٥٠ ميلا (٢٠٠ كم) داخلها ثم استمرت تلك الهجمات خلال عقد الثمانينات، واحتفظت أنجولا باتفاقها التجاري مع شركة زيت الخليج الأمريكية لاستغلالها بترول كابندا بالرغم من قبولها المساعدة من روسيا وكوبا، أما موزمبيق فلقد أيدت تماما القوات الوطنية الروديسية العاملة من قواعدها في موزمبيق لمد هجماتها داخل روديسيا ذاتها ولكنها - أي موزمبيق - قد عانت أيضا الكثير من الهجمات المدمرة من القوات الحكومية الروديسية، ولكن احتفظت موزمبيق، من جهة أخرى بعلاقات وثيقة دبلوماسية مع جنوب أفريقيا وقبلت أعمال تجنيد أعداد كبيرة من

العمال الموسميّين الموزمبيقيّين للعمل فى مناجم الذهب فى جنوب أفريقيا. واستخدمت أيضا قوى عاملة ماهرة من جنوب أفريقيا لإدارة وتشغيل خط السكة الحديدية ومرافق الميناء فى مابوتو وهو الاسم الجديد للعاصمة وهى لورنزوماركيز السابقة. ولكن أثبتت الأحداث فى نهاية السبعينيات هشاشة انتصارات الحركة الشعبية لتحرير أنجولا وجبهة تحرير موزمبيق فلقد كانت السياسات الاشتراكية التى طبقها الزعماء الأنجوليون كارثة اقتصادية حقيقية. وعادت بالتالى الحروب الأهلية بسرعة، وكانت قوات الاتحاد الوطنى لتحرير كل أنجولا قد هزمت فى السابق ولكنها لم تنمر أبدا، واستطاعت الحركة تعويض خسائرها تحت قيادة سافمبي الماهرة وبمساعدة كبيرة من جنوب أفريقيا وبعض المساعدة من زامبيا واستأنفت القتال ضد حكومة لواندا الماركسية واعتمد مستقبل جنوب غرب أفريقيا تماما على نتيجة هذا الصراع، ولكن لم يشعر حزب الحركة الشعبية لتحرير أنجولا أبدا بالثقة لكى يتخلص من الكوبيين ويتفاهم مع سافمبي، وذلك إلى أن تتخلص جنوب غرب أفريقيا من حاميات جنوب أفريقيا الموجودة بداخلها، ولكن رفضت جنوب أفريقيا بموافقة ضمنية من الولايات المتحدة أن تمنح جنوب غرب أفريقيا استقلالها إلا بعد الحصول على وعد بالانسحاب الكوبى على الأقل، ثم ظهرت حركة مقاومة جديدة فى موزمبيق معادية للماركسية وقامت بحرب عصابات وتسمى بحركة المقاومة الوطنية لموزمبيق، وكانت حكومة إيان سميث العنصرية قد جندتها ودربتها فى البداية، ثم بدأت تلك الحركة بالهجوم على قوات تحرير موزمبيق وقطع طرق النقل والمواصلات ثم تولت جنوب أفريقيا مهمة الإشراف على هذا الحزب المعادى للماركسية بعد عام ١٩٨٠ ولكن تم ذلك بواسطة جهات لم تستطع حكومة جنوب أفريقيا السيطرة عليها تماما، ولكن ازدادت حدة عمليات الحركة الوطنية لتحرير موزمبيق وأصبحت أكثر انتشارا وعنفًا وتدميرا عما سبق.

من روديسيا إلى زيمبابوى

أدى إعلان استقلال روديسيا من جانب واحد إلى حدوث أزمة ذات أبعاد عالمية، فلقد أكدت أقلية بيضاء لا يكاد يبلغ تعدادها ربع مليون نسمة استعدادها بل حقها فى حكم أربعة ملايين أفريقى أو أكثر كدولة مستقلة، ولم تكن الدول الأخرى على استعداد للتدخل العسكرى وليس بالتأكد بريطانيا المسئولة طبقا للقانون الدولى عن روديسيا، ورفضت الحكومة البريطانية إعلان الاستقلال من جانب واحد واستطاعت إقناع دول العالم الأخرى بعدم الاعتراف بروديسيا، ثم عملت بريطانيا عن طريق الأمم المتحدة وقامت بتنظيم مجموعة من العقوبات المالية والتجارية، ووافقت معظم الحكومات على تلك العقوبات ولكنها لم تلزم رعاياها باتباعها، كما رفضت جنوب أفريقيا والبرتغال تلك العقوبات أصلا وموضوعا، وأدى ذلك إلى زيادة صمود روديسيا وقدرتها على البقاء، ووصلها بالذات البترول وهو السلعة الحيوية الضرورية للاقتصاد بالذات وبطريقة منتظمة أيضا.

واستمرت العمليات الهجومية ضد روديسيا من الخارج. فلقد نظم حزب زابو فيما بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٠ مجموعة من هجمات حرب العصابات على وادى الزامبيزى بالاتفاق مع حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى لجنوب أفريقيا انطلاقا من زامبيا ثم بدأ حزب زانو فى نهاية عام ١٩٧٢ فى شن هجمات على شمال شرق روديسيا من المناطق التى يسيطر عليها حزب تحرير موزمبيق فى منطقة تيتى وازدادت حدة هجمات حرب العصابات وأيضا الإجراءات المواجهة لها من نظام حكم إيان سميث الذى ساعدته جنوب أفريقيا إلى عام ١٩٧٥، ويشمل ذلك إنشاء حواجز أمنية على طول الحدود مع موزمبيق، وجمع السكان المحليين فى قرى محمية، وتحديد المناطق التى يمنع الاقتراب منها وحيث يمكن إطلاق النار قورا وبدون إنذار لكل من يخالف هذا الأمر.

ثم أغلق سميث الحدود مع زامبيا فى بداية عام ١٩٧٣ للرد على مساعدة

كواندا لقوات حرب عصابات حزب زابو. ولكن يعنى الانقلاب الذى حدث فى البرتغال فى شهر أبريل ١٩٧٤ أن موزمبيق سوف تتحول سريعا إلى دولة مستقلة معادية لروديسيا والتي أصبحت بالتالى أكثر عزلة بكثير.

واستمرت حرب العصابات من حوالى ١٩٧٤ بواسطة جيوش مستقلة تماما عن الأحزاب التى تسيطر عليها، فلقد عمل الجيش التابع لحزب زابو وهو الجيش الشعبى لاستقلال زيمبابوى بطريقة مستقلة عن الحزب، كما حدث الشئ نفسه للجيش التابع لحزب زانو وهو حزب التحرير الوطنى الأفريقى، وغادر روبرت موجابى روديسيا إلى موزمبيق عام ١٩٧٥، حيث لعب دورا مهما فى إدارة الحرب بالتعاون مع الرئيس ماشيل، وتحولت حرب العصابات إلى حرب شاملة على مختلف الجبهات من عام ١٩٧٦ فصاعدا. كما استطاعت القوات الوطنية التوغل بعمق داخل روديسيا، ووصلت إلى مشارف العاصمة ساليسبورى ذاتها وشعرت جنوب أفريقيا بالقلق من تصاعد الحرب ولذلك غيرت سياساتها وفشلت قيام حكومة أفريقية سوداء صديقة فى زيمبابوى المستقلة عن الحكومة البيضاء العنصرية المتهاوية، ولذلك حاول رئيس وزراء جنوب أفريقيا فروستر أن يتفاوض مع الزعماء الوطنيين للضغط على الروديسيين عام ١٩٧٥ وقام إيان سميث بمحاولة أخيرة للوصول إلى اتفاق داخلى بعقد مباحثات مع جوشوا نكومو ولكنها فشلت وغادر نكومو إلى زامبيا ثم زار وزير الخارجية الأمريكى هنرى كسنجر جنوب أفريقيا فى نهاية ذلك العام وقابل كل المسئولين فى الأحداث الروديسية واستطاع أن يحصل على موافقة سميث بصفة مبدئية للوصول إلى حكم للأغلبية الأفريقية خلال عامين وكان ذلك مفاجأة مباغتة آنذاك، ولكن كان الرد الوحيد من نكومو وموجابى على السواء زيادة حدة القتال وتكوين جبهة وطنية لتوحيد جهود حزبي زابو وزانو وعقد سميث عام ١٩٧٨ اتفاقا داخليا مع الزعماء الأفريقيين المعتدلين بقيادة الأسقف موزوريوا وسيثولى والزعيم شيرو ووافق على مشاركتهم له فى الحكم بعد إجراء انتخابات عامة تجرى فى شهر أبريل ١٩٧٩، وحيث يكون

لكل فرد صوت انتخابي، واحد وظهرت آثار الحرب المتصاعدة واضحة تماما على السكان الأوروبيين، وهاجر البيض بأعداد كبيرة بالرغم من اضطرارهم لترك كل ممتلكاتهم ورائهم. ثم تم تجنيد الباقين - أو معظمهم - في القوات المسلحة لأداء الخدمة العسكرية ولو مؤقتا على الأقل وحدثت محاولات مستميتة لتجنيد الأفريقيين في الجيش، ولكنه كان من المشكوك فيه تماما شعورهم بالرغبة في القتال ضد إخوانهم من مقاتلي حرب العصابات. ثم بدأ جيش روديسيا الجنوبية الأبيض في الانهيار سريعا تحت وطأة الحرب.

ولذلك فلن يعترف العالم الخارجي بروديسيا ولن يتم الوصول إلى سلام حقيقي كامل بالرغم من انتصار الأسقف موزوربوا في انتخابات أبريل ١٩٧٩ وخطوات إنشاء حكومة أفريقية سوداء إلا بالتفاوض أساسا مع الوطنيين في المنفى والاتفاق معهم على تشكيل تلك الحكومة.

وتطورت الأحداث وأصبح لورد كارينجتون وزيرا للخارجية البريطانية في شهر مايو ١٩٧٩ وواجه تلك المشكلة فورا. وتعلق الأمر أساسا بإقناع موزوربوا ورفاقه بإجراء انتخابات أخرى بعد فترة بسيطة من عودة الحكم البريطاني ويسمح خلالها بعود المنتخبين إلى البلاد والاشتراك في الحملة الانتخابية. كما كان من الضروري إقناع المنفيين التوقف عن عملياتهم الحربية لصالح النشاط السياسي والثقة في نزاهة الانتخابات، ووجد كارينجتون تأييدا كبيرا أثناء الاجتماع الدوري لرؤساء حكومات الكومنولث في لوساكا في أغسطس، ومارس زعماء دول المواجهة ضغوطا على مختلف الأطراف لحضور مؤتمر في لندن وإن تأخر مواعده من سبتمبر إلى ديسمبر. ورأى الجميع قبل عيد الميلاد المجيد أن الثقة قد سادت بين الأطراف لدرجة إمكانية إرسال اللورد سومر كحاكم ذي سلطات واسعة ولكن بقوات عسكرية صغيرة لا تتجاوز ١٤٠٠ مراقب مسلح للإشراف على عملية استيعاب الـ ٢٥,٠٠٠ مقاتل في حروب العصابات وعقد الانتخابات بعد شهرين.

وربما كانت نتيجة انتخابات شهر فبراير ١٩٨٠ مفاجأة تامة لكل المشاركين. فلقد بلغ عدد مقاعد البرلمان مائة مقعد، ولم يفز حزب موزوريوا إلا بثلاثة مقاعد فقط، أما حزب سيثولي فلم يفز بشيء على الإطلاق. وخصص ٢٠ مقعدا للروديسيين البيض للجهة البيضاء أما حزب جوشوا نكوموا المقيم في المنفى في زامبيا والذي حصل على مساعدة مادية من الاتحاد السوفيتي وحلفائه فلقد حصل على ٢٠ مقعدا كلها في منطقة ما تابيلي لاند، وانتصر حزب موجابي انتصارا ساحقا؛ إذ حصل حزب زانو على ٥٧ مقعدا أى أكثر من نصف عدد المقاعد في البرلمان، وحدث ذلك بالرغم من تشدده الماركسى الشديد ونفيه الدائم إلى موزمبيق ومساعدة الرئيس ماشيل له، ولذلك شعرت الدول الغربية بعدم الارتياح لتلك النتائج المفاجئة. ولم تشعر دول الكتلة الشرقية بالرضا أيضا؛ إذ لم يتم دعوتها على الإطلاق لحضور احتفالات الاستقلال التى عقدت فى ١٨ أبريل، ولكن دلت خطب موجابي الأولى وبياناته العامة أن سياسته ستكون مشابهة لسياسة جومو كينيا المعتدلة عند وصوله إلى السلطة فى كينيا عام ١٩٦٣، وركز تماما على المصالحة العامة والعمل بطريقة عملية بعيدا عن الشعارات السياسية البراقة، ووجب على السود والبيض أن يسيرا معا نحو مستقبل أفضل وبنقة كاملة تجاهه.

الفصل العشرون

الطريق الطويل إلى الديمقراطية في جنوب أفريقيا

اتجه أهم بلد في جنوب أفريقيا في اتجاه معاكس لما كان يحدث في بقية أنحاء القارة الأفريقية من ١٩٤٥ إلى ١٩٨٠ وهي مرحلة التحول من الحكم الاستعماري إلى الاستقلال، ولم يكن السبب أن الملايين التسعة من الأفريقيين المقيمين هناك قد تميزوا بوعي سياسي أقل من إخوانهم الذين يعيشون في الشمال، فالعكس هو الصحيح تماما إذ يعود تاريخ التعليم في الإرساليات في جنوب أفريقيا إلى منتصف القرن التاسع عشر، ولذلك وجدت أعداد كبيرة من الأساتذة السود، والأطباء السود، ورجال الدين السود، والصحفيين السود والعديد من المهنيين الماهرين من السود والذين تميزوا بكفاءة مشابهة لمعاصريهم في باقي الدول الأفريقية، وفهموا مثلهم تماما أهمية ميثاق الأمم المتحدة والانسحاب البريطاني من الهند، وحضر مندوبون أفريقيون سود المؤتمر الأفريقي العام الخامس الذي انعقد في مانسشتر عام ١٩٤٥ واتصلوا بالزعماء السياسيين الصناعيين من أفريقيا الاستوائية مثل نكروما وكينياتا، وطلب المؤتمر الوطني الأفريقي في ديسمبر ١٩٤٥ رسميا تطبيق مفهوم الصوت الانتخابي لكل فرد في الانتخابات بالإضافة إلى ضمان حرية الحركة والإقامة وملكية الأرض، وتقدم المسئولون الأفريقيون بطلبات إلى الأمم المتحدة وقدموا التماسات من أفريقي جنوب غرب أفريقيا لتكون بلادهم تحت وصايتها محل عصابة الأمم السابقة.

وكان موضع الاختلاف في جنوب أفريقيا هو وجود مجتمع أبيض يبلغ تعدادة أربعة ملايين من السكان البيض آنذاك ويعتبر أكبر وأقدم مجتمع أبيض

استقر في القارة الأفريقية، وسيطر على كل الجهاز المدني والإداري في الدولة كلها كما كان مستقلا عن أى تأثير خارجي، وفقد السكان البيض هنا وبالذات ذوى الأصل الهولندي كل اتصال لهم مع ذويهم في أوروبا، كما رغبوا تماما أن يستمر أبناؤهم وأحفادهم في التمتع بكل المزايا التي يتمتعون بها سياسيا واقتصاديا، فلقد حكمت أقليات بيضاء أصغر عددا منهم بكثير كل باقى أفريقيا ومعظم جنوب آسيا، كما اعتبرت جنوب أفريقيا وروديسيا عضوا شرفيا فى النادى الاستعماري، واعتبرت أن أى اختلافات بطريقة حكم السود هناك مجرد مسائل تتعلق بالأسلوب والتوقيت وليس فيما يتعلق أبدا بالجوهر أو الأيديولوجية الأساسية، ولكن حينما أعلنت بريطانيا نيتها الخاصة بالانسحاب من إمبراطوريتها الهندية منذ عام ١٩٤٥، ثم حينما ظهر أن استقلال بعض البلدان فى غرب أفريقيا قد أصبح أمرا وشيكا شعر الجنوب أفريقيون البيض أن امتيازاتهم فى خطر وفى مهب الريح. ووجب إما التخلي عنها أو الدفاع عنها بضراوة باستخدام المزيد من القوة.

وأدت الحرب العالمية الثانية إلى حدوث تغيرات جذرية فى جنوب أفريقيا، فقد انضمت أعداد كبيرة من الشباب البيض ومعظمهم من المتحدثين بالإنجليزية إلى القوات المسلحة وحاربوا فى شمال أفريقيا وأوروبا. كما انضم الأفريقيون السود والملونون والهنود إلى القوات غير المقاتلة مثل الخدمات الطبية والأعمال اليدوية، وأخذ مكانهم الأفريكانرز الفقراء البيض الذين فقدوا أراضيهم نظرا للأسباب الاقتصادية أو لأن هجرة الأفريقيين السود إلى المدن وضواحيها قد قضت عليها.

وكانت معظم تلك الأعمال فى الصناعة والتجارة لكونها مجال أعمال الشباب المتوجه للقتال كما شهدت أعوام الحرب ازدهارا هائلا لصناعة التعدين بالإضافة إلى نمو هائل للصناعات الحربية، إذ أصبحت جنوب أفريقيا من أهم منتجى الأسلحة الصغيرة لقوات الحلفاء وأدى هذا النشاط الهائل إلى زيادة الحاجة للقوى العاملة الأفريقية.

كما وجدت معظم المصانع الكبيرة الجديدة والزيادات الجديدة فى أعمال التعدين كلها بالقرب من المراكز الحضرية الكبرى مثل جوهانسبورج وضواحيها فى الترنسفال وموانئ كيب تاون وبورت إليزابيث ودربان. ولذلك ازداد تعداد تلك المدن بطريقة سريعة نظرًا لازدهارها ونموها السريع. ولكن شعرت حكومة جان سمطس بالحيرة والقلق الشديد أمام تصاعد الضغوط الاقتصادية والسياسية بعد عام ١٩٤٥. وتأرجحت فترة بين تطبيق المفاهيم الليبرالية أو التسلط، ولم يكن لديها بالتالى سياسة واضحة للتعامل مع مشاكل جنوب أفريقيا، وفهم سمطس تمامًا أنه يجب العمل فوراً من أجل التغلب على الفقر المدقع لمعظم السكان الأفريقيين السود المقيمين فى مدن جنوب أفريقيا الكبيرة. كما استلزم الأمر أيضاً رأب الصدع الناتج عن الكراهية والمرارة الناجمتين من سياسة التفرقة العنصرية.

وهزم حزب الوحدة لسمطس فى عام ١٩٤٨ بفارق ضئيل فى الانتخابات التى كسبها الحزب الوطنى بقيادة د.ف. مالان بعد أن استطاع بعض مؤيديه بث الرعب فى قلوب الناخبين البيض بعد قولهم إن وزراء سمطس يرغبون فى منح الأفريقيين المساواة السياسية الكاملة، وأن ذلك سيؤدى إلى ظهور "جنس جديد لونه مثل لون القهوة". ولذلك أدت الرغبة فى السيطرة والتميز والخوف من الأعداد الكبيرة للأغلبية الأفريقية إلى توحيد كل البيض، ولكن لم يؤمن إلا القليل منهم وعملوا فعلاً من أجل إقامة مجتمع حر متساو للجميع، وارتبط معظم البيض بمفهوم الباسكاب السابق شرحه، وقبل معظمهم استخدام الحكومة للعنف لتطبيقه باستمرار، أما الاختلافات فلقد وجدت فقط حول أسلوب التنفيذ، وظهر تقرير لجنة فاجان بعد الانتخابات مباشرة وذكر فى البداية أنه:

"يستحيل تماماً تطبيق فكرة الفصل العنصرى التام عملياً بالإضافة إلى أن أعمال انتقال الأفريقيين من الريف إلى المدن ذات جذور اقتصادية حقيقية ملحة، ولكن يمكن تنظيمها أو توجيهها والحد منها إذا أمكن.

ولكن لا يمكن أبدا إيقافها أو توجيهها إلى اتجاه آخر، وفي النهاية لا يوجد في المدن مهاجرون رحالة إفريقيون فقط، بل يوجد أيضا سكان أفريقيون أصليون مستقرون بها دائما" (تقرير فاجان فقرة ٢٨).

أما رد الحزب الوطني على مفهوم الاندماج الاقتصادي فلقد كان ببساطة تطبيق سياسة التفرقة العنصرية بأسلوب كامل وشامل وعرف ذلك بالهولندية بكلمة أبارتايد Apartheid.

وظهرت سياسة الأبارتايد من الناحية النظرية في العلوم السياسية بين المتقنين الأفريكانرز في ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين، وذلك كنظرية تشمل مفاهيم تعود جذورها إلى القرن التاسع عشر في الكاب وناٲال، بالإضافة إلى توصيات صدرت من اللجنة الإمبراطورية الجنوب أفريقية لشئون الأفريقيين الوطنيين من أعوام ١٩٠٣ إلى ١٩٠٥ وآراء هرتزوج وباقي الوطنيين في الأعوام الأولى لاتحاد جنوب أفريقيا، ورأت تلك النظرية في أفضل صورها أنه يجب تقسيم جنوب أفريقيا جغرافيا بين الجنس الأبيض والأمم الأفريقية مثل الخوسا والسزولا والسوفو.

ولكن لم يكن الأبارتايد بالنسبة لمعظم البيض أكثر من كلمة مهذبة، ولذلك قال رئيس وزراء الحزب الوطني:

"وسموها كما تشاءون: فإنها تعنى دائما السيطرة، وإننى صريح لأقصى درجة، ولا أقدم أية اعتذارات. فإما أن يسيطر الرجل الأبيض أو أن يستولى الرجل الأسود على كل شيء".

وحتى إذا ما تم ذلك فإن الدولة لن تستطيع إعاشة إلا نصف عدد السكان السود في البلاد بعد أربعين عاما. ولكن الحقيقة أنه لم توجد حكومة بيضاء في جنوب أفريقيا مستعدة لإنفاق مبالغ كبيرة على المحميات، ولكن الحقيقة أيضا أن الحكومات الأولى للحزب الوطني لم تهتم كثيرا بتطبيق برنامج الفصل العنصرى

عمليا، ولكنها فرضت بواسطة القوانين على السكان غير البيض في جنوب أفريقيا قيودا هائلة وأصدرت تشريعات غير عادلة ومقيدة للحرية الإنسانية، وقامت أيضا بإلغاء الحقوق السابقة التي حصل عليها غير البيض وقللت فرص الاختيار وحربتها أمامهم، بل وتم تقنين الظلم، فلقد تم إلغاء الحقوق السياسية القليلة لكل من الملونين والأفريقيين التي حصلوا عليها في دستور عام ١٩١٠ فلقد ألغت حقوق الملونين بعد نزاع دستوري طويل ومرير بين أعوام ١٩٥١ و ١٩٥٦ والأفريقيين في الكاب عام ١٩٥٩.

ولذلك تأثرت كل جوانب حياة الأفريقيين الملونين والهنود بواسطة تشريعات مقيدة لا تعد ولا تحصى وسوف نذكر قائمة صغيرة منها فقط وهي نقطة في محيط لبيان تلك التشريعات الصادرة من البرلمانات البيضاء من حيث مداها وغرضها، فلقد صدر قانون منع الزواج المختلط عام ١٩٤٩ وقانون الحفاظ على الأخلاق عام ١٩٥٠ ويقصد العنصريون بهذا منع العلاقات الجنسية بين أفراد من أجناس مختلفة عام ١٩٥٠، ونذكر أيضا قانون تسجيل السكان عام ١٩٥٠ والذي جعل من الجنس (العرق) قانونيا بالإضافة إلى مفهومه البيولوجي المعتاد ولكنه كان مهينا بالذات للملونين؛ إذ تم تعريف الشخص الملون هنا بعبارات سلبية تماما، وذكر أنه شخص غير أبيض وليس من سكان البلاد الأصليين، وجعل قانون إلغاء تصاريح المرور وإعادة تنظيم الوثائق في عام ١٩٥٢ إجباريًا لكل الرجال الأفريقيين (وفيما بعد النساء) أن يحملوا معهم دائما سجل التحركات، وهو اسم جديد لتصريح الانتقال القديم، كما أنشأت الحكومة نظاما جديدا يمتد في طول البلاد وعرضها لتنظيم حركة الأفريقيين والتقليل من دخولهم إلى المناطق الحضرية.

وكان الغرض من قوانين: قانون مناطق الجماعات عام ١٩٥٠ وقانون الفصل بين الأعراق عام ١٩٥٣ الفصل التام جسمانيا واجتماعيا بين الأجناس بإبعاد كل الملونين والهنود والأفريقيين إلى مشارف المدن، والتفرقة العنصرية الشديدة في الألعاب الرياضية وباقي مجالات الترفيه استخدام وتسهيلات مختلفة في

القطارات والباصات بالإضافة إلى أماكن جلوس مختلفة فى المتنزهات العامة والحدائق مما أدى إلى زيادة هائلة للوحات المكتوب عليها للبيض فقط فى طول البلاد وعرضها ودعم قانون تعديل قوانين الأفريقيين عام ١٩٥٧ السيطرة على الأفريقيين فى المناطق الحضرية، وكانت المحاولات الأولى لذلك قد ظهرت فى قانون المناطق الحضرية عام ١٩٢٣ وقنن قانون التوافق الصناعى المعدل عام ١٩٦٥ تخصيص الوظائف للبيض فقط، كما استبعد الأفريقيون تماما من إمكانية تفاوضهم حول الأجور، وكان الغرض من قانون القضاء على الشيوعية عام ١٩٥٠، وقانون تعديل القانون الجنائى عام ١٩٥٣، وقانون التنظيمات غير القانونية عام ١٩٦٠ القضاء التام على كل أنواع المعارضة، كما كانت لا مثيل لها فى ضراوتها فى البلاد الديمقراطية فى العالم الغربى ولكن كانت قوانين قليلة لحكومات الحزب الوطنى فى الخمسينيات ذات طابع أيديولوجى واضح، وكان أهمها قانون تعليم البانتو عام ١٩٥٣ وامتداد قانون التعليم الجامعى عام ١٩٥٩ الذى أخرج المدارس الابتدائية والثانوية من سيطرة البعثات التبشيرية وخلق جامعات منفصلة ذات مستوى علمى أدنى لغير البيض وجعلت تلك القوانين من التعليم وسيلة قوية فى أيدي السياسة الحكومية لإعادة التشكيل والسيطرة على عقول البشر، وقال هـ. فروود وزير شئون الأفريقيين عن قانون عام ١٩٥٣ آنذاك.

لن تتحسن العلاقات بين الأجناس إذا تعلم الأفريقيون بالطريقة الخاطئة. ولا يمكن أن تتحسن أبدا إذا كانت نتيجة تعليم الأفريقيين هى خلق أفراد حاقدين، والذين، نظراً للتعليم الذى حصلوا عليه، يتطلعون إلى أعمال وآمال فى الحياة لا يمكن للظروف السائدة فى جنوب أفريقيا أن تتيحها لهم فوراً.

ويحدث ذلك حينما يوجد أفراد تدربوا على أعمال ليست متاحة لهم على الإطلاق، ولكن لم تتلاعب الحكومات المتتالية للحزب الوطنى أبدا بالنظام البرلمانى الديمقراطى البريطانى، فلقد عقدت الانتخابات بانتظام. كما تم التصريح لأحزاب المعارضة بالعمل ولكن داخل إطار الناخبين البيض فقط. ويدل النجاح

المستمر للحزب على التأييد الذي حصل عليه بين بعض الناخبين الناطقين بالإنجليزية وأيضا بين أغلبية الأفريكانرز، وحصل الحزب الوطنى على ٨٢ بالمائة من الأصوات عام ١٩٧٤ وهى أعلى نسبة يحصل عليها حزب فى تاريخ جنوب أفريقيا وفشلت المعارضة الرسمية الممثلة فى الحزب المتحد فى إيجاد سياسة بديلة لسياسة الحكومة، وأنهار رويدا رويدا. وكان الحزب الليبرالى أكثر حدة فى نقده لنظام الحكم، ولذلك تمت محاكمة بعض أعضائه طبقا للقوانين الحكومية المقيدة للحرية. ثم أقرت الحكومة قانون منع التدخل السياسى عام ١٩٦٥، والذي يمنع أى شخص من الانضمام لحزب سياسى مختلط التكوين، مما أدى إلى انهيار الحزب الليبرالى وانحلاله، وكان قد تم إنشاء حزب ليبرالى آخر يسمى بحزب التقدم عام ١٩٥٩، واستطاع أن يجذب وريداً الجناح الليبرالى للحزب المتحد، ولذلك تحول فيما بعد إلى حزب الإصلاح التقدمى وحصل على سبعة عشر مقعدا فى البرلمان فى الانتخابات وانقسم أعضاء الحزب المتحد إلى حزبين صغيرين، ولكن ظهرت جماعة من الأفريكانرز اليمينيين فى الحزب الوطنى رأوا أن زعماء الحزب التقليديين لم يعملوا بطريقة ملائمة فى سياستهم العنصرية ولذلك انقسم الحزب الوطنى فى الستينيات إلى جماعتين: وتسمى الأولى بالجماعة التقدمية، مقابل الجماعة الأخرى المتشددة، وأيد المعتدلون سياسة الأبارتايد الإيجابية ويشمل ذلك سياسة التفاوض والتفاهم مع الدول الأفريقية السوداء، أما المتشددون فلقد رغبوا فى الاحتفاظ بسياسة الباسكاب Baaskap دون أدنى تعديل، ولذلك كون الأكثر تشددا حزبا آخر باسم الحزب الوطنى المعاد إنشاؤه، ولم يفز هذا الحزب أبدا بأية مقاعد برلمانية، ولكن أدت أعماله السياسية بالإضافة إلى تلك الخاصة بالذين ظلوا داخل الحزب الوطنى الأصلى إلى إعاقة كل الاتجاهات "المعتدلة" فى الحكومة.

وأدت شدة وقسوة التشريعات الحكومية، كما كان منتظرا، إلى زيادة النشاط السياسى لغير البيض على مدى غير مسبوق وطوال عقد الخمسينيات، فلقد نشبت

مظاهرات متعددة الأجناس واسعة النطاق ضد إرادة الحكومة ورغبتها فى إلغاء الحقوق الانتخابية للملونين، وانضمت إليها جماعات بيضاء مثل تلك الجماعة التى لم تستمر طويلا المسماة بجمعية المحاربين القدماء والجمعية النسائية البيضاء الأكثر استمرارية. ثم دخل الحزب الوطنى الأفريقى عام ١٩٥٢ تحت قيادة ألبرت لوثولى وأوليفر تامبو ونيلسون مانديلا ووالتر سيسولو حملة مقاومة سلبية للعديد من القوانين والتنظيمات العنصرية الظالمة ويشمل ذلك بالذات تصاريح الانتقال من مكان لآخر. ولكن كانت الحكومة قد دعمت موقفها عام ١٩٥١ بقانون القضاء على الشيوعية السابق الذكر والذي ترك لوزير العدل حرية تقرير من هم الأشخاص أو المؤسسات الشيوعية، ثم تم إصدار قوانين جامعة سالفة أخرى عام ١٩٥٣ ومكنتها من إعلان حالة الطوارئ والقبض على مؤيدى المقاومة السلبية واحتجازهم دون محاكمة بالإضافة إلى الحق فى نفي الأفراد إلى المناطق الريفية النائية، وأدى كل ذلك إلى انضمام العديد من الراديكاليين البيض والذين لم يكونوا شيوعيين بالمرّة إلى الوقوف مع المعارضة الأفريقية وفعلت الجماعات الملونة والهندية الشيء نفسه ولذلك كونت اتحادا للمؤتمر والذي عقد عام ١٩٥٣ مؤتمرا للشعب فى مدينة كيب تاون بجوار جوهانسبورج، وتم إعلان ميثاق للحرية ويبدأ بتلك العبارات البليغة:

"نحن شعب جنوب أفريقيا نعلن لكل بلادنا وللعالم أجمع ... أن جنوب أفريقيا تنتمى لكل الذين يقيمون بها، وأنه لا يمكن لحكومة أن تدعى أنها صاحبة السلطة بحق إلا إذا استندت إلى إرادة الشعب كله" وكان رد فعل الحكومة عنيفا للغاية، إذ قررت محاكمة ١٥٦ زعيما من زعماء الاتحاد الوطنى بتهمة الخيانة العظمى ولكن اضطرت الحكومة بعد أربعة أعوام من المداولات والمناقشات القانونية إلى إخلاء سبيل جميع المتهمين وأسقطت كل التهم عنهم.

ولكن حدثت آنذاك تغيرات مهمة داخل حركة المقاومة الأفريقية الرئيسية، فأخذ انقسم حزب المؤتمر الأفريقى بين مؤيدى نظرية التعدد العرقى المذكور فى ميثاق الحرية والذين أيدوا الأفكار الأفريقية المشتركة وارتبطوا بها، وقاد روبرت

سوبوكوى تلك الجماعة الأخيرة وأنشأ الحزب الأفريقى المشترك عام ١٩٥٩، واستمرت المظاهرات بالرغم من القبض على معظم الزعماء وكان أنجحها حركة مقاطعة الباصات العامة فى الترנסفال، ثم نظم الحزب الأفريقى المشترك حملة أخرى للمقاومة السلبية لقوانين الانتقال مما أدى إلى أكثر المواجهات دموية بين الحكومة البيضاء والشعب الأفريقى المعارض لها.

وأطلقت الشرطة نيرانها على الجماهير المسالمة فى مدينة شاربفيل فى جنوب الترנסفال ٢١ مارس ١٩٦٠ قُتلت ٧٢ شخصا وأصاب ١٨٦ بجراح ومنهم النساء والأطفال.

ولذلك سار ٣٠,٠٠٠ أفريقى بعد بضعة أيام إلى قلب مدينة كيب تاون من موطنهم فى لانجا الواقعة على مسافة بضعة أميال فقط وقُتلت الشرطة أيضا بعض المتظاهرين فى لانجا، وأدت مذبحة شاربفيل إلى إدانة عالمية شاملة لحكومة جنوب أفريقيا البيضاء، كما اهتزت تلك الحكومة بشدة من جراء قوة المقاومة الأفريقية من جهة ورد الفعل الدولى المعادى الغاضب من جهة أخرى لأعمال القتل الدامية، ولذلك أعلنت حالة الطوارئ العامة بعد ثلاثة أيام وقبضت على معظم زعماء المعارضة، ولذلك أعلن كل من حزب المؤتمر الأفريقى والحزب الأفريقى المشترك حزبين خارجيين عن القانون وفهم الحزبان آنذاك تماما أنهما قد وصلا إلى آخر المطاف فيما يتعلق بالمقاومة السلمية غير العنيفة، واضطر كلاهما للجوء إلى الوسائل العنيفة وأنشأ حزب المؤتمر الأفريقى حركة زمح الأمة لتخريب المنشآت الحكومية، أما الحزب الأفريقى المشترك فلقد أنشأ حركة بوكو من أجل إرهاب البيض وتميز عقد المظاهرات السلمية بشخصية ألبرت لوثولى الذى انتخب رئيسا للمؤتمر الأفريقى عام ١٩٥٢ والذى تم نفيه إلى منطقة نائية فى زولولاند لشنه حملة مواجهة الحكومة عام ١٩٥٦ وحصل على جائزة نوبل للسلام اعترافا بجهوده، وسمح له اضطرارا بالسفر إلى النرويج لاستلام جائزته وتسوفى عام ١٩٦٧، وكتب تلك الكلمات البليغة المؤثرة فى نهاية حياته قائلا:

"من الذى ينكر أن ثلاثين عاما من حياتى قد انقضت فى الطرق دون نجاح وباعتدال وهدوء على باب مغلق وموصد بالمزلاج. وماذا كانت ثمار الاعتدال، لقد رأت الثلاثون عاما الماضية أكبر عدد من القوانين المقيدة لحقوقنا وتقدمنا إلى أن وصلنا اليوم إلى ما نحن عليه، إلى مرحلة لم يعد لنا بها تقريبا أى حقوق على الإطلاق".

وكانت الحملات والمظاهرات السلمية غير العنيفة لمواجهة الحكومة من أعمال وتنظيم نخبة أفريقية من الطبقة المتوسطة ولكن واجه زعماء الحزب الوطنى الأفريقى والحزب الأفريقى المشترك صعوبات كبرى فى حشد التأييد الجماهيرى نظرا لإحكام المراقبة وسيطرة قوات الأمن على الموقف ولكن ظهرت أيضا أنواع مختلفة من حركات المقاومة فى المناطق الريفية وبطريقة مستقلة تماما عن الحزبين السابقين، ولذلك شعرت الحكومة بصعوبة بالغة فى التعامل معها ومقاومتها.

وانتشرت تلك الأحداث بالذات فى مناطق عديدة من الترنسفال واستمرت بها لفترة، كما عانت الحكومة معاناة شديدة لقمعها والقضاء عليها ونشبت الاضطرابات أيضا بين شعب البونجو فى الترانسكاى.

ولذلك قررت الحكومة إعلان حالة الطوارئ هناك بعد ثلاثة أعوام من الصراع المرير، وقامت بحرب شاملة ضد شعب البونجو، وقتل العديد من الناس وجرح كثيرون قبل انتهاء أعمال المقاومة، واستمرت حالة الطوارئ سارية المفعول طول فترة إنشاء منطقة البانتوستان فى الترانسكاى ثم استمرت حالة الطوارئ تحت حكم حكومة ماتانزيمبا أيضا.

وتعتبر عملية سحق المقاومة فى بوندولاند من جهة ومذبحة شاربفيل من جهة أخرى نقطة تحول فى تاريخ جنوب أفريقيا. فلقد قام بعض أعضاء الحزب الوطنى الأفريقى والحزب الأفريقى المشترك بأعمال عنف متزايدة مما مكن

الحكومة من اتخاذ إجراءات أشد عنفا وضراوة، وقبض الأمن العام على نيلسون مانديلا عام ١٩٦٢ والذي كان ينظم حركة المقاومة السرية لمدة عام ونصف، وعرف آنذاك باسمه الحركي "كسبرة الثعلب السوداء" واستطاعت الشرطة أيضا القبض على باقي أعضاء حزب المؤتمر الوطني الأفريقي بقيادة أومكونتو، في مقرهم السري عند مزرعة ريفونيا بالقرب من جوهانسبورج وانتهت المحاكمة بعد ذلك بالحكم على مانديلا وثمانية زعماء أفريقيين آخرين بالسجن المؤبد، وأرسل الزعماء السود السبعة للانضمام إلى المناضل روبرت سوبوكوي زعيم الحزب الأفريقي المشترك في جزيرة روبن وهي جزيرة صخرية صغيرة في البحار المتلاطمة الأمواج أمام مدينة كيب تاون.

وقامت الحكومة آنذاك بأعمال إرهابية حقيقية للقضاء على المقاومة الأفريقية السرية، بالإضافة إلى تنظيمات أقل خطورة مثل الحركة الهندية الراديكالية، ولذلك قامت الأحزاب البيضاء والملونة بأعمال عنف قوية لدرجة أن الحزب الليبرالي المحترم قد قرر إيقاف أعماله تماما.

ولكن نما اقتصاد جنوب أفريقيا وبسرعة وأثرى الدولة ثراء كبيرا وبالذات للسكان البيض المسيطرين طوال فترة الثلاثين عاما التي حكم في الحزب الوطني، وكان السبب فيما يشبه المعجزة الاقتصادية هي تلك الموارد الطبيعية الهائلة التي تتمتع بها جنوب أفريقيا بالإضافة إلى الأيدي العاملة الماهرة البيضاء القادرة على إدارة وتشغيل القطاع الصناعي السريع النمو، كما وجدت أيضا قوة عمل كبيرة رخيصة تحت السيطرة.

ولذلك نما اقتصاد جنوب أفريقيا بين عام ١٩٤٨ وبداية السبعينيات بنسبة تعد من أعلى نسب النمو في العالم ولا تقارن إلا بنسبة النمو اليابانية وبعض الاقتصاديات الصغيرة مثل سنغافورة، ولكن لم يتم توزيع الرخاء بطريقة عادلة بين البيض والسود نظرا للفروق الشاسعة بينهم، وتمتع البيض بأحد أعلى معدلات النمو

فى العالم ولذلك رغبوا تماما فى الدفاع عن مزاياهم ولو بقوة السلاح إذا استلزم الأمر، ولكن بدأ هذا الاقتصاد السريع النمو فى التراجع منذ منتصف عقد السبعينيات نظرا لازدياد أسعار النفط من جهة والتضخم الكبير من جهة أخرى، وكان عام ١٩٧٥/١٩٧٦ أقل الأعوام فى نسبة النمو منذ عام ١٩٤٥ كما بدأت الشركات الأجنبية والممولون الأجانب العاملون فى جنوب أفريقيا فى الشعور بقوة ضغط المجتمع الدولى على الأقل لسداد أجور متساوية لكل موظفيها فى جنوب أفريقيا، كما تمت مناقشة عملية فرض العقوبات الاقتصادية كثيرا، كما أدى تناقص معدل النمو الاقتصادى والانتقال من الصناعة الرخيصة الأجور إلى الصناعة ذات رءوس الأموال الكبيرة والتكنولوجية المتقدمة الحديثة إلى زيادة البطالة ولذلك قدر عام ١٩٧٩ أنه يوجد ٢ مليون أفريقى عاطلين عن العمل من بين قوة عمل أفريقية تبلغ حوالى ٨ ملايين ولذلك أعيد العديد من الأفريقيين العاطلين من المدن إلى أوطانهم الأصلية فى الريف طبقا لسياسة التطور المنفصل، وأدى ذلك إلى زيادة حدة الفقر المدقع فى الريف نظرا للزيادة السريعة لأعداد السكان الأفريقيين.

ولكن كانت الخطوة الأساسية فى تطبيق نظرية التطور المنفصل لكل من البيض والسود هى عملية تحويل المحميات الأفريقية - وهى الأراضى التى تركت للأفريقيين بعد انتزاع الأوروبيين لأراضيهـم منهم فى القرن التاسع عشر - إلى بانثوسانات أو الأوطان الوطنية الأفريقية.

وخانت الخطوة الأولى فى ذلك الاتجاه هى صدور قانون الحكم الذاتى للبانثو عام ١٩٥٩ الذى قرر إنشاء سلطات محلية فى وحدات وطنية فى الأراضى التى تسغلها القبائل الكبيرة أو أصحاب اللغة المشتركة، ونكرت مقدمة هذا القانون الغرض من نظام التطور المنفصل كله وقالت: "لا تعتبر شعوب البانثو شعبا واحدا متجانسا على الإطلاق ولكنها تعتبر فعلا وحدات قومية مختلفة على أساس اللغة والحضارة، ونحن توجد العديد من الشكوك حول صحة هذا الغرض لوجود أكثر من قرنين من الصراع والنزاع والتفاعل والاندماج الهائل فى ظل اقتصاد جنوب

أفريقيا الحضرى، ولكن لا تبلغ مساحة كل المحميات الأفريقية مجتمعة إلا ١٣ بالمائة من المساحة الكلية للبلاد، ولم تستطع أبدا إيواء وإعاشة السكان الأفريقيين عام ١٩٦٠، فما بالنّا إذن عند إضافة خمسين مليوناً آخر ينتظر وجودهم فى نهاية القرن. ولكن لم تمنع تلك الأمور الحكومة بالاستمرار فى تلك المهمة بهمة ونشاط وإن كانت تبدو شبه مستحيلة ومتعارضة تماما مع الواقع العملى الملموس، وكانت البانتوستانات أو الأوطان الأفريقية العشرة هى: ترانسكاي وكيسكي الكوازولو (للزولو)، الكواكوا لشعب الوثو الجنوبى ولوبوا وجنوب نديبيلى (لشعب السوثو الشمالى)، بوفوتا سوانا (شعب التسوانا)، الجازانكولا (لشعب الشانجان والتسونجا) الغندا السوازى. ولكن لم تشمل تلك الأوطان الوطنية الأفريقية منطقة متكاملة من الأراضي إذ تتخللها أراضي مملوكة للبيض داخلها ويحدث ذلك حتى فى أكبرها مساحة وهى الترانسكاي، ولكن حصلت تلك المنطقة الأخيرة على قدر كبير من الحكم الذاتى عام ١٩٦٣ وعقدت الانتخابات ولم تشمل عملية التصويت هؤلاء الأكسوزا المقيمين فى الترانسكاي فقط، ولكن كل الناس من أصل الأكسوزا حتى الذين عاشوا لأجيال طويلة فى المناطق الحضرية وفقدوا كل اتصال لهم بموطنهم الأصلى ولذلك مكنت أقلية من التصويت الشعبى بالإضافة إلى تأييد الزعماء المعينين فى برلمان الترانسكاي الجديد الزعيم ماتاتزيمبا من تشكيل حكومة وكان أحد الزعماء التقليديين الذين وافقوا على تأييد سياسة التطور المنفصل.

وكان الزعيم جاتسا بوتوليزى أحد الزعماء الأكثر إثارة للجدل فى السبعينيات، واستخدم مركزه لنقد الظلم العرقى وعدم المساواة وتدعيم حكومة جنوب أفريقيا لكل ذلك. ولذلك لم يرغب أبدا أن يحصل وطن خاص ليتولى مهام جهاز أمن الدولة التابع لجنوب أفريقيا الكوازولو على درجة أكبر من السيادة وعارض ذلك ورأى أن سياسة التقسيم سوف تؤدى إلى التشرذم والتفتت فى نهاية الأمر وأيده سبعة من زعماء الأوطان العشرة وساروا على نهجه. ولكن حصلت الترانسكاي على استقلالها الرسمى عام ١٩٧٦ ثم تلتها بوثاتسوانا عام ١٩٧٧،

ولكن لم تعرف أية دولة أخرى بهذا الاستقلال ورفضت عضويتها في كل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية وضمت حكومة ماتانزيمبا قوانين الطوارئ المطبقة في ترانسكاى منذ عام ١٩٦٠ إلى قانون الأمن العام الجديد عام ١٩٧٧، وأنشئ أيضا نظام خدمة مخابرات الترانسكاى ولكن لم تستمر العلاقات الجيدة التى سارت فى البداية طويلا، فلقد أعلنت حكومة فورستر أن كل الأكسوزا المقيمين فى جنوب أفريقيا كلها سوف تنزع منهم جنسيتهم الجنوب أفريقية ليصبحوا مواطنين فى دولة ترانسكاى الأفريقية والتى لم يعترف بها أحد، ورفض ماتانزيمبا ذلك الأمر، وذكر أنه يوجد حوالى ثلاثة ملايين من الأكسوزا الذين يعيشون خارج ترانسكاى مقارنة بمليونين فقط يعيشون داخلها وزاد النزاع لدرجة أن ترانسكاى قد قطعت كل علاقاتها مع جنوب أفريقيا عام ١٩٧٨ ولكن تم رأب الصدع فيما بعد إلا أن العلاقات لم تعد أبدا على ما كانت عليه فى الماضى.

وأقام أكثر من تسعة ملايين أفريقى عام ١٩٧٩ - أى أكثر من ضعف عدد كل السكان البيض فى جنوب أفريقيا - خارج البانتو ستانيات فى المناطق المسماة بالمناطق البيضاء، فلقد أقام أربعة ملايين أفريقى وعملوا فى مزارع البيض بالإضافة إلى خمسة ملايين آخرين فى المناطق الحضرية، وخضع هؤلاء الأفريقيون بالذات لأقصى صور التعنت والضغط طبقا لسياسات التفرقة العنصرية أثناء حياتهم العادية. وأدى التضخم والفقر والانعزال الاجتماعى بالإضافة إلى عدم الضمان الوظيفى وزيادة معدل الجريمة وازدياد النفى إلى الأوطان الأفريقية أو النقل خارج المدن إلى أوطان نائية ومجهولة إلى جعل الأفريقيين فى حالة يأس وإهانة دائمة، وكانت سويتو أكبر المناطق الحضرية الأفريقية وهى مدينة أفريقية ضخمة تقع فى جنوب غرب جوهانسبرج. وتتكون الطبقات العامة بالسكان هناك أساسا من الأطفال والمراهقين ويحصل هؤلاء الأطفال والمراهقون مقارنة بإخوانهم فى الريف على تعليم أفضل نسبيا، مما يؤدي إلى زيادة آمالهم فى الحياة الكريمة، كما يقدرّون تماما على معرفة قضاياهم والدفاع عنها عند الحاجة، ونشبت

اضطرابات طلابية عنيفة بينهم فى شهر يونية ١٩٧٦، وكان السبب المباشر هو قرار السلطات البيضاء أن تكون لغة الأفريكانرز هى لغة التعليم فى المدارس الثانوية، ولكن وجدت كذلك حالة من الاستياء العام بين الطلبة من نظام التعليم الخاص بالبانى، وكان الأفريقيون على حق تماما بالنسبة لشعورهم بالغضب واليأس عند مقارنة أحوالهم بالامتيازات والتسهيلات الممتازة التى يحصل عليها زملاؤهم التلاميذ البيض، فلقد كانت الدولة تتفق مبلغ ٦٤٤ راندا على كل طالب أبيض مقابل ٤٢ راندا على كل طالب أفريقى عام ١٩٧٥ / ١٩٧٦، وكان رد الشباب الأفريقى هو إبداء الغضب الجامح والهياج والحد على تلك الأحوال. وانتشرت إضرابات المدارس بسرعة فائقة، وسرعان ما تأثرت كل المناطق الحضرية الأخرى فى الترانسفال والكسكاى ومنطقة الكاب الغربية، ثم امتدت إلى مدينة بورت إليزابيث فى أغسطس ١٩٧٦ وردت الشرطة بعنف بالغ وشدة وحزم مما أدى إلى قتل عدة مئات بحلول عام ١٩٧٧، ولكن تخلت الحكومة فى نهاية الأمر عن فرض لغة الأفريكانرز كلغة تعليم بالإضافة إلى منحها بعض التنازلات الثانوية الصغرى، وشهدت الأعوام الأخيرة من السبعينيات زيادة صور المقاومة الأفريقية الأخرى بالرغم من عدم وجود شيء يماثل تأثير الاضطرابات الطلابية. وساءت صورة حكومة جنوب أفريقيا كثيرا فى ذلك العقد فى العالم الخارجى، وكان الطلبة الجامعيون الأفريقيون قد انفصلوا تماما عام ١٩٦٩ عن الاتحاد الوطنى لطلبة جنوب أفريقيا وكونوا "منظمة طلبه جنوب أفريقيا" وبلى ذلك ظهور حزب سياسى جديد وهو "مؤتمر الأفارقة السود" ولعب الحزبان الجديدان دورا بارزا فى تنمية الشعور بالشخصية السوداء أو حركة القوة السوداء بالرغم من تشجيعهما غير البيض على الاشتراك معهما فى النضال. ولكن تخلت حكومة فورستر عن كل تحفظاتها حينما أضافت اضطرابات المدارس حدة إلى هذا الموقف الثورى، فقامت بالقبض على كل الزعماء الأفريقيين وبعض مؤيديهم البيض وسجنتهم بموجب مختلف قوانين الأمن المتنوعة، وكان أحدهم هو ستيف بيكو الذى

أشأ منظمة طلبة جنوب أفريقيا ثم أصبح أكثر الزعماء الأفريقيين شهرة من الجيل الجديد وحظى بالنفوذ والاحترام العام، وتم القبض عليه في جراهاس ستاون في أغسطس ١٩٧٧، وسجن وتم استجوابه في سجن بورت إليزابيث، ثم نقل إلى بريثوريا لاستكمال استجوابه وتوفي هناك في ١٢ سبتمبر، ودلت القرائن على أنه توفي نتيجة لإصابات لحقت به أثناء الاستجواب بالرغم من أن قاضي التحقيق قد قرر أنه "لا يوجد أحد مسئول جنائيا". ولكن قتل خمسون شخصا أو أكثر أثناء احتجازهم طبقا لقوانين جنوب أفريقيا فيما بين أعوام ١٩٧٦، ١٩٧٩، وحينما تولى أحد المتشددين الآخرين وهو ب.و. بوثا الحكم كرئيس للوزراء عام ١٩٧٨ فإن عددا قليلا في جنوب أفريقيا كانوا يدركون أنه سيبدأ تلك العملية الطويلة الشاقة لتعديل ثم إلغاء سياسة التفرقة العنصرية كلها. وحدث ذلك فعلا فيما بعد.

المحميات وجنوب غرب أفريقيا (ناميبيا).

وحكمت بريطانيا باثوتلاند وباتشوانا لاند منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر بالإضافة إلى سوزيلاند بعد الحرب مع البوير كمحميات تابعة لها. وكان يديرها موظفون مدنيون بريطانيون تحت إدارة مندوب سامي بريطاني، والذي كان أيضا الحاكم العام لجنوب أفريقيا. ويعتبر ذلك فعلا ازدواجية للسلطة، ويبين ذلك تماما الوضع الخاص لتلك البلاد الصغيرة الثلاث التي لا يوجد لها منفذ على البحر وتحيط بها جنوب أفريقيا وتعتمد عليها اقتصاديا أيضا، ونص دستور اتحاد جنوب أفريقيا على احتمال ضم تلك المحميات إليه، كما طالبت بذلك فعلا الحكومات الجنوب أفريقية المتعاقبة وآخرها عام ١٩٦٣.

ورفضت بريطانيا تلك الطلبات بسبب أن ذلك الأمر يستلزم موافقة الشعوب المختصة. ولذلك تطورت تلك المحميات تدريجيا نحو الحكم الذاتي مثل المستعمرات الأفريقية الاستوائية، وكان الأصل أن يساعد ذلك عملية تقسيم السلطة

بين الأجناس في جنوب أفريقيا ذاتها، ولذلك تم تشجيع نمو الأحزاب السياسية في تلك المحميات وعبرت عن الانتماءات القبلية لكل منها بالإضافة إلى الاختلافات القليلة فيما بينها فيما يتعلق بموقفها تجاه جارتها الأبيض القوى.

وفاز حزب باتشوانا لاند الديمقراطي بقيادة سيريتس كاما، وهو زعيم شعب الباما نجوانو في تيشوانا لاند، انتخابات ما قبل الاستقلال في عام ١٩٦٥، ثم استقل بالبلاد وغير اسمها إلى بوتسوانا عام ١٩٦٦، وأصبح سيرمنسي رئيسا للبلاد ثم سرعان ما ظهر أنه من أكبر الزعماء الأفريقيين، وكانت بوتسوانا من الدول الأفريقية القليلة التي احتفظت بنظام تعدد الأحزاب، ومكنها استقلال مواردها الهائلة من الماس والنحاس والنيكل بالإضافة إلى معادن أخرى أن تكون أقل اعتمادا على جنوب أفريقيا عن شقيقتها الأقل حظا. ولكنها اعتمدت كثيرا على جارتها لاتصالها بالعالم الخارجى.

تم إنشاء طريق يصلح طول العام وفي كل الأحوال المناخية عام ١٩٧٧. ويصل إلى أقصى شمال بوتسوانا حيث توجد حدود قصيرة مشتركة مع زامبيا عند كاسونجولو على نهر الزامبيزي الذى يتم عبوره بالعبارات مما يؤدي إلى وجود رابطة - ولو صغيرة - مع باقى الدول الأفريقية فى الشمال، ثم تولى نائب الرئيس كيت ماسيرى رئاسة الدولة بعد وفاة سيريتس عام ١٩٨٠ واستمر فى السياسات الحذرة لسلفه، وأشاد تقرير البنك الدولى عام ١٩٨٩ ببوتسوانا وذكر أن لديها أفضل نسبة نمو فى القارة الأفريقية وهى ١٢ بالمائة سنويا زيادة فى الناتج القومى الإجمالى لأكثر من عقد من الزمان.

وأصبحت باسوتولاند مملكة مستقلة عام ١٩٦٦ وغيرت اسمها إلى ليسونر وحكمها الحزب الوطنى لياسوتولاند تحت قيادة الزعيم ليابوا جوناثان الذى احتفظ بعلاقات للتفاهم مع جيرانها السود، ولكن فقد الحزب الوطنى لياسوتولاند الانتخابات عام ١٩٧٠ وفاز حزب مؤتمر باسوتولاند. ولكن استطاع الزعيم جوناثان قلب نظام الحكم لصالحه بمساعدة حكومة جنوب أفريقيا وقوة شبه

عسكرية صغيرة من شرطة جنوب أفريقيا والمرتزقة البريطانيين، وتم نفي الملك موشوش لفترة، ثم لم يلعب دورا كبيرا في السياسة بعد عودته إلى بلاده، وتحولت ليسوتو إلى ديكتاتورية الحزب الواحد ولكن ابتعد الزعيم جوناثان تديرجيا ومع مرور الزمن عن علاقاته الوثيقة بجنوب أفريقيا.

وكانت سوازي لاند آخر المحميات التي حصلت على استقلالها عام ١٩٦٨، وكان ملك السوازي هو سوبهوزا الثاني وهو ملك تقليدي من الطراز القديم، لعب دورا مهما في سياسة بلاده أكثر بكثير من نظيره في ليسوتو، ولذلك نظم سوبهوزا حزبا خاصا به، وهو حزب ميوكوندفو، وذلك بالرغم من وجود عدد من الأحزاب السياسية قبل الاستقلال، ثم تلاعب بعد ذلك في الانتخابات التي جرت عام ١٩٦٤ لضمان فوزه، وكان حزب ميوكوندفو حزبا وطنيا خالصا، ولذلك انضمت إليه أعداد كبيرة من الشباب والأكثر راديكالية منهم، وفرض البريطانيون النظام البرلماني البريطاني عام ١٩٦٨.

ولذلك أصبح سوبهوزا نظريا رئيسا دستوريا للدولة، وقبل وضعه الدستورى إلى عام ١٩٧٣ حينما تولى الحكم بنفسه وأوقف العمل بالدستور، وأعاد ما أسماه بعدد من النظم التقليدية التي يفترض أنها تؤدي إلى تبادل وجهات النظر بين الملك والرعايا، ولكن أصبح من الصعب الاحتفاظ بهذا النظام عند ازدياد معدلات التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، ولذلك وجب على الملك مراقبة رعاياه من جهة والأجانب المقيمين من جهة أخرى والذين كان العديد منهم من مزارعى جنوب أفريقيا والذين يملكون حوالي ٤٠ بالمائة من أراضي البلاد، ووجب عليه أيضا مراقبة توغل الأفكار والمبادئ الماركسية من موزمبيق المجاورة، وتوى سوبهوزا عام ١٩٨٢، وكان آنذاك أقدم الملوك الحاكمين في العالم.

وبلغ سكان جنوب غرب أفريقيا بالرغم من مساحتها الشاسعة أقل من المليون من السكان ومنهم ١٠٠,٠٠٠ من البيض ومعظمهم من الأفريكانرز

وبعضهم من أصول ألمانية، وعرفت تلك البلاد فى الخارج باسم ناميبيا، وكان أكبر الأجناس الأفريقية تعدادا هو شعب الأوفامبو المقيم فى أقصى الشمال بالقرب من حدود أنجولا، أما الشعب الآخر المتحدث بإحدى لغات البانتو فهو شعب الهيريرو الذى عانى أجداده كثيرا على أيدي الألمان فى الماضى (انظر الفصل الثانى عشر) ووجدت أيضا جماعات متفرقة تتحدث بلغة الخوى مثل شعب النانا ورأينا أن حكومة جنوب أفريقيا قد رفضت قبول سلطة مجلس وصاية الأمم المتحدة على المنطقة فى نهاية الحرب العالمية الثانية واستمرت فى حكمها كأنها الولاية الخامسة فى الاتحاد، وأرسل الناضبون البيض نوابهم إلى برلمان جنوب أفريقيا كما طبقت معظم القوانين المقيدة للحرية لنظام حكم جنوب أفريقيا فى المنطقة، ونشرت بعد ذلك خطة أودندال عام ١٩٦٤ واقترحت ربط جنوب غرب أفريقيا بطريقة أوثق بالاتحاد، وإنشاء أوطان أفريقية تشمل ٤٠ بالمائة من مساحة البلاد بينما تخصص الـ ٦٠ الباقية للبيض.

ولكن تطورت بعض الحركات السياسية الأفريقية آنذاك، وكان أشهرها هو حزب منظمة شعب جنوب غرب أفريقيا (سوابو).

وتميز هذا الحزب بالحصول على أفضل الاتصالات الدولية وبالذات فى الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية، واتجه حزب سوابو إلى الكفاح المسلح بعد صدور خطة أودندال، وبدأ فى شن حرب عصابات قليلة فى البداية فى منطقة شعب الأوثمبو بالقرب من الحدود الأنجولية، وتم إقناع هيئة الأمم المتحدة بإلغاء حماية جنوب أفريقيا على المنطقة عام ١٩٦٦، والتي منحها لها عصبة الأمم فى الماضى، كما قررت محكمة العدل الدولية عام ١٩٧١ إنهاء جنوب أفريقيا لاحتلالها لناميبيا، ونظم الأوفمبو وجهات أفريقية أخرى إضرابا عاما فى العام نفسه، ومن ثم أعلنت حكومة جنوب غرب أفريقيا حالة الطوارئ وألغت الأحزاب بالقوة، وتم إنشاء أوطان للأوفمبو والكافنجو عام ١٩٧٣ ومنحت قدرا من الحكم الذاتى، ثم ازدادت أعمال العنف فى البلاد نظرا لاستخدام قوى الأمن العنف

المفرط في مواجهة حرب عصابات سوابو الموجهة أساسا ضد زعماء الأوطان الأفريقية. وكان أهم عنصر من عناصر المواجهة في ناميبيا هو انسحاب البرتغاليين من أنجولا ثم الحرب الأهلية التالية بين الحركة الشعبية لتحرير أنجولا الحاكمة في لواندا وحرب العصابات التي شنها حزب الاتحاد الوطني للتحرير التام لأنجولا (يونيتا) في جنوب البلاد، ولذلك استطاع حزب سوابو أن يزيد هجماته العسكرية داخل ناميبيا من قواعده داخل أنجولا بمساعدة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا، وردت قوات جنوب أفريقيا بعنف وشنت هجمات مضادة من قاعدتها العسكرية الضخمة في جيروت فونتين في شمال ناميبيا، كما قاموا أيضا بمساعدة مقاتلي حزب الاتحاد الوطني ضد حكومة الجبهة الشعبية الحاكمة.

وحاولت جنوب أفريقيا القيام بمبادرة سياسية عام ١٩٧٥ وعقدت مؤتمرا دستوريا لممثلي كل شعوب ناميبيا دون الإشارة من قريب أو من بعيد إلى حزب سوابو أو الأمم المتحدة، وعقد مؤتمر نورنهال واتخذ قرارا باستقلال ناميبيا عن جنوب أفريقيا عام ١٩٧٨ ولكن مع استمرار التقسيم بين الأوطان الأفريقية والمنطقة البيضاء تحت نوع من الضمانات التي تقدمها جنوب أفريقيا، ويعنى ذلك استمرار نوع من أنواع السيطرة، ولم تقبل الأمم المتحدة أو ضرب سوابو مقترحات مؤتمر نورنهال، وحاول الأعضاء الغربيون في مجلس الأمن الوساطة ولكن قررت حكومة جنوب أفريقيا في نهاية الأمر عقد انتخابات في البلاد بناء على مفاهيم مؤتمر نورنهال، ولكن كانت الحقيقة وراء أوضاع ناميبيا أن جنوب أفريقيا - بتشجيع سرى من الولايات المتحدة - قد رفضت سحب قواتها العسكرية من المنطقة مادام الروس والكوبيون في أنجولا لمساعدة حكومتها الماركسية، ولذلك تحولت ناميبيا إلى منطقة شملت آثار الحرب الباردة وسوف تستمر كذلك طوال عقد الثمانينات.

ولذلك فإن علاقات جنوب أفريقيا الخارجية في أعوام ١٩٤٥ إلى ١٩٨٠ قد كانت أساسا رد فعل لاتجاهات الدول الأخرى لسياساتها وإجراءاتها الداخلية، ولم

يكن ذلك فقط بما يحدث هناك آنذاك ولكن بما يحتمل حدوثه في المستقبل، فتوجد عدة دول في العالم حيث تمثل الحكومات أقلية من السكان ولكنها تعذب الأغلبية وتسيئ إليها وتسيطر على التحركات الداخلية والخارجية لشعبها، كما تستخدم تلك الدول الشرطة السرية والمخبرين لمعرفة أقل مظاهر الأشياء والمعارضة كما أنها تمارس أيضا التعذيب في سجونها أثناء استجوابها والقتل والاغتيال خارج تلك السجون، وتوجه العديد من الحكومات في العالم، حتى في أفريقيا ذاتها، والتي قتلت أعدادا كبيرة من مواطنيها أكثر من حكومة جنوب أفريقيا، ولكن تميزت جنوب أفريقيا بالذات بأن تلك الجرائم والمظالم قد تم ارتكابها لأسباب مثيرة لجدل هائل وتتعلق بالجنس واللون، وحينما قتل ستيف بيكو على أيدي رجال الشرطة البيض فإن كل رجل أسود في العالم قد شعر أن الأمر يخصه شخصا، وكانت أكبر آمال الحركة الأفريقية المشتركة هي ذاتها رغبة كل الدول الأفريقية السوداء في تحرير إخوانهم في أقصى جنوب القارة، ورغب في ذلك حتى الدكتاتور عيدي أمين لكي يظهر بطلا مناضلا ولعلمه تماما أن الدول الأفريقية ستقاعس عن الهجوم عليه لسياسته الداخلية المستبدة لكونه من أنصار تحرير الشعب الأفريقي.

الاختراق في جنوب أفريقيا

ولذلك قامت حكومة جنوب أفريقيا ببعض المجهود لكسر عزلتها المتزايدة عند أقصى جنوب القارة لمواجهة ذلك الموقف واستمرت في تنمية علاقاتها الاقتصادية بالدول الغربية واليابان وحاولت كثيرا إثبات جدواها كشريك تجارى كبير يمكن الاعتماد عليه ولكونها أيضا مصدرا للتنمية والمساعدة للعديد من الدول الأفريقية الأخرى، وأقام فيرفورد وفورستر علاقات وثيقة مع ليسوتر ومالاوى كما أجريا اتصالات مع دول بعيدة مثل ساحل العاج وليبيريا وغانا وجمهورية مالاياشى، وعرضت بضائع جنوب أفريقيا للبيع في عدة دول أفريقية والتي لم

تقبل أبدا زائرين جنوب أفريقيين في أراضيها أو عبور طائرات جنوب أفريقية في أجوائها الإقليمية، ولكن تعتمد كل من بتسوانا، وزامبيا وزائير وزيمبابوي إلى درجة كبيرة على وسائل المواصلات الجنوب أفريقية مثل خطوط السكك الحديدية لكي تتصل بالبحر، وخاطرت حتى دولة معادية مثل موزمبيق بأن ترسل عمالها الموسميّين المهاجرين للعمل في جنوب أفريقيا مقابل السداد بالعملة الذهبية بين حكومة وأخرى من أجل موازنة الميزانية الموزمبيقية، ثم أصدر مؤتمر يتكون من أربع عشرة دولة أفريقية، إعلان لوساكا عام ١٩٦٩، ويعبر به بالذات عن أفكار الرئيسين كواندا ونيريري، ووضع هذا الإعلان الخطوط العريضة للمباحثات المستقبلية بين جنوب أفريقيا ودول أفريقية أخرى، ولكنهما ركزا تماما على مفهوم محدد وهو أن ذلك لن ينجح إلا إذا أثبتت جنوب أفريقيا استعدادها لتغيير سياسة التطور المنفصل، وسوف تعترف الدول الأفريقية إذا قبلت جنوب أفريقيا ذلك أنه يمكن انقضاء فترة طويلة للغاية قبل وصول الأغلبية الأفريقية إلى الحكم، وقابل فورستر وبعض الوزراء الأفريقيين الجنوبيين البيض إلى نهاية الثمانينيات بالرفض البليغ لما كان يمكن أن تكون فرصة واحدة لا تعوض للخروج من وطنهم الذي أقاموه بأنفسهم.

ولكن يوجد نوع آخر من الإنذار ولا يمكن لحكومة ب.و.بوثا p.w.Botha تجاهله على الإطلاق. وصدر من قادة الصناعة والتجارة في البلاد، وذكر وبوضوح تام أن التقدم المزدهر في ذلك العصر في اقتصاد جنوب أفريقيا سوف يتوقف تماما في القريب العاجل. ويمكن تفادي ذلك فقط بالحصول على قوة عمل ماهرة أو شبه ماهرة في أسرع وقت من بين سكان جنوب أفريقيا السود الذين بلغ تعدادهم آنذاك حوالي ٢٩ مليونا، كما ينتظر أن يزداد هذا العدد كثيرا في نهاية القرن وسوف يكونون أهم المستهلكين والمنتجين في المستقبل كما أنه من الواضح تماما أن معظمهم سوف يقيم ويعمل في أو حول المدن البيضاء وليس في الريف أو في البانتو ستانات. ويقول ف.ب. دي كليرك F.W.de Klrk وكان آنذاك وزيرا

شابا صاعدا فى مسيرة حياته إن إدارته لاقتصاد بلاده خلال عقد بداية الثمانينيات قد أقتنعتة تماما أنه سيكون من المستحيل تماما الاحتفاظ بالنمو الاقتصادى من جهة والنجاح فى تطبيق سياسة الأوطان المستقلة المنفصلة من جهة أخرى. وقال إنى أعتقد أن النمو الاقتصادى عامل أكثر أهمية بكثير من أجل التنفيذ أكثر من أى عامل آخر، ويشمل ذلك العقوبات والضغوط الدولية ويضيف المعلومة المهمة التالية أن لجنة خاصة وربما سرية داخل الحكومة قد طورت سياسة جديدة مما يفيد تغيرا شاملا يصل إلى ١٨٠ درجة انحرافا عن سياسة التفرقة العنصرية السابقة وأساليب التطور المنفصل والتوفيق بين الأجناس وقبلت تلك السياسة المبادئ الأساسية الخاصة بجنوب أفريقيا فى المستقبل وهى بلد واحد صوت لكل فرد وإلغاء جميع مظاهر التفرقة العنصرية وحماية الأقليات من سيطرة الأغلبية^(٥٤) ومثل المؤتمر الاتحادى للحزب الوطنى فى دربان تلك الاتجاهات السياسية الجديدة فى شهر أغسطس ١٩٨٦ ووافق عليه أيضا العدد المحدود من ناخبي التفرقة العنصرية عام ١٩٨٧

ولا شك أن رؤية دى لكيرك اللاحقة لتطور الأحداث فى الثمانينيات قد تخطى عدة اختلافات فى رأى فيما يتعلق بتوقيت التنفيذ الدستورى الذى أخذ آنذاك بالاعتبار، ولكن مثلما تذكر فى مرات نلسون مانديلا فإن تبقى وزارات قد أخذ على عاتقهم إحداث تغير حقيقى وفعال لإعادة بعض السياسيين فى جزيرة روبن Robbin Island إلى الحياة السياسية فى المجتمع المدنى ولكن قبل ذلك فى شهر مارس ١٩٨٢ فإن مانديلا وثلاثة من الرؤساء الأفارقة قد تم نقلهم إلى سجن بجوار مدينة الكاب Cape Town، وحيث سمح لهم بقراءة الجرائد والاستماع إلى المذياع. واتصل مانديلا بالحكومة عام ١٩٨٥ وذكر أن الوقت قد حان للدخول فى مفاوضات وحوار بناء فى المؤتمر الوطنى الأفريقى وقال ولقد حاربنا ضد سيطرة حكم الأقلية البيضاء لمدة ثلاثة أرباع قرن وقتل كثيرون من الجانبين وأعتقد أن

F.wde klerk. The last trek, London 1998, p.42.Ibid., p.log (٥٤)

النصر العسكرى حلم بعيد المنال إن لم يكن مستحيلا فعلا، ولا يوجد معنى لاستمرار الطرفين فى خسارة الآلاف بل الملايين من الأرواح فى نزاع لا ضرورة له ولقد حان الآن وقت التفاوض^(٥٥) وردت الحكومة بتمهل ولكن فى شهر ديسمبر ١٩٨٨ ثم نقل ماندلا إلى سجن فكتور فرتر VICTOR FORSTUR بالقرب من بارل PARL وإلى منزل كبير به خدم وطباخ وحيث يمكنه استقبال الزائرين، وكان من الواضح أنه يتم التحضير لإطلاق سراحه فى المستقبل القريب وللقيام بدور رئيسى بعد ذلك، وبين كل ذلك أنه بالرغم من إخفاء نواياها الحقيقية عن الناخبين فإن الحكومة فهمت تماما أى تغييرات كبرى سوف تتم، كما أن الهدوء والسلام لن يأتيا إلا بتعاون زعماء المؤتمر الوطنى الأفريقى سواء الموجود منهم فى السجون أو فى المنفى ومن بينهم نلسون ماندلا وهو أفضل شخصية يمكن التفاهم معه والوصول إلى اتفاق.

ولم يبق آنذاك إلا موضوعان مهمان يمنعان اتخاذ القرارات المصيرية المهمة وكان الأول هو وجود المرتزقة الكوبيين فى أنجولا وانتهى ذلك بانسحابهم عام ١٩٨٩ أما الحاجز الثانى وهو الرفض الشخصى للرئيس العجوز بوثا لبدء المفاوضات ولكنه تعرض لأزمة قلبية عام ١٩٨٩، واضطر إلى الاستقالة فى شهر أغسطس من العام نفسه وخلفه ف.و. دى كليرك فى رئاسة الحكومة، وأعلن للعالم أن وقت المصالحة وإعادة البناء قد حان، وأن حكومته سوف تلغى الحظر على حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى والحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا وإطلاق سراح نلسون ماندلا من سجنه الطويل دون قيد أو شرط.. والأغرب من ذلك أن الحكومة قد طلبت موافقة الناخبين البيض بعد عام من تلك الأحداث وفى انتخابات عامة وكسبت بأغلبية عظيمة. ولكن ما زال الطريق طويلا للبدء فى مشاركة السلطة، وإن بدا أن اتجاه التغيير سوف يسير دائما إلى الأمام. وأخيرا انضمت جنوب أفريقيا إلى بقية القارة من حيث النوايا إن لم يكن فى حكم الواقع بعد.

(٥٥) Nelson Mandela, long walk to freedom. New York 1994p.45-7

الفصل الحادى والعشرون

سياسات أفريقيا المستقلة

ولدت الدول الأفريقية التى حصلت على استقلالها خلال الخمسينيات والستينيات بالاتفاق السلمى غالبا مع القوى الاستعمارية السابقة حالة انتعاش سياسى كبير، فلقد ورثت من تلك القوى أنظمة حكم عملية، والتى مهما كانت عيوبها فى مجال الحرية الشخصية والإهانة التى شعر بها الناس من الحكم الأجنبى إلا أن تلك النظم قد قدمت إطارا حقيقيا للأمن الداخلى والخارجى، وإدارة صالحة وفعالة، شئون مالية جيدة ومرافق عديدة جيدة من الطرق والموانى والسكك الحديدية ويضاف إلى ذلك الخدمات الاجتماعية الحديثة فى التربية والتعليم والصحة وتطور المجتمع، وأدى وجود الزعامات الأفريقية الجديدة آنذاك إلى إضفاء صفة الشرعية لحكم البلاد بواسطة أبنائها، مما أدى إلى مشاركة أعداد كبيرة من المواطنين العاديين لتأييد الأحزاب السياسية التى تم تكوينها على النمط الديمقراطى الغربى، وقال نكروما قوله المأثور: ابحثوا أولا عن مملكة السياسة، وسوف تضاف كل الأشياء الأخرى تباعا!".

وشعر زعماء الدول الجديدة بالثقة نظرا للتماسك الداخلى لبلادهم لدرجة أن معظم أعمالهم الأولى قد انصببت أساسا على السياسة الخارجية ووجب عليهم إنشاء علاقات جديدة مع الدول الأفريقية المجاورة لتأمين حدودهم بينما كان عليهم تطوير علاقاتهم خارج القارة مع الدول الصناعية غير الاستعمارية السابقة والتى يمكنها مساعدتهم كشركاء تجاريين، كمصدر للاستثمار وتقديم المنح التعليمية ولأغراض إنسانية أخرى، ولعبت الأيديولوجية دورا فى ذلك؛ إذ كونت الدول التى تفضل

الغرب كتلة مونروفييا بينما فضلت الدول المؤيدة للشرق تكوين كتلة الدار البيضاء الصديقة للسوفيت، ولكن لم تستمر تلك التكتلات طويلا فلقد تعلم رجال السياسة الأفريقيون أنه من الأفضل تنمية علاقاتهم مع الشرق والغرب على السواء بل والاستفادة من خلافاتهم أيضا كما عرفت تلك الفترة بالنسبة للمساعدات بعصر الحروب الصليبية للأطفال، ويعنى ذلك أن الآلاف والآلاف من الشباب والشابات الصغار فى السن نسبيا قد توافدوا إلى أفريقيا من غرب أوروبا وشمال أمريكا لقضاء عام أو أكثر فى خدمة المجتمعات الأفريقية وبالذات فى تعليم اللغتين الإنجليزية والفرنسية فى المدارس الابتدائية الجديدة التى أنشئت حديثا فى المناطق الريفية للدول الأفريقية من الجزائر إلى مدغشقر ومن سيراليون إلى زامبيا، وعرفوا فى فرنسا وبلجيكا بالمتعاونين، ويعفون من الخدمة العسكرية فى بلادهم كحافز لهم، ويتمتع أفراد هيئة السلام الأمريكية بالامتيازات نفسها وأصبحت الخدمة فى أفريقيا بديلا عن التوجه لحرب فيتنام ومولت الحكومة البريطانية مجموعة من المنظمات التطوعية وأكبرها هيئة الخدمات التطوعية عبر البحار، ولعب هؤلاء الشباب دورا مهما فى تنمية النظم التعليمية الأفريقية خلال الأعوام الأولى من استقلال أفريقيا، وقدموا للجيل الجديد من أطفال المدارس الأفريقية معرفة مباشرة جيدة بالعالم الخارجى ولم تستطع دول الكتلة الشرقية منافسة تلك الجهود لعدم إلمامها باللغتين الإنجليزية والفرنسية.

ولكن لم تجد رؤية فكرة فى إنشاء ولايات متحدة أفريقية تأييدا كبيرا، كما انهارت كل الاتحادات الإقليمية الأولى التى تكونت خلال العصر الاستعماري فى غرب أفريقيا الفرنسية وأفريقيا الاستوائية الفرنسية من جهة واتحاد وسط أفريقيا البريطانى والمجموعة الشرق أفريقية الأقل تماسكا، وعادت تلك الاتحادات كلها إلى مكوناتها الأساسية، أى انفصلت كل الدول وعادت كل منها إلى أوصولها بعد زوال عملية فرض الوحدة من الخارج، واعتقد لفترة بسيطة أن حركة الانفصال سوف تزداد أكثر بعد انفصال كاتانجا عن الكونغو (فيما سبق، الفصل ١٨) ولكن

أدى تدخل الأمم المتحدة واستخدامها قوات من دول أفريقية أخرى إلى إنهاء ذلك الاتجاه ثم ظهرت منظمة الوحدة الأفريقية عام ١٩٦٣ وهي هيئة استشارية مقرها أديس أبابا والتي أصبحت مرجعا مهما للغاية لإنهاء الخلافات بين الدول الأفريقية المختلفة بالإضافة إلى توحيد الأصوات في المسائل ذات الاتفاق المشترك مثل استمرار الكفاح لتحرير باقى المناطق التى مازالت تحت حكم الاستعمار فى أنجولا وموزمبيق وروديسيا وجنوب أفريقيا، وأصبح من المبادئ الرئيسية لمنظمة الوحدة الأفريقية مبدأ قدسية الحدود الموروثة من عصر الاستعمار، وذلك لمنع منازعات الحدود من جهة والمحاولات الانفصالية من جهة أخرى.

الديمقراطية والأوتوقراطية والحكم العسكرى

اكتشف الزعماء السياسيون فى الدول المستقلة حديثا بسرعة أن الحصول على تأييد الشعب فى المواضيع العادية ولكن المعقدة مثل مشاريع التعليم العام لجميع أطفال وشباب الدولة وتحسين الأوضاع الاجتماعية يختلف تماما عما حدث فى الماضى حينما حصلوا على تأييدهم فى مسألة نضال الوطنيين الأفريقيين ضد المستعمر الأجنبى، ثم أوصلهم هذا النضال إلى السلطة ولكن كانت القاعدة الوحيدة للشخصية القومية فى تلك الدول كلها هى تلك الموروثة من العصر الاستعماري والتي تم إنشاؤها بسرعة ثم فرضت على سكان مختلفين للغاية يتحدثون العديد من اللغات المختلفة، ولم توجد فى تلك الدول إلا أقلية صغيرة من أفضل الناس تعليما والذين لديهم انتماء أكبر من الجماعة العرقية ولذلك رأى معظم الزعماء الأفريقيين أنه لا جدوى للنظام البرلماني الديمقراطي السائد فى العالم الغربى والمتعدد الأحزاب المتواجدة فيما بينها، إذ أن الأوضاع الداخلية لا تسمح بذلك إطلاقا ولذلك طبق زعماء أفريقيون آخرون النظرية الماركسية - اللينينية الخاصة بفكرة الحزب الواحد الذى يعبر عن نخبة تقدمية، ولم يقبلوا معارضة منظمة، ورجبوا فى حشد

الجماهير حول فلسفة واحدة وبرنامج سياسى واحد. وكان كل هؤلاء الزعماء يساريين طبقا للمفاهيم الغربية وبرروا ذلك المفهوم الحزبى على أنه بناء للدولة، ووجد العديد من المراقبين السياسيين فى الشرق والغرب على السواء المستعدين تماما لتبرير تلك المفاهيم السلطوية للأسباب المذكورة سابقا.

ويبدو أن فكرة الحزب الواحد قد دخلت القارة أساسا من الدول الفرنكفونية فى غرب أفريقيا، وكان هوفويه بونيه فى ساحل العاج وسيكوتورى فى غينيا قد أنشأ كل منهما نظام حكم الحزب الواحد حتى قبل نقل السلطة رسميا ثم تبعتهما معظم الدول الأفريقية الفرنكفونية الأخرى فى منتصف الستينيات فى هذا الاتجاه باستثناء السنغال، وقادت غانا تحت حكم كوامى نكروما نظام حكم الحزب الواحد فى أفريقيا الناطقة بالإنجليزية ثم تبعته فى ذلك فى شرق أفريقيا وتنزانيا تحت حكم جوليس نيريرى، ومالاوى تحت حكم هاستنج باندا، وزامبيا تحت حكم كينيث كواندا.

وحاول نيريرى بالذات فى خطبه الرسمية وكتاباتاته أن يدافع عن التحول إلى الاشتراكية الأفريقية، وقال إنها تتلاءم تماما مع النظم التقليدية الأفريقية السائدة فى عصر ما قبل الاستعمار؛ إذ يعرض الشيوخ آنذاك مشاكل المجتمع تحت ظل شجرة كبيرة" بغرض الوصول إلى إجماع وليس مواجهة، وبعد الوصول إلى اتفاق عام يحول الرئيس ذلك التفاهم إلى أمر تنفيذى يطبقه الجميع فوراً وبدون تردد.

ولكن أثبتت الأحداث أن الحزب التقدمى قد فرض سطوة فئة قليلة للغاية على الأغلبية كما أصبح أعضاؤه أصحاب نفوذ وقوة. ولذلك أدى عدم وجود المعارضة إلى ضعف البرلمانات مما أدى إلى حكم الوزراء دون أدنى رقابة على أعمالهم، وتحولت التعيينات فى الوظائف والترقيات فى الجهاز المدنى والشرطة والقضاء والهيئات التابعة للدولة إلى الذين يدينون بالولاء للحزب الحاكم، ثم يمتد نشاط الحزب إلى المجتمع كله ليصل إلى مستوى القرية لشرح سياسة الحكومة

أيضا ولكن يتم أيضا، الاستماع وإيلاغ القيادات العليا بكل ما يقال ويتم القبض على المعارضين بوسائل شرعية أو غير شرعية على السواء، وتمتلك تلك الأحزاب السلطوية حرسها الخاص في صورة منظمات الشباب المستعدة دائما للهجوم على أى قرية ترفض الاقتصاد الجماعى أو ضد أى جماعة تزداد بها حرية التعبير.

ولم تأت التغييرات فى الاتجاه الاشتراكى فجأة ولكن على مراحل، فلقد حصلت غانا مثلا على استقلالها عام ١٩٥٧ بدستور على النمط البرلمانى البريطانى، ولكن سرعان ما صدر قانون الحزب الواحد منذ عام ١٩٥٨ والذي استخدم ليس فقط ضد أعضاء المقاومة ولكن أيضا ضد المنشقين فى الحزب الحاكم نفسه، وصدر بعد ذلك قانون العلاقات الصناعية فى العام نفسه وأخضع الاتحادات العمالية للسيطرة الحكومية وتحولت غانا إلى جمهورية عام ١٩٦٠، وأصبح نكروما رئيسا للجمهورية بدلا من رئيس الوزراء بعد صدور دستور جديد والذي أعطى له سلطات هائلة، وتم إعلان غانا على أنها دولة يحكمها حزب واحد عام ١٩٦٤ وإن كان الحزب الحاكم آنذاك قد تدهور تماما وتحول لحزب من المنتفعين، وازداد الاستياء الغربى منها ولذلك لجأ نكروما إلى الكتلة الشيوعية ولكنه نكروما بتأييده للحركات الاستقلالية فى الدول الأخرى واستمر فى الحديث والكتابة عن حاجة أفريقيا للوحدة.

ولكن لم يؤد مفهومه للاشتراكية الأفريقية المسمى النكرومية إلا إلى إنشاء بعض المشاريع الصناعية والمرافق العامة التى أثبتت أنها شديدة التكاليف وذات عائد اقتصادى قليل، وانعزل نكروما عن أبناء الشعب الغانى، وأقام فى البداية فى القلعة الدانمركية القديمة لتجارة العبيد فى كريستيان بورج، وفيما بعد فى ثكنات عسكرية عند مشارف أكرا، حيث يمكن الدفاع عنه عند الحاجة بوسط الحرس الجمهورى المسلح بأسلحة أفضل من أسلحة الجيش النظامى ولكن شاعت سخرية الأقدار أن يطيح به الجيش عام ١٩٦٦ أثناء زيارته للصين، وكان نكروما قد ورث دولة من أغنى دول غرب أفريقيا وذات ميزانية قوية متوازنة بالإضافة إلى احتياطي كبير من

العملات الأجنبية، ولكن تحولت غانا بعد تسعة أعوام من حكمه إلى دولة مفلسة تماماً حيث نقصت بها المواد والسلع الأساسية بل والطعام أيضاً، وانهارت أيضاً كل الخدمات الاجتماعية لدرجة لا يمكن تصورها، وتوفي نكروما ولم يبيكه الكثيرون كشخص، ودفن عند صديقه سيكوتورى فى جزيرة أمام ساحل غينيا.

ولم يكن الانقلاب العسكرى فى غانا أول الانقلابات العسكرية التى أثرت على أفريقيا المستقلة، فلقد أطاح الضباط الأحرار بحكم الملك فاروق فى مصر فى يوليو ١٩٥٢، كما تولى الجيش الحكم فى السودان وأطاح بأول حكومة مدنية عام ١٩٥٨ والتى تم انتخابها قبل عامين فقط وتدخل الجيش فى توجو عام ١٩٦٣ لتعيين رئيس جمهورية جديد، وأصبح الجنرال موبوتو الذى كان أحد قادة تمرد عام ١٩٦٠ (انظر فيما سبق الفصل ١٨) رئيسا للكونغو والتى غير اسمها إلى زائير وتوالى الانقلابات العسكرية خلال عامى ١٩٦٦ و ١٩٦٧ فى منتصف القارة الأفريقية إذ نشبت انقلابات فى بنين وتوجو وفولتا العليا، وجمهورية أفريقيا الوسطى، واستخدم رئيس الوزراء المدنى فى أوغندا وهو ميلتون أو بوتى الجيش للإطاحة بالحكومة الدستورية للبلاد ولكن كانت أسوأ تلك الأحداث هى الانقلابات العسكرية المتتالية فى نيجيريا والتى أدت بأكثر الدول رخاء وثروة فى وسط أفريقيا إلى حافة التفتت والخراب.

من الحكم العسكرى إلى الحرب الأهلية

كانت الحكومة البريطانية قد تفاوضت باهتمام شديد مع السياسيين النيجيريين حول دستور نيجيريا، وتم التوصل إلى إقرار النظام الفيدرالى وسلطة مركزية واحدة وثلاثة أقاليم ذات سيادة جزئية ودارت السياسة على المستوى الاتحادى فى إطار سيطرة المنطقة الشمالية الواضح، وذلك نظرا لمساحة هذا الإقليم وكثافة سكانه ذات الأغلبية الإسلامية، وكان رئيس الوزراء الاتحادى هو السير أبو بكر

تافوا باليو الذى يتمتع باحترام كبير كمرشح لحزب مؤتمر الشمال، وتميز باتجاهه المحافظ وتمتعه باحترام كبير منذ توليه الحكم عند الاستقلال عام ١٩٦٠ وأكدت عمليات إحصاء وانتخابات أجريت عامى ١٩٦٣ و ١٩٦٤ وبالرغم من وجود شبهة غش وفساد، ذلك الوضع تماما وسيطرت على الحكم فى الإطار الفيدرالى الأعراق الثلاثة الكبرى فى البلاد وهى: الهاوسا فى الشمال، اليوروبا فى جنوب الغرب والإيجبو فى جنوب الشرق. أما فى العلاقات بين الأقاليم فلقد تحالف اليوروبا، نظرا لوجود أعداد كبيرة من المسلمين بينهم، مع الهاوسا الشماليين ولذلك شعر شعب الإييو المسيحى والذى لديه أفضل نخبة مثقفة بالعلية، وكان أبنائه قد انتشروا فى كافة المناطق فى البلاد وقاموا بأعمال التجارة والأعمال ذات التخصص الثقافى وشعروا بأنه لا يمكن الاستغناء عنهم ولكن لا يتم تقديرهم بالقدر الكافى، ولذلك قامت مجموعة من ضباط الجيش الشباب - ومعظمهم من الإييو - بالإطاحة بالحكومة فى يناير ١٩٦٦، وقتلوا باليو ورؤساء وزراء الأقاليم الأخرى الشمالية والجنوب غربية وأنشأوا نظام حكم عسكرى بقيادة أحد الإييو، وهو الجنرال إيرونس واشتعل الموقف فى المنطقتين الأخرين، وتم قتل الإييو المقيمين فى المدن الشمالية، ثم قتلت مجموعة من الضباط الشماليين الجنرال أورونس، ثم عينوا الفريق جيون وهو مسيحى شمالى بدلا منه، ولذلك اتخذ الحاكم العسكرى للمنطقة الشرقية وهو الفريق أوجوكو خطوات للانسحاب من الاتحاد الأفريقى، ثم أعلن الانسحاب رسميا فى شهر مايو ١٩٦٧ حينما أعلن أوجوكو استقلال دولة بيافرا رسميا.

وتوجد عدة أسباب لرفض الحكومة الاتحادية الموافقة على الانفصال ولكن كانت أكثر الأسباب هى تركيز كل آبار البترول تقريبا والى تعتمد عليها الحكومة الاتحادية تماما فى مواردها وموازنة ميزانيتها فى إقليم بيافرا المنفصل، وتشابهت الأحوال هنا مع كانتجا عام ١٩٦٠ حينما حاول تشومبى الاستقلال واحتكار الثروة المعدنية الرئيسية للكونغو لصالح مقاطعته فقط، وهكذا بدأ عصر الحروب الأهلية

فى نيجيريا والتى استمرت ثلاثة أعوام وأدت إلى مقتل أكثر من مليون نيجيرى، واستطاعت بيافرا فى البداية بفضل استعدادها الأفضل الاستيلاء على معظم المنطقة الواقعة بين بنين ولاجوس ولكن سرعان ما استعادت القوات الفيدرالية المبادرة ودفعت قوات بيافرا إلى الخلف إلى أن عادت إلى حدودها الأصلية، ثم انكشيت مساحتها أكثر فى منتصف عام ١٩٦٩ واقتصرت فقط على منطقة داخلية صغيرة للغاية حول مركز موطن شعب الإيبو، واكتظت تلك المنطقة الصغيرة باللاجئين الهاربين الجائعين والذين تجمعوا حول المطار الوحيد العامل فى أولى.

ولكن استمرت الحرب ثمانية عشر شهرا أخرى ويرجع ذلك إلى قدرة أوجوكو والفائقة على إقناع العالم الخارجى أن بيافرا دولة مسيحية صغيرة شجاعة يغزوها غزاة مسلمون لا يبغون إلا السلب والنهب وانتزاع ثرواتها، ولذلك حصل على تأييد أربعة حكومات أفريقية ويشمل ذلك تنزانيا وزامبيا.

وحصل أيضا على إمدادات عسكرية من فرنسا وجنوب أفريقيا والبرتغال الذين رغب كل منهم ولأسباب مختلفة فى إضعاف أكبر قوة أفريقية سوداء مستقلة. واستطاع أيضا إقناع المؤسسات غير الحكومية فى المساعدة فى النقل الجوى للسلاح والعتاد إلى المنطقة المحاصرة ولكن أيدت بريطانيا الحكومة الفيدرالية سياسيا ومن الاتحاد السوفيتى عسكريا، وكان الأخير يمد نفوذه آنذاك بسرعة كبيرة فى العالم الإسلامى فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا واهتمت معظم الدول الأفريقية - كما هى الحال دائما - بالاحتفاظ بالحدود القائمة وأيدت بالتالى القضية الاتحادية، وانهارت بيافرا فى نهاية الأمر فى بداية ١٩٧٠، وهرب أوجوكو إلى ساحل العاج، وكان جوان حكيما للغاية فى انتصاره حيث لم ينكل بأحد وأعاد الجنود والمدنيين إلى أعمالهم فى الدوائر الاتحادية والإقليمية بنجاح ثم عاد أوجوكو نفسه إلى بلاده فى نهاية الأمر، وشعر النيجيريون بصفة عامة أنهم أصبحوا أمة واحدة بعد الحرب أكثر مما كانوا قبلها، ولكن أصبحت أهم ضحايا الحرب الأهلية هى الحكومة المدنية التى أصبحت استثناء بعد ذلك وليس القاعدة.

ولم يحدث الحكم العسكرى فى كل الدول الأفريقية، فلقد ظل عدد كبير من الحكام المدنيين مثل الملك حسن الثانى فى المغرب، والرئيس بورقيبة فى تونس، وسنجور فى السنغال، وهوفى بوانيه فى ساحل العاج، ونيريرى فى تنزانيا، وباندا فى مالاوى، وكاوندا فى زامبيا، وتسيرانانا فى مدغشقر يمارسون الحكم لمدة ربع قرن أو أكثر دون فقدانهم سيطرتهم على قواتهم المسلحة، ولكن لم يكن الحكم العسكرى دائما كارثة حيثما حل، ويعنى ذلك مثلا بعد انتهاء الحرب الأهلية فى نيجيريا أن كبار الضباط قد شغلوا المناصب الوزارية ورئاسة الأقاليم فقط ولكن استمر جهاز الخدمة المدنية الكفاء نسبيا مستمرا فى أداء عمله بطريقة عادية.

وكانت معظم الحكومات الأفريقية خلال العقود الثلاثة الأولى من الاستقلال أوتوقراطية إن لم تكن مستبدة، وتتكون من عناصر من أوساط محددة وتميل إلى الفساد ولم يختلف الأمر كثيرا إذا ما ارتدى رئيس الدولة زيا عسكريا أو لا.

وأدت الانقلابات العسكرية إلى ظهور نماذج بشرية من أخطر الشخصيات وكان أبرزها بطبيعة الحال العقيد معمر القذافى الذى تورط فى العديد من العمليات المتنوعة الغربية والمغامرات الخارجية التى مولتها ثروة ليبيا من البترول وبفضل قلة عدد السكان، وحاول التدخل فى هذه الدولة الإسلامية أو تلك جزئيا فى شمال أو جنوب الصحراء بتأييده للجماعات المعارضة بها، وتورط فى محاولات للقضاء على حكومات شرعية بواسطة العنف، ويشمل ذلك محاولة اغتيال الملك الحسن الثانى عام ١٩٧٤، والرئيس أنور السادات عام ١٩٧٦، ونظم محاولة انقلاب فاشلة ضد الرئيس نميرى فى السودان عام ١٩٧٥ وارتبط بالإرهابيين الذين نجحوا فى النهاية فى اغتيال السادات عام ١٩٨١، كما قدم الأموال والتدريب للجماعات الإرهابية فى العديد من دول غرب أفريقيا، وأرسل قوات عسكرية لمساعدة عيذى أمين عام ١٩٧٨ وهى من الحالات النادرة التى حاول بها مساعدة أحد الحكام ولكن وبالرغم من أن محاولات تدخلاته المتعددة قد ظهرت أنها غير مفهومة وشديدة الاندفاع، إلا أنه قد وجدت وراءها رغبة فى تصوير مفهومه للإسلام

المجاهد، ورأى القذافي نفسه كصاحب دعوة من أجل قيادة المسلمين، ولذلك أنفق ثروة ليبيا الهائلة من البترول في أفريقيا السوداء في عمليات لتحويل المسيحيين والوثنيين إلى الإسلام ونجح في ذلك أحيانا، مثلا في نيجيريا ورواندا، واعتقد أيضا - كما سنرى فيما بعد- أن تشاد بوابته إلى الجنوب، وذلك بصرف النظر عن مشكلة حدودية معها وأطماعه في الشريط الحدودي أوزو الغنى بالمعادن والذي آل إلى تشاد نتيجة لاتفاقيات استعمارية بين فرنسا وإيطاليا عام ١٩٣٥.

وكان ماسياس نجيم شبيها بالقذافي وإن اقتصر مجال نشاطه على مساحة أصغر، وكان حاكما لغينيا الاستوائية وهي المستعمرة الأسبانية الوحيدة في أفريقيا الاستوائية في الماضي وانتهى به الأمر في القبض عليه وإعدامه بواسطة جنوده عام ١٩٧٩، ولكنه قام أثناء حكمه الذي استمر أحد عشر عاما مع أتباعه في الفانج من الجزء القارى من البلاد بإثارة الرعب والسلب والنهب في جزيرة فرناندو بو (بيوكو) الثرية في الماضي، واستمر بذلك إلى أن تم القضاء على كل مظاهر الحياة الحضرية ووجد حاکمان عنيفان آخران وهما جان بوكاسا وعيدى أمين اللذان شقا طريقهما من صفوف ضباط الصف في الجيوش الاستعمارية البريطانية والفرنسية، وحول بوكاسا جمهورية أفريقيا الوسطى إلى إمبراطورية نابليونية غريبة الشكل وأنفق جزءا كبير من دخل الدولة على حفل تتويجه، واستضاف أيضا الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان الذي رافقه في رحلة صيد ولكن تعب الفرنسيون في نهاية الأمر من تجاوزاته وأطاحوا به في انقلاب عسكري قاموا بتدبيره عام ١٩٧٩، أما حكم عيدى أمين في أوغندا في عقد السبعينيات فلقد كان واحدا من ثلاثة عقود من الصراعات الداخلية العنيفة تميز بالذات بإساءة استخدام القوة العسكرية.

وكانت أوغندا عند استقلالها عام ١٩٦٣ دولة ثرية جيدة الحكم بالرغم من وجود توترات داخلية عنيفة تحت السطح وبالذات بين الشعوب النيلية في شمال البلاد الأقل تقدما وشعوب البانتو في الجنوب الخصب الكثيف السكان، وسرعان ما ظهرت تلك التوترات في إطار السياسات الوطنية، وتولى ميلتون أوبوتى وهو من

الشمال الحكم بالتحالف مع النواب البرلمانيين لبوجندا، مما أدى إلى انقسام الجنوب ولكنه استخدم الجيش ضد كاباكا البوجندا حينما أوشك مخالفه على الانهيار، مع أن الكاباكا هو الرئيس الدستوري للبلاد كلها، ثم قام أوبوتى بإلغاء الوضع الخاص لبوجندا في البلاد ولكن أطاح به قائد جيشه عيدي أمين عام ١٩٧١. وكان عيدي أمين مسلما من قبيلة كاوكا المقيمة بعيدا ناحية حدود أوغندا مع السودان ويمثل أمين تماما نوعية الرجل العسكري الشديد البأس، الشجاع المثقف وغير المثقف والذي فضلت الجيوش الاستعمارية تجنيده في الماضي. ولكنه سرعان ما أحضر معه جنوده الشماليين إلى العاصمة وكافأهم بتشجيعهم على نهب محلات الآسيويين وباقي رجال الأعمال الذين يعتمد عليهم اقتصاد البلاد كثيرا، ثم قام بطرد كل السكان الآسيويين البالغ عددهم ٣٠,٠٠٠ في محاولة لزيادة شعبيته، واضطروا إلى اللجوء إلى بريطانيا وهم لا يملكون شيئا عدا ملابسهم. واستمر عيدي أمين في الأعوام الثمانية من حكمه محاولا التخلص من كل منافسيه أو معارضييه المحتملين واحدا بعد الآخر مثلما يفعل كل الطغاة المستبدين، وكان أول ضحاياه هم الجنود من قبيلة أوبوتى وهي قبيلة لانجو من الشمال الغربي وقتلهم بالآلاف، ثم قام باستبدالهم بجنود من قبيلته الأصلية وآخرين من الشمال الغربي البعيد والذين كان وجودهم في الجنوب شديد الوطأة، ولذلك أثار استياء الجنوبيين وبالذات الباجندا، ولذلك اتجه إلى كبح جماحهم بسرعة. فقبض على العديد منهم في مختلف أوساط المجتمع الأوغندي وسجنهم في ظروف رهيبة وتم ضربهم وتعذيبهم، واغتال كبير القضاة وأسقف الكنيسة الإنجليكانية، وحاول زيادة دور الإسلام في بلاد مسيحية أساسا. وقام بإنشاء جامع هائل غير متقن الصنع في وسط كمبالا والذي موله بأموال من المملكة العربية السعودية وليبيا، وشجع منظمة التحرير الفلسطينية في بناء معسكرات تدريب في أوغندا، ثم حاول إلهاء جيشه المتوتر عام ١٩٧٨ بغزو منطقة نائية في شمال غرب تنزانيا بحجة إعادة ترسيم حدود رسمها في الماضي، وانتقم الرئيس التنزاني نيريري الذي كان يأوى أوبوتو منذ عام ١٩٧١ بغزو

جنوب أوغندا للانتقام، ولكن ساعد السكان المحليون القوات التنزانية، وأرسل القذافي بسرعة مساعدات ولكن لم يكن بالإمكان إيقاف تقدم القوات التنزانية، وهرب عيدي أمين ولجأ إلى المملكة العربية السعودية.

ولكن لسوء حظ أوغندا استخدم نيريري انتصاره لإعادة صديقه مليتون أوبوتي إلى الحكم؛ إذ عاد إلى منصب الرئاسة بعد انتخابات مشكوك بصحتها ولكن وبعد خمسة عشر عاما من سوء حكم الشماليين ومنهم ستة من حكم أوبوتي نفسه، لم يرغب الجزء الجنوبي في البلاد امتداد هذا الحكم أو انتظار انتخابات أخرى، وظهرت خلايا من المعارضة المسلحة في الريف ولكن قضى عليها بوحشية تفوق حتى ووحشية عيدي أمين، والتفت أفضل عناصر المقاومة تدريجيا حول جيش المقاومة الوطنية الذي أنشأه جويري موسوويني والذي حصل على خبرته العسكرية أثناء حربة مع جبهة تحرير موزمبيق ضد البرتغاليين. في موزمبيق ولكن أدى القتال بين وحدات الجيش الأوغندي في الشمال إلى الإطاحة بأوبوتي وتوجهه للمنفى للمرة الثانية وظهر هنا موسوويني كزعيم للبلاد وأصبح رئيس الجمهورية عام ١٩٨٦ وعاد مركز الحكم إلى الجنوب حيث تعيش أغلبية السكان ولكن لم يوجد سلام دائم بين الشمال والجنوب، ولكن بدأت آنذاك أعمال البناء المادي والمعنوي الكبيرة بعد عودة احتمالات الاستقرار في البلاد.

وكان جنوب السودان أكثر عزلة من شمال أوغندا، وكان منطقة كبيرة نائية يصعب الوصول إليها ومحرومة بالتالي من الخدمات، ولكنها كانت مختلفة للغاية من الناحية الحضارية والعرقية عن شمال السودان الناطق بالعربية، ووجد سكان الجنوب أنه من الصعب تماما التفاهم مع حكومة تتكون أساسا من الشماليين الذين يتعاملون معهم وكأنهم متوحشون دون ثقافة ويجب إرغامهم بدلا من إقناعهم (فيما سبق، الفصل ٧) ولذلك ساءت العلاقات بين الخرطوم ولاياتها الجنوبية بحلول عام ١٩٦٧، لدرجة أن الأنبيانيا قد طالبوا بالاستقلال التام للجنوب. ووصلت الأمور إلى درجة حرجة بعد أن قتل الجنود الشماليون سكانا من مدينة جوبا الجنوبية

وجماعة الكنيسة المسيحية في واو، وازدادت شدة القتال وهرب مئات الآلاف من اللاجئين إلى الدول المجاورة ولكن حينما تولى اللواء نميرى الحكم فى انقلاب عسكرى عام ١٩٦٩ فإنه بدأ مفاوضات مع الأنيانيا، وأدى ذلك إلى اتفاق توسط به الإمبراطور هيل سيلاسى فى أديس أبابا عام ١٩٧٢، وأدى ذلك أيضا إلى انتهاء المرحلة الأولى من الحرب الأهلية، وتم تطبيق دستور اتحادى الذى منح السيادة المحلية للجنوب، ودخل الوزراء الجنوبيون الحكومة المركزية، وتم الاعتراف بالديانة المسيحية فى الجنوب، كما أعطيت اللغة الإنجليزية وضعاً متساوياً مع اللغة العربية.

وتم ضم وحدات الأنيانيا إلى الجيش الاتحادى. ولكن استمر هذا الاتفاق عقداً من الزمان فقط قبل أن تواجه حكومة النميرى محاولات انقلاب عديدة وانهيار اقتصاد البلاد وبالذات انتشار الأصولية الإسلامية فى السودان، وحاول مواجهة المد الأصولى المتصاعد بتطبيق الشريعة الإسلامية فى كل أنحاء البلاد مما أدى إلى تجدد الأعمال الحربية مع جيش تحرير جنوب السودان الذى أنشأه العقيد الجنوبى جون جارانج لمواجهة الحكومة المركزية، وازدادت حدة الحرب الأهلية وأضيف إليها العناء الشديد من فترة الجفاف التى استمرت عامى ١٩٨٤ و ١٩٨٥، وأدت إلى المجاعة الطاحنة وأرسلت موجة جديدة من المهاجرين إلى البلاد المجاورة واستمرت تلك الحالة طوال عقدى الثمانينات والتسعينات، وتميزت السودان فيما بين كل الدول الأفريقية أن لديها أقواماً فى مراحل مختلفة للغاية من مراحل التطور مما أدى إلى خلق أكثر المشاكل السياسية صعوبة.

وكان العامل المشترك فى الحرب الأهلية فى كل من السودان ونيجيريا هى تلك المعارضة السياسية بين المسلمين وغير المسلمين المقيمين داخل حدود الدولة، ويمتد هذا الوضع على امتداد القارة مثل الخط المستقيم الذى يعبر منطقة جنوب الصحراء من السنغال غرب إلى المحيط الهندى شرقاً، وكان لذلك أيضاً جذور قديمة عميقة من عدم الثقة المتبادلة بين المغيرين والذين تمت الإغارة عليهم فى

عصر ما قبل الاستعمار، وقد عم عدم الثقة حينما اكتسب أحفاد المغار عليهم بسرعة التعليم والثقافة الغربية وحصلوا بالتالي على الوظائف المميزة في قطاعات الاقتصاد المعاصر، ويمكن بالتالي أن يتحول جنس العبيد في الماضي إلى الصفوة الحاكمة مما أدى إلى تدهور العلاقات أكثر وأكثر، فلقد استفاد المزارعون الجنوبيون في مستعمرة تشاد الفرنسية السابقة من شعب السارا تماما من الحكم الاستعماري الفرنسي فلقد زرعوا القطن أهم صادرات البلاد واعتنق معظمهم المسيحية كما علموا أولادهم تعليما راقيا. وكان المسلمون الشماليون آنذاك يواجهون الفرنسيين، وفعلوا كل ما في وسعهم لمقاومة الحكم الفرنسي، ولذلك لم يتم إخضاع أكثر الولايات النائية ناحية الشمال وهي بوركو، اندي وتيبستي إلا عام ١٩٣٠ وكانت أكبر مجموعة هناك هي الرعاة التوبو الذين ظلوا تحت الإشراف والسيطرة العسكرية إلى عام ١٩٦٥. وتولى الجنوبيون الحكم من الفرنسيين عام ١٩٦٠ وأقام فرنسوا تومبالاية وهو أول رئيس للجمهورية حكومة الحزب الواحد وتعامل مع المسلمين بشدة وحزم، وبدأ في تطبيق برنامج للأفرقة أكثر تشددا حتى من برنامج موبوتو في زائير، وحاول فرض القانون العرفي لشعب السارا على كل البلاد مما أدى إلى انتشار المقاومة. ثم قتل تومبالاية في انقلاب عسكري الذي أدى إلى وصول الشماليين إلى الحكم. ولكن نشبت الحرب الأهلية بين مختلف فئات النظام الجديد عام ١٩٧٩ مما أدى إلى استمرار التوتر إلى تسعينيات القرن العشرين، كما أدى ذلك إلى تدخل ليبيا من جهة وفرنسا والولايات المتحدة من جهة أخرى.

الحرب الأهلية والحرب الباردة.

رأينا فيما سبق (فصل ١٧) أن جذور الصراع قد وجدت كامنة في بلاد قرن أفريقيا منذ الستينات وبالذات بالنسبة لرغبة الأرترين والصوماليين المسلمين في

الاستقلال عن الأثيوبيين المسيحيين واستعد الانفصاليون الأرثوذكس بمساعدة الدول العربية والدول الشرقية للحرب من أجل الانفصال والاستقلال وذلك بعد أن ألغى الإمبراطور هيلا سيلاسي الدستور الاتحادي عام ١٩٦٢. كما شجعت الحكومة الصومالية آنذاك السكان الصوماليين في ولاية أوجادين الأثيوبية على الانفصال والانضمام إلى إخوانهم في دولة واحدة، ولذلك واجهت أثيوبيا حرب العصابات على جبهتين واضطرت إلى الاعتماد بشدة على الولايات المتحدة بينما استعانت الصومال بالاتحاد السوفيتي. ولكن انقلب نظام التحالف رأسا على عقب بعد القضاء على نظام حكم هيلا سيلاسي في انقلاب عسكري قامت به مجموعة من شباب الضباط الماركسيين بمساعدة سفارات دول أوروبا الشرقية في أديس أبابا. ولم تتمتع الثورة الأثيوبية بتأييد الشعب فلقد نفذتها مجموعة صغيرة من الضباط بتشجيع ومساعدة دول الكتلة الشرقية الراجية في نقل الحرب الباردة إلى منطقة ذات أهمية إستراتيجية كبرى نظرا لتحكمها بمدخل البحر الأحمر وطرق البترول إلى الغرب، ولكن لم تفعل تلك الثورة شيئا لحل المشكلة الانفصالية في إريتريا وأوجادين، وأدت تلك الأمور فقط إلى إيقاف المعونة الأمريكية الخاصة بأثيوبيا ومنحها إلى الصومال.

ولذلك استمرت الحكومة العسكرية الأثيوبية الماركسية - المعروفة باسم الدريج تحارب في جبهتين بالإضافة إلى مواجهتها معارضة داخلية عنيفة من الأورومو وباقي المجموعات العرقية، وعاشت أديس أبابا عصرا من الرعب والإرهاب إذ انشغل أعضاء الثورة الأصليون في اغتيال بعضهم البعض بالإضافة إلى كل معارضيتهم ولذلك تناقص عددهم الأصلي من ١٢٠ إلى ٦٠ فقط، ولكن دعم العميد منجستو هيلي ماريام وضعه الداخلي في تلك المجموعة الباقية تماما واستطاع في العام التالي الانفراد بالحكم بانقلاب خاص به. وكان ذلك الوقت إيذانا بإيقاف معونة الاتحاد السوفيتي إلى الانفصاليين في إريتريا والصومال وتوجيهها للحكومة الأثيوبية الجديدة مما أدى إلى تغيير نظام التحالف تماما.

وأرسل السوفييت إلى منجستو ما يقرب من ١٢ مليوناً من الأسلحة والمساعدات العسكرية كما سددوا معظم نفقات الـ ١٧,٠٠٠ عسكري كوبي المتطوعين الذين حضروا لمساعدة الجيش الأثيوبي الضخم المكون من ٢٥٠,٠٠٠ من العسكريين، وأخرجت تلك القوات الصومالية الغزاة من أوجادين وأعادت إقرار الهدوء والسلام في المنطقة المركزية من هذا الإقليم ولكن استمر الأرثريون في القتال في الشمال وانضمت إليهم فيما بعد الحركات الانفصالية الجديدة في الأورومو، ولكن ازداد عداؤ الشعب الأثيوبي على نظام حكم منجستو نظراً لمحاولاته المتعددة لفرض النظم الزراعية الجماعية من جهة وتهجير الإيجاري للفلاحين الجائعين من المناطق التي تفشت بها المجاعة في شمال العاصمة إلى أراض جديدة غير خصبة في الجنوب ولكن بدأ الاتحاد السوفيتي يشعر بالإعياء في عام ١٩٨٦، واستاء من عملياته العسكرية الواسعة النطاق الممتدة من أفغانستان إلى أنجولا.

ولذلك أخذ الانفصاليون الشماليون زمام المبادرة منذ ذلك الوقت إلى عام ١٩٩١، ثم استطاعوا الوصول إلى قلب المنطقة الأمهرية واحتلال العاصمة. وهرب منجستو إلى المنفى في زيمبابوي.

وفقدت الحكومة الصومالية تدريجياً سيطرتها على بلادها، فلقد أدت الهزيمة على أيدي أثيوبيا عام ١٩٧٧ إلى اتجاه نظام حكم سياد بري إلى الانهيار وكان المجتمع الصومالي بالرغم من وحدته العرقية واللغوية منقسماً على نفسه في خلافاته القبلية حول الأراضي وحصل سياد بري على معونة بعض الصوماليين وعداء البعض الآخر، ولذلك انقسمت السلطة الحقيقية بين قادة الحرب المحليين بل وامتد النزاع المدني إلى العاصمة ذاتها، ولذلك اتجهت الصومال منذ منتصف الثمانينيات وبالرغم من المساعدات الأمريكية السخية إلى التفتت والانهيار في بلاد تميزت أصلاً بالزيادة المطردة للاجئين الجائعين، ولم تعد توجد حكومة من بعد هروب سياد بري من البلاد عام ١٩٩١ وكانت الصومال بالتالي أسوأ كارثة في تاريخ أفريقيا في عصر ما بعد الاستعمار.

ولكن وجدت دول أفريقية كثيرة عانت في فترات طويلة أو قصيرة من عصور العنف الداخلي خلال الأعوام الأولى من استقلالها السياسي، ويشمل ذلك روندا، بوروندي، زائير، أنجولا وموزمبيق (فيما سبق فصل ١٧) ولا توجد تقديرات رسمية لأعداد القتلى في المعارك، ولكن يعتقد أن أعداد النازحين من منازلهم ومواطنهم في منتصف الثمانينات قد بلغت ١٦ مليونا من البشر ومنهم ٤ ملايين عبروا الحدود الدولية لبلادهم للاستقرار في بلاد مجاورة. وكان اللاجئين سواء من الداخل أو من خارج البلاد معدمون تماما ويعيشون على حد الكفاف بعد تركهم لمنازلهم، ومحاصيلهم وبذورهم وحبوبهم بل وأدواتهم الزراعية، وأقاموا أيضا في المناطق الحدودية النائية الصعب الوصول إليها، ولذلك عانت الحكومات المحلية كثيرا لإرسال المعونات إليهم من المؤن والمعونة الطبية والتربية والتعليم لأبنائهم، ولذلك كون اللاجئين الطبقة السفلى المحرومة تماما في كل دولة أفريقية تقريبا.

ضغوط الزيادة السكانية

واضطرت كل الدول الأفريقية - بصرف النظر عن نتائج العنف - إلى مواجهة ضغوط الزيادة السكانية الهائلة في الفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٩٠؛ إذ ازداد عدد السكان إلى أكثر من الضعف من حوالي ٢٠٠ مليون إلى حوالي ٤٥٠ مليون نسمة، وحدث ذلك للفشل التام في إحداث توافق بين عادات الإنجاب الأفريقية وانخفاض معدل أعداد الوفيات عما كان عليه الحال في العصر السابق للاستعمار وبدايات هذا العصر، وسوف نناقش النتائج الاقتصادية لتلك الزيادة الهائلة في الفصل التالي، ولكن سوف تكون الآثار السياسية كبيرة للغاية أيضا، فلقد كانت أفريقيا قارة زراعية إلى نهاية عصر الاستعمار. ولم توجد مدن كبيرة إلا في شمال القارة فقط وبعض الأماكن المحدودة في غرب أفريقيا. وظلت العواصم التي

ورثتها الدول الجديدة من العصر الاستعماري مدنا صغيرة لا يزيد سكانها عن ٥٠,٠٠٠ نسمة، وحكمت الحكومات الاستعمارية شعوبا زراعية. أما المدن فكانت للأجانب ولأعوانهم وحدهم، ولكن أقام ربع سكان القارة تقريبا في المدن عام ١٩٩٠، كما تضاعف عدد سكان العواصم كل عشرة أعوام، ولذلك اهتمت الحكومات بالذات بسكان المدن فهم الأقرب إليها، وشديدو الوعي سياسيا ويعتمدون تماما على الخدمات العامة التي تقدمها إليهم أكثر بكثير من سكان الريف، وركزت تلك الحكومات بالتالي على المدن والريف المجاور لها مباشرة الذي يمدّها بالمؤن والطعام وانهارت بالتالي الخدمات والمواصلات المقدمة إلى المناطق الريفية البعيدة والنائية لدرجة حدوث مجاعات في الريف عند نقص الطعام وعدم القدرة على إرسال المؤن بسرعة إلى تلك المناطق بسرعة حتى عند توافرها، ولم تتغير ظروف الحياة كثيرا في قرى أفريقيا خلال الثلاثين عاما الأولى من عصر الاستقلال بل تدهورت عليه عما كانت من قبل، ولكن وجدت جذور التغيير السياسي في الانفجار السكاني في المدن الكبرى، نمت في أفريقيا فيما بين أعوام ١٩٦٠ و ١٩٩٠ طبقة أفريقية متفقة نسبيا وثرية وتكونت من أفريقيين اعتادوا تماما على الاختلاط والتعامل مع الأجانب على قدم المساواة، كما أنهم بقيسرون معدل تقدمهم المادي والمعنوي بالمعايير الدولية ولكن اقتصرت تلك النوعية من الناس في بداية عصر الاستقلال على صفوة أعضاء المهن القانونية والتعليمية والكهنوتية فقط، ولكنها شملت بعد ثلاثين عاما من الاستقلال طبقة كبار العاملين في الدولة، ورجال الأعمال، وأساتذة الجامعات، والصحفيين، والدبلوماسيين، وضباط الجيش والعديد من المهن الأخرى، ويسافرون إلى الخارج، يقرأون الصحف الأجنبية ويستمعون إلى الإذاعات الأجنبية أيضا، كما يراقبون تطور الأحداث السياسية في الدول الأخرى ويناقشون شئونهم القومية بوعي وإدراك يفوق بكثير أجهزة الأحزاب الرسمية القمعية التي لا عمل لها إلا إبقاء أصحاب الحظوة في الحكم لأطول فترة ممكنة، واستمر الخوف من إيداء المعارضة أو الاستياء وإن بدأت

احتمالات التحول منذ نهاية الثمانينات على الأقل وازداد ذلك أكثر من الماضى، فلقد وجدت آنذاك أمثلة لثورات ضد نظم حكم قمعية وبالذات ثورات شعوب شرق أوروبا ضد الشيوعية التى قضت على نظم حكم راسخة تماما فى بولندا ورومانيا وألمانيا الشرقية وغيرها، وحدث ذلك لظهور قيادات موازية استطاعت حشد التأييد الجماهيرى العام فى الميادين والطرق العامة، ونشأت بالتالى الضغوط المتزايدة من أجل الحقوق الإنسانية التى تمارسها المنظمات الدولية والحكومات المانحة بعد انتهاء الحرب الباردة، وارتبطت عروض المساعدات المادية منذ عام ١٩٨٥ فصاعدا مع طلبات بتعديل النظم السلطوية والقيام بإصلاحات داخلية من أجل القضاء على الفساد وعلى التدهور الناتج عنه ووعدت معظم الدول الأفريقية بحلول عام ١٩٩٢ بإنهاء عملية احتكار السلطة السياسية لأحزابها الحاكمة وإن رغبت معظمها فى تأجيل ذلك لأطول فترة ممكنة وإن وجد أخيرا الضوء فى نهاية النفق المظلم، ولذلك نجد أن أحد الحكام الأوتوقراطيين ولكن المحترمين مثل كينيث كاوندا الذى حكم لمدة ثلاثين عاما تقريبا قد تنازل عن السلطة واعتزل الحياة السياسية بعد خسارته للانتخابات العامة عام ١٩٩٢، ويعتبر ذلك تمهيدا لما يمكن أن يحدث فى أماكن أخرى فى المستقبل.

وتم إطلاق سراح نلسون مانديلا من السجن فى ١١ فبراير ١٩٩٠ بعد سبعة وعشرين عاما فى الحبس وخاطب مانديلا الجماهير الغفيرة التى أتت لاستقباله وللملايين العريضة عبر شاشات التلفزيون عند مدخل قاعة مجلس مدينة الكاب وكمر فى نهاية خطابه الكلمات التى نكرها أثناء محاكمته عام ١٩٦٤

"ولقد حاربت السيطرة البيضاء كما حاربت السيطرة السوداء ولقد حلمت دائما فى ببناء مجتمع ديمقراطى تسوده الحرية والعدل وحيث يعيش الجميع بطمأنينة وسلام ولديهم نفس الفرص فى الحياة وأرغب أن أعيش وأن أطبق هذا

الحكم ولكنى مستعد تماما للموت من أجله إذا ما استلزم الأمر.^(٥٦)

ثم استقال أوليفر تامبو من رئاسة المؤتمر الوطنى الأفريقى بسبب سوء صحته وحل محله نلسون مانديلا، وسرعان ما تم تحطيم كل أركان النظام العنصرى وأصبحت كل الأحزاب شرعية. ولكن لم ينجح المؤتمر المنعقد عام ١٩٩١ للتفاوض حول مستقبل البلاد إذا ساد الخلاف والانقسام ولكن حل محله إطار قانونى آخر مما مهد الطريق لأول انتخابات ديمقراطية فى جنوب أفريقيا يوم ٢٧ أبريل ١٩٩٤ وانتهت بفوز ساحق لحزب المؤتمر الذى حصل على ٦٢,٢% من مجمل الأصوات و ٢٥٢ مقعدا فى البرلمان من ٤٠٠. ولم يحصل الحزب الوطنى القديم إلا على ٢٠% من الأصوات التى تركزت بالذات فى ولاية الكاب الغربية، وكان أنصاره من مختلف الأجناس واشترك ستة وثمانون بالمائة من الناخبين فى تلك الانتخابات وهى نسبة مشاركة عالية للغاية، وانتخب مانديلا رئيسا لجنوب أفريقيا وعين دى كليرك نائبا له وحلت تسعة أقاليم محل الولايات القديمة الأربعة الأصلية، كما انضمت قوات دفاع جنوب أفريقيا المكونة أساسا من البيض إلى باقى قوات حزب المؤتمر وقوات المقاومة لتكوين جيش جنوب أفريقيا الجديد، وكان من أهم أعمال الحكومة الجديدة والتى حازت على تأييد الرأى العام العالمى هو إنشاء لجنة الحقيقة والمصالحة Turth and Reconciliation Gommitte للاعتراف الرسمى بضحايا الظلم فى نظام التفرقة العنصرية السابق وتعويضهم، ومنحت تلك اللجنة سلطات منع الملاحقة المشروط للذين ارتكبوا مخالفات جسيمة ضد حقوق الإنسان. ثم صدر قانون ليبرالى شامل للحقوق المدنية ١٩٩٦ وشرع قوانين خاصة بنواحى عديدة فى الحياة الاجتماعية مثل السكن والتعليم والرعاية الصحية بالإضافة إلى الشئون القانونية والسياسة على السواء.

(٥٦) Heather Dungan, the politics of New south Africa Harlow, 2001, p.230.

الفصل الثانى والعشرون

الاقتصاديات والمجتمع فى أفريقيا المستقلة

وجد عاملان يتميزان بالتناقض التام بينهما فى العالم الفسيح الذى استقلت به الدول الأفريقية فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، فلقد سادت الحرب الباردة بين النظم الرأسمالية والشيوعية والتى قام بها المعسكران بإرادة وتصميم مما أدى إلى انقسام العالم إلى معسكرين متعارضين متنافرين، ولكن وجدت من ناحية أخرى زيادة فى التفاؤل الاقتصادى العام للدول الرائدة فى المعسكرين الأيديولوجيين المتنافسين، فلقد ركز الخبراء الاقتصاديون من كل جانب من السياسيين، ورجال الأعمال، والمديرين، والأكاديميين وكبار الموظفين المدنيين على أن التطور الاقتصادى إذا تمت إدارته بمهارة وكفاءة يمكنه أن يغلق الفجوة بين الدول الغنية والفقيرة خلال فترة من الوقت قصيرة نسبياً. وكتب الاقتصاديون الكبار مثل والتر روستو وأرثر لويس أن الدول الفقيرة تحتاج فقط إلى الحصول على رءوس أموال خارجية وتكنولوجيا لى تبدأ انطلاقها الاقتصادى، وينتهى بالتالى دورها كمصدر للمواد الأولية وتتدخل عالم الصناعة الرحب بنفسها، ولذلك كان مفهوم الصناعة المخططة من أهم المفاهيم عند كافة الاتجاهات السياسية آنذاك ويمكن ضبط الإيقاع بواسطة الإشراف الحكومى.

وكان ذلك هدفا رحب به زعماء الأمم الأفريقية الجديدة بسرور بالغ كما بدا لفترة أنه لن يخيب آمالهم بالمرّة، فلقد كانت أسعار المواد الأولية خلال الخمسينيات والستينيات عادة مرتفعة وتلائم أحوال المنتجين الأفريقيين بالرغم من وجود تذبذبات كبيرة فى أسعار بعضها، فكان سعر الكاكاو مثلاً منخفضاً خلال معظم

الأعوام الأولى من استقلال غانا مما ساهم أيضا في الكارثة الاقتصادية لنظام حكم نكروما، ولكن ازداد حجم صادرات البلاد الأفريقية جنوب الصحراء بمعدل ٦% سنويا بصفة عامة خلال عقد الستينيات، ولكن ارتفعت أسعار السلع الأولية كثيرا بعد عام ١٩٦٧. وكانت الحكومات الأفريقية قد حصلت على معظم دخلها بشرائها لمنتجات المزارعين بسعر ثم تبيعها بسعر آخر أعلى كثيرا في السوق العالمية مما يدر لها دخلا كبيرا للغاية كل عام، وتم استخدام تلك الثروة الجديدة في تنمية الحياة الاجتماعية والخدمات مثل التعليم والصحة وتحسين المشاريع الزراعية الصغيرة، وازداد الإنتاج الزراعي بمعدل ٢,٧% سنويا خلال عقد الستينيات، ويتساوى ذلك تقريبا مع معدل الزيادة السكانية، وظهر كما لو أن أفريقيا ستطعم نفسها بنفسها وتحصل على احتياجاتها الأخرى ذاتيا أيضا.

تطورت الثقافة والتعليم بسرعة بالغة في كل مكان تقريبا، واعتمد ذلك على أسس صلبة نمت منذ أواخر عصر الاستعمار، فازدادت نسبة التسجيل في التعليم الابتدائي في أفريقيا الاستوائية من ٣٦% إلى ٦٥% خلال العقد الأول من الاستقلال، كما ازدادت نسبة التسجيل في التعليم الثانوي من ثلاثة بالمائة إلى ١٣%، وتضاعف عدد الجامعات وتم استثمار أموال كثيرة في إنشاء الأبنية الملائمة والمكتبات العامرة والمعامل الحديثة لخدمة الطلاب، ووجدت خمس جامعات في نيجيريا في نهاية عقد السبعينيات بعدد من الطلبة يزيد عن العشرة آلاف طالب، وتوجه معظم الخريجين إلى التعليم في المدارس الثانوية وهي عنق الزجاجة في الماضي لنقص الكوادر التعليمية المؤهلة ولكن اعتبر الأمر آنذاك على أنه من مشاكل عصر مضى، وامتلكت غانا ثلاثة جامعات لعدد من السكان يبلغ خمس تعداد نيجيريا، وكان التعليم الابتدائي والإعدادي إجباريا ومجانيا لكل الطلبة بين ١٦,٦ عاما، كما بلغت نسبة الالتحاق بالتعليم ١٠% من إجمالي السكان منذ عام ١٩٦١، ويلاحظ أن كل التعليم في كل بلاد غرب أفريقيا قد كان بالإنجليزية أو الفرنسية.

وبين ذلك عمق جذور التعليم الغربى فى المناطق الساحلية لتلك البلاد، ويعنى ذلك أن النخبة الأفريقية فى غرب أفريقيا كانت منفتحة تماما على العالم وأكثر عالمية فى مفاهيمها من أقرانها فى أماكن أخرى من القارة. ووجد فرق كبير فى التطور التعليمى بين غرب أفريقيا من جهة ومعظم شرق ووسط أفريقيا من جهة أخرى. وحصلت أكبر دول غرب أفريقيا عند استقلالها على بضعة آلاف من الخريجين الجامعيين ولكن لم يوجد إلا بعض المئات منهم فى كل من أوغندا وكينيا، ووجد اثنا عشر خريجا جامعا فى تنزانيا فقط عند استقلالها بينما لم يوجد خريج جامعى واحد فى زائير كلها، ولذلك وجد الخريجون الجامعيون فى تلك البلاد بين المهاجرين والمنفيين فقط، وذلك فى تلك المناطق من وسط أفريقيا حيث تأخر الاستقلال نظرا لحروب التحرير الطويلة. ولكن عادت نسبة صغيرة منهم فقط للعمل فى بلادهم الأصلية، وهنا ظهر عنق الزجاجة فى التعليم الثانوى فى أقصى صورها.

ويلاحظ أنه قد حدث تقدم هائل خلال الأعوام الأولى من الاستقلال بالنسبة لتحسين الخدمات الصحية بدءا من إنشاء المستشفيات الكبيرة فى العواصم إلى المستوصفات الريفية فى القرى. واهتم أصحاب المنح فى تقديم أموال لإنشاء المستشفيات التعليمية، كما جرت جهودات كبيرة لتحسين الأحوال الصحية ونوعية الغذاء والنظافة على المستوى المحلى، واستخدمت مساعدات المهاجرين الوطنيين المقيمين فى الخارج بالإضافة إلى مشاركة السكان المحليين فى تلك المشاريع كلها، ولكن ظهر أن مكافحة الأمراض المتوطنة وبالذات الملاريا كانت أكثر صعوبة مما اعتقد فى البداية.

ولكن حدث بعض التقدم وانخفضت معدلات وفيات الأطفال تدريجيا مما أدى إلى أن تواجه كل الدول الأفريقية زيادة هائلة فى عدد السكان، ولكن يعتبر ذلك انتصارا كبيرا على المرض وإن أدى ذلك إلى أن تواجه القارة أكبر مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية، ويعنى ذلك ببساطة أن عادات الإنجاب قد ظلت على

حالتها ولم تتغير لمواجهة ظروف الحياة الجديدة من ارتفاع الأعمار وارتفاع نسبة المواليد مما أدى إلى تفاقم المشاكل بسرعة هائلة، ويعنى ذلك أنه قد وجب على أفريقيا ان تجرى لاهثة لكى تظل محلها ولا تنهقر إلى الوراء.

ولم يتم تقدير خطر المشكلة السكانية فى الستينيات عمليا، فلقد اعتاد الناس فى عصر الاستعمار على اعتبار أفريقيا بلادا ذات كثافة سكانية صغيرة للغاية مما أدى إلى استحالة التفكير بحدوث عكس ذلك تماما فى فترة قصيرة جدا، فلقد افترض الجميع أيضا أن معدل الخصوبة سوف ينضبط تلقائيا فى فترة زمنية قصيرة نسبيا، ورأى الخبراء أن التصنيع هو الحل لتلك المشكلة السكانية المتفاقمة بسرعة بالغة، إذ سوف يجذب سكان الريف الزائدون إلى العمل فى المدن الصناعية، كما سوف يؤدي التصنيع إلى إنتاج السلع مما يؤدي إلى تخفيض مبالغ الاستيراد علما بأن المواد الأولية متوافرة وفى متناول اليد، ويرتبط نجاح التصنيع بالطاقة الرخيصة التى يمكن أن تنتجها أنهار أفريقيا الكبرى، ولذلك كانت عملية إنشاء السدود الهيدروكهربائية من المشاريع المفضلة فى أواخر عصر الاستعمار والعقد الأول من الاستقلال. ونجد فى كتيبات المشاريع الفنية المكونة من عدة أجزاء والتى تحررها الشركات الهندسية الاستشارية الدولية أن السدود هى ركائز ودعائم التحديث؛ إذ تمول بالكهرباء ليس فقط الصناعة ولكن أيضا كل المنازل فى طول البلاد وعرضها، وسوف تنشأ البحيرات الكبيرة وراء السدود مما يؤدي إلى قيام صناعات جديدة مثل الصيد والتى سوف تمون نظم التغذية الأفريقية بالبروتينات الضرورية كما سوف تنمو المدن الصناعية بجوار السدود الجديدة بالإضافة إلى ازدهار المشاريع الزراعية الكثيفة الإنتاج مما سيؤدي إلى قيام اقتصاد زراعى تحتاج إليه البلاد حاجة ملحة. كما يجب جعل المشاريع الهيدروكهربائية جذابة لأصحاب المنح الدوليين، كما اهتم بها السياسيون الأفريقيون الذين يمكنهم تقديمها كرموز قوية للقوة الاقتصادية والهيبة الوطنية للدولة الجديدة، ويمكن الحصول على التكنولوجيا الخارجية من الشرق أو الغرب على السواء

مثلما ظهر فى وضوح تام فى مشروع السد العالى فى مصر الذى انتقل إشرافه الفنى من الأمريكيين إلى الروس عام ١٩٥٦، ويمكن تحويل الطاقة الكهربائية بالقالى إلى نمط رأسمالى أو اشتراكى للتطور الصناعى.

ولكن ظهر أن تلك المشاريع الهيدروكهربائية قد كانت مكلفة للغاية عمليا ومخيبة للآمال، فلقد مولت الحكومة وقروض من البنك الدولى والولايات المتحدة وبريطانيا إنشاء سد أكاسومبو على نهر الفولتا فى جنوب غانا والذى تم الانتهاء من تشييده عام ١٩٦٥ قبل انهيار حكم نكروما بقليل، وكانت أهم نتائجه إرهاب الدولة الشابة بالديون الأجنبية.

فلقد فاقت تكاليف بنائه التكاليف التقديرية بكثير، وفشلت صناعة صهر الألومونيوم التى من المفروض أن تكون من أول المشاريع أرباحا ولم تزدهر إطلاقا لسوء حالة خام البوكسيت الرديء، كما لم تظهر مزارع الأسماك المرجوة خلف السد العالى الذى امتدت بحيرته لمسافة ٣٠٠ ميل (٥٠٠ كم) خلفه وغطت الأعشاب المائية مياهها. ولم تبدأ الصناعة التحويلية التى رغب فى إنشائها بجوار منشآت الميناء فى تيمنا نظرا لعدم تشجيع غانا للقطاع الخاص نظرا لسياساتها الاشتراكية الجامدة الصارمة، ولذلك لم تعمل المحطة الهيدروكهربائية للأسف إلا بنسبة قليلة من قدراتها الفعلية.

وحدث الشئ نفسه مع مشروع رانجا الهائل لبناء سد على شلالات نهر الكونغو أسفل كينشاسا. وكان الغرض أن يمون نصف الطاقة الكلية التى تحتاجها القارة كلها، وكان هدف المرحلة الأولى التى بدأت عام ١٩٧٢ هو إضاءة العاصمة وضواحيها وتقديم الطاقة الكهربائية لمصنع حديد وصلب فى وادى النهر شمال بحيرة مالىبو بالإضافة إلى تقديم احتياجات الكهرباء إلى حزام النحاس فى زائير، ويشمل ذلك أيضا مصنعا لصهر الحديد فى إقليم شابا على مسافة أكثر من ١١٠٠ ميل (١٨٠٠ كم) جنوب كينشاسا، وبلغت التكلفة الإجمالية - التى تم اقتراحها

بالكامل أكثر من (١) مليون دولار وبلغت ٢٠% من الدين الخارجى لزانير، ويقول بعض معارضى المشروع إن ذلك المبلغ يكفى لسداد رواتب المدرسين والممرضات فى البلاد لمدة عشرين عاما، ولكن لم يبدأ البناء بجدية منذ البداية كما تعطل العمل كثيرا، ولم يعمل مصنع الحديد والصلب فى معظم الأحوال إلا بعشرة بالمائة من طاقته.

واستخدم ١٠٠٠ عامل فقط من العشرة آلاف المزمع توظيفهم أصلا فى هذا المشروع الريادى، ولم تكن نوعية الصلب المصنعة جيدة بالمرّة وتتكلف من ثلاثة إلى أربعة مرات أسعار الصلب المستورد من الخارج، ولم يبدأ مصنع تصنيع النحاس فى شابا إنتاجه حتى بعد عشرين عاما من افتتاحه، ولذلك ازدادت الديون وتم التخلّى عن مشاريع أكثر جدية وأهمية، ولكن كانت المشاريع الكهروهيروليكية العملاقة فى كاريبا وكابورا باسا على نهر الزامبيزى أكثر تنظيما وتمويلا، ولكنها أصبحت من الأهداف الأولية الكبرى للحركات الثورية من أجل الاستغلال فى زيمبابوى وموزمبيق. ويخدم سد كاريبا كل من زامبيا وزيمبابوى ولكنه تأثر تماما نظرا للعلاقات السيئة بين البلدين بينما أحاطت أعمال حرب العصابات من كامورا باسا وهددت خطوط توزيع الكهرباء بطريقة مستمرة، وعلمت تلك المشروعات كل القيادات الراغبة فى التطوير فى أفريقيا كلها ملاءمة الحاجة العملية لوقائع الأحداث، وأن المشاريع الكبرى تحتاج إلى قدر من الاستقرار السياسى الذى لا يوجد فى معظم الدول الأفريقية. ولذلك تحول الاهتمام إلى المشاريع الصغرى تحت شعار أن الصغير جميل، وتم تطبيقها طوال عقد السبعينيات بل وبعد ذلك.

ولم تكن المشاريع الهيدروكهربائية هى الأمثلة الوحيدة لسوء صرف واستخدام الأموال العامة وإساءة التصرف فى القروض من حكومات عقد الستينات، فلقد رغبت كل دولة تقريبا أن تحتفل باستقلالها بإنشاء خط طيران وطنى وتشغيل العديد من الخطوط الحيوية غير المجدية اقتصاديا بواسطة طائرات

مستوردة وموظفين أجانب، كما أنفقت كل الدول الأفريقية تقريبا أكثر من طاقتها بكثير فيما يتعلق بالأسلحة والمعدات العسكرية التى تفوق قدراتها على التشغيل والإشراف والسيطرة، وأنشأ القطاع العام الفنادق الفخمة التى تظل غالبا دون نزلاء لعدم توافر الخدمات الأساسية مثل الكهرباء والمياه والصرف الصحى، وسرعان ما ظهرت أيضا القصور الرئاسية واليخوت وشاليهات الصيد، والطائرات والعربات المصفحة لصالح كبار أعضاء الحكومات مما ابتلع مقادير هائلة من الدخل القومى ولكن تقدمت معظم الاقتصاديات الأفريقية قليلا طوال عقد الستينيات وما تلاها من أعوام قليلة وإن حدث هذا التقدم ببطء شديد واستطاع صغار المزارعين الأفريقيين الذين يكونون أكثر من ٩٠ بالمائة من سكان القارة الاحتفاظ بمعدل إنتاجهم، بل وزيادته أيضا بالنسبة للمحاصيل الخاصة بالطعام والتصدير، ونمت عواصم الدول المختلفة بسرعة هائلة وإن احتفظ الجيل الأول من سكان المدن بصلاتهم الحميمة بالريف والتى قدمت لهم فى نهاية الأمر الأمن والطمأنينة والقدرة على الاستمرار، كما حصل سوق العمل بالمدن على معين لا ينضب من الأيدى العاملة الرخيصة.

ولكن سبق الإنتاج الصناعى بكثير العصر الاستعمارى فى بلاد مثل مصر والمغرب ونيجيريا، وبدأت المشاريع الصناعية الأفريقية فى العديد من المستعمرات الأفريقية بواسطة رجال أعمال أفارقة بالإضافة إلى الأوروبيين أيضا، ولكنها كانت مشاريع صغيرة مثل مصانع إنتاج الجعة والمصابغ أو المداغ وحلج القطن وصناعات إنتاج السجائر وأعواد الكبريت بالإضافة إلى أعمال صيانة وتشغيل السيارات، وأدى الاستقلال السياسى وزوال بعض صور الإشراف الاستعمارى الدقيق على مستويات بناء وتشيد المباني إلى ازدهار تلك الأعمال الصناعية الصغيرة وبالذات تلك التى يديرها الأفريقيون، وحدث ذلك حتى فى بعض الدول ذات السياسات الاقتصادية الاشتراكية أو الماركسية، ولكن كان معظم هذا النشاط صغيرا لدرجة أن الإحصاءات الرسمية والإشراف القانونى عليه كان صغيرا لم تأخذه بعين الاعتبار بالمرّة، ولذلك اعتبر قطاعا غير رسمى فى معظم

الاقتصاديات الأفريقية، وتركزت معظم تلك الصناعات الصغيرة في أعمال صناعة وتوزيع الطعام، والمشروبات الغازية، والملابس والأقمشة والمنتجات المنزلية بالإضافة إلى أعمال البناء والتشييد والإصلاحات المنزلية، بالإضافة إلى أعمال نقل المسافرين والسلع، ولكن وجد أيضا على المستوى الأعلى بعض الأعمال التي تشمل الاستيراد والتصدير، بناء السفن، التأمين، المحاسبة والبنوك، المزارع الجماعية والملكية العقارية في المدن والتي أدارها الأجانب العاملون في الشركات الأجنبية خلال عصر الاستعمار، وأعيد تنظيم معظمها خلال الأعوام الأولى من الاستقلال كشركات محلية وبها أغلبية من المديرين الأفارقة المحليين، وكون هؤلاء رجال الأعمال الأفارقة مع رفاقهم في القطاع العام قلب الطبقة المتوسطة الأفريقية الجديدة التي يعتمد عليها نمو وتطور اقتصاد تلك الدول تماما.

سنوات الكساد والتدهور

اختلف الأداء الاقتصادي للدول الأفريقية كثيرا من دولة إلى أخرى، ولكن إذا نظرنا بصفة عامة إلى إجمالي أوضاع القارة لوجدنا أنه خلال العقدين الثنائي الثالث من الاستقلال أن معدل النمو السابق البسيط في إجمالي الناتج القومي المقدر بدخل الفرد سنويا قد توقف ثم بدأ في التدهور، ووجدت عدة أسباب لذلك وأهمها الزيادة الكبيرة في عدد السكان في القارة كلها.

ومتلما رأينا (في فصل ٢١) لم تحدث تلك الزيادة بسبب زيادة نسبة الخصوبة، بل فقط لأن أعداد النساء القادرات على الإنجاب قد ازدادت كل عام باضطراد، ورغبة تلك العائلات مثل جيل آبائها في إنجاب خمسة وستة، بل أيضا سبعة أطفال أثناء حياتها الزوجية، ولذلك ازداد عدد سكان جنوب الصحراء في الخمسة عشر عاما بين ١٩٧٢ و ١٩٨٧ من حوالي ٢٧٥ مليون إلى حوالي ٤٥٠ مليون نسمة مع زيادة نسبة كبيرة في أعداد صغار السن غير القادرين على

الإنتاج، وذكرت دراسة البنك الدولي لأفريقيا جنوب الصحراء عام ١٩٨٩ ذلك الموضوع بعبارات بليغة للغاية وقالت إن هذه المنطقة التى يقيم بها ٤٥٠ مليونا عام ١٩٨٧ - وهو ضعف عدد سكانها عند الاستقلال - قد بلغ حجم دخلها القومى كله حوالى ١٣٥ مليونا من الدولارات فقط أى حوالى دخل بلجيكا البالغ عدد سكانها ١٠ ملايين فقط.

ويوجد تحليل لأرقام عام ١٩٨٧ الخاصة بدخل الفرد السنوى فى كل بلد أفريقى، يبين التحليل أن هناك أربعة دول غنية نسبيا وهى الجزائر وجابون وليبيا وجنوب أفريقيا التى تكون بالتأكيد فئة قائمة بذاتها؛ إذ بلغ الدخل السنوى للفرد هنا ما بين ٢٠٠٠ و ٧٠٠٠ دولار سنويا، ولكن تعتبر ليبيا والجابون من الدول ذات الكثافة السكانية القليلة وذات الاحتياطات الكبيرة من البترول، وجذبت الجزائر وجنوب أفريقيا - كمستعمرات سابقة استقرت بها اعداد كبير من الجاليات - الاستثمارات الأجنبية مثل الدول الأفريقية الأخرى، وتمتعت بالتالى بمرافق عامة وبنية تحتية أفضل نسبيا، ويبلغ دخل الفرد السنوى بها ما بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ دولار وتشمل ثلاث دول من شمال القارة وهى مصر وتونس والمغرب وتتميز بوجود صناعة بها منذ تاريخ مبكر وإن نقصتها الموارد المعدنية الأخرى، وتوجد أيضا خمس دول أخرى على المحيط الأطلنطى وهى ساحل العاج، الكامبيرون، جمهورية الكونغو وإنجولا ولديها كلها صناعات قائمة على المنتجات الزراعية بالإضافة إلى حقول بترول تحت المياه أمام سواحلها، وتوجد فى النهاية دول الجنوب الأفريقية الثلاث وهى زيمبابوى، بوتسوانا وسوازيلاند والتى استفادت اقتصاديا لوجودها بالقرب من جنوب أفريقيا.

وتوجد بعد ذلك مجموعة ثالثة من البلاد ذات الدخل السنوى للفرد الذى يتراوح بين ٢٠٠ و ٥٠٠ دولار وتشمل العديد من أكبر وأهم الدول الأفريقية وهى: نيجيريا، وغانا، السودان وكينيا، أوغندا وزامبيا، ولكن حصلت نيجيريا فى أقصى عصر ازدهار أسعار البترول حوالى عام ١٩٨٠ على دخل سنوى للفرد يبلغ

١٠٠٠ دولار، ثم تناقص إلى ٣٧٠ دولارا فقط لانخفاض دخل البترول بالإضافة إلى زيادة الإنفاق العام والاقتراض أثناء أعولم الرخاء، واستقلت غانا وأوغندا كدول مزدهرة ثرية إذ لديها محاصيل ذات عائد اقتصادي كبير وموارد معدنية ممتازة، ولكن أدى سوء نظام الحكم وعدم الاستقرار السياسي إلى فشلها الاقتصادي بالتالي، أما السودان فهو بلد فقير يفتقر إلى التطور لسوء الحظ، كما عانى من ويلات حرب أهلية دامية استمرت أكثر من ثلاثين عاما، ويدين تطوره النسبي إلى زراعته لمحاصيل مدرة للدخل مثل القطن طويل النيلة في منطقة صغيرة بجوار العاصمة، ولم توجد معادن كثيرة في كينيا ولكنها استفادت تماما من هضابها الحسنة الري وشواطئها المشمسة على مدار العام لإنشاء صناعة سياحية رائعة، وتدل حالة زامبيا على خطأ الاعتماد على مورد واحد وهو النحاس الذي يمون البلاد بأكثر من ٩٠ بالمائة من دخلها من العملة الصعبة، فحينما انهار سوق النحاس عام ١٩٧٥ عانت زامبيا مجموعة من الأزمات الطاحنة، وأنتجت في عقد الستينيات طعامها الخاص بوسائلها الذاتية، وحصلت كثيرا على قايض من الأغذية، ولكن أدى تقاعس مزارعيها في الثمانينيات إلى تحولها إلى مستورد للطعام، واستمرت الحكومة في تقديم تلك المنتجات بواسطة الاقتراض والاحتفاظ بمستوى معقول في الخدمات الاجتماعية لمدنها النامية بسرعة كبيرة عند حزام النحاس الشهير، ولكن سرعان ما نفذت العملة الأجنبية وانهار الإنتاج الصناعي وزادت الديون الخارجية بدرجة كبيرة إلى أن بلغت عام ١٩٨٠ مبلغ ٦٠٠ دولار لكل مواطن زامبي مقابل دخل سنوي فردي يبلغ ٤٧٠ دولارا فقط لا غير.

وتتنمي عدة دول أفريقية صغيرة أخرى إلى تلك المجموعة الثالثة في أرقام الدخل السنوي وتشمل: سيراليون وليبيريا وموريتانيا ومالي والنيجر وبنين وتوجو وجمهورية أفريقيا الوسطى ورواندا وبوروندي، الصومال وليسوفو، وتوجد في النهاية مجموعة رابعة في الدول الأفريقية بدخل سنوي للفرد يتراوح من ١٠٠ إلى ٢٠٠ دولار فقط، وتعتبر تلك المجموعة غريبة للغاية إذ تشمل أربعة من أكبر

وأهم الدول الأفريقية وهى أثيوبيا، الإمبراطورية العظيمة السابقة ومقر منظمة الوحدة الأفريقية آنذاك، تنزانيا التى قامت دول شرق أفريقيا إلى طريق الاستقلال والتى قضت ٢٥ عاما تحت حكم جوليس نيريرى وتحولت إلى رائد الاشتراكية الأفريقية، وكانت زائير المستعمرة البلجيكية المثالية وبها معادن كثيرة وأرض زراعية خصبة، ولم تكن موزمبيق دولة غنية أبدا ولكنها تشرف على موانئ وخطوط مواصلات لمناطق داخلية ثرية فى جنوب أفريقيا وزيمبابوى ومالاوى وشرق زامبيا، وكانت البلاد الذى تحمل أكثر الصعوبات فى حربه ضد الاستعمار البرتغالى ولكنه دمر نفسه بنفسه فى حرب أهلية استمرت خمسة عشر عاما متتالية، ولكن كان المؤكد أن تسقط الصومال من المجموعة الثالثة عام ١٩٩٠ لنفس الأسباب ولتقع للأسف فى قاع المجموعة الرابعة.

انتشر وباء مرض الإيدز فى قارة تعانى أصلا من المشاكل الاجتماعية الهائلة الناتجة عن الأزمات الاقتصادية فى بداية الثمانينيات وبدا من البداية أن دول شرق أفريقيا من زائير إلى غينيا جنوبا سوف تعانى بالذات من هذا الوباء القاتل، ولكنه انتشر فى نهاية العقد فى موجة هائلة امتدت من المنطقة السودانية شمالا إلى أقصى جنوب أفريقيا فى أقصى جنوب القارة، واعتقد الجميع أيضا أنها ظاهرة تخص المدن فقط، وتذكر إحصائيات نهاية الثمانينيات، أن ٨ % من سكان كينشاسا مصابون بمرض الإيدز القاتل، وأن أعداد حالات المرض تتضاعف كل ستة أشهر، ولكن ظهر أيضا أن المناطق الريفية قد تأثرت وبالذات تلك التى يوجد بها عدد من الجنود غير المنضبطين فى عصر الحروب الأهلية، وكان لوباء الإيدز نتائج اقتصادية واجتماعية مدمرة، فلقد أصابت بالذات فئة الشباب المنتجة أمل المستقبل وهم القوة الإنتاجية الأساسية التى تقوم ببناء مستقبل دولها، وتحول أبناؤهم إلى يتامى وتركوا آباءهم بمفردهم يواجهون شيخوخة بائسة دون دعم أو مساعدة أو أمل، وفقد الجيل القديم معاونتهم ومساندتهم المادية، وحدث ذلك فى عصر تناقص موارد الدول من أجل إقامة نظم تأمينات اجتماعية معقولة، وما زال

الوقت مبكرا في بداية التسعينيات لتقدير آثار هذا الوباء الكارثة على أفريقيا والقيام بإحصائيات لمقارنة نتائجه على مختلف الدول، ويضاف إلى ذلك الآثار الناتجة عن القحط والمجاعة والحروب الأهلية، ولكن يمكن القول إن كل تلك الكوارث مجتمعة لن يمكنها أبدا إيقاف معدل زيادة السكان العام في أفريقيا كلها.

ومن الواضح تماما أن معظم المشاكل الاقتصادية للدول الأفريقية خلال الأعوام الحرجة بعد عام ١٩٧٢ قد نبعت أساسا من الاختلافات الكبيرة في أسعار البترول العالمية. فلقد بلغ سعره خلال الستينيات وإلى عام ١٩٧٢ أقل من ٢ دولار للبرميل، ولكن كان حتى هذا السعر الضئيل كافيا لتحويل ليبيا بعد اكتشاف البترول بها من أفقر الدول الأفريقية إلى أغناها كما رأى أوجوكو أن هذا السعر للبترول كاف لفصل بياقرا عن باقي نيجيريا، ولكن كونت الدول المصدرة للبترول في الشرق الأوسط منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) وبعد قطع الإمدادات أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ رفعت الأسعار إلى ١٢ دولارا للبرميل عام ١٩٧٤ وإلى ٣٤ دولارا عام ١٩٨١ أثناء وطيس الحرب بين العراق وإيران، وكانت النتيجة الأولية للبلاد الأفريقية هي زيادة الفروق بين الأغنياء والفقراء، فلقد ازداد ثراء الأغنياء، وحدث لفترة مؤقتة أن الدخل القومي لنيجيريا الكبيرة المكتظة بالسكان قد تضاعف ثلاث مرات، وأدى ذلك أيضا إلى مضاعفة تكاليف استيراد الدول الأفريقية الفقيرة بخمسة عشر ضعفا نظرا لعدم توافر نظم النقل بالإضافة إلى توقف العديد من المشاريع الاقتصادية، وكلف استيراد البترول قبل عام ١٩٨٢ ١٠% من صادرات تنزانيا على سبيل المثال ولكن ارتفع هذا الرقم إلى ٦٠% منها عام ١٩٨٠، ونضيف لتبسيط الأمر أن سعر الطن من الشاي المصدر كان يشتري بـ ٦٠ برميلا من النفط ولكنه أصبح يشتري بـ ٤ براميل بعد ذلك فقط لا غير.

ولم يقف الأمر هنا، فلقد وظفت دول الأوبك فوائض إيراداتها الهائلة في البنوك والمؤسسات المالية في العالم المتقدم، وبدأت تلك المؤسسات في تحريك تلك الأموال لاستثمارها بمنح قروض مالية بشروط سهلة نسبيا للحكومات، ويشمل ذلك

العديد من حكومات العالم الثالث التي حاولت مواجهة زيادة مشاكلها المالية بالاقتراض، ولذلك ازدادت الديون الخارجية للدول الأفريقية فيما بين ١٩٧٠ و ١٩٨٠ من ٦ بليون إلى ٣٨ بليوناً من الدولارات، ثم وصل هذا الرقم إلى ١٣٤ بليون عام ١٩٨٨ ومازال يزداد وينمو، وفاقت مبالغ الديون الخارجية الأفريقية في نهاية الثمانينيات مع إجمالي دخلها السنوي ٣,٥ مرة من مواردها المالية من الصادرات ووصلت خدمة الديون سنوياً خلال الأعوام من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٨ إلى ٢٠ بالمائة من إيرادات الصادرات ولكنه يمثل أيضاً ثلاثة أخماس التزامات القارة كلها، ولذلك لم تستطع اثنتا عشرة دولة أفريقية من جنوب الصحراء أن تسدد ديونها بانتظام في عام ١٩٨٠ فصاعداً، ومهما كان الأمر فإن الأرقام تدل بوضوح على أن سداد أقساط الديون قد بلغ ٢١٧ بليوناً مقابل ٢١٤ مليوناً من الدولارات فيما بين ١٩٨٢، ١٩٩٠ ولكن يمثل هذا الرقم كل القروض الثنائية، مساعدات التطور والنمو المتعددة الجهات، القروض الجديدة وضمانات القروض أيضاً.

لكن لم تأت زيادة القروض الأفريقية من إعادة توظيف فوائض عائد البترول فقط، ولكن أدى توافر الأموال السهلة خلال العشرة أعوام من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٥ إلى تأجيل تاريخ عدم قدرة الحكومات الأفريقية على الاقتراض بشروط تجارية بحتة، كما لم يتم تصحيح العديد من مراكز الخلل في الاقتصاديات الأفريقية خلال أعوام الاقتراض السهل مما أدى إلى زيادة ضعفها، ويعتبر الخلل الأول هو زيادة تكاليف مرتبات الموظفين الحكوميين والقوات المسلحة، فلم تستطع معظم الحكومات السيطرة على الإنفاق المتزايد والضغط في أجهزتها الحكومية وقواتها المسلحة، فلقد تحولت العديد من الوظائف المدنية المهمة في الدولة إلى مجرد واجهة أو أمراً ثانوياً بحتاً؛ إذ يعمل شاغلها على الأرجح في وظائف أخرى مع القطاع الخاص أيضاً، وعرف قادة الجيش والشرطة تماماً خوف السياسيين الدائم من شعوبهم لعدم شرعيتهم القانونية في معظم الأحوال، ولذلك تم إنشاء قوات مسلحة ضخمة كبيرة العدد وذات أسلحة كثيرة متطورة للغاية وإن كان لا يعنى

وجودها شيئاً، فهي من أجل مواجهة الاضطرابات الداخلية فقط وليس حماية البلاد من أخطار خارجية لا وجود لها أصلاً، ولم يستطع قادة الدول ذات التوجه الاشتراكي السيطرة على تكاليف رواتبهم مما أدى إلى خسائر جسيمة والاضطرار إلى الحصول على إعانات من ميزانية الدولة، ونشير إلى أمر آخر لم يأخذ حظه من الدرس وهو أن كل الحكومات الأفريقية تقريباً قد ضاربت على أسعار عملاتها القومية، ولكن تم تحديد قيمتها بسعر يقل عدة مرات عن سعرها الحقيقي في السوق الحرة، وجعل ذلك الاستيراد رخيصاً نسبياً بالإضافة إلى الحياة الرغدة التي تحياها النخبة وزيادة أسعار السلع المستوردة التي يستخدمها المواطنون العاديون في العواصم النامية بسرعة هائلة، وكانت أعمال الاستيراد من دول تمنح إعانات إنتاج لمزارعيها لتخفيض أسعار صادراتها، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى منافستها للإنتاج الزراعي المحلي في الدول الأفريقية إذ قل سعرها عن سعر منتجات تلك البلاد ذاتها، ولذلك قام المزارعون الأفريقيون بالرغم من ضغوط زيادة السكان إلى تركيز جهودهم على زراعة المحاصيل الحيوية الضرورية لاستهلاكهم الخاص ولم يزرعوا أكثر الاحتياجات الخاصة للسوق المحلية.

ولم يمكن الاحتفاظ بأسعار العملة ثابتة إلا بواسطة السيطرة والإشراف الحكوميين مع إنشاء نظم حكومية دقيقة للاستيراد والتصدير، وفتح ذلك الباب أمام الفساد الذي استشرى بين رؤساء الجمهوريات وحاشيتهم من الوزراء إلى صغار الموظفين البيروقراطيين مثل موظفي الجمارك، وسمى هذا النوع من الفساد بقاعدة العشرة بالمائة، وكان ذلك من أهم أسباب فساد القطاع العام وانهيار الخدمات العامة، وكانت في النهاية تلك النفقات الباهظة التي قام بها معظم - إن لم يكن كل - رؤساء الدول الأفريقية، فلقد ازداد عدد القصور الرئاسية الرائعة الفخمة، وزادت الحاشية والبلاط والخدم والحشم، وزادت المواكب الرئاسية المهيبة طولا، وازداد ضجيجها والخوف منها، وحملت قوافل من الباصات الحكومية الجماهير المؤجرة للهتاف والصياح والتهليل أثناء خطابات رؤساء الجمهوريات في استادات

رياضية هائلة جديدة، كما اهتم الرؤساء الأفريقيون باستضافة مؤتمرات منظمة الدول الأفريقية كما أنفقت مبالغ هائلة استعدادا لها، وقام نكروما بتشيد قصر رائع يحتوى على ستين وحدة سكنية فخمة رائعة وقاعة مآدب لـ ٢٠٠٠ شخص لمؤتمر عام ١٩٦٥، وأدى ذلك إلى غضب بعض مواطنيه، وسخروا من ذلك بترديد عبارة "لكل رجل دراجته البخارية" وشيد الرئيس عمر بونجو رئيس الجابون عام ١٩٧٧ مجموعة من الفنادق على شاطئ البحر فى مدينة ليبرفيل وقصرا جديدا لنفسه بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار، وأنفق الرئيس تولبرت بعد عامين نصف ميزانية ليبيريا السنوية لاستضافة قمة منظمة الوحدة الأفريقية، ولكن تفوق عليه الرئيس سياكا ستيفنز حينما أنفق ثلثي ميزانية سيراليون على الموضوع نفسه، ولكن كان أكثر الرؤساء إنفاقا فى الثمانينيات هو الرئيس موبوتو فى الكونغو فى عصر الأزمة الاقتصادية الصعبة فى زائير، فلقد فاقت نفقاته السنوية أكثر من إجمالى ميزانيات الطرق والمستشفيات والمدارس والخدمات الاجتماعية كلها مجتمعة، وبلغت ثروته الخاصة عام ١٩٨٨ مبلغ ٥٥ مليون دولار ولكن يقول البعض إنها تبلغ عشرة أضعاف هذا المبلغ، وأعاد بناء قريته الأصلية فى جيباد وليت على الأوبانجى بتكاليف هائلة، وشيد هناك قصرا ريفيا رائعا لاستخدامه الخاص ومطارا كبير لنزول طائرة الكونكورد التى كثيرا ما كان يستأجرها من شركة إير فرانس، وامتلك أيضا قصورا فى فرنسا وبلجيكا وضياعا فى أسبانيا وإيطاليا وسويسرا وساحل العاج، وقضى معظم أوقاته فى أيامه الأخيرة على متن يخت فخم يتجول به ذهابا وإيابا فى نهر الكونغو مما أدى إلى سخرية مواطنيه الغاضبين منه، وأطلقوا عليه اسم "البحار" بينما ازداد السخط والغضب فى البلاد.

طريق الإصلاح الصعب

قاومت معظم الحكومات الأفريقية نصائح البنك الدولى وصندوق النقد

الدولى أيضا الأكثر إماما بالمشاكل الهائلة التى تواجهها الدول الأفريقية، فلقد ازدادت الديون من عام ١٩٧٥ فصاعدا ولكن وجدت وسائل بديلة للاقتراض السهل كما سبق القول، ولكن كانت حكومة كينيا أول دولة تقبل قدرا من إشراف مندوبى صندوق النقد الدولى الذين افتتحوا مكتباً لهم فى البنك المركزى الكينى، ولكن وجد أكبر قدر من الميزانية فى زائير عام ١٩٧٨ عندما وجد مسئولون من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى فى البنك المركزى، مكتب المراجعة ووزارة المالية فى تلك البلاد وكانت أفضل الدول المتعاونة مع صندوق النقد الدولى هى غانا؛ حيث استولى ضابط شاب من السلاح الجوى ويدعى جيرى رولنجر، والبالغ من العمر ٣٤ عاماً، على السلطة من حكومة مدنية لا تتميز بالكفاءة والتى كانت مكلفة بإدارة البلاد بعد انقلابه عام ١٩٧٩، وكان اقتصاد غانا قد انهار تماماً آنذاك وانخفض إنتاج الكاكاو من ٥٦٠,٠٠٠ طن عام ١٩٦٥ إلى ١٥٠,٠٠٠ طن عام ١٩٨١. وضعف نظام النقل كثيراً كما توقفت السكك الحديدية، ولم توجد عملة أجنبية كافية لاستيراد حتى أكثر السلع إلحاحاً وضرورة مثل قطع الغيار للآلات الزراعية والصناعية، وعملت المصانع بربع طاقتها، كما حدث نقص فى الطاقة الكهربائية نظراً لانخفاض مستوى بحيرة فولتا نظراً للقط الشديد، وبدأ رولنجر فى تطبيق برنامج إصلاح بإصرار وواقعية يحسد عليها إذ لم يتوافق ذلك أبداً عند الحكام السابقين، فلقد قبل مساعدة صندوق النقد الدولى وإشرافه وشروطه ثم قام بتخفيض قيمة العملة تدريجياً نظراً لتحسن الأحوال الجوية، وارتفع إنتاج الذهب وباقى إنتاج المناجم، كما تعافت الصناعة أيضاً. وتم شراء معدات توليد كهرباء جديدة لسد أكاسومبو مما أعاد التيار الكهربائى إلى سابق عهده ولكن تكلفت تلك المكاسب الاقتصادية الهائلة ثمناً باهظاً من الناحية الاجتماعية إذ أدى إلى زيادة البطالة وتخفيض الخدمات الطبية والاجتماعية وتخفيض ميزانية التربية والتعليم، وفرضت الحكومة ضريبة مبيعات مرتفعة من أجل تخفيض استهلاك السلع المستوردة والتى أثرت بشدة على مستوى حياة سكان المدن، وحدثت عدة محاولات انقلابية،

واضطرابات للطلبة والعديد من الاضطرابات الشعبية، ولكن تحسن الاقتصاد فى بداية التسعينيات ووصل إلى أحسن حالاته منذ عصر ما بعد الاستقلال، ثم بدأ رولنجز بمساعدة صندوق النقد الدولى فى تحويل غانا إلى نظام حكم أكثر ديمقراطية.

ووجد صندوق النقد الدولى نفسه أثناء عقد الثمانينيات وبطريقة متزايدة فى وضع القائد الوحيد القادر على إمساك زمام الأمور، ولذلك استطاع تطبيق سياسة حازمة لفرض الشروط مقابل مساعدته، كما اقتربت الحرب الباردة من نهايتها ولذلك استطاع أن يحشد التأييد الدبلوماسى لكل الدول المانحة لإقناع الحكومات الأفريقية لقبول وصفاته العلاجية، ولذلك طلب من معظم الدول اتباع مثال غانا والقيام بعملية تخفيض متدرج لعملاتهم بفرض إعادة التوازن بين أسعار السلع المنتجة محليا والسلع المستوردة، وكان ذلك لصالح المزارعين الأفريقيين بالتأكيد، ولكن تأثر سكان المدن بشدة كما عبروا عن استيائهم بوسائل أكثر فاعلية، ولذلك حينما استعان الرئيس كاوندرا على سبيل المثال بصندوق النقد الدولى عام ١٩٨٥ لإنقاذ زامبيا من الانهيار فلقد كانت إحدى وصفات العلاج لصندوق النقد الدولى هى إلغاء الدعم على الخبز المصنوع من الشعير، وأدى ذلك إلى أعمال شغب هائلة فى مدن حزام النحاس لدرجة أن الحكومة قد قطعت علاقاتها مع صندوق النقد وأعادت الدعم ولكن اضطرت زامبيا فى نهاية الأمر إلى قبول مساعدة صندوق النقد الدولى عام ١٩٩٠ وقبلت وصفه العلاج القاسية ومواجهة المزيد من الاضطرابات وطبقت جابون أيضا برنامجا للتقشف وضعه صندوق النقد الدولى عام ١٩٨٦ وأدى إلى أعمال الشغب الدامية فى ليبرفيل ديو جونتيل، وكان أسوأ الرؤساء حظا فى تلك الإصلاحات هو الرئيس توماس سانكارا من بوركينا فاسو والذى عادته الطبقة الفقيرة الشعبية من البيروقراطيين وعمال المدن فى بلاده مما أدى إلى اغتياله عام ١٩٧٨ ولكن كان مصير معظم الذين ساعدتهم صندوق النقد أوفر حظا بكثير من مصير سانكارا.

وتحسن الدخل العام للقارة وإن حدث ذلك بطبيعة الحال بعد عام ١٩٨٥، وأشاد البنك الدولي في تقرير صدر عام ١٩٨٩ بتحسن مساهمة القطاع الخاص الصغير الذى ظهر فى المدن النائية وحولها بسرعة وقال:

"لقد قدمت الشركات الصغيرة فى القطاع غير الرسمى نصيبا متزايدا فى الوظائف والإنتاج فى السنوات الماضية التى تميزت بالأزمة الاقتصادية. وتدل التقديرات أن تلك المنشآت تقوم حالياً بأكثر من نصف الوظائف فى المدن الأفريقية وخمس الإنتاج القومى العام، ولكن لا يسجل أو ينظم هذا القطاع غير الرسمى بالمرّة ولكنه يتكون من مشروعات صغيرة فى الزراعة والصناعة والتجارة النقل والتمويل والخدمات الاجتماعية. ولا يتميز أبدا بالركود أو الثبات أو بأداء عمله بالطرق التقليدية، بل يستخدم وسائل فنية متطورة طبقاً لما تقتضيه آليات السوق، وتتميز منشآت ذلك القطاع غير الرسمى بالقدرة على المنافسة والعمل الحر دون قيود إجبارية بالإضافة إلى تلاؤمها التام مع المتطلبات والموارد المحلية المتاحة.

وتعطى شهادة البنك الدولي تشجيعاً وأملاً فى المستقبل نظراً لإشادتها بالمشروعات الصغيرة لسكان المدن فى عصر تدهورت فيه كل نظم الحياه الأفريقية الأخرى. ولكن كانت أهم العوامل فى الحياة الأفريقية عام ١٩٩٠ هى تضاعف عدد السكان كل عشرين عاماً وسكان المدن كل عشرة أعوام فقط. وذلك أن أقام ربع الأفارقة كلهم فى المدن عام ١٩٩٠، ويقدر أن تلك النسبة سوف تتضاعف مرة ونصف بحلول نهاية القرن. ولكن يعنى ذلك أيضاً أن عددا هائلاً من الناس ما زال يقيم فى الريف والذى سوف يصل عددهم عام ٢٠٠٠ إلى ما يوازى عدد سكان القارة كلها عام ١٩٩٠. ولكن تولد الآن أفريقيا جديدة فى المدن والريف المجاور لها. وبدأت المنشآت الاقتصادية فى تلك المناطق الحيوية فى النمو والازدهار اعتماداً على نفسها أساساً. وتوجد أيضاً آمال واسعة فى انتشار تلك المفاهيم الرائعة بحيث تتحسن الحكومات المحلية ووصولها إلى المناطق النائية حيث توجد أسوأ ظروف الفقر المدقع على الإطلاق.

الفصل الثالث والعشرون

الصراعات فى القرن الأفريقى

بالنسبة لمعظم أفريقيا فإن العقد الأخير من القرن العشرين لم يحقق أبدا الآمال العريقة التى تمنّاها المتفائلون فى نهاية عقد الثمانينات فى القرن العشرين. ولكن أدى انهيار وانحلال الاتحاد السوفيتى وإمبراطوريته فى شرق أوروبا إلى وجود الظروف الملائمة لإحداث تغيير جذرى فى نظام حكم جنوب أفريقيا وتحوله من حكومة أقلية بيضاء إلى ديمقراطية تعتمد على نظام الانتخاب الحر. واختلف الأمر فى أماكن أخرى، إذ لم يؤد الانسحاب الجزئى للقوتين العظميين أبدا إلى القضاء على الانقسامات الداخلية داخل البلاد الأفريقية، وأدى ذلك، على العكس، إلى زيادة كبيرة فى العنف سواء فى المناطق التى شهدت قبل ذلك نزاعات فى عصر الحرب الباردة وتلك التى ظلت هادئة نسبيا على السواء.

بقايا الحرب الباردة فى أنجولا والقرن الأفريقى

فى أنجولا استمر جونا سافيمبى، وكثف نزاعه الذى استمر عشرين عاما مع حكومة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا. وقام بشراء الأسلحة والمعدات المحظورة فى دائرة من الممولين الراغبين تماما فى البيع. وأرسلوا السلاح بطريق الجو مباشرة إلى مقر قيادته العسكرية فى الأدغال مقابل الماس المستخرج من منطقة نفوذه فى الجزء الجنوبى من البلاد. وحرمت حكومة الحركة الشعبية لتحرير أنجولا من المرتزقة الكوبيين والأسلحة الروسية، واضطرت إلى تسليح نفسها بإنفاق معظم دخل حقول البترول. وكان يمكن لذلك الدخول أن يساهم فى

إعادة بناء اقتصاد دمرته الحرب. وظلت سكة حديد بنجويلا مغلقة بينما كانت فى الماضى المنفذ الرئيسى لمناجم النحاس فى جنوب زائير وشمال زامبيا، فكانت مهمة أيضا لدخول البلاد الثلاث، وهكذا ظلت تلك السكة الحديدية معطلة طوال عصر الحرب الأهلية الأنجولية. بيد أن اغتيال أحد القتلة لسافيمبي عام ٢٠٠٢ قد أدى إلى توقيع الهدنة مع أتباعه مما بعث الأمل فى قيام السلام الشامل. ولكن بعد أن بلغ عدد القتلى آنذاك فى تلك الحرب الدامية حوالى ثلاثة ملايين وعددا مشابها من اللاجئين الذين اضطروا إلى هجر ديارهم والهروب.

وازداد العنف أيضا فى منطقة القرن الأفريقى ولم يقل أبدا بعد انتهاء الحرب الباردة. وأدى خروج القوات الكوبية من أثيوبيا وانتهاء التمويل الهائل فى الأسلحة السوفيتية إلى إشعال الفتن الكامنة داخل الدولة وحول حدودها. وانتصرت الثورة بقيادة جبهة تحرير تيجرى وأريتريا فى حربها المستمرة منذ فترة طويلة فى أثيوبيا على الدكتاتورية العسكرية للرئيس منجستو الذى هرب إلى زيمبابوى فى المنفى عام ١٩٩١. وتولى الحكم الزعيم التيجيرى ميليس زيناوى (Meles Zenawi) الذى استطاع فرض سلطته على الشعوب المتنوعة فى وسط وجنوب البلاد. ووعده بتحويل جذرى للسلطة وتقسيمها إلى عشر سلطات محلية، ولكنه اضطر عام ١٩٩٣ إلى منح أريتريا الإستقلال التام. ومع ذلك فقد ساءت العلاقات بين البلدين لدرجة أن أريتريا هاجمت منطقة أثيوبية صغيرة تعرف بمثلث بيرجا (yirga) عام ١٩٩٨. ورد الأثيوبيون بعنف ونشبت الحرب التى قتل فيها حوالى ٣٠,٠٠٠ مقاتل قبل أن تقبل أريتريا الهزيمة عام ١٩٩٨. وكانت أريتريا فى عنفوان القتال تتفوق ثلث دخلها القومى العام على الدفاع وهى نسبة لم تبلغها دولة أخرى فى العالم كله.

وأثناء ذلك وعند الحدود الشرقية الأثيوبية انقسمت الأمة الصومالية - بالرغم من اشتراكها فى اللغة والدين الإسلامى- إلى عشرين منطقة أو أكثر من المناطق التى يحكمها أمراء الحرب على أساس نظام حكم العشيرة الرعوية. وكان

الرعاة يتنقلون دائما بحثا عن المراعى، وخلال الحرب الباردة استطاع منجستو بالمساعدة السوفيتية السيطرة على السكان الصوماليين فى منطقة أوجادن Ogaden فى أراضي المنخفضة الشرقية. أما معظم الصوماليين المقيمين فى بلادهم الأصلية فإنهم قد اعترفوا إلى حد ما بالنظم البيروقراطية الضعيفة التى ورثت الحكام الاستعماريين القدامى فى مقديشيو وبعض المدن الساحلية الأخرى. وسيطر الرئيس زياد برى خلال معظم العشرين عاما الأولى من الاستقلال الصومالى على معظم تلك الجهات. ولكنه ازداد دكتاتورية تدريجيا وبالذات بعد اعتراف الولايات المتحدة به وإرسالها للمعونة الاقتصادية والعسكرية بعد ازدياد النفوذ السوفيتى فى أثيوبيا. وبعد رحيل منجستو عاد الاهتمام الأمريكى بأثيوبيا، وقد زياد برى أهميته. فهرب من مقديشيو عام ١٩٩١، وتوجه إلى المنفى فى كينيا فى العام التالى وأدى رحيل برى إلى مواجهة أمراء الحرب كل منهم للآخر للسيطرة على المدن الساحلية والمزارعين المستقرين الأمنيين المقيمين بين وادى شيبلى (Wadi Shebele) ووديان جوبا (Juba) فى أقصى جنوب البلاد. وانفصل شمال الصومال - منطقة الحماية البريطانية القديمة - وأعلن استقلاله باسم أرض الصومال (Somal Land). وفى عام ١٩٩٢ أعلن محمد إيجال وهو أحد مؤسسى دولة الصومال الموحدة عام ١٩٦٠ نفسه رئيسا للدولة المنفصلة الحديثة.

وشهدت الصومال بالإضافة إلى المناطق المجاورة فى أثيوبيا وكينيا وجنوب السودان موجة جفاف رهيبية عام ١٩٩٢. وحاولت الأمم المتحدة ومنظمات الإغاثة الدولية وكافحت من أجل إرسال الطعام والأدوية إلى السكان الجوعى والذين ساءت أحوالهم للغاية. ولذلك هبطت قوة متعددة الجنسيات بقيادة الولايات المتحدة غداة انتصارها فى حرب الخليج الأولى إلى مقديشيو فى ديسمبر ١٩٩٢. وحاولت إيقاف الحرب بين أمراء الحرب المتعديدين والتأكد من وصول الدعم والمعونة إلى مستحقيها. ولكن أدى هذا التدخل الأجنبى الكثيف الذى وصل عدد أفرادهِ إلى ٣١,٠٠٠ جندي فى ذروته - وأكثر من الثلث كانوا أمريكيين - إلى إشعال الموقف

بين النزاعات السياسية بين العشائر الصومالية المختلفة. وقاتل أمراء الحرب في مقديشيو فيما بينهم للسيطرة على توزيع الطعام بأنفسهم وإرساله إلى مؤيديهم وأنصارهم فقط. وتورطت القوات المتعددة الجنسيات في معارك مدن كبرى وحيث قتل في إحداها ثمانية عشر جنديا أمريكيا، وشاهد المتفرجون الأمريكيون في التلفزيون في بلادهم كيف سحل الصوماليون جثث القتلى الأمريكيين في طرق مقديشيو. وسارع الرئيس كلينتون - الذي كان قد انتخب نوا رئيسا للولايات المتحدة - بإصدار أمر انسحاب معظم القوات الأمريكية. ولذلك في نهاية ١٩٩٤ غادرت معظم قوات الأمم المتحدة الصومال كله. ووصلت تكاليف حملة الأمم المتحدة إلى الصومال إلى ١,٦ بليون دولار، كما أدى فشلها إلى نتائج بعيدة المدى في رفض الولايات المتحدة في الاشتراك في أي نزاع أفريقي آخر. وكان ذلك أيضا فشلا ذريعا للأمم المتحدة بمواردها القليلة ومسئولياتها المتزايدة على الدوام، ولم تغامر بعد ذلك أبدا في التورط في النزاعات الأكثر خطورة والتي تستلزم تدخلها. وبعد انسحاب الولايات المتحدة والأمم المتحدة انقسم الصومال ويشمل ذلك المدن مثل مقديشيو وكيسمايو (Kismayo) بين ستة وعشرين من أمراء الحرب كما استمرت المنازعات إلى القرن الحالى. ولكن عاد النشاط الاقتصادى السلمى ثانية وبالذات في تجارة الماشية. وفي عام ١٩٩٨ رفعت السلطات السعودية الحظر على استيراد الماشية الصومالية الحية والتي كانت قد فرضته قبل ذلك لانتشار طاعون الماشية بينها. وكان ذلك قد أثر تماما على اقتصاد المناطق الشمالية الغربية. وغادرت الشحنة الأولى المكونة من ٩٠٠٠ رأس ماشية ميناء بربرة (Berbera) في شهر مايو ١٩٩٩. واسترد جنوب الصومال رويدا رويدا عافيته في فيضانات عام ١٩٩٧ في أنهار جوبا واشبيلي والتي كانت قد دمرت أراضي المزارع المجاورة. ويبدو أن الألفية الجديدة قد أتت بأمل جديد للشعب الصومالى. وعاد فرض النظام العام في جذور كونتها الوحدات الإدارية المحلية الصغيرة، مما

أدى حتى في مجتمع لم يعد يعيش في إطار دولة إلى عودة الاقتصاد والحياة الاجتماعية بالرغم من الفوضى الناشئة عن سياسات الميليشيات.

مأساة رواندا والكونغو

وكانت أكثر النزاعات عنفا وانتشارا والتي أدمت القارة الأفريقية وأرهقتها خلال العقد الأخير من القرن العشرين حتى التي حدثت في رواندا وبورندي وشرق زائير. وأخذت شكل حرب إبادة في في رواندا على أيدي مجموعة من الهوتو المتعصبين ضد جيرانهم التوتسي وإخوانهم في الوطن. ولم تكن تلك الحرب حربا بين أمراء الحرب مثلما هي الحال في الصومال وسيراليون. ولكنها كانت انفجارا مفاجئا للمنافسة التي استمرت قرونا طويلة بين ملاك القطعان التوتسي والمزارعين الهوتو للسيطرة على الأراضي واستخدامها في بقعة من أكثر المناطق ثراء وبالتالي أكثرها سكانا. ويكون الهوتو والتوتسي حوالي ١٥% من سكان البلدين ويتكلمان اللغة نفسها ويشاركان في الديانة نفسها والعادات والتقاليد. وكانت الاختلافات بينهم خلافاً طبقية وليست عرقية على الإطلاق. وخلال عصر الاستعمار فضل الحكام البلجيكيون تدعيم الوضع السياسي والاجتماعي المميز للتوتسي ولكن وحتى قبل الاستقلال طرد الهوتو أعدادا كبيرة من التوتسي من الأراضي المتنازع عليها، وهرب معظمهم إلى المناطق المجاورة في جنوب أوغندا. وامتد العنف إلى بوروندي في بداية تسعينيات القرن العشرين، وقامت حكومة يقودها التوتسي عام ١٩٨٨ بالهجوم على الهوتو محاولة منها في قتل المثقفين الذين يمكنهم تكوين حكومة بديلة. وفي نهاية عام ١٩٩٣ كان مئات الآلاف من الناجين الهوتو قد هربوا إلى رواندا وزائير وتانزانيا، بينما أقام آخرون في معسكرات للاجئين حول حدود بلادهم الأصلية. وخلال تلك الفترة واجهت حكومة يقودها الهوتو في رواندا ومنذ ١٩٩٠ حركة ثورية قام بها اللاجئون في أوغندا بقيادة الجنرال بول كاجامي Paul Kagame. وكان هو نفسه ابنا من أبناء

اللاجئين التوتسى فى عقد الستينيات وخدم فى جيش المقاومة بقيادة موسيفى Musevi ثم أصبح نائباً لرئيس المخابرات العسكرية. واستطاعت الجبهة الوطنية لرواندا بقيادة كاجامى قدرة على إنجاز نجاح كبير فى شرق البلاد.

وفى شهر أبريل ١٩٩٤ حضر رؤساء وأعضاء حكومتى البلدين اجتماعاً إقليمياً فى دار السلام فى محاولة لرأب الصدع وتنفيذ اتفاقيات سلام سابقة لرواندا. وقد تم إقناع رئيس بوروندى بالعودة إلى دياره على طائرة رئيس رواندا. ثم تم إسقاط الطائرة بواسطة صاروخ أرض-جو عند اقترابها من مطار كيجالى Kigali وقتل جميع من كانوا على متنها. ولم يتم اكتشاف المجرمين أبداً ولكن انتشرت شائعات أنهم أعضاء من الجيش الرواندى الذين رغبوا فى إشعال الفتن الطائفية عمداً. وبعد تلك الكارثة قامت وحدات من الميليشيات الرئاسية بمجزرة ضد السكان التوتسى. وتم تحريض المواطنين الهوتو فى برامج إذاعية معادية تماماً للتوتسى من محطة تسمى نفسها محطة الألف هضبة الحرة للإذاعة والتليفزيون. وعرفت عامة بإذاعة الحقد إذ وجهت برامجها الشعبية للمزارعين الفقراء والعاطلين من شباب الهوتو فى المدن وحثتهم على حمل السكاكين والمشاعل لذبح جيرانهم التوتسى. وفعل الكثيرون ذلك بين أشهر أبريل ويوليو ١٩٩٤ لدرجة أن حوالى ٨٠٠,٠٠٠ من التوتسى قد قتلوا بينما هرب مئات الآلاف من ديارهم للنجاة بحياتهم. وانتهر ثوار كاجامى من أوغندا تلك الفرصة الذهبية نظراً لانتشار الفوضى وزادوا فى هجماتهم العسكرية واستولوا على العاصمة كيجالى ثم استولوا بعد ذلك على الأجزاء الجنوبية والغربية من البلاد.

ونتيجة لذلك تحرك ما بين مليون ومليونين من الهوتو، ومعهم ميليشياتهم وجنود جيشهم المهزوم إلى إقليم كيفو Kivu المجاور فى زائير، وأقاموا فى معسكرات من الخيام بدون إضاءة ومياه، واعتمدوا تماماً على المساعدات الخارجية للحصول على الطعام ومياه الشرب. ولم تتمكن الموارد المحلية أبداً من مواجهة ذلك. النزوح الجماعى الهائل، ولذلك تسوفى عشرات الآلاف من المرضى أو

الجوعى قبل وصول المساعدات الدولية إليهم. وقد حوالى نهاية شهر يوليو ١٩٩٤ أن ثلث سكان رواندا فقط قد ظلوا أحياء وقيمون داخل حدود بلادهم وذلك من ٧,٥ مليون من السكان الذين كانوا يقيمون هناك قبل ثلاثة أشهر فقط. ولم يستطع العالم الخارجى - وبالذات أوروبا وأمريكا- أن يفعل شيئا سواء بالنسبة لحرب الإبادة ومأساة اللاجئين. ولم تفعل معظم الدول الأفريقية المجاورة الكثير، بل أدى تدخلها أحيانا إلى زيادة الأمور سوءا. وحينما قامت الأمم المتحدة بعمليات الإغاثة فى نهاية الأمر كان الوقت قد فات تماما. وادعت حكومة كاجامى الجديدة حيادها بين الفئتين ولكنها لم تفعل شيئا من الناحية العملية لتشجيع الهاربين على العودة. ووجد العائدون أرضهم وممتلكاتهم فى أيدي التوتسى وكثيرا ما تعرضوا لسوء المعاملة من العسكريين والشرطة على السواء. ولذلك ظل معظم اللاجئين فى شرق زائير تحت التأثير السياسى لميليشيات الهوتو الشديدة التعصب والتى كانت وراء أعمال القتل الجماعية قبل ذلك، ثم استعدت آنذاك للمقاومة المسلحة مما أغضب زائير ومنظمات الإغاثة العالمية المرسلة لمساعدتهم. ونظرت حكومة كاجامى بطبيعة الحال بعين الشك والارتياح لوجودهم بالقرب من حدودها واعتبرتهم تهديدا دائما ومباشرا. وشاركها فى هذا الشعور التوتسى وشعب قريب منهم يدعى البانيا مولنجى Banya mulunge المقيم عند شريط أراضى المراعى فى شرق زائير بين الغابة وبحيرة كيفو Kivu. وكان الرأى بين الجماعتين آنذاك هو إبعاد اللاجئين الهوتو عن الحدود إلى غابة إيتورى Ituri غير القابلة للحياة بها تقريبا فى ناحية الغرب. ورأت حكومة كيجالى بعد ذلك ونظرا لعدم مقاومة حكومة زائير أن عليها التصرف بمفردها وقامت بالغارات المفاجئة للوصول إلى هذا الهدف.

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الموقف إثبات أن حكومة الرئيس موبوتو فى كينشاسا غير قادرة على مواجهة الموقف على الإطلاق، ولا يمكنها حتى حماية حدودها من هجمات من البلاد المجاورة. ولذلك سرعان ما قامت القوات الرواندية

تدعمها وحدات من جيش أوغندا باحتلال كل المنطقة المكشوفة غرب الغابة وطاردت اللاجئين الهوتو إلى طريقى الغابيتين المؤديتين إلى كيسانجانى kisangani على مسافة ٨٠٠ كم (٥٠٠ ميل) داخل زائير. ثم توغل أمراء حرب صغار من السودان فى الوقت نفسه داخل زائير شمال الغابة بينما وجد شعب البانيا مولونجى فى جنوب إقليم كيفو قائدا عسكريا موهوبا فى شخص لوران كابيلا Lurant Kabile. وكان كابيلا مساعدا سابقا للرئيس باتريس لومومبا وقائدا عسكريا فى الثورة الماوية بقيادة كريستوفر جيبينى Christphr Jbenye الذى عمل كأمير حرب فى الجبال الواقعة غرب بحيرة تتجانيقا منذ عام ١٩٦٤. وأصبحت رغبة كابيلا فى بداية عام ١٩٩٧ الإطاحة بحكومة موبوتو غير المحبوبة على الإطلاق، واستطاع أن يشن حربا ناجحة تماما، ووصل بجيشه الصغير العدد من مدينة بها مطار إلى أخرى، بينما كان ينضم إليه خلال ذلك العديد من الأنصار الجدد إلى أن وصل إلى مشارف العاصمة كينشاسا فى شهر مايو. وانضمت إليه أيضا وحدات من جيوش رواندا وأوغندا وبروندى. وكان موبوتو آنذاك رجلا مريضا أنهكت قواه فهرب مع عائلته إلى توجو فى البداية ثم وصل إلى المغرب حيث عاش ضيفا عند الملك الحسن الثانى، ولكنه سرعان ما تسوفى بعد بضعة أسابيع. وانضم كابيلا إلى قواته المنتصرة فى كينشاسا وأعلن نفسه رئيسا لجمهورية الكونغو الديمقراطية وهو الاسم الجديد لزائير بموافقة مؤيديه الروانديين والأوغنديين.

ولم يتوافر لكابيلا - كرئيس للجمهورية - تلك الشخصية الجذابة والذكاء السياسى الحاد الذى تمتع بهما جوزيف سيسى سيكو. وسرعان ما أثبت أنه أقل قدرة من سابقه على الحكم بطريقة مرضية فى بلاده الكبيرة. وسرعان أيضا ما واجه كابيلا حلفاءه فى البانيا مولونجى والروانديين وأوقف تقدم نفوذهم فى الجزء الشرقى من البلاد، وأعلن تأييده للنوار الهوتو هناك. ولذلك قام الروانديون والأوغنديون بإشعال ثورة جديدة ضده هناك عام ١٩٩٩، واستولوا بسرعة على

الأقاليم الشرقية وأرسلوا قوات عسكرية جوا للسيطرة على موانئ الكونغو على المحيط الأطلنطي ومحطة توليد الطاقة عند سد اينجا Inga. واستعان كابيلا بدوره بالحكومات الأنجولية والناميبية والزمبابوية للحصول على قوات لمساعدة نظامه المنهار. وساعدته السودان أيضا وتشاد لفترة بسيطة كذلك. ولذلك تحولت جمهورية الكونغو الديمقراطية إلى مجال حرب أفريقية شاملة وحيث اشتركت جيوش ست دول أجنبية. وبدأ حلفاء كابيلا الجدد في إعادة السيطرة على الغرب والجنوب بينما مد الروانديون والأوغنديون سيطرتهم على الشرق والجنوب الشرقي. ولكنهم اشتركوا جميعا في نهب ثروات الكونغو إذ اهتمت أنجولا بحقول البترول أمام مصب نهر الكونغو، ورواندا وأوغندا بالماس والمعادن الثمينة والعاج والأخشاب من الجبال الشمالية الشرقية، والزمبابويون بالنحاس والمنتجات الزراعية في الجنوب.

وقتل لوران كابيلا على أيدي أحد حراسه في بداية عام ٢٠٠١، ثم خلفه ابنه جوزيف البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما كرئيس للجمهورية. وأصبح بالتالي أصغر رؤساء الجمهورية في العالم في دولة تسودها الفوضى الكاملة. وكان يختلف اختلافا تاما عن والده إذ كان لوران مثيرا للحروب وكسولا وفاسدا وسكيرا ومتعدد الزوجات بينما كان جوزيف مفكرا نشطا لا يتناول الكحول، متزوج من واحدة وأدهش الكثيرين في اعتداله وصواب رأيه. واستبدل تدريجيا أنصار والده الفاسدين في دوائر الحكم بآخرين من المديرين المحترفين بينما أبلغ الدبلوماسيين الغربيين استعدادهم لقبول نصائح من أجنبي. ولذلك أدت إصلاحاته الاقتصادية إلى وعد من البنك الدولي بإقراض الكونغو ٤٠٠ مليون دولار، وتحول الموقف العسكري تدريجيا لصالح جوزيف كابيلا بحيث استطاع التخلي عن كل الجيوش الأجنبية التي أتت لمساعدته باستثناء حرسه الخاص من الزيمبابويين. أما من الناحية السياسية فإن حكومة جنوب أفريقيا برئاسة ثابو مبيكي Thabo Mbeki فقد تدخلت كوسيط بحيث سحب رواتب وأوغندا بين شهر يوليو ٢٠٠٢ ونهاية العام قواتها من شرق

الكونغو. ووافق كابيلا على إنشاء حكومة انتقالية تشمل زعماء مختلف جماعات الثوار. على أن يشرف على إنهاء النزاع هيئة من الأمم المتحدة وأفراد من جنوب أفريقيا. ولكن للأسف سرعان ما بدأت تلك الجهود في التهاوى إذ استمرت أوغندا ورواندا في تسليح الميليشيات المتنافسة، كما كانتا على استعداد لإعادة غزو الأقاليم الشمالية الشرقية في الكونغو التي أنهكتها الحرب. وتم توقيع اتفاق سلام آخر في أبريل ٢٠٠٣ بين حكومة الكونغو والجماعات الثورية الرئيسية. ولكن سيطر آنذاك ستة أو سبعة من أمراء الحرب على مناطق تمتد من بونيا (Bunia) التي تحتلها أوغندا في الشمال إلى بوكافو Bukavu التي يسيطر عليها الروانديون في الوسط. وبعد انسحاب القوات الأوغندية في بونيا في شهر مايو ٢٠٠٣ أدى النزاع بين جماعات الهيم (Hema) واللندو (Lendu) حول الأرض في إقليم ابتوري الكثيف الغابات إلى انهيار تام في القانون والنظام. وتم تجميع قوة تقودها فرنسا في محاولة للفصل بين القوات المتنازعة. وبدأ السلام أبعد ما يكون. وقدرت إحدى وكالات الإغاثة آنذاك أن ٤,٧ مليون إنسان قد قتلوا كنتيجة مباشرة للحرب الأهلية. وإذا كان هذا الرقم صحيحا فإن الحرب في الكونغو قد كانت أكثر الحروب دموية في تاريخ البشرية منذ الحرب العالمية الثانية.

أمراء الحرب في ليبيريا وسيراليون

وتوجد منطقة أخرى في القارة والتي عانت كثيرا من النزاعات الداخلية خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين وهي المنطقة الممتدة من أراضي الحدود بين ليبيريا وسيراليون. وبدأ العنف عام ١٩٨٩ في ليبيريا حينما قام شارل تيلور بغزو البلاد. وكان مسئولا كبيرا سابقا في الحكومة الليبيرية، وهرب إلى الخارج بعد اتهامه في جريمة مالية خطيرة. وأثناء فترة هروبه كخارج عن القانون أصبح تيلور المتحدث الرسمي لمجموعة من رفاقه المنفيين الموزعين بين عدة دول

مجاورة وعرفت باسم الجبهة الوطنية الشعبية لليبيريا National Patriotic Front for Liberia (NPFL) وكان الزعيم السياسى لتلك الجبهة ضابطا سابقا فى جيش ليبيريا ويدعى برنس جونسون Prince Johnson الذى جند جماعات من الشباب العاطل- من الفتية والفتيات ومعظمهم من اليتامى- وحولهم إلى قوة عسكرية شديدة العنف. وبلغ عدد تلك القوة من "الأطفال" حوالى ١٠,٠٠٠ وكثيرا ما تناولوا المخدرات مثل الكوكايين وتم تدريبهم على الوسائل الإرهابية فى القتل والسحل وبتر الأعضاء والاغتصاب وإشعال الحرائق. وتحرك الثوار من قواعد فى شمال غرب البلاد واستولوا على العاصمة مونروفيا Monrovia فى يولية ١٩٩٠. ولكن وصلت قوات جونسون إلى العاصمة قبل تيلور واستولت على معظم المدينة. وأرسلت المجموعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا Economic Community of West Africa States (ECOWAS) قوات حفظ سلام من قوات من دول ناطقة بالإنجليزية بقيادة نيجيريا. ولكن بعد أسابيع من وصول تلك القوات استطاع جونسون اختطاف رئيس الجمهورية دوو Doe ونقله إلى معسكره حيث صور عملية تعذيبه وقتله على شريط فيديو. ولذلك أحاط العار تيلور من تصرف زميله فى السلاح، وفشل فى سعيه لرئاسة الجمهورية، ولكنه ظل يسيطر على مناطق حيوية فى الداخل. وأنشأ هناك اقتصادا لأمير حرب واعتمد على استخراج الماس وقطع الأشجار والمطاط وخام الحديد مما مكنه من الحصول على ٢٠٠ - ٣٠٠ مليون دولار سنويا. وتمزقت ليبيريا خلال الأعوام الخمسة الرهيبة التالية إلى أشلاء. ودمرت قوات قوامها ٦٠,٠٠٠ من الأطفال فى الريف كله وطرّدوا مئات الآلاف من اللاجئين المذعورين إلى سيراليون، وغينيا وبوركينا فاسو. وتورطت كل الفئات فى ليبيريا فى معاملات مالية مشبوهة ويشمل ذلك أعضاء من قوات حفظ السلام. ولكن تم تثبيت عمليات وقف إطلاق النار ونزع السلاح تدريجيا بواسطة قوات حفظ السلام الأفريقية بحيث أمكن عقد انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٩٧. وحصل شارل تيلور على ثلاثة أرباع الأصوات وحصل على الرئاسة بالوسائل السلمية بعد

محاولاته السابقة في الحصول عليها عنوة وفشلت كلها. ولكن من سوء حظ تلك البلاد المدمرة أنه سرعان ما نشبت حركة مقاومة لحكومة تايلور مما أدى إلى تجدد الحرب الأهلية. وعادت أجزاء كبيرة من ليبيريا في أيدي الثوار عام ٢٠٠٣ وامتد العنف إلى ساحل العاج المجاورة والذي تعرض أيضا لنزاعات مماثلة.

وخلال المراحل الأولى من الحرب الأهلية الليبيرية أيد رئيس سيراليون جوزيف موموه Joseph Momoh وخليفته فالنتين ستراسر Valentine Strasser - وكلاهما من العسكريين- مجهودات حفظ السلام الأفريقية من أجل الاحتفاظ بحكومة شرعية في مونروفيا. ولذلك كان من مصلحة تايلور تشجيع قيام حركة ثورية مماثلة في سيراليون بالإضافة إلى السيطرة على المناطق المنتجة للماس الأكثر إنتاجية من تلك الموجودة في ليبيريا. وشجع قيام حركة ثورية في سيراليون باسم الجبهة الثورية المتحدة (United Revolutionary Front (RUF ومولها بالسلاح وقام بتدريب أفرادها. وبدأت العمل داخل الأراضي الليبيرية بقيادة فوداي سنكو Foday Sanko وهو أحد العرفاء السابقين في جيش سيراليون. وهاجمت تلك القوات سيراليون في شهر مايو ١٩٩١ وازدادت أعدادها أثناء الزحف بتجنيد لها للشباب والأطفال. واشترك هؤلاء من أجل القيام بأعمال إرهابية ضد السكان المحليين. وانتشرت أعمال بتر الأعضاء كرسالة موجهة لأعضاء الحكومة الشرعية في مونروفيا (Monrovia). وسيطرت الحركة الثورية المتحدة على معظم مناجم الماس عام ١٩٩٤ وتم تصديره كخام عبر معسكرات تايلور في العمق إلى ليبيريا ومنه بطريق الجو إلى المشترين ومعظمهم من إسرائيل. واستطاع سنكو بفضل الأرباح من تلك التجارة المربحة أن يمد عملياته الحربية إلى مشارف العاصمة مونروفيا. ولكن ومثلما حدث في ليبيريا قبل ذلك تم إرسال قوة حفظ سلام أفريقية معظمها من نيجيريا وإن تكبدت خسائر فادحة. وأرسلت الأمم المتحدة قوات دولية التي لم تكن أكثر نجاحا. وهنا وجدت سيراليون نفسها على حافة الهاوية والانهيار التام. فأرسلت بريطانيا آنذاك ألف جندي من القوات الخاصة

للدفاع عن العاصمة بينما وقفت قوة بحرية بريطانية أمامها. واستطاعت قوات حفظ السلام الانتصار تدريجيا بفضل تلك المعاونة وبدأت الحكومة التي تؤيدها بريطانيا وتساعدتها في نزع سلاح الثوار. وتم القبض على سنكو وتمت محاكمته لقيامه بجرائم حرب. وبدأ أن الحرب الأهلية قد انتهت في بداية عام ٢٠٠٢. وتم تجنيد معظم الجنود الثوار إلى سوق الجيش النظامي، وفي شهر مايو ٢٠٠٢ تم إعادة انتخاب الرئيس الشرعي أحمد كبا Ahmad Kabbah بأغلبية كبيرة من الأصوات، ولا يمكن تقدير أعداد الخسائر البشرية في تلك الحرب ولكن يعتقد أنه في أشد مراحلها هرب حوالي ثلث سكان البلاد إلى غينيا والبلاد المجاورة.

شمال أفريقيا الإسلامية

نجحت دول المغرب في شمال غرب أفريقيا بالإضافة إلى ليبيا ومصر والسودان في مواجهة طلبات التغيير السياسي والاجتماعي والإصلاح الاقتصادي أكثر بكثير من الدول الأفريقية جنوب الصحراء خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين. وكونت العلاقات الدولية والاجتماعية لتلك البلاد الإسلامية الناطقة بالعربية مجموعة تشمل الشرق الأوسط بالإضافة إلى المناطق الإسلامية جنوب الصحراء. وتظهر قوة تلك العلاقات الاجتماعية والدينية في الزيادة الهائلة في أعداد الحجاج المتوجهين إلى مكة والمدينة من جميع أنحاء العالم الإسلامي الممتد من المغرب إلى إندونيسيا. وفي بداية القرن العشرين توجه حوالي ٧٠,٠٠٠ حاج في رحلة شاقة إلى المدن المقدسة كل عام ولكن توجه خلال تسعينيات القرن العشرين حوالي ١,٣ مليون حاج إلى المدن المقدسة في المملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى ١,٤ مليون من داخل المملكة ذاتها. أما في مكة المكرمة فلقد عمل مخطط المدن بجهد على إزالة آلاف المباني القديمة من فوق جبل عمر لتحل محلها بنايات شاهقة من فنادق وشقق سكنية يبلغ ارتفاعها من عشرين إلى أربعين طابقا

لاستضافة الحجاج الأغنياء، كما امتد صيام شهر رمضان ليشمل الشهرين السابق واللاحق أيضا. ولا شك أن القليل فقط من هؤلاء الحجاج سوف يعود إلى بلاده متأثرا بأفكار ثورية إلا أن معظمهم سوف يشعرون بروح أخوة الإسلام العالمية التي تدعمت لديهم بفضل تلك التجربة. ولكن مهما كان الأمر فقد تأثرت كل بلاد شمال أفريقيا بالإسلام الراديكالي كحركة سياسية ودينية على السواء. وكان ذلك تهديدا للملك الحسن الثاني في المغرب، وللحكومة المستبدة في تونس وللرئيس مبارك في مصر وذلك في صور متعددة. أما في الجزائر فأدى ذلك إلى حرب أهلية دامية. كما أن الشباب المسلم المتطوع من بلاد شمال أفريقيا قد ساهم بقوة في حركة الطالبان لمقاومة الاحتلال السوفيتي لأفغانستان في ثمانينيات القرن التاسع عشر. ولكن وبعد الانسحاب السوفيتي لم تعد هناك حاجة إلى خدماتهم وعادوا إلى بلادهم خلال عقد التسعينيات ودعموا المهارات العسكرية للحركات الثورية في كل تلك البلاد.

وكانت أسوأ حركة ثورية بين حكومة مستقرة والنمو الجديد للراديكالية الإسلامية في الجزائر، حيث حاولت الحكومة منذ الثمانينات في تحرير الاقتصاد الاشتراكي الذي أقامه بن بيل وخلفاؤه خلال العقود الثلاثة السابقة (انظر الفصل ١٧). وتم إعلان الحرب على البيروقراطية لإصلاح الحياة البيروقراطية في إحدى أقوى وأغنى بيروقراطيات القارة الأفريقية كلها.

ولكن انزعجت القيادة القديمة تماما حينما انتصرت جبهة الإنقاذ الإسلامية Islamic Salvation Front (ISF) في الجولة الأولى من الانتخابات العامة التي انعقدت عام ١٩٩١. وقام الجيش والقادة المدنيون القدامى بالسيطرة بسرعة على الموقف وإلغاء الجولة الثانية من الانتخابات وحل حركة الإنقاذ رسميا وسجن الآلاف من أعضاء الهيئة في معسكرات نائية في الصحراء الجزائرية، كما تم وضع المساجد تحت الرقابة. وتصرفت الحكومة المكونة من صفوة من قادة الجيش وزعماء الجيش ورجال الأعمال من أجل الحفاظ على مواقعهم وليس من أجل

الاهتمام الحقيقي بالإصلاح على الإطلاق. وأدى ذلك إلى بدء فترة من الفوضى المتزايدة مما أدى إلى نشوب الحرب الأهلية في نهاية الأمر والتي بلغ عدد ضحاياها في نهاية التسعينيات أكثر من ٨٠,٠٠٠ من المدنيين الجزائريين. وأصبح عبد العزيز بوتفليقة رئيسا عام ١٩٩٠، واستمر في ذلك المنصب بعد انتخابات عام ٢٠٠٢ الذي أدى إلى عودة الأغلبية البرلمانية لأبطال جبهة التحرير الوطنية الذين حاربوا فرنسا في الخمسينيات. ولكن وعند بداية الألفية الجديدة فإن معظم الجزائريين قد ابتعدوا تماما عن الحياة السياسية المليئة بالمناورات في بلادهم وقاطعوا الانتخابات. واشتد غضب البربر في منطقة القبائل بالذات والذين يكونون حوالي ثلث السكان. وسرعان ما بدأوا حركة تطالب بحريات الأقلية للبربر، ثم تحولت تلك الحركة إلى ثورة عارمة. واستمرت حركة العنف الراديكالية الإسلامية بطريقة متقطعة، بل لقد تم تصدير بعضها إلى فرنسا وأماكن أخرى في أوروبا. أما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فإن الرئيس بوتفليقة قد تمكن من إرسال قائمة للأمريكيين تحتوي على عدة أسماء من المتطرفين والذين تعتقد المخابرات الجزائرية أن لهم صلات بتنظيم القاعدة.

وبالرغم من كونها أقل عنفا إلا أن وضعها مشابها تقريبا قد ساد أيضا في البعدين الآخرين في المغرب العربي الكبير. واحتفظ الملك الحسن الثاني على سيطرته القوية على مسرح الأحداث السياسي خلال تسعينيات القرن التاسع عشر وحكم بلاده بواسطة بطانة صغيرة من المساعدين والمسؤولين الإداريين المعروفين باسمهم القديم من عصر ما قبل الاستقلال "بالمخزن". وركز الملك على تنمية ثروته الخاصة الهائلة التي تشمل خمس الأراضي المزروعة في المغرب والسيطرة على مناجم الفوسفات والممتلكات المصادرة المملوكة سابقا للمستوطنين الفرنسيين. واستندت سياسة الحسن الثاني على ضم الصحراء الغربية بمناجم الفوسفات الموجودة بها واحتمالات اكتشاف البترول في عرض البحر (انظر فصل ١٧). وبعد انتخابات عام ١٩٩٨ فإن الحسن قد عين زعيم المعارضة الاشتراكية كرئيس

للوزراء. وخلفه ابنه محمد السادس عام ١٩٩٩ وينتمي إلى جيل أكثر اتصالاً بالغرب وتم تربيته ليتلاءم مع عصر الكمبيوتر. وظهر كحاكم مسلم معاصر شعبي، يسافر دائماً بالطائرات ووعد باشتراك ديمقراطي أكبر في سياسات بلاده وحرية أكبر للصحافة. واستفانت المغرب مثل تونس من صناعة السياحة المزدهرة. ولكن ظلت جماعة المخزن في مواقعهم وسيطروا على الحياة العامة عملياً. وأبلغت المخابرات المغربية عام ٢٠٠٢ عن خطط سيقوم بها أعضاء القاعدة لنسف السفن الحربية الأمريكية والبريطانية العابرة عبر مضيق جبل طارق. وظهر ذلك على أنه عملية صديقة للأمريكيين نظراً لمساعدتهم لموقف المغرب حول الصحراء المغربية طوال العقد المنصرم.

وفحصت مجموعة من الأطباء الرئيس الحبيب بورقيبة الذي كان يحكم منذ عام ١٩٥٦ وذلك في عام ١٩٨٧ بناء على طلب من حكومته. وأبلغت تلك اللجنة أن الرئيس مريض ومتقدم في السن للغاية لاستمراره في الحكم. ولذلك حل محله رئيس الوزراء زين العابدين بن علي الذي بدأ سياسة إصلاحات ديمقراطية وليبرالية. ووطرت تونس صناعة السياحة لديها وتحولت بالتالي إلى إحدى أكثر البلاد الأفريقية رخاءاً. ولكن ازداد بن علي ديكتاتورية على مر الأيام ومنع كل الأحزاب باستثناء بعض أحزاب المعارضة المستأنسة وقبض على أنصار حقوق الإنسان ونكل بأنصار التيار السلفي الإسلامي. وأقام استفتاء عام ٢٠٠٢ لتعديل الدستور لكي يحصل على اثني عشر عاماً أخرى من الحكم وعدم المساءلة القانونية لبقية العمر كله.

ولعبت مصر دوراً أكبر بكثير من شقيقاتها العربيات على الساحة الدولية، إذ لم يقتصر دورها على القارة الأفريقية فقط. فلقد زاد عدد سكانها عن ٦٠ مليوناً أي أكثر من أي بلد عربي آخر وما زالت القائمة في الشئون الثقافية أيضاً. وكان العالم العربي يحترم المملكة العربية السعودية لثرائها وقوتها العسكرية ونفوذها الديني ولكنه يقرأ الجرائد والكتب المصرية ويستمتع إلى إذاعاتها أيضاً. وامتلك مصر

طبقة متوسطة متقفة أكبر من أى بلد عربى آخر ولذلك تميزت الحياة العامة فى مصر بالاعتدال فى الشئون السياسية والدينية. وبدأ الرئيس حسنى مبارك فترة حكمه الطويلة بعد اغتيال السادات على أيدي المتطرفين الإسلاميين عام ١٩٨١، ونادى بالتححرر السياسى والاقتصادى. ولكنه أمام صمود الجماعات المتطرفة مثل الجماعة الإسلامية لجأ إلى سياسة العصا الغليظة مثل الرؤساء السابقين. وازدادت أعمال عنف الجماعات الإرهابية ليس فقط ضد الدولة وأعداء الجماعات بل أيضا ضد السياح الأجانب مما أدى إلى مقتل ستين سائحا فى الأقصر عام ١٩٩٧. وانتصر الرئيس مبارك فى حربه ضد الإرهاب فى نهاية التسعينيات. كما أدت سياسة الحكومة الخاصة بتخصيص وتحديث الاقتصاد إلى ظهور طبقة جديدة من الفنيين المتخصصين ورجال الأعمال مما أدى إلى تغيير أحوال الطبقة الوسطى تغييرا جذريا فى عشرة أعوام فقط أكثر من الثلاثين عاما التالية لوفاة الرئيس عبد الناصر. ولكن اهتمت تلك الطبقة الجديدة المتدنية بمصالحها الاقتصادية والاجتماعية أساسا أكثر بكثير من اهتماماتها الأيديولوجية. وأدى هذا التغيير الكبير فى المجتمع المصرى إلى إبعاد المفاهيم السياسية عن الدين مما أدى إلى ظهور جيل جديد من الدعاة الدينيين الذين استخدموا وسائل البث التليفزيونى مثل المبشرين الأمريكيين تماما. وكان أهمهم عمرو خالد وهو أحد المحاسبين تحول إلى داعية تليفزيونى. وكانت رسالته معتدلة ومريحة ولم يهتم بالوعظ الجامد الجاف بل مال إلى المرونة والذكاء. فذكر مثلا أنه يجب ارتداء الحجاب ليس مخافة من عذاب النار بل لأن الله سوف يحبها أكثر إذا فعلت ذلك. وجذب خالد الآلاف من الأنصار ومعظمهم من النساء إلى جلساته الأسبوعية المذاعة فى إحدى القنوات الفضائية الإسلامية، ووجهت إلى جميع أنحاء العالم العربى مع ترجمة إنجليزية لها. وبكى المشاهدون تأثرا. ولكن أيضا ومع تنامي حدة الأزمات الدولية مع بزوغ الألفية الثالثة فإن تلك المظاهر المدنية للدين فقد بدت على أنها تعبير عن تهديد يتعرض له الإسلام من جانب القوى الغربية التى بدأت آنذاك فى الانتقام من

الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ويضع السودان في موقف حرج بين شمال أفريقيا الإسلامي والبلاد المسيحية والوثنية جنوب الصحراء الكبرى. واشتدت حدة الصراع بين الحكومة السودانية ومعارضيه في نهاية القرن العشرين. ولكن كانت السودان قد شهدت قبل ذلك انقلابا عسكريا عام ١٩٨٩ بقيادة اللواء عمر البشير وأطاح بحكومة الصادق المهدي. ولكن سرعان ما ظهر أن القوة الحقيقية وراء الانقلاب هو حسن الترابي والجماعة الإسلامية الوطنية التابعة له. وبدأت آنذاك أسلمة المثقفين في جهاز الدولة كله بالإضافة إلى الجهاز الاقتصادي للبلاد. ولذلك كانت السودان أول البلاد الأفريقية التي تعتق نظاما إسلاميا متشددا مما أدى إلى تدهور علاقاتها بالدول الأفريقية غير الإسلامية والدول الأوروبية على السواء. وهرب أسامة بن لادن من مضايقات الحكومة السعودية، ولجأ إلى السودان عام ١٩٩١ وأصبح زعيما كبيرا لتنظيم إرهابي لدرجة طرده من السودان عام ١٩٩٥ ثم انتقل إلى أفغانستان. وساند السودان العراق في حرب الخليج عام ١٩٩٢/١٩٩١، وحينما هاجم إرهابيون سفارتى الولايات المتحدة في نيروبي ودار السلام عام ١٩٩٨ ردت أمريكا واتهمت السودان مما أدى إلى ضرب أحد مصانع الأدوية بالقرب من الخرطوم بصواريخ كروز. واستطاعت الجماعة الوطنية الإسلامية التابعة للترابي إقناع الحكومة بإعادة تطبيق الشريعة الإسلامية عام ١٩٩١ وإن كانت العقوبات لن تطبق أبدا في الولايات الجنوبية الثلاث. ولكن كانت النية واضحة.

واشتدت حدة الحرب الأهلية وازدادت عنفا وضراوة، كما ساد الانقسام بين الثوار بعد اكتشاف واستغلال البترول في مناطق الحدود المتنازع عليها بين الشمال والجنوب في ولاية بحر الغزال. وكان قد تأكد وجوده بكميات تجارية عام ١٩٨١ وإن أدت الاضطرابات إلى تأخير عملية الاستغلال الأمثل إلى نهاية التسعينيات. ورغب جيش تحرير شعب السودان وباقي الفئات المتحاربة في الجنوب أن يشمل أى اتفاق مقبل للتقسيم آبار البترول ولكن أصرت حكومة السودان على وحدة

السودان كله. كما أدت عملية إنشاء خط أنابيب بترول إلى البحر الأحمر إلى زيادة المنازعات والخلافات. ولذلك لجأت حكومة السودان كعادتها إلى وسائلها الوحشية لإعادة سيطرتها على مناطق إنتاج البترول فسلحت قبائل البقارة وباقي الجماعات للرعوية وحرضتها على الهجوم على المزارعين المستقرين الأمنيين. وانقسم جيش تحرير شعب السودان آنذاك إلى فئتين متنازعتين، وحاربت الفئة الأولى المكونة من قبائل الدنكا Denka الجنوبية الحكومة وكانت بقيادة جون جارانج من أجل الحصول على الاستقلال التام للجنوب. أما الفئة الأخرى فمن قبائل النوير بقيادة ريك ماشار Rich Mechar ودخلت في مفاوضات مع الحكومة السودانية. وبدأ تدفق البترول عام ١٩٩٩ مما أدى إلى زيادة دخل الحكومة كثيرا فزاد الإنفاق العسكري إلى أكثر من ضعفين. وبالرغم من سيطرة الحكومة السودانية على اقتصاد الجنوب إلا أن شركات البترول الأجنبية قد فضلت العمالة الجنوبية المتحدثة بالإنجليزية وليس بالعربية. ولذلك تكون الأوضاع في بداية الألفية الجديدة قد وصلت إلى نتيجة أن السودان سوف يظل دولة واحدة وأن على حكومة الخرطوم أن تتخلى عن خططها في أسلمة الجنوب وتعريبه، وأن تمنحه قدرا كبيرا من السيادة في شئونه الداخلية.

وبدأت محاولات عقد اتفاقيات سلام وانتهت. ولكن يبدو أن الاتفاق الذي تم التوصل إليه في نيروبي عام ٢٠٠٢ سوف ينجح، وتكون الحرب الأهلية السودانية آنذاك قد استمرت أربعة عقود وكلفت الجنوبيين أعدادا هائلة من القتلى والجرحى بالإضافة إلى الفوضى العارمة في نسيج الجنوب الاقتصادي والسياسي على السواء.

وظلت ليبيا تحت قيادة معمر القذافي أكثر الدول إثارة في شمال أفريقيا خلال عقد التسعينيات. وكان القذافي قد وجه اهتمامه إلى النزاع العربي الإسرائيلي خلال عقد الثمانينيات وقبل المهاجرين الفلسطينيين إلى ليبيا، كما قدم المساعدات المادية والمعنوية للإرهاب المعادي للأمريكيين عبر العالم كله. ولكنه غير اتجاهه

بعد ذلك وحاول إقامة علاقات اقتصادية أوثق مع إيطاليا وأن يمد نفوذه السياسى إلى أفريقيا جنوب الصحراء. ولم تمنع عقوبات الحظر الاقتصادى التى فرضتها الأمم المتحدة على الشركات الأجنبية العاملة فى ليبيا من أن تقوم مجموعة الطاقة الإيطالية العملاقة أجيپ AGIP من توقيع عقد استيراد ٨ بلايين متر مكعب من الغاز الطبيعى. ويشمل ذلك أيضا بناء خط أنابيب بترول تحت مياه البحر المتوسط بين البلدين. أما فى عام ١٩٩٩ فلقد اشترت ليبيا ٨ % من أسهم رأسمال بنك روما Banco di Roma الذى أعيد هيكلة آنذاك. أما التدخل الليبى جنوب الصحراء فكان قد بدأ بتأييد القذافى لعيدى أمين Idi Amin فى أوغندا (انظر فصل ٢١) كما ساند شمال تشاد الإسلامى فى نزاعه ضد حكومة الجنوب المسيحية والوثنية. كما قام القذافى فى بداية التسعينات بإمداد أمراء الحرب فى ليبيريا وسيراليون بالسلاح. ثم امتد نشاطه أكثر ناحية الجنوب فى نهاية التسعينيات. وبدأت شركة تامويل Tamoil الحكومية الليبية بإمداد زيمبابوى المفلسة تقريبا بالبترول عام ١٩٩٨ وحصلت ليبيا آنذاك على أسهم فى شركة خط أنابيب البترول التى تربط زيمبابوى بميناء بيرا Beira فى موزمبيق. وتم تحويل ملكية أصول أخرى إلى تامليل الليبية ويشمل ذلك السيطرة على بنوك وشركات سياحة فى زيمبابوى.

وسرعان ما امتدت اهتمامات القذافى إلى جنوب أفريقيا ذاتها. وقام نلسون مانديلا عام ١٩٩٩ بالتوسط بين الأمم المتحدة وليبيا بحل مشكلة حظر التجارة الذى فرضته تلك الهيئة الدولية. وتمت مكافأته بدعوة شركات جنوب أفريقيا للبدء فى التنقيب على البترول واكتشاف حقول جديدة فى ليبيا. ثم طالب القذافى خلال اجتماع منظمة الوحدة الأفريقية فى يوليو ١٩٩٩ بالإسراع فى خطوات الوحدة الأفريقية. وطالب بعد شهرين بتنفيذ مشروعه المفضل وهو إنشاء الولايات المتحدة الأفريقية. ورفض ضيوفه ذلك الأمر فى البداية ولكنهم أصدروا إعلانا يطالب بإنشاء منظمة أفريقية جديدة باسم الاتحاد الأفريقى بدلا من منظمة الوحدة الأفريقية السابقة، كما يقوم برلمان أفريقى مشترك بحكم الاتحاد الأفريقى الجديد. ورغب

القذافي أن تكون طرابلس عاصمة الاتحاد ولكن فضلت الأغلبية أن تكون أمانة المنظمة الجديدة في جوهانسبرج في جنوب أفريقيا.

الطريق الوعر للديمقراطية البرلمانية ١- غرب أفريقيا

وباستثناء الصراعات في ليبيريا وسيراليون فإن دول غرب أفريقيا الاستوائية قد خرجت من عقد التسعينيات أقوى وأكثر ديمقراطية عما كانت عليه في بداية العقد. واستجابت النخب السياسية والعسكرية الصغيرة التي تولت مقاليد الحكم منذ عصر الاستقلال لدعاوى الإصلاح الداخلية والخارجية. وتوفي معظم زعماء الاستقلال وأنصارهم أو تقاعدوا عن العمل العام تماما. وظهر جيل جديد من النخبين الأكثر ثقافة وتعلما عن الجيل السابق ويعيش نصفهم الآن في مدن كبيرة تشمل سكانا من أعراق مختلفة. وتعلم الجيل الجديد أن يفكر على المستوى الإقليمي إن لم يكن الوطني وأعطى صوته طبقا لذلك. واقتصر التعيين في الوظائف السياسية على فترات محددة بحيث يمكن تغييرها دون الحاجة إلى تدخل عسكري. وحدثت أهم تلك التغيرات في نهاية العقد فقط، أي بعد أربعين عاما من الحصول على الاستقلال السياسي.

ولذلك كانت السنغال الدولة الوحيدة في غرب أفريقيا التي تمتعت بتغييرين سلميين في الرئاسة. فلقد تولى ليدبولد سنجور طواعية عن رئاسته وتوجه للحياة في قصر في نورماندي في فرنسا عام ١٩٨٠. وهزم خليفته عبده ضيوف في انتخابات برلمانية عام ٢٠٠٠ حينما انتصر عبدولاي وادي Abdoalaye Wade وأنهى احتكار الحزب الاشتراكي الديمقراطي الطويل للسلطة. وتمت انتخابات أخرى عام ٢٠٠١ وأدت إلى تغيير الحزب الحاكم كله. وحدث تناوب بين الحكومات المدنية والعسكرية في غانا، ثم تلا ذلك الحكم الرئاسي الطويل لجيري

رولنج الذى بدأ بانقلاب عسكرى عام ١٩٨٠ ولكنه انتهى عام ٢٠٠٢ بعد هزيمته على أيدى جون كوتور John Kutuor والحزب الوطنى الجديد التابع له، وذلك بعد العديد من الانتخابات التى فاز بها فى الماضى.

وحكم رئيس جمهورية ساحل العاج فيكليس هوفويه بونيه Felix Houphouet - Boigny البلاد إلى وفاته عام ١٩٩٣ دون منازع. وبدأت الانتخابات المتعددة الأحزاب منذ عام ١٩٩٠ بعد ضغوط دولية عديدة. وخلف هوفويه رئيس الجمعية الوطنية طبقا للدستور وهو هنرى بيديه Henri Bedi الذى تدعمت رئاسته فى الانتخابات البرلمانية التالية عام ١٩٩٥، وذلك بعد منع أى مرشح غير مولود فى ساحل العاج من دخول الانتخابات. وكان السبب وراء ذلك أن مزارعى الكاكاو فى الجنوب قد استعانوا بموظفين وعمال من الدول المجاورة وبالذات من بوركينا فاسو وغانا وحتى مالى. وكان معظمهم من المسلمين الذين يمكنهم مساندة مسلمى الشمال فى الأمور السياسية والانتخابية. وتمت إزاحة بيديه Bedi عن الحكم بانقلاب عسكرى بقيادة الجنرال جويى Juei عام ١٩٩٩. ولكن اضطر الأخير وبعد ضغوط دولية عديدة إلى إجراء انتخابات عامة عام ٢٠٠٠ أدت إلى انتصار لوران جباكو (Laurent Jbakbo) قائد الجبهة الشعبية الأيثرية. وأصبح لوران أول رئيس للبلاد فى أول عملية نقل سلطة ديمقراطية بها. ولكن أدت المناورات السياسية لبيديه وخلفائه إلى إثارة غضب وحنق منطقة الشمال الأكثر فقرا، مما أدى إلى قيام المسلمين الشماليين وأنصارهم المهاجرين بثورة عارمة عام ٢٠٠٢. وتدخلت القوات الفرنسية لمنع تدهور الأحوال مثل ما حدث ليبيريا وسيراليون كما حاولت الحكومة الفرنسية عقد معاهدة صلح بين الأطراف المتحاربة وإن كنا لا نعرف ذلك وقت الكتابة. ولكن من الواضح تماما أن اندلاع العنف يثير مخاطر الحروب الدينية ليس فقط فى ساحل العاج بل أيضا فى البلاد المجاورة المشتركة كلها فى خاصية وجود المسلمين فى الشمال والمسيحيين فى الجنوب، أما فى بنين فإن حكومة ماثيو كريكو التى تولت السلطة فى انقلاب

عسكري عام ١٩٧٢ قد هزمت في الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠١ لصالح نيسفور سوغلو Nicephore Soglu. وكان سوغلو مديرا تنفيذيا في البنك الدولي مما أعطاه الخبرة الكافية لإزالة الجهاز الإداري البيروقراطي للدولة الماركسية السابقة. وتحولت بنين إلى دولة ديمقراطية كاملة لدرجة أنه قد أعيد انتخاب الرئيس الأسبق كيريكو Kerekou في انتخابات عام ١٩٩٦ بينما أصبح منافسه سوغلو رئيسا للوزراء.

وكانت نيجيريا طبقا لمساحتها الجغرافية وتنوع مواردها الطبيعية وعدد سكانها البالغ ١٢٠ مليون نسمة أهم دولة في غرب أفريقيا على الإطلاق. ولكن أدت تلك الأحوال ذاتها إلى خضوعها للحكم العسكري أكثر من أي بلد آخر. وكون الرئيس بابا نجيدا Babangida الذي تولى الحكم في نيجيريا عام ١٩٨٥ من الحكومة العسكرية السابقة غير المحبوبة على الإطلاق لجنة انتخابية قومية للإشراف على الانتقال إلى الحكم المدني عام ١٩٩٥. ولكن ألغت الحكومة نتائج العديد من الانتخابات قبل أن ينتصر الرئيس أو الزعيم مسعود أبيولا Moshhood Abiola من الحزب الديمقراطي الاشتراكي في الانتخابات الرئاسية في يونيو ١٩٩٣ بأغلبية أصوات الولايات. ورفضت الحكومة العسكرية قبول انتصار أبيولا. ولكن أقصى بابا نجيدا عن الحكم في نهاية الأمر بعد سلسلة من المظاهرات والاضطرابات، وتم تعيين أحد المدنيين غير المنتخبين. وعاد أبيولا من زيارة إلى بريطانيا واستقبل استقبال الأبطال وقام وزير دفاع بابا نجيدا الجنرال ساني أباشا Sani Abacha بانقلاب عسكري سلمى وأعاد الحكم العسكري. ثم أصدر الرئيس بيانات عديدة حول الانتقال إلى الحكم المدني بعد أن واجه تهديدات بانقلابات أخرى وفوضى اقتصادية عارمة بسبب إضرابات عمال صناعة البترول. ولذلك أحكمت الحكومة قبضتها على السلطة. وتم القبض على الرئيس القادم أبيولا ووضع في الحبس الانفرادي إلى وفاته بعد أربعة أعوام. وشهد العام نفسه زيادة حدة الحملة الشعواء لشعب الأوجوني Ogoni المطالب بالتعويض من شركة شل

للبنترول للأضرار البيئية التي سببتها لوطنه. ووصل العنف في بلاد الأوجوني إلى ذروته في شهر مايو ١٩٩٤ حينما قامت قوة الأمن الداخلي الحكومية بالقبض على كن سارو- ويرو Ken Saro- Wiro ورفاقه. وتمت محاكمة سارو- ويرو وخمسة من رفاقه في النضال بواسطة محكمة عسكرية، وصدر الحكم عليهم وأعدموا في نوفمبر ١٩٩٥، مما أدى إلى إيقاف عضوية نيجيريا في منظمة الكومونولث. وبعد قضائه على كل أنواع المعارضة لحكمه عمل أباشا على نهب الدخل العام للبلاد وبالذات الدخل الوارد من إيرادات البنترول بالعملة الصعبة. وتوفي أباشا بطريقة غامضة في يونيو عام ١٩٩٨، ووجدت التحقيقات اللاحقة أنه قد أودع مع عائلته أكثر من ثلاثة بلايين دولار في حسابات بنكية في الخارج.

وبعد فترة بسيطة من الإدارة المؤقتة بواسطة الجيش تم الإعلان عن العودة إلى الحكم المدني، وفاز أوليسجون أوباسنجو Olesegon Obasango وهو أحد الجنرالات المتقاعدين بالانتخابات. وكان أوباسنجو الحاكم العسكري للبلاد- بالرغم منه- من ١٩٧٦ إلى ١٩٧٩ قبل عودة البلاد إلى الحكم المدني الذي لم يستمر كثيرا. وكان أوباسنجو من شعب اليوروبا Yoruba ومسيحيا، ولذلك واجه مشكلة معقدة وهي فرض سلطته على الأغلبية المسلمة في الشمال الفقير. وأعلنت ولايات زمفارا Zamfara ثم النيجر وبورنو Borno في نهاية عام ١٩٩٩، ثم تلتها ولاية كانو Kano الكبيرة المتعددة الأعراق نيتها ورغبتها في تطبيق الشريعة الإسلامية وعقوباتها التي تصل إلى بتر الأعضاء والجلد (انظر خريطة ٢٨). وتصرف السياسيون المحليون كذلك نظرا لعدم وجود أية برامج اقتصادية واجتماعية واستخدموا الشريعة كوسيلة سهلة لكسب تأييد السكان الذين عانوا من أعوام طويلة من الإحباط والفساد، وأكثر من أي شيء آخر فقدان الأمل في الحياة. ولذلك وفي العام الأول من الألفية الجديدة طبقت إحدى عشرة ولاية من الولايات النيجيرية الستة والثلاثين الشريعة الإسلامية. وذكر الزعماء الإسلاميون أن تطبيق الشريعة لن يؤثر على غير المسلمين، ولكن أدى ذلك إلى منع الخمور ودور العرض

السينمائية والجمع بين الجنسين في معظم مجالات الحياة، مما أثر بالتأكيد على الجميع. ولذلك نشبت أعمال الشغب بسبب الكراهية الدينية في الشمال والجنوب بالإضافة إلى العنف المتزايد المصاحب لاستغلال البترول في الجنوب الشرقي قد أدت كلها إلى إضعاف حكم أوباسنجو. ولكن نكر تقرير إحدى المنظمات الاقتصادية الدولية أن الوضع الاقتصادي لعام ٢٠٠١/٢٠٠٢ قد كان إيجابيا إلى حد ما نظرا لإعادة حكم القانون، وأن المحاكم تطبق حقوق الإنسان الأساسية ويشمل ذلك حرية التعبير والمشاركة، وأن وسائل الإعلام المستقلة قد استعادت حريتها ونشاطها وحيويتها. ولكن ضعف هذا التقدير المتفائل بانخفاض دخل الفرد في البلاد من ١٦٠٠ دولار سنويا عام ١٩٨٠ (عام "الميزانية الضخمة" للرئيس شاجارى Shagari إلى ٢٧٠ دولار فقط عام ٢٠٠٠، مما أنزل نيجيريا إلى مرتبة دولة من أفقر ٢٠ دولة في العالم. وعقدت انتخابات تشريعية ورئاسية في شهر أبريل ٢٠٠٣ والتي إذا ما وصلت إلى نتيجة دستورية ملائمة فإنها ستكون لأول مرة منذ استقلال البلاد عام ١٩٦٠ أن تنتقل السلطة من إدارة مدنية لأخرى بسلام دون تدخل الجيش. وكان الأخير قد حكم البلاد لمدة ثلاثين عاما من الثلاثة وأربعين عاما كدولة ذات سيادة. وأعيد انتخاب أوباسنجو وإن كان ذلك في انتخابات مشكوك بها.

٢ - شرق وجنوب شرق أفريقيا

وعاشت بلاد شرق وجنوب أفريقيا خلال عقد التسعينيات بدون اضطرابات خطيرة باستثناء حالة أو حالتين. وفي أوغندا سادت فترة طويلة من الرعب بواسطة طغاة فاسدين من منطقة الشمال الأقل تطورا من أيام ملتون أوبوتى Melton Obota عام ١٩٦٦ واستمرت في عهد عيى أمين من ١٩٧١ إلى ١٩٧٩ وعادت من جديد أثناء عصر الحكم الثانى لأوبوتى فيما بين ١٩٨٠

و ١٩٨٥. ولكن حلت محلها حكومة يويرى موسيفينى Yoweri Musveni وحركة المقاومة القومية المناسبة له وهى أفضل بكثير عن نظام الحكم السابق. وتخلت حركة المقاومة القومية National Resistance Movement تدريجيا عن صيغتها العسكرية، وأبدت اهتماما بحقوق الإنسان وحكم القانون وإن استمرت فى منع تكوين الأحزاب المنافسة. ولكن عقدت انتخابات عام ١٩٩٥ بالانتخاب العام المباشر لإنشاء مجلس تشريعى الذى يكون أعضاؤه من الأفراد وليسوا من أعضاء الحزب ولكن مع إمكانية اشتراك رؤساء الأحزاب فى الانتخابات. وأدى ذلك إلى إجراء انتخابات رئاسية عام ٢٠٠١ وفاز موسيفينى ولكن مع وجود فترة حكم أنقى: فترتان كلاهما خمسة أعوام. واستمر الجيش دائما فى حالة نشاط لردع أعمال التوغل داخل الحدود التى تثيرها الحكومة السودانية فى شمال أوغندا، وأيضا توغل قوات أوغندا ذاتها فى شرق الكونغو. وأبدت حكومة الخرطوم جيش مقاومة محددة Lord's Resistance Army (LRS) والمكون من محاربين من الأطفال الذين تدرب معظمهم فى معسكرات داخل الحدود السودانية. وكان زعيم تلك الحركة هو جوزيف كونى Joseph Kuny أحد الشباب الكنسيين الكاثوليك سابقا والذى أدعى أن الرب قد اختاره للقضاء على الحكومة "الشيطنانية" ليويرى موسيفينى وإحلال الوصايا العشر كدستور للبلاد. وبدأ كونى عصر إرهاب فى أجزاء من شمال أوغندا عام ١٩٩٤، واستمر ذلك فترة من الزمن، ولكن عادت الحياة السياسية تدريجيا لمعظم أوغندا واستعادت البلاد عافيتها من الدمار والتدمير من أعوام حكم أمين وأبوتى. وكانت أوغندا، حالة استثنائية فى أفريقيا جنوب الصحراء إذ استطاعت تخفيض نسبة الإصابة بالإيدز إلى ٢%.

واستمرت الأحزاب المسيطرة على الحكم منذ بداية عقد الستينيات فى حكم كينيا وتانزانيا ولكن بنتائج مختلفة تماما. وكان الحزب القومى الأفريقى الكينى Kenya Africa National Union (KANU) حزب الصفوة الحضرية المكونة من محامين وكبار موظفى الدولة وضباط الجيش والشرطة ورجال الأعمال الذين

أثروا جميعا كملاك وزعماء لطبقة متوسطة من الحرفيين والتجار والقائمين بأعمال النقل المقيمين في نيروبي وممباسا وكيسومو Kisumu وذلك في عصر الحكم الطويل للرئيس دانييل أراب موي Daniel Arap Moi وقبله جومو كينياتا Jomo Kenyata. وكانت صفوة منتجة وحيوية وإن شابها الفساد وعدم الرغبة في النقد وبالذات في أوقات الانتخابات. وحينما انسحب موي من الرئاسة بعد أربعة وعشرين عاما هزم حزب كانو في الانتخابات العامة بواسطة حزب جديد يدعى تحالف قوس قزح القومي National Rainbow Coalition الذي كونه نائب الرئيس موي كيباكي Mwai Kibaki البالغ من العمر خمسة وسبعين عاما. وتولى كيباكي الرئاسة بدلا من مرشح قوى لهذا المنصب. واستمرت تانزانيا طوال عقد التسعينيات في التخلي تدريجيا عن السياسات الداعية للمساواة التي طبقها جوليس نيريري قبل اعتزاله الرئاسة. وكانت تلك السياسات كارثة اقتصادية وإن كانت صالحة أخلاقيا. ولذلك قبل خليفته على حسن موميني Ali Hassan Muminyi بسرعة نصائح صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وقام بتعويم العملة ومركزية الإشراف الحكومي وخصص العديد من المؤسسات العامة. ودخل مفهوم تعدد الأحزاب إلى الحياة عام ١٩٩١، وإن لم يطبق عمليا إلا عام ١٩٩٥، حينما تم انتخاب رئيس الحزب الواحد السابق بن ماكيبا Ben Makapa رئيسا للجمهورية بأغلبية قليلة وظلت تانزانيا دولة فقيرة للغاية فخورة بنفسها وبإحساس قوى بكيانها وشخصيتها القومية. وتدعم ذلك باستمرار فاعلية وانتشار لغة الكيسواهيلى كلغة أفريقية مشتركة والتي يتم تعليمها في المدارس ويتكلمها معظم السكان.

أما في وسط وجنوب أفريقيا فإن عقد التسعينيات قد شاهد انتهاء عصر رئاستين استمرت منذ عصر الاستقلال عام ١٩٦٤. وهزم حزب كينيث كاوندا وهو حزب الإتحاد القومي في انتخابات عام ١٩٩١. وانتصرت الحركة الديمقراطية المتعددة الأحزاب، وهو تحالف بين حوالي ثلاثين حزبا صغيرا قام بجمع عملهم فريدريك شيلوبا Frederick Cheluba وهو أحد زعماء نقابات العمال في منطقة

حزام النحاس. وغير شيلوبا نظام الحكم كله وأحل محله الديمقراطية البرلمانية بدلا من حكم كاوندال الاستبدادي. وبدأ فعلا في مواجهة المشكلة الاقتصادية الرئيسية في البلاد وهي انهيار أسعار النحاس إلى النصف مما أدى إلى انهيار قيمة صادرات زامبيا إلى النصف أيضا. واستمر شيلوبا في سياسة التطهير والتخصيص واستطاع فعلا موازنة الميزانية وإن أدى ذلك إلى ضعف شعبيته بطريقة هائلة مما أدى إلى انهيار تحالفه الحاكم في نهاية الأمر. وانتصر أحد أنصاره وهو ليفي مواناواسا Levy Mwanawasa في انتخابات الرئاسة عام ٢٠٠١ وبدأ إجراءات محاكمة شيلوبا بتهمة الفساد مثلما فعل الأخير قبل ذلك مع كاوندال في الماضي. أما مالاوي فلقد تحولت إلى دولة بوليسية بائسة في أواخر حكم هاستنج، ولكن تم إرغام الطاغية العجوز على التقاعد عام ١٩٩٤ بعد أن قبل رغما عنه مبدأ الانتخابات المتعددة الأحزاب في العام السابق. وأعادت انتخابات عام ١٩٩٤ الجبهة الديمقراطية المتحدة إلى الحكم برئاسة باليكي مولوزي Baliki Muluzi أحد وزراء باندال السابقين والذي تولى رئاسة الجمهورية.

وكانت الدولة الناجحة دون شك هي موزمبيق التي دخلت عقد التسعينيات كمنطقة كوارث حربية. وقاّلت حكومة الفرملينو Fremlino الماركسية بقيادة جوزيف شيسانو Joseph Chissano ضد مقاومة مسلحة متعددة الأعراق (المعروفة باسمها المختصر Renamo) المسلحة والمدعمة من شرطة جنوب أفريقيا السرية إلى أن تولت حكومة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي زمام السلطة هناك عام ١٩٩٤. وساد الخراب في موزمبيق لدرجة أن ١,٥ مليونا من اللاجئين قد هربوا إلى مالاوي وزامبيا وزيمبابوي من عدد السكان الكلي البالغ ١٦ مليونا. كما غادر ثلاثة ملايين آخرين ديارهم للإقامة في الأحياء الآمنة للمدن الساحلية في مابوتو وببيرا ونوفا سوفالا (Nova Sofala). وقامت الحكومة الإيطالية بعدة محاولات فاشلة بعقد اتفاق سلام بين الأطراف المتحاربة في روما عام ١٩٩٢. وعقدت انتخابات تحت إشراف الأمم المتحدة عام ١٩٩٤ وبالرغم من موافقة

رينامو على انتصار فرملينو فإن السلام الهش قد استمر وازدهر. وكان لشيسانو علاقات مميزة مع نلسون مانديلا وثابو مبيكي Thabo Mbeki في جنوب أفريقيا المجاورة. وانضم إلى منظمة الكومونولث البريطانية عام ١٩٩٥ بناء على اقتراحها. واستعادت موزمبيق عافيتها الاقتصادية كثيرا خلال الأعوام القليلة التالية من ويلات الحرب الأهلية. وظهرت حتى هجرة الناس من الريف إلى المدن كعامل إيجابي إذ تمت زراعة الأراضي الزراعية الخالية بالأساليب الزراعية الحديثة. وكون سكان المدن الجدد قوة عمل ملائمة للصناعات الجديدة التي أقامت شركات استثمارية أجنبية في بلد مستقر. وكان يمكن لتلك الصناعة الجديدة الاستفادة بطريقة أكثر ملاءمة إذا ما استطاعت موزمبيق الاستفادة من الطاقة الكهربائية لسد كابور باسا الهائل (انظر فصل ١٩). ولكن وبناء على اتفاق تم توقيعه عام ١٩٨٤ بين البرتغال وجنوب أفريقيا وموزمبيق فإن الشركة مرغمة على بيع إنتاجها من الطاقة إلى جنوب أفريقيا بأسعار منخفضة للغاية إلى عام ٢٠٣٠. ثم تعيد موزمبيق شراء طاقاتها الخاصة من جنوب أفريقيا بعشرة أضعاف السعر.

٣- جنوب أفريقيا

وازداد العنف المدني في أفريقيا في جنوب نهر الزامبيزي في زيمبابوي حيث استمر حكم روبرت موجابي منذ عام ١٩٨٠. وازدادت دكتاتورية حكمه خلال التسعينيات، واستعان بكل وسائل الحكم البوليسي ومنها على سبيل المثال لا الحصر: إساءة استخدام الشرطة، التدخل في أعمال السلطة القضائية، كبت حرية الصحافة وطرد الصحفيين الأجانب. وكان الموضوع الرئيسي هو ملكية الأرض الزراعية في البلاد؛ إذ تمتلك حفنة من المزارعين البيض نصف أراضي البلاد وأكثرها خصوبة، واستخدمت تلك الأراضي لزراعة المحاصيل النقدية وبالذات الشعير والطباق. أما قوة العمل الزراعية فلقد تكونت أساسا من مهاجرين من

موزمبيق المجاورة، إذ أن سكان زيمبابوى الريفيين قد هجروا أراضيهم الزراعية الفقيرة من فترة طويلة للعمل فى المناجم والصناعة والنقل والخدمات السياحية فى اقتصاد حضرى متنوع للغاية. ورغب موجابى فى استخدام مزارع المزارعين البيض كمكافأة لأنصاره السياسيين ولذلك صرح منذ بداية عام ١٩٩٧ لجماعات من الأوغاد واللصوص أن يهاجموا تلك المزارع والاستيلاء عليها عنوة. وآلت تلك المزارع بعد ذلك إلى أعضاء شباب عاطلين من حزب زانو الحاكم والذين ليس لديهم أدنى دراية بأعمال الزراعة الاقتصادية، كما لا يمتلكون أبدا رأسمال لتشغيل المزارع بكفاءة واقتدار. وكانت النتيجة كارثة؛ إذ انتشرت الأزمات الغذائية وزاد معدل التضخم نتيجة للاستيلاء على أراضي البيض بالذات. وعانى سكان المدن كثيرا مما أدى إلى زيادة المعارضة السياسية بينهم والتفافهم حول حركة التغيير الديمقراطي Movement In Democratic Change بقيادة مورجان تسافنجيرى Morgan Tsvangirai. وشوهدت انتخابات عام ٢٠٠٠ كثيرا نظرا لزيادة "عنف" والتهديد الحكوميين، كما تكرر ذلك فى الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٢ حيث عاد روبرت موجابى رئيسا للمرة الخامسة.

وأدى تدهور الأوضاع الخطير فى زيمبابوى إلى ردود فعل فى جنوب أفريقيا المجاورة؛ حيث تعرض اقتصاد أكبر وأقوى بكثير إلى أخطاء محتملة ناشئة من التفاوت الهائل فى تقسيم الثروة حيث يسيطر المزارعون البيض على ٨٧% من الأراضي الزراعية. وأظهرت حكومة المؤتمر القومى الأفريقى لجنوب أفريقيا اعتدالا كبيرا فى برنامج التطور وإعادة البناء الذى بدأ عام ١٩٩٤ والذى قرر إعادة ٣٠% فقط من الأراضي الزراعية إلى الملكية الأفريقية خلال خمسة أعوام. ووصلت نسبة سكان المدن فى ذلك التاريخ إلى ٧٠% من السكان، ولذلك ربما كان ذلك هدفا موضوعيا على أساس التعويض العادل للملاك السابقين. ولكن بقى الخطر أن يتولى الفقراء المعدومون القانون بأيدهم، وتتطور الأمور إلى الأسوأ مثلما حدث فى زيمبابوى المجاورة. ويمكن أن يتأثر الاستثمار الخارجى القادم من

العالم المتقدم ويهرب المستثمرون من المخاطر المختلفة، مع العلم أن تجارة جنوب أفريقيا الخارجية هي مع أكثر بلاد العالم نموا وتطورا. وغضب العالم الخارجى من الرئيس مبيكى الذى تولى السلطة بعد نلسون مانديلا فى يونيو ١٩٩٩ لعدم إدانته لموجابى. ولكن كان ذلك نصف الصورة فقط أما النصف الآخر فيتعلق بسياسة مبيكى القائلة بأن على أفريقيا أن تحل مشاكلها بنفسها. وبلغ عدد سكان جنوب أفريقيا ٤٣ مليونا والدخل السنوى للفرد ٢٦٥٠ دولارا، كما امتاز جيشها وبحريتها وسلاحها الجوى بالكفاءة وحسن التدريب وتدعمهم صناعة وطنية قادرة قوية. ولذلك تمتعت جنوب أفريقيا بموقع الصدارة فى القارة مع ليبيا ونيجيريا. وعملت بهمة ونشاط لعقد السلام بين جمهورية الكونغو الديمقراطية الشعبية وجميعها من زيمبابوى ورواندا وأوغندا. وأصبحت أيضا العضو الرئيسى فى مجموعة تطور وتنمية أفريقيا الجنوبية والمحرك الرئيسى للشراكة الجديدة فى التطور الأفريقى. كما أصبحت مقرا للاتحاد الأفريقى الجديد ولا يمكنها بالتالى نقد أى عضو من أعضائه علنا.

الخاتمة

لقد قمنا باستعراض أحداث منطقة بعد أخرى خلال عقد التسعينيات. ولذلك يمكن أن ننهي موضوعنا بعرض عام للعوامل الرئيسية الخاصة بالقارة الأفريقية ككل مثلما تظهر واضحة جلية في نهاية هذا العقد. وفي البداية وبالرغم من أعداد الوفيات الكبيرة من وباء الإيدز وباقي الأمراض القاتلة فإن معدل زيادة سكان القارة الأفريقية قد بلغ ٢,٤ % سنويا. وبلغت نسبة سكان أفريقيا من سكان العالم عام ١٩٠٠ حوالى ٤,٥ بالمائة فقط، وارتفعت تلك النسبة عام ٢٠٠٠ إلى ١٠٠ % من إجمالي عدد سكان العالم البالغ ستة بلايين نسمة. وأصبح سكان القارة من أفقر الناس فى العالم. فلقد بلغ دخل الفرد فى الولايات المتحدة ٣٤,١٠٠ دولار سنويا، ودخل الفرد فى المملكة المتحدة ٢٤,٤٣٠ دولار، أما فى "أغنى" الدول الأفريقية وهى ليبيا فنظرا لثروتها البترولية وعدد سكانها القليل حوالى ٧٦٤٠ دولار، سنويا فقط بينما بلغ الدخل السنوى فى جنوب أفريقيا ٢٦٢٠ دولارا ومصر ١٤٩٠ دولارا فقط لا غير. ولكن من ناحية أخرى فإن تسعة من عشرة فى أكثر الدول الأفريقية فقرا يعيشون على أقل من دولارين فى اليوم بينما يكافح ثلثى السكان للبقاء على قيد الحياة بأقل من دولار واحد يوميا.

وغير عامل نزوح السكان إلى المدن خلال عقد التسعينات نظام الحكم والمجتمع كله فى معظم البلاد الأفريقية. ويمكن أن تبدو أفقر الأحياء فى المدن الأفريقية بائسة للغاية للمسافر العابر إلا أن سكانها يرونها أفضل بكثير من المناطق الريفية التى لا يوجد بها كهرباء أصلا ولا مياه صالحة للشرب أو صرف صحى، وحيث تتم الحياة أثناء النهار فقط وينتهى كل شىء بحلول الليل. ويمكن أن تبدأ ضواحي المدن الأفريقية كمساكن من صفيح شيدها سكانها بأيديهم، ولكن سرعان ما ستكتشف السلطات البلدية أنه يجب إضاعتها، ومدها بالمياه والصرف

الصحي ثم رصفها وتنظيمها وربطها بالطرق لصالح سكان المدن الأغنياء أساسا. ثم سرعان أيضا ما ستقوم الدولة ببناء المدارس والمستشفيات في تلك الضواحي الجديدة. ولكن المشكلة أنه ما تكاد الدولة تقوم بإصلاح ضاحية عشوائية حتى تكون ضاحيتان أو ثلاث قد نمت بجوارها. ولذلك فإن زيادة عدد سكان المدن رهينة فعلا، إذ توجد الآن عشرون مدينة يزيد سكانها عن المليون نسمة. وأصبحت لاجوس أكبر مدن القارة الأفريقية بأكثر من ١٠ ملايين نسمة وازداد عدد سكانها عن القاهرة ذات الـ ٩,٦ مليون. أما الثالثة فهي كينشاسا بـ ٤,٦ مليون نسمة. ويتضاعف عدد سكان العالم في القارة في معظم الدول الأفريقية كل ٢٠ عاما بينما يتضاعف سكان المدن كل عشرة أعوام فقط. وكان السبب أن المدن تحظى بالرعاية والأولوية المطلقة من جانب الدولة لكل الخدمات الحكومية وإلا لقامت أعمال شغب وجرائم عنف بالإضافة إلى انتشار الأمراض والأوبئة. وبعكس المفهوم السائد فإن معظم النازحين إلى المدن لا يأتون أبدا من أكثر المناطق فقرا بل من المناطق المجاورة لتلك المدن مباشرة. وتتمتع تلك المناطق برخاء نسبي لزراعتها الطعام الذي تحتاج إليه المدن المجاورة. وتستفيد كذلك من استخداماتها لخدمات المدن في التعليم والرعاية الطبية وبالذات كونها مصدرا للعمالة في أوقات ذروة عمل الدورة الزراعية. وهكذا يمكن الاحتفاظ بمزرعة العائلة للجيل الأقدم للإقامة بعد الإحالة إلى التقاعد مع الحصول على بعض المساعدة الموسمية من جيل الشباب المقيم في المدن.

ويوجد أفقر فقراء القارة الأفريقية بالعكس في أكثر المناطق النائية. وهنا تغيب رعاية الدولة لاهتمامها بالذات بسكان المدن الحضرية وتترك تلك المناطق بحالها البائس. وتظل الطرق غير ممهدة ودون إصلاح والمستشفيات والمستوصفات دون أدوية والمدارس دون كتب وأقلام أو أوراق. ويظل الناس دون حماية الشرطة أو الجيش من هجمات قطاع الطرق والجيوش الخاصة القائمة بالسلب والنهب والرعاة المتنقلين الباحثين عن مراعى أكبر وأفضل. ولذلك كان

العديد من أفقر فقراء أفريقيا شبه لاجئين دائمين وهربوا من ميادين القتال فى بلادهم الأصلية، واستقروا عند المناطق الحدودية لدولة مجاورة. ونذكر منها مناطق حدود مالاوى المجاورة لموزمبيق، والمناطق الشمالية الغربية لتانزانيا بجوار بوروندى ورواندا، ومنها أيضا المناطق الجنوبية لبوركينا فاسو وغينيا ومالى المجاورة لليبيريا وسيراليون. كما توجد أماكن لا تسود بها سلطة الدولة على الإطلاق، وحيث تكون السيارات والمركبات المسافرة على الطرق الوعرة هى فقط تلك التابعة لمنظمات الإغاثة للعالم المتقزم. وتصور تلك الوكالات مناظر البؤس والفقر للاطمئنان على المرضى والأمهات الجائعات من أجل الحصول على تبرعات إضافية للإغاثة. ولذلك خلق ذلك الأمر صورة لأفريقيا يسود بها العنف والجوع والفقر والمرض.

ويعتبر وباء الإيدز أكبر كارثة تهدد أمن واستقرار القارة ويزداد فى مناطقها الجنوبية والشرقية ويقل فى البلاد الإسلامية القديمة شمال الصحراء. ومرض أكثر من ٢٨ مليون أفريقيا بالإيدز وتوفى ٢,٣ مليوناً من ذلك المرض قبل ذلك. وتقدر نسبة الإصابة فى بعض الدول الأفريقية بـ ٤٠ % من السكان والذين سيموتون معظمهم فى الثلاثينيات أو الأربعينيات من عمرهم ولكن بعد أن يكونوا قد نقلوا المرض إلى أبنائهم. وسوف يشب هؤلاء كأيام حينما يكونون فى سن المراهقة أو قبل ذلك، وتقع أعباء إعاشتهم على أجدادهم أو أقاربهم المسنين. ويبلغ عدد سكان دولة بوتسوانا ١,٦ مليون نسمة منهم ٦٠٠,٠٠٠ مصابون بفيروس الإيدز عام ٢٠٠٢. ولذلك هبط احتمال سن الحياة من اثنين وستين عاماً فى ثمانينيات القرن الماضى إلى سبعة وثلاثين عاماً اليوم. ويحدث ذلك فى دولة من أغنى الدول الأفريقية وأكثرها نظاماً واستقراراً، وحيث يفوق دخل فرداها السنوى نظيره فى جنوب أفريقيا الكبيرة وحيث تسود المجانية حتى فى التعليم الجامعى والعناية الصحية أيضاً. وتبلغ نسبة الإيدز بين شابات تسوانا Tswana البالغات من العمر ١٥ إلى ١٩ عاماً ٢٨ % فى بعض المناطق، أى أكثر من ضعف نسبة إصابة

الفتيان مما يؤدي إلى أخطار هائلة لمستقبل البلد الاقتصادي بل ولتوالى الأجيال أيضا. ويعتقد أن السبب يعود إلى الاتصالات الجنسية بين رجال بالغين وفتيات أصغر منهم بكثير اعتقادا منهم أن احتمال إصابتهن بالمرض قليل للغاية. ويحدث ذلك للأسف بين المدرسين وطالباتهن الإناث.

أما في جنوب أفريقيا المجاورة البالغ عدد سكانها ٤٣ مليونا فإن الوضع بها مأساوي أيضا لكون ٢٠ % من البالغين من أعمار ١٥ إلى ٤٩ مصابين بالفيروس. كما أن احتمال حياتهم سوف ينخفض من ٦٥,٨ إلى ٤٧,٨ عاما فقط عام ٢٠٠٥. ويذكر أن أسباب ذلك تعود إلى الهجرة الموسمية في أعمال الزراعة والتعدين مما يؤدي إلى حدوث علاقات جنسية عابرة. أما في زيمبابوي المجاورة فإن احتمال الحياة سوف ينخفض من ٦٦,٥ عاما إلى ٤٢,٩ عام ٢٠٠٣. وازدادت نسبة المرض بين المدرسين والعاملين في مجال الصحة بالذات. أما في الشمال في تانزانيا وكينيا فإن الإيدز قد انتشر بين الرجال الأثرياء في المدن والعاشرات اللاتي يعاشرونهم بالإضافة إلى الأطفال الذين تحتاج أعمالهم إلى السفر والترحال مثل أعمال النقل. وكان رد فعل المسؤولين في البلاد الأفريقية والهيئات الدولية مثل هيئة الصحة العالمية تجاه ذلك الوباء القاتل هو الإنكار والحيلة الشديدة لمدة طويلة. ولكن اتخذت إجراءات فعالة بعد ذلك تدريجيا لوقف ذلك الوباء القاتل، وتعهد رئيس بوتسوانا فستوس موجاي Festus Mogai بوضع كل موارد الدولة ومنظمات الإغاثة ومنها شركات الأدوية الكبرى، وبيل جيتس Bill Gates من مايكروسوفت للقضاء على الوباء. وكانت بوتسوانا أول دولة أفريقية تمنح أدوية لمن يحتاج إليها من المصابين وإن كانت جارتها الكبيرة جنوب أفريقيا قد رفضت ذلك الأمر لأسباب أيديولوجية.

وكانت أكبر معضلة تواجه معظم الدول الأفريقية هي تلك الجحافل الكبرى من الموارد البشرية المتنامية - رجال ونساء في سن ما قبل العشرين والعشرينات والثلاثينات والذين يجب أن يكونوا القوة المحركة للتطور الاقتصادي، ولكنهم

مرضوا جميعا بالإيدز أو بأمراض أخرى قاتلة مثل الملاريا والسل. ففي زامبيا مثلا قتل الإيدز عددا من المدرسين يوازي عدد خريجي كلية التربية سنويا. ويهدد ذلك الآن القارة كلها بتخلفها في الاشتراك في السباق الخاص بعصر ثورة المعلومات الجديد. وامتلكت أوروبا عام ٢٠٠٠ من أجهزة التليفون ٢٠٤ تليفونات لكل ألف فرد بينما كان نصيب أفريقيا جنوب الصحراء ١٦ جهازا لكل ١٠٠٠ فرد فقط. ووجدت عشرة ملايين جهاز تليفون في القارة كلها ولكن نصفها في جنوب أفريقيا كما أن الباقي كان موزعا على مسافات بعيدة لدرجة أن معظم الأفريقيين يحتاجون لساعتين للوصول إلى أقرب جهاز. ولا يوجد إلا ٢,٣ جهاز إنترنت لخدمة ١٠,٠٠٠ شخص في أفريقيا جنوب الصحراء بينما امتلكت أمريكا اللاتينية ومنطقة الكاريبي ضعف هذا العدد. ورأى أحد الخبراء في الاقتصاديات النامية أن نقص البنية الأساسية في أفريقيا والضرورة الملحة للانضمام إلى الشبكة العالمية قد يجعل من المستحيل وجود نظام متكامل لتطور القارة كلها. ولكن يعتبر هذا التشاؤم القاتم، وإن كان سائدا بين العديد من المعلقين الأجانب، أمرا مبالغا به للغاية، وربما يتميز بالخطأ أيضا، وإذا نظرنا من وجهة نظر المجتمعات الحضرية وشبه الحضرية في أفريقيا كلها فإن النتيجة لن تكون قاتمة لهذا الحد وأن الإحصائيات المتشائمة قد تكون قد ضلت طريقها فعلا. ولكن كان العكس صحيحا إذ أن في متناول معظم الأفريقيين الاتصال بشبكة الاتصال العالمية، وإن كان ذلك بطريقة جماعية وطبقا للأحوال وأن العدد المتصل الحقيقي ما زال صغيرا فعلا. ولكن يبدو أن الأعوام الأولى من الألفية الجديدة قد شهدت فعلا نموا هائلا في أعداد الهواتف المحمولة حتى في الدول التي تسود بها الحروب مثل جمهورية الكونغو الديمقراطية؛ حيث تتفاوض الحكومة مع شركات الاتصالات الدولية لبناء البنية التحتية وعملية الإمداد بالهواتف بأسعار معقولة. وبالتالي بدأت أعداد الناس الذين يمتلكون - أو على الأقل الذين يمكنهم الوصول إلى - الكمبيوتر في الارتفاع التدريجي، كما ازدادت أعداد المدارس والكلية التي تدرس تكنولوجيا المعلومات.

وقامت هيئة الاتصالات المغربية على سبيل المثال بتغيير شكل الاتصالات فى البلاد كلها وبسرعة فائقة. فلقد ازداد عدد ملاك الهاتف المحمول من ١٥٠,٠٠٠ مشترك عام ١٩٩٩ إلى أكثر من ٤ ملايين عام ٢٠٠٢ أى فى فترة ثلاثة أعوام فقط. وازدادت أيضا قدرة هؤلاء الناس على استخدام وسائل الاتصالات الكبرى مثل الإنترنت والبرود باند Broad band.

وحيثما كتب بول ريتشارد كتاباته البليغة عن الحرب الأهلية فى سيراليون فإنه قد وصف شباب البلاد الذين لعب الكثير منهم دورا بارزا وشريرا فى القتال أنهم لم يقعوا أبدا فريسة لمصيدة الفقر والتخلف والحرمان، ولكنهم انضموا فعلا إلى تلك الحضارة النابضة الموجودة عبر الأطلنطى. فلقد شاهدوا باستمرار أفلام السينما والفيديو وأفلام الحرب ورامبو والعميل جيمس بوند وأفلام الكونج فو وهى أفلامهم المفضلة. كما يستمع ٨٠ % من الناس فى دراسة ريتشارد إلى المذياع. واتجه الكثيرون فعلا إلى محطات الـ FM الشعبية الجديدة، ولكن ظل عديدون يهتمون بإذاعات الموجات المتوسطة الأقدم التى تقدم الأخبار والتعليق والأخبار الاقتصادية والاجتماعية. ويستمع الناس وبأغلبية ساحقة للبرنامج الأفريقى لهيئة الإذاعة البريطانية. وبالرغم من أن عينة البحث الريفية كانت صغيرة إلا أن الأرقام تدل على أن العزلة المقترحة لسكان القرى وغير المتعلمين كانت نسبية فقط. أما فى السنغال عام ٢٠٠٢ مثل فى معظم البلاد الأفريقية الأخرى فإن الجميع كانوا يشاهدون أو يستمعون إلى مباريات كأس العالم لكرة القدم فى الراديو أو التلفزيون. ومثلما لاحظ أحد المنفيين التونسيين ببعض المزاراة قائلا "إننا أكثر نضجا سياسيا من زعمائنا".

ويعيش نصف سكان أفريقيا الآن فى المدن، ولذلك يجب مشاهدة حركة السير والمرور فى إحدى الطرق العامة فى الصباح أو ساعة الذروة المسائية. وسوف نرى مدى اختلاف وتنوع الناس والسلع كما سوف نفهم أنه حتى فى أفقر الدول ذات الدخل اليومى الإحصائى الأقل من ٢ دولار يوميا أن العديد من الناس

يتمتعون بمستوى حياة أفضل بكثير مما توحى به الإحصائيات. فلقد نشأ فعلا فى تلك المدن وحولها اقتصادا أفريقي جديد متنوع. ووجدت أكثر من نصف كل الوظائف فى المنشآت الصغيرة فى القطاع غير الرسمي وتوجد فى مجالات عدة مثل البناء والتشييد والنقل والتجارة والصناعة والصناعات التحويلية. وتعتبر إحدى مميزات إمبراطوريات أمراء الحرب فى الصومال إلى سيراليون هى تلك الكفاءة المميزة فى إدارة أعمال هؤلاء أمراء الحرب وأتباعهم.

أما الحدود الفاصلة بين الاقتصاد الرسمي وغير الرسمي فإنها هلامية تماما. وتفصلها اقتصاديات شبه إجرامية فى الصناعات والمجالات الثقافية والرياضية والترفيهية. ويشترك موسيقيون فى بلاد بعيدة للغاية مثل المغرب وجنوب أفريقيا إلى الكونغو ومالى فى مهرجانات الموسيقى العالمية بل يعملون أيضا فى تلك الصناعة الدولية المزدهرة بالإضافة إلى شهرتهم الطاغية فى بلادهم الأصلية. وتوحد رياضة كرة القدم بين الجميع وبين بلاد القارة كلها، من البلاد الإسلامية الشمالية إلى مناطق ما زالت توجد بها بقايا منشآت عن الاستعمار القديم إلى مدن الصفيح البائسة حول المدن مثل مدينة الكاب فى جنوب أفريقيا. ونعرف أن النجاح الباهر لفريق كرة القدم السنغالي فى كأس العالم قد فجر موجة من الفخر والاعتزاز هناك عام ٢٠٠٢. وكتب مامادو كاسى Mamadou Kasse مدير تحرير جريدة "الشمس" Le Soleil.

"ولا يتعلق الأمر بكرة القدم فقط، ولكن لأننا بينا للعالم كله أننا نعمل بكد ونشاط فى السنغال، كما يمكننا أن ننجح تماما مثل الناس فى أوروبا. إن فريق كرة قدم ناجح أفضل تعبير عن أمة واثقة فى نفسها وحيث توجد بها ديمقراطية واستقرار وحقوق إنسان. ولا يتوافر ذلك فى زيمبابوى أو الكامبيرون التى لم تنجب فريق كرة ناجح. كما أن السنغال دولة صغيرة ولكن لديها قيادة سياسية وديمقراطية حكيمة وجيدة للغاية، كما تعتبر مثالا للديمقراطية الأفريقية الناجحة. ومهد لنا رئيسنا (عدولاي وادى) الطريق إلى الشراكة الجديدة لتطور أفريقيا. ويبلغ الرئيس الـ ٧٦ عاما من العمر ولكنه يرقص مثل الشباب".

ولذلك وجد رأسمال كبير يمكن استثماره فى كرة القدم الأفريقية لمختلف الأغراض. وكان الرئيس القذافى قد فهم تماما أهمية تلك الرياضة الشعبية. وعلم أن كرة القدم هى أسرع وأفضل وسيلة لعودة ليبيا إلى المجتمع الدولى. وذكر أحد المسئولين الليبيين "ترغب ليبيا فى المشاركة فى الساحة الدولية وأن تبين للعالم أجمع أنها ليست مثلما يعتقد الناس فيما يتعلق بالإرهاب وغير ذلك". وتتمتع رياضة كرة القدم بشعبية جارفة مثلا فى ليبيا، إذ أن المباريات بين الفرق الكبرى تجذب جماهيرا تصل إلى ١٠٠,٠٠٠ متفرج. وكلف القذافى ابنه السعدى بتكوين شركة استثمار مالى لشراء حصة من نادى جوفنتوس Juventus الإيطالى العملاق ومحاولة شراء نادى باوك سالونيك Paok Salonika اليونانى بحيث يمكن لليبيا الاشتراك فى الدورى اليونانى والتأهيل بالتالى لاستضافة كأس العالم ٢٠٠١.

ولا يمكن أن يجد الدخل الاقتصادى للموسيقيين الموهوبين مثل ليدى سميث بلاك مامبازو Lady Smith Black Membazo فى جنوب أفريقيا وفريق كرة القدم السنغالى المتميز فى كأس العالم مكانا لهما فى إحصائيات البنك الدولى وباقى منظمات الإغاثة. ويمكن ذكر الشئ نفسه عن الثروة والمزايا الناتجة عن الاقتصاد المخفى أو غير الرسمى فى كل دولة على حدة. ولذلك فإن نسبة كبيرة من الثروة الأفريقية المنتجة لم يتم ذكرها أبدا فى الإحصائيات، وقد اشترك بها الأغنياء والفقراء على السواء. ولذلك قيل إن البنك الدولى لا يعرف إلا الخطوط العامة فقط وكأنه يسير فى الطرق الرئيسية فى تاكسى فى أكرا عاصمة غانا دون أن يعرف شيئا عن طرقها الجانبية والفرعية على السواء كناية عن هذا الوضع. ولذلك فإن البنك الدولى حينما وضع أفريقيا فى ذيل قائمة كل الإحصاءات فإنه قد كان على حق من ناحية ولكن لا يعتبر ذلك الحقيقة كلها. فإنه توجد فعلا معايير لا يمكن تسجيلها بدقة ولكنها تعبر عن أوجه نشاط وناس يعملون بكفاءة إدارية وحسن تصرف وطموح ورحابة صدر ونكاء وقدرة على العمل الجاد. ويعيشون حياتهم

طبقا لذلك ويجدون الفرص لتحقيق ذاتهم بالرغم من العقبات الموجودة في معظم البلاد من الناحية الاجتماعية والسياسية.

وتشير إحصائيات اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة لأفريقيا والدليل الاقتصادي الأفريقي لعام ٢٠٠٢/٢٠٠١ أملا كبيرا، إذ يظهر أن اقتصاديات القارة قد عملت بطريقة أفضل بالرغم من تباطؤ الاقتصاد العالمي آنذاك. وبما الدخل الأفريقي الإجمالي لعام ٢٠٠١ بنسبة ٤,٢ % مقارنة بـ ٣,٥ % في العام السابق. وازداد متوسط دخل الفرد الأفريقي بـ ٢ % تقريبا عام ٢٠٠١ بفضل انخفاض أسعار البترول، والتضخم ووسائل الزراعة الأفضل وزيادة الصادرات إلى الولايات المتحدة الأمريكية طبقا لاتفاق التطور والنمو الأفريقي وإلى الاتحاد الأوروبي أيضا طبقا لاتفاقيات مشابهة. وازدهر اقتصاد أثيوبيا وارتيريا على السواء بعد انتهاء الحرب بينهما عام ١٩٩٩. ونما اقتصاد سيراليون بنسبة ٥ % بعد انتهاء الحرب الأهلية عام ٢٠٠٢. وأشاد أحد كبار المسؤولين في البنك الدولي بتحسين إدارة اقتصاديات رواندا وجمهورية الكونغو الشعبية حينما زار تلك البلاد عام ٢٠٠٢ وأوصى بإجراء تخفيض كبير لديون الكونغو كمكافأة له عن ذلك. ولكن تقدم تلك الإحصائيات- إذا أخذت بمفردها- تصورا غير دقيق على الإطلاق للواقع. ويجب أن نتذكر هنا أن أكبر اقتصاديات في القارة وهي جنوب أفريقيا والمغرب والجزائر وتونس ومصر تمثل أكثر من نصف الدخل العام للقارة كلها. وجذبت تلك الدول الخمس مقدارا معقولا من الاستثمارات الأجنبية، ولكن القارة كلها لم تجذب إلا نسبة ٢,٣ % من كل الاستثمارات العالمية، وهي نسبة ضئيلة للغاية فعلا. وعرف العالم الخارجى عوائق الاستثمار في أفريقيا وتشمل العنف في المدن وعدم الاستقرار السياسى وجنون العظمة للحكام المتقدمين فى السن والفساد على كافة المستويات، وبالذات عدم فاعلية النظم القانونية والقضائية مما يخيف المستثمرين من عقد عقود مع تلك الدول.

ولذلك يعتقد تماما أن مثل كل تلك المؤسسات فى خلق مجتمع مدنى لشعوبها يمكن أن يعالج على المدى الطويل بواسطة المؤسسات الإقليمية والدولية والعالمية على السواء.

ونذكر أن أنجح الأمثلة لتلك المنظمات هى المجموعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا (Economic Community of West Africa States (ECOWAS) والتي أدى وجودها إلى إرسال القوات العسكرية النيجيرية لمساعدة الحكومات الأضعف بكثير فى ليبيريا وسيراليون فى صراعها مع الحركات الثورية السياسية. وتوجد أيضا مجموعة تطور جنوب أفريقيا (Southren African Development Community (SADC) التى لعبت دورا فعالا فى تقوية النظم الدفاعية للدول المجاورة أثناء الأعوام الأخيرة لحكومة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا، ولكنها فشلت تماما فى مواجهة المشاكل الناشئة عن ازدياد طغيان موجابى فى زيمبابوى. أما من الناحية الدولية فإن منظمة الكومونولث قد أثبتت تماما أنها ناد شعبى ومعنوى فعال للغاية لأعضائها الأفريقيين، وهو أمر مثار دهشة. فلا توجد للكومونولث وسائل فعالة أو عقوبات رادعة لتطبيقها على الحكومات الجامحة المستبدة إلا تجميد عضويتها فى المنظمة. واستخدم ذلك العقاب ضد نيجيريا خلال رئاسة أباشا Abacha ثم ضد زيمبابوى بعد السلوك المشين لحكومتها أثناء انتخابات عام ٢٠٠٢. واشتركت موزمبيق فى منطمتين إذ انضمت إلى الكومونولث عام ١٩٩٥ كما كانت المحرك الرئيسى لإنشاء هيئة الدول الناطقة بالبرتغالية Community of Protguas وتشمل أنجولا، البرازيل، كاب فردي، غينيا بيساو، موزمبيق، والبرتغال ومقرها مابوتو.

ولكن كانت أهم خطوة فى سبيل جمع شمل الدول الأفريقية هى إنشاء الوحدة الأفريقية التى عقدت جلستها الافتتاحية فى دربان (Durban) فى شهر يوليو ٢٠٠٢ مما أدى إلى انتهاء عمر منظمة الوحدة الأفريقية السابقة التى استمرت تسعة وثلاثين عاما على قيد الحياة. وكانت منظمة الوحدة الأفريقية قد أنشئت فى

عنفوان الحماس الوطنى الجارف فى عصر السيادة السياسية وعدم المساس بالحدود الموروثة عن الاستعمار. ولكنها أصبحت غير فعالة بالمرّة لمواجهة الحكام الأفريقيين الطغاة أو جبروت أمراء الحرب. وتم اختيار ثابو مبيكى كأول رئيس للوحدة الأفريقية. وكان الغرض هو إنشاء برلمان أفريقى مشترك ومحكمة عدل أفريقية وبنك مركزى وعملة موحدة ووضع معايير انتخابية مشتركة ووجود مراقبين مستقلين خلال وقبل أى انتخابات وطنية. كما رغب أيضا فى إنشاء مجلس أمن وسلام أفريقى صغير، وأن تكون لديه سلطة إرسال القوات العسكرية لوقف جرائم الحرب وحروب الإبادة. وسوف يرفض أيضا اشتراك القادة الذين تولوا الحكم فى انقلابات عسكرية فى تلك الجلسات.

ولكن وفى وقت انعقاد مؤتمر دربان وفى اجتماع الدول الصناعية الثمانى الكبرى للدول المانحة فى كندا، ثم إنشاء شركة جديدة لتطور أفريقيا New وكان المحرك الرئيسى هنا أيضا هو ثابو مبيكى لبدء البرنامج الجديد. وتم التخطيط لتلك الشراكة الجديدة على أن يكون لها اتجاهان أساسيان. فلقد وجب عليها فى البداية البدء فى مجموعة من المشاريع الاقتصادية المحددة مثل الترويج لوسائل الزراعة الجديدة وتمويل وتشيد سد لإنتاج الكهرباء عند إنجا (Inga) فى نهر الكونغو الأدنى. وكان عليها ثانيا إحداث تغييرات سياسية طويلة المدى مع محاولة جادة لتثبيت حكم القانون واتباع قواعد العمل الاقتصادى الصحيحة. كما وجب أيضا وضع مشاريع وأهداف وإن تم التركيز تماما على أن تلك الشراكة مجرد برنامج فقط وليست منظمة بأى حال من الأحوال. ولن يكون لها بيروقراطية معطلة كما سوف تعمل طبقا لنظام " النقد البناء من الرفاق"، ويعنى ذلك أن الحكومات سوف تخضع للنقد من رفاقها الأفريقيين طبقا لمعايير متفق عليها من البداية. ورغب مبيكى فى وجود هيئة صغيرة من الأفريقيين البارزين للقيام بأعمال المراجعة المذكورة، بينما كان زعماء آخرون أقل رغبة بطبيعة الحال للخضوع لمثل هذا النوع من الرقابة الخارجية.

وكان أهم موضوع أثار اهتمام المشاركين في مؤتمر دربان هو ذلك الجفاف المميت الذي دمر الكثير من الجهات في الجزء الجنوبي من القارة. وهددت المجاعة الملايين من الموت جوعا. وبخلاف الجفاف في تلك المنطقة منذ عقدين من الزمان فإنه قد وجدت آنذاك مواجهات عنيفة بين الدول المانحة ودولتين في حاجة ملحة للمساعدة وهما زيمبابوي ومالاوي مما أدى إلى تعطيل توزيع المساعدة للمنطقة كلها، كما رفضت بعض الدول استلام الشعير المعدل وراثيا (Maize). ولاحظ أحد المراقبين في دربان أن رؤساء الدول الأفريقيين كانوا يعيشون في عالم آخر غير العالم الحقيقي. ولذلك ومن أجل أن تعيش أفريقيا وتزدهر فإن المنظمات مثل الوحدة الأفريقية والنيباد يجب عليها أن تثبت أنها تعيش في العالم الحقيقي النابض بالحياة وليس أبدا في عالم تسود به مجالات الخطابة والخيال.

ولكن إذا ما أخذنا القارة ككل فإن اقتصاديات أفريقيا بالرغم من عدم مجاراتها للنمو الهائل في عدد السكان فإنها تقدمت وخرجت من حالة الكساد السائدة في السبعينيات وتدهور الثمانينيات. وبدأ رجال الصناعة في العالم الخارجي في مشاهدة قارة يمكنهم الاستثمار بها أو على الأقل مساعدة بعض الحكومات على الوقوف على أقدامها مرة أخرى. وكان من الواضح أيضا مع ذلك أن أفريقيا سوف تستمر في الخسارة إذا ما استمرت هجرة العقول إلى أوروبا وشمال أمريكا بتلك المعدلات المرتفعة. ويؤدي ذلك إلى خسارة الكفاءات الضرورية لإدارة وتنمية المجموعات المحلية القادرة على تكوين الحكومات الجيدة والاقتصاديات الناجحة في بلادها. ونعرف من التجربة العملية لسوء الحظ أن معظم المهاجرين الناجحين لا يعودون أبدا.

وإن لم تكن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ قد أعادت أيديولوجية الحرب الباردة إلا أنها أوجدت قدرا كبيرا من الخطابة المعنوية على الساحة العالمية. وبدأت ردود فعل إدارة بوش على الهجمات الإرهابية على أنها أبعدت أفريقيا تماما عن إدارة

الاهتمام الأمريكي. فلم تهتم أمريكا على الإطلاق بتلك البلاد التي ليست في مقدمة الحرب ضد الإرهاب. ولذلك تحولت الحكومات الأفريقية التي كان لها سجل في محاربة الإرهاب مهما كان استبدادها وطغيانها مثل حكومة الملك محمد في المغرب وبوتفليقة في الجزائر إلى حلفاء وأصدقاء للولايات المتحدة. ولكن تراجع الدول الموجودة على قائمة الأمم المنبوذة الأمريكية عن مواقفها السابقة تماما. ولذلك تم تشجيع الرئيس القذافي على التخلي عن الإرهاب بينما تخلت الحكومة السودانية عن بعض تطرفها الإسلامي واستعدت لعقد اتفاق سلام مع الجنوب. وإذا ما صدقنا تعليقات الصحافة فإن الرأي العام الأفريقي يراقب رغما عنه الحملة الأمريكية على أفغانستان ضد طالبان والقاعدة، إلا أنه أيضا كان معاديا تماما للحرب الوقائية الأمريكية ضد صدام حسين في العراق. وإذا ما تحول مفهوم الحرب الوقائية لتبرير الحرب العادلة مثلما كتب أحد أبرز كتاب الأعمدة في جنوب أفريقيا فإن ذلك سوف يجلب الدمار الرهيب للقارة، وشبه ذلك بفتح علبة يخرج منها طوفان من الدود. ولا يمكن أن يكون أي اتفاق سلام ناجح وإن وجب على الرؤساء الأفريقيين وضع تحفظاتهم على سياسة بوش جانبا ومحاولة التوصل إلى تفاهم مع ذلك التغيير الجذري الذي حدث في العالم والعلاقات الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة. فلقد أدركت الولايات المتحدة آنذاك قوتها الهائلة بصفتها القوة العالمية الكبرى الأولى وصممت على اتباع سياسات تعبر عن هذا التفوق الساحق.

وكان الاستثناء الوحيد على الدور الصغير الذي تلعبه أفريقيا على الساحة الدولية هو موضوع البترول. فلقد رغبت الولايات المتحدة وبشدة في إيجاد بديل لها عن بترول الشرق الأوسط مما أدى إلى تكثيف أعمال البحث في أفريقيا جنوب الصحراء. وركزت الشركات الأمريكية على اكتشافات حقول بترول جديدة في خليج غينيا بالذات في أنجولا وأفريقيا الاستوائية ونيجيريا. ولكن تقتصر النتائج الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لاستكشاف البترول واستغلاله مهما كانت خطورتها وآثارها على منطقة صغيرة نسبيا فقط (كما أن معظم حقول البترول

حقوق بحرية) ويقتصر ذلك أيضا على عدد صغير من البلاد. ولكن أبدت الولايات المتحدة اهتماما جديدا في القارة في منتصف عام ٢٠٠٣. وتعهد الرئيس بوش بإنفاق ١٥ بليون دولار لمحاربة الإرهاب في البلاد الفقيرة، بل فكر في إرسال قوات أمريكية إلى ليبيريا المضطربة. وزار بوش القارة الأفريقية لأول مرة في يوليو ٢٠٠٣ وتوجه إلى السنغال وجنوب أفريقيا وبوتسوانا وأوغندا ونيجيريا. وفي شهر أغسطس ٢٠٠٣ وبعد وصول قوات حفظ السلام النيجيرية إلى مونروفيا غادر شارل تايلور ليبيريا متوجها إلى المنفى في نيجيريا. واستمرت القوات الأمريكية في ليبيريا لبعض الوقت ثم غادرت بعد حضور قوات حفظ سلام نيجيرية كبيرة تحت لواء الأمم المتحدة. وتم اختيار جيود بريانت Jyude Bryant لرئاسة حكومة انتقالية استعدادا للانتخابات العامة. وبدا كما لو كانت ليبيريا على شفا عصر من السلام بعد عقدين من الصراعات الدامية. واتخذت الولايات المتحدة أيضا خطوات جادة لإنهاء الصراع الطويل في السودان، واستطاع وزير الخارجية كولن باول في أكتوبر ٢٠٠٣ إقناع الحكومة السودانية والثوار على الاجتماع في مدينة نايفاشا Naivasha الكينية لتوقيع اتفاق شامل قبل انتهاء العام.

وبعد انتهاء الحرب العراقية اتخذت الحكومة الأمريكية خطوات أكثر فاعلية فيما يتعلق بالمشاكل الأفريقية. ويشك الكثير من الناس بنوايا أمريكا ولكن سوف يستفيد الأفريقيون كثيرا على المدى الطويل في كونهم في الصف الأول ومقدمة عالم السياسة والمال، وسوف يكون ذلك في صالحهم. ويمكنهم أيضا الاستفادة العميقة من الانقسامات في صفوف بلاد العالم المميزة. وتوجد فعلا الكثير من المزايا المهمة فعلا. ولكن من المهم تماما أن تعيد أفريقيا إحياء إيمانها وثقتها بنفسها وأن تمسك زمام أمورها بيدها بدلا من تدخل الأجانب. ويتمنى أفريقيون كثيرون إعادة بعث النهضة الأفريقية الشاملة بطريقة منظمة بحيث يتكاتف الناس من كل أوجه الحياة في القارة كلها من أقصاها إلى أقصاها للوصول إلى ذلك. ويفضل الاستماع هنا إلى نصائح أكثر رجال أفريقيا خبرة واعتدالا. فلقد كتب

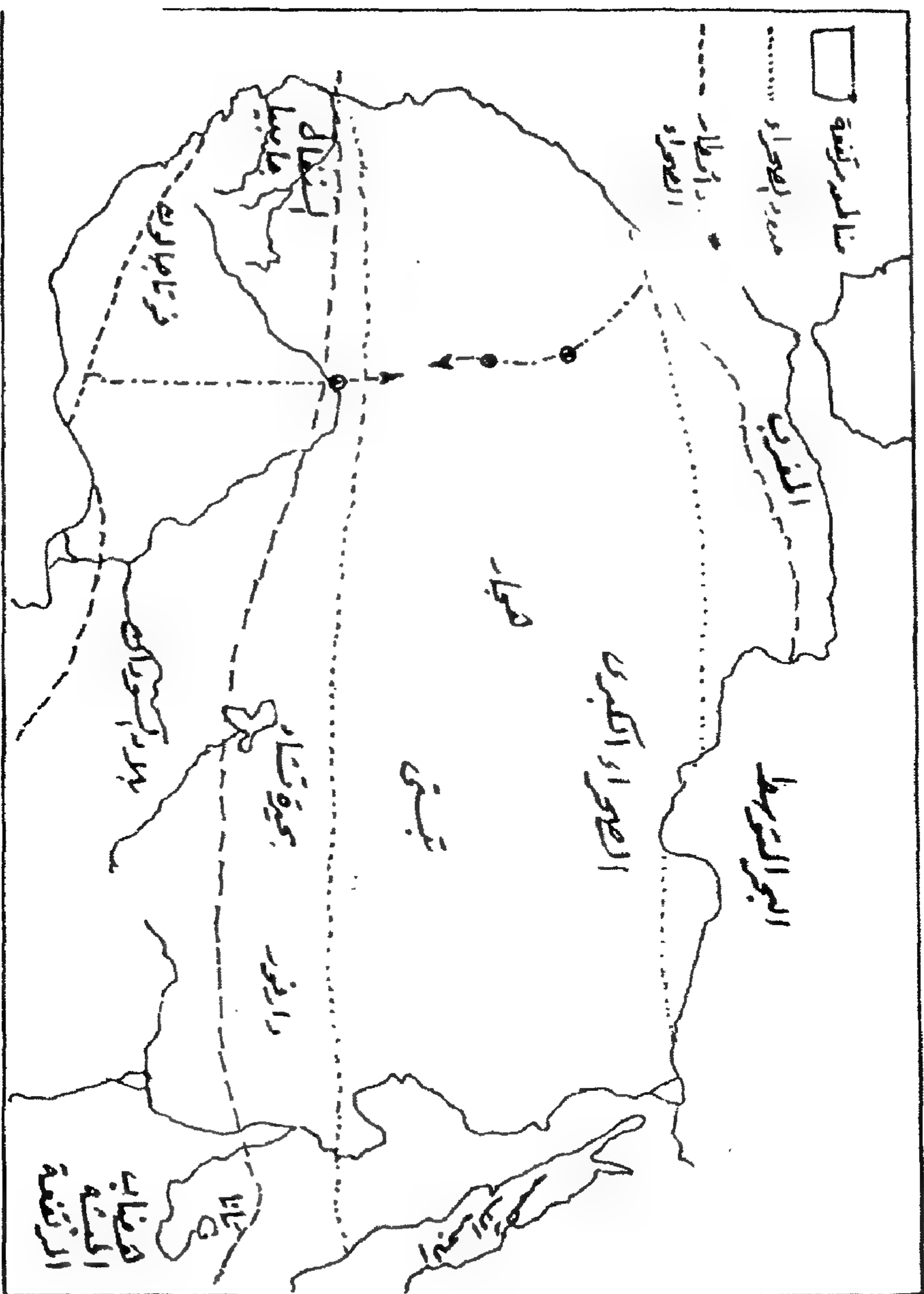
نلسون مانديلا: "إننا لم نصل أبداً إلى خاتمة المطاف ونهاية الطريق والرحلة، ولكننا سرنا فقط الخطوة الأولى في طريق أكثر صعوبة. ولا تعني الحرية أبداً التخلص من الأغلال ولكنها تعني الحياة بطريقة أفضل. ونتمنى حرية الآخرين، كما أن الاختيار الحقيقي لإخلاصنا للحرية يبدأ الآن فقط.

الأحداث الأخيرة في السودان ودارفور

واستمرت المنازعات بين المجتمعات الزراعية والرعوية في منطقة دارفور الكبيرة غرب السودان منذ عقد الخمسينيات من القرن الماضي إن لم يكن قبل ذلك بكثير. ولكنها ازدادت بعد انتشار الجفاف في معظم أنحاء أفريقيا جنوب الصحراء في بداية الثمانينيات. وكان السبب الرئيسي لتلك النزاعات التصحر التدريجي للمنطقة؛ حيث توغلت الصحراء أكثر وأكثر داخل الأراضي الزراعية. ويشترك المزارعون في المناطق الجبلية الأكثر خصوبة حول جبل مارا (Marra) مع الرعاة الذين يتجولون أيضاً ناحية الشمال (رعاة جمال) وإلى الجنوب (رعاة قطعان ماشية). ويشترك هؤلاء الناس في الحياة في المنطقة نفسها ويتزوجون فيما بينهم ويتنافسون على الأرض والمياه. كما أن المجتمعين مسلمان ولا يمكن التفرقة بينهما عرقياً. ويتكلم الرعاة اللغة العربية كلغة أولى بينما تكون اللغة الثانية بين المزارعين. وقام الفور (Fur) وجماعات أخرى بشن مجموعة من الثورات ضد حكومة الخرطوم التي استعانت بالرعاة للقضاء عليها. وهنا بدأ الحديث عن الخلافات العرقية ووصف المزارعون بالأفريقيين والرعاة بالعرب. وشعر المزارعون في دارفور باستبعادهم من توقيع اتفاق نابفاشا في شهر مايو من عام ٢٠٠٤ بين الحكومة والثوار الجنوبيين. وقامت مجموعتان من الثوار بمجموعة من الهجمات ضد المواقع الحكومية في بداية عام ٢٠٠٣.

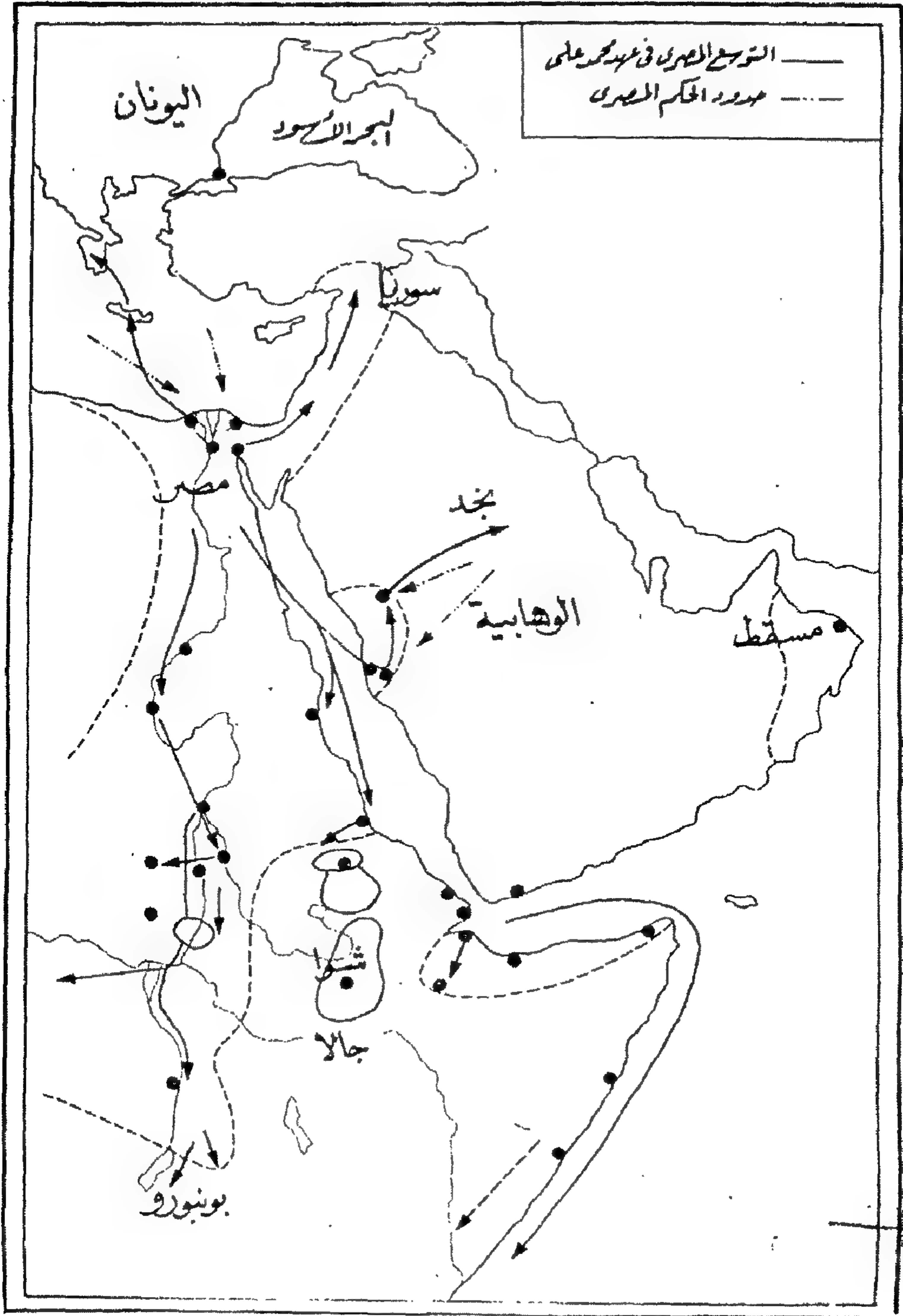
وردت الحكومة بتسليح الميليشيات "العربية" المعروفة بلغة دارفور العربية "بالجنجويد". وتصرفت تلك القوات بوحشية شديدة، ودمرت القرى والمحاصيل وقتلت الرجال والصبية واغتصبت النساء مما أدى إلى نزوح مئات الآلاف من الناس من ديارهم وقتل عشرات الآلاف في منتصف عام ٢٠٠٤. وهربت أعداد كبيرة من اللاجئين إلى تشاد المجاورة وأقامت في معسكرات باتسة في الخيام حيث هاجمهم الجنجويد كثيرا. ولكن انشغل الرأي العام العالمى آنذاك بالعراق والحرب على الإرهاب. وبدأت منظمات الإغاثة في تنظيم أعمال إغايتها لمعسكرات اللاجئين في دارفور وتشاد في منتصف عام ٢٠٠٤. وحاول الاتحاد الأفريقى أيضا الوساطة، كما قام المجتمع الدولى بالضغط الشديد على حكومة الخرطوم لإنهاء العنف ونزع سلاح الجنجويد والتفاوض مع الثوار في منتصف عام ٢٠٠٤ أيضا.

ملحق الأشكال



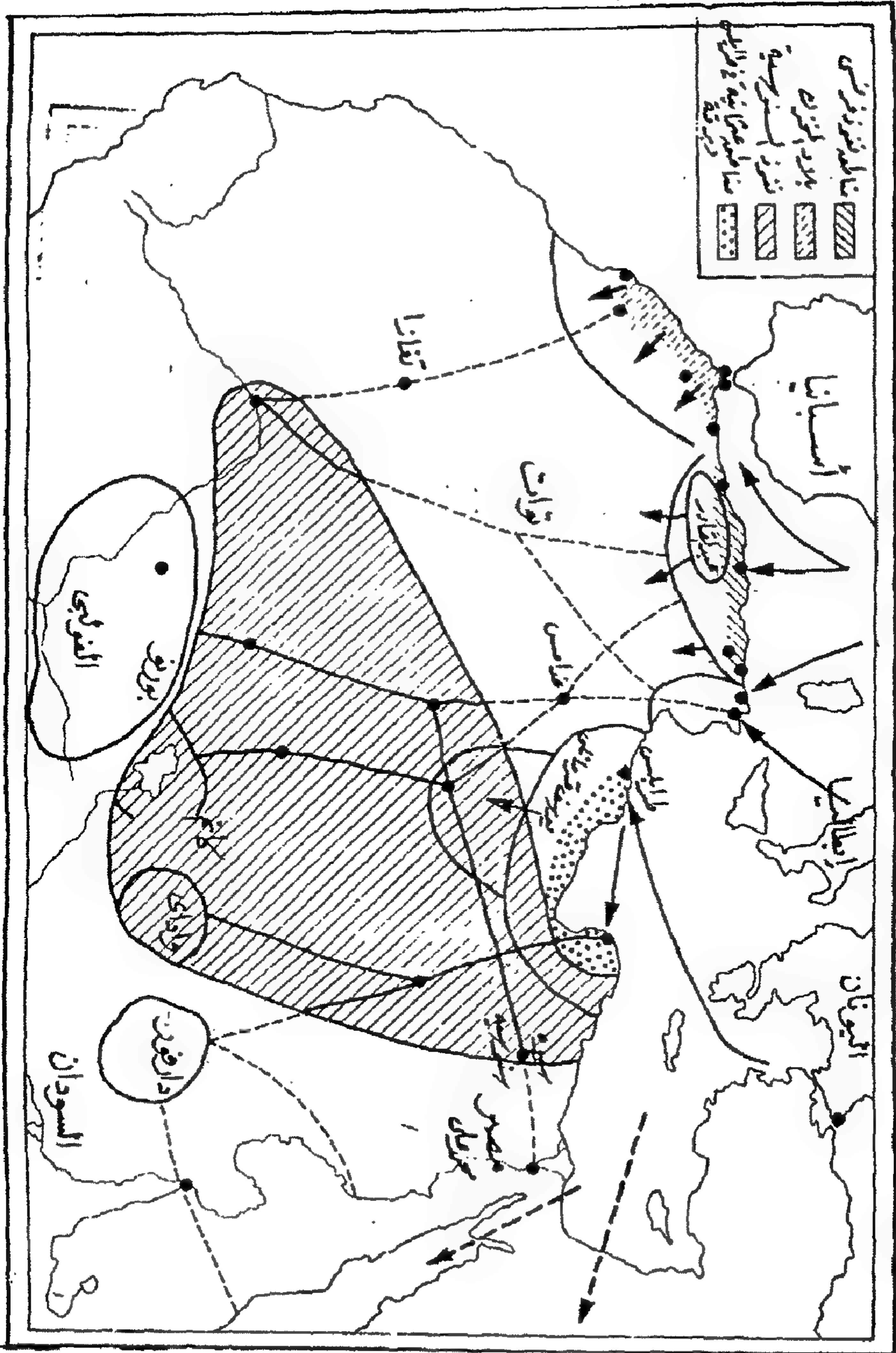
شكل رقم ١ شمال إفريقيا - الملامح الجغرافية والمناخية

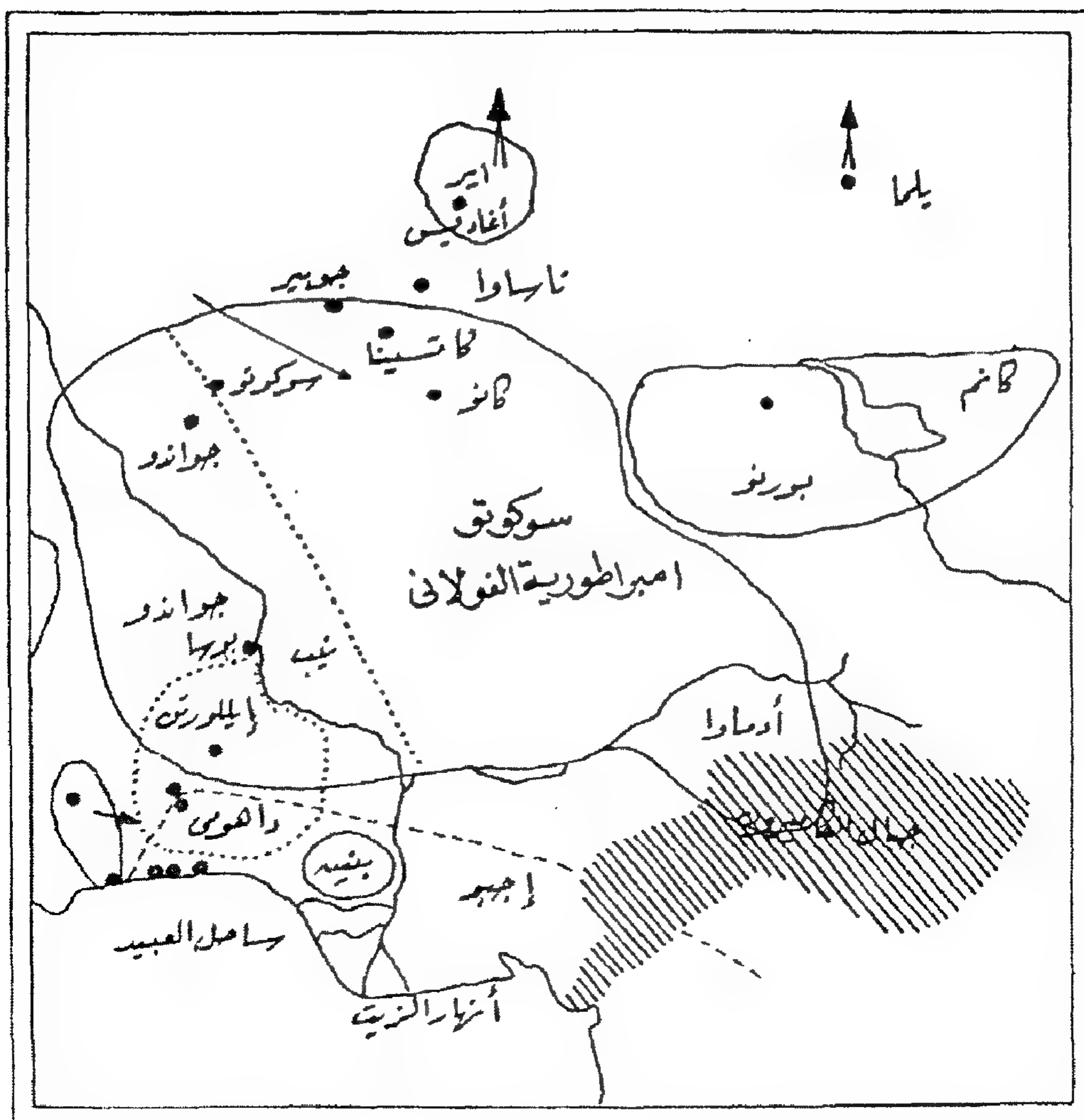
شكل رقم ٥ شمال شرق افريقيا (التوسع المصري)



شمال غرب افریقا ۱۸۰۰ - ۱۸۸۱

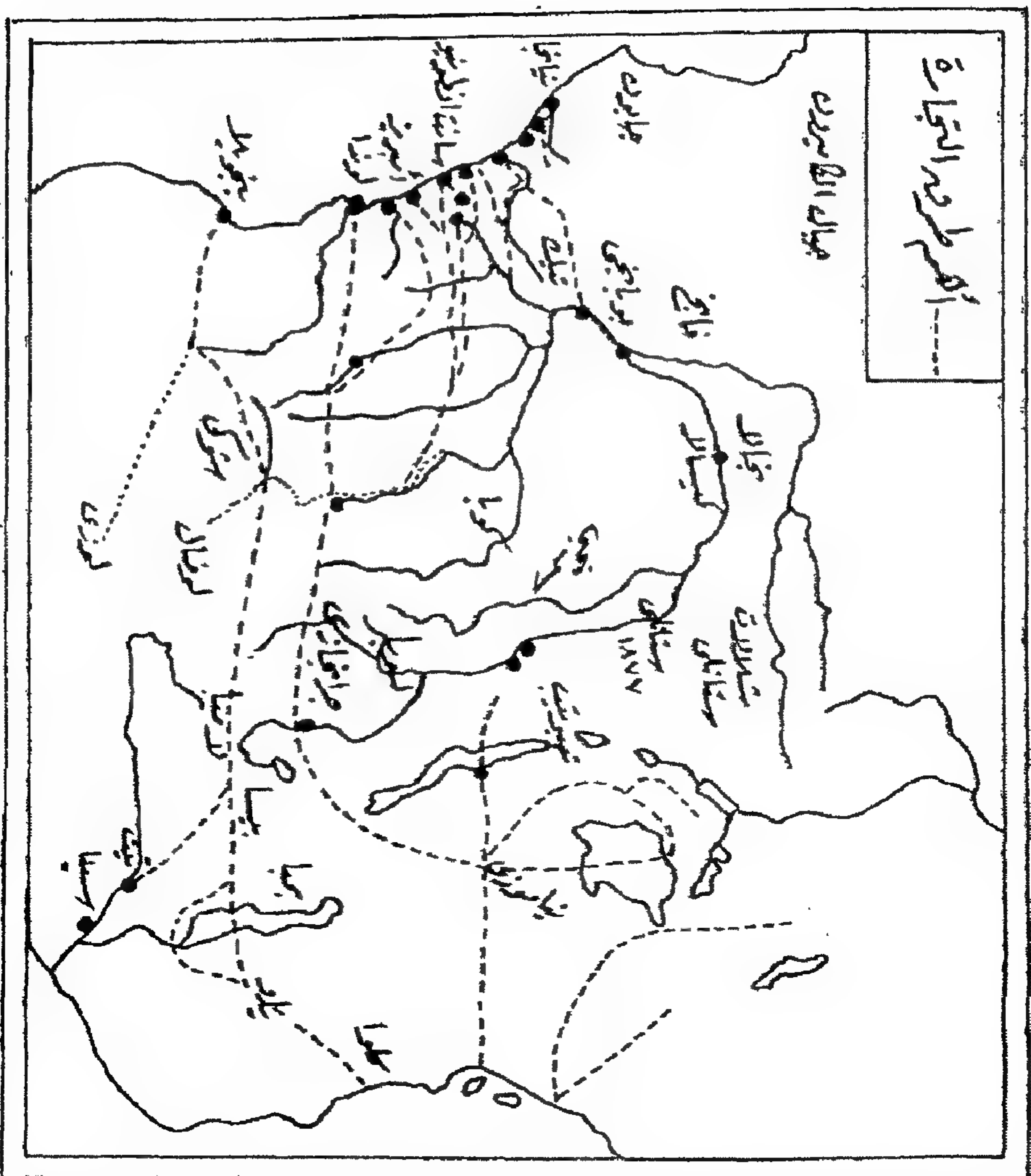
شکل رقم ۷



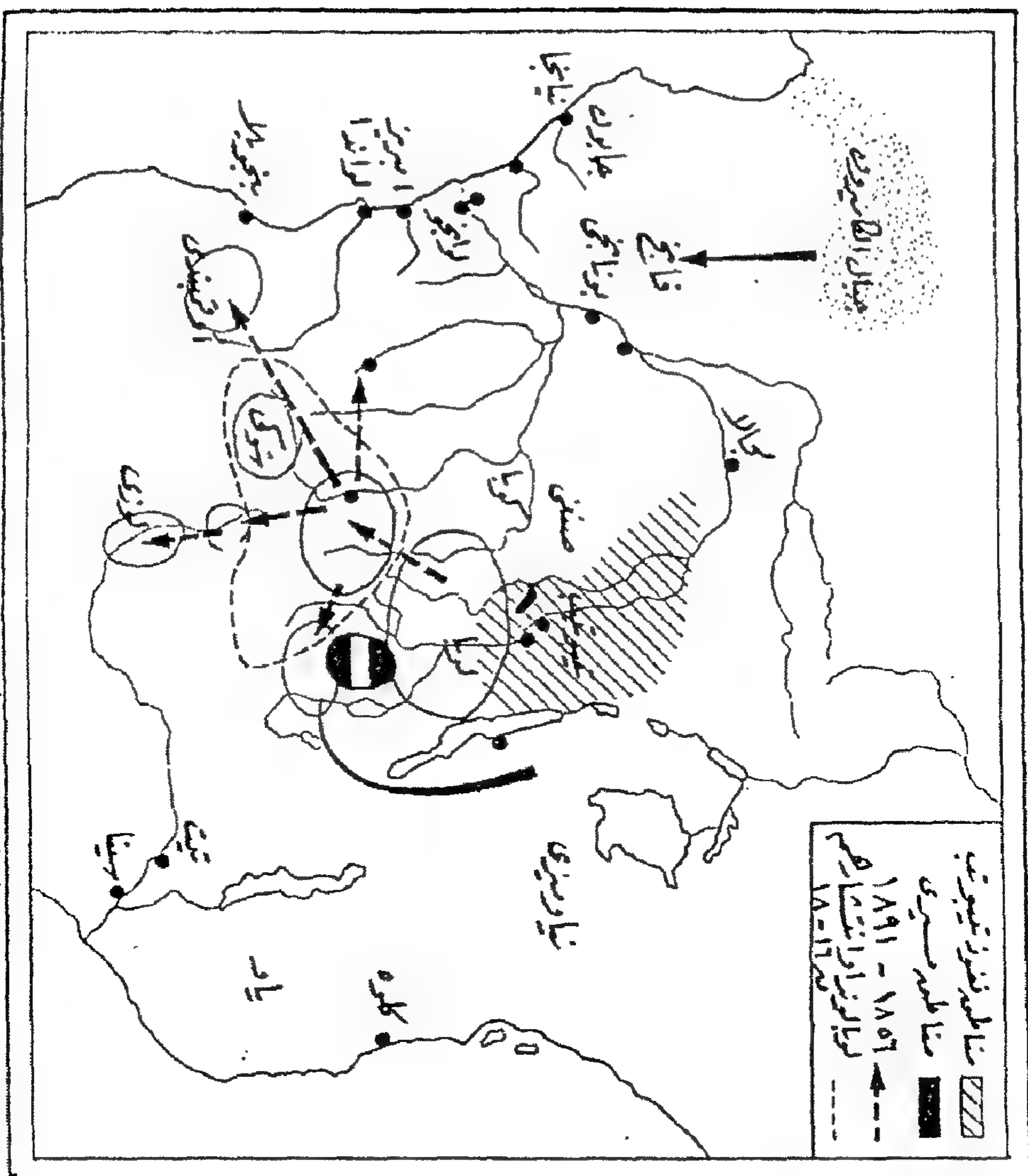


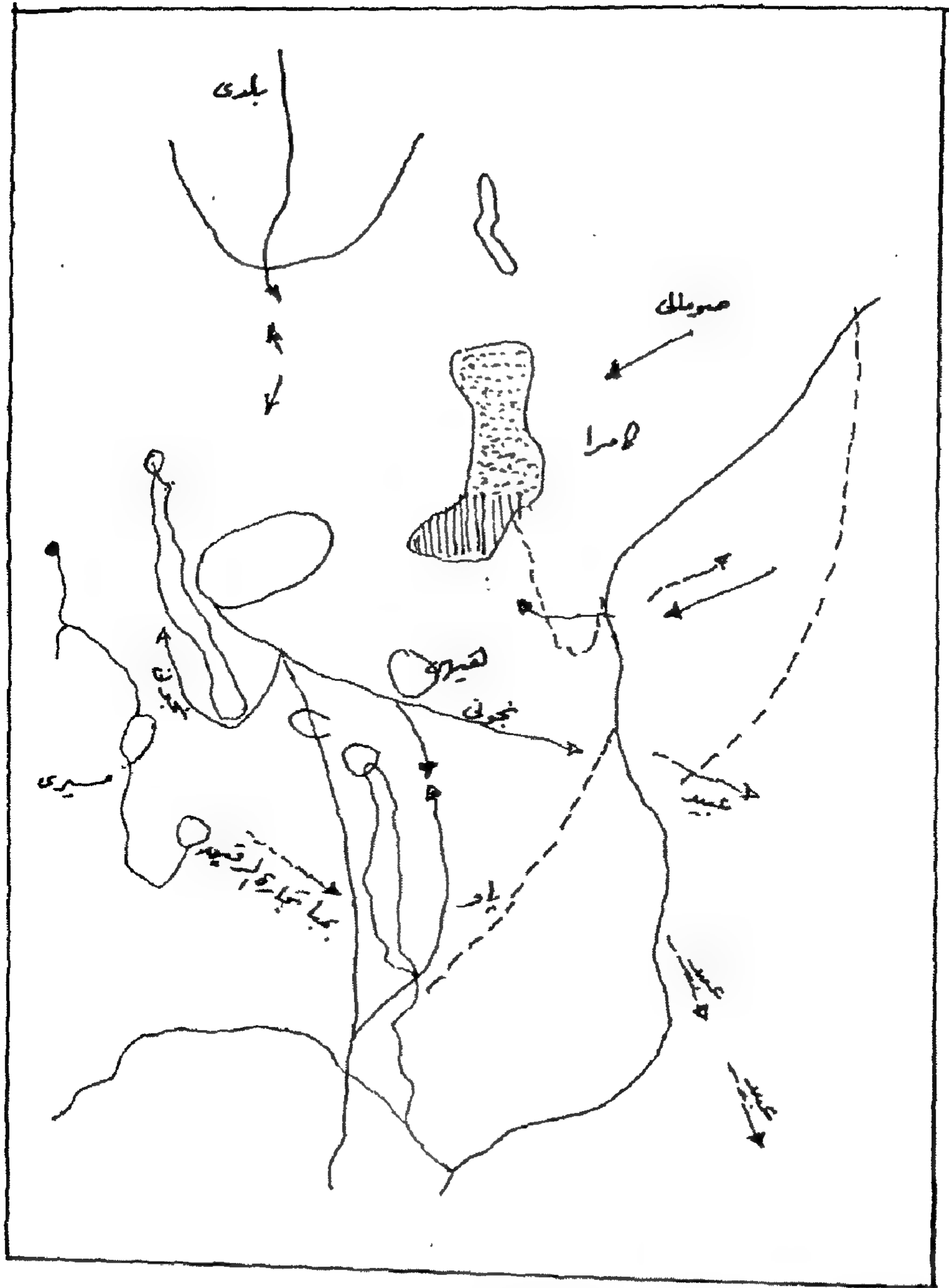
شكل رقم ٨ غرب إفريقيا ١٨٠٠ - ١٨٧٥

سنگل رستم ۹ وسط غرب افغانستان ۱۸۰۰-۱۸۸۰ طومر التجارة

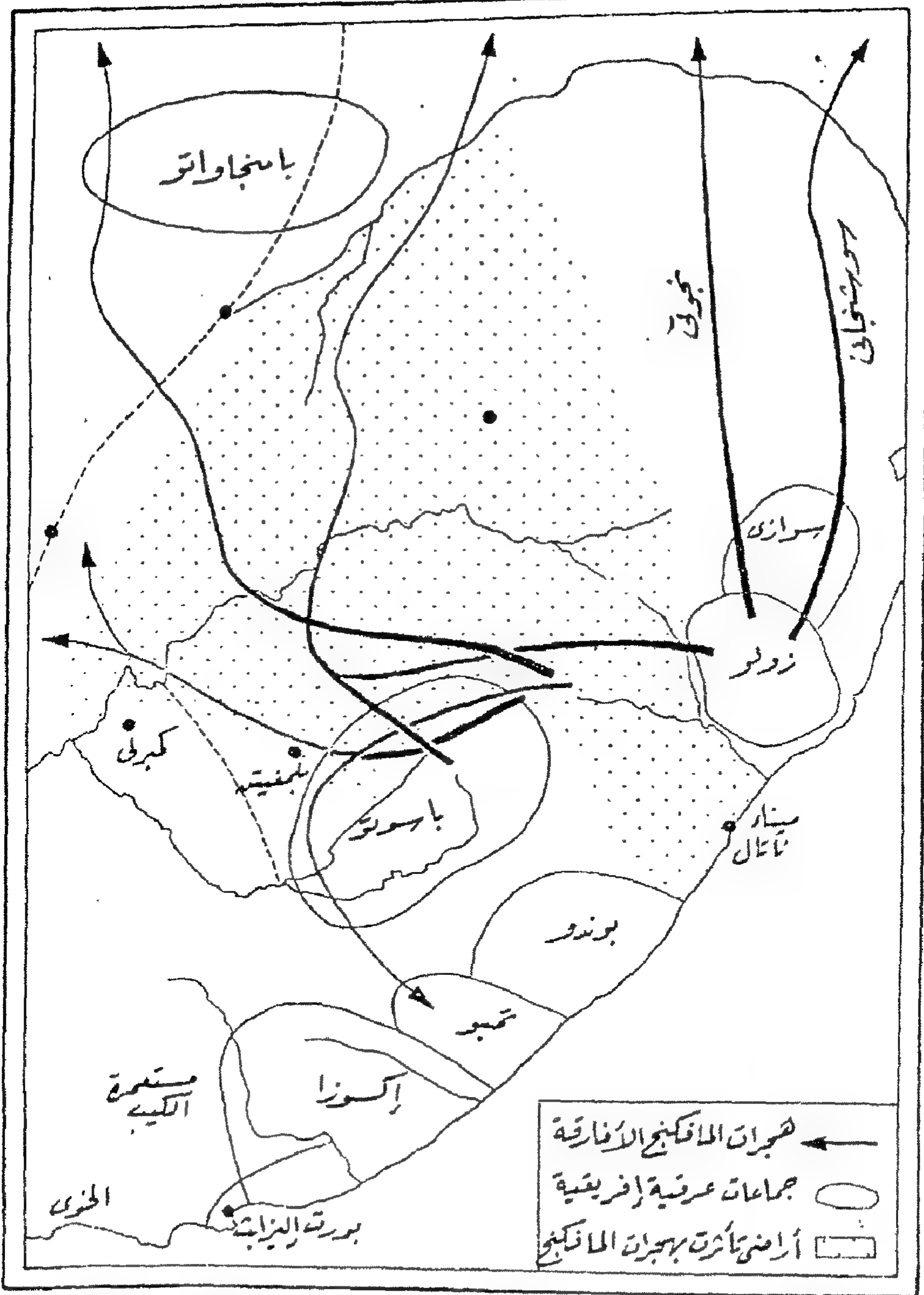


شکل رقم ۱۰ وسط‌خرب افریقا ۱۸۰۰ - ۱۸۸۰ مناطق المتبادل والمهجرات



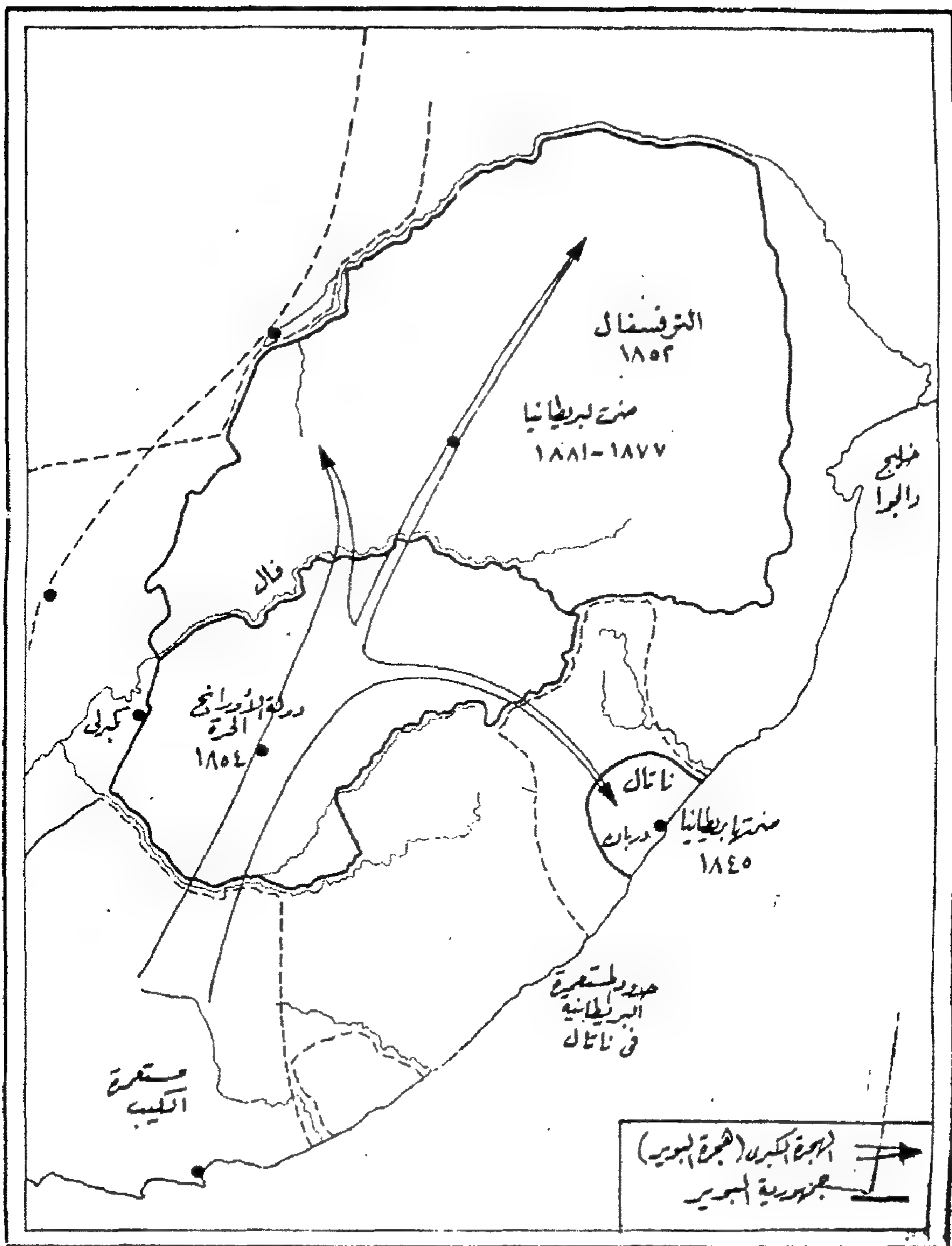


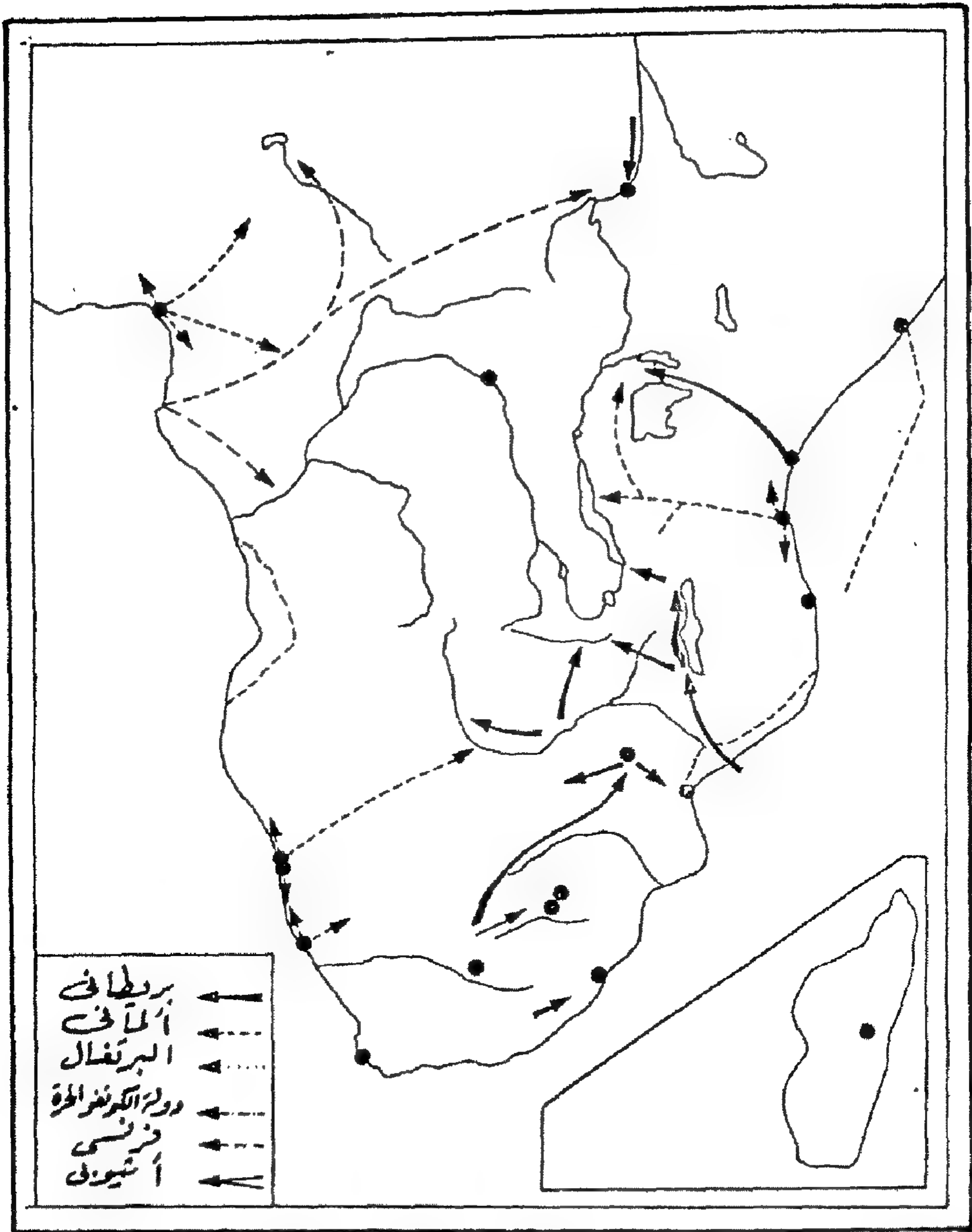
شکل ۱۱ شرق وسط افریقا ۱۸۰۰-۱۸۸۴



شكل رقم ١٣ جنوب افريقيا ١٨٠٠-١٨٨٥ (الهجرة الافريقية)

شكل رقم ١٤ جنوب افريقيا ١٨٨٠-١٨٨٥ هجرات البوير

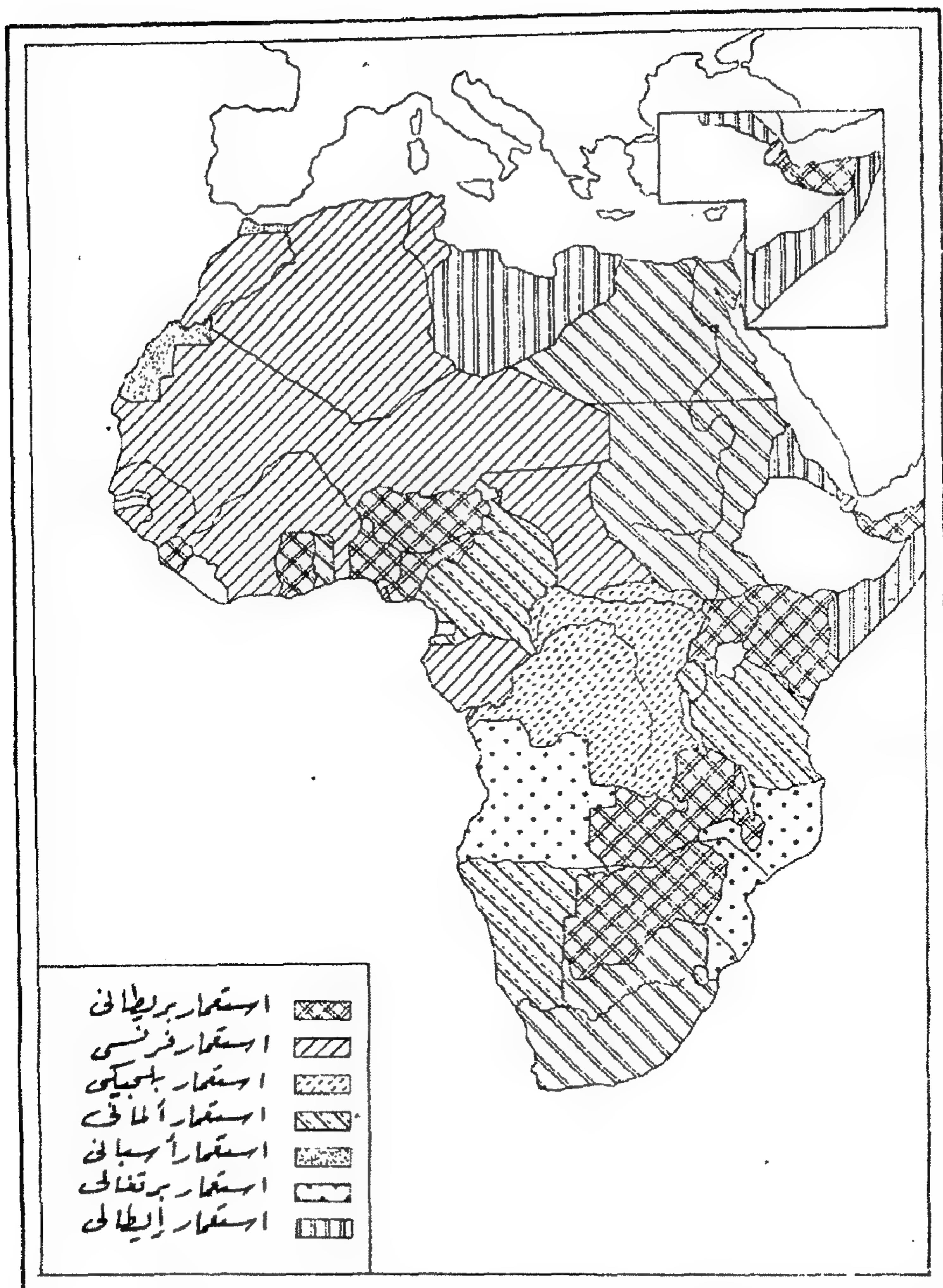




شكل رقم ١٩ جنوب افريقيا (التقسيم الأوربي)
(بريطانيا - فرنسا - ألمانيا)

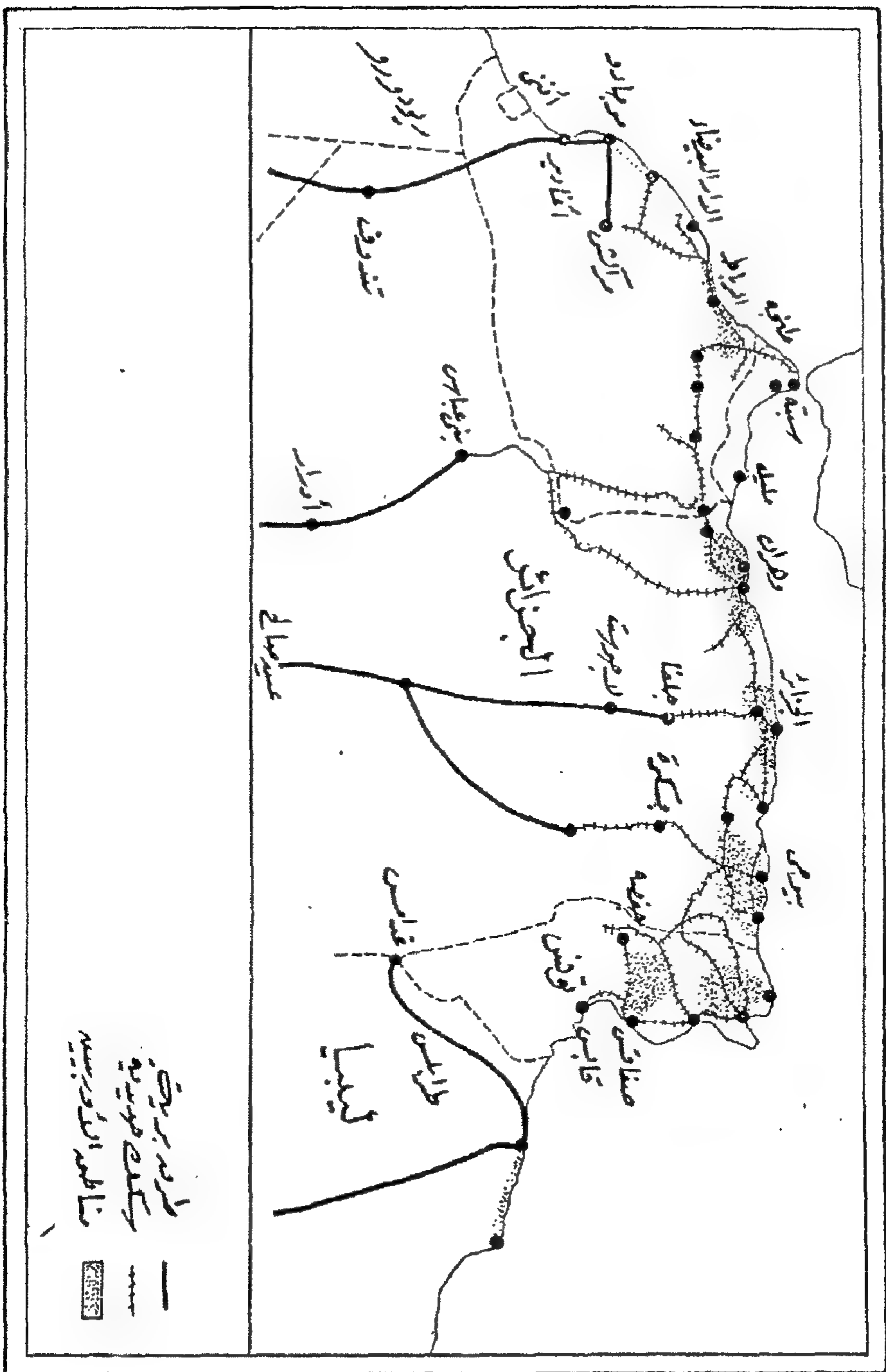


يشكل رقم ١٠ التقسيم الإداري ليو بولند والبرتغال - جنوب إفريقيا



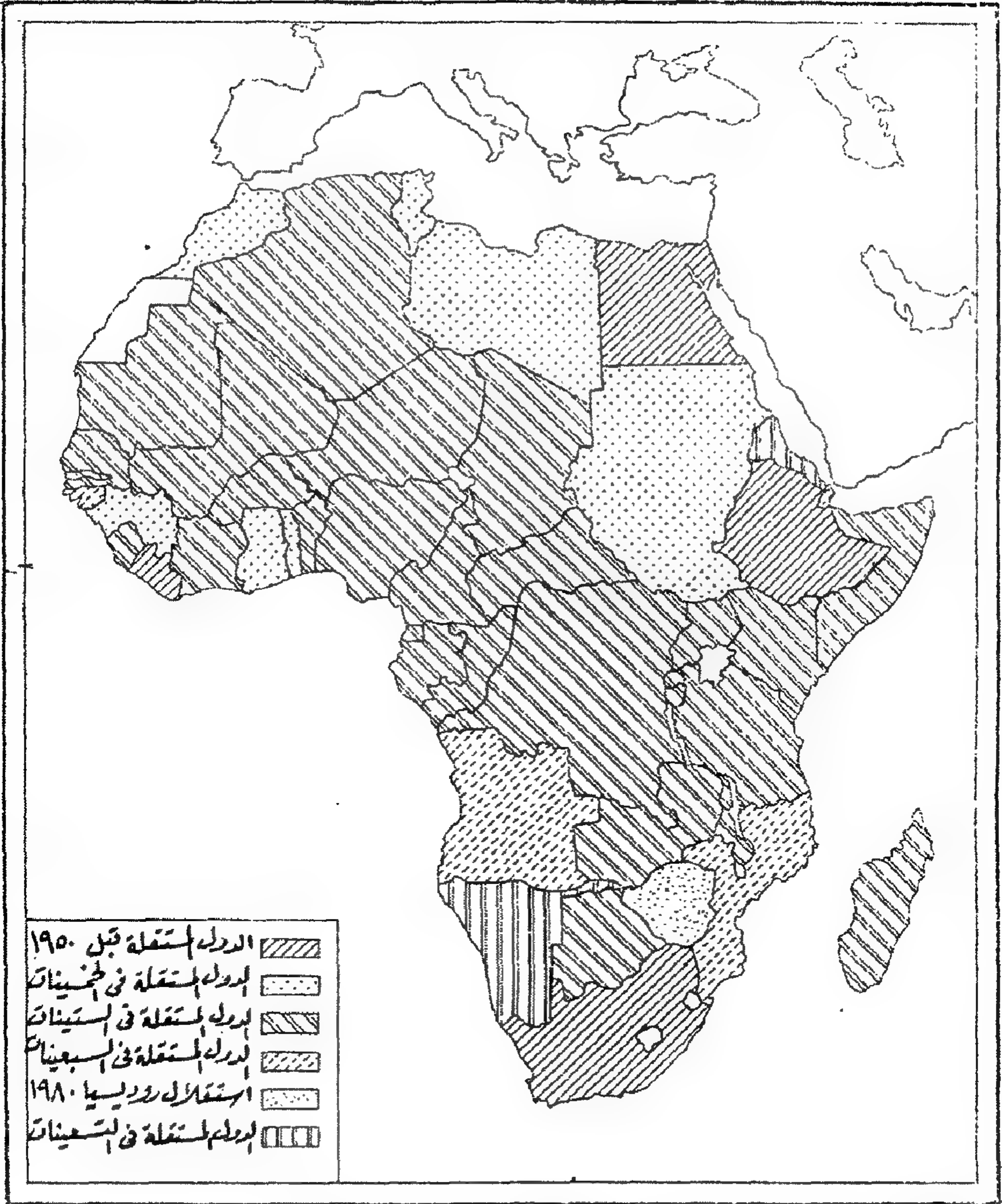
شكل رقم ٢١ أفريقيا المرحلة الأخيرة للتقسيم ١٩١٢

شكل رقم ٢٢ : التطور الاقتصادي خلال الفترة الاستعمارية



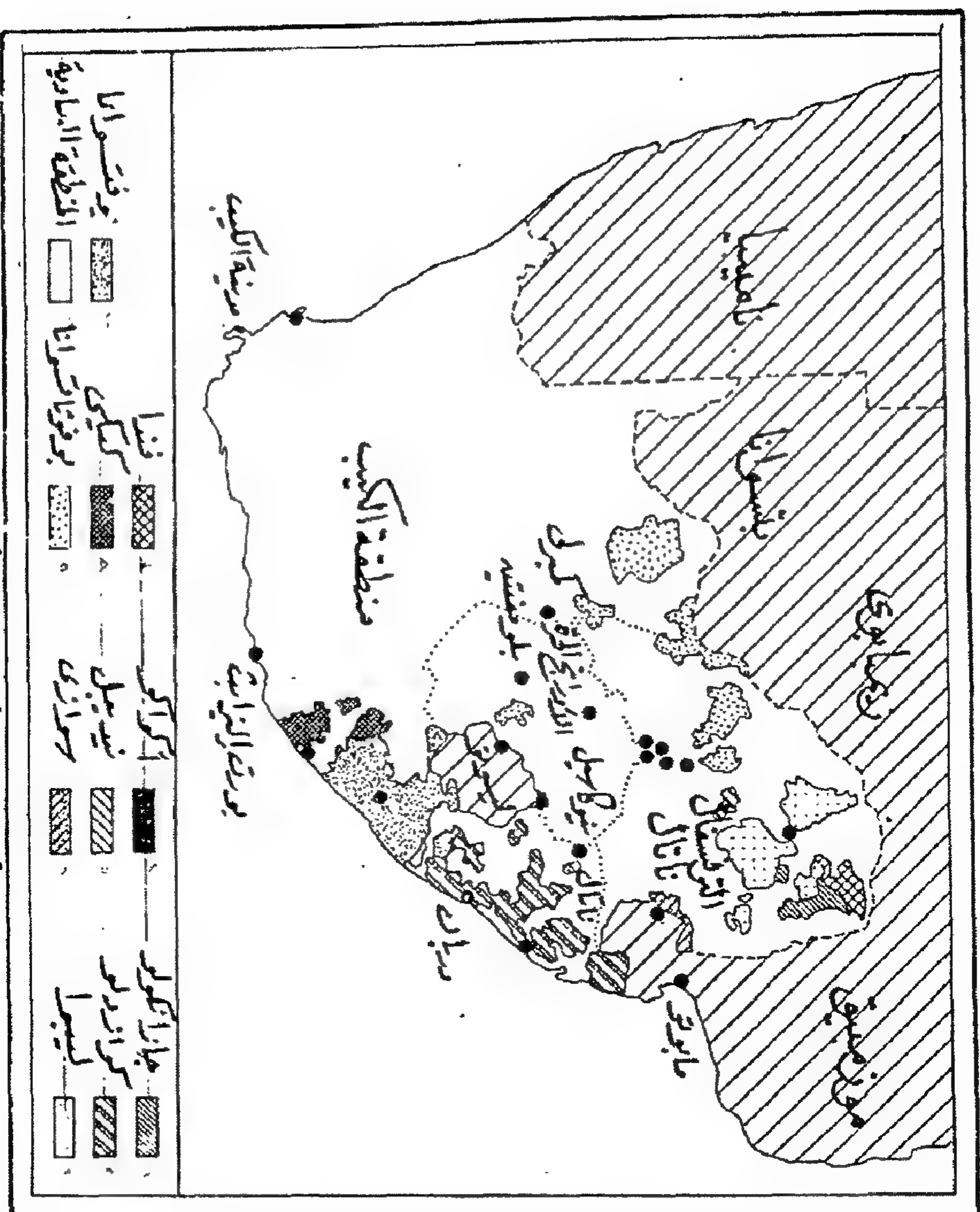


شكل رقم ٥٦ شمال شرق إفريقيا تحت الحكم الاستعماري
 التطور الاقتصادي والسياسي

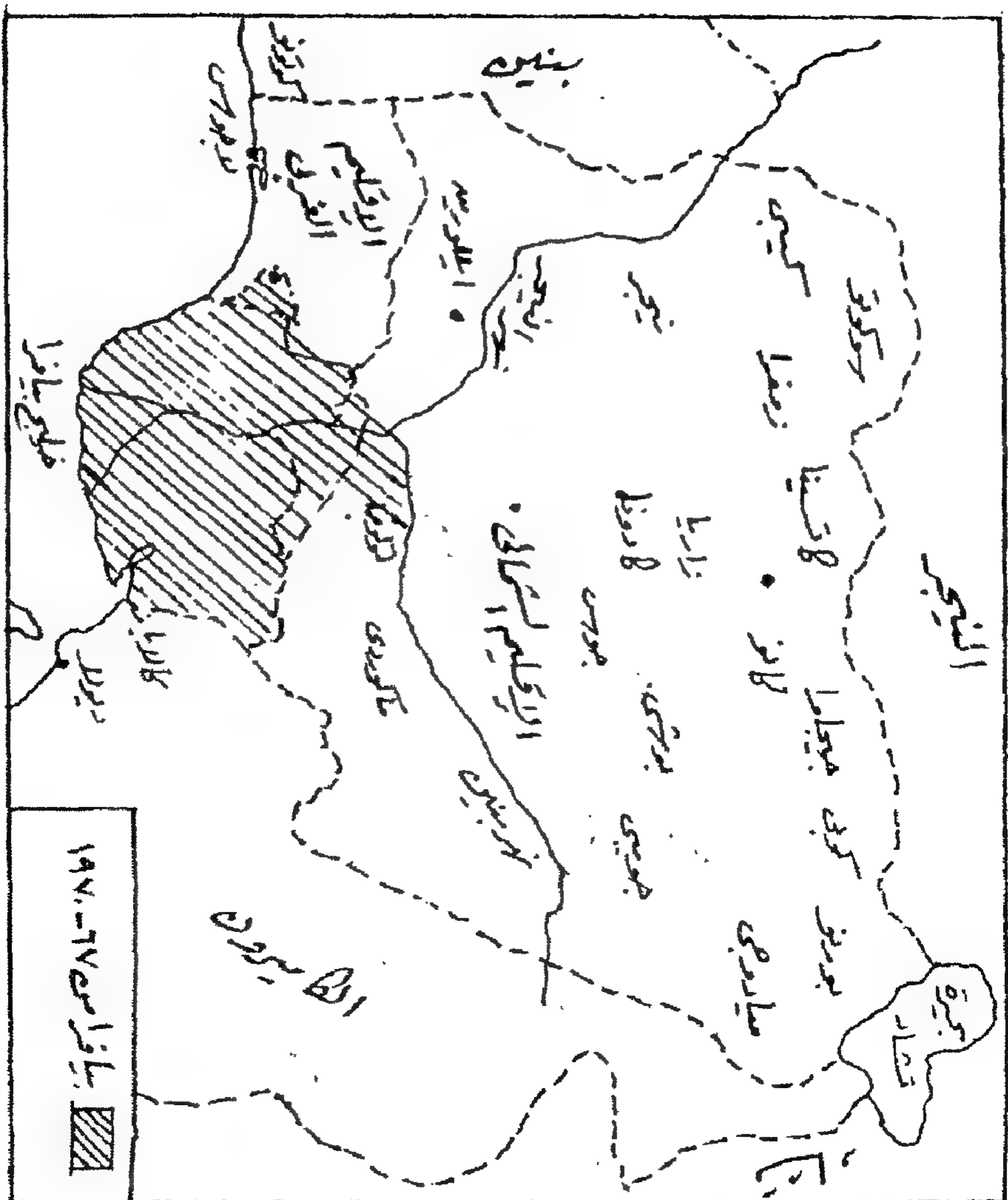


استقلال أفريقيا

خريطة شكل ٢٦

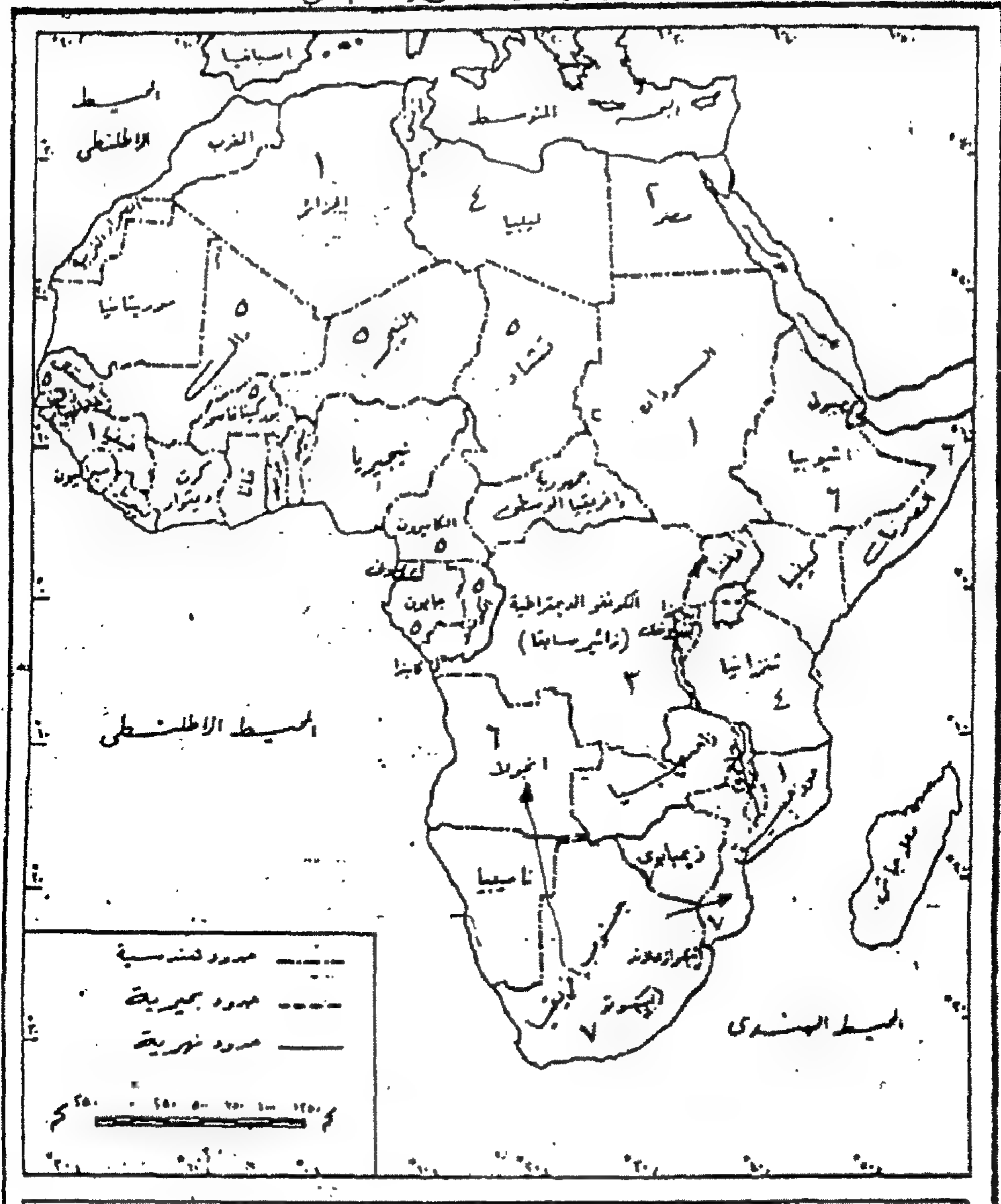


جنوب افریقا و المابا نوسٹان
جلد نم ۷۷



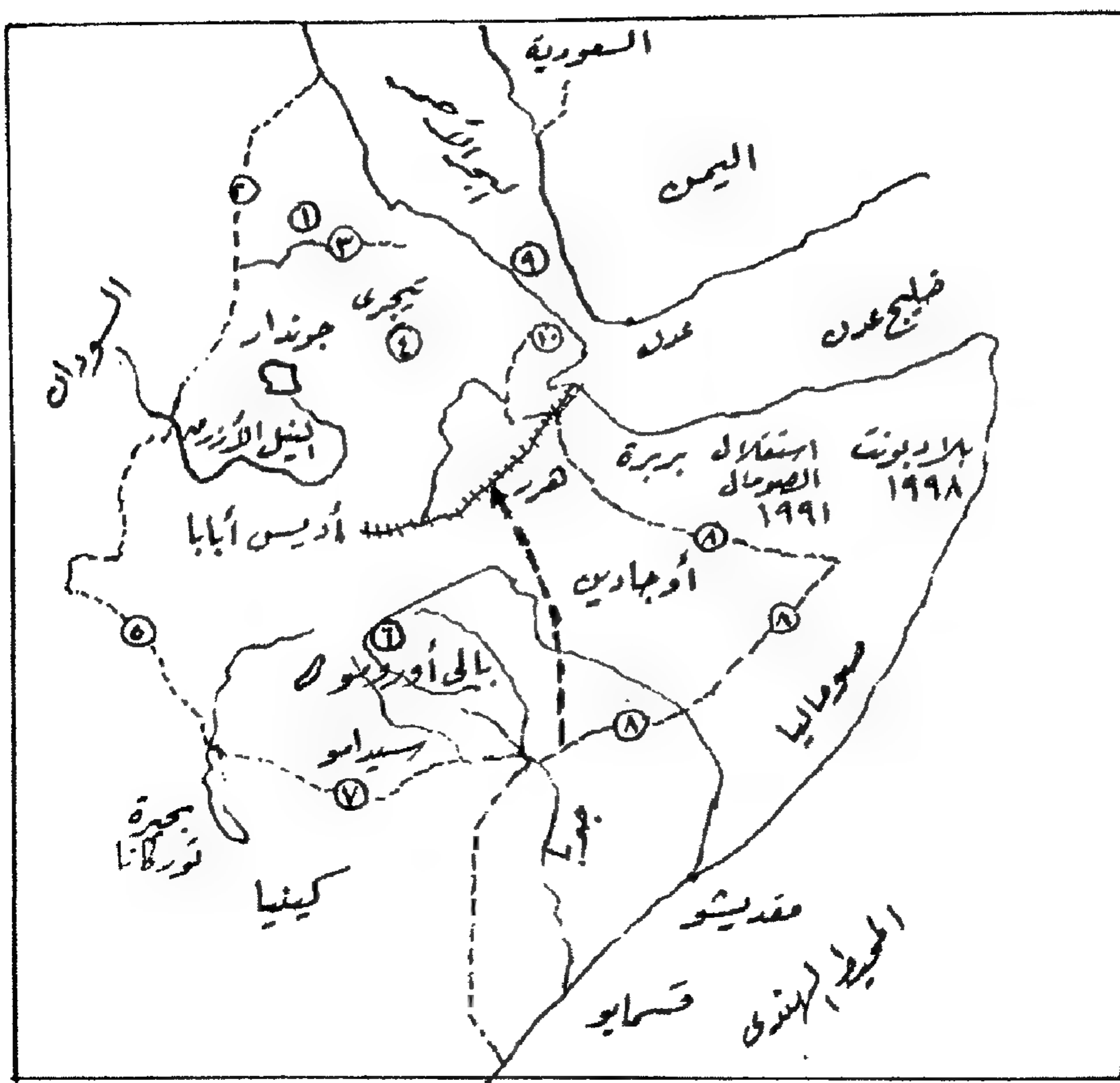
شكل رقم ٢٨ - تيجيريا أربعة عقود من الاستقلال

مخطط رقم ٢٩ إفريقيا والحرب الباردة



- ١- نظام استراكي وماركسي في الفترة من ١٩٦٠ - ١٩٩٠
- ٢- تغيير الولاء من السوفييت إلى الولايات المتحدة
- ٣- دعم أمريكي كامل
- ٤- الدول الإسلامية الاشتراكية
- ٥- منطقة الفصل
- ٦- أبرز منا طلع الحرب الباردة
- ٧- تورط قوات جنوب أفريقيا

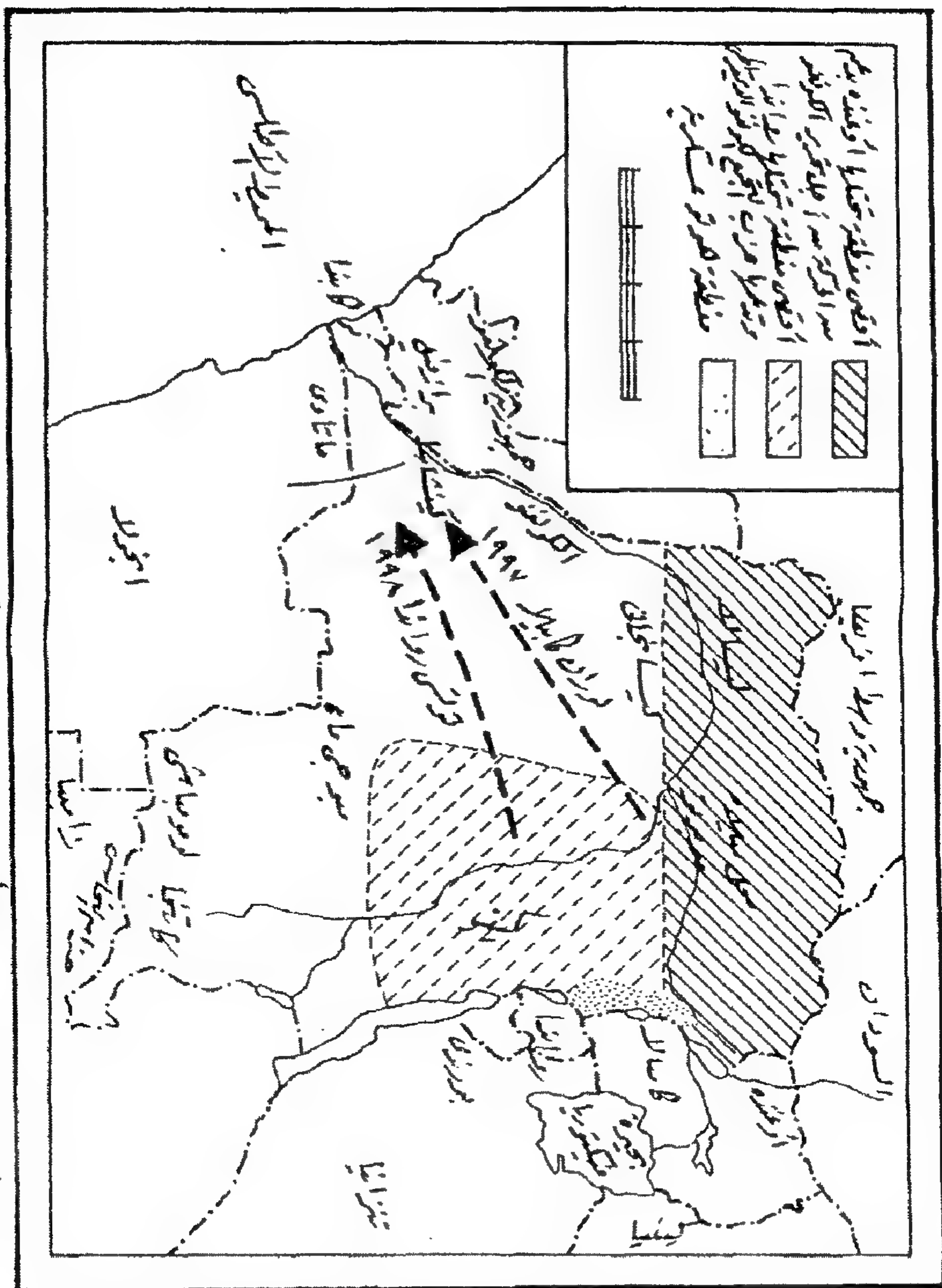


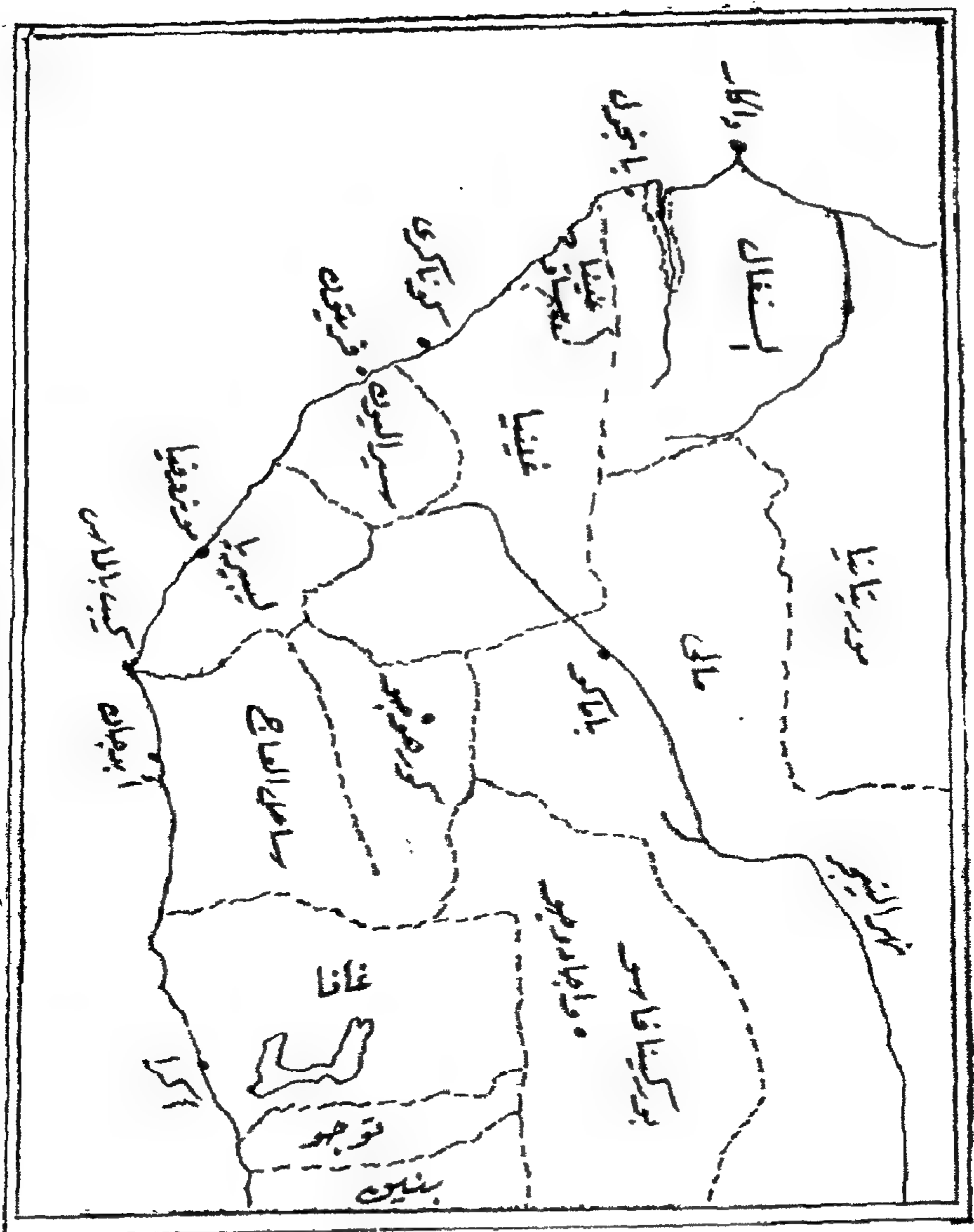


شكل رقم ٣١ الصراعات في القرن الأفريقي

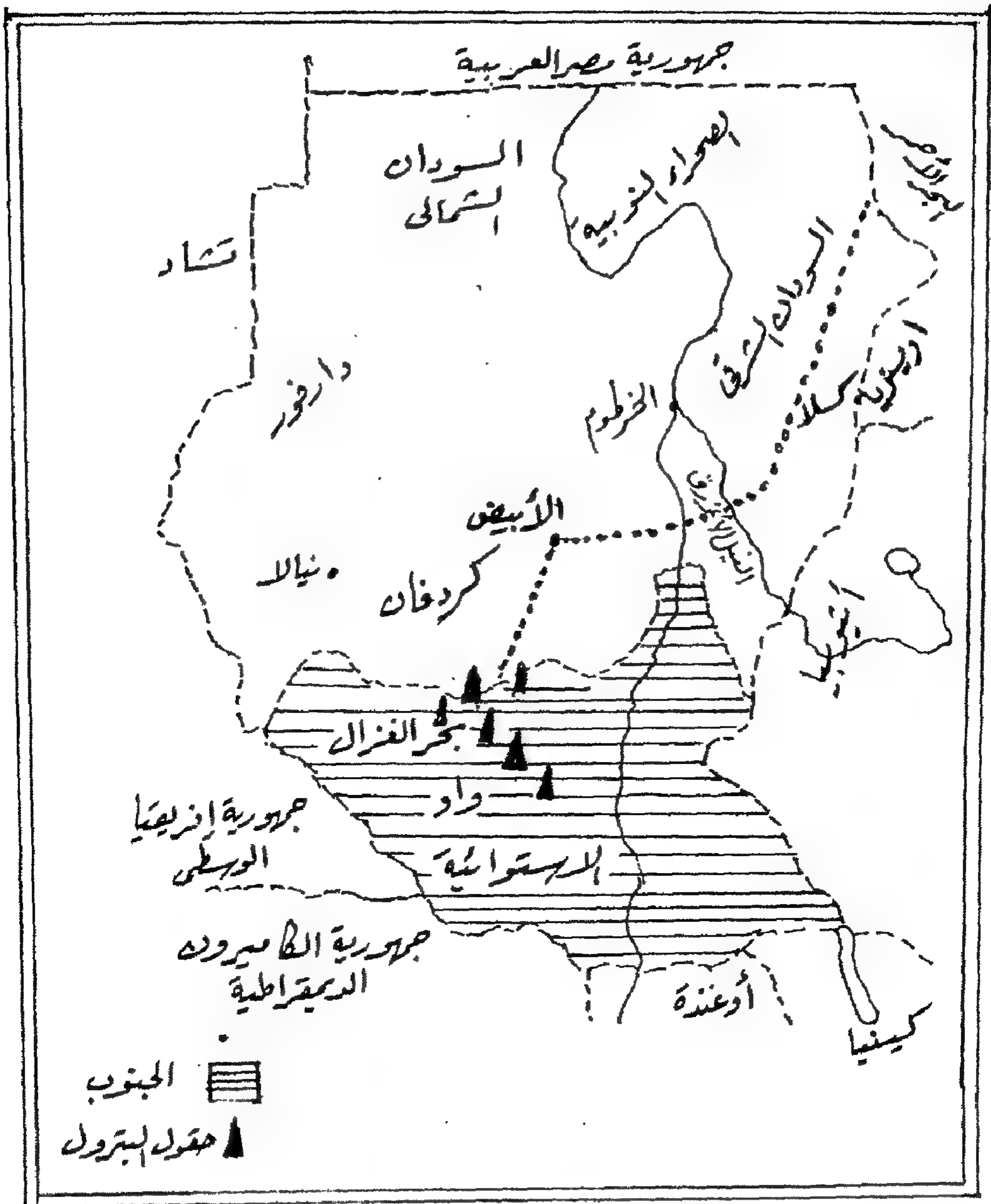
- ١- ١٩٦١ - ١٩٩٠ الصراع الوطني الاريتري ضد اثيوبيا .
- ٢- الصراعات السودانية الاثيوبية ١٩٩٥ - ١٩٩٨ .
- ٣- الحرب الاثيوبية الارترية ١٩٩٨ - ١٩٩٩ .
- ٤- جبهة تحرير شعب تيجري ١٩٧٥ - ١٩٨٥ .
- ٥- الثورط الاثيوبي في الحرب الاهلية في جنوب السودان .
- ٦- جبهة تحرير اورومو ١٩٧٥ - ١٩٩١ .
- ٧- التدخل الاثيوبي في كينيا .
- ٨- الحروب الاثيوبية الصومالية في السبعينيات والتسعينيات
- جبهة تحرير اوجادين والوصول الى هرر و خط السكة الحديد.
- ٩- الصراع اليمني الاريتري واحتلال اريتريا لجزر حنيش ١٩٩٥ .
- ١٠- صراع الحدود بين جيبوتي واريتريا ١٩٩٥ .

شكل رقم (٣٢) الأزمات في رواندا والملايكة في زائير

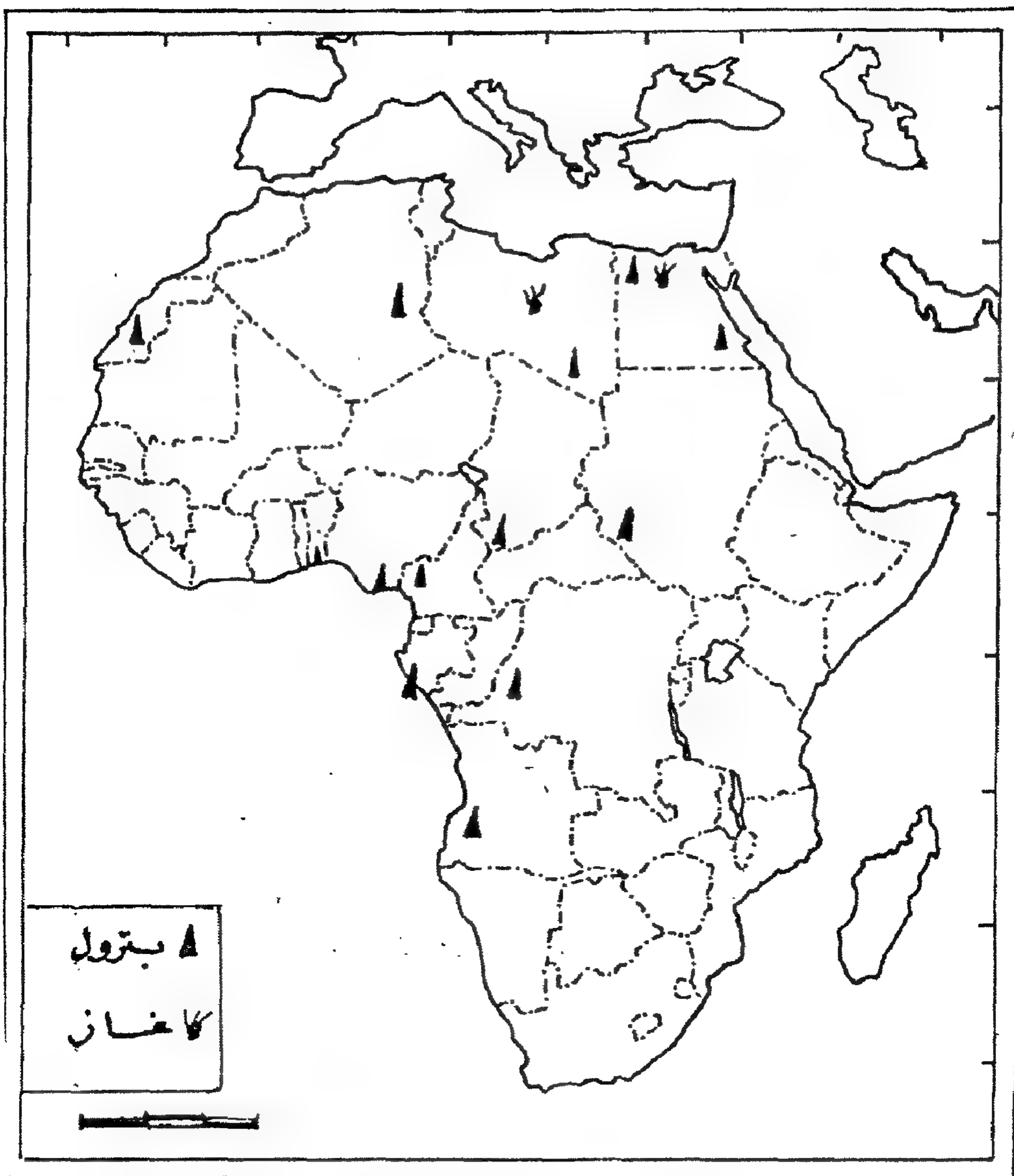




أسيا د الحرب في غرب افريقيا
 شكل رقم ٢٢



رسم ٣٤ السودان (الشمال مقابل الجنوب)



شكل رقم ٣٥ حقول البترول في إفريقيا

المراجع

- J. F. Ade Ajayi (ed.), *General History of Africa IV: Africa in the Nineteenth Century until the 1880s*, Paris, UNESCO, 1989.
- John E. Flint (ed.), *Cambridge History of Africa V, c1780–c1870*, Cambridge, 1976.
- Roland Oliver and G. N. Sanderson (eds.), *Cambridge History of Africa VI, c1870–c1905*, Cambridge, 1985.
- A. A. Boahen (ed.), *General History of Africa VII: Africa under Colonial Domination 1880–1935*, Paris, UNESCO, 1985.
- A. D. Roberts (ed.), *Cambridge History of Africa VII: 1905–1940*, Cambridge, 1986.
- Michael Crowder (ed.), *Cambridge History of Africa VIII: 1940–1975*, Cambridge, 1984.
- A. A. Mazrui (ed.), *General History of Africa VIII: Africa since 1935*, Paris, UNESCO, 1993.
- Thomas Pakenham, *The Scramble for Africa*, London, 1991.
- Suzanne Miers and Richard Roberts (eds.), *The End of Slavery in Africa*, Wisconsin, 1985.
- L. H. Gann and Peter Duignan (eds.), *Colonialism in Africa 1870–1960*, 5 vols., Cambridge, 1969–75.
- Bill Freund, *The Making of Contemporary Africa: The Development of African Society since 1800*, Boulder, CO, 1998.
- Frederick Cooper, *Africa since 1940*, Cambridge, 2002.
- John Iliffe, *The African Poor: A History*, Cambridge, 1987.

Suggestions for Further Reading

- Patrick Manning, *Francophone Sub-Saharan Africa, 1880–1995*, Cambridge, 1999.
- David Killingray and Richard Rathbone (eds.), *Africa and the Second World*

- War, New York, 1986.
- Prosser Gifford and Wm Roger Louis (eds.), *The Transfer of Power in Africa: Decolonisation 1940–1960*, New Haven, CT, 1982.
- David Birmingham, *Decolonisation in Colonial Africa*, London, 1995.
- John D. Hargreaves, *Decolonisation in Africa*, 2nd ed., Harlow, 1996.
- Adrian Hastings, *A History of African Christianity 1950–1975*, Cambridge, 1979.
- Paul Darby, *Africa, Football and FIFA: Politics, Colonialism and Resistance*, London, 2002.
- J. F. Ade Ajayi and Michael Crowder (eds.), *Historical Atlas of Africa*, London, 1983.
- World Bank, *Can Africa Claim the 21st Century?*, Washington, 2000.

NORTH AND NORTH-EAST AFRICA

- J. M. Abun-Nasr, *A History of the Maghrib*, 2nd ed., Cambridge, 1975.
- C. R. Pennell, *Morocco since 1830: A History*, London, 1999.
- Benjamin Stora, *Algeria, 1830–2000: A Short History*, Cornell UP, 2001.
- John Ruedy, *Modern Algeria: The Origins and Development of a Nation*, Bloomington, 1992.
- Charles-Robert Ageron, *Modern Algeria: A History from 1830 to the Present*, London, 1991.
- Derek Hopwood, *Habib Bourguiba of Tunisia: The Tragedy of Longevity*, London, 1992.
- Ali A. Ahmidam, *The Making of Modern Libya*, New York, 1994.
- M. W. Daly (ed.), *The Cambridge History of Egypt II: Modern Egypt, from 1517 to the End of the Twentieth Century*, Cambridge, 1998.
- Afaf Latfi al-Sayyid Marsot, *A Short History of Modern Egypt*, Cambridge, 1985.
- Robert Collins and Robert Tignor, *Egypt and the Sudan*, Englewood Cliffs, 1967.
- Douglas H. Johnson, *The Root Causes of Sudan's Civil Wars*, Oxford, 2003.
- Deborah Scroggins, *Emma's War*, Atlanta/London, 2003.
- Bahru Zewde, *History of Modern Ethiopia, 1855–1991*, Athens/Oxford, 2002.
- Donald Crummey, *Land and Society in the Christian Kingdom of Ethiopia from the 13th to the 20th Century*, Oxford, 2002.
- Ruth Iyob, *The Eritrean Struggle for Independence: Domination, Resistance, Nationalism, 1941–1993*, Cambridge, 1995.

I. M. Lewis, *A Modern History of the Somali*, Oxford, 2002.

Suggestions for Further Reading

WEST AFRICA

- J. F. Ade Ajayi and Michael Crowder (eds.), *History of West Africa*, vol. 2, London, 1974.
- A. G. Hopkins, *An Economic History of West Africa*, London, 1973.
- Richard L. Roberts, *Two Worlds of Cotton: Colonialism and the Regional Economy in the French Soudan, 1800–1946*, Stanford, 1996.
- Janet Vaillant, *Black, French, and African: A Life of Léopold Sédar Senghor*, Cambridge, MA, 1990.
- John Peterson, *Province of Freedom: A History of Sierra Leone, 1787–1870*, Evanston, IL, 1969.
- Paul Richards, *Fighting for the Rain Forest: War, Youth and Resources in Sierra Leone*, London, 1996.
- Astride R. Zolberg, *One-Party Government in the Ivory Coast*, 2nd ed., Princeton, 1969.
- Ivor Wilks, *Asante in the Nineteenth Century*, Cambridge, 1975.
- David Kimble, *A Political History of Ghana: The Rise of Gold Coast Nationalism 1850–1928*, Oxford, 1963.
- Dennis Austin, *Politics in Ghana 1946–1960*, London, 1964.
- John Carmichael, *Gold Coast to Ghana*, London, 1993.
- Richard Rathbone, *Murder and Politics in Colonial Ghana*, New Haven, 1993.
- Richard Rathbone, *Nkrumah and the Chiefs: The Politics of Chieftaincy in Ghana, 1951–60*, Athens, 1999.
- David Birmingham, *Kwame Nkrumah: The Father of African Nationalism*, Athens, 1998.
- James S. Coleman, *Nigeria: A Background to Nationalism*, Berkeley, 1968.
- J. D. Y. Peel, *Religious Encounters and the Making of the Yoruba*, Bloomington, 2000.
- Julius O. Ihonvbere and Timothy Shaw, *Illusions of Power: Nigeria in Transition*, Rochester, 1998.
- Toyin Falola, *Nigeria in the Twentieth Century*, Carolina Academic Press, 2002.

EASTERN AND WESTERN CENTRAL AFRICA

- Vincent Harlow, E. M. Chilver, and Alison Smith (eds.), *History of East Africa*, vol. 2, Oxford, 1965.
- D. A. Low and Alison Smith (eds.), *History of East Africa*, vol. III, Oxford, 1976.
- Robert L. Tignor, *The Colonial Transformation of Kenya*, Princeton, NJ, 1978.
- Bruce Berman and John Lonsdale, *Unhappy Valley: Conflict in Kenya and Africa*, London, 1992.

Suggestions for Further Reading

- Wunyabiri O. Maloba, *Mau Mau and Kenya: An Analysis of a Peasant Revolt*, Bloomington, 1998.
- Valerie Cuthbert, *Jomo Kenyatta: The Burning Spear*, Harlow, 1982.
- John Iliffe, *A Modern History of Tanganyika*, Cambridge, 1979.
- Annie Smyth and Adam Seftel (eds.), *Tanzania: The Story of Julius Nyerere*, Kampala, 2000.
- Michael Twaddle, *Kakungulu and the Creation of Uganda, 1868–1928*, Oxford, 1993.
- René Lamarchand, *Rwanda and Burundi*, London, 1970.
- Ruth Slade, *King Leopold's Congo*, London, 1962.
- Osumaka Likaka, *Society and Cotton in Colonial Zaire*, Wisconsin, 1997.
- Crawford Young, *Politics in the Congo: Decolonisation and Independence*, Princeton, NJ, 1965.
- George Nzongola-Ntalaja, *The Congo, from Leopold to Kabila: A People's History*, New York, 2002.
- Michela Wrong, *In the Steps of Mr Kurtz*, London, 2000.

SOUTHERN CENTRAL AFRICA

- David Birmingham and Phyllis Martin (eds.), *History of Central Africa: The Contemporary Years since 1960*, Harlow, 1998.
- R. J. Hammond, *Portugal and Africa 1815–1910*, Stanford, 1966.
- Douglas L. Wheeler and René Pelissier, *Angola*, New York, 1971.
- Tony Hodges, *Angola from Afro-Socialism to Petro-Diamond Capitalism*, Oxford, 2001.
- Malyn Newitt, *A History of Mozambique*, London, 1995.

- Allen F. Isaacman, *Cotton Is the Mother of Poverty: Peasants, Work and Rural Struggle in Colonial Mozambique, 1938–1961*, Portsmouth, NH, 1996.
- Merle Bowen, *The State against the Peasantry: Rural Struggles in Colonial and Postcolonial Mozambique*, Charlottesville, VA, 2000.
- Martin Chanock, *Law, Custom, and Social Order: The Colonial Experience in Malawi and Zambia*, New York, 1998.
- Andrew Roberts, *A History of Zambia*, London, 1976.
- B. S. Krishnamurthy, *The Making of Modern Malawi*, London, 1992.
- John Flint, *Cecil Rhodes*, London, 1976.
- Robert Blake, *A History of Rhodesia*, London, 1977.
- T. O. Ranger, *Revolt in Southern Rhodesia 1896–7*, London, 1967.
- Charles van Onselen, *Chibaro: African Mine Labour in Southern Rhodesia 1900–1933*, London, 1976.
- Richard Gray, *The Two Nations: Aspects of the Development of Race Relations in the Rhodesias and Nyasaland*, London, 1960.
- James P. Barber, *Rhodesia: The Road to Rebellion*, London, 1967.

Suggestions for Further Reading

- Patrick Bond, *Uneven Zimbabwe: A Study of Finance, Development and Underdevelopment*, Trenton, NJ, 1998.
- Hevina S. Dashwood, *Zimbabwe: The Political Economy of Transformation*, Toronto, 2000.
- W. Minter, *King Solomon's Mines Revisited*, New York, 1986.
- Helmut Bley, *South-West Africa under German Rule*, London, 1971.
- Raymond Kent, *From Madagascar to the Malagasy Republic*, Westport, CT, 1976.

SOUTH AFRICA

- Monica Wilson and L. M. Thompson, *The Oxford History of South Africa*, 2 vols., Oxford, 1969–71.
- William Beinart, *Twentieth Century South Africa*, Oxford, 1994.
- James Barber, *South Africa in the Twentieth Century*, Oxford, 1999.
- Rodney Davenport and Christopher Saunders, *South Africa, A Modern History*, New York, 2000.
- Noel Mostert, *Frontiers: The Epic of South Africa's Creation and the Tragedy of the Xhosa People*, London, 1992.

- Colin Bundy, *The Rise and Fall of the South African Peasantry*, London, 1979.
- Charles van Onselen, *Studies in the Social and Economic History of the Witwatersrand 1886–1914*, 2 vols., London, 1982.
- W. K. Hancock, *Smuts*, 2 vols., Cambridge, 1962–8.
- Peter Walshe, *The Rise of Nationalism in South Africa: The African National Congress 1912–1952*, London, 1970.
- Francis Wilson, *Labour in the South African Gold Mines 1911–1969*, Cambridge, 1972.
- H. J. and R. E. Simons, *Class and Colour in South Africa 1850–1950*, Harmondsworth, 1969.
- Deborah Posel, *The Making of Apartheid, 1948–1961: Conflict and Compromise*, Oxford, 1991.
- A. Adedeji (ed.), *South Africa and Africa: Within or Apart?*, London, 1997.
- A. Guelke, *South Africa in Transition: The Misunderstood Miracle*, London, 1999.
- Jack Spence (ed.), *After Mandela*, London, 1999.
- Nelson Mandela, *Long Walk to Freedom*, London, 1994.
- F. W. de Klerk, *The Last Trek*, Johannesburg, 1999.

المترجم فى سطور:
فريد بورى

أتم دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية فى مدرسة فرنسية فى القاهرة (الجينرويت) ثم درس اللغات الرومانية والجرمانية فى مصر وألمانيا وأسبانيا وإيطاليا، وحصل على ليسانس فى التاريخ وليسانس فى اللغة الإنجليزية من كلية الآداب جامعة عين شمس، وعمل مترجما فى مصر وسلطنة عمان،

المراجع فى سطور:

أ. د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم

- حصل على ليسانس الآداب من قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٦٢.
- ولسانس التاريخ عام ١٩٧٩، وماجستير الدراسات الأفريقية عام ١٩٦٧، ودكتوراه الفلسفة بمرتبة الشرف فى عام ١٩٨٢.
- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل معهد البحوث والدراسات الأفريقية السابق، تدرج فى الوظائف الجامعية حتى صار أستاذ التاريخ الحديث عام ١٩٩٢، وألف أكثر من عشرين كتابا وخمسين بحثا فى مؤتمرات علمية فى الداخل والخارج، وله أكثر من ثلاثين مقالا فى الدوريات والحوليات العلمية، وشارك فى عدد من المؤتمرات العلمية داخل ومصر وخارجها، ويشرف على عدد كبير من طلاب الدراسات العليا فى الماجستير والدكتوراه.
- يشارك بصفة دائمة فى التقارير الإذاعية والبرامج التليفزيونية التى تعالج مشكلات القارة الأفريقية. كما يساهم فى كتابة بعض المقالات والتقارير الأفريقية، كما يساهم فى كتابة بعض المقالات والتقارير الصحفية فى جريدة الأهرام.
- ويقوم حاليا بترجمة بعض الكتب التاريخية التى تدور حول رحلات اكتشاف أفريقيا وغيرها من القضايا التاريخية.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد مرويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادمو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كارييتيكوثا	أحمد الحضري
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفتيش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد منتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر طي
١١- مختارات شعرية	فيسواقا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب غلوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء (ج١)	مارتن برنال	يأشراف: أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يعنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صعد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارنتر	بكر عباس
٢٥- مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	يأشراف: جابر عصفور
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادمو بانيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطوجى وعبد الوهاب غلوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصه إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثه	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثه	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٢٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريچيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٢٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٢٩-	الحمد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عبد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتاڤيو پاث	المهدي أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغفور	روبرت ميتا وچون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو فيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى لليلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوربا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدميى	ب. توفاليس وس. روجسيفيتز ودوجر ميل	لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونيت	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتن	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميت	ياشرف : محمد الجوهري
٦٢-	لذة النص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدي أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أولئ القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج روبريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	جين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمالِك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسيرة الذاتية	أنثريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكن وإغواء التطيل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكرنية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسپنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صانقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتقرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيننز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسباني المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولة	مايك فينرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحية	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويزو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	عبد العزيز شبيب
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفنان فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

أحمد حسان	سادى پلانت	١١٣- راية التمرد
نسيم مجلى	ول شوينكا	١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستقع
سمية رمضان	فرچينيا وولف	١١٥- غرفة تخص المراء وحده
نهاد أحمد سالم	سينثيا نلسون	١١٦- امرأة مختلفة (نرية شفيق)
منى إبراهيم وهالة كمال	ليلى أحمد	١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام
ليس النقاش	بث بارون	١١٨- النهضة النسائية فى مصر
بإشراف: روف عباس	أميرة الأزهرى سنبل	١١٩- النساء والأسرة وتراثهن الطلق فى التاريخ الإسلامى
مجموعة من المترجمين	ليلى أبو لغد	١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط
محمد الجندى وإيزابيل كمال	فاطمة موسى	١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية
منيرة كروان	جوزيف فوجت	١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان
أنور محمد إبراهيم	أنيتل ألكسندرو فناوليئا	١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
أحمد فؤاد بليغ	جون جراى	١٢٤- الفجر الكائب: أوهام الرأسمالية العالمية
سمحة الخولى	سيدرك ثورپ ديفى	١٢٥- التحليل الموسيقى
عبد الوهاب علوب	قولفانج إيسر	١٢٦- فعل القراءة
بشير السباعى	صفاء فتحى	١٢٧- إرهاب (مسرحية)
أميرة حسن نويرة	سوزان باسنيت	١٢٨- الأدب المقارن
محمد أبو العطا وآخرون	ماريا دولورس أسيس جاروت	١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة
شوقى جلال	أندريه جوندز فرانك	١٣٠- الشرق يصعد ثانية
لويس بقطر	مجموعة من المؤلفين	١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى
عبد الوهاب علوب	مايك فينرستون	١٣٢- ثقافة العولة
طلعت الشايب	طارق على	١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)
أحمد محمود	بارى ج. كيمب	١٣٤- تشريح حضارة
ماهر شفيق فريد	ت. س. إليوت	١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت
سحر توفيق	كينيث كرونو	١٣٦- فلاحو الباشا
كاميليا صبحى	جوزيف مارى مواريه	١٣٧- منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر
وجيه سمعان عبد المسيح	أندريه جلوكسمان	١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
مصطفى ماهر	ريتشارد فاچنر	١٣٩- پارسيقال (مسرحية)
أمل الجبورى	هربرت ميسن	١٤٠- حيث تلتقى الأنهار
نعيم عطية	مجموعة من المؤلفين	١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية
حسن بيومى	أ. م. فورستر	١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل
عدلى السمرى	ديرك لايدر	١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
سلامة محمد سليمان	كارلو جولونوى	١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)
أحمد حسان	كارلوس فوينتس	١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)
على عبدالرؤف البمبى	ميجيل دى ليس	١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)
عبدالغفار مكارى	تاتكريد نورست	١٤٧- مسرحيتان
على إبراهيم منوفى	إنريكى أندرسون إميرت	١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية
أسامة إسبر	عاطف فضول	١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس
منيرة كروان	روبرت ج. ليتمان	١٥٠- التجربة الإغريقية

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهند وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام الفراغة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمساني
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزیز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالطيم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوي	صلاح عبدالعزیز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	ياشرف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوثير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتنبيين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليتمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رايندرنات طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأنث والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دالبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنري تروايا	حصه إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الستينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤-	القاهرة: حالة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُرْج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العصر والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد للعاصر	بول دي مان	سعيد القانمي
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجاني
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازي السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج١)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأتجول-أمريكي الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	فالتين راسپوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوي
١٩٨-	الاتصال الجماهيري	إيوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لاندوا	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	جيرمي سبيروك	فخزي لبيب
٢٠١-	الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالي	جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شارازر	أحمد هويدي
٢٠٥-	الجيئات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي-سفيرزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	علي يوسف علي
٢٠٧-	ليل أفريقي (رواية)	رامون خوتاستندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائي (شعر)	سنائي الغزنوي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فريديان بوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدي عبد الفنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان	مرزيان بن رستم بن شروين	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣-	مسرح منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد علي الناصري
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيننز	محمد محيي الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طبيعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بيتتر	نادية البنهاوي
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثان	علي إبراهيم منوفي
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية في الكون	باري پاركر	علي يوسف علي
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراي	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم في مجتمع حر	بارل فيرابند	السيد محمد نقادى
٢٢٤-	نمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابريل جارشيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	طاهر محمد علي البربري

السيد عبدالظاهر عبدالله	خوسيه ماريا ديث بوركي	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	٢٢٧-
ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن	چانيت وولف	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	٢٢٨-
أمير إبراهيم العمري	نورمان كيچان	مأزق البطل الوحيد	٢٢٩-
مصطفى إبراهيم فهمي	فرانسواز چاكوب	عن الذباب والفئران والبشر	٢٣٠-
جمال عبدالرحمن	خايمي سالوم بيدال	الغرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	٢٣١-
مصطفى إبراهيم فهمي	توم ستونير	ما بعد المعلومات	٢٣٢-
طلعت الشايب	آرثر هيرمان	فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي	٢٣٣-
فؤاد محمد عكود	ج. سبنسر تريمنجهام	الإسلام في السودان	٢٣٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	ديوان شمس تبريزي (ج١)	٢٣٥-
أحمد الطيب	ميشيل شوبكيفيتش	الولاية	٢٣٦-
عنايات حسين طلعت	رويين فيدين	مصر أرض الوادي	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعربي مديولي احمد	تقرير لمنظمة الأنكتاد	العولمة والتحرير	٢٣٨-
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيلا رامراز - رايوخ	العربي في الأدب الإسرائيلي	٢٣٩-
صلاح محجوب إدريس	كاي حافظ	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	٢٤٠-
ابتهسام عبدالله	ج. م. كوتزي	في انتظار البرابرة (رواية)	٢٤١-
صبري محمد حسن	وليام إميسون	سبعة أنماط من الغموض	٢٤٢-
بإشراف: صلاح فضل	ليفي بروفنسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	لورا إسكيبيل	الغليان (رواية)	٢٤٤-
توفيق علي منصور	إليزابيتا أديس وآخرون	نساء مقاتلات	٢٤٥-
علي إبراهيم منوفي	جابريل جارثيا ماركيث	مختارات قصصية	٢٤٦-
محمد طارق الشرقاوي	والتر أرمبرست	الثقافة الجماهيرية والحدائق في مصر	٢٤٧-
عبداللطيف عبدالحليم	أتطونيو جالا	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	٢٤٨-
رقعت سلام	دراجو شتامبيوك	لغة التمزق (شعر)	٢٤٩-
ماجدة محسن أباطة	دومنيك فيتك	علم اجتماع العلوم	٢٥٠-
بإشراف: محمد الجوهري	جورديون مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	٢٥١-
علي بدران	مارجو بدران	رائدات الحركة النسوية المصرية	٢٥٢-
حسن بيومي	ل. أ. سيمينوفا	تاريخ مصر الفاطمية	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروفز	أقدم لك: الفلسفة	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروفز	أقدم لك: أفلاطون	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وكريس جارات	أقدم لك: ديكارت	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	وليم كلي رايت	تاريخ الفلسفة الحديثة	٢٥٧-
عبادة كُحيلة	سير أنجوس فريزر	الفجر	٢٥٨-
فاروجان كازانجيان	نخبة	مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	٢٥٩-
بإشراف: محمد الجوهري	جورديون مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	زكي نجيب محمود	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	٢٦١-
محمد أبو العطا	إدوارنو مندوتا	مدينة المعجزات (رواية)	٢٦٢-
علي يوسف علي	چون جرين	الكشف عن حافة الزمن	٢٦٣-
لويس عوض	هوراس وشلي	إبداعات شعرية مترجمة	٢٦٤-

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبد المنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروكي
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم جيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقي جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية في مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الاصول الاجتماعية والثقافية لحركة عربية في مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وثاقفاً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمساني
٢٧٧-	الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي
٢٧٨-	البدائيات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف. س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفريوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٢-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد العرف اليمبي
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عثمان
٢٨٥-	رحلة خواجه حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان متوجهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبد المنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج موان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فرانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل موريز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بنوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ليونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروشويس في الاميجن الإنجليزي والفرنسي (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيري وبهاء جاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروشويس في الاميجن الإنجليزي والفرنسي (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفرز	إمام عبد الفتاح إمام

٢٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٢٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٢٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز ويورين فان لو	ممنوح عبد المنعم
٢٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٢١٠-	أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٢١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كوانجود	فاطمة إسماعيل
٢١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٢١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايبير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٢١٤-	مارسيل نوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعى
٢١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٢١٦-	محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٢١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩-	صور دريدا	جايترى سبيثاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو قنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٢٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٢٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٢٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٢٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هايرماس	حسن صقر
٢٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٢٣١-	عندما جاء السربين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٢٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٢٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحي العشرى
٢٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٢٣٧-	فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٢٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (ج ٢)	إنوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٢٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمي
٢٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	بونيه ندائي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٢٤٧-	الصبيبة الطائشون (رواية)	چان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨-	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (ج١)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهودن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١-	مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصاري
٢٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو يابون مالدونانو	على إبراهيم منوفي
٢٥٤-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو يابون مالدونانو	على إبراهيم منوفي
٢٥٥-	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتجي	محمود علاوي
٢٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعي
٢٥٧-	متون هرمس	تيموثي فريك وبيتر غاندي	عمر الفاروق عمر
٢٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٥٩-	محاورة يارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٢٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلي الشربيني
٢٦١-	التصحح: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وأمال شاور
٢٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شيبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبري محمد حسن
٢٦٤-	حادثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥-	سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧-	القلم الجريء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادي رضا
٢٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد پرنس	عابد خزندار
٢٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوي	فوزية العشماوي
٢٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١-	المتصوفة الأولون في الأدب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفي
٢٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦-	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوي وآخرون	إيوار الخراط
٢٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج٤)	إيوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنيل باث	٢٧٩- ملك في الحديقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جوتتر جراس	٢٨٠- حديث عن الخسارة
رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادي	بهاء الدين محمد اسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	٢٨٥- مشترى العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي
بهاء جاهين	جون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازي	٢٨٨- مواعظ سعدى الشيرازي (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	٢٩٠- الأرضيات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشي	٢٩١- الحافلة الليلية (رواية)
عبداللطيف عبدالطيم	فرناندو دي لاجرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣- في قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٢٩٥- ألام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى تجارى راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتي شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وألن كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبد النعم	زياودن ساربر وأخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
طلبة خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان في القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه
عنان الشهاوى	جوان فوتشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوبر	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	چينيفر أكرمان	٤١١- همس من الماضي
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل المصيان	باسكال كازانوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأدب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش نورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الألبى الحديث (ج٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فوانتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامى الاول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سينسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل قلنت	حمدي الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زبرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربى	شبللى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بييرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عيسى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروناتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتغيرها	كيس فرستينغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القيمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز نائل خانلوى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السيد	تراث شعبى إسباني	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محي الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وقزاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نهر مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليترا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	النولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصه إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب ويطولات فرعونية	ثيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلى	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كىخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كىخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سايدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيالسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج ولى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو موروا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبرت يابوس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبابى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسُـرُـل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسُـرُـل	محمود رجب
٤٩٠-	أسماء البقاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الألب الأفرقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصبغى
٤٩٥-	اللوى	إيوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	الطلمانية والنوع والنولة في الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوهيت تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	قيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طقوس: دراسة في السيرة الذاتية العربية	تيتز روكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (ج١)	آرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهمي
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبدالباقي جلبتارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان في عصر سلاطين المماليك	أنم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقع (رواية)	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جوتثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى بوجلاس	فدوى مالطى بوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان في علاج الإيمان	آرنولد واشنطن وبونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الواع الفرنسي بمصر من الطم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبد الوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمذجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم هيد في بيروت وقصص أخرى	نخيس چونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفل إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بنايع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذي حدث في حدث ١١ سبتمبر؟	چاك بريددا	صفاء فتحي
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشراوي
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	سمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧-	الحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالفار مكارى
٥٣٨-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانييل	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليرباني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشيل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق علي منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودي وأن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرين ويون فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلي وليتا جانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وييرو	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	علي عبد الرؤف البمبي
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦-	أقدم لك: جان بوبريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاشينتو بينابيتتي	صبرى محمدى التهامي
٥٦٤-	عش الغريب (مسرحية)	خاشينتو بينابيتتي	صبرى محمدى التهامي
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	دييورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧-	الوطن المقتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصول في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر نيب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١-	تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب في زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤-	مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥-	الاقتصاد السياسي العولمة	نجير وولز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الرعوف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وچودي جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف النولية (مج ١)	جون فيزر وپول سيترجز	بإشراف: محمد فتحي عبدالهادي
٥٨١-	الحققي يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود نوات آبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزييث مالكوموس وروى أرمن	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدي
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالقواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبري السوربوني	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	پول فاليري	بكر الطو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج ٢)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية في العالم	روبرت بيجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلعو غرناطة	خوليو كاروياروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكتعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	التسوية والمواطنة	ريان ثوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافي	أرثر أيزنبرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج ١)	پاتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦-	قصة البردي اليوناني في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المنجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيدولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كوان مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	آى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادرجا الإيرانية	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد يرادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاى جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	ياشرف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكرويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التبثيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولنده	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتز	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	أكسياد	الأميرة أناكومينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر ويورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد التريبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د. تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومسايرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر نبيج	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موياسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	بيليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطاقة (مشرقية)	إيريش كستتر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خيز الشعب والأرض الحمراء (مشرقيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجنور	داسو سالديبار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امراة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القائمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العرلة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	ول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أنولفو	جوستاف أنولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولنوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفونسي للأطفال	نخبة	إبتهاال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	سيوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج١، ج٢)	مارتن برنال	باشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج١، ج٢)	مارتن برنال	باشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، ج٢)	إيوارد جرانثيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، ج٢)	إيوارد جرانثيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المسينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غريال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حطر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأصالة القصصية الكاملة (لنا كندا) (ج١)	أوراشيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأصالة القصصية الكاملة (الصمراء) (ج٢)	أوراشيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امراء محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. فوير وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السناحى
٦٨٩-	الملف (مصرحية)	تاندوش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم القلتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	البرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أيجانسى وأوسكار زاريت	حمدي الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حائيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: بريدا	جيف كواينز وبيل ماييلين	حمدي الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روينسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روينسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندريجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيقان وارد وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسملة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحدائق	وليم رود شيبيان	منى البرنس
٧٠٢-	مدينة جوستين فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	إيوارد جرانثيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مذكور
٧٠٦-	الشجرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراغة من؟	دونالد مالكرولم ريد	رغوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	نرة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (ج١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	الإلياذة (ج٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	جنا صاوه
٧١٥-	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (ج٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (ج٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولديرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام جونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١-	فلسفة المتكلمين في الإسلام (مج ١)	هـ. أ. والفلسون	مصطفى ليبي عبد الفتى
٧٢٢-	الصفحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصقفاقي أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفريدي	بول روبنسون	عبد الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون في المغرب	غيرمو غوثالبيس بومستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية في إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: النكر والأشئ بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بنوى
٧٣٤-	بونابرت في الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل المصيان
٧٣٥-	فن السيرة في العربية	مايكل كويرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج ٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	مشرق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة الملوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	مشرق من الإمبراطورية الشانية حتى الوقت الحاضر	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرقت يا قوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوارا	رنق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المأثر السلطانية	بيك النبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج ١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة في لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	ياشرف: أحمد عثمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج في تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عارورى
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنا مارى شيميل	عبد السلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسباني خلال القرن العشرين	أندرو ب. بيبكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكي خارمبيل بوتشلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	پاتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولة	بروس روبنز	عاطف عبد الحميد

٧٥٩-	النثر الأردى	مواوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرجينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢-	المسلم عرباً و صديقاً	ماريا سوايداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤-	ميوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥-	ميوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦-	الشرق المتخيل	تيرى منتش	غازى برو وظيل أحمد خليل
٧٦٧-	الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨-	حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩-	أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠-	السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالوس	صبرى التهامى
٧٧١-	السيد سيجوندو سومبرا	ريكارنو جویرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢-	بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣-	دائرة المعارف الدولية (ج٢)	جون فيز وپول ستيرجز	ياشرف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤-	الديمقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥-	مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦-	منظومة مصيبت نامہ (مج ١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧-	الانفجار الأعظم	جيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨-	صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورغما القادري	حازم محفوظ
٧٧٩-	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم وسارة تাকাهاشى
٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١-	الطريق إلى يكين	هدى بفران	نبيلة بدران
٧٨٢-	المسرح المسكون	مارفن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣-	العولة والرعاية الإنسانية	تيك جورج وپول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤-	الإساعة للطفل	بيفيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥-	تأملات عن تطور نكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صائق
٧٨٦-	المنذبة (رواية)	مارجريت أتوود	محر توفيق
٧٨٧-	العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صائق
٧٨٨-	سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩-	الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبي
٧٩٠-	الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١-	العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢-	براسات حول القمص الصغيرة لإنريس ومطرب	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل	جون جريفيس	رؤف وصفى
٧٩٤-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (ج٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥-	مختارات من الشعر الإسباني (ج١)	نخبة	على عبد الرؤف البعبى
٧٩٦-	أفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

طلعت شاهين	نخبة	الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	٧٩٧-
سميرة أبو الحسن	كاترين جيلدرود ودافيد جيلدرود	الإرشاد النفسى للأطفال	٧٩٨-
عبد الحميد فهمى الجمال	آن تيلر	سلم السنوات	٧٩٩-
عبد الجواد توفيق	ميشيل ماكارثى	قضايا فى علم اللغة التطبيقى	٨٠٠-
بإشراف: محسن يوسف	تقرير دوى	نحو مستقبل أفضل	٨٠١-
شرين محمود الرفاعى	ماريا موليداد	مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	٨٠٢-
عزة الخميسى	توماس باترسون	التغيير والتنمية فى القرن العشرين	٨٠٣-
درويش الحلوجى	دانيل هيرفيه-ليجيه وجان بول ويلام	سوسيولوجيا الدين	٨٠٤-
طاهر البربرى	كازو إيشيجورو	من لا عزاء لهم (رواية)	٨٠٥-
محمود ماجد	ماجدة بركة	الطبقة العليا المصرية	٨٠٦-
خيرى نومة	ميريام كوك	يحي حقى: تشريح مفكر مصرى	٨٠٧-
أحمد محمود	ديفيد دابليو ليش	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	٨٠٨-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كرويسى	تاريخ الفلسفة السياسية (ج١)	٨٠٩-
محمود سيد أحمد	ليو شتراوس وجوزيف كرويسى	تاريخ الفلسفة السياسية (ج٢)	٨١٠-
حسن النعيمى	جوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	٨١١-
فريد الزاهى	ميشيل مافيزولى	تمثل العالم الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	٨١٢-
نورا أمين	آنى إرنو	لم أخرج من ليلى (رواية)	٨١٣-
آمال الروبى	نافتال لويس	الحياة اليومية فى مصر الرومانية	٨١٤-
مصطفى لبيب عبد القنى	هـ. أ. ولفسون	فلسفة المتكلمين (مج٢)	٨١٥-
بدر الدين عرودى	فيليب روجيه	العنق الأمريكى	٨١٦-
محمد لطفى جمعة	أفلاطون	مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	٨١٧-
ناصر أحمد وباتسى جمال الدين	أندريه ريمون	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (ج١)	٨١٨-
ناصر أحمد وباتسى جمال الدين	أندريه ريمون	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (ج٢)	٨١٩-
طانيوس أفندى	وليم شكسبير	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	٨٢٠-
عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن الجامى	هفت بيكر (شعر)	٨٢١-
محمد نور الدين عبد المنعم	نخبة	فن الرباعى (شعر)	٨٢٢-
أحمد شافعى	نخبة	وجه أمريكا الأسود (شعر)	٨٢٣-
ربيع مفتاح	دافيد برتش	لغة الدراما	٨٢٤-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	عصر النهضة فى إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٥-
عبد العزيز توفيق جاويد	ياكوب يوكهارت	عصر النهضة فى إيطاليا (ج١) (ميراث الترجمة)	٨٢٦-
محمد على فرج	نونالد پ. كول وثرىا تركى	أهل مطبخ: اليهود والسقطنين والذين يخبزون المخللات	٨٢٧-
رمسيس شحاتة	ألبرت أينشتاين	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	٨٢٨-
مجدى عبد الحافظ	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مناظرة حول الإسلام والعلم	٨٢٩-
محمد علاء الدين منصور	حسن كريم بور	رق العشق	٨٣٠-
محمد النادى وعطية عاشور	ألبرت أينشتاين وليوبولد إنفلد	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	٨٣١-
حسن النعيمى	جوزيف أ. شومبيتر	تاريخ التحليل الاقتصادى (ج٢)	٨٣٢-
محسن الدمرداش	فرنر شميدرس	الفلسفة الألمانية	٨٣٣-
محمد علاء الدين منصور	ذبيح الله صفا	كنز الشعر	٨٣٤-

علاء عزمى	بيتر أوريان	٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور
ممنوح البستاوى	مرثيدس غارثيا	٨٣٦- بين الإسلام والغرب
على فهمى عبدالسلام	ناتاليا فيكو	٨٣٧- عناكب فى المصيدة
لبنى صبرى	نعوم تشومسكى	٨٣٨- فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى
جمال الجزيرى	ستيوارت سين وبورين فان لون	٨٣٩- أقدم لك: النظرية النقدية
فوزية حسن	جوتنهولد ليسينج	٨٤٠- الخواتم الثلاثة
محمد مصطفى بدوى	وليم شكسبير	٨٤١- هملت: أمير الدانمارك
محمد محمد يونس	فريد الدين العطار	٨٤٢- منظومة مصيبت نامه (مج ٢)
محمد علاء الدين منصور	نخبة	٨٤٣- من روائع القصيد الفارسي
سمير كريم	كريمة كريم	٨٤٤- دراسات فى الفقر والعولة
طلعت الشايب	نيكولاس جويات	٨٤٥- غياب السلام
عادل نجيب بشرى	ألفريد أدلر	٨٤٦- الطبيعة البشرية
أحمد محمود	مايكل ألبرت	٨٤٧- الحياة بعد الرأسالية
عبد الهادى أبو ريده	يوايوس قلهاوزن	٨٤٨- تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)
بدر توفيق	وليم شكسبير	٨٤٩- سونيتات شكسبير
جابر عصفور	مقالات مختارة	٨٥٠- الخيال، الأسلوب، الحداثة
يوسف مراد	كلود برنار	٨٥١- الطب التجريبي (ميراث الترجمة)
مصطفى إبراهيم فهمى	ريتشارد دوكتز	٨٥٢- العلم والحقيقة
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالدونادو	٨٥٣- العاصرة فى الأندلس: عبارة المدن والحصون (مج ١)
على إبراهيم منوفى	باسيليو بابون مالدونادو	٨٥٤- العاصرة فى الأندلس: عبارة المدن والحصون (مج ٢)
محمد أحمد حمد	جيرارد ستيتم	٨٥٥- فهم الاستعارة فى الأدب
عائشة سورلم	فرانتيسكو ماركيث يانو بيانويا	٨٥٦- القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى
كامل عويد العامرى	أندريه بريتون	٨٥٧- نادجا (رواية)
بيومى قنديل	ثيو هرمانز	٨٥٨- جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية
مصطفى ماهر	إيف شيميل	٨٥٩- السياسة فى الشرق القديم
عادل صبحى تكلا	فان بلمان	٨٦٠- مصر وأوروبا
محمد الخولى	چين سميث	٨٦١- الإسلام والمسلمون فى أمريكا
محسن الدمرداش	أرتور شنيتسلر	٨٦٢- بقاء الكاكابو
محمد علاء الدين منصور	على أكبر دلفى	٨٦٣- لقاء بالشعراء
عبد الرحيم الرفاعى	نورين إنجرامز	٨٦٤- أوراق فلسطينية
شوقى جلال	تيرى إيجلتون	٨٦٥- فكرة الثقافة
محمد علاء الدين منصور	مجموعة من المؤلفين	٨٦٦- رسائل خمس فى الأفاق والأنفس
صبرى محمد حسن	ديفيد مايلو	٨٦٧- المهمة الاستوائية (رواية)
محمد علاء الدين منصور	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	٨٦٨- الشعر الفارسي المعاصر
شوقى جلال	روين دونيار وآخرون	٨٦٩- تطور الثقافة
حمادة إبراهيم	نخبة	٨٧٠- عشر مسرحيات (ج ١)
حمادة إبراهيم	نخبة	٨٧١- عشر مسرحيات (ج ٢)
محسن فرجاني	لاوتسو	٨٧٢- كتاب الطاو

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صاخر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج ١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج ٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات في الموسيقى الشرقية (ج ١)	هنري جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع في العربية	موريتس شتيتشيدر	صلاح محبوب
٨٧٨-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال في صحراء الجزيرة العربية (ج ١، مج ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستغيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغاني شيراز (ج ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغاني شيراز (ج ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوذ	محمد وشذى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عروكي
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر نيب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغى	مخومقلى فراغى	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتوود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإتصال الحر	يوترانت راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادي القوضى (رواية)	فريدريش نورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	بيفيد جورج هوجارث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدي
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج ١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج ٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار في القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جيرو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديفيد كورنر هوى	خالد حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	چووست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. ليندس	مى رفعت سلطان

غبار النجوم	جون جريين	عزت عامر	٩١١-
ترجمات يحيى حقى (جا) (ميراث الترجمة)	روايات مختارة	يحيى حقى	٩١٢-
ترجمات يحيى حقى (جا) (ميراث الترجمة)	مسرحيات مختارة	يحيى حقى	٩١٣-
ترجمات يحيى حقى (جا) (ميراث الترجمة)	ديزمووند ستيوارت	يحيى حقى	٩١٤-
المرأة فى أثينا: الواقع والقانون	روجر جست	منيرة كروان	٩١٥-
الجدلية الاجتماعية	أنور عبد الملك	سامية الجندي وعبدالعظيم حماد	٩١٦-
موسوعة كمبريدج (جا)	نخبة	إشراف: أحمد عثمان	٩١٧-
موسوعة كمبريدج (ج١)	نخبة	إشراف: فاطمة موسى	٩١٨-
موسوعة كمبريدج (ج٢)	نخبة	إشراف: رضوى عاشور	٩١٩-
خليل جبران: حياته وعمله	جين جبران و خليل جبران	فاطمة قنديل	٩٢٠-
الله الأمر (رواية)	أحمدو كوروما	ثرثا إقبال	٩٢١-
الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى	ميكيل دى إيبالنا	جمال عبد الرحمن	٩٢٢-
ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	ناظم حكمت	محمد حرب	٩٢٣-
حتشيسوت: عظمة وسحر وغموض	كريستيان دى روش نويلكور	فاطمة عبد الله	٩٢٤-
رمسيس الثانى: فرعون المعجزات	كريستيان دى روش نويلكور	فاطمة عبد الله	٩٢٥-
ترحل فى صحراء الجزيرة العربية (ج١، ج٢)	تشارلز نوتى	صبرى محمد حسن	٩٢٦-
ترحل فى صحراء الجزيرة العربية (ج١، ج٢)	تشارلز نوتى	صبرى محمد حسن	٩٢٧-
سجون الضوء	كيتى فرجسون	عزت عامر	٩٢٨-
نشأة الإنسان (مج١)	تشارلس داروين	مجدى المليجى	٩٢٩-
نشأة الإنسان (مج٢)	تشارلس داروين	مجدى المليجى	٩٣٠-
نشأة الإنسان (مج٣)	تشارلس داروين	مجدى المليجى	٩٣١-
حلق السحر فى نطق الشعر (ميراث الترجمة)	رشيد الدين العمري	إبراهيم الشواربى	٩٣٢-
اللاعقلانية الشعرية	كارلوس بوسونيو	على منوفى	٩٣٣-
محنة الكاتب الأفريقى	تشارلز لارسون	طلعت الشايب	٩٣٤-
تاريخ الفن الألمانى	فولكر جيبهارت	علا عادل	٩٣٥-
بيولوجيا الجحيم	إد ريجيس	أحمد فوزى عبد الحميد	٩٣٦-
هيا نحكى (قصص أطفال)	أحمد ندالو	عبدالحى سالم	٩٣٧-
الأنطولوجيا السياسية عند مارتى هيجر	بيير بورديو	سعيد العليمى	٩٣٨-
سجن العقل	ستيفن چونسون	أحمد مستجير	٩٣٩-
اليابان الحديثة: قضايا وآراء	مجموعة مقالات	علاء على زين العابدين	٩٤٠-
الجماليات لم يولد بعد	أى كوينى أرماء	صبرى محمد حسن	٩٤١-
القرن الجديد	إريك هويسبوم	وجيه سمعان عبد المسيح	٩٤٢-
لقاء فى الظلام	مختارات من القصص الأفريقية	محمد عبد الواحد	٩٤٣-
الكونتراباص	پاتريك زوسكيند	سمير جريس	٩٤٤-
أحلام يقظة جوال منفرد (ميراث الترجمة)	جان چاك روسو	ثرثا توفيق	٩٤٥-
الزار ومظاهره المسرحية فى إثيوبيا	ميشيل ليريس	محمد مهدى قناوى	٩٤٦-
ما وراء المعنى والحقيقة	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة	٩٤٧-
أفريقيا منذ عام ١٨٠٠	رونالد أوليفر وأنتونى أتمور	فريد چورج بوى	٩٤٨-

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٣١٥٢ / ٢٠٠٦

المجلس
الأعلى
للثقافة



يعالج هذا الكتاب تاريخ القارة الأفريقية منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى مطلع الألفية الثالثة ، ويقع في ثلاثة أجزاء ، يحاول الجزء الأول دراسة تاريخ القارة قبل الفترة الاستعمارية ، بينما يختص الجزء الثاني بدراسة تقسيم القارة ونظام الحكم الاستعماري ، أما الجزء الثالث فيركز على تاريخ الدول الأفريقية الحديثة ، وطوال قرنين من الزمان يركز الكتاب على القارة الأفريقية باعتبارها محور الدراسة ويهتم المؤلفان باستمرارية التاريخ الأفريقي والتغيرات التي حدثت طوال هذه الفترة وتغطي هذه الطبعة ولأول مرة الأحداث التاريخية حتى منتصف عام ٢٠٠٣ ، دراسة أحداث الحرب الباردة والوضع الدولي الجديد والقارة والصراعات التي يشهدها أسيااد الحرب للسيطرة على موارد القارة النادرة ، أنه مرجع أساسي وشامل ومفصل لأحداث قرنين من الزمان تحت سقف كتاب واحد .

Bibliotheca Alexandrina



0636916

افريقيا منذ عام 1800 - 1800

Price: 27.00

L.E.



الغلاف : هشام نوار